

المملكة العثمانية

دَوْلَةُ إِسْلَامِيَّةٍ مُفَرَّدَةٍ عَلَيْهَا

تأليف

أستاذ دكتور

عبد العزيز محمد الشناوي

الجزء الثاني



مكتبة الأنجلو المصرية

الدَّولة العُثمانيَّة

دولة إسلامية مفترى عليها

تأليف

أستاذ دكتور عبدالعزيز محمد الشناوى
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر ورئيس قسم التاريخ
بكلية الدراسات الإنسانية بجامعة الأزهر
فرع البنات بالقاهرة

الجزء الثانى

الناشر

مكتبة الأنجلو المصرية

١٦٥ شارع محمد فريد - القاهرة

اسم المكتسب: الدولة العثمانية (الجزء الثاني)

اسم المؤلف: د/ عبد العزيز الشناوي

اسم الناشر: مكتبة الأجلو المصرية

اسم الطابع: مطبعة محمد عبد الكريم حسان

رقم الأيداع: 9326 لسنة 2004

الترقيم الدولي: 2-2046-05-977-S-B-N-I

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا »

مقدمة الجزء الثانى

استكمل المؤلف فى هذا الجزء ، الرسالة التى حددها لنفسه منذ الصفحات الأولى من الجزء الأول من هذه الموسوعة الثرية المعنونة بـ «الدولة العثمانية - دولة إسلامية مفترى عليها» ، حيث يعاود رفع ماحاق بتاريخ هذه الدولة من غبن وظلم ..

يقع هذا الجزء فى عشرة فصول ، تحكمها منظومة ثلاثية الأبعاد ، يتركز بعدها الأول فى مناقشة تلك الإدعاءات والصور التى صاحبيتها من حملات التشهير فى الفصول من الأول إلى الرابع ، بينما يتناول البعد الثانى خدمات الدولة العثمانية للإسلام والعروبة فى الفصول من الخامس إلى السابع .. ويناقش البعد الثالث الآراء المحايدة التى قيلت فى حكم السلطان العثمانى عبدالحميد الثانى فى الفصول من الثامن إلى العاشر .

يناقش المؤلف فى البعد الأول بتحليل ثاقب حقيقة ماقيل من حملات التشهير ، وكيف أنها تركزت على ادعاءات تركز على أن الدولة العثمانية قد حرصت على حرمان الولايات العربية من علمائها المبرزين وعمالها الفنيين المهرة ، وأنها لم تحقق إلا نجاحاً محدوداً فى الانفتاح بين الولايات العربية وأوروبا ، وقد ركز المؤلف على مناقشة جوهر الأسباب فيما ذهب إليه المتحاملون من باحثين ودارسين ومستشرقين ؛ إذ تناول مختلف العوائق الثقافية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية ؛ مدحاً كل هذه الدعاوى بما حققته الولايات العربية كمصر وبلاد الشام والعراق من صلات مكثفة بالعالم الخارجى ، وكيف أنه كانت هناك عوامل انفتاح متعددة على العالم الخارجى ، أسهمت للتجارة والسياحة إلى حد كبير فى ازدهارها . كما يبين المؤلف فى هذا البعد حقيقة نشأة قصة «المريض المشرف على الموت» باعتباره وصفاً لزم الدولة العثمانية ، وكيف جانبت حملات التشهير الصواب ، حين انطلقت فى سياق خاطئ ، غير معبر بصدق عن حقيقة ماتقوم به هذه الدولة .

وركز المؤلف فى البعد الثانى على ماقامت به الدولة العثمانية من خدمات جليلة للإسلام والعروبة ، تركزت أول ماتركزت فى حماية الأماكن الإسلامية المقدسة من مخططات الصليبية البرتغالية ، والمحافظة على إسلام وعروبة شمالي إفريقيا ، وكيف أنها أعادت تونس إلى رحاب الكتلة الإسلامية من بين برائن إسبانيا ، وأنقذت

طرابلس من فرسان القديس يوحنا . كما يذكر المؤلف نجاح الدولة العثمانية فى إيجاد وحدة على الطبيعة بين الولايات العربية ، وأنها أبعدت الزحف الاستعماري عن الوطن العربي ، طوال فترة تراوحت بين ثلاثة وأربعة قرون . ويتمثل أعظم إنجاز لهذه الدولة - فى هذا الصدد - فى منع هذه الدولة لليهود من استيطان سيناء ، وإحباط محاولتهم فى إقامة وطن قومي لهم فى فلسطين ، ومنعها عقد مؤتمرات صهيونية فى فلسطين ، رغم ما مورس عليها من ضغط من الدول الأجنبية .

وفيما يتعلق بالجانب المحايد والموضوعي فى تناول حكم السلطان عبدالحميد الثانى ، فقد عمد المؤلف إلى ذكر حقيقة الأسباب والدوافع وراء حملات التشهير المتعددة التى تعرض لها السلطان عبدالحميد الثانى ، مستنثجاً من خلال ذلك طبيعة الدوافع والأسباب التى سبقت اعتلاء السلطان العرش ، ومدى ما كان يتمتع به من دبلوماسية شديدة وثاقب نظر فى معالجة المتاعب والمعوقات التى لاقاها فى بداية توليه الحكم ، وكيف أن ذلك أسهم إلى حد كبير فى قدرته على تحقيق ماورد فى البعد الثانى من إنجازات للإسلام والعروبة ..

إن الكتاب الذى بين يديك - باعتباره الجزء الثانى من سلسلة الدولة العثمانية ، دولة إسلامية مفترى عليها - ليحلل بعمق وموضوعية ومثابرة ، تحسب للمؤلف ، تجعلنا أمام محاولة جادة لاستخلاص مافى تاريخ هذه الدولة من مغالطات وخطأ للحقائق .. لكى نرى تاريخ هذه الدولة بعين حيادية ، لاتيهول الأخطاء ولاتستهيئ بالإنجازات .

الناشر

الفهرست

الفصل الأول

١٧ - ٦٤ صور من حملات التشهير بالدولة (١)

الفكرة وراء حملات التشهير (١٧) .

نماذج لحملات التشهير :

أولاً : حرمان الولايات العربية من علمائها المبرزين وعمالها المهرة
الفنيين (١٨) .

ثانياً : عزلة الولايات العربية عن العالم (٢٢) البرتغاليون يستهدفون
تخريب مكة المكرمة والمدينة المنورة (٢٣) السلطان سليم يعقد
معاهدة مع جمهورية البندقية لتشجيع البنادقة على ممارسة نشاطهم
في مصر (٢٤) - معاهدة البندقية رد علمي وعلمي على
المتحاملين على الدولة العثمانية (٢٩) معاهدة عام (١٥٢٨)
(٣٠) عرض وتحليل لمعاهدة (١٥٣٥) (٣١) الدولة العثمانية
تستجيب لمساعي إنجلترا لعقد معاهدات تجارية معها (٣٦) التعريف
بمصطلح معاهدات الامتيازات الأجنبية (٣٩) سريان معاهدات
الامتيازات الأجنبية على الولايات العربية (٤٠) نجاح محدود
لمساسة الانفتاح بين الولايات العربية وأوروبا (٤١) عوائق دينية
(٤٢) عوائق اجتماعية (٤٢) عوائق ثقافية (٤٣) عوائق
اقتصادية (٤٤) عوائق سياسية (٤٦) .

أولاً : مصر

صلوات عربية وإفريقية وآسيوية مكثفة بدلاً من

العزلة النسبية عن أوروبا (٤٦)

بريطانيا وفرنسا تعقدان معاهدات تجارية مع الأمراء
المماليك في مصر (٤٨) فرنسا تعقد ثلاث اتفاقيات تجارية مع
مصر (٥١) .

ثانياً : بلاد الشام أسباب اتصال بلاد الشام بأوروبا إبان الحكم العثماني (٥٢)

عاملان رئيسيان أسهما في قيام اتصال وثيق ومستمر بين بلاد الشام وأوروبا طوال الحكم العثماني (٥٢) عوامل حاسمة أخرى : التنوع البشري (٥٣) تنوع اللغوي (٥٣) التنوع الديني (٥٤) الطوائف المسيحية (٥٦) تعدد البعثات التنصيرية والديورية وأهدافها (٥٩) اليهود (٦٠) جهود الدولة العثمانية لإلغاء معاهدات الامتيازات الأجنبية (٦٣) إلغاء نظام الامتيازات الأجنبية في ولايات الشرق العربي الآسيوي (٦٤) إلغاء نظام الامتيازات الأجنبية في مصر بعد أكثر من ثلاثين عاماً بعد إلغائه من الولايات العربية في غربي آسيا (٦٤) .

الفصل الثاني

صور من حملات التشهير بالدولة (٢)

٦٥ - ١٠٢

مناقشة عزلة العراق

عوامل انفتاح العراق على العالم الخارجي (٦٥) التنظيم العثماني للعراق عقب فتحه (٦٥) .

أولاً : إعادة مرور شطر لا يستهان به من التجارة الشرقية عبر العراق (٦٦) ازدهار البصرة (٦٨) تصدير الخيول العربية من البصرة إلى الهند (٧٠) إحصائية عن تصدير الخيول (٧١) دراسة تحليلية لإحصائية الخيول (٧٢) تصدير معظم محصول التمور من البصرة إلى الخارج (٧٣) إحصائية عن قيمة التمور المصدرة من البصرة (٧٣) دراسة تحليلية لإحصائية التمور (٧٣) انتعاش بغداد (٧٤) العراق «بؤرة» لطرق القوافل (٧٥) المغامرون والسائحون الأجانب في العراق (٧٧) إنشاء خطوط ملاحية بخارية في أنهار العراق

تتصل بخارجه (٧٧) أهداف بريطانيا من إنشاء ملاحه بخارية فى أنهار العراق (٧٧) جهود بريطانيا لإنشاء خطوط ملاحه بخارية فى أنهار العراق (٧٨) رحلة شيزنى الأولى (٧٨) مشكله استصدار فرمان من السلطان (٨٠) مشكله أخرى تواجهها البعثة (٨١) وصول البعثة إلى ساحل الشام (٨١) اعتراض مصر (٨٢) بدء تحرك الباخرتين (٨٤) مصاعب البعثة فى رحلتها إلى البصرة : غرق الباخرة «دجلة» (٨٤) البعثة البريطانية تتجاوز اختصاصاتها (٨٦) دراسة تحليلية لفرمان عام (١٨٣٤) (٨٦) اعتراض فرنسا (٨٨) بواخر تحصل العلم البريطانى وتعمل فى نهر دجلة (٩٠) قرار المصدر الأعظم سنة (١٨٤٦) (٩٢) إنشاء أول شركة للملاحه البخارية فى العراق (٩٣) خطاب المصدر الأعظم إلى والى بغداد عام ١٨٦١ لمساندة شركة لينش (٩٤) غرق «دجلة» أخرى (٩٧) حادث الباخرة «خليفة» (٩٧) الاعتراض على حق البواخر فى قطر صنادل (٩٨) محاولة الحكومة العثمانية منع الملاحه البريطانية فى نهر دجلة عام (١٨٨٣) (٩٩) النشاط العثمانى المضاد (١٠٠) مد خطوط للاتصالات البرقية عبر العراق ليربط أوروبا بالهند (١٠١) .

الفصل الثالث

١٠٣ - ١٢٢ صور من حملات التشهير بالدولة (٣)

مناقشة عزلة العراق (تتمة)

ثانياً : السياحه الدينية فى العراق : العتبات المقدسة (١٠٣) إدارة أضرحة العتبات المقدسة (١٠٥) تدفق شيعة فارس على العتبات المقدسة (١٠٥) شيعة فارس يصحبون معهم جثث أقاربهم لدقنها فى العتبات المقدسة (١٠٧) «الهنود المتقاعدون» فى العتبات المقدسة (١٠٨) وصية ملك أروى

- فى الهند (١٠٩) زيارات اليهود السنين للعراق (١١٠) .
 ثالثاً : التنوع البشرى والدينى فى العراق (١١١) نشاط البعثات
 التصيرية (١١٢) سؤال يفرض نفسه فرضاً (١١٦) .
 رابعاً : الصراع بين الدولة العثمانية وفارس على العراق (١١٧)
 خلاصة موضوع عزلة الأقاليم العربية (١٢١) .

الفصل الرابع

١٢٣ - ١٤٦ صور من حملات التشهير بالدولة (٤)

السلطان العثمانى رجل أوروبا المريض

نشأة قصة للمريض المشرف على الموت (١٢٣) مسئولية
 أوروبا (١٢٥) إجراء مذابح دينية عامة بين رعايا الدولة المسيحيين
 (١٢٦) بواعث الدولة على إجراء المذابح الدينية (١٢٧) المذابح
 الجماعية بين المسلمين والمسيحيين فى اليونان (١٢٨) مذابح
 المسلمين فى بلغاريا (١٣١) هياج رأى العام الإسلامى : المطالبة
 بالمعاملة بالمثل (١٣٤) خطف فتاة مسيحية اعتنقت الإسلام (١٣٥)
 عقد مؤتمر دولى فى برلين لبحث حماية رعايا الدولة المسيحيين
 (١٣٦) تشهير جلاستون بالدولة العثمانية (١٣٧) تحليل موقف
 جلاستون (١٣٩) مذكرة بريطانيا للدولة العثمانية : عرض وتحليل
 ونقد (١٤٢) نتائج حملات جلاستون التشهيرية بالدولة
 العثمانية (١٤٥) .

الفصل الخامس

١٤٧ - ١٨٨ خدمات الدولة العثمانية للإسلام والعروبة (١)

أولاً : حماية الأماكن المقدسة الإسلامية

من مخططات الصليبية البرتغالية (١٤٧)

حماية المسجد الحرام والمسجد النبوى والمسجد الأقصى (١٤٧)

ثانياً : الدولة تحافظ على إسلام وعروبة شمالي إفريقيا (١٤٩)

الدولة تبسط سيادتها على ثلاثة أقاليم في شمالي إفريقية (١٤٩)
نشأة الأسطول العثماني : الفتوحات العثمانية الأولى كانت برية
(١٥١) كان إنشاء الأسطول ضرورة حربية للعثمانيين (١٥٢) البندقية
تنشئ إمبراطورية استعمارية في الليفانت (١٥٢) القائد العام للأسطول
(١٥٤) تنظيمات البحرية (١٥٦) وحدات الأسطول (١٥٦) تطوير
الأسطول العثماني (١٥٨) مصطلحات الأسطول العثماني ذات أصول
إيطالية (١٦٠) الأسطول العثماني عبر تاريخ الدولة (١٦٣) نشاط
مكلف للأسطول على عهد أبي الفتح بعد فتح القسطنطينية (١٦٤)
الأسطول على عهد السلطان سليمان المشرع (١٦٧) النشاط
الحربي للأسطول العثماني في بحر إيجه عام (١٥٣٧) (١٦٨) نشاط
الأسطول على سواحل دلماشيا في البحر الأدرياتي سنة (١٥٣٨)
(١٦٩) انتصار بحري ساحق للأسطول في معركة پريغيزا
(١٦٩) امتداد نشاط الأسطول إلى الحوض الغربي للبحر
المتوسط (١٧٠) هجوم الأسطولين العثماني والفرنسي على
ثغر نيس (١٧١) الأسطول العثماني يتخذ من طولون قاعدة حربية
له (١٧٢) هزائم الأسطول العثماني (١٧٤) مسلمو الأندلس
يستجدون بالدولة العثمانية (١٧٦) أهداف البرتغاليين والإسبانيين
من نقل الحرب الصليبية إلى شمالي إفريقية (١٧٧) تفاقم الخطر
الصليبي الإسباني على شمالي إفريقية (١٧٧) مسلمو الأندلس
وشمالي إفريقية يستغيثون بالدولة العثمانية (١٧٩) :

(أ) أهل غرناطة يستجدون بالسلطان محمد أبي الفتح (١٧٩).

(ب) أهل الأندلس يستجدون بالسلطان أبي يزيد الثاني (١٨٠).

سكان شمالي إفريقية مجاهدون إسلاميون وليسوا قراصنة :
مناقشة فرية أُلصقت بهم (١٨١) الدولة العثمانية ومجاهدو شمالي
إفريقية (١٨٢) الدولة العثمانية وخير الدين (١٨٣) سكان مدينة
الجزائر يرسلون رسالة استغاثة للسلطان سليم الأول (١٤) دراسة
تحليلية للوثيقة (١٥) استجابة سليم الأول لاستغاثة أهل مدينة
الجزائر (١٦) صعوبة موقف خير الدين (١٨٧) .

أولا : الجبهة الإسبانية لطرد الإسبانين من الجيوب التي أقاموها على ساحل الجزائر (١٨٧) .

ثانياً : الجبهة الداخلية لتوحيد المغرب الأوسط (١٨٨) .

خير الدين يجعل الجزائر قاعدة عثمانية لصد الهجوم الإسباني (١٨٨) .

الفصل السادس

خدمات الدولة العثمانية للإسلام والعروبة (٢) ١٨٩ - ٢٢٨

الدولة العثمانية تحافظ على إسلام وعروبة

شمالي إفريقية (تتمة) (٢)

الدولة تعيد تونس إلى رحاب الكتلة الإسلامية (١٨٩)

السلطان سليمان يعهد إلى خير الدين بفتح تونس (١٨٩) استيلاء شارل الخامس على تونس (١٩٠) هزيمة منكرة للإمبراطور (١٩١) أمالي الجزائر يبعثون برسالة إلى السلطان عقب هزيمة الإمبراطور يحددون فيها مطالبهم (١٩٣) الإسبانين ينقلون نشاطهم الحربي إلى تونس (١٩٤) العليج على ومحاولة إعادة الحكم الإسلامي إلى إسبانيا (١٩٥) تونس تعود إلى رحاب الكتلة الإسلامية العثمانية (١٩٨) أهل طرابلس يستغيثون بالدولة العثمانية من فرسان القديس يوحنا : طرابلس تدخل في رحاب الدولة العثمانية (١٩٨) هبوط حدة الصراع بين الدولة العثمانية وإسبانيا (٢٠١) إخفاق الدولة العثمانية في بسط سيادتها على مراكش (٢٠٢) .

ثالثاً : إيجاد وحدة على الطبيعة

بين الولايات العربية (٢٠٥)

إيجاد وحدة من نوع خاص بين الولايات العربية (٢٠٥) عوامل هذه الوحدة وأمثلة عليها (٢٠٦) تفتتت العالم العربي بعد سقوط الدولة العثمانية (٢١٣) تفتتت سوريا ولبنان (٢١٤) إنشاء كيانات سياسية في شرق الأردن (٢١٥) فصل شرق الأردن عن فلسطين (٢١٦) العراق (٢١٧) نجد (٢١٧) .

رابعاً : إبعاد الزحف الاستعماري عن الوطن العربي

طوال فترة تراوحت بين ثلاثة وأربعة قرون (٢١٨)

بقي الوطن العربي بعيداً عن الزحف الأوروبي الاستعماري مابقيت الدولة قوية مهيبة الجانب (٢١٨) احتلال فرنسا لنيابة الجزائر عام (١٨٣٠) (٢١٨) للحرب الباردة بين الدولة العثمانية وفرنسا لاسترداد الجزائر (٢٢١) بسط الحماية الفرنسية على تونس (١٨٨١) (٢٢٣) الاحتلال البريطاني لمصر (١٨٨٢) (٢٢٣) تساقط معظم الولايات العربية قبيل الحرب العالمية الأولى وفي أثنائها تحت الاستعمار الأوروبي (٢٢٤) .

خامساً : الدولة تضمن الهدوء والاستقرار على الولايات العربية (٢٢٥) .

سادساً : الدولة تمنع انتشار المذهب الشيعي إلى ولاياتها العربية (٢٢٨) .

الفصل السابع

خدمات الدولة العثمانية للإسلام والعروبة (٣) ٢٢٩ - ٢٥٧

سابعاً : الدولة تمنع اليهود من استيطان سيناء (٢٢٩) .

ثامناً : الدولة تحد من هجرة اليهود إلى فلسطين (٢٣٥) .

الدولة العثمانية تعاصر مولد ونشأة الحركة الصهيونية (٢٣٥) الدولة ترفض طلب يهود الروسيا الهجرة إلى فلسطين (٢٣٦) اليهود ينتهجون سياسة التحدى الباب العالي (٢٣٧) مؤتمر كاتونيز (٢٣٨) الدولة العثمانية تطيل مدة إقامة اليهود في فلسطين إلى ثلاثة أشهر (٢٣٨) الوضع الإداري لبيت المقدس قبل السلطان عبدالحميد الثاني (٢٣٩) عبد الحميد يدخل تعديلاً على الوضع الإداري لبيت المقدس (٢٤١) المستعمرات الصهيونية الأولى (٢٤١) التمويل المالي الأوروبي للمستعمرات (٢٤١) تفسير قيام المستعمرات الصهيونية الأولى (٢٤٢) السلطان عبدالحميد يواجه زعيماً صهيونياً خطيراً (٢٤٤) اتساع نطاق الحركة الصهيونية (٢٤٥) تجديد فرض القيود على هجرة اليهود إلى فلسطين عام (١٩٠٠) (٢٤٦) مشروع

صهيوني يعرضه هرتزل على السلطان (٢٤٦) عقد أول مؤتمر صهيوني في فلسطين سنة (١٩٠١) (٢٤٨) الدولة تمنع عقد مؤتمرات صهيونية في فلسطين (٢٤٩) مشروعات صهيونية لغزو فلسطين مالياً ويشرياً (٢٥٠) عبدالحميد يرفض إنشاء جامعة عبرية في فلسطين (٢٥٠) نقطة الضعف في سياسة عبدالحميد تجاه المعاملة الفلسطينية (٢٥٤) .

الفصل الثامن

آراء محايدة في

حكم السلطان عبدالحميد الثاني (١) ٢٥٩ - ٢٧٧

إسفاف في إلصاق التهم بعبدالحميد (٢٥٩) الانقلاب الدستوري (٢٦٠) الانقلاب العسكري (٢٦١) وسائل الإرهاب التي لجأ إليها عبدالحميد (٢٦٢) حادث قصر چراغان (٢٦٣) إحراق الباب العالي (٢٦٤) من ذيل حادث قصر چراغان (٢٦٤) محاولة أخرى للقيام بانقلاب (٢٦٥) مناقشة أسر الشريف الحسين وعائلته في إستانبول (٢٦٧) أهداف حملات التشهير بالسلطان عبدالحميد (٢٧٠) .

الفصل التاسع

آراء محايدة في

حكم السلطان عبدالحميد الثاني (٢) ٢٧٩ - ٣٠١

حقيقتان هامتان (٢٧٩) الحقيقة الأولى (٢٧٩) نظريتان استعماريّتان في السياسة الدولية (٢٧٩) روسيا تبتلع معظم آسيا الوسطى ومعظم القوقاز (٢٨٠) روسيا تحتل بعض الأراضي الأفغانية (٢٨١) تقسيم فارس إلى منطقتي نفوذ روسي وبريطاني (٢٨١) محاولة روسيا إنشاء مستعمرة لها في شرقي إفريقيا (٢٨٢) خصائص استعمار إفريقية (٢٨٣) الاستعمار البريطاني : حركة الجامعة البريطانية في إفريقية (٢٨٥) الاستعمار الفرنسي (٢٨٨)

نزول ألمانيا وإيطاليا وبلجيكا ميادين الاستعمار (٢٩٠) أولاً :
 الاستعمار الألماني (٢٩٠) ثانياً : الاستعمار الإيطالي (٢٩١) مكافحة
 الإجمام من أسباب الاستعمار الإيطالي (٢٩١) عوامل أخرى دفعت
 إيطاليا إلى الاستعمار (٢٩٢) ثالثاً : الاستعمار البلجيكي : مؤتمر
 برلين الإفريقي (١٨٨٤-١٨٨٥) (٢٩٤) التنافس الاستعماري على
 منطقة الخليج العربي (٢٩٦) يواذر تسلسل استعماري أمريكي (٢٩٩)
 اضمحلال الدولة العثمانية قبل ارتقاء عبدالحميد الثاني العرش (٣٠١)
 تسابق الدول الأوروبية على امتلاك الولايات العثمانية (٣٠٣) لم تكن
 الدول الاستعمارية قد بلغت حد التشبع إبان حكم عبدالحميد (٣٠٤)
 وماتل الدول الاستعمارية في بسط سيطرتها (٣٠٥) .

الفصل العاشر

آراء محايدة في

حكم السلطان عبدالحميد الثاني (٣) ٣٠٧ - ٣٥١

الحقيقة الثانية (٣٠٧) دبلوماسية عبدالحميد لإحباط مؤتمر
 الآستانة (١٨٧٦-١٨٧٧) (٣٠٩) عبدالحميد يلقى إنذاراً من الدول
 (٣١٢) الروسية تعلن الحرب رسمياً على الدولة (٣١٣) الأحداث
 السياسية والدينية في أثناء الحرب (٣١٤) من أخطاء السلطان
 عبدالحميد (٣١٥) نجاح الدبلوماسية الروسية في أثناء الحرب
 (٣١٦) أمجاد عسكرية حققتها القوات العثمانية (٣١٧) عبدالحميد
 يطلب وساطة الدول لدى قبصر روسيا لوقف إطلاق النار (٣١٨)
 ظهور مشكلتين لم تكونا في حسابان عبدالحميد (٣١٩) .

(١) رغبة اليونان في دخول الحرب ضد الدولة (٣١٩) الروسية
 تعرض على اليونان الاشتراك في الحرب (٣٢١) .

(٢) ثورة كريت (٣٢٢) .

وصول القوات الروسية إلى منواحي إستانبول (٣٢٤) شروط
 جائزة فرضتها روسيا لعقد هدنة (٣٢٤) بريطانيا ترسل
 أسطولها إلى البوسفور (٣٢٤) روسيا تطلب إرسال أسطولها إلى

المضايق ودخول جيشها في إستانبول (٣٢٥) ضغط مهين مارسه روسيا على الدولة العثمانية (٣٢٦) معاهدة سان ستفانو، عرض وتحليل ونقد (٣٢٧) إخفاق الدبلوماسية الروسية بعد الحرب (٣٣٢) اعتراض الدول على معاهدة سان ستفانو (٣٣٢) المطالبة بعقد مؤتمر دولي لإعادة النظر في معاهدة سان ستفانو (٣٣٣) مؤتمر برلين الأوروبي (١٨٧٨) (٣٣٤) معاهدة برلين (١٨٧٨) (٣٣٤) .

أولاً : خسائر الدولة في أوروبا (٣٣٥) .

ثانياً : خسائر الدولة في آسيا (٣٣٧) .

ثالثاً : خسائر الدولة في حوض البحر المتوسط (٣٣٨) .

رابعاً : خسائر الدولة في إفريقية (٣٤١) تونس (٣٤١) احتلال مصر (٣٤٦) مطامع إيطاليا في ولايتين عثمانيتين : تونس ومصر (٣٤٨) مجموعة كوارث تنزل بالدولة في مستهل حكم عبدالحميد (٣٥٠) أكذوبة رئيس وزراء بريطانيا (٣٥٠) أوروبا لم تعط الدولة العثمانية فرصة استجمام لالقاط أنفاسها (٣٥١) .

* * *

الفصل الأول

صور من حملات التشهير بالدولة (١)

الفكرة وراء حملات التشهير :

أشرنا في مستهل الفصل الأول من هذه الدراسة إلى بعض الملامح العامة لحملات التشهير التي تعرضت لها الدولة العثمانية في مسيرتها الطويلة عبر العصور والأدهار والأحقاب من كبريات الدول الأوروبية الاستعمارية والبابوية في روما والصهيونية العالمية وغيرها من القوى الصاعدة معها . واستهدفت هذه الحملات التشهيرية للنيل من الدولة : سلطاناً مسلماً ، وحكومة إسلامية ورعايا مسلمين . وأسهم في هذه الحملات رجال الحكم والسياسة والدين والمؤرخون والباحثون وغيرهم في أوروبا . وردد عدد من أقرانهم العرب في العصور المتأخرة جوانب كثيرة من هذه الحملات بحيث استقرت في أذهان الكثيرين مفاهيم خاطئة عن الدولة .

وكان مرد هذه الحملات إلى أن الدولة العثمانية كانت أول دولة إسلامية في التاريخ استطاعت أن تفتح الجزء الجنوبي الشرقي في أوروبا . وكانت تحارب في أول الأمر في جبهتين في وقت واحد : جبهة أناضولية للقضاء على الدول المسيحية والكنائس المسيحية المتناثرة وقتذاك في شبه جزيرة الأناضول ، وجبهة أوروبية بعد أن عبرت جيوشها البحر إلى أوروبا وانتقلت من نصر إلى نصر تكتسح الأقاليم الأوروبية وتنساب غزياً في سهول العجر وتدخل عاصمتها بودابست وتقرب من مشارف فيينا عاصمة النمسا . وإذا كانت قد طويت صفحة الحكم الإسلامي في الأندلس بعقد معاهدة غرناطة عام ١٤٩١ ، فإن الدولة العثمانية قد استبدلت بهذه الهزيمة انتصارات إسلامية مؤزرة على أرض القارة الأوروبية وحوض البحر المتوسط وشمال إفريقيا حيث نشب صراع صليبي عنيف حمل لواء البرتغاليين والإسبانيين ، وابتغوا من ورائه الاستيلاء على أقاليم شمالية إفريقية وتحويل سكانها إلى المسيحية . ونظر الأوروبيون إلى الدولة على أنها دولة إسلامية حربية من الطراز الأول تروم تحويل دار الحرب إلى دار الإسلام^(١) . ومن هنا نبئت حملات التشهير بالدولة سواء وهي في أوج مجدها أو في

(١) يقسم الفقه الإسلامي العالم إلى قسمين : دار الإسلام ودار الحرب . وتشمل الأولى البلاد التي يكون للمسلمين ولاية عليها . وتضم إلى جانب المسلمين أشخاصاً من غير المسلمين هم «الذميون والمستمنون» ويستشرح مدلولهما عند الكلام على معاهدات الامتيازات التي عقدتها الدولة العثمانية مع الدول الأوروبية . أما دار الحرب فتشمل البلاد التي ليس للمسلمين ولاية عليها ، ولتقام فيها أكثر شعائر الإسلام .

عصر اضمحلالها أو بعد زوالها . وقد امتدت هذه الحملات إلى ممتلكات الدولة فى أوروبا وإلى ولاياتها العربية . وسنعرض نماذج لهذه الحملات من كلا النوعين .

نماذج حملات التشهير :

أولاً: حرمان الولايات العربية من علمائها المبرزين وعمالها المهرة الغنيين

كانت من أولى الحملات التى وجهت ضد الدولة العثمانية أن السلطان سليم الأول بعد أن فتح مصر عام ١٥١٧ أمر بترحيل أفواج كثيفة العدد من صفوة علماء الفقه الإسلامى وأصوله ومذاهبه وعلوم القرآن الكريم والتفسير والحديث والتوحيد والأحكام والإفتاء ، وغيرهم من كبار الموظفين والتجار والصناع من حى خان الخليلى وموظفى الحسابات الحكومية ورجال الأعمال . وكانوا يضمون عدداً من المسيحيين من ذوى المهارات للخاصة . وقد بلغ عددهم زهاء ألف وثمانمائة رجل ، أنزلتهم السلطات العثمانية تباعاً فى سفن نيلية شقت طريقها إلى الإسكندرية ، ومنها استقلوا السفن العثمانية إلى إسطنبول .

وترحيل هذه الثروة البشرية إلى إسطنبول واقعة صحيحة لامراء فيها ، ذكرها المؤرخ المصرى العملاق محمد بن أحمد بن إياس ، وكان معاصراً لأحداث الفتح العثماني لمصر ، وكان لا يكتفى بتقديره للعثمانيين بعامة والسلطان سليم الأول بخاصة . ونظر إليهم على أنهم كانوا السبب المباشر فى انقضاء حكم دولة المماليك الشراكسة ، وكان يتبوأ فيها مكاناً عالياً ، وقد أضاف ابن إياس إلى واقعة ترحيل المصريين إلى إسطنبول نتيجة مهمة هى «تعمل فى مصر نحو خمسين صنعة ، وتعلت منها أصحابها ، ولم تعمل فى أيامه بمصر» (١) .

وتلقت فريق من المؤرخين والباحثين الأوروبيين هذه الحقيقة التاريخية دون تححيص أو متابعة لما كتبه ابن إياس بعد ذلك فى هذا الموضوع بالذات . والواقع أن هذه الحقيقة كانت قصيرة الأمد لم تطل أكثر من ثلاث سنوات . والجملة الأخيرة التى اختتم بها ابن إياس عبارة تفيد هذا المعنى كما ستوضح بعد قليل . ولكن أقام المتحاملون صروحاً من الخيال الواسع ، فقالوا إن حرمان البلاد العربية من ذلك الرصيد البشرى المتميز والمتمايز قد أضرب بالحياة الفكرية فى مصر وبر الشام ، وأعاق النشاط المهنى والحرفى فيها ، وأنه عاد بالنفع الجزيل على عاصمة الدولة . وذهب بعضهم إلى القول بأنه كان نوعاً من النفي L'exil ، وأن العرب الذين فرصت عليهم الإقامة الجبرية فى إسطنبول كانوا فى عداد المنفيين (٢) Les Exiles ، وهى حقيقة

(١) ابن إياس ، مصر سبق ذكره ، ج ٥ ، تحقيق ونشر الأستاذ الدكتور محمد مصطفى ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٣٨٠ هـ - ١٩٦١ م ، ص ٢٠٧ ، حوادث شهر شعبان ٩٢٣ .

(٢) لعل منشأ هذه التسمية أنه كان يوجد فى إسطنبول معتقل أو سجن يسمى «بندى قوله» أى قلعة الإبراج السبعة (انظر ماسبق عن هذا المعتقل) وكان معتقل فيه بعض الشخصيات العثمانية والأجنبية . وكان =

نتهاوى حين نعلم أن معظمهم رفضوا العودة إلى مصر بعد ذلك^(١) . ويلاحظ أيضاً أن إستانبول كانت وقتذاك أجمل وأكبر مدن العالم الإسلامى ومن أكبر مدن أوروبا . إن ما يمكن أن يذكره باحث محايد أن مصر قد قامت كرهاً فى أثناء إقامة سليم الأول فى مصر بدور دولة رائدة فى تصدير بشرى حضارى إلى إستانبول . وهو الدور ذاته الذى تقوم به مصر طوعاً فى القرن العشرين بشكل أكثر وضوحاً ويزوراً وقوة وشمولاً بتصدير العقول المصرية والعمالة المصرية والخبرات المصرية إلى شتى أنحاء العالم الإسلامى والعربى .

نشير بعد هذه الوقفة القصيرة إلى عدة حقائق ، منها :

أولاً: السلطان سليم صاحب نظرية ترحيل العناصر البشرية العلمية والعملية من البلاد العربية إلى إستانبول قد غادر القاهرة يوم الخميس الثالث والعشرين من شهر شعبان عام ٩٢٣ الموافق اليوم العاشر من شهر سبتمبر - أيلول - عام ١٥١٧ إلى بلاد الشام فى طريق عودته إلى عاصمة دولته - ولكن لم يطل به العمر إذ قضى نحبه فى التاسع من شهر شوال عام ٩٢٦ الموافق الثانى والعشرين من شهر سبتمبر - أيلول - عام ١٥٢٠ . والمعنى المستفاد من هذا التسلسل التاريخى أنه لم يطل على قيد الحياة إلا زهاء ثلاثة أعوام ، وخلفه على العرش ابنه السلطان سليمان المشرع . وكان من أولى تصرفاته أنه أصدر فرماناً بأن يعود إلى مصر جميع العلماء والعمال الذين كان والده قد أمر بترحيلهم من مصر^(٢) .

ثانياً : على الرغم من صدور هذا فرمان السلطانى ، رفض المصريون العودة إلى بلادهم وفضلوا البقاء فى إستانبول ، ومعنى هذا الرفض أن الحياة طابت للمصريين فى

السلطان سليم قد أمر بإبعاد المتوكل ، الخليفة العباسى فى القاهرة ، فى هذا المعتقل حين علم أنه مستغرق فى النساءيات وأنه يرتكب أموراً لا تتفق مع مركزه الدينى . ولما توفى سليم رأى ابنه السلطان سليمان أن خليفة على هذا الخلق لا يستحق أن يودع فى المعتقل ، فامر بإبعاده إلى مصر حيث عاش على هامش الحياة إلى أن أدركته الوفاة . وكذلك أمر السلطان سليم بأن يودع فى هذا المعتقل الأمراء والمالِك والشراكسة الذين أظهروا لئداً فى عدائهم للعثمانيين . ولما تولى سليمان العرش ظل على رأى والده ولم يقبل فيهم شفاعاة .
انظر :

ابن إياس ، مصدر سبق ذكره ، ج ٥ ، ص ٤٠٣ من حوادث شهر رمضان عام ٩٢٧ (الخامس من شهر أغسطس - آب - حتى الثالث من شهر سبتمبر - أيلول - عام ١٥٢١) .

(١) انظر ص ٦٩٣ .

(٢) ابن إياس ، مصدر سبق ذكره ، ج ٥ ، ص ٢٩٤ ، من حوادث شهر جمادى الأولى عام ٩٢٧ حيث يقول وفى هذا الشهر حضر جماعة كبيرة من إستانبول ممن كان السلطان سليم شاه أسرهم وأخرجهم من مصر . فلما مات سليم شاه بن عثمان واستقر وده سليمان بعده رسم يعود الأسراء قاطبة إلى بلادهم . ورأى عليهم ، وأظهر العلل فيهم

إستانبول . ويبدو أن فرص العمل كانت أمامهم كثيرة وميسرة وأن رزقهم كان يأتيهم رغداً من كل مكان ، أو لعلهم تزوجوا شركسيات واقتنوا الجوارى الفاناتات ، أو لسبب أو آخر .

ثالثاً : لما أدرك السلطان سليمان المشرع أن المصريين يرفضون مغادرة إستانبول ويؤثرون الإقامة فيها على العودة إلى مصر ، أصدر فرماناً لاحقاً في شهر رجب عام ٩٢٧ (٧ من يونيو - حزيران - إلى ٦ من يوليو - تموز - عام ١٥٢١) أمر فيه بشنق كل مصري يرفض العودة إلى مصر أو يتباطأ في العودة إليها (١) .

رابعاً : نجم عن هذا فرمان أن تعاقب وصول المصريين أفواجاً إلى مصر ، حتى اتخذت عودتهم شكل ظاهرة طرأت على المجتمع في مصر في ذلك الوقت . وكان ابن إلياس لا يزال مقيماً في القاهرة . وأشار إلى هذه الظاهرة في أكثر من موطن في يومياته (٢) ، بل إنه كان يذكر بصفة كادت تكون رتيبة أسماء المصريين العائدين إلى مصر . وكان بعضهم يحضر براً والبعض الآخر بحراً . وقد نظر ابن إلياس إلى تصرف سليمان المشرع بإعادة المصريين إلى بلدهم على أنه مأثرة من مأثر هذا السلطان . وتضرع إلى الله سبحانه وتعالى أن يؤتية من لدنه نصراً مبيناً لأنه سمح للمصريين بالعودة إلى بلدهم (٣) .

خامساً : إن حرمان مصر من بعض عناصرها البشرية المنتجة لم يستمر أكثر من ثلاث سنوات على أكثر تقدير . وقد تكون هذه الفترة الزمنية ذات بال على حياة فرد ، ولكنها لا تكون بأي حال من الأحوال ذات أثر يعرقل مسيرة شعب ، لأن شعوب الأمة العربية لم تبدأ من فراغ ، وإنما هي ذات ماض حضارى يطاول الزمان وجوداً . وقد عاد أهل الفكر والصناعة إلى مصر بعد غيبة ثلاث سنوات ، وياشروا نشاطهم العلمى والمهنى والحرفى فى ربوع البلاد . ولما جاء بونابرت إلى مصر عام ١٧٩٨ على رأس الحملة الفرنسية بعد قرابة ثلاثة قرون (١٥١٧-١٧٩٨) كان الأزهر يروج بنشاط علمى . ونظر بونابرت إلى المشايخ علماء الأزهر نظرة إجلال وتقدير عميقين ، استناداً إلى أن لهم صفتين : الصفة الأولى أنهم الصقوة الممتازة من الطبقة المستنيرة فى البلاد المتعمقون فى الدراسات الدينية واللغوية أو السربونيون Les Sorbonistes ، وأما الصفة الثانية فهي أنهم زعماء الشعب فى مصر (٤) . ومارس فى الوقت ذاته أيضاً الصناع

(١) المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٢٩٧ .

(٢) انظر على سبيل المثال : المصدر السابق ، ص ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٤٠٢ ، ٤٢١ ، ٤٢٦ ، ٤٢٤ ، ٤٥٧ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٤٠٣ .

(٤) دكتور عبدالعزيز محمد الشناوى : صور من نور الأزهر إلخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ٦٠٥ .

والعمال المهرة المصريون نشاطهم المهني والحرفي في خان الخليلي وأسواق العقاديين والنحاسيين والصاغة والسروجية وغزل ونسج الأقمشة الكتانية والقطنية وتطريز الحرير والجوخ والجلود بأسلاك الذهب والفضة ، والأخشاب المخروطة في عمل المشربيات والنوافذ وصناعة العاج وغيرها .

سادساً: استخدم ابن إياس الدقة في الصياغة اللفظية ، حين ذكر الإجراء الذي اتخذه السلطان سليم بتصدير الخبرات المصرية إلى إستانبول ، وقال إنه نجم عن هذا التصرف تعطل نحو خمسين صنعة في مصر ، لم تعمل في أيامه في مصر . وهو أسلوب بارع في التعبير يوضح أن لتعطل العلمي والمهني قد حدث إبان حكم هذا السلطان ثم استأنف أصحاب الخبرات نشاطهم بعد انقضاء حكمه . وقد فات هذا التعبير وهذا المعنى معظم المؤرخين والباحثين العرب في القرن العشرين . ومع ذلك يعيب البعض على أسلوب ابن إياس أنه ملئ بالألفاظ العامية ، ولكن اتضح أن النسخة المختصرة لكتابه هي التي كتبت باللغة الدارجة - أما النسخ المطولة التي كتبت بخط المؤلف أو طبق الأصل منها - فهي بأسلوب مصقول جيد وإن كانت مليئة بكثير من الألفاظ والأساليب غير العربية ؛ لانتشار اللسان التركي في مصر بين طبقات الخاصة في العصر المملوكي ولأسباب أخرى (١) .

واستكمالاً لبحث جميع جوانب هذا الموضوع ، تبقى نقطة أخيرة هي مناقشة رأى فريق من أساتذة التاريخ في بعض الجامعات العربية ، لأن كثيرين منهم يذكرون جانباً واحداً من الحقيقة ، وهو أن السلطان سليم الأول أصدر الخبرات العلمية والفنية إلى إستانبول ، ويغفلون ذكر الجانب الثاني ، وهو أن هذه الخبرات عادت إلى مواقعها واستأنفت نشاطها بعد ثلاثة أعوام ، وهذا الإغفال يتنافى مع مناهج البحث العلمي . ويرجع التفسير المحايد والموضوعي لرأيهم إلى أن هؤلاء الزملاء اكتفوا بما كتبه المؤرخون والباحثون الأوروبيون أو المتحاملون ، ولم يتابعوا ماكتبه ابن إياس في الجزء الخامس من كتابه عن السنوات الأولى من الحكم العثماني في مصر عقب وفاة السلطان سليم؛ أي في خلال السنتين الأوليين من حكم ابنه السلطان سليمان المشرع ، وهي فترة امتدت عامين وبعض عام ، وعلى وجه التحديد من ٩ من شوال ٩٢٦ (٢٢ من سبتمبر - أيلول - عام ١٥٢٠) حتى نهاية عام ٩٢٨ هـ في العشرين من شهر نوفمبر - تشرين ثان - ١٥٢٢ . وقد كتب ابن إياس تاريخ هاتين السنتين في حوالي مائة وأربع وثلاثين صفحة من القطع الكبير المطبوع (٢) . ومن المستبعد جداً - إن لم يكن في حكم الاستحالة - أن يطم

(١) دكتورة سيدة إسماعيل كاشف : مكانة ابن إياس بين مؤرخي مصر في العصور الوسطى ، من بحوث ندوة ابن إياس ، الناشر الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٧ ص ٤٧-٦٢ .

(٢) ابن إياس : ج ٥ ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٦٠-٢٩٤ .

أساتذة جامعيون عرب أجلاء الحقيقة بعنصريها ، ويكتمون العنصر الثاني ويكتفون بالعنصر الأول ، لأن في هذا الإغفال تشويهاً للحقائق التاريخية وإساءة للدولة العثمانية من غير مقتض . أما المتحاملون فلا حيلة لنا معهم إلا كشف زيفهم . إن مثلهم في موقفهم كمثل الذى يذكر قول الله سبحانه وتعالى يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة ، ثم لا يستكمل بقية الآية الكريمة التى هى جزء منها ولا يستقيم المعنى دونها ، وهى ، وأنتم سكارى . حتى تعلموا ما تقولون ، (١) ، أو كالأذى يذكر الآية القرآنية الكريمة ، وقيل للمصلين ، (٢) ثم لا يردفها بالآية التالية ، وهى : الذين هم عن صلاتهم ساهون ، (٣) .

ثانياً : عزلة الولايات العربية عن العالم

أما عن العزلة التى قيل إن الدولة العثمانية قد فرضتها على الأقاليم العربية التى دانت لحكمها .. فإن الأحداث الدولية التى سبقت ثم صبحت ثم لحقت الفتح العثمانى لهذه الأقاليم كقيلة بالرد على هذا الافتراء . فالعثمانيون فتحوا بلاد الشام عام ١٥١٦ ، ثم مصر عام ١٥١٧ ، وفى ذات هذه السنة دخل الحجاز دخولاً سلمياً تحت السيادة العثمانية . ونهج هذا النهج الأمراء المماليك الذين كانوا يحتلون وقتذاك بعض مناطق فى اليمن . وهكذا دخلت فى خلال عام وبعض عام أربعة أقاليم عربية تحت السيادة العثمانية . وظهرت الدولة العثمانية لأول مرة فى تاريخها دولة من دول البحر الأحمر نطل مصر والحجاز واليمن على ساحليه الغربى والشرقى .

ولكن حدث قبل أن تدخل هذه الأقاليم الإسلامية العربية تحت الحكم العثمانى ، وقبل أن تصبح الدولة العثمانية من دول البحر الأحمر ، أن بدأ الغزو البرتغالى للبحار الشرقية ومنطقة الخليج العربى بوصول طلائع الغزاة البرتغاليين تحت ستار الكشوف الجغرافية . وكانت تحملهم سفن مسلحة بقيادة فاسكو دى جاما Vasco de Gama وألقت مراسيها فى ثغر كاليكوت Calicut على الساحل الغربى للهند فى اليوم الثامن عشر من شهر مايو - آيار - ١٤٩٨ ؛ أى قبل وصول العثمانيين لتلك الأقاليم العربية التى دخلت تحت سيادتها بتسعة عشر عاماً (١٤٩٨-١٥١٧) . وكان هذا الغزو البرتغالى هو أول غزو عسكري أوروبى مسيحي فى التاريخ الحديث لأجزاء من العالم الإسلامى والعالم العربى فى الشرق ، واستهدف تحقيق أغراض صليبية واستعمارية واقتصادية . وكان شعار هذا الغزو الطارىء «الصليب أو المدفع» ، أى كان على المسلمين أن يعتنقوا المسيحية ، أو يتعرضوا لقصف مدافع الأسطول تلك المدن والمساجد والمنشآت والسكان .

(١) سورة النساء . مطلع الآية رقم ٤٣ .

(٢) سورة الماعون . الآية رقم ٤ .

(٣) سورة الماعون الآية رقمه .

كما كان من أهداف البرتغاليين الاستيلاء على أقاليم شاسعة في الهند وشرق الجزيرة العربية وجنوبها وأقاليم مطلة على البحر الأحمر والساحل الشرقي لإفريقية المطل على المحيط الهندي وجنوب شرق آسيا وغيرها ، ثم تطور هذا الهدف إلى إنشاء مراكز تجارية مسلحة في هذه الأقاليم ؛ نظراً لأن إنشاء هذه «الإمبراطورية» الشاسعة كان يتطلب قوات عسكرية كبيرة وكانت البرتغال تعاني من عدم كثافة سكانها . وكان من أهم أهداف البرتغاليين أيضاً احتكار التجارة الشرقية لأنفسهم بالحصول عليها من مصادر إنتاجها أو مواطن صنعها . وكان من هذه السلع العقاقير الطبية والأقمشة الحريرية والتوابل والبخور والعطور وغيرها ، ثم يتولى البرتغاليون نقل هذه السلع بمعرفتهم عن طريق رأس الرجاء الصالح إلى لشبونة حيث يتم توزيعها وتسويقها في دول أوروبا . وقد نجحوا إلى حد بعيد في تحقيق هذا الهدف الأخير وطاردوا السفن الإسلامية والعربية في مياه المحيط الهندي مما أدى إلى إغلاق الطريقين التجاريين القديمين التقليديين وهما : طريق الخليج العربي والعراق ثم إلى الشام حيث كانت السفن الأوروبية تتردد على أساطيلها^(١) ، نشحن منها شتى سلع التجارة العالمية وتنقلها إلى الدول الأوروبية . أما الطريق الآخر فكانت السفن العربية الإسلامية تمر منه في البحر الأحمر إلى السويس ، ثم تنقل السلع على ظهور الإبل إلى القاهرة ومنها في النيل إلى أساكس مصر مثل الإسكندرية ودمياط ورشيد .

البرتغاليون يستهدفون تخريب مكة المكرمة والمدينة المنورة :

وضع البرتغاليون أيضاً مخططاً صليبيّاً خطراً للغاية تمثل في دخولهم البحر الأحمر وفي استيلائهم على جدة ، ثم الزحف منها على مكة المكرمة لهدم الكعبة الشريفة ، ثم مواصلة الزحف منها على المدينة المنورة لنش قبر رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، ومواصلة الزحف بعد ذلك إلى تبوك وصولاً إلى بيت المقدس حيث المسجد الأقصى وقبة الصخرة . وكان الشريف بركات أمير مكة المكرمة قد ارتأى في ثلاثة أشخاص تسللوا إلى مكة المكرمة . وكانوا يحومون حول المسجد الحرام متظاهرين بأنهم مسلمون ، ويريدون زى العثمانيين ، ويتكلمون العربية والتركية . فأمر بالقبض عليهم . وبالكشف على أجسامهم اتضح أنهم مسيحيون لأنهم كانوا بغير ختان . وباستجوابهم اتضح أنهم جواسيس برتغاليون بعث بهم سلطات لشبونة ليعملوا أدلاء للجيش البرتغالي الصليبي عند دخوله مكة ، وقد وضعهم في الحديد وبعث بهم إلى السلطان الغوري^(٢) . وقد وقع هذا الحادث في عام ١٥١٠ ، أي قبل امتداد النفوذ العثماني إلى البحر الأحمر بحوالى سبعة أعوام . وكان السلطان الغوري قبل زوال دولة

(١) أساكس كلمة تركية مفردتها أسكلا بمعنى الميناء ، أو رصيف السفن ، أو مرسى السفن .

انظر مشتقات هذه الكلمة وأصلها الإيطالي في ثبوت المصطلحات التركية في نهاية هذه الدراسة .

(٢) ابن إياس ، مرجع سبق ذكره ، ج ٤ ، ص ١٩١ .

المماليك الشراكسة قد خاض صراعاً حريماً عنيفاً ضد البرتغاليين ، وخرج أسطول المماليك من البحر الأحمر إلى الهند لضرب البرتغاليين . ولكن باءت محاولاته بالفشل ، لأن المعارك كانت تدور فوق سطح الماء . وكان الأسطول البرتغالي أكثر قوة وتسليحاً وتدريباً ؛ وبحارته أكثر خبرة وكفاية في الفنون البحرية الحربية من بحارة الأسطول المملوكي . وكان البرتغاليون بعد وصولهم إلى الهند قد نقلوا جزءاً من نشاطهم الحربي إلى منطقة الخليج العربي وبحر العرب واستولوا على مسقط وهرمز والبحرين وقلعت على ساحل عمان ، وقرينات ، وصحار ، وحرر وغيرها وجزيرة سقطرى Socotra أو Socotra وضربوا ساحل عمان . وعلى الرغم من أنهم فشلوا في احتلال عدن ، نجحوا في دخول البحر الأحمر . وبعد أن ضربوا بعض الجزر القريبة من مدخله الجنوبي وبعض ثغوره اتجهوا عام ١٥١٧ لاحتلال جدة . وكانت دولة المماليك الشراكسة قد لفظت أنفاسها الأخيرة . وباءت بالفشل محاولة البرتغاليين . ثم قاموا بهجوم ثان عليها عام ١٥٢٠ ولكنهم فشلوا أيضاً . وحاول السلطان سليمان المشرع ضرب البرتغاليين بإرسال حملة كبرى عام ١٥٣٨ ، وقد نجحت الحملة في الاستيلاء على عدن ، وفشلت في ضرب البرتغاليين في الهند . ورد البرتغاليون على الدولة العثمانية بحملة بحرية كبرى دخلت البحر الأحمر واتجهت إلى ميناء السويس ، وهي مقر القاعدة العثمانية البحرية . ولكنها ولت مدبرة على أعقابها بعد أن تبين لها أن الأسطول العثماني في حالة تأهب . وقررت الدولة العثمانية وضع خطة جديدة لحماية الولايات العربية الخاضعة لها ، وتمثل هذه الخطة في اتخاذ عدن - وهي البوابة الكبرى للبحر الأحمر - خط دفاع وقاعدة عسكرية لضرب المراكز البرتغالية في شرقي الجزيرة العربية وللسيطرة على البحر الأحمر ، وزيادة نشاط الترسانة البحرية في السويس في بناء سفن حربية جديدة وعديدة . وتنفيذاً لهذا المخطط العسكري قررت الدولة ، كإجراء أمن داخلي وخارجي ، إغلاق البحر الأحمر في وجه السفن البرتغالية ، ثم عممت هذا المبدأ على جميع السفن المسيحية ؛ فكان لايسمح لها بالإبحار في البحر الأحمر فيما وراء ثغر المخا جنوبى ثغر الحديدية في اليمن ، ففترغ شحناتها ويعاد شحن حمولاتها على سفن إسلامية تجوب أنحاء البحر الأحمر ، وتتردد على ثغوره وموانئه . وكانت ذريعة الدولة العثمانية في هذا المنع هي أن أهم الأماكن المقدسة الإسلامية في العالم على الإطلاق تقع في الحجاز . ويطل ساحل هذا الإقليم على مياه البحر الأحمر . وتأسيساً على هذه الحقيقة يجب ألا تبحر فيه إلا السفن الإسلامية ، وظلت الدولة حريصة على تطبيق هذا المبدأ حتى القرن الثامن عشر .

السلطان سليم يعقد معاهدة مع جمهورية البندقية لتشجيع البنافة علي ممارسة نشاطهم في مصر :

ولكن قبل اتخاذ هذا الإجراء ، وفي أثناء إقامة السلطان سليم الأول في مصر ، وقد

امتدت ثمانية أشهر^(١)، عقد هذا السلطان في اليوم الثاني والعشرين من شهر المحرم عام ٩٢٣ الموافق اليوم الرابع عشر من شهر فبراير - شباط - عام ١٥١٧ معاهدة بين الدولة العثمانية وجمهورية البندقية لتشجيع رعايا هذه الجمهورية على القدوم إلى الإسكندرية بسفنهم وبضائعهم ومباشرة نشاطهم التجاري في جو من الطمأنينة والعدالة والأمن . وقد نشر الأستاذ إتيين كومب Etienne Combe أستاذ كرسى تاريخ العصور الوسطى الأوروبية بكلية الآداب بجامعة الإسكندرية سابقاً اثنتين وثلاثين مادة من هذه المعاهدة^(٢) . وقد جاء في ديباجتها أو مقدمتها أن هذه المعاهدة موجهة بصفة خاصة إلى حاكم الإسكندرية وموظفيها العموميين وضباط الشرطة ومن إليهم كي يحاطوا علماً بأن الامتيازات التي سبق أن منحها سلاطين دولة المماليك للشراكسة لرعايا جمهورية البندقية تستمر نافذة ، بعد أن وافق عليها السلطان سليم الأول.

وقد نصت المادة الأولى على أن رعايا جمهورية البندقية يتقابلون من الجميع بترحاب وعدالة وسلوك اجتماعي ممتاز . ولا يجوز لأحد أن يوجه إليهم إهانة أو يظهر استعلاء عليهم في جميع الموانئ المصرية . ومن حقهم البيع والشراء ، والأخذ والعطاء . ولا يجوز مساءلتهم عن خطأ ارتكبه غيرهم من رعايا الدول الأخرى في المدن المصرية أو شخص آخر من البنادقة . ويجب إعلان هذا المبدأ القانوني بين جميع القضاة وأعضاء الهيئات المسؤولة ، كما يجب معاملتهم طبقاً للأصول والتقاليد والعادات المتبعة دون أى تعديل .

ونصت المادة الثانية على تجنب إلحاق أى ضرر أو أذى أو مضايقة للبنادقة أو الاستيلاء بالقوة على ممتلكاتهم أو متاجرهم أو سفنهم أو ممتلكاتهم مخازنهم ، ولا يحق لأى فرد أن يجبرهم على البيع إذا لم يوافقوا على هذا البيع ، كما لا يجبرون على دفع عوائد غير عادية وتعسفية .

Ne pas molester les Vénitiens, ni rien saisir de leurs biens, ni de leurs marchandises, par violence, ni sur leurs bateaux, dans leurs magasins, ne pas les obliger de vendre, s'ils n'y consentent pas; ne pas leur faire.. payer des taxes extraordinaires et abusives.

ونصت المادة الثالثة على أنه في استطاعة القنصل أن يبيع السلع نقداً .

أما المادة الخامسة فقررت أن القنصل دون سواه هو الذى يتولى السلطة القضائية بين

(١) دخل السلطان سليم القاهرة في الثالث من شهر المحرم عام ٩٢٣ وكان يوافق اليوم السادس والعشرين من شهر يناير - كانون ثان - عام ١٥١٧ وغادرها عائداً إلى بلاده في الثالث والعشرين من شهر شعبان عام ٩٢٣ وكان يوافق اليوم العاشر من شهر سبتمبر - أيلول - عام ١٥١٧ .

(2) Combe Etienne, Précis etc, op. cit, t. III, PP. 96-101.

مواطنيه وبيت في الأمور المتصلة بمصالحهم . فإذا رفض أحدهم الانصياع إلى حكم أصدره القنصل ولجأ إلى القاضي المسلم للطعن في هذا الحكم أو لكي يستشكل في تنفيذه فإن القاضي المسلم لا يستمع إلى دعواه ، وعليه أن يحيل الموضوع إلى القنصل . وإذا أراد القنصل إبعاد أى بندقي فعلى القاضي أن يقدم له مساعدة قوية . وليس في استطاعة أى فرد من رعايا جمهورية البندقية مغادرة الإسكندرية في سفينة للذهاب إلى بلاده أو إلى أى مكان آخر ، إلا إذا حصل من القنصل على إذن - جواز سفر .

ونصت المادة السادسة على أنه إذا وصلت سفينة تابعة لجمهورية البندقية إلى ميناء الإسكندرية .. فليس من حق أى موظف مصرى أن يصعد إليها أو يحصل منها على ما يريد ، ولا أن يحتك بأى فرد فيها ، ولا يسمح له بالتواجد عليها إلا في حالة الشراء فقط . وهذا الحق مقصور بوجه خاص على السفن التي تحمل الفواكه والصل .

وقررت المادة السابعة منع أى فرد ، سواء كان محافظ المدينة - الإسكندرية - أو أحد أعيانها ، أو أحد عامة الشعب ، أو أحد قباطنة الميناء أو السفن ، أن يستولى على سفن جمهورية البندقية القادمة (إلى الميناء) أو - على ملاحيتها - طاقمها - أو أدواتها أو مجاديفها سواء عن طريق السلفة أو الشراء .

Personne, ni gouverneur de la ville, ni notables, ni gens du peuple, ni capitaines du port ou de navires, n'ont à s'occuper des bateaux vénitiens arrivant, ni de l'équipage, ni du grèement, ni des avirons, ni de quoi que ce soit, ni pour les emprunter, ni pour les acheter.

وقررت المادة التاسعة أنه إذا رغب القنصل في مقابلة أى موظف حكومي في مقر منصبه وامتطى صهوة جواده ، أو إذا رغب في الخروج إلى الحدائق أو إلى أى مكان بعيد ، فله أن يفعل ذلك دون أن يمنعه أحد أو يعترضه أحد . وكان هذا الامتياز قد جدد على عهد السلطان طومان باي .

ونصت المادة العاشرة على أن الملح التي تحملها سفينة تتعرض للفرق يتم إنقاذ سلعها ومراقبتها وتسلم لأصحابها . أما عتاد السفينة وأخشابها وأدواتها يكون ملكاً لصاحب الجلالة (السلطان) فتزد إليه أو إلى المحافظ . أما السلع التي تقذفها الأمواج إلى الساحل نتيجة غرق إحدى السفن فإنها ترد إلى أصحابها إذا عرفوا أو أثبتوا ملكيتهم لها . فإذا لم يستطيعوا فإنها ترد إلى القنصل . والسفن التي تصل إلى الساحل سليمة بعد إنقاذها يجب المحافظة عليها .

أما المادة الحادية عشرة فقد قررت أن السفينة التي تلجأ ضد رغبتها إلى ميناء الإسكندرية لسوء الأحوال الجوية ، ولا ترغب في أن تفرغ أى جزء من حمولتها ، لها أن تتم

رحلتها إذا لم تكن تحمل أى سلع برسم الإسكندرية . أما إذا كان عليها سلع خاصة بالإسكندرية ، وإذا قامت بهذه الرحلة بطريقة عادية فليس لها الحق فى أن تنجس إلى أى ميناء آخر على الساحل لتفريغ شحناتها . وعلى العكس إذا كانت شحنة السفينة من السلع التى لم يرد ذكرها فى المعاهدات ولا يتاجر بها عادة فى الإسكندرية .. فإنها تستطيع أن تنجس إلى أى ميناء آخر ، ولكنها تمنع من التعامل أو الملاحة على مقربة من جميع السواحل المصرية .

Le bateau qui, vu le mauvais temps, entre dans le port d'Alexandrie, contre son gré, mais n'y décharge aucuné marchandise, pourra continuer sa course, s'il n'a à bord aucune marchandise detinée à Alexandrie. Mais s'il a à bord des marchandises spéciales à Alexandrie, et s'il fait ordinairement ce trajet, il ne pourra pas se diriger vers un autre port de la côte. Par contre, si les marchandises ne sont pas de celles qu'on traite ordinairement à Aldexandrie, il peut le faire - (interdiction - de cabotage).

ونصت المادة الثانية عشرة على أنه إذا وقع حادث لأحد رعايا السلطان فى البندقية أو فى إحدى الجزر التابعة لها أو إذا وقع نزاع ، فلا يسأل القنصل ولا أحد من أتباعه عن هذا الذى حدث ، كما أنهم لا يتحملون النتائج المترتبة على الحادث . وإذا كان شخص مديناً لأحد رعايا السلطان فإنه يحجز حتى يسد الدين . ويسرى هذا الحكم على الضامن أو الكفيل . ولكن لا يقيض على برء من أجل مذنب . ويجب أن يكون جميع رعايا السلطان فى أمان سواء فى موانئ البندقية أو موانئ الساحلية .

ونصت المادة الثالثة عشرة على أن القنصل معفى من دفع الضرائب والرسوم إلا فى الحالات التى يصدر فيها أمر من السلطان أو حكم قضائى .

وذكرت المادة الرابعة عشرة أنه إذا أسر أحد للقراصنة^(١) سفينة تابعة للبندقية وجاء لبيعها فى أحد الموانئ ، فممنوع على أى شخص أن يقدم لشراؤها .

ويجب إطلاق سراح السفينة ، إذا كان ذلك ممكناً ، كما يجب تحرير طاقمها وإعادة

(١) يحيط الغموض بكلمة قرصان un pirate فى هذه المعاهدة ، لأن الثابت تاريخياً أن فرسان القديس يوحنا بعد انسحاب الصليبيين من عكا سنة ١٢٩١م اتخذوا من جزيرة رودس معقلاً لهم يهاجمون السفن الإسلامية فى أعالي البحار ، ويسرون فريقاً من ركابها ، ويفرقون فريقاً آخر ، ويستولون على شحنة السفينة ، ويحولونها إلى أحد موانئهم . وكانت هذه العمليات فى شتى مراحلها تندرج تحت وصف القرصنة . ومن الثابت تاريخياً أيضاً أن سكان شمالي إفريقيا كانوا يتصدون لهم .. وكانت عملياتهم جهاداً دينياً إسلامياً بحرياً ضد السفن الصليبية . ولكن قلب المؤرخون والباحثون الحقائق وأطلقوا على سكان شمالي إفريقيا قرصنة وعلى جهادهم الدينى الإسلامى البحرى قرصنة .

السلع إلى التجار .

Si un pirate a capturé un navire vénitien, et vient le vendre dans un port, aucun acheteur ne doit se présenter. Il faut libérer le bateau, si c'est possible, ainsi que l'équipage, et rendre les marchandises aux négociants."

ونصت المادة الخامسة عشرة على أنه إذا حدث نزاع بين عربى وإفرنجى ليس من رعابا البندقية ، فيجب عدم إهانة القنصل أو إلحاق الضرر به أو بالتجار أو بأحد من مواطنيهم أو بأحد ممن ينتمون إلى وكالتهم التجارية .

وذكرت المادة السادسة عشرة أنه يجب أن تحاط جميع السلطات علماً بهذه الأحكام . ويجب أن تدون فى سجل خاص .

أما المادة السابعة عشرة فقد خولت القنصل ، حسب المعتاد ، الحق فى أن يعين له نائباً عنه - نائب قنصل Vice-Consul فى البرلس .

وقررت المادة العشرون منع موظفى الجمارك أو الجمالين أو المفتشين - الكشافين - من مضايقة البنادق فى حالة إعادة تسليمهم للفواكه ، أو أى سلع أخرى تجلبها سفنهم .

ونصت المادة الثانية والعشرون على تخفيض الرسوم التى تدفع عند وفاة أى إفرنجى .

وقالت المادة الثالثة والعشرون إن الإفرنجى الذى يذهب من الإسكندرية إلى القاهرة أو إلى رشيد أو إلى دمياط لا يحصل منه ضرائب إطلاقاً ، سواء عند وصوله إلى هذه الأماكن أو عند مغادرته لها .

وذكرت المادة الخامسة والعشرون أنه فى حالة نقل السلع المصدرة أو المستوردة من باب الجمرى إلى السفن وبالعكس لا يطالب القنصل أو تجاره بشيء ما ، كما أنه لا يجوز منع التجار من توزيع وبيع الأطعمة والفواكه المحفوظة والممكرة للمسافرين .

وقررت المادة السابعة والعشرون أن من حق التجار البنادقة ممارسة كافة العمليات التجارية مع جميع الذين يتفقون معهم أو يتعاملون معهم ، سواء كانوا مسلمين أو مسيحيين أو يهوداً وذلك دون أى قيود . ولأنتم أى عملية تجارية فى المكان المخصص لوزن البضائع إلا بعد التحقق من صحة الوزن . ولا يجوز منع أى ترجمان - مترجم - من تسجيل أى عقد أمام القاضى . ويتمتع القنصل وتجاره ووكالته التجارية وكل من بأوى إلى فندقه بواجب الحماية من لدن السلطان .

Ils (Les marchands vénitiens) peuvent faire toutes les opérations commerciales avec qui ils l'entendent, musulmans, chrétiens ou juifs, sans

aucune restriction. Aucune opération ne se fera dans le local de la pasée des marchandises, mais après que cette vérification aura eu lieu. Achère qui veut, sans restriction. Personne ne peut empêcher un drogman de dresser un contrat devant le juge. Le Consul, ses négociants, sa colonie et ceux qui se joignent à son fondique (les protégés jouiront de la protection de la sécurité”.

وخولت المادة الثامنة والعشرون الحق للبنداقية في شحن وتفريغ سلعهم في سفنهم وقواربهم الخاصة .

وقررت المادة الثلاثون ألا يتصدى أى فرد للقنصل أو للتجار البنداقية إلا عن طريق القضاء . ولا يؤخذ الابن بجريرة الأب ، ولا الأب بجريرة الابن ، ولا الأخ بجريرة الأخ إلا إذا كان أحدهما ضامناً للآخر شخصياً ومالياً . أما الديون فيكون سدادها أو استعادتها طبقاً لقواعد الشريعة الإسلامية ولا يجوز إكراه مستأجر سفينة على تسيير سفينته .

ونصت المادة الحادية والثلاثون على أن التجار البنداقية ومرافقيهم الذين يصلون إلى موانئنا ، يجب أن يعاملوا بكل احترام وتقدير من الجميع .

وجاء في المادة الثانية والثلاثين أن قنصل البندقية قدم مذكرة قرر فيها أن البنداقية كانوا يتمتعون أيام دولة المماليك الشراكسة بالإعفاء من ضريبة البهار . ولكن حدث أن فرضت حكومة السلطان قانصوه الغورى رسوماً جديدة بلغت خمسة آلاف دينار سنوياً ، ويطالب القنصل بإعادة تقرير هذا الإعفاء الضريبي ، وتقرر الاستجابة لهذا الطلب .

معاهدة البندقية رد علمى وعملى على المتحاملين على الدولة العثمانية :

إن الهدف من عرض ترجمتنا لأهم مواد هذه المعاهدة إنما هو الرد العلمى والعملى على الفرية ، التى يرددها المؤرخون والباحثون المتحاملون على الدولة العثمانية بأنها فرضت على ولاياتها العربية العزلة عن أوروبا . فعلى الرغم من أن الحكم العثمانى لم يكن قد استقر تماماً فى مصر ، أقدم السلطان سليم الأول فى أثناء إقامته فى مصر وسط مشاغله المتزايدات على إبرام معاهدة تجارية مع جمهورية البندقية ، وكانت الغالبية العظمى من مواردها تنصب على مصر وعلى ميناء الإسكندرية وغيرها من الموانئ المصرية المطللة على البحر المتوسط ، وتستهدف تشجيع رعايا جمهورية البندقية على تكثيف نشاطهم التجارى والاقتصادى مع مصر التى غدت ولاية عثمانية .

ويقول الأستاذ كومب تعليقاً على هذه المعاهدة «وفى أثناء إقامة السلطان سليم فى مصر حضر اجتماعاً خاصاً مع مبعوثين أرسلتهم إليه جمهورية البندقية . وقد ثارت شكوك حول التاريخ الدقيق الذى تم فيه هذا الاجتماع . ولكننا اهتمنا اهتماماً زائداً بالوقوف على المعاهدة ،

وهى مؤرخة فى اليوم الثانى والعشرين من شهر المحرم عام ٩٢٣ الموافق اليوم الرابع عشر من شهر فبراير - شباط - عام ١٥١٧ . وقد وقعت المعاهدة عقب ذلك الاجتماع . إن هذه المعاهدة هى أول وثيقة رسمية أعلنها السلطان العثمانى الذى خلف أعداءه الشراكسة على أرض مصر عقب الانتصار الذى أحرزه عليهم . إن هذه المعاهدة من ناحية الشكل والمحتوى تقرر بوضوح الامتيازات ، التى سبق أن منحها السلاطين المماليك للجمهوريات الإيطالية .

C'est le premier document officiel promulgué par le sultan ottoman, silcesseur des Circassiens sur le sol de l'Egypte, après sa victoire sur es ennemis. La forme et le contenu de ce diplôme rappellent nettement les privilèges accordés antérieurement par les sultans Mamlouks aux républiques italiennes.^(١)

وفضلاً عن هذه الأهمية التى أشار إليها الأستاذ كومب .. فإن المعاهدة البندقية أهميتين : أولهما وجود فارق بين هذه المعاهدة والمعاهدات التى عقدها السلطان سليمان المشرع وخلفاؤه تبعاً مع الدول الأوروبية فى هذا الصدد . فبينما كان الهدف من المعاهدات الأخيرة هو تشجيع رعايا الدول الأوروبية على توثيق صلاتهم التجارية مع ممتلكات الدولة العثمانية^(٢) ، كانت معاهدة البندقية تستهدف تشجيع رعايا جمهورية البندقية على تكثيف نشاطهم التجارى فى مصر ؛ خاصة فى الإسكندرية . أما الأهمية الثانية لمعاهدة البندقية فترجع إلى أن كثيراً من نصوصها ، أو نصوصاً على غرارها ، قد أدرجت بعد ذلك فى المعاهدات اللاحقة التى عقدها الدولة العثمانية مع الدول الأوروبية ، إذ كان هناك تنافس بين الدول على الحصول على أكبر قدر من الامتيازات لرعاياها ؛ فكانت كل دولة أوروبية تحرص على أن تجيء المعاهدة التى تعقدها مع الدولة العثمانية جامعة شاملة لكل الامتيازات ، التى سبق تقريرها لغيرها استناداً إلى ما يعرف فى القانون الدولى العام باسم «قانون العادة»^(٣) .

معاهدة عام ١٥٢٨ :

وجاء بعد السلطان سليم الأول ابنه السلطان سليمان المشرع ، فخطا خطوات هامة فى سياسة انفتاح الدولة العثمانية تجارياً مع عدد من الدول الأوروبية . فعقد مع فرنسا الأول ملك فرنسا معاهدة عام ١٥٢٨ جددت فيها الدولة العثمانية الامتيازات التى سبق أن منحها سلاطين

(١) Combe Etienne; op. cit., p. 14.

(٢) يستثنى من هذه المجموعة من المعاهدات معاهدة عقدت بين الدولة العثمانية وفرنسا عام ١٥٢٨ . انظر مايلى .

(٣) على ماهر باشا أحد رؤساء الوزارات المصرية السابقين : القانون الدولى العام . مطبعة الاعتماد شارع حسن الأكبر ، القاهرة ، ١٢٤٢هـ-١٩٢٤م ، ص ٣٣٧-٣٣٨ .

دولة المماليك الشراكسة للفرنسيين وأهل كتالونيا Les Catalans ، وكانت المعاهدة الجديدة تكفل لتجار فرنسا ورعاياها الأمن والطمأنينة على أرواحهم وأموالهم ومتاجرهم في أثناء تواجدهم في ممتلكات الدولة ، وتكفل لهم حرية المناجزة والتنقل براً وبحراً دون أن يمسسهم سوء ، ودون أن يتعرضوا لمضايقات من السلطات العثمانية ، وتنظم إقامتهم في أحياء أو خانات خاصة بهم وعدم المساس بكنائسهم وعدم فرض ضرائب عقارية عليها ، ومنع السفن العثمانية التي تقوم برحلات بحرية بين إسطنبول وموانئ الشام ومصر من عرقلة نشاط السفن الفرنسية التي تعمل على هذه الخطوط الملاحية . ويمكن إلحاق معاهدة ١٥٢٨ بمعاهدة البندقية لعام ١٥١٧ من حيث الهدف ؛ إذ كانت موادها مقصورة في الغالب على بلاد الشام ومصر بعامه ومصر بخاصة .

وكان إبرام هذه المعاهدة مشجعاً لملك فرنسا فرنسوا الأول والسلطان سليمان المشرع ، نظراً للعلاقات الودية الوثيقة بينهما ، على عقد معاهدة هامة أكثر شمولاً عرفت باسم معاهدة صداقة وتجارة بين الإمبراطورية العثمانية وفرنسا . وقد عقدت في شهر فبراير - شباط - عام ١٩٣٥ وتقرر فيها منح تجار فرنسا وسائر رعاياها الذين يذهبون إلى أقاليم الدولة العثمانية شتى الامتيازات في مقابل منح الرعايا العثمانيين امتيازات مماثلة لها تقريباً .

عرض وتحليل لمعاهدة ١٩٣٥ :

وتنص معاهدة ١٩٣٥ في ست عشرة مادة . قررت المادة الأولى منها السماح لرعايا الدولة العثمانية وفرنسا وتابعيهم بالتجول في جميع ممتلكات الدولتين بما فيها المدن والتغور والجزر والبحار وسائر الأقاليم التي تدخل في حوزة كل من السلطان وملك فرنسا في قابل الأيام . ويكون هذا التجول بهدف ممارسة العمليات التجارية والعودة إلى بلادهم بكامل حريتهم دون أن يقع اعتداء عليهم أو على متاجرهم .

ونصت المادة الثانية على أن العمليات التجارية تشمل البيع والشراء والمبادلة في كافة السلع غير الممنوع الاتجار فيها ونقلها براً وبحراً بعد سداد الرسوم المقررة بحيث يدفع الفرنسيون في أقاليم الدولة العثمانية ما يدفعه العثمانيون ، وأن يسدد العثمانيون في فرنسا ما يدفعه الفرنسيون دون أن يدفع أى من الطرفين ضرائب أو مكوساً جديدة أخرى .

وقررت المادة الثالثة أنه ، فضلاً عن هذا ، كلما يعين ملك فرنسا في إسطنبول (١) أو بيرا أو غيرهما من مدن الدولة العثمانية أحد رجال القانون (٢) كالقنصل المعين حالياً في الإسكندرية .. فيجب أن يقابل هذا القانوني والقنصل بطريقة لائقة ، وأن يحتفظ كل منهما

(١) وردت في النصين الفرنسي والإنجليزي القسطنطينية .

(٢) وردت هذه اللفظة في النص Bailiff ومن معانيها محضر أو أحد رجال القانون .

بسلطته الخاصة بحيث يكون لكل منهما الحق في الفصل في جميع القضايا والخلافات المدنية والجنائية التي تقع في دائرته طبقاً لعقيدته وقانونه بين التجار ورعايا ملك فرنسا الآخرين، دون أن يمنع من ذلك أي قاض أو صوباشي^(١) أو أي موظف آخر . ولكن إذا رفض أحد من رعايا ملك فرنسا إطاعة الأوامر الصادرة من القانوني أو القنصل فلهما في هذه الحالة فقط أن يستعينا بالصوباشي أو أحد ضباط السلطان في تنفيذ الأحكام . وعلى هؤلاء الصوباشية أو الضباط الآخرين أن يقدموا مساعدتهم الضرورية ، والتي تكفل إجبار الآخرين على تنفيذ أحكامهم . ولكن ليس للقاضي أو أي ضباط تابعين لحكومة السلطان أن يحكموا في المنازعات التي تنشأ بين التجار ورعايا ملك فرنسا حتى لو طلب التجار المذكورون ذلك ، وإذا نظر القضاة بمجرد المصادفة في قضية .. فإن حكمهم يكون لاغياً وباطلاً .

Likewise, whenever the King shall send to Constantinople or Pera or other places of this Empire a bailiff - just as at present he has a consul at Alexandria - the said bailiff and consul shall be received and maintained in proper authority so that each one of them may in his locality, and without being hindered by any judge, cadi, soubashi, or other, according to his faith and law, hear, judge and determine all causes, suits and differences, both civil and criminal, which might arise between merchants and other subjects of the King. Only in case the orders of the said bailiffs and consuls should not be obeyed and that in order to have them executed they should appeal to the soubashi or other officer of the Grand Signior, the said soubashis or other officers shall lend them the necessary aid and compulsory power. But the cadi or other officers of the Grand Signior may not try to any difference between the merchants and subjects of the King, even if the said merchants should request it, and if perchance the said cadis should hear a case their judgment shall be null and void.

ومنعت المادة الرابعة استدعاء أو الاعتداء على التجار ورعايا ملك فرنسا أو محاكمتهم في الدعاوى المدنية ، التي يقيمها عليهم العثمانيون أو جباة الخراج أو غيرهم من رعايا جلالة

(١) الصوباشي وتكتب أيضاً الشوباشي ، وترد هذه اللفظة في المراجع التاريخية بعدة معان ، منها ضابط في الجيش العثماني كانت رتبته تعادل حالياً رتبة نقيب . ومنها ضابط مرموق يعينه الصدر الأعظم أو الباشا في إحدى الولايات «متسلماً» على مدينة ، أو تولده الدولة في مهمة خاصة إلى إحدى الولايات . وكان يطلق هذا اللفظ أحياناً على أحد أعيان تقسيم إداري صغير أو متوسط .

السلطان ، مالم يكن بيد المدعين مستندات بخط المدعى عليهم أو حجة رسمية صادرة من القاضى الشرعى أو رجل القانون الفرنسى أو القنصل . وفى حالة وجود هذه المستندات والحجج لايجوز للقضاة الشرعيين أو الصوباشية أو أى موظفين آخرين سماع الدعوى ومحاكمة هؤلاء الرعايا الفرنسيين ، إلا فى حضور ترجمان قنصل فرنسا .

ونصت المادة السادسة على أنه لاتجوز محاكمة التجار الفرنسيين ومستخدميهم وخدمهم وجميع رعايا ملك فرنسا الآخرين ، فيما يخص بالمسائل الدينية أمام القضاة الشرعيين والصناجق البكوات والصوباشية أو غيرهم ، بل تكون محاكمتهم أمام الباب العالى . ولا يمكن اعتبارهم مسلمين أو النظر إليهم على أنهم مسلمون ، إلا إذا رغبوا فى ذلك واعترفوا صراحة ودون إكراه يقع عليهم ، ولهم الحق فى ممارسة دينهم .

Likewise, as regards religion, it has been expressly promised, concluded, and agreed that the said merchants, their agents, and servants, and all other subjects of the King shall never be molested nor tried by the cadis, sandjak-beys or soubashis, or any person but the Sublime Porte only, and they can not be made or regarded as Turks (Mohammedans) unless they themselves desire it and profess it openly and without violence. They shall have the right to practise their own religion.

وقررت المادة السابعة أنه إذا تعاقد شخص أو أكثر من شخص من رعايا ملك فرنسا مع أحد العثمانيين أو إذا استولى على سلع منه ، أو اقترض مبالغ ثم غادر بلاد جلالة السلطان قبل أن يقوم بالوفاء بالتزاماته أو ديونه فلا يسأل رجل القانون الفرنسى أو القنصل أو أقارب المدين أو أى شخص فرنسى آخر عن ذلك مطلقاً ولا يتعرض له أحد بالإيذاء . ولا يكون ملك فرنسا ملزماً بشيء . ولكن يمكنه أن يستوفى طلب المدعى من المدعى عليه ومن أملاكه ، لو وجدت له أملاك فى الأراضى الفرنسية .

ونصت المادة الثامنة على أنه لايجوز إلقاء القبض على تجار فرنسا ووكلائهم وخدمهم وسائر الرعايا الفرنسيين ، وإكراههم على العمل فى خدمة السلطان العثمانى أو أى شخص آخر فى البر والبحر مالم يكن باختيارهم وطوعهم . وكذلك لايجوز استخدام سفنهم أو قواربهم أو مايجود بها من معدات أو مدافع أو ذخائر أو سلع إلا بموافقتهم ورضائهم .

Likewise, the said merchants, their agents, and servants, and other subjects of the King, their ships, boats or other equipments, artillery, ammunition, and mariners shall not be seized, coerced, or used by the Grand

Signior or other person against their pleasure and desire for any service or duty either on sea or land.

وقررت المادة العاشرة أنه بمجرد تصديق السلطان وملك فرنسا على هذه المعاهدة ، فإن جميع رعاياهما الموجودين عندهما أو عند تابعيهما أو على سفنهما أو في أى مكان تابع لسلطتهما ، فى حالة الرق ، سواء كان ذلك بشرائهم أو بوقوعهم فى الأسر وقت الحرب أو باحتجازهم ، يطلق سراحهم فوراً بمجرد طلب وتقرير من السفير أو القنصل أو أشخاص آخرين يعينون لهذا الغرض . وإذا كان أحد الأسرى قد تحول عن دينه فلا يكون تغيير عقيدته الدينية مانعاً من إطلاق سراحه .

ومن الآن فصاعداً لا يجوز للسلطان ، ولا لملك فرنسا ، ولا لقادة الأساطيل البحرية ، ولا لقواد الجيش ، ولا لأى أشخاص آخرين تابعين لأحد المعاهلين أو لمن يستأجرانهم لذلك ، سواء فى البر أو فى البحر ، أخذ أو شراء أو بيع أو حجز أسرى الحرب بصفة أرقاء . وإذا حاول أحد القراصنة أو غيره من رعايا المعاهلين أسر أحد رعايا الطرف الآخر أو اغتصاب أملاكه أو أمواله ، فيجب إحاطة حاكم الجهة علماً بذلك ، وعليه ضبط الفاعل ومعاقبته بتهمة تعكير السلام بين الدولتين ويكون عقابه عبرة لغيره ، ورد ما يكون عنده من الأشياء المغتصبة إلى من أخذت منه . وإذا لم يضبط الجانى فوراً واستطاع الهرب دون محاكمة ، فيجب نفيه من بلاده مع جميع شركائه . وتقوم الحكومة التابع لها هؤلاء الجناة بمصادرة ممتلكاتهم ودفع التعويضات عن الأضرار التى أصابت المجنى عليه ، من ممتلكات الجناة ، وهذا لا يمنع من مجازاتهم إذا تم القبض عليهم فيما بعد . وللمجنى عليه أن يستعين على الحصول على التعويضات من ضامن هذا الصلح ، وهما المر عسكر عن السلطان ، وأكبر القضاة عن ملك فرنسا .

ونصت المادة الثانية عشرة على أنه إذا وصلت إلى أحد موانئ أو سواحل الدولة العثمانية إحدى السفن التابعة لرعايا ملك فرنسا ، سواء كان وصولها بطريق الصدفة أو غير ذلك ، فيجب تزويدها بما يلزمها من مواد تموينية وغيرها من الضروريات فى مقابل دفع الثمن المناسب دون إلزامها بتفريغ شحناتها أو دفع رسوم ، ثم يباح لها السفر إلى حيث تريد . وإذا وصلت إلى إسطنبول وأرادت السفر منها بعد حصولها على جواز الخروج من هذين الجمرع ودفع الرسوم المقررة وتفتيشها بمعرفة أمين الجمرع المشار إليه فلا يجوز زيارتها أو تفتيشها فى أى مكان آخر إلا عند الحصون المقامة عند مدخل بوغاز غاليبولى ، دون أن تدفع شيئاً مطلقاً لرحيلها سواء عند هذا البوغاز أو فى أى مكان آخر عند خروجها سوى ماسبق دفعه سواء كان للطلب باسم السلطان أو أحد ضباطه .

ونكرت المادة الثالثة عشرة أنه إذا تحطمت أو غرقت بطريق الصدفة أو غير ذلك إحدى السفن التابعة لرعايا أحد العاهلين في البلاد التابعة لهما ولقضاتهما .. فإن جميع الأفراد الناجين من هذا الخطر يظلون متمتعين بحريتهم ، ولا يحال بينهم وبين أخذ أو جمع ما يكون لهم من الأمتعة وغيرها . أما إذا غرق جميع من بها فإن البضائع التي يمكن إنقاذها تسلم إلى القنصل أو أحد رجال القانون في القنصلية أو من يمثلها ليسلمها إلى من تتعلق برئيتهم دون أن يستولي القبودان باشا أو الصنح بك أو الصوباشي أو القاضي أو أي ضابط أو أحد رعايا السلطان على شيء منها ، وألا توقع عليهم العقوبات ، وعلى هؤلاء أن يقدموا التسهيلات والمساعدات لمن يعهد إليهم باستعادة البضائع .

ونصت المادة الرابعة عشرة على أنه إذا هرب أحد العبيد التابعين لأحد رعايا السلطان وادعى هذا العثماني أن عبده قد لاذ بأحد رعايا ملك فرنسا وخدم في سفينته أو في منزله ، فإن هذا العثماني لا يستطيع أن يجبر الفرنسي على عمل شيء ، سوى السماح له بالبحث عن العبد في سفينته أو في داره . وإذا أسفر البحث عن العثور على العبد فإن الفرنسي يعاقب بمعرفة قصصه ويرد العبد لسيدده . وإذا لم يوجد العبد في سفينة أو دار الفرنسي ، فيجب ألا يتعرض الفرنسي للإيذاء مطلقاً وعلى أي نحو من الأنحاء بسبب هذا الحادث .

أما المادة الخامسة عشرة فقررت أن كل فرد من رعايا ملك فرنسا - لم يكن قد أقام بأراضي الدولة العثمانية مدة عشر سنوات كاملة ، دون انقطاع - لا يلزم بدفع الخراج أو أي ضريبة أياً كان اسمها ، ولا يلزم بحراسة الأراضي المجاورة أو مخازن السلطان ولا بالعمل في ترسانة أو أي عمل آخر بطريق الإكراه . ويمنح رعايا الدولة العثمانية امتيازات مقابلة في بلاد فرنسا . وتضمنت المعاهدة اقتراح ملك فرنسا بدعوة البابا وملك إنجلترا ، أخيه وحليفه الأبدى ، وملك أسكتلندا للانضمام إلى هذه المعاهدة بشروط ، سنكلم عنها في موطن قادم في هذا الفصل .

وأخيراً قررت المادة السادسة عشرة أن يتم تبادل وثائق التصديق على المعاهدة بمعرفة العاهلين ، في خلال ستة أشهر من تاريخ التوقيع عليها مع الوعد من كليهما بالمحافظة على تنفيذها والتنبيه على جميع القضاة والضباط ورعاياهما بمراعاة جميع أحكامها بكل دقة . وحتى لا يدعى أحد الجهل بها ، يجب نشر نصه منها بعد التصديق عليها في إسطنبول وإسكندرية ومارسيليا وناربون Narbonne ، وفي جميع المدن والموانئ المشهورة التابعة لكل من الطرفين^(١) .

وكانت هذه المعاهدة هي آخر أعمال إبراهيم باشا الصدر الأعظم ؛ لأن السلطان سليمان

(1) Hurewitz J.C.; op. cit. vol. I, pp. 1-5.

المشرع استجاب لرغبة الباشا قادين روكسلانه وأمر بقتله .

وقد حددت هذه المعاهدة بعد ذلك عدة مرات ، وأضيفت إليها أحكام جديدة (١) . ثم أصبحت هذه المعاهدة تجدد تلقائياً كلما ارتقى عرش الدولة سلطان جديد . وقد أرسى هذا التقليد في اليوم الثامن والعشرين من شهر مايو - آيار - عام ١٧٤٠ السلطان محمود الأول (١٧٣٠-١٧٥٤) ، اعترافاً منه بفضل فرنسا حين تدخل في صيف ١٧٣٩ الماركيز دي فيلنوف السفير الفرنسي في بلغراد لإنهاء حالة الحرب بين الدولة العثمانية Marquis de Villeneuve والروسيا ، وكان من نتائج مساعيه الحميدة إبرام معاهدة بلغراد في اليوم الثامن عشر من شهر سبتمبر - أيلول - عام ١٧٣٩ (٢) .

الدولة العثمانية تستجيب لمساعي إنجلترا لعقد معاهدات تجارية معها :

كانت المعاهدة التي عقدت بين الدولة العثمانية وفرنسا عام ١٥٣٥ قد نصت في مادتها الخامسة عشرة على دعوة ملك إنجلترا وغيره إلى الانضمام إليها والاستفادة من أحكامها ، بشرط أن يقوم ملك إنجلترا بإبلاغ السلطان العثماني ، في خلال ثمانية شهور من تاريخ التوقيع على المعاهدة ، بصور تصديق الحكومة الإنجليزية على المعاهدة ويطلب اعتماد هذا التصديق؛ أي أراد السلطان سليمان المشرع وفرنسا الأول ، تحويلها من معاهدة ثنائية إلى معاهدة جماعية . ولكن لم تجد هذه الدعوة استجابة من ملك إنجلترا ، وظلت السفن الإنجليزية التي تتردد على الموانئ العثمانية تبحر في الموانئ والمياه العثمانية تحت الأعلام الفرنسية طيقاً لأوامر الحكومة العثمانية ، ثم ازداد عدد السفن الإنجليزية التي تشق طريقها إلى موانئ الدولة العثمانية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط منذ النصف الثاني من القرن السادس عشر . وتطلعت إلى منافسة البنادقة والفرنسيين في هذه المنطقة (٣) . وكان أحد التجار الإنجليز واسمه أنطوني جنكنسن Anthony Jenkinson قد استطلع مقابلة السلطان سليمان المشرع عام ١٥٥٣ في حلب ، وهو يستعد للزحف على فارس . ونجح في الحصول على موافقة السلطان لهذا الإنجليزي على الاتجار داخل ممتلكات الدولة ، على قدم المساواة مع البنادقة والفرنسيين وعلى ألا يدفع أكثر من الرسوم المقررة (٤) . على أن هذا الحادث الأول من نوعه لم يفتح لإنجلترا عهداً تجارياً مهماً ، على الرغم من الامتيازات الواسعة التي منحها سليمان لذلك الخارج

(١) حدث هذا التجديد وتلك الإضافات في ١٨ أكتوبر - تشرين أول - عام ١٥٦٩ وفي شهر يوليو - تموز - عام ١٥٨١ ، وفي شهر فبراير - شباط - عام ١٥٩٧ ، وفي ٢٠ من شهر مايو - آيار - عام ١٦٠٤ ، وفي ٥ من شهر يونيو - حزيران - عام ١٧٣٩ .

(٢) انظر في هذه الدراسة ، الجزء الأول ، ص ١٩٥-١٩٦ .

(٣) Hoskins Halford Lancaster; British Routes to India, New York, 1928, PP. 2-4.

(٤) انظر نص هذا الاتفاق في

الإنجليزية^(١) .

غير أن الحكومة العثمانية استقبلت بعثة إنجليزية عام ١٥٧٨ ، أي بعد خمس وعشرين سنة ، واستطاعت البعثة أن تحقق نجاحاً كبيراً في وضع الحجر الأساسي للتجارة الإنجليزية في الدولة العثمانية . وكان من بين معالم هذا النجاح أن السلطان مراد الثالث (١٥٧٤-١٥٩٦) أرسل رسالة مؤرخة في ١٥ من شهر مارس - آذار - عام ١٥٧٩ إلى الملكة إليزابيث الأولى . وكان مما جاء فيها «إن البلاد العثمانية ستبقى دائماً مفتوحة للتجار الإنجليز ... ولن ننقاس عن تقديم المساعدة والمعونة لأي فرد منهم يتغنى بتقدير صداقتنا وإحساننا ومساعدتنا، بل سنعد إرضاءهم جزءاً من واجبنا»^(٢) .

ولم تكن هذه الرسالة السلطانية مقنعة في نظر ملكة إنجلترا ؛ لأنها لم تشمل على تحديد موضوعات تتصل بتيسير ممارسة الرعايا الإنجليز نشاطهم التجاري ، ونظمت إلى عقد أنفاق يكون أوفى بالغرض تخصيصاً وشمولاً . ومهدت له بمنح التجار العثمانيين امتيازات داخل بلادها تكون معادلة لما يحصل عليه التجار الإنجليز من امتيازات في بلاد الدولة العثمانية . وما أن تلقى السلطان مراد الثالث الرسالة الملكية حتى أصدر في شهر يونيو - حزيران - ١٥٨٠ «براءة» تضمن للتجار الإنجليز امتيازات واسعة النطاق . وكان مما جاء فيها على لسان السلطان «وعلى هذا فإننا نمنح جميع أفراد شعبها ورعاياها حرية المجيء إلى إمبراطوريتنا بأمن وسلام، مع كل ماله من متاجر وسلع بحراً في سفن كبيرة وصغيرة ، وبرا في عربات ، دون أن يتعرض لهم أحد بأذى ، ولهم أن يمارسوا عمليات البيع والشراء دون عائق ، وعليهم أن يراعوا عادات وأوامر بلادهم (الإنجليزية)» .

“Our Imperial commandement and pleasure is, that the people and subjects of the same Queen, may safely and securely come to our princely dominions, with their goods and marchandise, and ladings, and other commodities by sea, in great and small vessels, and by land with their carriages and cattels, and that no man shall hurt them, but they may buy and sell without any hinderance, and observe the customes Sie and orders of their owne Sie country”^(٣)

(١) دكتور زكي صالح : مجمل تاريخ العراق الدولي في العهد العثماني . من مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية التابع لجامعة الدول العربية ، القاهرة ، ١٩٩٦ ، ص ١٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٤ .

(٣) النص الكامل لهذه البراءة أو المعاهدة منشور في

وقد لقيت هذه المعاهدة معارضة عنيفة من جانب السفير الفرنسي في إسطنبول وسعى لدى السلطان لوقف تنفيذها . ونجحت مساعيه ، ولكن إلى أمد قصير ، ففي العام التالي (الحادي عشر من شهر سبتمبر - أيلول - عام ١٥٨١) صدر العقد التأسيسي الأول لإنشاء شركة اليقانت^(١) The Levant Company وهي شركة إنجليزية^(٢) مارست اختصاصات سياسية وتجارية واسعة : فهي التي كانت ترشح سفراء إنجلترا في إسطنبول ، وتدفع لهم مرتباتهم ، وكان جميع فناصل إنجلترا وكل موظفيها الدبلوماسيين في ممتلكات الدولة العثمانية يعدون مستخدمين في الشركة وينقادون منها مرتباتهم . وظل هذا التقليد سارياً أكثر من قرنين حتى سنة ١٨٠٣ . أما الاختصاصات التجارية لهذه الشركة . فقد حصلت من إليزابيث الأولى ملكة إنجلترا على حق احتكار المتاجرة في الحوض الشرقي للبحر المتوسط . وكان نشاطها كثيفاً في الأناضول وحلب والإسكندرونة والإسكندرية وغيرها من أساطل الشام ومصر والساحل الغربي لشبه جزيرة الأناضول . ولم يمتد نشاط الشركة بوضوح إلى العراق ، الذي كان أكثر تأثراً بنشاط شركة الهند الشرقية البريطانية . وفي سنة ١٨٥٣ عينت الحكومة الإنجليزية وليام هاربرون William Harborne سفيراً لها في إسطنبول ، ومنحته سلطات متشعبة على جميع التجارة الإنجليزية في ولايات الدولة العثمانية ، وخولته اختصاصات واسعة في تعيين الفناصل . وغدا هاربرون سفيراً إلى جانب صفته كممثل لشركة اليقانت . واستغل هاتين الصفتين في حمل السلطان مراد الثالث على تنفيذ معاهدة سنة ١٥٨٠ ، وقدم مع أوراق اعتماده الهدايا للسلطان وكبار رجال الدولة . وسرعان ما أثمرت جهوده . وعلى هذا تعتبر سنة ١٥٨٣ بداية التاريخ الفعلي والرسمي لتنفيذ معاهدات الامتيازات المتبادلة بين التجار الإنجليز في أملاك الدولة والتجار العثمانيين في إنجلترا . وفي سنة ١٦٠٤ حصلت الحكومة الإنجليزية على موافقة السلطان أحمد الأول على أن تبحر السفن الإنجليزية داخل المياه والموانئ العثمانية تحت الأعلام الإنجليزية ، بينما كانت السفن الأجنبية - باستثناء سفن البنادقة - مضطرة إلى رفع العلم

= وقد تم تبادل وثائق التصديق على هذه المعاهدة في إسطنبول في اليوم الثالث من شهر مايو - أيار - عام ١٥٨٣ . وتقع هذه المعاهدة في الثنتين وعشرين مادة .

(١) نشر هذا العقد التأسيسي تحت عنوان :

The First Charter of the (English) Levant Company.

في :

Hurewitz J.C.; op. cit., Vol. 1, pp. 9-15.

(٢) يرد ذكر اسم شركة اليقانت في بعض المراجع العربية على هذا النحو : «شركة الشرق الأدنى» تأسيساً على أن منطقة اليقانت كانت تغطي منطقة الشرق الأدنى The Near East وقد استخدم المؤرخون الغربيون المصطلح الأخير في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، ثم رأت الولايات المتحدة الأمريكية إدماج مصطلح الشرق الأدنى مع مصطلح الشرق الأوسط The Middle East فاصبحت المصطلح الأخير يشمل حالياً تركيا وسوريا ولبنان وإسرائيل والأردن ومصر والعراق وشبه الجزيرة العربية ومنطقة الخليج وإيران وأفغانستان .

الفرنسي . وفي عام ١٦٤١ عقد شارل الأول معاهدة مع السلطان إبراهيم الأول كفلت لشركة الليغانت حرية التجارة في جميع أنحاء الدولة العثمانية . ثم عقد السلطان محمد الرابع (١٦٤٨-١٦٨٧) معاهدة مع إنجلترا في شهر سبتمبر - أيلول - ١٦٧٥ جددت فيها الامتيازات التجارية ، التي سبق منحها في معاهدات سابقة وأضيف إليها مواد جديدة . وأطلق على المعاهدة الجديدة اسم «المعاهدة النهائية للامتيازات بين الإمبراطورية العثمانية وإنجلترا : Final Treaty of Capitulations The Ottoman Empire and England»^(١) ، وهي تقع في خمس وسبعين مادة ، وتمثل هذه المعاهدة المرحلة الثانية المهمة في تاريخ الامتيازات التجارية البريطانية في الدولة العثمانية . وقد أوجز الدكتور زكي صالح الهدف من هذه الامتيازات قائلاً «إنه يُلخص في ذيل التاجر الإنجليزي حرية للتجارة داخل البلاد العثمانية ، والسماح له بمرور بضائعه منها على سبيل الترانسيت ، والتمتع بما يكفي حماية نفسه وماله . وقد ضمنت الامتيازات اسماً مثل ذلك للتجار العثمانيين في البلاد الإنجليزية ، غير أن الجانب العثماني لم يستفد في الواقع سوى ما يأخذه السلطان أو الباشوات من رسوم على البضائع الإنجليزية تبلغ عادة ثلاثة في المائة من ثمن البضاعة»^(٢) .

ولم يحدث بعد معاهدة ١٦٧٥ شيء يذكر حتى عام ١٨٠٩ ، حين نجحت بريطانيا في استمالة الدولة العثمانية إليها بعد فترة حروب وجفاء بينهما ، واستطاعت في اليوم الخامس من شهر يناير - كانون ثان - عام ١٨٠٩ أن تعقد مع الدولة العثمانية معاهدة الدردنيل : معاهدة السلام والتجارة والتحالف السري^(٣) . وقد جاء في مادتها الرابعة أن جميع الامتيازات التي سبق تقريرها في معاهدة ١٦٧٥ ومعاهدات سابقة أخرى «تظل ملحوظة ومرعية كأن لم يطرأ عليها تعطيل» .

shall be observed and maintained as if they had suffered no interruption.

وقد عقدت الدولة العثمانية تباعاً معاهدات أخرى على شاكلتها مع عدد من الدول الأوروبية الأخرى .

التعريف بمصطلح معاهدات الامتيازات الأجنبية :

اشتهرت هذه المجموعة من المعاهدات باسم Les Capitulations باللغة الفرنسية ومعاهدات الامتيازات الأجنبية ، باللغة العربية . ويعد أن عرضنا هذه النماذج من المعاهدات التي عقدتها الدولة العثمانية مع فرنسا وبريطانيا ، وإذا تركنا جانباً الترجمة العربية التي أطلقت

(١) Hurewitz J.C.; op. cit., Vol. I, 25-32.

(٢) دكتور زكي صالح ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٦ .

(٣) انظر في هذه الدراسة ص ص ٢١٧-٢١٨ .

عليها وهي ، معاهدات الامتيازات الأجنبية ، ولجأنا إلى ترجمة مترجمة Une traduction libre بدلاً من الترجمة المترجمة المفصلة والشاملة هي ، المعاهدات المتضمنة المبادئ القانونية لإقامة المستأمنين من رعايا الدول الأجنبية في ممتلكات الدولة العثمانية ولممارسة نشاطهم التجاري المشروع فيها وتقرير حق رعايا الدولة العثمانية المقيمين في أراضي تلك الدول في سريان هذه المبادئ عليهم . والمستأمنون مصطلح فقهي إسلامي . وقد سبق أن ذكرنا أن علماء الفقه يقسمون العالم إلى دار الإسلام ودار الحرب . وقلنا إن دار الإسلام تشمل البلاد التي يكون للمسلمين ولاية عليها ، وتضم إلى جانب المسلمين أشخاصاً من غير المسلمين هم «الذميون والمستأمنون» . والذميون هم الذين يقيمون في دار الإسلام بأمان مؤبد . أما المستأمنون فيجئون إلى دار الإسلام بأمان محدد المدة . وعلى خلاف المستأمنين لا يعتبر الذميون أجانب عن الجماعة الإسلامية (١) . أما دار الحرب فتشمل البلاد التي ليس للمسلمين ولاية عليها ولا تنقام فيها أكثر شعائر الإسلام .

وقد قرر بعض المؤرخين الأوروبيين أن معاهدات الامتيازات الأجنبية تستمد جذورها التاريخية من أصول بيزنطية ، تأسيساً على أن الدولة البيزنطية كانت تمنح رعايا جمهورية البندقية وغيرها من الكيانات السياسية في شبه جزيرة إيطاليا مثل هذه الامتيازات في أثناء إقامتهم في الأراضي البيزنطية . ويخلص هذا الفريق من المؤرخين إلى أن الدولة العثمانية قد نهجت نهج الدولة البيزنطية في عقد معاهدات الامتيازات الأجنبية . وهذا رأى اجتهدى لا يمثل الحقيقة ؛ لأن أصحاب هذا الرأي يجهلون أصول الفقه الإسلامي ويفترون عن حقيقة هامة هي أن الدولة العثمانية كانت حريصة على الالتزام بقواعد الشريعة الإسلامية . ولا يعد قيام الدولة العثمانية بعقد معاهدات الامتيازات الأجنبية دليلاً على أنها قلدت الدولة البيزنطية تقليداً أعمى في هذا الصدد .

سريان معاهدات الامتيازات الأجنبية علي الولايات العربية :

أصبحت البلاد العربية التي دخلت تحت السيادة العثمانية منذ أوائل القرن السادس عشر دولاً تابعة ، يطلق على كل منها دولة تابعة Un Etat Vassal تربطها رابطة الخضوع والولاء للدولة العثمانية ، التي يطلق عليها في القانون الدولي العام الدولة المتبوعة L'Etat Suzerain ، وترتب على هذا الوضع القانوني للولايات العربية حرمانها من ممارسة سيادتها في الخارج ؛ بمعنى أنها لم تعد تشغل مركزها في الجماعة الدولية إلا عن طريق الدولة العثمانية التي تتولى تمثيلها وتقوم عنها بصريف الشؤون الخارجية . وتلتزم الولايات العربية ، كل فيما يخصها ، بتنفيذ المعاهدات التي تعقدها الدولة العثمانية مع الدول الأجنبية . وكانت بيرا - وهي إحدى

(١) دكتور محمد حافظ غانم : مبادئ القانون الدولي العام ، مرجع سبق ذكره ، ص ٤٩-٤٦ .

ضواحي إستانبول - مقرأ للبعثات الدبلوماسية للدول الأجنبية منذ أن أخذت الدولة العثمانية بنظام التمثيل الدبلوماسي^(١) . ولم يمنع قصر التمثيل الدبلوماسي على الدولة العثمانية والدول الأجنبية عن تعيين قناصل للدول الأخيرة في المدن الهامة في الولايات العربية الخاضعة للدولة العثمانية ، فكان لبعضها قنصل عام أو قنصل أو نائب قنصل^(٢) . وكانوا لا يتبعون في العادة وزارة الخارجية البريطانية أو الفرنسية أو النمساوية أو غيرها ، وإنما يتبعون رؤساء بعثات دولهم في إستانبول . وكان عملهم أول الأمر في بلاد الدولة العثمانية مقصوراً على الشؤون التجارية وتعهد مصالح رعايا دولهم والتأشير على جوازات السفر وغير ذلك . ولكن لم يكن لهم أي اختصاص سياسي ، ثم أصبحوا بعضى الزمن ويأعاز من رؤساء البعثات الدبلوماسية في إستانبول يمارسون أنواعاً من النشاط السياسي أو الضغط السياسي على الولاة العثمانيين .

جناح محدود لسياسة الانفتاح بين الولايات العربية وأوروبا :

كان من المنتظر أن تكون معاهدات الامتيازات التي عقدتها الدولة العثمانية في هذا الصدد مع الدول الأوروبية تبعاً بمثابة نوافذ تطل منها الولايات العربية على أوروبا ، أو بمثابة القنوات the channels يتم عن طريقها الاتصال المنشود . ولكن لم تكن هذه المعاهدات هي

(١) كانت لاتزال درجات المبعوثين الدبلوماسيين تتفاوت . وقد عني مؤتمر فيينا عام ١٨١٥ ثم مؤتمر إكس لاشايل عام ١٨١٨ بترتيبهم في أربع مراتب تلو كل منها الأخرى : فتشمل المرتبة الأولى السفراء ومبعوثي البابا ، وتشمل المرتبة الثالثة الوزراء المفوضين والمنوبين فوق العادة ، وتشمل المرتبة الثالثة الوزراء المقيمين ، وتشمل المرتبة الرابعة القائمين بالأعمال . ثم استحدثت مرتبة جديدة يتقدم أصحابها في الحفلات الرسمية على المبعوثين الدائمين . ويطلق على أصحاب المرتبة الجديدة «المبعوثون في مهمة غير عادية Envoyés ea mission extraotdinaire كالمفاوضة في أمر ما أو حضور حفل زواج أو تويج أو الاشتراك في تشييع جنازة أو حضور جنازة ، انظر :

دكتور على صادق أبو هيف : القانون الدولي العام ، مرجع سبق ذكره ، ص ٤٢٦-٤٢٨ .

(٢) القناصل نوعان : قناصل مبعوثون Missi وقناصل مختارون Electi فالقناصل المبعوثون هم الذين تبع بهم ومن رعاياهم ويتقاضون مرتبات عن عملهم القنصلي ، ولذا فليس لهم أن يشتغلوا بأي مهمة أخرى أو بأي عمل تجاري خاص شأنهم في ذلك شأن بقية الموظفين ، ولذا يطلق عليهم أيضاً Consuls de Carrière للدلالة على تخصصهم وانقطاعهم للأعمال القنصلية .

وأما القناصل المختارون فتعينهم الدولة من بين الأشخاص المقيمين في الجهة التي ترغب أن يكون لها فيها تمثيل قنصلي . وهم كما كانوا من رعايا الدولة التي تختارهم ، كان يجوز أن تختارهم من رعايا الدولة التي يؤولون فيها مهمتهم أو من رعايا دولة ثالثة . ولا يمتد القناصل المختارون موظفين في الدولة التي يمثلون مصالحها ، وإنما هم مجرد وكلاء عنها في الشؤون التي تعهد بها إليهم . ولذلك فلم الحق - على خلاف القناصل المبعوثين - في الاشتغال بالأعمال الخاصة من تجارة ومهن حرة وخلافها ، إلى جانب عملهم القنصلي . وهم لا يتقاضون عادة مرتبات من الدولة التي تختارهم . ويطلق عليهم في الوقت الحاضر اسم «القناصل الفخريين» Consuls Honotaires .

انظر المرجع السابق ، ص ٤٤٩-٤٥٠ .

التي حددت حجم ونوعية هذا الاتصال . ولكن كانت هناك أسباب عامة وأسباب خاصة بكل ولاية عربية حددت حجم ونوعية هذا الاتصال ، وكان من بين هذه الأسباب مآل ديني واجتماعي وثقافي واقتصادي وسياسي .

عوائق دينية :

كان الرأي العام الإسلامي في الولايات العربية يشكل مجتمعات دينية إسلامية مغلقة ، ولم تكن العاطفة القومية قد وجدت بعد لدى سكان الولايات العربية ^(١) . وجاءت الدولة العثمانية فوجدت هذه المفاهيم مستقرة في أذهان الجماهير العربية . وكانت الدولة العثمانية نفسها قد أخذت بهذا النظام الذي عرف باسم «نظام الملل» ، وكان المسلمون لا يعرفون وقدذاك عن أوروبا إلا وجهها القبيح الذي كان يتمثل في الحروب الصليبية التي تعرضت لها أقاليم الشرق الإسلامي منذ نهاية القرن الحادي عشر الميلادي حتى أواخر القرن الثالث عشر ، وماتخل هذه الحملات الصليبية المتعاقبة من حملة قام بها لويس التاسع ملك فرنسا إلى تونس عام ١٢٧٠م إبتغاء الاستيلاء عليها وتحويل أهلها إلى المسيحية ليغطي فشله الذريع في دمياط والمنصورة حيث وقع في ذل الأسر . وكانت رواسب هذه الحروب لانزال ماثلة في أذهان سكان العالم العربي ، ويتناقلون أنباءها جيلاً بعد جيل ثم تسامعوا بأنباء حركة انتقال الحروب الصليبية إلى أوروبا حيث واجهت الدولة العثمانية تكتلات دولية صليبية ، تنادت إليها البابوية في روما وتعتها المؤرخون المحايدين بأنها كانت حروباً صليبية ، ثم عاصروا سقوط الحكم الإسلامي في الأندلس وما سبق هذا السقوط ثم لحقه من اضطهاد ديني عنيف تعرض له المسلمون في شبه جزيرة أيبيريا والذين اثاروا الاحتفاظ بدينهم ، ثم رأوا صراعاً صليبيّاً ضارياً في الحوض الأوسط والحوض الغربي للبحر المتوسط وفي أقاليم شمالي إفريقيا ، حين اندفعت إسبانيا والبرتغال في حروب بحرية وبرية تزوم احتلال شمالي إفريقيا وتحويل سكانها إلى المسيحية . وأقاموا لهم قواعد عسكرية أو جيواً صليبية تنائرت على الساحل الشمالي لإفريقية . وقد تصدى لهم سكان شمالي إفريقية بمفردهم أول الأمر ، ثم وجهوا الاستغاثات للدولة العثمانية يطلبون تدخلها عسكرياً لإنقاذهم وللحفاظ على إسلامهم وعروبتهم .

عوائق اجتماعية :

أما عن العلاقات الاجتماعية بين سكان الولايات العربية والأوروبيين فقد وقفت في وجهها عدة عوامل ، ولعل من أهمها أزمة عدم ثقة بين الجانبين . وقد سبق أن أشرنا إلى

(١) انظر مآكثبه من هذا الموضوع :

دكتور فيليب حتى : تاريخ سورية ولبنان وفلسطين . جزآن ، الطبعة الثانية ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٧٢ ، ج٢ ، ترجمة د. كمال البارزجي ومراجعة د. جبرائيل جبور ، ص ٣١٢-٣١٣ .

أسباب هذه الأزمة . وكان العرب ينظرون إلى الأوروبيين نظرة ملؤها الشك والحذر معاً . وكانت أماكن إقامة الأوروبيين وتجارهم ومعابدهم تحدد في حى أو خان خاص بهم . ويتكون الخان من عدة مبانٍ تشمل مستودعات فسيحة للسلع ، تودع في الدور الأرضى وفوقه مساكنهم . وفي داخل الخان كنيسة خاصة بهم . ويبعداً عن مبانى الخان كانت ترابط خيولهم وبغالهم وحميرهم . ويلحق بالخان أرض لدفن موتاهم . فكانوا يقيمون في مستعمرة خاصة بهم . وزيادة في الحذر كان يقفل عليهم الباب الحديدى الضخم للخان ، كلما سجا الليل ويسلم مفتاحه إلى القنصل أو نائب القنصل الذى يرده في صبيحة اليوم التالى . وكان لايسمح لهم بالخروج من الخان أيام الجمعة إلى أن تنتفضى شعانر صلاة الجمعة كإجراء وقائى ، يلجأ إليه المسلمون خوفاً على حريتهم ومناجرهم في أثناء انصرافهم إلى المساجد . فإذا قضيت الصلاة سمح للأوروبيين بمغادرة مساكنهم .. وهكذا عاشوا في معظم الولايات العربية ، على هامش المجتمعات الإسلامية . فإذا كانت العلاقات الاجتماعية بين الجانبين ضعيفة داخل تلك الولايات العربية فإنها كانت معدومة تماماً في خارجها ؛ بمعنى أنه لم يكن من المتوقع قط في تلك العصور أن يقوم الشيخ جمعة من القاهرة أو الأسطى شحاته من جرجا أو الشيخ متولى من دمشق أو الشيخ خليل من بغداد برحلة إلى أوروبا يقضى فيها شطراً من فصل الصيف مصطحباً معه حريمه ومائز عياله ، ويذهب بهم إلى سويسرا للتزحلق على ثلوج جبالها ثم يستأنف رحلته إلى مصيف دوفيل Daville في شمالي فرنسا ، ويعرج في طريق عودته إلى موطنه على الريفييرا الفرنسية وجزيرة كابرى Capri ليستمتع بالاستحمام في مياه البحر المتوسط . وليس في هذا القول تهكم على العرب أو سخرية بهم ، ولكن كانت ظروفهم الاجتماعية لا تسمح لهم بالقيام برحلات خارج نطاق العالم العربى وبخاصة إلى أوروبا لأنهم كانوا يخضعون لتقاليد راسخة لا يستطيعون منها فكاً ، وإن كانت قلة من صدورهم تذهب اماماً إلى إستانبول في مهمات رسمية أو شبه رسمية ، يعهد بها إليهم ولاية الأقاليم العربية أو لتقديم شكايات إلى السلطان أو الصدر الأعظم عن تصرفات ظالمة ، تعرضت لها الجماهير العربية الكادحة .

عوائق ثقافية :

أما عن العلاقات الثقافية .. فلم يكن يدور بخلد أحد من سكان الولايات العربية أن يوفد أبناءه إلى جامعات أوروبا للالتحاق بها واستكمال دراستهم فيها . فالتبلاد العربية كانت حافلة بمراكز مرموقة للدراسات الإسلامية العربية العليا . نذكر منها على سبيل المثال الأزهر الشريف في القاهرة ، والقيروان في شمالي إفريقيا ، ودمشق في الشام ، والكوفة والبصرة في العراق ، فضلاً عن مكة المكرمة والمدينة المنورة . وأطلق المستشرقون على هذه المراكز العلمية الإسلامية العربية اسم College Mosques أى الكليات الملحقة بالمساجد . وكانت هذه المراكز مركز جذب للراغبين في العلم كافة أنحاء العالم العربى والإسلامى . كما كان يتردد عليها

صدور العلماء المسلمين يتصدرون الحلقات الدراسية فيها ويلقون دروسهم فى موضوعات شتى تحصل بالعلوم الدينية واللغوية والعلمية وغيرها . وكانت هذه الحلقات دراسات جامعية ، وكانت الصلات الوثيقة تربط بين علماء الإسلام بعضهم ببعض . واعتقد سكان الولايات العربية أنه ليست بهم حاجة إلى تعلم أبنائهم فى جامعات إنجلترا أو فرنسا أو إيطاليا أو غيرها . فهذه البلاد كانت فى نظرهم منذ القرن السادس عشر إلى أوائل القرن التاسع عشر مهد الكفر والكفرة . ولم تكن الدولة العثمانية مسئولة عن هذه العزلة الثقافية التى فرضها العرب على أنفسهم كما فرضوا على أنفسهم العزلة الاجتماعية متأثرين بمفاهيم تلك العصور . وكانوا من أوروبا حذرين وفى شك مريب ، يخشون أن تفعل بهم مفاعلتهم من قبل مع أسلافهم العرب المسلمين .

عوائق اقتصادية :

أما عن العلاقات الاقتصادية بين الولايات العربية وأوروبا فكانت فى نطاق ضيق ، لأن الاقتصاد فى الولايات العربية كان يقوم على سياسة الاكتفاء الذاتى : يأكل السكان مما تنقله أراضيهم الزراعية من حاصلات مثل الأرز والقمح والذرة والشعير والفول والبصل والعدس وما إلى ذلك ، ويرتدون ملابس من الأقمشة الرخيصة من الإنتاج المحلى . وكانت قلة الإنتاج من السمات البارزة فى الحياة الاقتصادية فى معظم الولايات العربية .

وكانت عمليات التصدير والاستيراد يتم داخل نطاق الولايات العربية فيما بينها مثل مصر وبلاد الشام والحجاز واليمن وأقاليم شمالى إفريقية وغيرها . أما عمليات الاستيراد من أوروبا .. فكان معظمها مقصوراً على السلع الكمالية مثل الأثاث الفاخر والسجاجيد الثمينة والثيرات التى تتدلى منها قطع البلور والأقمشة الحريرية والصوفية والجوخ والقطيفة والرخام والزجاج الملون المزديان بالزرموم البديعة ، ويستوردها التجار الأثرياء ، وكان يطلق على التجار العربى المسلم الثرى «الخواجة المكرم» . وكانوا يستخدمون بعض هذه السلع فى تزيين قصورهم وارتداء الملابس الفاخرة سواء فى الصيف أو فى الشتاء ، أو لبيعها للأعيان من ذوى البيوت والعصبيات القديمة والوجاقية - أى ضباط وضباط الصف من الفرق العسكرية - والمماليك وغيرهم من كبار الحكام وصدور علماء الأزهر ، الذين تعددت مواردهم المالية من النظر على الأوقاف وإصدار الفتاوى والاشتغال بالتدريس فى الأزهر الشريف وشغل المناصب القضائية ومن نظام الائتزام . فكان رزقهم يأتيهم رغداً من كل مكان ، وجنحوا إلى محاكاة كبار التجار والحكام فى معيشتهم فابتنوا القصور وزينوها بأروع أنواع الأثاث المستورد من أوروبا . ويعطى الجبرتى صوراً رائعة عن هذه القصور وزخارفها ، وماحوت من سلع مستورة من أوروبا (١) .

وكان السفر إلى أوروبا محفوفاً بالأخطار التى تصل إلى حد المغامرة بأرواح المسافرين؛ إذ كانت السفن التى تقوم برحلات فى حوض البحر المتوسط - وهو بحر لجى - مصنوعة من

(١) انظر الأجزاء الثلاثة الأولى من الجبرتى .

الأخشاب وتسير بالقلوع . ومما هو جدير بالذكر أنه لما أنشئ الخط الحديدي بين القاهرة والإسكندرية عام ١٨٥٦ كان المصريون يخشون ركوب القطارات خوفاً على حياتهم ؛ لأنها كانت في زعمهم تجرى بسرعة ، مع أن القطار كان يستغرق في مثل هذه الرحلة زهاء اثنتي عشرة ساعة يقطع فيها مائتين وثمانية كيلو متراً . ولذلك كان معظم ركاب السكك الحديدية في مصر في السنوات الأولى من الأجانب . وكانت معظم السفن التي تتردد من أوروبا سفناً أوروبية ، تتبع جمهورية البندقية أو جمهورية جنوة أو غيرها من الكيانات السياسية في شبه جزيرة إيطاليا أو سفناً فرنسية أو يونانية أو عثمانية . أما السفن المصرية فكانت تسير في النيل لنقل المسافرين أو للتجارة الداخلية ، ولذلك تضاءلت أهمية أساكن^(١) الإسكندرية ورشيد ودمياط وبعض أسكلة الشام في العصر العثماني نتيجة الانقلاب التجاري The Commercial Revolution عقب تحول طرق التجارة العالمية إلى طريق رأس الرجاء الصالح .

وكان سكان الولايات العربية يجهلون اللغات الأوروبية ؛ مما أقام حاجزاً لغوياً منيعاً ، كان من الصعب اجتيازه ، حتى لو أراد سكان الولايات العربية السفر إلى أوروبا ، وهي فكرة كانت مستبعدة تماماً من أذهانهم .

وكانت العملة السائلة المتداولة قليلة ؛ إذ كان نظام النقد يقوم في كثير من الحالات على قاعدة المبادلة أو المقايضة Barter ويذكر أحد الباحثين أن قطاعات كثيرة من سكان أقاليم الوجه القبلي في مصر كانت لاتعرف النقود المعدنية ، بل كانت تتعامل بنظام المبادلة^(٢) . واتجه أصحاب الثروات إلى استغلال مدخراتهم في شراء العقارات المبنية أو الأراضي الزراعية وأوقفوها وفقاً خيراً أو أهلياً خشية مصادرة السلطات الحاكمة لها ولأن أراضي الأوقاف كانت تتمتع بالإعفاء الضريبي .

نخلص من هذا العوض إلى أن الدولة العثمانية لم تكن مسئولة عن هذا النظام الاقتصادي ، الذي فرض نوعاً من العزلة على الولايات العربية ؛ إذ لم يكن في مكتة الدولة القيام بدور الوسيط لإكراه الجماهير العربية على استيراد السلع من أوروبا بسبب العقد النفسي ، التي كانت تتحكم في هذه الجماهير إلى جانب «الموانع» التي أشرنا إلى طرف منها . يضاف إلى تلك العقد النفسي والموانع أن الدولة تركت ميدانتي الصناعة والتجارة لرعاياها غير المسلمين ، وانصرفت إلى الاهتمام بالقطاع الزراعي في الأناضول والمناطق القريبة من إسطنبول وأهملت النهوض بالزراعة في ولاياتها العربية . وهذا ما نأخذ عليها وسنعرض له في فصل قادم عن المآخذ عليها .

(١) سبق شرح هذا المصطلح . انظر في هذه الدراسة ص ١١ .

(٢) دكتور على الجريتي ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٦ .

عوائق سياسية :

أما عن الأسباب السياسية فكان بعضها يرجع إلى الدولة العثمانية حياً ، والبعض الآخر إلى الدول الأوروبية أحياناً أخرى . أخذ نفوذ الدولة العثمانية في الولايات العربية يتضاءل رويداً رويداً منذ أواخر القرن السابع عشر ؛ بسبب ضعف الباشوات حكام الولايات العربية واستئثار العناصر المسلحة ذات العصبية بالحكم مثل الأمراء المعاليك في مصر وممالك العراق وروساء الطوائف في باشويات الشام ، وكان تنفيذ معاهدات الامتيازات يخضع لأهوائهم . وكانت الحكومات الأوروبية وسفراؤها وقناصلها وتجارها يقدمون الهدايا والرشاوى إلى كبار رجال الدولة ، سواء في إستانبول أو في الولايات العربية لتنفيذ نصوص المعاهدات . ومن جانب آخر استشرى نفوذ الدول الأوروبية وازداد تدخلها في الشؤون الخارجية والداخلية على السواء للدولة العثمانية . واتخذت هذه الدول من معاهدات الامتيازات سنداً لها في هذا التدخل ، وكانت الدولة تتعرض لهزائم عسكرية أليمة من الجيوش الأوروبية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . ووجدت الدول في هذه الهزائم مشجعاً لها على مزيد من التدخل ، أكثر مما نصت عليه معاهدات الامتيازات ، التي قامت أصلاً على أساس تبادل الحقوق والواجبات بين المستأمنين الأوروبيين في للدولة والرعايا العثمانيين في الدول الأوروبية بحيث أصبحت هذه المعاهدات غرضاً على الدولة وغنماً للمستأمنين الأوروبيين ، الذين لم يقتنعوا بالإعفاء الضريبي ، بل كانت لهم حصانة مدعية تجاه السلطة القضائية والسلطة التشريعية والسلطة التنفيذية في أقاليم الدولة . وتطلعون إلى مزيد من الامتيازات وأصبحت الدولة عاجزة عن التدخل لحفظ حقوق رعايا المقيمين في الدولة أمام جشع الأجانب ؛ مما أدى إلى سيادة الفوضى البالغة في الولايات العربية ، وابتعاد قطاعات من سكانها العرب عن الأوروبيين خوفاً من بطشهم وجبروتهم واستعلائهم^(١) .

أولاً : مصر

صلات عربية وإفريقية وآسيوية مكثفة بدلاً من العزلة النسبية عن أوروبا :

ولكن هذه العزلة بين أوروبا والولايات العربية كانت تقابلها علاقات تجارية مكثفة مع إفريقية وآسيا . كانت القوافل والسفن الإسلامية وسيلة الاتصال ، وكانت ترد من دارفور وسنار وكردفان في السودان وغيره من أقاليم جوف إفريقية حاملة العاج وريش النعام والصمغ والتمر هندي والجلود والتمر والكحل وقرن الخرتيت والشب والرقيق الأسود . وكانت محطات وصول

(١) عن هذا الموضوع ، انظر كلام من :

على ماهر باشا ، مرجع سبق ذكره ص ٣٢٦-٣٤٠ .

دكتور حامد سلطان ، مرجع سبق ذكره ، ص ٤١٢-٤٢٠ .

تلك القوافل إلى مصر تقع في إسنا وأبى تيج وأسيوط والقاهرة . وكانت هناك قوافل أخرى تأتي من شمالي إفريقية : مراكش والجزائر وتونس وطرابلس حاملة الأصواف والشيلان والطرابيش والأحذية والزيت والشمع والعسل^(١) . وكانت حركة وصول قوافل شمالي إفريقية إلى مصر تشتد إبان موسم الحج ؛ إذ يجتمع حجاج شمالي إفريقية في القاهرة ؛ حيث ينضمون إلى قافلة الحج المصري في رحلتها إلى الحجاز . وكانوا يحرسون على الوصول إلى العاصمة المصرية في وقت مبكر قبل تحرك قافلة الحج المصري في السبت الثالث من شهر شوال من كل عام ، وكانوا يحرسون على قضاء شهر رمضان المعظم في القاهرة يزاولون ألواناً من النشاط للتجارى ، ويقضون بقية النهار وزلفاً من الليل في تلاوة القرآن وزيارة المساجد وأضرحة أولياء الله . وكانت ترد إلى مصر أيضاً حاصلات بلاد التكرور - وهى الإقليم الغربى لجنوبى السودان على جانبيه نهر السنغال ، ويسمى بالفرنسية Toucouleur وبالإنجليزية Tuculor . وإقليم تكرر لا يعدو أن يكون إقليماً من الأقاليم المكونة لمملكة مالى وحدها من المحيط الأطلسى غرباً إلى بلاد البرنو شرقاً في قلب إفريقية ، اعتنق سكانه الإسلام في النصف الأول من القرن الحادى عشر الميلادى ، وكانوا أمبق طوائف غربى إفريقية اتصالاً بمصر . ووجدت علاقات اقتصادية وثقافية بين الشعب الإسلامى في مصر وبين التكروريين^(٢) . وكانت القوافل تحمل حاصلات بلادهم إلى مدينة قوص ، ثم تنقلها السفن النيلية إلى القاهرة . وكان أهل تكرر يعمرون بمصر وهم في طريقهم إلى الحجاز أداء فريضة الحج وفي عودتهم منها^(٣) ، وابتنى تجار تكرر في القاهرة مدرسة لتعليم أبنائهم قبل إلحاقهم بالأزهر وعرفت باسم مدرسة ابن رشيق^(٤) . وكان لطلبة تكرر رواق خاص بهم في الأزهر الشريف . واستطاب التكروريون الإقامة في قرية ساحلية بالجيزة - قبالة القاهرة - كانت تسمى منية بولاق ، ثم عرفت باسم

(١) دكتور محمد فهمى لهبط : تاريخ مصر الاقتصادى إلخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ٤٦ .

(٢) يرى بعض الباحثين أن كلمة تكرر اشتقت من لفظة تكرر ، لأن أمالى هذا الإقليم كانوا يحرسون على تكرار أداء فريضة الحج ، بينما يرى البعض الآخر أن الكلمة أخذت من كلمة تكرر أى تنقية وتطهير وتركية إيمانهم ويعقيدتهم عن طريق تانية فريضة الحج عدة مرات . ويرى البعض الثالث أنه تكرر اسم مدينة ، وأنه يطلق أيضاً على القبائل التى تقطن السودان فى أقصى الجنوب من المغرب . وإن هذه القبائل تشبه الزنج إلى حد كبير .
انظر كلام من :

Burckhardt J.L., Travels in Nubia, London, 1819, P. 404.

ياقوت الحموى : معجم البلدان ، القاهرة ، ١٩٠٦ ، ج ٢ ، ص ٣٩٩ .

(٣) ابن فؤدى : الإمام محمد بلو بن عثمان بن فؤدى : إتفاق المسور فى تاريخ بلاد التكرور . تحقيق ونشر دكتور شوقى عطا الله الجمل . بكلمة بلو بلغة قبائل الغولاني تعنى المساعد أو المعين . وقد أطلق عليه هذا اللقب لمعاونته لأبيه عثمان فؤدى فى حربه وفى شئون الحكم والإدارة .

(٤) المقرئى : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، طبعة بولاق ، ١٨٥٢ ، ج ٢ ، ص ٢٢٦ .

بولاق التكرور^(١) . فكان لأهل تكرر نشاط تجارى مع مصر طوال السنة بحكم جاليتهم الكبيرة فى القاهرة ، وكانوا يتبادلون المحاصيل والمنتجات . ويشد هذا النشاط التجارى إبان موسم الحج على غرار قوافل شمالى إفريقية .

وبجانب القوافل التجارية كانت السفن الإسلامية التى تمخر عباب البحر الأحمر تقوم برحلاتها من ثغر المخا فى اليمن إلى موانئ سواكن وجدة والقصور والسويس تحمل الدين من اليمن وبعض السلع من أقاليم آسيا ، كما كانت ترفأ إلى دمياط ورشيد والإسكندرية السفن العثمانية واليونانية من فلسطين وسوريا وأزمير وإستانبول وغيرها ، تحمل الصابون والتبغ والزيت والحبر والأخشاب .

بريطانيا وفرنسا تعقدان معاهدات تجارية مع الأمراء المماليك فى مصر :

يلاحظ أن بريطانيا وفرنسا لم تقنعا بإبرام معاهدات امتيازات مع الحكومة العثمانية فى إستانبول فقط ، بل اتجهت كل منهما إلى مصر لعقد معاهدات على غرارها ، بعد أن ضعف نفوذ الحكومة العثمانية ضعفاً شديداً فى مصر واستبد الأمراء المماليك بالحكم ؛ خاصة منذ حركة على بك الكبير عام ١٧٦٩ ، وكان قد قام تنافس شديد بين تلك الدولتين على إيجاد طريق قصير وسريع وسهل بين أوروبا وممتلكاتها فيما وراء البحار . وكانت بريطانيا تفصل إحياء الطريق البرى القديم The Overland Route من السريس عبر الصحراء القاهرة ثم الإسكندرية بينما كانت فرنسا تؤثر شق قناة بحرية بين البحرين

(١) أقام فى هذه القرية رئيس التكرورين فى القاهرة ، واسمه الشيخ أبو محمد يوسف ابن عبدالله التكرورى . وقد نقل الضريع والجامع إلى داخل البلدة خوفاً من تصدع البناء ، إذا جاء الفيضان عالياً خطيراً .

بجانب المصادر والمراجع التى سبق ذكرها عن هذا الموضوع ، انظر كلاً من :

المقريزى : الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام . نشره دكتور رثك ومحفوظ بدار الكتب المصرية بالقاهرة تحت أرقام ١٤٥٧-١٤٥٨ ، ١٤٦٤-١٤٦٥ ، ١٤٦٦ ، ٢٢٩٥ ، وتوجد مخطوطة بدار الكتب تحت رقم ٥٠٠ تاريخ .

ابن خلدون ، العبر وديوان المبتدأ والخبر ، بيروت ، ١٩٥٩ ، ج ٦ ، ص ٤١٢-٤١٥ .

ابن خلدون : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، ١٨٨٢ ، ج ٢ ، ص ١٤ .

على مبارك : الخطط الترفيقية ، ج ١٠ ، ص ١٦ .

دكتور سعيد عبدالفتاح عاشور : العصر المماليكى ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٩٠ ، حاشية رقم ٤ .

دكتور إبراهيم طرخان : مصر فى عصر دولة المماليك الشراكسة ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٤٩-١٥٠ .

Levtzion N.; The Thirteenth and Fourteenth Century Kings of Mali (J. Afr. Hist. iv. No. ٥, 1763.

دى لافوس De lafosse ، دائرة المعارف الإسلامية ، مادة تكرر ، الطبعة الثانية .

المتوسط والأحمر^(١)، ونجحت كاتهما في عقد معاهدات مع الأمراء المماليك في مصر . أبرمت بريطانيا سلسلة من الاتفاقيات ، كان من بينها اتفاقية مع على بك الكبير بعد أن فتح الحجاز ، وأراد أن يستأثر بتجارة البحر الأحمر الحرة وسواحل الهند . وقد عين بالثار Balthar - أخ كارلو دي روسي Carlo de Rosetti - قنصل النمسا العام في مصر وصديق على بك الحميم - أميناً لجمرك جدة . ووصلت سفينة إنجليزية إلى هذا الميناء ، ثم تطلع إلى إنشاء طريق بحري للتجارة بين الهند وميناء السويس ؛ كي يستفيد من الرسوم الجمركية على السفن وعلى مائحه من بضائع . وازدادت تطلعاته فأراد تحويل التجارة الشرقية عن طريق رأس الرجاء الصالح إلى الطريق البري القديم عبر مصر . ووصلت سفينة إنجليزية من البنغال إلى السويس ، غير أن نهاية على بك جاءت سريعة في عام ١٧٧٣ فتوقف مشروعه . وعلى عهد خلفه الأمير المملوكي محمد بك أبي الذهب ، استطاع الرحالة الإنجليزي جيمس بروس James Bruce أن يستصدر فرماناً محلياً من أبي الذهب عام ١٧٧٣ إلى شركة الهند الشرقية التجارية ، جاء فيه أنه لما كان التجار الإنجليز يشكون من المظالم التي أنزلها بهم شريف مكة وعماله في جدة ، وكان التجار الإنجليز يودون المجيء بسفنهم إلى السويس في أمن وسلام ، فقد سمح أبو الذهب بحضور السفن الإنجليزية إلى السويس ، وتعهد بعدم التعرض للتجار بالأذى ، من جانب أو جانب ضباطه وخدمه ورعاياه . ثم حدد الضريبة بثمانية في المائة من المتاجر المبوبة إلى السويس أو من قيمتها ، بالإضافة إلى خمسين ريالاً إسبانياً (أبو طلاقة) كرسوم يدفع عن كل سفينة . وأجاز أبو الذهب للتجار الإنجليز إحصار متاجرهم إلى القاهرة ذاتها والتجارة فيها إذا رغبوا في ذلك ، أو التجارة في السويس^(٢) وكانت مينرثا Minerva أولى السفن الإنجليزية التي وصلت إلى السويس بعد هذا الإتفاق في يناير - كانون ثان - ١٧٧٥ وكانت تحمل مندوبين من قبل وارن هيستنجز Warren Hastings حاكم البنغال إلى أبي الذهب . ونجح هؤلاء في ٧ من مارس - آذار - ١٧٧٥ ، في عقد معاهدة للتجارة والملاحة بين أبي الذهب وهيستنجز حاكم البنغال من قبل الدولة البريطانية . وقد خولت هذه المعاهدة حق التجارة في الهند وفي مصر لمواطني المتعاقدين على المواء ، وخففت الرسوم الجمركية على البضائع المجلوبة من الهند إلى السويس ، وأجازت للإنجليز شراء وتصدير المنتجات المصرية دون فرض ضرائب عليها . وتعهد أبو الذهب عن نفسه وعن خلفائه في حكومة مصر ، بالمحافظة على المتاجر المنقولة من الطور أو السويس إلى القاهرة في طريق تصديرها إلى الخارج . وقد اعترض الباب العالي على مجيء السفن الإنجليزية إلى السويس . وكانت

(١) انتظر عرشاً لهذا التنافس ومظاهره في :

دكتور عبدالعزيز محمد الشناري : قناة السويس والتيارات السياسية إلخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ٦٧-٦٨ .

(٢) دكتور محمد فؤاد شكرى : الحملة الفرنسية إلخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٩-٤٢ .

حجته في هذا الاعتراض هي أن الاحترام الواجب للحرمين الشريفين لايجز للسفن الإنجليزية الملاحة في البحر الأحمر شمالي جدة . وجاءت وفاة أبي الذهب الفجائية في ٨ من شهر يونيو - حزيران - عام ١٧٧٥ فجعلت تنفيذ هذه المعاهدة أمراً متعذراً . فقد استأثر بحكم مصر الأميران المملوكيان إبراهيم بك الكبير ومراد بك وشاعت الفوضى في البلاد . غير أن أحد كبار التجار الإنجليز ، واسمه جورج بولدوين George Baldwin ، ممن كانوا يمارسون نشاطاً تجارياً واسعاً في منطقة الشرق الأدنى منذ سنة ١٧٦٠ ، كان يعتقد أن استخدام الطريق البري عبر مصر يعود بفوائد كثيرة على التجارة بين الشرق والغرب ، وأن نقل البريد بوجه خاص بين إنجلترا ومستعمراتها في الهند لا يقل أهمية عن نقل البضائع . ولما لم يكن هناك من يشرف على مصالح الإنجليز في مصر في تلك الآونة ، عزم على أن يأخذ على عاتقه هذه المهمة ، واستطاع أن يظفر من شركة الليفانت الإنجليزية ومن شركة الهند الشرقية للتجارة بما يخوله الإشراف على مصالح هاتين الشركتين في الشرق الأدنى بما فيها مصر . وبذل بولدوين منذ عام ١٧٧٥ جهوداً مكثفة في مصر لتنظيم خط مواصلات منتظم من الهند إلى السويس - القاهرة - الإسكندرية - إنجلترا وبالعكس ، وأثمرت جهوده إلى حد أن السلطات الهندية والإنجليزية في عام ١٧٧٧ أصبحت تعتمد اعتماداً كلياً على الطريق البري عبر مصر في نقل بريدها . وعاد الباب العالي يعارض هذا المشروع واتخذ من الناحية الدينية الإسلامية سبباً لاعتراضه . فأصدر السلطان عبدالحميد الأول (١٧٧٤-١٧٨٩) فرماناً في عام ١٧٧٩ بمنع أي سفينة من سفن الإفرنج من الاقتراب سراً أو علانية من ميناء السويس ، وجاء في هذا فرمان ... « إن بحر السويس هو الطريق المميز للحج المقدس إلى مكة المكرمة . وإن السماح لهذه السفن بالملاحة ومساعدتها ، وعدم منعها ، خيانة للدين والسلطان والإسلام قاطبة» (١) .

والواقع أن الدولة العثمانية كانت تخشى أن تتخذ إنجلترا من السماح للسفن الإنجليزية بالملاحة في البحر الأحمر إلى السويس وسيلة لاحتلال مصر وغيرها من الممتلكات العثمانية المطلة على هذا البحر . وأصرّت على سياستها التقليدية كإجراء أمن لها . ولذلك لم يؤذن إلا للسفن العثمانية بنقل البريد من جدة إلى السويس . ودلت الأحداث على أن مشروع نقل البريد عبر طريق السويس البري كان سابقاً لأوانه ، لأن فوضى الحكم كانت تتفاقم يوماً بعد يوم على عهد إبراهيم بك الكبير ومراد بك ، واختل الأمن عبر الطريق الصحراوي . ولم يقدر لهذا المشروع أن ينفذ تنفيذاً سليماً إلا في القرن التاسع عشر على عهد محمد علي بمعرفة توماس واحسون Thomas Waghein أحد الضباط الإنجليز في شركة الهند ، ونظم قوافل من الإبل للخدمة بانتظام بين السويس والقاهرة . وكان الأمن مستتباً في مصر ، واشتدت قبضة الحكومة على العربان والأهلين .

(1) Charles Roux J.; L'Itshme et le Czanol de Suez. Historique. Etat actuel. 2 vol. Paris, 1901. Vol. I, Annexe No5, pp. 419-420.

فرنسا تعقد ثلاث اتفاقيات تجارية مع مصر:

أما فرنسا .. فقد هالتها المحاولات المكرورة التي بذلها الإنجليز في مصر لإنشاء مركز تجارى متميز لهم فيها ، وإحياء طريق السويس البرى ، وهالتها أيضاً مساعى سفير النمسا فى إستانبول لإحياء مرور التجارة الشرقية بين تريستا والهند عن طريق مصر والبحر الأحمر ، واحتمال تداعى الدولة العثمانية ، فأوقدت فرنسا الضابط البحرى ترجويه Truguet إلى مصر فى أواخر عام ١٧٨٤ ، ونجح فى عقد ثلاث إتفاقيات سنة ١٧٨٥ : كانت الأولى فى ٩ من شهر يناير - كانون ثان - مع مراد بك ، تعهد فيها الأخير بحماية للتجارة الفرنسية عند مرورها من السويس إلى القاهرة . وحدد الضريبة على تجارة الهند باثنين فى المائة للباشا العثمانى وأربعة فى المائة للبك الحاكم وتخفيض إلى ثلاثة فى المائة فقط إذا كانت السلع مصدرة إلى فرنسا . وقد وقع على هذه الاتفاقية بعد ذلك الأمير إبراهيم بك الكبير ، وكانت الاتفاقية الثانية فى ٢٣ من شهر يناير - كانون ثان - مع يوسف كساب الملقب العام للجمارك فى مصر ، تعهد فيها بعدم زيادة الرسوم الجمركية على السلع الفرنسية وتحصيل نصف فى المائة من قيمة السلع المفرغة من السفن فى السويس . وعقدت الاتفاقية الثالثة فى الشهر ذاته أيضاً مع الحاج ناصر شديد أحد شيوخ العريان ، تعهد فيها بنقل البضائع الفرنسية بأمان فى طريق الصحراء من السويس إلى القاهرة ، فى مقابل أجر عن كل جمل^(١) . غير أن هذه الإتفاقيات الثلاث لم تسفر عن النتيجة المرجوة لأن إبراهيم بك الكبير ومراد بك دأبا على الإمعان فى مظالمهما وإرهاق التجار الأجانب وإبتزاز الأموال منهم . وكان إبرام هذه الإتفاقيات سواء مع إنجلترا أو فرنسا فى مقدمة الأسباب ، التى حملت السلطان عبد الحميد الأول على إرسال حملة عسكرية بقيادة حسن باشا الجزائرلى إلى مصر لكسر شوكة الأمراء المماليك . وهذه الحملة من الحملات الفريدة فى تاريخ مصر ؛ فالدولة العثمانية ترسل حملة عثمانية إلى مصر العثمانية لدعم السيادة العثمانية وتقليم أظافر المماليك . وقد دخلت الحملة القاهرة فى شهر أغسطس - آب - عام ١٧٨٦ ولم تحقق نجاحاً يذكر ، إذ اعتصم إبراهيم بك الكبير ومراد بك فى الصعيد ، واستدعت الحكومة العثمانية الحملة فى السنة التالية بسبب نشوب الحرب مع الروسيا فى شهر سبتمبر - أيلول - عام ١٧٨٧ ، وعاد هذان الأميران المملوكيان إلى القاهرة وظلا يحكمانها حكماً ثنائياً استبدادياً ، تكسدت فيه المظالم من يمين ويسار على سكان البلاد - مصريين وأجانب- فتعدر أو استحال تنفيذ الإتفاقيات التجارية ، سواء التى عقدتها بريطانيا أو فرنسا مع الأمراء المماليك . وظل الموقف على هذا المنوال حتى مجيء الحملة الفرنسية إلى مصر عام ١٧٩٨ .

وإذا كان اتصال مصر بإبان الحكم العثمانى بأوروبا ظل ضعيفاً باهتاً ، شاحباً لأسباب

(1) Charles Roux F.; Autour d'une Route L'Angleterre., L'Istme de Suez et L'Egypte au XVIII^e siècle. Paris, 1922, P. 172.

كانت كلها أو غالبيتها خارجة عن إرادة الدولة العثمانية .. فإن بعض الولايات العربية الأخرى كان على اتصال وثيق ومستمر مع أوروبا بل والولايات المتحدة الأمريكية ، وكان من بين هذه الولايات : باشويات الشام وولايات العراق ونيابات شمالي إفريقية .

ثانياً : بلاد الشام

أسباب اتصال بلاد الشام بأوروبا إبان الحكم العثماني :

كانت لبلاد الشام أوضاع خاصة بها ، اختلفت اختلافاً جذرياً عن الأوضاع في مصر وغيرها من الولايات العربية فيما عدا نيابات شمالي إفريقية . وقد أسهمت هذه الأوضاع في قيام اتصال وثيق ومستمر بين باشويات الشام وأوروبا طوال الحكم العثماني من أوائل القرن السادس عشر (١٥١٦) حتى نهاية الحرب العالمية الأولى (١٩١٨) ؛ بحيث كانت العزلة مع أوروبا شبه منعدمة فيها . ويمكن القول بأن اتصال بلاد الشام بأوروبا كان أكثر وأوثق من اتصال أي ولاية عثمانية أخرى في الشرق العربي مع أوروبا ، في خلال تلك القرون الأربعة . وجسبنا أن نذكر ثلاثة عوامل أدت إلى هذه النتيجة .

كان العامل الأول هو أن بلاد الشام لم تخضع لحكومة مركزية واحدة كما حدث في مصر ، بل قسمت إلى عدد من الوحدات الإدارية ، عرفت باسم الباشويات أو الإيالات - جمع إيالة - وكانت هي باشوية حلب ، باشوية دمشق ، ويطلق عليها باشوية الشام حيناً ، وباشوية سوريا حيناً آخر ، ثم باشوية طرابلس . وكانت كل باشوية مستقلة عن الأخرى . وكان يطلق عليها حاكم كل منها أول الأمر أمير الأمراء - ميرميران - وكان رئيساً للسلطة في إيالته مسؤولاً عن ضمان استمرار ولائها للسلطان وتوفير العدالة والأمن للسكان . ومارس اختصاصات واسعة في الشؤون الإدارية والعسكرية والقضائية والإقطاعية . وكثيراً ما تناضرت اختصاصاته مع القضاة ، وكان يتدخل في تحديد الأسعار ومراقبة النقد وتوفير المواد الغذائية ، ولكنه لم يكن يتدخل في تنفيذ مشروعات اقتصادية أو اجتماعية . ولكن هدفه الأول كان المحافظة على الأمر الواقع ومحاربة البدع وتطبيق قوانين الدولة وإقامة مساجد أو تكايا أو خانات أو مدارس^(١) . وكانت له حاشية تشبه حاشية الصدر الأعظم . ولم يظل التقسيم الإداري لبلاد الشام ثابتاً ، بل أدخلت عليه تعديلات كثيرة تبعاً للأحداث السياسية التي واجهتها الدولة في بلاد الشام . ونلاحظ أن الدولة العثمانية لم تأت بجديد في هذا التقسيم ، فقد درجت دولة المماليك الشراكسة على مثله في بر الشام وكانت تطلق على التقسيمات الإدارية الرئيسية «نيابات» الشام .

أما العامل الثاني فإن التجارة كانت ولا تزال تستهوى أفئدة أهل الشام ، يرون فيها أفضل وسيلة لاستثمار أموالهم واستغلال نشاطهم نظراً لما تدره عليهم من أرباح وفيرة . ولذلك امتازت الأساكن والمدن الداخلية في إيالات الشام بنشاط تجارى كثيف ومستمر ووجود جاليات أوروبية متعددة الجنسيات ، قام أفرادها بدور الوسيط في عمليات التصدير والاستيراد وتعايشوا مع سكان البلاد .

أما العامل الثالث فكان العامل الحاسم ، وبالتالي الأكثر أهمية . كانت بلاد الشام مليئة بتنوع بشرى ولغوى ودينى ندر ، أو قل أن وجد له مثيل فى أى بقعة فى أنحاء العالم .

التنوع البشرى :

كانت تقطن بلاد الشام العناصر الممامية العربية ، وجاليات قديمة من اليهود والسريان والتركمان والأكراد والكريتيون والأرمن والروم الكاثوليك والروم الأرثوذكس وجاليات طائفة من البشناق^(١) والألبانيين ومن رعايا الكيانات السياسية فى شبه جزيرة إيطاليا ومن رعايا فرنسا وغيرها من الدول الأوروبية . وكانت تزداد أعداد وفيرة من اليهود والمسيحيين من كافة أرجاء العالم إلى الجزء الجنوبى من بلاد الشام وهو فلسطين ؛ لزيارة الأماكن المقدسة اليهودية والمسيحية ، وكانوا يأتون إلى فلسطين إما برّاً وإما بحراً من يافا إلى بيت المقدس . وكانت قبائل البدو تقطن جهات متعددة من بلاد الشام ، وتحول كثير من أفرادها إلى أعمال السلب والنهب .

التنوع اللغوى :

كان التنوع اللغوى على أشده ؛ إذ كانت هذه العناصر البشرية المتعددة تتكلم لغات شتى من اللغات الميقة والحية . ومن اللغات الأولى كانت العبرية^(٢) والسريانية والآرامية واللاتينية . ولم يكن استخدام هذه اللغات الميقة مقصوراً على الطقوس الدينية والكتب الدينية فحسب ، ولكن

(١) البشناق نسبة إلى البوسنة وهى إقليم يقع حالياً فى يوغوسلافيا كان قد امتد إليه الحكم العثمانى .
(٢) كانت اللغة العبرية من اللغات الميقة إبان الحكم العثمانى . ولكن بدأ إحيائها منذ المؤتمر الذى دعا إلى عقده الصحفى النمساوى اليهودى تيودور هوتزل فى مدينة بال فى سويسرا . وقد انعقد المؤتمر فى ٢٩ من شهر أغسطس - آب - ١٨٧٩ . وكان من قرارات هذا المؤتمر تقوية المشاعر اليهودية والربعى القومى وتميزهما . ثم اتخذ هذا الإحياء طابعاً رسمياً حين فرضت بريطانيا نفسها دولة منتدبة على فلسطين ، عام ١٩٢٢ . وجاءت صياغة المادة الثانية والعشرين على النحو التالى «تكون الإنجليزى والعربية والعبرية اللغات الرسمية لفلسطين ، وكل عبارة أو كتابة بالعربية وودت على طوابع أو عملة تستعمل فى فلسطين يجب أن تكرر بالعبرية . وكل عبارة أو كتابة بالعبرية يجب أن تكرر بالعربية» ، ولما أنشئت دولة إسرائيل عام ١٩٤٨ كانت العبرية اللغة الرسمية لها .

انظر :

الوثائق الرئيسية فى قضية فلسطين . المجموعة الأولى ١٩١٥-١٩٤٦ نشر الأمانة العامة لجامعة =

كان استخدامها يمتد إلى الحياة اليومية المدنية العادية . أما عن اللغات الحية فقد تكلمت طوائف أخرى من السكان العربية والتركية والكردية والشركسية وكذلك اللغات الأوروبية الحديثة .

التنوع الدينى :

كان التنوع الدينى أكثر وضوحاً وأقوى بروزاً وأشدّ تعقيداً . كان المسلمون فى بلاد الشام طرائق قديداً . كان من بينهم قطاعات هامة من أهل السنة ، وكان من بينهم العرب والعثمانيون والتركمان . وكان لهم ثقل سياسى فى حياة البلاد . واتبع العثمانيون والتركمان والأكراد المذهب الحنفى ونهج تهجم بعض الأعيان العرب من سكان المدن المذهب الحنفى تقريباً إلى السلطان العثمانى لأن للمذهب الحنفى كان المذهب الرسمى للدولة . وانتمى عدد قليل من السنيين للمذهب الحنبلى ، بينما كان المذهب الشافعى هو السائد فى فلسطين والأردن وغيرها من المناطق المتأثرة بمصر . وفى ذات الوقت وجدت إلى جانبهم قطاعات أخرى من أهل الشيعة . وكان الأخيرون ذوى عصبية قوية ويشكلون عشائر كثيرة وكبيرة . نذكر منهم على سبيل المثال الدرروز . ويقول عنهم الأستاذ محمد عبدالله عنان إنهم يعتقدون فى ألوهية الحاكم بأمر الله الخليفة الفاطمى (٣٨٦-٤١١ هـ - ٩٩٦-١٠٢٠ م) . فهذا الخليفة ليس فى اعتقاد الدرروز إنساناً كىافى البشر ، ولكن الروح الإلهية انتقلت من آدم إلى على بن أبى طالب كرم الله وجهه ثم إلى الحاكم بأمر الله وحلت به ، وأنه سيعود من رمسه آخر الزمان فى شخص الإمام أو المهدي . وهذا هو فى الواقع أساس عقيدة الدرروز وعمادها الجوهري . وهم يعتقدون فى التناسخ أى بنسخ مذهبهم أو عقيدتهم ، على وجه الدقة ، جميع الأديان والشرائع السابقة . وفى زعمهم تعد عقيدتهم خاتمة الديانات . وهم ينكرون الأنبياء والرسل جميعاً . وينكرون أصول الإسلام والنصرانية واليهودية^(١) ولا يأخذون بشيء من أصول الإسلام كالصلاة والزكاة والصيام والحج . ولا يتبعون علم الفرائض أو المواريث لأنهم ينكرون أحكام الشريعة^(٢) . وكان معظم الدرروز يسكنون جبل لبنان وحروران وادى النعيم ، وقاموا بدور الرئيسى بارز فى تاريخ جبل لبنان ونزعوا المنطقة وغدروا حكامها الفعليين لعدة قرون . وبلغ عددهم زهاء مائة ألف ، واشتهروا

=الاول العربية . إدارة فلسطين ، (الشعبة السياسية) ، القاهرة ، ١٩٥٧ ، ص١٢٨-١٣٧ .
دكتور أحمد طبريين : فلسطين فى خطط الصهيونية والاستعمار (١٨٩٧-١٩٢٢) من مطبوعات معهد البحوث والدراسات العربية التابعة لجامعة الدول العربية . القاهرة ، ١٩٧٠ ، ص٦٢ .

(١) ينتسب الدرروز ظاهراً إلى الإسلام ويتظاهرون أمام المسلمين بأنهم مسلمون ، وأمام النصارى بأنهم نصارى ، ويحرصون أشد الحرص على كتمان عقائدهم السرية ويتكبرون مايقخذ عليهم منها ، بل يذمونها زمام المعتزسين رياء ونفاقاً .

(٢) إن المؤسس الحقيقى والإمام الحقيقى لعقيدة الدرروز رجل يدعى حضرة بن على بن أحمد الزدنى ، ويعرف بالبابا . ظهر فى القاهرة عام ١٠١٧ هـ (١٤٠٨ م) ودعا إلى ألوهية الحاكم بأمر الله . وإن كانت هذه العقيدة تنسب إلى محمد بن إسماعيل الدرزي ، الذى قيل إنه أول من أدّاع الدعوة بالوهية الحاكم بأمر الله =

بالسالة في الحروب وبطاعتهم لرؤسائهم واشتركوا في معظم الانتفاضات التي قامت ضد الحكم العثماني . وظلت منطقة جبل لبنان المركز الرئيسي لتجمعاتهم إلى أوائل القرن الثامن عشر ، حينما بدأت هجرتهم إلى حوران .

وكان من العصابات الدرزية اللتوخيون ، والقيسيون ، والمعنيون أو بنو معن ، وأصبحوا أقوى قوة في جنوبي لبنان إبان الحكم العثماني . ويبلغ نفوذهم الأوج على عهد الأمير فخر الدين المعني الثاني (١٥٧٢-١٦٣٥) ، الذي تحالف مع أمراء توسكانا في شبه جزيرة إيطاليا ، وكون قوة عسكرية ذات بأس شديد من الدروز والسكمان^(١) والنصارى ، وشجع التجار الأجانب . وكان هناك أيضاً آل علم الدين وكانوا يمنيين ، والأمراء الأرسلانيون ، والمتاولة وهم من غلاوة الشيعية سكنوا في جنوبي لبنان فيما يعرف بجبل عامل ، وامتدوا إلى البقاع وسيطروا على بعلبك ووجدت جالية منهم في دمشق . ووثقوا علاقاتهم الدينية بفارس واتصلوا بحكاتها وأمدوا فارس بعدد من العلماء الشيعة السوربي الأصل ، وتلقى عدد منهم العلم في معاهد النجف الأشرف . وتفاوت عددهم بين خمسة وعشرين ألفاً وضعف هذا العدد ، وقد تعرضوا لضغط شديد من جيرانهم الدروز . وللنصيرية أو العلويين وهم طائفة شيعية باطنية يجيزون الزواج من الحرمان مثل الأم ، والأخت ، والأبنة . وتسببوا في خلق مناعب كثيرة للدولة ولجيرانهم ، إذ كانوا يعتدون على المسلمين المنيين وعلى المسيحيين . والاسماعيلية أو الإسماعيليون وهم من أقدم الطوائف الشيعية في بلاد الشام ، ومركزهم الرئيسي في السلمية شمالي شرق حمص . واعترف إسماعيليو الشام بزعامة الأغاخان . وبنو شهاب ، وكانت الأسرة الشهابية أقوى الأسر القيسية أنشأت إمارة على جبل لبنان ، واختير الأمير بشير الشهابي سنة ١٦٩٧ أميراً للجبل ، وبنو حلفوش وكانوا من غلاوة الشيعية ، ونشب صراع عنيف بينهم وبين الطوائف الدرزية مثل المعنيين والشهابيين . وكان هناك الأكراد وأشهر عشائهم بنو جانبولاد ، وعرفوا أيضاً باسم الجنبلاطية واعتنقوا في لبنان العقيدة الدرزية وارتفعت مكانتهم ، حتى كان يطلق على الزعيم

= انظر :

محمد عبدالله عنان : الحاكم بأمر الله الخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٩٧-١٩٨ ، ص ٢٠٥ ، ٢٤٢ ، ٢٩٦ ، ص ٣١٦-٣١٨ .

دكتور محمد كامل حسين : طائفة الدروز . تاريخها وعقائدها ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٨ ، ص ٣١-٣٢ ، ٨٢-٨٨ ، ١١٧-١٢٠ .

(١) السكمان يترد هذه اللفظة في بعض المراجع السكبان وتعني كلاب الصيد ، وكانت تطلق على طوائف من الجنود غير النظاميين . بدأ ظهورهم منذ أواخر القرن السادس عشر . جمعهم عبدالعليم الأيازجي أحد أصحاب العصبية الذين خرجوا على الدولة العثمانية . ولما أخفقت حركته تفرق جنوده وانتقوا بضمة فخر الدين المعني وغيره من أصحاب العشائر .

انظر :

المحبي : خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر . ج ١ ، ص ٢٨٦ ، ص ٨٤ ، ص ٢٢٢ .

منهم شيخ الشيوخ . وكان هناك أيضاً السيفيون أو بلسيافا ، وهم من الأكراد وعظم مركزهم حين علا نفوذهم على نفوذ الباشا العثماني في طرابلس ، ودان لهم شمالي لبنان وامتد نفوذهم إلى حماة وحمص .

وعلى هذا النحو كانت بلاد الشام مسرحاً نزاحمت عليه طوائف إسلامية ، كان منهم أهل السنة وكان منهم أهل الشيعة . وانقسم الأخيرون إلى جماعات عديدة من أصحاب العصبية والعقائد والمذاهب ، تنابذ أفرادها جرياً وراء تحقيق مصالح شخصية ، وكان نفوذ زعماء بعض هذه الطوائف يعلو نفوذ الباشوات العثمانيين .

ومما هو جدير بالذكر أن فريقاً من المسلمين ارتدوا عن دينهم وتحولوا إلى المسيحية . وكان يحدث أن الأسرة المسلمة الواحدة تنقسم إلى فرعين : فرع يبقى على إسلامه ، وفريق يرتد إلى المسيحية . ونذكر على سبيل المثال الشهابيين ، فقد تحول فريق منهم إلى النصرانية . وكان منهم الأمير بشير الشهابي الكبير حليف محمد علي باشا وإلى مصر ، وأصبح الشهابيون في لبنان مسيحيين بينما كان الشهابيون في سوريا من المسلمين . وكذلك تحول بفرح فرش وهم أمراء بعلبك والبقاع إلى المسيحية بعد أن كانوا من غلاة الشيعة . وتحولت أيضاً إلى المسيحية عقب معركة عين دارا (عنداره) سنة ١٧١١ أسرة أبي اللمع أو بلعم . وكان هذا التحول يحدث عادة دون صجة^(١) .

وقد وصف قسطلبي في أحد مؤلفاته هذا التعدد في الأديان والطوائف في بلاد الشام وصفاً معبراً بقوله : «ويمتاز أهل الشام عن بقية أهل الأرض بكثرة أديانهم . فليس في المسكونة بلاد صغيرة مثل هذه تضم العدد العديد من الأديان والطوائف . وفيها أديان خاصة بها لاوجود لها في سواها من البلدان ... وليس في الأرض كلها أناس من طائفة الروم الكاثوليك والموازية إلا في بلاد الشام والبلدان التي يتردد عليها أهل الشام . ومن غريب أمر الطوائف أن بينها أربعة هي طوائف الدروز والإسماعيلية والسمرية والنصيرية ، التي لاوجود لها في غير بلاد الشام»^(٢) .

الطوائف المسيحية :

وكانت الطوائف المسيحية في بلاد الشام على شاكلة الطوائف الإسلامية من حيث تعددها وتنابذها وتصارعها على النفوذ لبتغاء تحقيق مطامع أو مصالح خاصة بها . واتخذت كل طائفة مسيحية لنفسها شرعة ومنهاجاً . وكان من بين هذه الطوائف : الروم الأرثوذكس ، والروم الكاثوليك ، والسريان اليقاعية ، والسريان الكاثوليك ، والأرمن الأرثوذكس ، والأرمن

(١) انظر ماكتبه عن هذا الموضوع دكتور فيليب حتى ، مرجع سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ٢٣١ ، ٢٤٢ .

(٢) قسطل (نعمان بن عبده بن يوسف الدمشقي) : حصر اللثام عن نكبات الشام ، القاهرة ١٨٩٥ ، ص ٦٠٥ .

الكاثوليك والأقباط ، والأحياش ، والموارنة ، واللاتين ، والبروتستانت .

كان الروم الأرثوذكس يتبعون الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية - اليونانية - في إستانبول . وكان أتباع هذه الكنيسة أكبر الطوائف المسيحية في بلاد الشام أهمية وعدداً . وعانت هذه الكنيسة من انقسامين خطيرين : فقد أبدى أتباعها العرب سخطهم على الأوضاع السائدة فيها ؛ إذ كان اليونانيون يمتنعون بالنفوذ الأكبر في الكنيسة ، ويحتلون مناصبها الدينية العليا ويفرضون اللغة اليونانية في إقامة الطقوس الدينية ، وكان العرب الأرثوذكس لا يفقهون من هذه اللغة شيئاً . وتطور النزاع حين طالب هؤلاء العرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر بتعريب الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية . ومما زاد في حدة تعدد الهيئات المسيحية في بلاد الشام الانقسام الذي حدث بها بإنشاء بطريركيتين هما : بطريركية القدس ومركزها بيت المقدس ، و بطريركية أنطاكية ومركزها دمشق ، وقام تنافس حاد بينهما ، وأنشأ بطريرك القدس داراً جديدة للبطريركية واستورد مطبعة وأوعز بتعريب الكتب الدينية وشيد مدرسة . وارتبطت بكرسي بطريركية القدس أسقفيات الناصرة وعكا وطبريا والكرك والسلط وعجلون وسبسطية وطور سينا وشرية نمرين . وارتبطت بكرسي بطريركية أنطاكية أسقفيات باشوية الشام وعلبك وحلب . وكان للأرثوذكس في دمشق سبع عشرة كنيسة ، وبنوا كنيسة جديدة بعد أحداث فتنة سنة ١٨٦٠ ، وقاموا بترميم الكنائس التي تصدعت في أثناء هذه الفتنة ، ومضوا في القرن التاسع عشر ينشئون كنائس عديدة في بلاد الشام . وقاموا بدور بارز في نشر التعليم بإنشاء المدارس ، وكانوا يشكلون أقلية كبيرة في دمشق وحمص وحماة وحلب واللاذقية وطرابلس وعكا والناصرية وبيت لحم ، وكانوا في جميع هذه المدن أكبر الجاليات المسيحية (١) .

أما الروم الكاثوليك .. فكانوا يتبعون الكنيسة البابوية في روما ، وتعرضوا أول الأمر لاضطهاد شديد من جانب الروم الأرثوذكس ، وانتخب الروم الكاثوليك بطريركاً خاصاً بهم واعترفوا برياسة البابا ، وأنشأوا ثلاثاً وأربعين كنيسة في باشوية دمشق وغيرها .

أما السريان فكانت لهم أول الأمر كنيسة واحدة ، أطلق عليها الكنيسة السريانية اليعقوبية وعرف أتباعها باسم السريان اليعاقبة . ولكن تعرضت كنيستهم لانقسامات دينية . انتخب أحد رجالها عام ١٧٨١ بطريركاً يعقوبياً ولكنه أثر الارتباط بروما ، فثار عليه أتباعه وأجبروه على الهرب وانتخبوا بطريركاً جديداً . وأسس البطريرك الأول وأنصاره كنيسة سريانية كاثوليكية جديدة تابعة لروما . ورفضت السلطات العثمانية الاعتراف بها ، وحاولت حمل أتباعها على العودة إلى حظيرة الكنيسة الأولى ، ثم وافق السلطان العثماني على الانفصال وأنشئت كنيسة جديدة باسم بطريركية أنطاكية للسريان الكاثوليك وكان مركزها حلب . وكان لها كنيسان في

(١) دكتور عبدالكريم غرابية ، سيرة إلخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ١١-١١٧ .

باشوية دمشق ولسريان اليعاقبة كنيستان ، واستخدم السريان في كنائسهم اللغة السريانية وأصبحت لغة الكنيسة ولغة الخاصة . أما العامة فقد تكلموا العربية وكتبوها أحياناً بحروف عربية .

وانقسم الأرمن إلى أرثوذكس وكاثوليك . وكان الأرمن حتى أوائل القرن السابع عشر من أتباع الكنيسة اليعقوبية ، ثم انشق بعضهم ونصبوا بعد عام ١٧٣٩ بطريكاً كاثوليكياً . وكان لكل من طائفتي الأرمن كنيسة صغيرة في دمشق ، وألحقت بالكنيسة الأرثوذكسية مدرسة ابتدائية تدرس الأرمنية ، وكانت القدس مقر بطريرك الأرمن اليعاقبة بينما كانت بيروت مقراً لبطريرك الأرمن الكاثوليك^(١) .

وكان عدد من الأقباط والأحباش يقيمون في القدس ، وينتمون إلى الكنيسة اليعقوبية القبطية في بلاد الشام ، وقام نزاع بينهم بصورة مستمرة على ملكية بعض الأديرة . واستعان ملك الحبشة عام ١٨٥٢ بالفنصل البريطاني في القدس ، وعهد إليه برعاية مصالح الأحباش . ولكن الحكومة العثمانية حسمت الموقف لصالح الأقباط سنة ١٨٦٨ .

أما الموارنة فيقول عنهم الدكتور عبدالكريم غرابية إنهم كانوا «أهم طائفة مسيحية في بر الشام لاسبب عددهم وتكثفهم في منطقة جبيلية ، بل بسبب الدور السياسي الذي لعبوه في تاريخ البلاد والدور القيادي في تقرير مصير لبنان وتوجيه سياسته» . كانوا أول الأمر يتبعون الكنيسة الشرقية ويشبهون في هذه التبعية الروم الأرثوذكس . ولكن دب شقاق بين الجانبين أسفر عن اعتراف الموارنة برياسة البابا في روما لكنيستهم ، غير أنهم احتفظوا باستقلال كنيستهم بطقوسها الشرقية ولغتها السريانية . وبقيت هذه اللغة أمداً طويلاً لغة الكنيسة والخاصة ثم حلت محلها اللغة العربية . وبطاركة للكنيسة المارونية من خريجي مدرسة دينية مارونية تعدهم لشغل المناصب الإكليريكية ، وللموارنة عدد هائل من الكنائس والأديرة والمدارس .

وآزاد في العهد العثماني عدد اللاتين وهم أتباع الكنيسة الكاثوليكية في روما ، وكانوا يمارسون شعائهم الدينية وفقاً لطقوسها . ولكنهم لم يأخذوا طابع الطائفة الوطنية المستقلة . وبالتالي لم يكن لهم بطريرك خاص بهم إلا بعد عام ١٨٤٧ ، حين قرر بابا روما إحياء بطريركية القدس اللاتينية ، التي اندثرت بعد أن أخفقت الحركة الصليبية في الشرق العربي وتم جلاء الصليبيين عن عكا سنة ١٢٩١ . وعين البابا أحد رجال الدين الكاثوليك بطريركاً ، وذهب

(١) المرجع السابق ، ص ١١٩-١٢٠ وانظر أيضاً .

أنطونيوس جورج ، مرجع سبق ذكره ، ص ٩٧-١٠٩ وقد تكلم عن النشاط التنصيري الأوربي والأمريكي في بلاد الشام ؛ خاصة في القرن التاسع عشر ، وأثبت أن نشاط اليسوعيين التنصيري أدى إلى زيادة حدة العداوة المذهبية بين الأهلين .

إلى القدس وشغل منصبه كنقاصد رسولى وبطريك للقدس وفلسطين والأردن وقبرص، وكان عدد أتباعه لا يتجاوز الأربعة آلاف ، وكانت لهم ثمان كنائس .

تعدد البعثات التنصيرية والديرية وأهدافها :

ووفدت إلى بلاد الشام بعثات تنصيرية وديرية ، قامت بدور بارز فى حياة البلاد الدينية والثقافية . وكان أهم هذه البعثات اليسوعيون . وقد وصلوا إلى حلب عام ١٦٢٥ ، ثم أسسوا أديرة فى دمشق عام ١٦٤٣ ، وصيدا عام ١٦٤٤ ، وطرابلس عام ١٦٦٤ ثم أغلقت مؤسساتهم وعهد بها إلى الرهبان العازاريين عام ١٧٧٣ ، ولكن عاد اليسوعيون مرة أخرى عام ١٨٢١ إلى بلاد الشام ؛ حيث استأنفوا نشاطهم مكثفاً وفى نطاق واسع . وقد أفضى الفرنسكان الإيطاليون ، والفريير ، والكرمل ، كما كانت هناك راهبات للناصرة ، وراهبات القديس يوسف ، والراهبات الكرمليات ، وراهبات قلب يسوع ، ومريم .

وتعاقب وصول البعثات البروتستانتية إلى بر الشام فى مطلع القرن التاسع عشر ، وأنشأ أعضاؤها أول مركز لهم عام ١٨٢٠ فى بيروت . وأوجس منهم للمسلمون والسلطات العثمانية خيفة إذ نظروا إليهم نظرة الريبة ، إذ رأوا فيهم بوادر تسال استعماري غريب ، وأنهم يستترون وراء وظيفتهم التنصيرية ، كما رأى فيهم الأرثوذكس والكاثوليك تهديداً خطيراً لكيانهم الدينى . وعلى الرغم من المقاومة التى صادفها البروتستانت .. فإنهم مضوا فى ممارسة نشاطهم ، ومدوا هذا النشاط إلى دمشق وحلب وحمص وحماء وجبال النصيرية ، معتمدين على حماية قناصل بريطانيا والولايات المتحدة ، وأسسوا أسقفية فى القدس وفى عدد من المدن . واتفقت فيكتوريا ملكة بريطانيا وفردريك الرابع ملك بروسيا عام ١٨٤١ على إنشاء كنيسة متحدة فى القدس تعترف لأسقف كانتربرى بالسلطة العليا ، ويسهم العاهلان فى دفع نفقاتها ، وتناوب الإنجليز والبروسيون أعمال مطرانها . وقد بلغت حدة العداء بين البروتستانت واللاتين أن أحرق الأخيرون ، فى احتفال كبير أقيم فى ٢٨ من فبراير - شباط - ١٨٥٥ ، الكتب الدينية البروتستانتية .

والواقع أن الهدف الأسمى لأعضاء هذه البعثات التنصيرية لم يكن تنصير السكان ، بل كان لأعضائها أهداف سياسية واقتصادية واجتماعية سعوا لتحقيقها لمصلحة الدول الأوروبية التى بعثت بهم إلى بر الشام . وكان المنصرون يضمرون العداوة والبغضاء نحو العرب المسلمين ، وعدواة أخرى نحو المسيحيين المختلفين عنهم مذهبياً ، وكان اليسوعيون أشد المنصرين تعصباً تأججت فى نفوسهم الروح الصليبية العنيفة . كما كانت للمنصرين أهداف شخصية شوهت اسم المسيحية فى الشرق . ولم تكن تصرفات بعضهم فوق مستوى الشبهات ؛ إذ انتشع سلوكهم بقاذورات بلغت حد اغتصاب السيدات والأنسات والإعتداء عليهن وجسهن فى

بيوتهم ، مستغلين شتى الحصانات التي منحتها إياهم معاهدات الامتيازات الأجنبية^(١) .

اليهود :

وقام اليهود بدور متزايد الأهمية في حياة البلاد لم يتناسب مع قلة عددهم ؛ فلم يزد عددهم في فلسطين خلال القرون الثلاثة الأولى من الحكم العثماني عن عشرة آلاف نسمة وكانوا ثلاثة أمثال هذا العدد في بر الشام كله . وتزايد هذا العدد في أواخر القرن التاسع عشر حتى بلغ حوالي المائة ألف بسبب تزايد الحملة لتهجير اليهود إلى فلسطين وأسسوا مدارس لتعليم العبرية ، وأقاموا مستوطنات في قضاء حيفا واشتروا أراضي زراعية من الإقطاعيين . وكان لهم نشاط تجارى كبير ؛ إذ سيطروا على تجارة صفد ودمشق ، وقاموا بدور بارز في الحياة الاقتصادية في حلب وبيروت وعكا وحيفا . وكان لهم في دمشق وحدها أكثر من أربع وعشرين مؤسسة تجارية بلغ رأسمالها خمسة ملايين فرنك . وسيطروا أيضاً على تجارة دمشق مع بريطانيا^(٢) .

وقد أوجدت هذه الكثرة العددية الرهبة في عدد الطوائف الدينية المسيحية والبعثات التنصيرية فضلاً عن اليهود والحجاج المسيحيين واليهود عديد المسارب بين بلاد الشام وأوروبا والولايات المتحدة الأمريكية .. وهكذا فتحت الأبواب في وجه المؤثرات الحديثة ، وهي ظاهرة من أخصب الظواهر في تاريخ بلاد الشام^(٣) . وكانت البابوية في روما والحكومات الأوروبية والأمريكية توثق صلاتها بالطوائف الدينية غير الإسلامية ويزعماتها ومؤسساتهم الدينية والتعليمية وغيرها ، تدهم بالأموال ورجال التعليم وبعض رجال الدين والعلماء . وانتهى الأمر بأن بسطت بريطانيا حمايتها على الدروز ، وبسطت روسيا حمايتها على الروم الأرثوذكس ، وبسطت فرنسا حمايتها على الموارنة ؛ مما أدى إلى تعميق هذه المسارب بين بلاد الشام وأوروبا.

وبفضل تلك المسارب ازدهرت الحياة الاقتصادية في باشويات الشام بصفة عامة واتسع نطاق عمليات التصدير والاستيراد بينها وبين أوروبا ؛ إذ كانت إسبانيا قد نجحت في ضم البرتغال إليها سنة ١٥٨٠ ، وكان من نتائج هذا الضم اضطراب خطوط الملاحة البرتغالية في طريق رأس الرجاء الصالح من ناحية ، وإنكماش حجم للتجارة الشرقية التي كانت تحتكرها البرتغال من ناحية أخرى ؛ مما ساعد على بعث مزيد من النشاط في الطريق البرى تسير فيه

(١) دكتور مصطفى خالد وبكتور عمر قنوخ : التبشير والاستعمار في البلاد العربية . عرض لجهود المبشرين التي ترمي إلى إخضاع الشرق للاستعمار الغربي . بيروت ، الطبعة الرابعة ، ١٣٩٠-١٩٧٠م . انظر فيه عرضاً لبواعث التبشير ص ٢٤-٧٧ .

(٢) دكتور عبدالكريم غرابية ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٢٤-١٢٩ .

(٣) دكتور فيليب حتى ، مرجع سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ٢٢٠ .

القوافل الوافدة من فارس والخليج العربي والبصرة عبر العراق والجزيرة إلى حلب حاملة منتجات الهند والشرق الأقصى ، مثل : التوابل والعقاقير والأصبغة والسجاد والأقمشة الهندية والفارسية . وكان التجار الأوروبيون في حلب يشترون هذه السلع لتصديرها إلى أوروبا الغربية ، وقامت منافسة شديدة بين أسكلة إسكندرون وأسكلة طرابلس أيهما تكون منفذاً بحرياً لحلب . وكانت الإسكندرون تمتاز بقربها من حلب وأمن الطريق بينهما ، وأسفرت هذه المنافسة عن اتخاذ الإسكندرون ميناء لحلب ، تشحن منها بضائع الشرق الأقصى والهند وفارس والخليج العربي والعراق إلى أوروبا . وكانت عمليات شراء هذه البضائع تتم غالباً عن طريق المقايضة بالأقمشة الأوروبية مع دفع الفروق بالنقد الفضي الأوروبي ، وكانت تصدر الأصواف الأوروبية إلى فارس . واستفاد تجار الشام من هذه الحركة كوسطاء ، كما استفاد منها عربان بادية الشام عن طريق حمايتهم للقوافل وتزويدهم إياها بالجمال والأدلاء .

وقد بلغ دخل العريان أكثر من نصف مليون قطعة ذهبية سنوياً^(١) ، وكانت الشام تصدر إلى أوروبا فائض إنتاجها من القطن والحريز والحبوب والمنسوجات الحريرية والقطنية والتبع . وفي حلب نشأت مستعمرة من أهل البندقية كانت تصلهم قوافل محملة بالتوابل لحسابهم الخاص ، كما كان يقيم بها تجار فرنسيون وإنجليز ومن أهل جنوة ، وقامت بها فتصليات لدول أوروبية . وأصبحت حلب حتى منتصف القرن السابع عشر السوق الرئيسية للشرق الأدنى ، بينما ظلت دمشق حتى أوائل القرن الثامن عشر مركزاً فكرياً ، ثم أخذت الأخيرة تتفوق على حلب كمناقص تجاري قوى وانتزعت منها الزعامة التجارية والاقتصادية ، كما نمت عكا ثم بيروت لينافسا إسكندرون وطرابلس ، وكانت سفن دوقية فلورنسا ، في شبه جزيرة إيطاليا ، تنقل منتجات لبنان من الحريز والصابون وزيت الزيتون والقمح إلى أوروبا .

وبجانب الازدهار الاقتصادي الذي شهده ير الشام إبان الحكم العثماني ، كانت الحياة

(١) دكتور عبد الكريم غرابية ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٤٠ ، وقد أتاح هذا الوضع للبدر في بلاد الشام أهمية كبيرة في البناء الاقتصادي فيها ؛ إذ كانت القوافل هي الوسيلة الوحيدة للنقل والسفر حتى أواخر القرن التاسع عشر . وكان البدر يتعمدين الجمال بالترية والإكثار منها . وأوجوا لهم في المدن الرئيسية وكلاء يتعاقدهم المزارعين في السفر أو في نقل بضائعهم . وكانت القافلة تضم دليلاً يديراً وعدداً من الحراس المسلحين يمشون القوافل التي تمر القافلة في مناطقها . واعتبرت جميع هذه القوافل مسؤولة عن حماية القافلة عن طريق تمثيل رمزي في حرس القافلة وفي مقابل أجر . وكانت القوافل التي تقطع الصحراء أهم وأكبر من غيرها ؛ إذ كان يصل تعداد جمالها أحياناً إلى ثلاثة آلاف جمل . وكانت كل قافلة تمتاز بتنظيم دقيق جعلها شبه مدينة متحركة ، وكان لكل قافلة شيخ مسئول عنها تتمتع باختصاصات واسعة وسلطات مطلقة تمكنه من تنفيذ مهمته . واستمرت القوافل وسيلة السفر والنقل الرئيسية حتى أواخر القرن التاسع عشر ، إذ تأخر مد الخطوط الحديدية في بلاد الشام إلى عام ١٨٩٢ ؛ حين أنشئ خط حديدي بين القدس وبيافا .

انظر دكتور عبد الكريم غرابية ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٥٤-١٥٥ .

الثقافية حية حفلت بكثير من المؤلفات في التاريخ والجغرافية والرحلات واللغة والأدب والعلوم والرياضة ، وكثر عدد الجمعيات الأدبية والعلمية ، وبذلت محاولات لإنهاض اللغة العربية ، ودخلت في البلاد المطابع بحروف عربية وسريانية قبل أن تدخل المطبعة العربية مصر مع الحملة الفرنسية سنة ١٧٩٨ . وانتشرت المدارس والمؤسسات التعليمية الإسلامية والمسيحية واليهودية . وكان أعضاء البعثات التنصيرية هم الذين قاموا بإنشاء المدارس والمعاهد المسيحية^(١) كما حفل العصر العثماني بوجود آثار معمارية رائعة ، حسبنا أن نذكر منها القصر الذي بناه أسعد بن إسماعيل بك العظم وإلى دمشق عام ١٧٤٩ في هذه العاصمة ، وهو أروع أثر عربي ظهر في القرن الثامن عشر ، فطراره الهندسي ، وما اشتمل عليه من فنون الفسيفساء والحفر على الخشب يمثل أروع ما بلغه الفن الإسلامي . وقد استورد من إيطاليا كل ما فيه من رخام^(٢) ، وكذلك القصر الذي بناه الأمير بشير الثاني في قرية بيت الدين ، وليس في لبنان دار أخرى تضاهيه روعة وفخامة .. فقد جلب الأمير إلى القصر المياه في قناة طولها تسعة أميال من منابع عين رحلة ، التي تغذيها الثلوج والأمطار من التلال الحافلة بأشجار الأرز^(٣) .

ويذكر دكتور فيليب حتى ، وهو من المؤرخين المتحاملين على الدولة العثمانية ، ثلاث فقرات قصيرة ، تعطى فكرة عن بر الشام في أواخر الحكم العثماني فيقول «تسرب إلى شمالي سوريا وشرقي الأردن بضعة آلاف من الشراكسة المسلمين ، على أثر الحرب الروسية العثمانية سنة ١٨٧٧ ، وقصد لبنان بضعة ألوف أخرى من اللاجئين الأرمن بعد الحرب العالمية الأولى ، فألفوه جنة من جنات الله . وقد بقيت العربية لغة الشعب ، ولم تستمد من التركية إلا ألفاظاً قليلة جلها يتصل بالسياسة أو الجوش أو الطعام»^(٤) . وتدل الفقرة الأولى على أن الولايات العربية بصفة عامة في الدولة العثمانية كانت ملأناً يلجأ إليه رعايا الدولة المسلمون ، إذا تعرضت بلادهم لغزو أوروبي مسيحي . وتدل الفقرة الثانية على أن لبنان لم يكن بقعة تسرب إليها الخراب ، أما الفقرة الثالثة والأخيرة فتدل على أن بلاد الشام احتفظت باللغة العربية إبان الحكم العثماني ، ولم تستبدل اللغة للتركية بها . والواقع أنها ظاهرة عامة اشتركت فيها الولايات العربية ، وكان من بين أسباب هذه الظاهرة عدم محاولة الدولة العثمانية عثمانة الشعوب

(١) انظر مرشداً وأيضاً مظاهر الحياة الثقافية على اختلاف صورها ومظاهرها في :

دكتور عبدالكريم غرابية ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٦٢-٢٢٧ .

(٢) اتخذ هذا القصر مقراً للمعهد الفرنسي في دمشق .

(٣) دكتور فيليب حتى ، مرجع سبق ذكره ، ج ٧ ، ص ٣١٦-٣١٧ ، ٣٤٢-٣٤٣ .

(٤) دكتور فيليب حتى ، مرجع سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ٣١٦-٣١٧ ، ويذكر أن من بين الألفاظ التركية التي دخلت في اللغة العربية : باشا ، وييرق ، وبلطه ، وجاوش ، وبرغل ، وقاومه ، وقال إن بعض الألفاظ التركية المقتبسة ترجع إلى أصل يوناني أو فارسي أو محرفة . ويتناسى دكتور فيليب أن كثيراً من الكلمات العربية دخلت في اللغة التركية .

العربية ، وقد سبق أن تعرضنا في هذه الدراسة لهذا الموضوع ^(١) .

جهود الدولة العثمانية لإلغاء معاهدات الامتيازات الأجنبية :

لما ظهرت النذر الأولى لاضمحلال الدولة العثمانية ، أخذت الدول الأوروبية تنبأاً بتدخل في شئونها . وكانت معاهدات الامتيازات الأجنبية الباب الى ولجت منه هذه الدول ولوياً لتحقيق أغراضها ، وفسرت هذه المعاهدات تفسيراً تعسفياً . فبدلاً من أن تنظر إليها على أنها امتيازات منحها سلطان يحكم دولة مستقلة ، فسرتها بأنها حقوق انتزعت من سلطان ضعيف أو من دولة منهزمة ^(٢) ، مع أن الدولة منحها وهي في أوج قوتها ، وأصبح الرعايا الأوروبيون في الدولة العثمانية يتمتعون بحصانة أعفتهم من الخضوع للسلطات العثمانية ، وأصبحوا وكأنهم يشكلون حكومة داخل الحكومة العثمانية *imperio in imperium* وكانت هذه الامتيازات عقبة كروم أمام الدولة ، حالت دون قيامها بتنفيذ مشروعات إصلاحية واستنباط موارد مالية جديدة لمواجهة نفقات الإدارة والحكم . ولذلك أصبحت معاهدات الامتيازات الأجنبية بمثابة موانع مذلّة للعثمانيين حتى سقوط دولتهم عقب الحرب العالمية الأولى ، وكانت الدولة قد بذلت جهوداً كبيرة عقب حرب القرم وقبل انعقاد مؤتمر باريس في اليوم الخامس والعشرين من شهر فبراير - شباط - عام ١٨٥٦ لإلغاء نظام الامتيازات الأجنبية كوسيلة ، تساعد على تنفيذ الإصلاحات التي جاءت في «خطي همايوتي» ، الذي أصدره في اليوم الثامن عشر من شهر فبراير - شباط - عام ١٨٥٦ ^(٣) - أي قبل انعقاد مؤتمر باريس بأسبوع - السلطان عبد المجيد الأول (١٨٣٩-١٨٦١) ، ولكن لم تجد الدولة العثمانية استجابة من الدول الأعضاء في المؤتمر والتي كانت متحالفة معها في حرب القرم . وجاء هذا الرفض متعارضاً أشد التعارض مع رأى جمهرة المؤرخين بأن الدول الأوروبية الكبرى ممثلة في المؤتمر قد أعطت للدولة العثمانية فرصة لانظير لها لتنظيم شئونها فأصاعت هذه الفرصة .. ولو حسنت النيات لوجدت الدولة استجابة لإلغاء الامتيازات الأجنبية أو على الأقل للحد من مساوئها المتزايدة ، وعقب انقلاب عام ١٩٠٨ حاول أعضاء «اتحاد وترقي جمعيتي» أي جمعية الاتحاد والترقي ^(٤) إلغاء نظام الامتيازات الأجنبية ، ولكنهم أخفقوا في محاولتهم . ولم تمض سنوات ذات عدد حتى قامت الحرب العالمية الأولى في أغسطس - آب - ١٩١٤ ، وأرسلت الحكومة العثمانية منشوراً في التاسع من شهر سبتمبر - أيلول - ١٩١٤ إلى سفراء الدول في

(١) انظر في هذه الدراسة الفصل الحادي عشر الجزء الأول .

(٢) دكتور فيليب حتى ، مرجع سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ٢١٣ .

(٣) دكتور عبدالعزيز محمد الشناوي وبكتور جلال يحيى : وثائق ونصوص التاريخ الحديث والمعاصر ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٤-١٦ .

(٤) كان اسم هذه الجمعية أول الأمر عثمانلى اتحاد وترقي جمعيتي، أي جمعية الاتحاد والترقي العثمانية . ثم استبدلت منها لفظة عثمانلى ، واشتهرت بالاسم الجديد المختصر .

إستانبول ، تبلغهم أنها قررت إلغاء نظام الامتيازات الأجنبية اعتباراً من أول أكتوبر - تشرين أول - عام ١٩١٤ ، ورد السفيراء بمذكرة فى اليوم التالى يحتجون فيها على قرار الحكومة ، ويعطون نمسك حكوماتهم ببقاء ذلك النظام سارياً . ولما دخلت الدولة العثمانية الحرب العالمية الأولى فى الخامس من نوفمبر - تشرين ثان - ١٩١٤ منضمة إلى دولتى الوسط ضد بريطانيا وحلفاتها أعلنت دولتا الوسط - ألمانيا والإمبراطورية النمساوية المجرية - قبولها إلغاء نظام الامتيازات الأجنبية . ولما انتهت الحرب بهزيمة الدولة العثمانية ودولتى الوسط ، قررت بريطانيا وحلفاتها فى معاهدة سيفر التى فرضتها فى اليوم العاشر من شهر أغسطس - آب - عام ١٩٢٠ على الدولة العثمانية الإبقاء على نظام الامتيازات الأجنبية (المادة ٢٦١) عقاباً لها وإذلالاً لها . وبفضل نجاح الحركة الكمالية ، استبدلت بمعاهدة سيفر معاهدة جديدة هى معاهدة لوزان فى اليوم الرابع والعشرين من شهر يوليو - تموز - عام ١٩٢٣ ، تقرر فيها إلغاء نظام الامتيازات الأجنبية (المادة ٢٨) ، وبذلك تخلصت تركيا من هذا النظام الوبيل .

إلغاء نظام الامتيازات الأجنبية فى ولايات الشرق العربى الآسيوى :

أما سوريا ولبنان والعراق وفلسطين ، فقد ألغى فيها نظام الامتيازات الأجنبية عقب انفصال هذه الأقاليم العربية بعد الحرب العالمية الأولى ، ووضعها تحت نظام الانتداب الفرنسى والبريطانى وفقاً للمادة (٢٢) من ميثاق عصبة الأمم ، والموقع عليه فى اليوم الثامن والعشرين من شهر يونيو - حزيران - ١٩١٩ .

إلغاء نظام الامتيازات الأجنبية فى مصر بعد أكثر من ثلاثين عاماً :

بقى نظام الامتيازات الأجنبية نافذاً فى مصر أكثر من ثلاثين عاماً بعد إلغائه فى الولايات العربية فى غربى آسيا . وفى اليوم السادس عشر من شهر يناير - كانون ثان - عام ١٩٣٧ دعت مصر إلى عقد مؤتمر دولى فى مدينة مونترية بسويسرا فى الثانى عشر من شهر أبريل - نيسان - عام ١٩٣٧ ، حضره مندوبون عن الدول صاحبة الامتيازات فيها . وتوصل هذا المؤتمر إلى عقد اتفاقية مونترية ، ونصت على إلغاء نظام الامتيازات الأجنبية فى مصر بعد فترة انتقالية حددت بانئى عشر عاماً تنتهى فى اليوم الرابع عشر من شهر أكتوبر - تشرين أول - عام ١٩٤٩ ، بزوال المحاكم المختلطة ، بوصفها آخر أثر أساسى لنظام الامتيازات الأجنبية .

الفصل الثاني

صور من حملات التشهير بالدولة (٢)

مناقشة عزلة العراق

عوامل انفتاح العراق علي العالم الخارجي :

لم يعيش العراق ^(١) في عزلة عن العالم الخارجي إبان القرون الأربعة التي خضع فيها للحكم العثماني منذ الثلاثينيات من القرن السادس عشر الميلادي حتى أوائل القرن العشرين كما يذكر فريق من المؤرخين والباحثين . فقد تضافرت عدة عوامل أدت إلى انفتاح العراق على العالم الخارجي . وكان من بينها إعادة مرور شطر لا يستهان به من التجارة الشرقية عبر العراق ، ومانجم عنها من نشاط اقتصادي مكثف ومتعدد الصور ، والمشروعات البريطانية لتنظيم خطوط ملاحية نهريّة بخارية في النهرين التوأمين The Twin Rivers وهما دجلة والفرات ، وحرص بريطانيا على أن تتصل خطوط الملاحة البخارية في العراق بالخارج مباشرة أو إيصال شحناتها إلى منافذ العراق ، ثم النشاط العثماني المضاد في هذا الصدد ، والسياحة الدينية ، والتنوع البشري والديني في العراق ومانجم عنه من نشاط تنصيري أشتد ساعده اعتماداً على معاهدات الامتيازات الأجنبية ، والصراع الحربي الذي كان يتفجر من وقت لآخر بين الدولة العثمانية وفارس على العراق .

التنظيم العثماني للعراق عقب فتحه :

كان العراق في حالة انهيار في الفترة التي مرت به منذ الغزو المغولي التخريبي بقيادة هولاكو في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي والاحتلال الفارسي على عهد الشاه إسماعيل الصفوي في أوائل القرن السادس عشر . وكان هذا الشاه قد نجح في نشر المذهب الشيعي في ربوعه . وذبح أئمة السنة وهدم مقابر آبائهم . وأصبح ولا يزال أهل الشيعة وأهل السنة في العراق قوتين متوازيتين تقريباً . ولما فتح السلطان سليمان المشرع العراق في أواخر عام ١٥٣٤

(١) لم يكن العراق يعرف بهذا الاسم إبان الحكم العثماني . وإنما كان معروفاً باسم إيالة بغداد ، وإيالة الموصل ، وإيالة البصرة . وفي الميدان الدولي كان يطلق على العراق مصطلح Mesopotamia أي بلاد ما بين النهرين . وكان يراد به حوض لجة والفرات ، أو ما يعرف بوادي الرافدين من حيث شموله معظم وادي الرافدين ومناطق هذه المدن الثلاث ،

انتهج سياسة مثلى في المحافظة على مشاعر أهل هاتين الطائفتين^(١). وأرسى السياسة التقليدية للدولة العثمانية في حكم العراق. واعترف أيضاً بالعصبيات الكردية في شمالي العراق. فأبقى حكم كردستان للعصبيات الكردية وجعل الموصل إيالة قائمة بذاتها، وكانت تتوغل قليلاً في كردستان شرقاً وفي تكريت جنوباً. ولم تكن حدود إيالة الموصل واضحة تماماً نظراً لأنها كانت مجاورة لمنطقة كردستان التي أصبحت إيالة باسم «شهر زور»^(٢). وكذلك اعترف السلطان سليمان بحكم العصبيات العربية؛ إذ ترك الشيوخ العرب حكاماً على عشائريهم، وأنشأ إيالة بغداد وكانت منذ الفتح العثماني أهم وأكبر إيالات العراق، وكان باشا بغداد أكبر باشوات العراق رتبة. وكان الباب العالي يعهد إلى ولاية بغداد بحماية ولايات العراق الأخرى من الأخطار التي تتعرض لها. ولم يكن نفوذ باشوات بغداد قوياً على امتداد فترات الحكم العثماني لأسباب ليست هذه للدراسة موطناً لبسطها^(٣). ولم يتوغل السلطان سليمان المشرع صوب البصرة لأن شيخها راشد بن مغامس أعلن ولاءه له. فألحقت البصرة على هذا النحو بالملكات العثمانية وعين السلطان شيخها راشد، حاكماً عليها على أن تكون تابعة لباشوية بغداد. ثم ارتاب العثمانيون في نيات الشيخ راشد فوجهوا حملة استولت عليها عام ١٥٤٦، وتقدموا بعد ذلك على الساحل الغربي للخليج العربي، واستولوا على الأحساء عام ١٥٥٠.

أولاً: إعادة مرور شطر لا يستهان به من التجارة الشرقية عبر العراق:

سبق أن ذكرنا أن البرتغاليين حققوا نجاحاً في تحويل مرور التجارة الشرقية إلى طريق رأس الرجاء الصالح وصولاً إلى أوروبا بدلاً من مرورها في الطريقين التقليديين القديمين، وهما: الخليج العربي والعراق وبادية الشام إلى حلب ثم الإسكندرية وغيرها من أساكن الشام، وطريق البحر الأحمر إلى السويس ثم القاهرة فالإسكندرية. وفقد العراق، كما فقدت مصر، معظم المكاسب المادية الهائلة التي كان يجنيها الإقليمان من تجارة المرور والوساطة. وتمت،

(١) انظر في هذه الدراسة الفصل الأول - الجزء الأول.

(٢) لم تعمر هذه الإيالة طويلاً لأن الدولة العثمانية اتبعت سياسة الاعتراف بحكم العصبيات المحلية. وكان إقليم كردستان مليئاً بإمارات وعشائر كردية سنية، وقفت في وجه محاولات الغزو الفارسي وشدت أذى العثمانيين خلال حروبهم ضد فارس. فابقت الدولة هؤلاء الأمراء على إماراتهم، ولكنهم مالبثوا أن استبدوا بالسلطة حتى لم يعد للولاة أي نفوذ عليهم فتركت الدولة أمر إيالة شهر زور للأمراء تحت إشراف ولاية بغداد. وكانت فكرتوكه مقر هذه الإيالة.

انظر لكتف عبد العزيز سليمان نوار: تاريخ العراق الحديث، مرجع سبق ذكره، ص ٧-٨.

(3) Longrigg S.H.; Four Centuries of Modern Iraq. London, (Oxford University), 1925, P.

31.

دكتور أحمد مصطفى أبو حاكم: تاريخ شرقي الجزيرة العربية في العصور الحديثة. مطبوعات معهد البحوث والدراسات العربية التابع لجامعة الدول العربية، القاهرة، ١٩٦٧، ص ٤٤-٤٥.

نتيجة للغزو البرتغالي للبحار الشرقية ، ما يسمى عملية أسر نقل^(١) Transport Capture ولكن الحصار الذي فرضه البرتغاليون على منافذ الطريقين القديمين وهما الخليج العربي ومدخل البحر الأحمر لم يكن محكماً . فكان جانب من التجارة الشرقية يتسرب إلى أيدي التجار العرب فيحملونه في سفنهم الخفيفة إلى البصرة من ناحية وإلى السويس من ناحية أخرى . وبذلك عمرت بالنشاط التجاري أسواق العواصم والمدن العربية : للبصرة ، بغداد ، حلب ، دمشق ، السويس ، القاهرة ، الإسكندرية . وفي فترات السلام التي كانت تتخلل حالات الحرب بين الدولة العثمانية وفارس كانت القوافل تنجز وسط آسيا عبر فارس تحمل إلى بغداد منتجات الشرق ، فكانت بغداد بمثابة مركز لتوزيعها . وعلى هذا النحو فإن موقع بغداد في تلك المنطقة المتوسطة بين وسط آسيا وغربيها ، وفي تلك الشقة من الأرض التي تصل إلى مياه الخليج العربي ، كان موقعاً جغرافياً ممتازاً جذب إلى العراق جانباً لا يستهان به من التجارة الشرقية . ويفضل هذا القدر من التجارة الخارجية لم يعش العراق في عزلة عن العالم^(٢) .

على أن ذلك النجاح الذي أحرزه البرتغاليون بتحويل طريق التجارة الشرقية إلى طريق رأس الرجاء الصالح كان قصير الأمد ، فقد انضمت بلادهم إلى التاج الإسباني (١٥٨٠-١٦٤٠) . وعادت هذه الوحدة التي فرضت على البرتغاليين بعواقب سيئة ، فالحكومة الإسبانية التي كانت قائمة في تلك الفترة ، والتي كانت تسيطر على السياسة البرتغالية الخارجية ، كانت حكومة مركزية ومتحيزة وغير رشيدة^(٣) .

وعجز البرتغاليون في ظل حكومة الوحدة عن إرسال تعزيزات لمراكزهم التجارية في البحار الشرقية ، وتعرضت خطوط الملاحة البرتغالية للاضطراب فترأخت سيطرتهم على منطقة الخليج العربي . واشتدت عداوة الشعوب الشرقية للبرتغاليين بسبب سياستهم الجائرة^(٤) .

(١) دكتور جمال حمدان : التحدي الذي يواجه قناة السويس ، الأهرام ، العدد ٢٢٢٦٤ ، الصادر في يوم السبت ١٢ من شهر أبريل - نيسان - ١٩٧٥ ص٧ مجموعة السنة الأولى بعد المائة .

(٢) دكتور محمد بدیع شريف ، ودكتور زكي المحاسني ، ودكتور أحمد عزت عبدالكريم ، مراجعة الأستاذ محمد شفيق غربال . دراسات تاريخية في النهضة العربية الحديثة . الناشر مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة . د٢ ، ص ٢٢٧-٢٢٨ .

(٣) لوريمير ج.ج. : دلائل الخليج ١٤ جزءاً ، القسم التاريخي سبعة أجزاء ومثلها القسم الجغرافي . ترجم من الإنجليزية إلى العربية بمعرفة قسم الترجمة بكتب حضرة صاحب السمو الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني أمير دولة قطر وعلى تلقى سموه . طبعة جديدة معدلة ومنقحة . د٢ ، ج ١ ، القسم التاريخي ، ص ٢٢ ، ص ٢٨-٢٩ .

(٤) في رأي لوريمير أن وراء انهيار نفوذ البرتغاليين في البحار الشرقية أربعة أسباب ، هي العنف وسوء النية في التعامل مع جيرانهم من أهل الشرق ، ومشاعر الحسد والشقاق التي كانت فاشية بين البرتغاليين يوماً ، وعدم تأسيسهم شركة تجارية كما فعل منافسهم الإنجليز والهولنديون ، بل كانت تجارتهم احتكاريًا ملكاً لسيدهم التنظيم والإدارة ، تخلف الأساس العسكري الذي استندوا إليه ، فأنصب في النهاية يفقر إلى النظام والحصافة المهنية .

لوريمير ج.ج. : مرجع سبق ذكره ، القسم التاريخي ، ج ١ ، ص ٦٧-٦٨ .

وأسهمت سياسة عباس الكبير شاه فارس (١٥٨٧-١٦٢٩) في إضعاف مركز البرتغاليين في الخليج العربي . وجمعت بينه وبين إنجلترا مصلحة مشتركة هي تصفية الوجود البرتغالي في منطقة الخليج ، ومن ثم أخذت السفن الإنجليزية ترفأ إلى موانئه . وانتهى الأمر بأن تغلب الفرس والهولنديون والإنجليز والعرب^(١) حريباً على البرتغاليين الذين فقدوا جزيرة هرمز عام ١٦٢٢ ، وكان سقوطها مقدمة لسقوط مسقط عام ١٦٥٠ ، وسرعان ما اختفى الاستعمار البرتغالي من منطقة الخليج العربي . ولكن لا يعنى هذا زوال الوجود البرتغالي التجاري أيضاً ، لأن سفن البرتغاليين ظلت تؤم موانئ الخليج بعد ذلك للتجارة^(٢) . وكان لهم أسطول تجارى يذهب كل سنة إلى البصرة ويغمرين أسواقها ببضائعهم وينافسون البضائع الإنجليزية . وقد شهدت منطقة الخليج تباعاً صراعاً عنيفاً بين الدول الاستعمارية الكبرى : هولندا وفرنسا ، وإنجلترا والروسيا على دعم نفوذها فيها . وكانت هولندا قد ظهرت كقوة استعمارية في بداية النصف الثانى من القرن السابع عشر ؛ إذ أسسوا عام ١٦٠٢ شركة الهند الشرقية الهولندية ، وسيطروا على حوض الخليج وأسواق فارس ، وغزا أسطول هولندى مؤلف من ثمانى سفن البصرة عام ١٦٤٥ ، ولكن ضعف مركز هولندا في منطقة الخليج العربى بسبب الحروب التى خاضتها فى أوروبا ضد إنجلترا فى سنة ١٦٥٢ ، ثم فى ١٦٦٥ - ١٦٦٧ ، وانسحب الهولنديون من البصرة حوالى ١٧٥٢ ومن بوشهر (١٧٥٣) وبندر عباس (١٧٥٨) . وفى سنة ١٧٦٦ اختفى النفوذ الهولندى والتجارة الهولندية من مياه وشواطئ الخليج العربى أسوة بما حصل للبرتغاليين من قبل . وبقيت قوتان أوروبيتان نصارعتا على النفوذ والتجارة والقواعد العسكرية وهما فرنسا وإنجلترا . وأسست الأولى سنة ١٦٦٤ للشركة الفرنسية للهند الشرقية ، بناء على مرسوم أصدره الملك لويس الرابع عشر استجابة لتصانح كولبير Colbert وزير مالية فرنسا .

ازدهار البصرة :

وكانت البصرة بحكم موقعها على شط العرب الذى ينتهى إلى الخليج العربى أكثر مدن العراق اتصالاً بالصراع الدولى الدائر على النفوذ فى الخليج . فإن البرتغاليين بعد ضياع هرمز من أيديهم سنة ١٦٢٢ ، وجهوا نشاطهم التجارى وحماهم للتصدير إلى البصرة ، فاقاموا فيها وكالة تجارية ومركزاً للتصدير ومؤسسة تعليمية^(٣) . وظلوا هناك حتى عام ١٦٤٠ على الأقل

(١) من بين انتصارات العرب الحربية على البرتغاليين أن الأخيرين اضطروا إلى الجلاء عن الشحر لعدة عمانية فى عام ١٦٤٢ ، وكان البرتغاليون قد تركوا فى الشحر ومسقط منذ طردهم من هرمز .

انظر لوريمر ج . ج . مرجع سبق ذكره ، القسم التاريخى ، ج ١ ، ص ٤٩-٤٠ .

(٢) دكتور أحمد مصطفى أبو حاكم ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢١-٢٢ .

(٣) لوريمر ج . ج . مرجع سبق ذكره ، القسم التاريخى ، ج ٢ ، ص ٦٦ .

يشكلون منافساً نشطاً للتجارة الإنجليزية ، كما كانت مركز جذب قوى للأطماع الأوروبية الاستعمارية في العراق . خرجت إنجلترا من حرب السنوات السبع (١٧٥٦-١٧٦٣) منتصرة على فرنسا ووضعت يدها على أكثر المستعمرات الفرنسية في الهند . وقد كشفت هذه الحرب لإنجلترا عن أهمية الطريق بين الهند وأوروبا عبر العراق وبادية الشام وحلب ، فقد استخدم الإنجليز طريق العراق إلى الهند خلال هذه الحرب ، كما كان أسرع طريق وقتذاك لنقل البريد والأنباء . وكان اتجاه البصرة بحرياً وبرياً في الوقت ذاته . فكان قريباً هي ومنطقة الخليج العربي إلى الهند سبباً في جعلها مركزاً لنظلمات شركة الهند الشرقية الإنجليزية ، التي حرصت على أن يكون لإنجلترا المركز الأول في المنطقة . وكانت هذه الشركة تنظر إلى وكراتها التي أنشأتها في البصرة عام ١٦٤٣ على أنها مركز تجارتها الرئيسي ^(١) ، ثم حول الإنجليز عام ١٧٦٤ الوكالة الإنجليزية في البصرة إلى قنصلية ، فلم تعد مهمة القنصل البريطاني مقصورة على رعاية المثلثون التجارية فحسب ، بل كان عليه أيضاً رعاية المصالح السياسية الإنجليزية . ولم تلبث أن أسست الشركات الأوروبية وكالات لها في البصرة .(*)

وكان الحكم العثماني مهتماً في البصرة يتعرض لضغط القبائل العربية والعشائر البدوية ومحاولات فارس للاستيلاء عليها . وفي أوائل القرن السابع عشر تولى الحكم فيها أحد المغتصبين من بينها ويدعى أفراسياب . وظفرت البصرة بالأمن والاستقرار إبان حكم أسرة أفراسياب الذي انتهى سنة ١٦٦٨ ، وتمتعت الطوائف الدينية المسيحية بالتسامح . وكان حكام هذه الأسرة يرحبون بالأجانب جميعاً من هولنديين وإنجليز وفرنسيين وهنود وغيرهم فضلاً عن الأتراك العثمانيين والعرب الوافدين من إسطنبول وأزمير وحلب والموصل وديار بكر وبغداد والقاهرة وسائر أنحاء العالم العربي والإسلامي . وكانت تعقد في البصرة صفقات تجارية في السلع الواردة من الهند وفارس ، وكانت السلع تحمل في نهر دجلة إلى بغداد ومنها كانت القوافل تحملها إلى حلب . وفي أحيان أخرى كانت القوافل تعبر البادية رأساً من البصرة إلى حلب مارّة بالجنف . ويلاحظ أن أساكل بر الشام كانت مفتوحة دون قيد أو شرط أمام العراق للتصدير والاستيراد ، فكانت السفن العثمانية والأوروبية تقوم بتفريغ شحناتها في هذه الأساكل مثل إسكندرون وطرابلس وبيروت واللاذقية وعكا وغيرها لتنتقل إلى حلب أو دمشق إلى العراق ، كما كانت تلك السفن تقوم بشحن السلع الواردة من العراق إلى أوروبا وبلاد الدولة العثمانية ^(٢) . وكانت البصرة تزدهم بالبضائع ، الذين يقصدونها لبيع الإبل للتجار واستخدامها في نقل

(١) Longrigg R.H; Loc. cit., p. 108.

(٢) Wilson Thomas Arnold; The Persian Gulf, London. 1964, p. 161.

(٣) دكتور محمد ببيع شريف وزميله ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٢٨-٢٠٠ .

(٤) استولى الفرس على البصرة أولاً في سنة ١٦٩٧ ، ثم تركوها بعد عامين . وأغار عليها نادر شاه ، ثم =

البضائع . ولم تفقد البصرة مكانتها التجارية الممتازة في الفترات التي حكمها فيها الفرس ، إذ عملوا على اجتذاب التجار الأجانب إليها ، فظلت العلاقات التجارية مزدهرة بين البصرة والهند .

وزاد عدد السفن التي ترقأ إلى البصرة قادمة من البنغال وبمباي حاملة الأقمشة الهندية الحريية والتوابل والأرز والسكر الأمريكي والشيلان زيادة مطردة في القرن الثامن عشر .

وكان يرد إلى البصرة سنوياً ٣٠ ألف أفة من خيوط القطن ، وتصدرها البصرة إلى بغداد والموصل ودمشق وحلب ، وكانت تتردد على البصرة السفن القادمة من مسقط والبحرين وشرقي إفريقيا ، تحمل العبيد والبن والعنبر .

أما سفن البحرين فكانت تحمل اللؤلؤ . وكانت التجارة الهندية عصب الحياة الاقتصادية في البصرة ، تستقبل معظم سلع الهند وتصدر إليها شتى أنواع السلع الواردة من الشام والأناضول وغيرها .

تصدير الخيول العربية من البصرة إلى الهند :

وعن طريق البصرة كان العراق يصدر إلى بمباي الخيول العربية . والخيول في العراق ذات سمعة طيبة وأعدادها لا بأس بها ، غير أنها لاتفوق خيول نجد في جودتها . وترى بعض الخيول الجيدة في المنطقة المجاورة لمدينتي الحلة والديوانية بالعراق .

إحصائية عن تصدير الخيول :

ونورد هنا إحصائية عن تصدير الخيول من البصرة إلى بمباي خلال عشرين عاماً ، فيما بين سنتي ١٨٨٧ و ١٩٠٦ وأسعارها في البصرة بالجنيهات الإسترلينية .

= خضعت مرة أخرى للفرس وعانت للعثمانيين سنة ١٧٧٩ بعد حكم دام ثلاث سنوات . وأصبحت البصرة متسلمية تابعة لوالى بغداد حتى سنة ١٨٧١ ، بعد عزل مدحت باشا من ولاية بغداد ، فانفصلت البصرة عن بغداد ، وأصبحت تابعة رأساً لإستانبول . وكان السلطان يرسل لحكمها «متصرفاً» إلى عام ١٨٨٢ ثم رقت البصرة إلى مرتبة ولاية ، بعد أن اقتطعت الدولة بعض أقاليم ولاية بغداد وضم إقليم الأحساء إليها . وأصبح ناصر باشا شيخ المفتق أول حاكم لهذه الولاية الجديدة ، على الرغم من أنه عربي المولد والقبيلة .

انظر :

لوديمر ج.ج ، مرجع سبق ذكره ، القسم التاريخي ، ج ١ ، ص ٢٧٠ ،

السنة	عدد الخيول	أسعارها في البصرة بالجنيهات الاسترلينية
١٨٨٧	٢,٥٠٠	٦٢,٥٠٠
٨٨	٢,٢٠٦	٥١,١٥٠
٨٩	٢,٨١٥	٦١,٩٣٠
٩٠	٣,١٩٣	٦٣,٨٦٠
٩١	٣,١٤٩	٧٣,٢٣٠
٩٢	٢,٢٦٨	٣٧,٥٠٤
٩٣	٣,٤٣٢	٥٠,٤٠٨
٩٤	٣,٢١٨	٤٨,٢٧٠
٩٥	٤,٥٨١	٦٨,٧١٥
٩٦	١,٧٠٤	٢٥,٥٦٠
٩٧	١,٣١١	١٩,٦٦٥
٩٨	١,٩٣٦	٢٩,٠٠٤
٩٩	١,٥٢٨	٢٧,٥٠٤
١٩٠٠	٢,٢٧٩	٤٥,٥٨٠
٩٠١	٢,٤٥٥	٤٩,١٠٠
٩٠٢	٩٤٥	٥٦,٠٧٠
٩٠٣	٣,٨٤٥	٤٦,١٤٠
٩٠٤	٢,٦٨٢	٥٣,٦٤٠
٩٠٥	٢,٢٦٢	٤٩,٧٦٤
٥٠٦	١,٧٤١	٤٣,٥٢٢ ^(١)

دراسة تحليلية لإحصائية الخيول :

نخرج من هذه الإحصائية بعدة نتائج تماشيًا مع القاعدة الاقتصادية القائلة إن الأرقام تنكلم . ومن هذه النتائج أو الملاحظات نذكر :

أولاً : كانت البصرة هي المكان الطبيعي لتصدير الخيول التي تربي في العراق ، وبصفة رئيسية في ولاية بغداد ، وكذلك لتصدير معظم خيول نجد وبعض مناطق الخليج العربي .

ثانياً : كان يحدث أن تصدر السلطات العثمانية في العراق أوامر بمنع تصدير الخيول ، مما أدى إلى نشاط عمليات تهريب الخيول من العراق إلى فارس حيث تباع في أسواقها ويتم

(١) لوريير ج.ج. ، مرجع سبق ذكره ، القسم التاريخي ، ج ١ ، ص ٣٢٤٢ .

تسويقها في المحمرة ، بدلاً من البصرة ؛ مما أدى إلى ضائقة حجم صادرات الخيول من البصرة في بعض السنوات .

ثالثاً : ازداد في سنة ١٨٩٥ طلب الخيول العربية زيادة ملحوظة فارتفع حجم صادرات الخيول من البصرة ارتفاعاً لم يسبق له مثيل ، ومن أجل ذلك تمت عمليات الشحن قبل ابتداء الموسم المعتاد .

رابعاً : في سنة ١٨٩٦ كان عدد الخيول التي صدرت من البصرة إلى بمباي أقل من المعدل بسبب غلاء العلف في الهند من ناحية ، وانتشار الطاعون الدملي في بمباي من ناحية أخرى .

خامساً : ازداد في سنة ١٨٩٧ تناقص حجم التصدير لانتشار الطاعون وغلاء العلف ، وقيام الحكومة العثمانية بشراء الخيول للأغراض الحربية .

سادساً : فرضت السلطات العثمانية في سنة ١٨٩٩ رسماً لتصدير الخيول بلغ أربعة جنيهات إسترلينية وعشرة شلنات عن كل حصان . وقد أدى هذا الرسم إلى الحد من عمليات تصدير الخيول من البصرة وتهريب أعداد كبيرة من الخيل إلى فارس ؛ حيث كانت تصدر من المحمرة إلى الهند . ومع ذلك بلغ عدد الخيل المصدرة من البصرة في تلك السنة ألفاً وخمسمائة وثمانية وعشرين حصاناً ؛ مما يدل على احتفاظ البصرة بقدر كبير من نشاطها في تصدير الخيول . واستمرت الزيادة في السنوات التالية ، على الرغم من أن السلطات العثمانية رفعت سنة ١٩٠٢ رسم التصدير ، فجعلته ستة جنيهات إسترلينية عن كل حصان؛ مما أدى إلى هبوط عدد الخيول المصدرة في تلك السنة إلى ٩٤٥ حصاناً .

سابعاً : وجدت الخيول العربية في الهند منافسة شديدة في سنة ١٩٠٦ من الخيول الأسترالية . ولكن مما خفف من أثر هذه المنافسة الزيارة التي قام بها ولي عهد بريطانيا للهند في تلك السنة ، فبلغ عدد الخيول العربية التي شحنت في البصرة في ذلك العام ١٧٤١ ، بعد أن كانت في السنة السابقة ٢,٢٦٢ حصاناً .

تصدير معظم محصول التمور من البصرة إلى الخارج :

أما التمور فهي أهم حاصلات وصادرات العراق ، وهي تزرع غالباً على ضفاف شط العرب أعلى وأسفل البصرة ، وفي منطقة تمتد من الفرات إلى أسفل بلدة الحلة بمسافة ثلاثين ميلاً ، وفي جوار كربلاء والنجف وحول بغداد . أما أحزمة النخيل على ضفتي شط العرب فذات عمق يتراوح بين نصف ميل وميلين . ويقدر عدد نخيلها بمليون وتسعمائة ألف نخلة على كلتا الضفتين . وتصدر البصرة الجزء الأكبر من محصول تمر العراق . وأجودها

المعروف باسم «حلاوى» و «خضراوى» ويبلغ عدد بقية الأصناف الأخرى حوالى أربعين تدخل تحت اسم «ساير» . أما التمر الذى تصدر من منطقة بغداد فأغلبها من نوعي «زهدي» و «كرسى»^(١) . وتصدر التمر من البصرة داخل صناديق إلى إنجلترا وأمريكا . وكان محصول تمر البصرة سنة ١٨٨٧ يقدر بحوالى ٦٠,٠٠٠ طن صدر منها حوالى ٤٤,٠٠٠ طن ، منها ٢٠,٠٠٠ بالبواخر إلى لندن وأمريكا . وكانت التمر من نوع حلاوى هي المفضلة في أوروبا وأمريكا في ذلك الوقت . وصدر ٢٤,٠٠٠ طن بالسفن المحلية إلى شبه الجزيرة العربية وفارس والهند . وكان التمر الزهدي يلقى رواجاً في الهند . ونظراً لزيادة الطلب على تمر العراق توسع العراقيون في تخصيص مساحات جديدة من الأراضي لزراعة النخيل . فازداد محصول التمر في منطقة البصرة في سنة ١٨٩٢ خمسة أضعاف خلال الاثنى عشرة سنة السابقة ، وأخذ مكان الصدارة في الهند وإفريقية والأقاليم المطلة على البحر الأحمر . ومما يبرز المركز القياضى للبصرة في تصدير التمر أن حجم صادرات هذا المحصول من البصرة في سنة ١٨٩٦ قد بلغ ٦٠٠,٠٠٠ صندوق منها ٤٩٠,٠٠٠ شحنت إلى لندن ، ٥٣,٠٠٠ شحنت إلى نيويورك رأساً ، ٥٧,٤٠٠ إلى بمباى وبافا وبيروت وأزمير وإستانبول .

إحصائية عن قيمة التمر المصدرة من البصرة :

ونورد هنا بياناً عن قيمة التمر التى صدرت من البصرة إلى الخارج فى خلال سبع سنوات فيما بين سنتي ١٨٩٩-١٩٠٠ و ١٩٠٥-١٩٠٦ مقدرة قيمتها بالجنيهات الإسترلينية، والمعدل فى هذه السنوات .

دراسة تحليلية لإحصائية التمر :

نخلص من هذه الإحصائية إلى ملاحظتين ، هما :

أولاً : ارتفع ثمن التمر المصدرة من البصرة وزاد حجمها فى سنة ١٩٠٠-١٩٠١ نظراً ؛ لأن الإقبال عليها فى الهند كان شديداً بسبب المجاعة التى تعرضت لها معظم أقاليم الهند فى تلك السنة .

ثانياً : إن اختلاف القيمة النقدية للتمر المصدرة من البصرة كان يختلف من سنة إلى أخرى هبوطاً وصعوداً . ويرجع هذا الاختلاف فى الأعم الأغلب إلى عوامل طبيعية ، سببت اضطراباً بالغة بالمحصول ، مثل فيضانات شط العرب وموجات حر شديدة وهبوب رياح حارة ، وكانت كل هذه العوامل مجتمعة أو منفردة تؤدي إلى ذبول كميات هائلة من الثمار غير الناضجة ونقص وزنها .

(١) تنطق زهدي فتح الزاى وسكون الهاء وكسر الال . أما كرسى فتنتطق بضم الكاف وسكون الزاء وكسر السين .

السنة	أسعارها في البصرة بالجنيهات الإسترلينية
١٨٩٩-١٩٠٠	٢٩٥.٢٣٣
١٩٠٠-١٩٠١	٣٨٠.٩٧٣
١٩٠١-١٩٠٢	٣٢٧.٤٥١
١٩٠٢-١٩٠٣	٢٨٩.٢١٥
١٩٠٣-١٩٠٤	٣٥٩.٢٢٨
١٩٠٤-١٩٠٥	٣١٢.٧٦٧
١٩٠٥-١٩٠٦	٣٤٥.١٨٤
المعدل في هذه السنوات	(١) ٣٣٠.٠٠٧

انتعاش بغداد :

وكانت بغداد^(٢) هي الأخرى إبان الحكم العثماني مركزاً يجمع نشاط تجاري كثيف ، تأتي إليها القوافل محملة بالبضائع من الأناضول وإستانبول وحلب ودمشق وكركوك وديار بكر وماردين وفارس . وكانت القوافل الفارسية أغنى القوافل الشرقية ؛ إذ كانت تحمل التبغ والشيلان والفواكه . وكان التبغ أهم السلع التجارية ، فقد كان يعاد تصديره إلى دمشق وحلب وإستانبول نظراً لجودته وتوقفه على التبغ العراقي الذي كان يزرع في ضواحي بغداد . وكانت القوافل القادمة من حلب تحمل بضائع واردة من أوروبا ومن أهمها الحلوى والمنسوجات . وكانت بغداد محط قوافل تكدم من سنه ، وزهاب ، والسليمانية وغيرها . ثم كانت الهند مصدراً هاماً للتجارة الشرقية التي تتدفق على بغداد . وعن حجم التجارة الهندية ، يقول أحد الرحالة الهولنديين في النصف الثاني من القرن السادس عشر : «اتفق أنه في يوم واحد رست خمس وعشرون سفينة مشحونة بالتوابل والعقاقير الثمينة أرسلت بحراً من الهند بطريق هرمز إلى البصرة حيث أفرغت في سفن صغيرة صعدت النهر إلى بغداد حيث كان ينتظرها التجار الذين ضربوا خيامهم خارج المدينة لبيعوا بها في القوافل»^(٣) . وإذا كانت البصرة قد نمت نمواً سريعاً للغاية في المجالات التجارية ، إلا أن بغداد كانت هي العاصمة الحقيقية للعراق . وكان حكم بغداد المدني إبان الحكم العثماني يتمتع بهيبة أكثر مما هو في البصرة . وكان اعتماد الممثلين

(١) لوريير ج. ج. مرجع سبق ذكره ، القسم التاريخي ، ج ٦ ، ص ٣٢١٧ .

(٢) يذكر البعض أن الاسم بغداد هو اسم فارسي قديم معناه المكان الموهوب من الله ، وتسمى بغداد أيضاً دار السلام وتسمى المكان الأمن ، ومدينة الخلفاء ومدينة الخلافة نظراً لأنها بقيت زهاء ثلاثة قرون العاصمة السياسية للعالم الإسلامي تحت حكم الخلفاء العباسيين فيما عدا الفترة من سنة ٨٣٦م إلى سنة ٨٩٢م أي نحو ٥٦ عاماً حين حلت مدينة سامراء محلها . وفي بعض الأحيان تذكر بغداد بالاسم القديم «الزوراء» ، ويلاحظ أن الجريدة المحلية شبه الرسمية في بغداد تسمى «الزوراء» .

(٣) دكتور محمد بدیع شريف وزميله ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٣١ .

القنصليين من الرتب العالية يتم لدى والى بغداد . وفصلاً عن ذلك كانت بغداد هي مقر القيادة العليا للقوات العثمانية في العراق . وفي بغداد كان يعين الموظفون الذين يشرفون على العمل في العراق بالنسبة للدوائر المختلفة مثل الدائرة السنية ودائرة الجمارك ودائرة الأوقاف ودائرة الصحة العامة ودائرة المواصلات ودائرة التعليم . وكانت بغداد تزخر بعدد وافر من المباني الفخمة للقنصليات الأجنبية مثل البريطانية والروسية والفرنسية والنمساوية والألمانية والأمريكية والبلجيكية والنرويجية والفارسية . وتقع معظم مباني هذه القنصليات على الشاطئ الأيسر لنهر دجلة أو بالقرب منه .

العراق "بؤرة" لطرق القوافل :

والحق أن العراق كان بمثابة "بؤرة" لطرق القوافل . وكانت هذه القوافل تختلف من حيث حجمها ، مقاساً بعدد الجمال ، فهي تتراوح بين قوافل صغيرة تتكون من ثمانين جملاً إلى مائتي جملاً ، وأخرى كبيرة تضم من خمسة آلاف إلى عشرين ألف جملاً . والأخيرة تتعلق بالنقل الخارجي . كما كانت على نوعين : تجارية للنقل البضائع ، وأخرى لنقل المسافرين . وكانت هذه القوافل ، سواء ماكان يستعمل منها في الداخل أو الخارج ، تحتاج إلى الأدلاء وأصحاب التجارة والحمولة أو من ينوب عنهم وعدد كبير جداً من الحراس . وكان هذا التنظيم يتطلب توفير الماء والطعام وتبديل الإبل أو بيعها أو شرائها . ونشأت بعض القرى والمدن كمحطات على امتداد طرق القوافل لتقديم هذه الخدمات والمتطلبات (١) .

المغامرون والسائحون الأجانب في العراق :

تعددت سبل الاتصال بين المغامرين الأجانب الذين وفدوا على العراق في القرن الثامن عشر والجماهير العراقية . وزاد عدد هؤلاء المغامرين في القرن التاسع عشر نحت سائر التنقيب عن الآثار أو ممارسة النشاط التجاري . وكان من بينهم عملاء الحكومات الأجنبية ووطدوا صلاتهم مع العشائر والقبائل وأصحاب العصابات العربية والكردية . وكانوا يقدمون لهم الأموال والهدايا . وكان بعض هؤلاء المغامرين يطالبون بحكوماتهم بضرورة اتخاذ الإجراءات لجلب رموس الأموال الأجنبية وجذب المهاجرين الأجانب لاستعمار العراق اقتصادياً باستغلال موارده الاقتصادية وموقعه الجغرافي الهام في طريق المواصلات العالمية . وبعد أن أنشئت خطوط الملاحة البخارية في أنهار العراق - كما سنرى في موطن قادم في هذا الفصل - كان هؤلاء المغامرون يستخدمون رحلات السفن البخارية في مسح العراق جغرافياً واقتصادياً واجتماعياً .

وفي القرن الثامن عشر ، اتسع نطاق علاقات العراق الخارجية بدول غربي أوروبا وزاد

(١) دكتور عبدالرازق عباس حسين : نشأة مدن العراق وتطورها . من مطبوعات معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٧٣ ، ص ٥٦ .

عدد السائحين الأوروبيين . وخصوصاً الإنجليز والفرنسيين ، الذين يزورون العراق ويتجولون في ريوحه وهم في طريقهم إلى فارس أو إلى الهند . وكانت هذه السياحة الأوروبية بدورها عاملاً في فتح أبواب العراق أمام العالم الأروبي الغربي . واستقرت في المدن الكبرى في العراق جاليات أوروبية . وكان وكلاء شركة الهند الشرقية البريطانية يترددون على البصرة وبغداد وتستضيفهم السلطات العثمانية . وكان لهذه الشركة بريد منتظم تحمله الإبل من البصرة إلى حلب ويشرف عليه النتر . كما كان هؤلاء النتر يحملون إلى إستانبول بريد وإلى بغداد إلى الباب العالي ويريد القناصل الأوروبيين في الشرق الأوسط إلى سفراء دولهم .

على هذا النحو ظل العراق طريقاً بين الشرق والغرب ومركزاً هاماً لمرور أو توزيع أو استهلاك المناجر الشرقية الواردة من الهند وغيرها من أنحاء آسيا وكذلك بعض أقاليم شرقي إفريقية المعلقة على المحيط الهندي ، والتجارة الأوروبية أيضاً . ولذلك كانت إنجلترا حريصة المحرص كله على ألا تتأثر بالنفوذ في العراق دولة أجنبية غيرها ، سواء كانت شرقية مثل فارس أو أوروبية مثل فرنسا ، واهتمت اهتماماً بالغاً بأن يكون لها النفوذ الأول في هذا الإقليم . وكثيراً ما تحدثت الدوائر السياسية في لندن والهند والقناصل البريطانيون في العراق عن وجوب قيام إنجلترا باحتلال العراق . ولكن حالت دون تحقيق هذا الأمل المربح السياسة التقليدية التي سارت عليها إنجلترا تجاه الدولة العثمانية حتى عام ١٨٧٨ وهي المحافظة على استقلالها وسلامة ممتلكاتها . فالفوز للجنوبي من العراق يطل على الخليج العربي . والاثنان معاً يعتبران البوابة الرئيسية الكبرى للهند . وأرادت إنجلترا أن تتخذ العراق قاعدة عسكرية لحماية الهند ولمناوئة الأطماع الروسية . والجزء الشمالي الشرقي من العراق مجاور لبلاد الشام وفيها فلسطين ، وهي مدخل إلى مصر وإلى قناة السويس بعد إتمام حفرها عام ١٨٦٩ ، وهي تريد أن تتخذ من شمالي العراق مركزاً لمراقبة أى نشاط معاد لها في بلاد الشام بعد أزمة التوسع المصري في الشام ونجد أيام محمد علي وإلى مصر . فضلاً عن أن العراق إقليم غني ذو موارد اقتصادية هامة ، إذا أحسن استغلالها جنت إنجلترا منه أعظم الفوائد . فهو مليء بالمعادن والخامات مثل النحاس والرصاص والكبريت والمنجنيز والفوسفات والبيتومين وغيره من المواد اللازمة للصناعة^(١) . وتربته خصبة تجود بزراعة وفيرة . وكان العراق في الأزمنة القديمة يعد من أخصب بلاد العالم حتى إن المؤرخ اليوناني هيرودوت كان يضرب به المثل في الخصب

(١) دكتور نور خليل الرازي : الصناعة ومشاريع التصنيع في العراق ، من مطبوعات معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٦٦-١٩٦٧ ، ص ٥-٢٢ ، ١٢٥ .

دكتور خطاب العاني : جغرافية العراق الزراعية . من مطبوعات معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٧٢ ، ص ١١-٩٦ .

ووفرة الإنتاج^(١) . وإنّا كانت مصر هي هبة النيل ، فإن العراق هو هبة الرافدين^(٢) .

ثانياً : إنشاء خطوط ملاحية بخارية في أنهار العراق تتصل بخارجة :

ونشطت بريطانيا في تنفيذ مشروع إنشاء خطوط ملاحية بخارية في أنهار العراق تسير عليها البواخر البريطانية كمرحلة من مراحل الطريق البري القديم الذي يمر بالخليج العربي والبصرة ووادى الرافدين ثم بادية الشام إلى حلب ومنها إلى أساكيل الشام . وكانت شركة الهند الشرقية البريطانية قد فكرت في أواخر العقد الثالث ، من القرن التاسع عشر ، في إنشاء طريق قصير وسريع وسهل بين الهند وبريطانيا يمر بمصر أو العراق ليكون متصلاً بطريق رأس الرجاء الصالح . وكان لبده استعمال البخار في المواصلات العالمية وقتذاك أثره فيما أرادت الشركة تحقيقه . فالسفن البخارية الأولى كانت لصغر حجمها وضعف آلاتها أصلاً للمواصلات النهرية والساحلية ، منها للقيام بما كانت تقوم به السفن الشراعية الكبرى من الرحلات الطويلة في طريق رأس الرجاء الصالح . وكان الاعتقاد أن طريق مصر أو طريق العراق يؤدي إلى نقص كبير في تكاليف النقل ومدة السفر على الرغم مما كان يتطلبه كل منهما من نقل برى عبر مصر في الحالة الأولى ، وعبر بلاد الشام في الحالة الثانية . غير أن السلطات البريطانية اعتقدت في الوقت ذاته ضرورة القيام بدراسات تمهيدية واسعة النطاق لمعرفة أفضل الطريقين وللتثبت من الخطوات التالية^(٣) .

ولكن الدبلوماسية البريطانية أرادت أن تتخذ مشروع طريق العراق مرحلياً ، فبتدأ أولاً بنهر الفرات وحصرت مساعيها أول الأمر مع السلطان العثماني من أجل الحصول على فرمان يخول لها الحق في تشغيل باخرتين في نهر الفرات . فلما فازت ببيعتها - كما سنرى بعد قليل - تطلعت إلى مد هذا الحق أو الامتياز إلى أنهار العراق الأخرى مثل دجلة و كارون ، ونجحت في تحقيق أهدافها ، دون أن تنال من السلطان فرماناً يخول لها الحق في تجاوز حدودها الأولى .

أهداف بريطانيا من إنشاء خطوط ملاحية بخارية في أنهار العراق :

واستهدفت بريطانيا من إنشاء خطوط ملاحية بخارية للسفن البريطانية في أنهار العراق تسهيل المواصلات بينها وبين الهند ، وزيادة حجم التجارة ، ودعم نفوذها في العراق ومقاومة الخطر الروسي في منطقة الخليج العربي ، واحتمال امتداد هذا الخطر إلى العراق من ناحية وإلى الهند من ناحية أخرى . وكان الإنجليز يعتقدون أن نفوذهم في العراق ومصالحهم في منطقة

(١) دكتور محمد محمود الحبيب : جغرافية الوطن العربي ، من مطبوعات معهد البحوث والدراسات العليا ، القاهرة ، ٢٤ ، الزراعة ، القاهرة ، ١٩٦٧-١٩٦٨ ، ص ٤٢٣ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٧٢ .

(٣) دكتور زكي صالح : مجمل تاريخ العراق النولى في العهد العثماني . من مطبوعات معهد الدراسات العربية المالية ، القاهرة ، ١٩٦٦ ، ص ٤٥-٤٦ .

الخليج العربي وممتلكاتهم في الهند... كل أولئك يتعرض لخطر داهم ، إذا غدا المجال مفتوحاً لتساقط النفوذ الروسي إلى العراق واستقراره على ضفاف دجلة والفرات ، وهذه الفكرة هي التي استقرت في أذهان الإنجليز منذ سنة ١٨٣٠ .

وكان من مزايا مشروع إنشاء ملاحه بخارية بريطانية في أنهار العراق تجلب خطورة الملاحه في البحر الأحمر فيما لو استخدم طريق مصر البري أو قناة السويس فيما بعد ؛ بسبب الأعاصير المدمرة التي تهب على البحر الأحمر ووجود الصخور المرجانية فوق مياهه وتحتها . أما تعرض البواخر النهرية البخارية في نهر الفرات لهجوم القبائل والعشائر العربية والكردية ، فمن الممكن التغلب على هذا الهجوم بتسليح البواخر .

وكانت الدوائر البريطانية -سواء في إنجلترا أو في الهند - تنظر إلى العراق على أنه الإقليم الذي سيصبح في قابل الأيام سوقاً لتصريف البضائع الإنجليزية ؛ فالمصالح التجارية لبريطانيا في العراق لا تقل أهمية عن مصالحها في مصر . ورأى الباب العالي مقاومة هذا التسلل البريطاني الملاحى البخارى في أنهار العراق ، على أن تكون هذه المقاومة بالأسلوب نفسه ، وهو إنشاء خطوط ملاحه بخارية عثمانية في أنهار العراق ، وأن تسير على هذه الخطوط باواخر حكومية وغير حكومية ، وأن يتصل بعضها بالعالم العربي والإسلامي . واستهدف الباب العالي من إنشاء هذه الخطوط العثمانية تنشيط التجارة الداخلية والخارجية للعراق وربطه بالعالم الخارجى إلى جانب مقاومة خطوط الملاحه البخارية البريطانية في أنهار العراق . ونبدأ بعرض سريع لجهود بريطانيا في هذا المجال ثم نتبعها بجهود الباب العالي ؛ لأن بريطانيا كانت أسبق من الدولة العثمانية في إنشاء الملاحه البخارية في أنهار العراق .

جهود بريطانيا لإنشاء خطوط ملاحه بخارية في أنهار العراق :

رحلة شيزنى الأولى :

فام الميجور - الجنرال فيما بعد - فرانسيس رودسن شيزنى Major Francis Rawdson Chesney في أواخر عام ١٨٣٠ برحلة دراسية استطلاعية في وادى الرافدين (١)

(١) كانت الحكومة البريطانية قد أوفدت عام ١٨٢٩ للاشتراك في الحرب العثمانية الروسية إلى جانب القوات العثمانية . وقد بلغ إسطنبول عقب انتهاء الحرب ؛ فوجهه السفير البريطاني لدراسة مشروع استخدام البواخر في نهر الفرات ومشروع استخدام طريق مصر . وسافر إلى مصر متجهاً بهذه المهمة التي نيبت به . والتقى في مصر بزملاء بريطانيين ، وقف منهم على المعلومات التي أرادها ، وترك مصر ورحل إلى الشام في أواخر عام ١٨٣٠ وطريقه إلى العراق .
دكتور زكى صالح ، مرجع سبق ذكره ، ص ٤٦ .

من دمشق إلى عانة ، ومن هناك استقل طوقاً يسمى أيضاً «كلك»^(١) في نهر الفرات حتى وصل إلى الفالوجة^(٢) ومنها انتقل إلى بغداد ثم إلى البصرة . وكان يسير عمق النهر ويدرس تياراته المائية ويسجل أسماء القرى التي يمر بها . وبعد أن وصل إلى البصرة ، درس نهر كارون مثلما درس نهر الفرات ثم عاد إلى لندن بعد أن استغرقت رحلته في العراق سنة واحدة (١٨٣٠-١٨٣١) ووضع خطة مشروع للاتصال بالهند عن طريق العراق . وفي سنة ١٨٣٣ أذن له وليم الرابع ملك إنجلترا بمقابلته ، وشجعه الملك الذي كان مهتماً بالمشروع على الاستمرار ، ونصح به بأن يعمل على إعداد أسطول بخارى صغير يكون جزءاً من البحرية الهندية ، ويكون مرساه فيما بين النهرين لمساعد على تقوية الدولة العثمانية وفارس ضد روسيا . ونجح في إقناع الحكومة البريطانية بما كان يراه من أهمية نهر الفرات من ناحية المواصلات بين بريطانيا والهند وكذلك من الناحية العسكرية . وبعد ذلك بقليل جاءت الأحداث الدولية مؤيدة لآراء شيرنزي .. ففي سنة ١٨٣٢ كان الجيش المصري قد اجتاحت الشام وأجزاء من جنوب شرق الأناضول على عهد محمد علي ، وفزعت الحكومة البريطانية من انتشار النفوذ المصري في تلك المناطق اعتقاداً منها أن النفوذ الفرنسي يجرى في أعقابها ، ومما أدى إلى تأزم الموقف أن السلطان محمود الثاني عقد مع روسيا معاهدة هنكار إسكسلي (٨ من يوليو - تموز - ١٨٣٣) ، وهي معاهدة دفاعية أتاحت للقوات المسلحة الروسية البرية والبحرية أن ترابط في بعض المواقع العثمانية بحجة حماية السلطان من واليه التأثير محمد علي^(٣) . وكانت السياسة البريطانية حريصة على منع وقوع خط المواصلات العالمية عبر الشام والعراق في يد مصر أو غيرها من الدول . ولهذا رأت أنه لا مندوحة لها عن اتخاذ إجراءات فعالة ، تكفل لها السيطرة على هذا الطريق باستخدام نهر الفرات للملاحة البخارية البريطانية . وفي ٣ من يونيو

(١) الكلك عبارة عن ألواح من الخشب يشد بعضها إلى بعض : بحيث تشكل منصة مربعة أو مستطيلة ، يصل سمكها إلى قدم أو قدمين . ويقاس الكلك هو ١٤ × ١٥ قدماً إلى ١٦ × ١٨ قدماً ، ويبلغ طول بعضها ٢٠ قدماً . ويثبت إلى الجزء المغمور في الماء ٢٠ أو ٥٠ جراباً من جلود الماعز عادة ، وتكون هذه الأجرية منفوخة حتى يزداد تعويم الكلك ، وهو لا يسير إلا مع التيار ويسير في منتصف مجرى الماء بمساعدة مجدافين .. وكان شائع الاستخدام في العراق إبّان الحكم العثماني ويصلون عليه الفخار والخشب والفاكهة وعلب الزيت الفارغة لبيعها على الطريق إلى القريين والبدو . وتتراوح حمولة الكلك بين خمسة أطنان وثلاثين طناً . وعندما يصل الكلك إلى وجهته يفك وتباع أخشابه لبناء المنازل . أما الأجرية الجلدية فتنتقل على ظهور الإبل إلى المكان الأصلي الذي جيئت منه .
انظر :

لوريمر ج.ج : مرجع سبق ذكره ، القسم الجغرافي ، ج ٢ ، ص ١٠٢٣ .

(٢) الفالوجة وتكتب أحياناً الفلوجة قرية في العراق على الضفة اليسرى لنهر الفرات على بعد ٧٠ ميلاً من مدينة السبيح . وكان يوجد بها ، إبّان الحكم العثماني ، مسحة وخانان أو ثلاثة وسوف يحتوي على حوالي ثلاثين حائطاً ومبنى أو سرائي للحكومة .

لوريمر ج.ج : مرجع سبق ذكره ، القسم الجغرافي ، ج ٢ ، ص ٦٩١-٦٩٢ .

(٣) انظر في هذه الدراسة الفصل الثامن - الجزء الأول .

- حزيران - ١٨٣٤ تشكلت لجنة خاصة هي لجنة الملاحة البخارية في مجلس العموم البريطاني لمعرفة أفضل الطريقتين المصرية والفرائي . وعقدت عدة جلسات استمعت فيها إلى آراء المختصين بطريق الفرات . وكانت شهادة شيرزى بطبيعة الحال هي التي عولت عليها اللجنة في وضع تقرير برلماني ضخم ، ناهز المائة صفحة من القطع الكبير عن الموضوع . وقد وافق مجلس العموم البريطاني في شهر أغسطس - آب - عام ١٨٣٤ على فتح اعتماد بمبلغ عشرين ألف جنيه استرليني لتمويل نفقات بعثة رسمية ، تقوم بدراسة الإمكانات المتاحة لتسيير سفن نهريّة بخارية في نهر الفرات . وأضافت إليه شركة الهند الشرقية مبلغ خمسة آلاف جنيه أخرى . وقام شيرزى بتنظيم البعثة وصدر مرسوم ملكي ، مؤرخ في ٢٨ من نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٨٣٤ بتعيينه لقيادة البعثة وتوجيهها^(١) .

مشكلة استصدار فرمان من السلطان :

وطالب لورد پونسونبي Lord Ponsonby السفير البريطاني في إسطنبول من الباب العالي استصدار فرمان من السلطان بالترخيص لباخرتين بريطانيتين بالملاحة في نهر الفرات . وتردد الباب العالي متعللاً بأن الشائعات التي تمر بها الباخترتان في العراق مبعث خطر على حياة ركابهما ، وأنه تبعاً لذلك ليس في مكنته تحمل مسؤولية سلامتهم . وصرح ريس أفندي - وهو لقب كان يحمله وزير الخارجية العثمانية في القرن التاسع عشر^(٢) - أن الباب العالي مستعد لإصدار فرمان ، إذا تحملت بريطانيا مسؤولية الدفاع عنهم . ووافقت الحكومة البريطانية على هذا الشرط في مقابل أن تكون الباخترتان مسلحتين . وأعرضت الروسية على إصدار هذا فرمان ؛ لأنها رأت أن مثل هذا فرمان سيقى بالعراق غنيمة باردة في يد الإنجليز ، الذين سيجعلون من العراق قاعدة عسكرية لمقاومة النفوذ الروسي في منطقة الخليج العربي من جنوب غربي آسيا . وكان لدى الروس حجة قوية وهي أن الباب العالي ظل ممتنعاً امتناعاً تاماً لفترات طويلة عن منح التعمسا حرية الملاحة في نهر الدانوب . وهو ، بالفرمان المرغى ، يمنح امتيازاً للإنجليز ليشتركهم فيه أحد^(٣) . وأخيراً استجاب الباب العالي للضغط البريطاني ؛ إذ كان في حاجة إلى استرضاء بريطانيا لتقف إلى جانبه ضد مصر . فصدر فرمان في ٢٩ من ديسمبر - كانون أول - عام ١٨٣٤ بالسماح لباخرتين بريطانيتين بالتجول في نهر الفرات لتسهيل التجارة^(٤) . وقد أخطر الباب العالي كلا من علي رضا باشا وإلى بغداد ، ومتصرف البصرة بهذا فرمان^(٥) .

(١) دكتور زكي صالح ، مرجع سبق ذكره ، ص ٤٦-٤٧ .

(٢) انظر في هذه الدراسة الفصل التاسع ، الجزء الأول .

(٣) دكتور عبدالعزيز سليمان نوار ، تاريخ العراق الحديث إلخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٤٧ .

(٤) تجد نص فرمان مترجماً إلى الإنجليزية في :

Hurewitz J.C., op. cit.; Vol. I. p. 109.

(5) Loc. cit.

مشكلة أخرى تواجهها البعثة :

أطلت برأسها مشكلة أخرى واجهتها البعثة . فقد كان هناك رأى فى الدوائر الرسمية البريطانية يقول بوجود تحرك الباخرتين من البصرة فى اتجاه الشمال ، بينما كان هناك رأى معارض يقول العكس . وكان شيزنى من أنصار الرأى الأخير استناداً إلى عدم قدرة الباخرتين على الصمود فى وجه التيارات الشديدة فى الفرات والمتجهة جنوباً ، فضلاً عن أن صعود الباخرتين فى الفرات من البصرة يوحى للأهلين بأن هناك خطة مبيتة لغزو العراق^(١) ، لأن تفوق الإنجليز فى منطقة الخليج العربى وسعتهم الاستعمارية السهلة تؤكدان فكرة الغزو فى أذهان الأمالى . واستقر الرأى على أن تبدأ الباخرتان عملهما فى الفرات نازلتين ، بدلاً من صاعدتين فيه ، وعلى أن تشحن الباخرتان مفككتين فى سفينة شراعية من إنجلترا إلى بلاد الشام عن طريق جبل طارق وجزيرة مالطة .

وصول البعثة إلى ساحل الشام :

وأخيراً صدرت التعليمات النهائية بإبحار البعثة فى أبريل - نيسان - ١٨٣٥ ، وحدد رئيس الوزارة مهمة البعثة ، على النحو التالى ، فى رسالة بعث بها إلى شيزنى :

أولاً : أن تقوم البعثة بدراسة نهر الفرات لتحديد مدى صلاحيته للملاحة البخارية لإنشاء طريق سريع إلى الهند وتنمية التبادل التجارى .

ثانياً : مدى سرعة نقل البريد بواسطة البواخر بطريق الفرات بين الهند وبريطانيا .

ثالثاً : التعاون مع السلطات العثمانية فى سبيل إنجاح البعثة .

رابعاً : تجنب الاشتراك فيما بين العشائر من منازعات وعدم استخدام العنف ، إلا إذا تطلب الأمر المحافظة على أرواح أعضاء البعثة^(٢) .

ولما وصلت البعثة إلى مالطة تعاقدت مع اثنى عشر مالطياً للانضمام إليها بغية تسهيل عملية اتصالها بالعرب . وواصلت السفينة رحلتها حتى بلغت فى ٣ من أبريل - نيسان - ١٨٣٥ السويدية . وقد فضلها البعثة على الإسكندرية ، لأن مواصلتها أسهل مع أنطاكية ، وسارع شيزنى إلى إنزال الباخرتين للصعود فى نهر العاصى .

(١) Hoskins H.L.; op. cit., pp. 163-164.

(٢) دكتور عبدالعزيز سليمان نوار : تاريخ العراق الحديث - إلخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٤٩ .

اعتراض مصر:

اعترضت السلطات المصرية في الشام على تفريغ أجزاء الباخرتين من السفينة التي جاءت بهما من ميناء ليفريول ، لأن محمد علي لم يبلغ بفرمان السلطان ، وتمسك بضرورة صدور فرمان من الباب العالي يوجه إليه ويطلب منه فيه مساعدة البعثة . وكان موقف محمد علي سليماً ، لأنه وال من قبل السلطان . وسواء كان محمد علي يحكم مصر فقط أو مصر والشام ، فإن هذين الإقليمين خاضعان للسيادة العثمانية . ولا يغير حكمه لهذين الإقليمين من صفته ومن مركزه القانوني كوال . وكان محمد علي يهدف من اعتراضه إلى تحميل الباب العالي مسئولية ما يترتب على وصول البعثة إلى نهر الفرات ؛ خشية أن يؤدي وجود البعثة بأسلحتها وذخائرها ورجالها إلى احتلال العراق ، وبذلك تصبح البلاد الواقعة تحت حكمه يهددها الإنجليز من العراق شرقاً ومن البحر المتوسط غرباً . وعبر عن رأيه بقوله في رسالة بعث بها إلى ابنه إبراهيم باشا ومؤرخة في ١٤ من مارس - آذار - ١٨٣٥ ، إن بعثة العراق أعظم مصيبة على الأمة الإسلامية . وإذا قبلناها حلت علينا الملامة واللجنة إلى يوم الدين . ولذلك لا يمكن أن نوافق عليها حتى لو بلغت الروح الحلقوم^(١) . وبذلت السفارة الروسية في إسطنبول مساعيها لدى الباب العالي لتجديد فرمان السلطان الصادر عام ١٨٣٤ . وفسرت بريطانيا موقف محمد علي بأنه نوع من الانتقام منها لموقفها غير الودي منه في أزمة حرب الشام الأولى ، كما فسرت موقف روسيا بأنها ترى في وجود بعثة الفرات قيداً لأطماعها من الانطلاق في منطقة الخليج وجنوب غربي آسيا . أما الباب العالي فقد رفض إصدار فرمان الذي طلبه محمد علي ؛ تأسياً على أن للفرمان الممنوح للبعثة البريطانية موجه إلى جميع باشوات الدولة دون استثناء .

ولكن بدأ محمد علي بتراجع أمام الضغط الذي مارسه عليه رونالد كامبل Ronald Campbell ، قنصل بريطانيا العام في مصر ، ورأى أن يتجنب الصدام مع الإنجليز ، فسمح بمرور البعثة عبر الشام إلى شاطئ الفرات ، وأن يتخلى عن الأراضي الواقعة على الضفة الشرقية لهذا النهر تجنباً لأي احتمال للصدام مع الإنجليز . ولم يشاطر إبراهيم باشا والده في خطته ، ورأى أنها تنطوي على تهرب من المسئولية . وتمسك بأن تبقى في قبضة القوات المصرية « روم قلعة » و « بيرة چك » الواقعتان على الضفة الشرقية للفرات ، لأنهما مركزان استراتيجيان يضمنان سلامة القوات المصرية في تلك المناطق ، وسيطران على الطريق المؤدي إلى بغداد . وقال في رسالة أرسلها إلى والده ومؤرخة في ٢١ من أبريل - نيسان - ١٨٣٥ مصوراً تقديره للموقف « إن الإنجليز قد جاءوا ومعهم عساكرهم ومدافعهم ومهماتهم

(١) المرجع السابق ، ص ٢٥٠-٢٥٧ .

وذخائرهم . فإذا بنوا سفنهم وهجموا على بغداد متخذين من العرب ذريعة لهم لهذا الهجوم ... وجلبوا على الأمة الإسلامية داهية دهياء ، يتهمنا الناس قائلين أنت الذى فعلت هذا ، وأنت الذى أذنت لهم بالمرور من أرضك ، وأنت الذى تسببت فى هذه المصيبة التى نزلت بنا ، دون أن يعلم أحد أن الدولة هى التى أذنت لهم فمروا^(١) .

وعاد محمد على تحت ضغط ابنه إلى إقناع الباب العالى بالأخطار التى تتعرض لها بلاد الشام والعراق من وجود البعثة فى العراق ، وطلب إلى السلطان سحب فرمان عام ١٨٣٤ لإنقاذ العراق مما يبيته له الإنجليز . وكان من نتائج مساعى محمد على - بالإضافة إلى الضغط الروسى فى إسطنبول - أن أصدر الباب العالى تعليمات إلى مصر بأن تجزأ الباخريين فى السويدية حتى يصل الرد من لندن ، وكان معنى هذه التعليمات هو تجميد البعثة . وسارع محمد على من جانبه إلى تنفيذ هذه التعليمات . ولكن شيزنى رئيس البعثة كان عنيداً ، تحدى السلطات المصرية فى الشام مستنداً إلى فرمان السلطان الصادر بشأن البعثة ومعتمداً على دولته بصفتها من أكبر دول العالم . وكان شيزنى صادقاً فى حده ، إذ مالبت أن اتخذت حكومة لندن إجراءات خطيرة . فقد أرسلت إلى كامبل - قنصلها العام فى مصر - أوامر بأن يطلب من محمد على فى الحال أن يصدر أوامر صريحة لإبراهيم باشا بتقديم مساعدات لأعضاء البعثة ، وإذا رفض محمد على إصدار مثل هذه الأوامر .. كان على كامبل أن يخطر الأميرال رولى Rowley دون إبطاء بهذا الرفض ؛ حتى يتمكن من تنفيذ الأوامر التى كانت قد صدرت إليه . وكانت تقضى بأن يغادر كامبل والقطعة البحرية بقيادة رولى الإسكندرية إلى عرض البحر معلناً محمد على بأن رولى سيتخذ الإجراءات الكفيلة بالمحافظة على مصالح بريطانيا وحقوقها . وكان الإجراء الأول هو فرض الحصار البحرى على الإسكندرية بمنع خروج أى وحدة بحرية مصرية من الإسكندرية أو دخولها إليها ، سواء كانت هذه الوحدة حربية أو مدنية . وإذا أصرت أى سفينة على خرق الحصار فإنها تؤسر وترسل إلى مالطة . واختارت بريطانيا وقتاً ملائماً لتنفيذ تهديدها ؛ إذ إن محمد على كان قد أرسل أسطولاً إلى جزيرة كريت . وبذلك هدده الإنجليز بمنع أى اتصال بين الأسطول المصرى فى كريت وقاعدته فى الإسكندرية^(٢) .

وأمام هذا التهديد البريطانى الخطير تراجع محمد على للمرة الثانية خشية إضاعة مكاسبه وجهوده خلال السنوات السابقة . فلم يأمر فقط بترك البعثة تمر عبر الشام إلى بيره چك ، بل أمر بالإسراع بنقل أجزاء الباخريين وعدم الاحتكاك بالبعثة ، وطلب من إبراهيم باشا أن يفض الطرف عن نقل المهمات الحربية كالمدافع والبنادق والذخائر وأدوات البعثة . ومما

(١) المرجع السابق ، ص ٢٥٢-٢٥٣ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٥٤-٢٥٥ .

ساعد على سرعة نقلها إسهام الباب العالي في تسهيل عمليات النقل التي كانت شاقة جداً^(١) . فقد أمر رشيد باشا بإرسال دواب النقل من ديار بكر إلى البعثة التي وصلت إلى بيره چك . وكان الباب العالي ينشد تأييد بريطانيا للدولة في جولة تالية ، تخوضها ضد محمد علي انتقاماً لهزيمتها في حرب الشام الأولى .

بدء حرك البخارتين :

اختير مرفأ ولیم پورت William Port على الفرات الأعلى^(٢) لاستقبال قطع البخارتين مفككتين لتركيبيهما هناك . وبدأتا رحلتهما من هذا المرفأ إلى البصرة في منتصف مارس ١٨٣٦ ، وأطلقت على إحدى البخارتين اسم «الفرات» وكانت أكبر حجماً من الأخرى التي أطلق عليها اسم «دجلة» كما كانت آلات الأولى أقوى من الصغرى^(٣) ، ويحارثها أكثر عدداً منها . وقد روعي في تصميمها ظروف الملاحة في نهر الفرات . وكانت الباخرة الكبرى تسير في المقدمة ومن ورائها الباخرة «دجلة» . وانقسم أعضاء البعثة إلى مجموعات عمل ، منهم من رسم خرائط تفصيلية لمجرى نهر الفرات ، ومنهم من رصد تياره وعمقه ، ومنهم من سجل الملاحظات التي بدت لهم عن صفى النهر ونوعية السكان ومستوى حضارتهم ، وأسمااء القرى وما إلى ذلك من ملاحظات اقتصادية واجتماعية وجغرافية وسكانية .

مصاعب البعثة في رحلتها إلى البصرة :

غرق الباخرة «دجلة» :

سارت أمور البعثة أول الأمر سيراً مرضياً منذ أن بدأت رحلتها النهرية وأتمت بنجاح مسح أكثر من خمسمائة ميل من نهر الفرات . وبعد أن غادرت دير الزور ، وفي مكان لا يبعد كثيراً عن عانه ، تعرضت باخرتا البعثة في مساء ٢١ من مايو - آيار - عام ١٨٣٦ لعاصفة شديدة شمالية غربية ، أثارتها رياح محملة بالرمال أغرقت في الحال الباخرة الصغرى «دجلة» وسط الظلام بما كانت تحمله من خرائط ومعدات وآلات علمية دقيقة وثمينة ، وغرقت معها أيضاً جميع الأموال التي كانت تخص البعثة . وبلغت الخسائر في الأرواح عشرين نفساً كان من بينهم ضابطان وثلاثة عشر أوربياً وخمسة من أهل العراق . وكان شيزني رئيس البعثة على ظهر هذه الباخرة ، ولم يستطع أن ينجو منها وسائر الضباط إلا حين ألغوا بأنفسهم في مياه النهر . وعاد إلى لندن طاقمها من الضباط والمهندسين ممن كذبت لهم النجاة ، ولم يمكن تحديد

(١) كان نقل الأجزاء الكبيرة من هاتين البخارتين عملاً يتطلب جهداً كبيراً . فقد نقلت «غلاية» الباخرة الصغيرة «دجلة» يجرها ١٠٤ من الثيران يقودها ٢٠ رجلاً من السائقين من أهل البلاد .

(٢) تقع على بعد ميلين ونصف ميل من بيره چك .

(٣) كانت قوة الباخرة الفرات خمسين حصاناً ، بينما كانت قوة الباخرة دجلة عشرين حصاناً .

المكان الذي غرقت فيه الباخرة مباشرة . وراحت الجهود تبذل مرة بعد الأخرى لانتشال الباخرة الغارقة ، وبقيت في مكانها عشر سنوات . أما الباخرة الكبرى «الفرات» فقد تعرضت لبعض الأضرار من جراء العاصفة ، ولكنها كانت أضراراً طفيفة واستطاعت أن تصنى في رحلتها وفي مهمتها .

وعلى الرغم من فداحة الخسائر المادية ، كان لغرقها أصداء بعيدة في لندن ، إذ اعتقدت الدوائر الرسمية أن العواصف تشكل عقبة كبيرة في طريق الملاحة البخارية في نهر الفرات . واهتم شيزنى رئيس الحملة بتبديد هذا الاعتقاد ، مؤكداً أن غرق الباخرة «دجلة» كان حادثة عارضة لا تدل إطلاقاً على عدم صلاحية نهر الفرات للملاحة البخارية (١) .

ولما أوغلت الباخرة الكبيرة في حوض نهر الفرات بدأ شيزنى اتصالات مبكرة مع العشائر الكبرى مثل شمر الجريا ، وعذرة . وكانت كل منهما ذات بأس شديد ، وعجز ، إلى بغداد عن فرض السيطرة عليهما في معظم الأوقات .

ونجح رئيس البعثة في أن يعقد مع شيخ عشائر عذرة معاهدة باسم ملك بريطانيا في أبريل - نيسان - عام ١٨٣٦ ، ويحث بها إلى لورد بالمرستون فقبلها بقبول حسن واعتبرها مستنداً لبريطانيا في قابل الأيام ، تستطيع بها التدخل في أمور الصحراء وتجعل من هذه العشيرة القبلية الضخمة حليفاً لها ضد أي هجوم على العراق .

غير أن المقاومة الخطيرة التي تعرضت لها البعثة كانت من جانب العشائر الصغيرة ، وكان مرد هذه المقاومة إلى أسباب دينية وسياسية ؛ فواجهت مقاومة شعبية في بعض المناطق . كانت بعض هذه القبائل تجمع أفرادها على ضفتي نهر الفرات بعد أن تضع في مجراه جذوع الأشجار والنخيل لمنع تقدم الباخرة . وتدور معارك غير متكافئة ، لأن أفراد القبائل كانوا مسلحين بأسلحة بدائية مثل البنادق الضعيفة والسيوف ، بينما كانت الباخرة مزودة بمدفعية تقذف فئابلها على جموع العراقيين فتحدث فيهم خسائر فادحة في الأرواح . وفي جنوبي العراق أمر شيخ قبائل المنتفق رجاله بعدم تموين البعثة بالفحم ومواد التموين . وكان الحماس الديني الإسلامي قد اجتاح العراق بسبب هذه الباخرة البريطانية المسلحة التي تهبط العراق وتكوغل في جوفه . ومما زاد في تصاعد الشعور الديني الإسلامي المعادي للبعثة أن صمويل Samuel المنصر الإنجليزى الهروستانتى - وسنلتقى به في موطن قادم في هذا الفصل - جاء ليسلم البريد إلى الباخرة ، وكان هذا المنصر في تصرفاته مندفعاً اندفاعاً بلغ حد الثور والحماسة . ولم يدرك الصعاب السياسية والدينية التي تواجهها البعثة من يمين ويسار ، فدعا في هذا

(1) Hoskins H.L.; op. cit., p. 169.

الوقت العصيب الأهلين إلى الارتداد عن الدين الإسلامي واعتناق المسيحية^(١) . وجساء هذا الحادث ليضيف أثقالاً إلى أثقال البعثة . وقرر في أذهان الجماهير أن البعثة ذات أهداف عسكرية وسياسية ودبلوماسية واقتصادية^(٢) .

البعثة البريطانية تتجاوز اختصاصاتها :

والحق أن البعثة لم تثر سخط الجماهير فقط ، فقد يقال إن الجماهير كان يغمرها تعصب ديني دافق ، وإنها كانت ذات أفق عقلي محدود ، ولكن البعثة أثارت بتصرفاتها مخاوف السلطات العثمانية في العراق وإستانبول وأزعجت عدداً من العواصم الأوروبية وبخاصة باريس ؛ لأنها تجاوزت الحدود التي رسمها لها فرمان عام ١٨٣٤ فقد سمح السلطان في هذا فرمان لباخرتين بأنبحرا في نهر الفرات ، ولم يرد قط ذكر لنهر دجلة أو غيره من الأنهار . ولكن الباخرة أبحرت أيضاً في أنهار دجلة ، والبهامشير ، وكارون . إذ لما وصلت الباخرة الفرات ، إلى أنبصرة صدرت الأوامر فجأة إلى شيرزي رئيس البعثة أن يصعد بالباخرة في نهر دجلة فصعدت الباخرة في هذا النهر حتى بغداد وتجاوزتها ، ثم هبطت النهر بحجة استلام البريد الهندي ، ووصلت البصرة مرة ثانية وتسلمت البريد ، ثم شرعت في صعود نهر الفرات . ورأى شيرزي أن يبعث البريد بالطريق البري إلى ساحل الشام لإرساله إلى إنجلترا . وقد وصل البريد متأخراً ثلاثة أشهر عن مواعده ؛ الأمر الذي أساء إلى سمعة البعثة^(٣) .

دراسة تحليلية لفرمان عام ١٨٣٤ :

نعود لفرمان سنة ١٨٣٤ فنقول إن مقدمته ذكرت أنه موجه إلى جميع الباشوات والولاة سواء من يحمل منهم ثلاثة أطواخ أو طوخين^(٤) فقط ، وكذلك إلى القضاة وقباطنة الموانئ ومائير حكام الأماكن الواقعة على ضفتي نهر الفرات . ثم قرر الفرمان أن لورد هونسونبي السفير البريطاني في إستانبول وهو إحدى الشخصيات الذائعة الصيت للغاية بين الأمم المسيحية ، قد قدم مذكرة رسمية إلى الباب العالي قرر فيها أن الحكومة البريطانية تطلب الإذن لباخرتين في أنبحرا على التوالي في نهر الفرات ، الذي يصب على مسافة قريبة من مدينة بغداد لغرض تسهيل التجارة . ومضى الفرمان يقول إن الباب العالي يبعث بمذكرة إلى علي رضا باشا وإلى بغداد والبصرة ليدلي برأيه في شأن المشروع المقترح للملاحة . وعلى الرغم من أن رد الوالي المذكور لم يصل بعد ، قام السفير البريطاني باتصالات لدى الباب العالي ، وأبلغه أن الحكومة

(١) Loc. cit. p. 161.

(٢) Loc cit., p. 193.

(٣) دكتور عبدالعزيز سليمان نوار : تاريخ العراق الحديث إلخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٦١-٢٦٢ .

(٤) انظر في هذه الدراسة مدلول كلمة أطواخ ، الفصل الثاني عشر ، الجزء الأول .

البريطانية تنتظر رداً منا . ولهذا السبب فإننا نسمح لباخرتين بالملاحة على التوالى فى نهر الفرات ، على أن تستمر الملاحة طالما كانت هذه الملاحة طبقاً لما تقدم لنا ، وثبتت أنها مفيدة للدولتين . ولهذا الغرض أرسل فرمان رسمى للسفير البريطانى .

ويضيف هيروترز إلى نص فرمان ملحوظة بأن الباب العالى أرسل صورة ، طبق الأصل ، من هذا فرمان إلى على رضا باشا وإلى بغداد والبصرة (١) .

والنص الوارد فى فرمان واضح لا ليس ولا غموض فيه . ونحن نورد هنا الصياغة اللغوية الإنجليزية لهذا فرمان بعد استبعاد المقدمة التى تقول إن هذا فرمان موجه إلى جميع الباشوات والحكام ، الذين تقع أقاليمهم على شفتى نهر الفرات .

The Ambassador Extraordinary and Plenipotentiary of Great Britain at Constantinople, Lord Ponsonby, one of the most illustrious personages among the Christian nations, has presented to our Sublime Porte an official note, by which he intimates that the British Government requires permission to cause to navigate by turns, two steam boats on the river Euphrates which flows at a small distance from the city of Bagdad, for the purpose of facilitating commerce.

We, in consequence, issued to our very illustrious governor of Bagdad and Bussora, Ali Reza Pasha, an order to furnish our Sublime Porte with information of the proposed navigation.

Although the answer of the Pasha had not arrived, the Ambassador made representations on this Point, informing our Sublime Porte the British Government awaited our reply.

For this reason, we have and do permit two steam boats to navigate the Euphrates by turns, and this navigation is to continue as long as, conformably to what has been represented to us, it may prove useful to the two Powers, and no inconvenience result therefrom, and it is to this purpose that an official rule has been transmitted to the British Ambassador. (٢)

(1) Hurewitz, C., op. cit., Vol. I, pp. 109-110.

(2) Pichon Jean; Les Origines Orientales de la Guerre Mondiale. Paris. 1937, pp. 60-61.

استغلت بريطانيا سياسة الأمر الواقع *le fait accompli* في ممارسة نشاطها الملاحى البخارى في أنهار العراق ، إذ استغلت عدم اعتراض الباب العالي على تجاوز بريطانيا لنصوص فرمان سنة ١٨٣٤ ، كما استغلت سكوت على رضا باشا والى بغداد ، ومن جاء بعده من الولاة عن هذا الإخلال الخطير بالفرمان المذكور . وكان على رضا باشا وخلفاؤه من المؤيدين لمشروع الملاحة البخارية في أنهار العراق ؛ نظراً لما تدره هذه الملاحة من أرباح وفيرة لخزانة الحكومة ، وماتزوى إليه من نشاط مزاييد في الحياة الاقتصادية والاجتماعية في أرجاء العراق . ولكن كان الباب العالي والولاة العثمانيون في بغداد يجهلون عواقب الاستجابة للمطالب البريطانية نارة ، أو السياسة السلبية الصامدة تجاه النشاط البريطانى المتزايد في مجالات الملاحة البخارية في أنهار العراق نارة أخرى . ونظرت بريطانيا إلى ملاحه البواخر البريطانى في أنهار العراق ، دون إذن من السلطات العثمانية المختصة إلى أنها «سابقة» وإلى أنها «حق مكتسب» *droit acquis* لها . وزاد من اعتدادها بقوة مركزها أنها كانت من بين الدول الأوروبية قاطبة صاحبة النفوذ الأول في العراق ، وانفردت بالنفوذ في منطقة الخليج العربى وستتجح في أواخر القرن التاسع عشر في عقد سلسلة اتفاقيات مع مشايخ الخليج ، تكفل لها هذا الانفراد بالنفوذ وتكسيها الصفة القانونية لهذا النفوذ الذى كان عبارة عن حماية مقنعة . ولكن الدبلوماسية البريطانية أثرت تجنب تسمية هذه الاتفاقيات صراحة باسم حماية ، بل وصفتها بالمعاهدات المانعة *Exclusive Treaties* ؛ أى التى تجعل العلاقات مقصورة على بريطانيا وتمنع الأمير من أن يسلم أو يبيع أو يرهن أو يعطى للتصرف قسماً من أراضيه إلا بإذن منها .

وسنعرض لهذا الموضوع في موطن قادم في هذه الدراسة .

اعتراض فرنساً :

وتنبهت فرنسا لخطر هذا الوضع القائم في العراق وأنه لا يستند إلى أى أساس قانونى ، فضغطت على حكومة لندن مطالبة بحرية الملاحة والمرور لجميع الدول في طريق سوريا - الفرات - البصرة - الخليج ، وطريق إسكندرية - القاهرة - السويس - البحر الأحمر ^(١) . وقد

(١) كان بالمستون يقصد معاهدة لندن التى وقعت في هذا اليوم . وهى معاهدة جماعية أطرافها خمس دول هى بريطانيا والنمسا والروسيا وبروسيا من جهة ، والدولة العثمانية من جهة ثانية ، وتمهدت الدول بمساعدة السلطان في إخضاع محمد على باشا ، على أن يحكم مصر وراثية ، وولاية عكا طول حياته إلى آخر الشروط التى تضمنتها المعاهدة . وكان بالمستون وراء عقد هذه المعاهدة لعزل فرنسا عن المجموعة الدولية الأوروبية . وكان ينظر شتراً إلى اتصال محمد على الوثيق بفرنسا ، ويعتقد أن كل امتداد لنفوذ محمد على يبدى إلى زيادة نفوذ فرنسا ودعم مصالحها في الشرق . ولذلك كان شديد الكراهية لمحمد على ، ويعتبره من عوامل هدم الدولة العثمانية . وأعلن أن سلامة هذه الدولة تتطلب أن ينكش محمد على في ولايته في مصر . وقد قربت هذه المعاهدة بين بريطانيا والروسيا وباعدت بين فرنسا وبريطانيا . =

رد لورد بالمروستون وزير خارجية بريطانيا وقتذاك على جيزو Guizot السفير الفرنسي في لندن بمذكرة مؤرخة في ٢١ من فبراير - شباط - ١٨٤١ ، جاء فيها «إن أمر مراحه إلى السياسة البريطانية منذ ١٥ من يوليو - تموز - ١٨٤٠^(١) من انتقادات أنها أرادت اغتنام المسألة المصرية لحصر طرق النقل في يدها . وبلغ من دهائه الدبلوماسي أنه لم يفلح في باب السعي أمام الدول الأوروبية للحصول على حقوق الملاحة على طول طرق الملاحة العالمية ، ولكنه أكد في الوقت ذاته أن بريطانيا ستعمل دائماً على ضمان مصالحها في كل اتفاقية تتعلق بالممرات الفرنسية أمام صلاية مرفق بريطانيا واستقرار نظام الحكم فيها وقوة أسطولها وخرجت بريطانيا منتصرة على طول الخط من الأزمة العثمانية المصرية (١٨٣٩-١٨٤١) ، وحققت أهدافها في هذه الأزمة : أغلقت في وجه السفن الروسية المضائق : البوسفور ، وبحر مرمرة ، والدردنيل . وقضت على سيطرة مصر على المرحلة البرية من طريق سوريا - الفرات - البصرة - الخليج العربي . وإن كانت قد بقيت لمصر الهيمنة على طريق السويس -القاهرة - الإسكندرية . وبهذا هنا أن نذكر أن مشروعات الملاحة البخارية في أنهار العراق أصبح معظمها في يد بريطانيا . ولعل هذه النتيجة كانت من أهم النتائج التي حققتها بعثة شيزني الرسمية التي استغرقت زهاء ثلاث سنوات (١٨٣٥-١٨٣٧) . وكان في مقدمة إنجازاتها العلمية وضع عدة خرائط تفصيلية لنهر الفرات والاتصال بالقبائل والعشائر ، وتعرف أحوالها والوقوف على كثير من المعلومات عن العراق في ماضيه وحاضره ، ومدى صلاحية نهر الفرات للملاحة البخارية واتخاذ العراق معبراً للاتصال بين إنجلترا والهند . وقد وضع شيزني عن كل هذه الموضوعات مجلدين ضخمين تضمنتا كثيراً من الدراسات الهامة^(٢) . كما كتب طبيب البعثة أنزورث Ainsworth مجلدين عليها ، تضمناً قدراً كبيراً من المعلومات القيمة في المجالات السياسية والاقتصادية وغيرها^(٣) .

وقرر شيزني أن يبذل أقصى جهوده لاستبقاء الباخرة «الفرات» في مياه العراق ولمد أجل البعثة ومهمتها . وسافر لهذا الغرض إلى بمباي ، ولكن باءت مبعثه في الهند بالفشل ،

= أما الباب العالي ، فقد تشجع وأعلن في ١٥ من سبتمبر - ايلول - ١٨٤٠ أمراً بعزل محمد علي حتى يضعف نفوذه لدى القبائل الثائرة في الشام .

(١) انظر نص المعاهدة وملحقها في :

Hurewitz. C., op. cit., vol. 1, pp. 116-119.

Pichon Jean; op. cit., pp 61-62.

(2) Chesney R.A., (Commander of the Expedition); The Expedition for the Survey of the Rivers Euphrates and Tigris Carried on by the order of the British Government, in the years 1835-1837. London, 1850.

(3) Ainsworth W.F.; A Personal Narrative of the Euphrates Expedition. London, 1888.

فصافر إلى لندن لإقناع الدوائر المسؤولة بوجهة نظره . غير أن رأى هذه الدوائر كان متأرجحاً ، إذ أنها تأخذ في اعتبارها رأى حكومة الهند ^(١) . وكانت هناك في ذلك الوقت مفاضلة بين طريق العراق وطريق مصر ولكل طريق أنصاره . تلقى أعضاء بعثة شيزني تعليمات من لندن بالإبحار بالبواخره الفرات، إلى بمباي . وبينما كانوا يستعدون لتنفيذ هذه التعليمات جاءتهم أوامر جديدة بالعدول عن السفر وإبقاء البواخره في العراق ، لأن مجلس المديرين في الهند اشترى الباخرة من الحكومة البريطانية وقرر إبقائها وأعضاء البعثة في العراق . ومما هو جدير بالملاحظة أن فريقاً من ضباط الأسطول البريطاني في الهند قاموا في تلك الفترة بدراسات ميدانية لأنهار العراق . وكان من بينهم فيليكس جونز Felix Jones الذي قام بأعمال مهمة تنارت بغداد وضواحيها والمكانين الأثريين بابل ونيوى . ولما عين هذا الضابط مقيماً بريطانياً في برشهر ^(٢) خلفه ١٨٥٥ القائد سلبى Selpy في ميدان الدراسات الميدانية وتركزت في نهر دجلة مابين بغداد وسامرا . وانتهت مهمته في سنة ١٨٦٢ . وكانت العقود الثلاثة من القرن التاسع عشر (١٨٣٠-١٨٦٠) من أخطر فترات تاريخ العراق في العصر الحديث ^(٣) قامت بريطانيا - في استقامة السلطات العثمانية - بعمليات المسح والتخطيط وأنفقت الأموال والجهود وتعملت المخاطر ونجحت في جمع معلومات هامة وخطيرة في شتى المجالات عن وادى الرافدين . فإذا انتهت هذه الدراسات العملية عملت بريطانيا على جنى ثمار هذه السياسة بنقل دراساتها من مجال البحوث إلى المجال التطبيقي بتكوين شركات تجارية أول الأمر تعتمد على الملاحة البخارية في نهر دجلة بين بغداد والبصرة في ممارسة عملياتها التجارية ، ثم بإنشاء شركات متخصصة في الملاحة البخارية في نهر الفرات ولتجعله حلقة من حلقات الاتصال بين أوروبا والهند ؛ مما وطد النفوذ البريطانى في ربوع العراق .

بواخر تحمل العلم البريطانى وتعمل في نهر دجلة

اقترح على التجار البريطانيين في بغداد في حوالى سنة ١٨٤٠ - وبعد أن كانت رحلة شيزني قد ملأت الأسماع - فكرة استخدام سفن بخارية في نهر دجلة ، بإعداد أسطول صغير من سفن الحكومة البريطانية . وتأسست في ذلك الوقت شركتان تجاريتان بريطانيتان في بغداد، وبدأتا بمزاولة التجارة في بغداد والبصرة ومباشرة عمليات النقل النهري بين هاتين المدينتين

(١) كانت شركة الهند الشرقية تتولى حكم الهند وفي أول نوفمبر - تشرين ثان - سنة ١٨٥٨ وافق البرلمان البريطانى على قانون الحكم الأفضل للهند . وكان يقضى بأن تنتقل إدارة الهند من شركة الهند الشرقية إلى الحكومة البريطانية رأساً ، وأصبح الحاكم العام في الهند يلقب نائب الملك Vice-Roy .

(٢) برشهر هي المدينة الرئيسية على الجانب الفارسي من الخليج العربي ، ويطلق عليها بالإنجليزية بوشير: Boehir .

(٣) دكتور زكى صالح ، مرجع سبق ذكره ، ص ٤٨-٤٩ .

بواسطة قوارب محلية كانت الشركات تمتلكان بعضاً منها . وعملت هذه القوارب تحت العلم البريطاني في نقل محاصيل ومنتجات العراق إلى البصرة لتصديرها إلى الخارج وكانت تعود إلى بغداد محملة بالبضائع البريطانية المستوردة ، كما كانت تستخدم أحياناً في جلب الملح والحطب والسلع الأخرى إلى بغداد من شواطئ أنهار المناطق المجاورة . ولكن ظل الطابع البارز لهاتين الشركتين هو الطابع التجارى . أما عمليات النقل النهري فكانت متممة لنشاطها التجارى .

أراد الإنجليز التوسع في عمليات الملاحة البخارية في أنهار العراق باستخدام بواخر تبني أو تشتري تبعاً . كانت أولها الباخرة «كربلاء» ، بناها تاجر في بمبای طبقاً لتصميم معين بحيث يكون في مكانها الصفر من بمبای إلى الصرة رأساً ، ومنها تنساب في مياه نهر دجلة إلى بغداد دون تفريغ شيء من حمولتها . واعترض نجيب باشا وإلى بغداد على وجود هذه الباخرة واستخدامها في المياه النهرية العراقية . وطالب السلطات البريطانية بتحويل «كربلاء» إلى باخرة عثمانية ترفع العلم العثماني وتدفع الحكومة العثمانية ثمنها . وقد كان هذا الباشا يرى أن السلطات العثمانية يجب أن تتولى عمليات الملاحة البخارية في أنهار العراق^(١) . فلما رفضت السلطات البريطانية طلب نجيب باشا وقف منها نجيب باشا موقفاً حازماً وفورياً ، فتقدم إليها بعدة طلبات ، كان من بينها :

- (١) الحصول على فرمان من السلطان يقرر لها حق تشغيل الباخرة «كربلاء» في نهر دجلة .
- (٢) قيام البواخر والقوارب البريطانية بدفع «الطلبية» وهي ضريبة تجمعها السلطات العثمانية في العراق ، في مقابل تكاليف حماية البواخر والسفن الشراعية من عدوان العشائر العربية^(٢) .

(٣) ضرورة رفع العلم العثماني على البواخر البريطانية طالما كانت في مياه العراق . وقد أنكرت المؤسسات البريطانية في العراق على الحكومة حقها في تحصيل «الطلبية» لأنها

(١) كان نجيب باشا قد أرسل مذكرة - عن طريق تيلور Taylor المقيم البريطاني في بغداد - إلى الحكومة البريطانية يطلب إليها أن تزوده ببخيرة مجهزة بالفنيين البريطانيين لتعمل تحت القيادة العثمانية لحين تزويدها بالبخيرة والخبراء العثمانيين . وقد رعب تيلور بمشروع نجيب باشا ووعده بتدليل العقبات التي قد تعترضه . وكان هذا التأييد سبباً في وقوع نفور شديد بين تيلور والتجار البريطانيين الذين اتهموه بأنه يفضل المصالح العثمانية على المصالح البريطانية . وبلغ اللد في الخصومة أن اتهمه التجار البريطانيون بأنه يرمي إلى تحقيق مغانم شخصية من وراء تأييده لمشروع نجيب باشا . وقد نقل تيلور في أعقاب هذا الاتهام الضمير إلى أرضروم .

(٢) فرضت ضريبة الطلبية في بغداد سنة ١٨٢١ وكانت تجبى من السفن بنسبة الحمولة وطول الرحلة وعن كل رحلة تقوم بها . ونظراً لحصيلة هذه الضريبة الوفيرة ، وضعت ضمن جنول ضرائب الدولة . ونظراً لأنها أنشئت في الأصل بطريقة غير قانونية ، فلم تكن تجبى من أصحاب القوارب البريطانية حتى سنة ١٨٤٥ .

أهملت في القيام بإجبارها نحو حماية البواخر في أنهار العراق من عدوان العرب ، مما اضطر أصحاب البواخر إلى دفع إتاوات لرؤساء القبائل العربية . وكانت هذه الإتاوات تصل إلى ١,٥٠٠ قرش عن كل رحلة من بغداد إلى البصرة . ولأن ضريبة «الطلبية» والإتاوات تتعارض مع معاهدة بلطة ليما (١) . ولكن أصغر نجيب باشا على موقفه بألا ترفع الباخرة «كربلاء» العلم البريطاني ، وأعلن عدم استطاعته منع العرب من مهاجمتها في حالة رفضها دفع الرسوم المعتادة لمشايخ المنطقة من العرب ، كما أعلن أنه سيحول الموضوع إلى إستانبول .

قرار الصدر الأعظم سنة ١٨٤٦ :

انتقل موضوع ملاحه البواخر البريطانية في نهر دجلة رسمياً إلى إستانبول سنة ١٨٤٥ ودارت محادثات بين الباب العالي والسفارة البريطانية في العاصمة .

وتناولت المحادثات المسائل الأربع التالية :

(١) من حيث المبدأ : هل يجب استخدام البواخر البريطانية في نهر دجلة بين البصرة وبغداد؟ وهل يجب استخدامها بصورة دائمة ؟

(٢) فيما إذا كان يجب ، فهل يحق لها رفع العلم البريطاني على البواخر أثناء قيامها برحلاتها؟

(٣) هل تدفع هذه البواخر الإتاوات التي يطالب بها الشيوخ العرب القاطنون على ضفاف النهر والتي ستمر للبواخر عليها ؟

(٤) هل تدفع هذه البواخر ضريبة «الطلبية» ؟

نجحت مساعي السفير البريطاني لدى الباب العالي ، فأصدر الصدر الأعظم في أبريل - نيسان - عام ١٨٤٦ خطاباً موجهاً إلى وإلى بغداد . وعلى النحو التالي جاءت الفقرة الأخيرة منه ، والتي تضمنت حلاً للمسألة .

«ومن ثم فإنني أكتب إلى سعادتك لتقوموا بالعناية بكل البواخر البخارية الإنجليزية التي

(١) هي معاهدة تجارية عقدت بين الدولة العثمانية وبريطانيا في ١٦ من أغسطس - آب - عام ١٨٢٨ حددت فيها الرسوم الجمركية على الصادرات والواردات بين الدولتين . وقررت منح التجار البريطانيين حق الشراء المباشر من المنتجين في بلاد الدولة العثمانية إلى غير ذلك من مسائل ذات صبغة اقتصادية . وكان من أهم أهداف هذه المعاهدة تنظيم نظام الاحتكار الذي فرضه محمد علي في مصر ، وحرمانه من المكاسب الهائلة التي كان يجنيها ، وتجريده من أعظم أسباب قوته .
انظر نصوص هذه المعاهدة في :

كما ذكر بوضوح - سوف نستخدم مستقبلاً نهري الفرات ودجلة لأغراض التجارة الداخلية ، وأن تطبق عليها الحقوق الممنوحة لمراكب الرعايا العثمانيين ، بحيث لا تفرض أية رسوم على البواخر الإنجليزية القادمة من الخارج أو المتجهة إلى البلاد الأجنبية ، خلاف رسوم الجمارك المقررة ، ورسوم الرسو بواقع خمسة قروش . وهذا كل ما هو مطلوب من سعادتكم . وكان معنى هذا القرار هو تقرير حرية البواخر البريطانية في القيام بنشاطها الذي يتمثل في عمليات النقل البخاري في نهري الفرات ودجلة . وأن تعامل معاملة مراكب الرعايا العثمانيين ، ولا تفرض أية رسوم على البواخر الإنجليزية القادمة من خارج العراق أو المتجهة إلى بلاد أجنبية ، خلال الرسوم الجمركية المقررة ، ورسوم الرسو بواقع خمسة قروش عن كل سفينة ^(١) .

لقد كان قرار سنة ١٨٤٦ ، وقد أطلق عليه اتفاقية ، كسباً كبيراً للسياسة البريطانية الهادفة إلى دعم الملاحة البريطانية في أنهار العراق ؛ مما كان يشكل تهديداً خطيراً لهذا الإقليم العربي من أقاليم الدولة العثمانية ويربطه إن عاجلاً وإن أجلاً بالهند ، وجعله حلقة هامة في المواصلات البريطانية بين إنجلترا الأم والمستعمرات والممتلكات البريطانية فيما وراء البحار إلى غير ذلك من الأسماء والتعابير التي استحدثت في عالم الاستعمار . والحق أن ذلك القرار كان خطوة على الطريق إلى قيام بريطانيا باحتلال العراق في مطلع القرن العشرين ، عقب اندلاع الحرب العالمية الأولى مباشرة .

إنشاء أول شركة للملاحة البخارية في العراق :

كان شينزي - حين غادر العراق - قد ترك رئاسة البعثة وقيادة الباخرة «الفرات» إلى أحد مساعديه وهو لينش Lynch H. Bless ؛ بناء على أوامر صدرت من السلطان البريطانية

(١) شرح السفير البريطاني إحساسه بفهم الصدر الأعظم في ضوء المباحثات التي تمت قبيل صدوره بالعبارة التالية .

(أ) البواخر التي يملكها بريطانيون سوف تستمر في الملاحة في مياه العراق تحت العلم البريطاني ، سواء كانت تعمل في تجارة أجنبية أو محلية .

(ب) تدفع البواخر البريطانية ضرائب على البضائع التي تنقلها وفقاً للرسم المحددة في معاهدة باطة ليمان .

(ج) في حالة استخدام البواخر أكثر من ميناء دخول عادي في العراق ، وهي تعارض عمليات النقل ، فإنها تدفع رسوم المرسى ، وهي رسوم مصدق عليها في معاهدات الامتيازات الأجنبية .

(د) ليست هناك تفرقة بين البواخر والسفن الشراعية من حيث المعاملة .

(هـ) السفن التي بنيت في العراق ويملكها رعايا بريطانيون ولا تحمل العلم البريطاني ؛ لأن أصحابها لم يسجلوها لدى المقيمة البريطانية في العراق ، فإنها لا تدفع رسوماً أعلى من الرسوم المقررة على أي سفينة عثمانية .

انظر :

لوريمر ج.ج. ، مرجع سبق ذكره ، القسم التاريخي ، ج ٤ ، ص ٢٠٤٥-٢٠٤٦ .

فى الهند فى أبريل - نيسان - ١٨٣٧ . وقد شرع هذا الضابط - بترجييه من سلطات الهند أيضاً - فى دراسة ميدانية لنهر دجلة فمخر عبابه صعوباً وهبوطاً ، ومسح الجزء الواقع بين بغداد وأعلى النهر ، ثم انتقل إلى شط العرب يقوم بدراسات على منوال دراساته فى دجلة . وكان من بين مهامه إجراء محادثات ودية مع رؤساء القبائل ، التى تقطن عادة فى حوض نهري دجلة والفرات والعمل على إقامة علاقات طيبة معهم بشكل يخدم مصالح بريطانيا ويزيد من التسهيلات فى سرعة نقل البريد من البصرة إلى أساكى بلاد الشام ، على أن يضع الضابط لينش فى ذهنه الاتفاقات أو الترتيبات التى سبق للتوصل إليها مع القبائل العربية أو السلطات العثمانية فى العراق ^(١) . وقد استغرقت دراساته واتصالاته الفترة من عام ١٨٣٧ حتى ١٨٣٩ ، وقام لينش بعد ذلك بإنشاء مؤسسة تجارية فى بغداد حوالى سنة ١٨٤٠ مع بعض أفراد عائلته وأصحاباً نجاحاً كبيراً ، ولعل لينش أراد أن يبقى فى العراق ينتظر الفرصة المواتية ليسهم فى إنشاء خط ملاحي بخارى ، وهو مشروع كان يسيطر على تفكيره نظراً للفوائد السياسية والعسكرية والتجارية ، التى أدرك أنها تعود على بلاده من هذا المشروع ^(٢) . وفعلاً نجح فى سنة ١٨٦٠ مع أفراد أسرته ومع عدد من الرأسماليين فى لندن فى إنشاء شركة عرفت باسم «شركة السادة لينش للملاحة البخارية فى نهري الفرات ودجلة» Messrs. Lynch of the Euphrates and Tigris Steam Navigation Company وكانت أول شركة للملاحة البخارية تأسست فى العراق ^(٣) تخصصت فى مجالات النقل المائى البخارى . وقد اعترض نامق باشا والى بغداد على تأسيس الشركة بدون فرمان مسبق من السلطان وعلى تسيير بواخرها فى أنهار العراق .

خطاب الصدر الأعظم إلى والى بغداد عام ١٨٦١ لمساندة شركة لينش :

وإزاء تصاعد الأزمة بين نامق باشا والى بغداد وشركة لينش للملاحة البخارية فى نهري الفرات ودجلة ، رأى السفير البريطانى فى إستانبول ضرورة التدخل لدى الباب العالى لمساندة شركة لينش الوليدة . وقد نجح ضغطه إلى حد بعيد ، إذ أرسل الصدر الأعظم خطاباً مؤرخاً فى ١٥ من يناير - كانون ثان - عام ١٨٦١ إلى والى بغداد ، يؤكد فيه اتفاقية عام ١٨٤٦ ، ويحول لشركة لينش الحق فى استخدام بواخرها فى الفرات ودجلة ^(٤) . ويقول لوريمر

(١) لوريمر ج.ج. ، مرجع سبق ذكره ، القسم التاريخي : ج ٤ ص ١٩٧-١٩٧٩ .

(٢) كان لينش قد عاصر أحداث الأزمة العثمانية المصرية (١٨٣٩-١٨٤١) وعلم أن الحكومة البريطانية قد أرسلت فى مستهل الأزمة ثلاث بواخر إلى شط العرب ، خشية أن يقوم محمد علي بالزحف على العراق من بلاد الشام التى كانت تحت سيطرته . ثم عادت الحكومة البريطانية . فسمحت هذه البواخر بعد انتهاء الأزمة وانتقاء الغرض الذى من أجله أرسلت .

(٣) كانت شركة لينش بالتعبير الاقتصادى «شركة مساهمة محدودة» .

(4) Hoskins H.L., op. cit., p. 425.

تعليقاً على قرار عام ١٨٤٦ وخطاب المصدر الأعظم في سنة ١٨٦١ «إن اتساع وشمول الدور الذي قام به البريطانيون لفتح العراق للملاحة البريطانية ، إلى جانب عمليات المسح والاستكشاف ، ماجل المسؤولين البريطانيين المحليين في ذلك الوقت ينظرون إلى العراق ، كما لو كان تقريباً إقليمياً تشمله الحماية البريطانية» (١) .

وتنفيذاً لخطاب المصدر الأعظم لسنة ١٨٦١ ، أنزلت شركة لينش أولى بواخرها واسمها «مدينة لندن» City of London في سنة ١٨٦٢ . وعندما أرادت الشركة إنزال باخرة أخرى اعترض نامق باشا مرة أخرى ، وبلى اعتراضه على أساس أن فرمان عام ١٨٣٤ نص على السماح لباخرتين فقط بالملاحة في نهر الفرات . وقد رد الإنجليز على هذا الاعتراض بأن فرمان عام ١٨٣٤ خاص بالبواخر الحكومية فقط ، بينما اتفاقية عام ١٨٤٦ وخطاب المصدر الأعظم في سنة ١٨٦١ يتعلقان بالبواخر غير الحكومية ، وأن الباخرة «مدينة لندن» هي باخرة غير حكومية تابعة لشركة لينش . وأخذ الباب العالي بوجهة نظر الإنجليز أو لعله اضطر إلى الرضوخ لرغبتهم ؛ تجنباً لمزيد من المتاعب تثيرها الحكومة البريطانية أمام الدولة العثمانية . وكانت أزمة قناة السويس قد تصاعدت في ذلك الوقت ، وتلاحقت المناقشات في مجلس العموم البريطاني تندد بسكوت السلطات العثمانية عن توسع شركة قناة السويس في الاعتماد على تسخير الفلاحين المصريين في حفر القناة» (٢) .

وإذا كان الباب العالي قد أخذ بوجهة نظر بريطانيا فأذن لبواخر شركة لينش في الملاحة .. إلا أنه اشترط أن يكون نشاط باوخر الشركة جنوبي بغداد دون الصعود إلى الموصل ، ووافقت شركة لينش على هذا الشرط ؛ إذ كانت تحقق أرباحاً وغيرة في مجال نشاطها بين بغداد والبصرة ، ولأن السفن الشراعية التابعة للبريطانيين أو العراقيين كانت تكفي لمواجهة مطالب نقل البضائع بين بغداد والموصل . وما كادت شركة لينش تنشئ خط الملاحة البخارية بين البصرة وبغداد وبغداد بصفة منتظمة ، حتى أنشئت خدمة بريدية بخارية ، كانت تمويلها حكومة الهند وتولواها شركة الهند البريطانية للملاحة البخارية ابتداء من سنة ١٨٦٢ ، وكانت بمباى والبصرة هما المحطتين النهائييتين لهذا الخط . وقد حدد عدد الرحلات في البداية بمائتي رحلات في كل سنة ، ولكن ابتداء من سنة ١٨٦٦ أصبحت هذه الرحلة تتم مرة كل أسبوعين . واستكمالاً لهذا الخط الملاحي البخاري ، أنشئ خط بريدي بخاري سنة ١٨٦٣ من البصرة إلى بغداد وبالعكس بإعانة من حكومة الهند وتولته شركة لينش للملاحة البخارية في نهري الفرات ودجلة ، وكانت الرحلات في هذا الخط الجديد تتم مركبة كل ستة أسابيع ، ثم أصبحت مرة كل

(١) لويس ج.ج. مرجع سبق ذكره القسم التاريخي ، ج ١ ، ص ٣٥٧ .

(٢) دكتور عبدالعزيز محمد الشناوي : السخرة في حفر قناة السويس . الناشر منشأة المعارف بالإسكندرية ، الطبعة الثالثة ، ١٩٦٦ ، ص ١٨٢-٢٢٥ .

أسبوعين . ولم يمض وقت طويل حتى أصبحت ثلاث مرات في كل شهر ، كما أنشئت مكاتب للبريد ابتداء بمسقط في الخليج سنة ١٨٦٤ وانتهاء بالبصرة وبغداد سنة ١٨٦٨ (١) ، وقد ظلت شركة لينش تهيمن على الملاحة البخارية مابين بغداد والخليج العربي إلى مابعد الحرب العالمية الأولى (٢) .

وإذا كانت المنازعات بين السلطات العثمانية والمؤسسات البريطانية قد أسفرت عن إنزال باخرة ثانية ، فقد أراد الإنجليز كعادتهم في أن يتوسعوا في الامتيازات التي حصلوا عليها . وثارت في الثمانينيات من القرن التاسع عشر أزمات أخرى ، وأرادت الحكومة العثمانية أن تقف في وجه المحاولات البريطانية . ولكن كانت استئامة السلطات العثمانية طوال الخمسين سنة السابقة لخطر احتكار بريطانيا للملاحة البخارية في أنهار العراق ، مما رسخ أقدام الإنجليز في العراق . ولم يكن الأسطول البريطاني يسمح للعثمانيين باتخاذ أي خطوة إيجابية ضد البواخر البريطانية ، وكانت أسانيد الإنجليز قوية تهاوت أمامها مقاومة العثمانيين للاحتكار البريطاني . وكان من بين أسانيد الإنجليز أنه منذ سنة ١٨٢٠ ، كانت ترابط أمام دار المقيمة البريطانية في بغداد سفينة بريطانية مسلحة تحمل العلم البريطاني (٣) ، ولم تعترض السلطات العثمانية على وجودها في مياه دجلة ، وأن فرمان سنة ١٨٣٤ سمح لباخرتين هما الفرات ودجلة بالملاحة في نهر الفرات ، ثم أبحرت الباخرة الفرات في سنة ١٨٣٦ ثم ثلاث بوآخر أخرى بين سنتي ١٨٤٠ ، ١٨٤٢ في دجلة وكارون ، دون اعتراض من السلطات العثمانية ، وأن الحكومة البريطانية استبقت الباخرة نيتوكريس في نهر دجلة . ولم تعترض السلطات العثمانية على وجودها . وأخذت الأزمة شكلاً حاداً ، وأرسلت بريطانيا باخرة مسلحة ألقت

(١) لوريمر ج.ج. ، مرجع سبق ذكره ، القسم التاريخي ، ج ١ ، ص ٢٧٦-٢٧٧ .

(٢) دكتور زكي صالح ، مرجع سبق ذكره ، ص ٤٨ .

(٣) كان اسمها «كومييت» ، وهي باخرة ذات محلات تجديف من الصلب ، تحت تصرف المقيم السياسي في بغداد ، ومسلحة بمدفعين عيار ٤٥ بوصة مثبتين في القواعد ، وبمحركاتها ١٨٢ طن ، وأقصى سرعتها تسع عقد في الساعة . وكان الطاقم العامل عليها يتكون من ضابط وأربعة وكلاء وثلاثة وثلاثين صف ضابط وجندي . وأنشئ لها مستودع الفحم تحت مبنى دار المقيم . ويلاحظ أن هذه السفينة قد دشت عام ١٨٨٤ لتحل محل الباخرة الأولى ، وكان اسمها كومييت أيضاً . وكان قد تقرّر عام ١٨٦٩ ، أن تحل باخرة جديدة محل الباخرة القديمة . وتم الحصول على إذن بذلك من الباب العالي عام ١٨٦٩ وإن كان التنفيذ قد تأخر عدة سنوات لأسباب مختلفة . وبقرار في سنة ١٨٨٠ على وجه التحديد بناء باخرة جديدة في بمباي . وقبل إتمامها أصبحت الكومييت غير صالحة للعمل في سنة ١٨٨٢ ، ورؤى استئجار باخرة اسمها «لندن» ليستأجرها المقيم البريطاني في بغداد ، ولكنها غرقت في شط العرب قبل أن تصل إلى بغداد ، وأخذت الجهود التي بذلت للحصول على باخرة مناسبة لتحل «مؤقتاً محل الكومييت . وعندما تم بناء الكومييت الجديدة وجد أنها من الكبر بحيث لا تستطيع الإبحار في نهر دجلة ، ولذلك طالت مدة التأخير سنتين عدداً .

لوريمر ج.ج. ، مرجع سبق ذكره ، القسم التاريخي ، ج ١ ، ص ٦٢٨ ، ج ٤ ، ص ٢٢٢٢ .

مراسيها تجاه البصرة . وكانت الدوائر البريطانية تعتقد أن المملك الاسفرازي الذي انتجهه والى بغداد ضد المصالح البريطانية كان بإيعاز وتشجيع قنصل روسيا فى بغداد (١) .

غرق «دجلة» أخرى :

ولم يأل الإنجليز جهداً فى سبيل تدليل الصعاب الطبيعية والأمنية والسياسية ، التى اعترضت نشاط بواخرهم فى أنهار العراق وتمسكوا بحقهم كاملاً وأكثر من حقهم فى ممارسة الملاحة البخارية فيها .. وفى سنة ١٨٧٦ غرقت السفينة «دجلة» المملوكة لشركة السادة لينش للملاحة البخارية فى نهري الفرات والدجلة ، عندما اصطدمت بحطام مركب أهلى كان قد غرق واستقر فى قاع نهر دجلة قبل سنتين ، وقد أخفقت جميع الجهود لتعويم الباخرة البريطانية ، على الرغم من حضور غواصين وإرسال أجهزة من إنجلترا لهذا الغرض . وسارعت الشركة البريطانية إلى التعاقد على بناء باخرة أخرى فى لندن مصنوعة من الحديد وبمخنتين ، وطولها ٢٢٥ قدماً وعرضها ٢٩ قدماً وحمولتها ٣٨٣ طناً . وبلغت تكاليفها ٢٢,٠٠٠ جنيه ، قبل أن يتم جميع أجزائها فى ورش شركة لينش فى ماجيل (٢) ، حيث أنفق على تجميعها وتجهيزها عدة آلاف أخرى من الجنيهات .

حادث الباخرة «خليفة» :

وتعرضت الباخرة «خليفة» التابعة للشركة ذاتها ، وهى متجهة إلى أعلى نهر دجلة ، لهجوم قطاع الطرق للعرب فى صباح اليوم الثامن من شهر يوليو - تموز - عام ١٨٨٠ ، وكانت تحمل ثمانين راكباً والبريد وحمولة عادية من البضائع . وقد ظهر العرب فجأة من بين الأعشاب الطويلة التى على ضفة النهر ، وفتحوا لمدة أربعين دقيقة نيراناً سريعة على الباخرة وحاولوا الصعود إلى ظهرها ، ولكنهم لم يتجسروا . وقتل على ظهرها أحد المسافرين وموجه الدفة الذى كان من أهالى البلاد ، وأصيب قائد الباخرة بعيار نارى فى إحدى رئتيه . وبعد اتصالات مع والى بغداد ، صدرت الأوامر بأن تزود الباخرة فى رحلتها التالية من بغداد إلى البصرة بحراسة عثمانية مكونة من ثلاثين جندياً ، كما أمر قارب حرسى عثمانى بالتوجه معها إلى البصرة . وأعلنت شركة لينش أنها ستطالب بتعويض عن هذا الهجوم . ومارس المقيم

(١) المرجع السابق ، القسم التاريخى ، ج ١ ، ص ٤٥٦-٤٥٧ .

(٢) تقع على الضفة اليمنى لنشط العرب على بعد أربعة أميال شمالى البصرة . وكانت تضم إلى جانب ورشة تجميع أجزاء السفن مستودعاً للقمح المجرى ومستودعات للأسطول البريطانى . وتنقلت ملكية هذا الموقع بين عدد من الوكلاء البريطانيين السياسيين فى البصرة وبغداد إلى أن انتهت ملكيته لشركة السادة لينش للملاحة البخارية فى الفرات ودجلة .

انظر :

لوريمر ج.ج. ، مرجع سبق ذكره ، القسم التاريخى ، ج ٤ ، ص ٢٠٦٤-٢٠٦٦ .

السياسي البريطاني في بغداد ضغطاً على والي بغداد . كما باشر مثل هذا الضغط السفير البريطاني في إسطنبول على الباب العالي ، الذي وعد بإرسال حملة تأديبية ضد القبيلة المتعدية ، وهي قبيلة آل بو محمد التابعة لنفوذ الشيخ سيحود (١) .

الاعتراض على حق البواخر البريطانية في قطر صنادل :

وفي سنتي ١٨٨٠ و ١٨٨١ أثير حق البواخر البريطانية في قطر الصنادل في نهر دجلة ، وكانت شركة لينش قد مارست في بداية سنة ١٨٨٠ عمليات قطر الصنادل بعد أن قدمت لإخطاراً لمدة ستة شهور عما تعترض القيام به . ولكن حدث بعد انقضاء ثلاثة أشهر على استعمال أحد الصنادل ، وبعد أن قام صندل آخر تقطره باخرة بعد رحلات أن اعترض والي بغداد على العملية ، وطالب بضرورة حصول الشركة على فرمان من السلطان يجيز لها الحق في قطر الصنادل ، واستند الوالي إلى أن التصريح أو الفرمان الصادر للشركة لم يرد فيه ذكر على الإطلاق لاستخدام الصنادل ، وردت الشركة بأن العمل سار في السنوات السابقة على أن تقطر البواخر البريطانية قوارب أهلية ، عندما تشتد حركة الشحن والنقل ولم تعترض السلطات العثمانية قط على هذا التصرف ، كما أنه لا يوجد خلاف في المبدأ بين جر القوارب الأهلية وقطر الصنادل ، وأن حق تسيير بواخر يقتضي حق استخدامها بأي طريقة يمكن استخدام البواخر فيها ، وذلك يشمل قطر الصنادل (٢) .

ولكن بقيت المسألة دون حسم ، وكانت تثار من وقت لآخر ، واستخدمت شركة لينش صنادل ، ولكن بإذن خاص فقط . وانتهرت هذه الشركة فرصة إنشاء شركة الملاحة العثمانية سنة ١٨٩٤ فطالبت برفع جميع القيود المفروضة على استعمال الشركة للصنادل . ولكن كان من رأى السفير البريطاني في إسطنبول أن الوقت غير مناسب للتقدم بهذا الطلب ، وعادت الشركة سنة ١٨٩٩ تقديم طلب جديد للحصول على تصريح واضح لاستخدام الصنادل في فصل انخفاض المياه في مجرى النهر أو على الأفضل السماح لها باستخدام باخرة . واستطاع السفير البريطاني في إسطنبول أن يستصدر في شهر يونيو - حزيران ١٨٩٩ فرماناً من السلطان موجهاً إلى والي بغداد ، يسمح فيه للبواخر البريطانية بقطر الصنادل . ولكن عاد السلطان في أغسطس - آب - من السنة ذاتها يسحب الفرمان ، وكان من نتائج هذا التخييط في سياسة السلطان عبد الحميد الثاني أن تكثرت البضائع في ميناء البصرة بكميات كبيرة ؛ نظراً لعدم مقدرة شركات الملاحة على نقل البضائع المرسله إليها لنقلها إلى بغداد حال تسلمها .

(١) المرجع السابق ، ص ٢٢٥٥-٢٢٥٧ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٢٥٧-٢٢٥٨ .

وقد وضع المستولون البريطانيون مذكرات إضافية عن الأمور القانونية والتاريخية لمحقوق الملاحة البريطانية في بلاد الرافدين ، تميزاً لموقف الجانب البريطاني .

ولذلك التتمت شركة لينش فى سبتمبر - أيلول - عام ١٩٠٥ عن طريق المقيم البريطانى فى بغداد - مساعدة الحكومة البريطانية فى الحصول على ترخيص لتسيير باخرة ثالثة على نهر دجلة ، إلا أن السفير البريطانى فى إستانبول اعتقد أنه ليس هناك أمل فى الحصول على هذا الترخيص من الباب العالى فى ذلك الوقت .

محاولة الحكومة العثمانية منع الملاحة البريطانية فى نهر دجلة عام ١٨٨٣ :

أرادت شركة لينش فى شهر مايو - آيار - عام ١٨٨٣ إضافة باخرة جديدة لأسطولها وأطلقت عليها ، «المجيدية» (١) ، ولكن والى بغداد اعترض تأسيساً على أن الشركة قد خول لها الحق فى امتلاك وتسيير باخريتين فقط ، وإذا قامت ضرورة لاستبدال باخرة بأخرى .. فإن هذا الاستبدال يجب أن يكون من الحجم والحمولة نفسها . كما استند والى إلى أنه ليس لشركة لينش حق الملاحة فى نهر دجلة على الإطلاق ، وأن حقها مقصور على نهر الفرات فقط . وفى ٢٨ من يونيو - حزيران - ١٨٨٣ منعت الباخرة «المجيدية» من حمل شحنتها من بغداد ، ودارت اتصالات مكلفة بين والى والمقيم البريطانى فى بغداد ، صرح فيها والى بعزمه على منع البواخر البريطانية من دخول نهر دجلة ، وأعلن أنه ينفذ التعليمات الواردة إليه من إستانبول .

وفى ٥ من يوليو - تموز - عام ١٨٨٣ أرسلت قوات الجندرية - الشرطة - إلى الباخرة «المجيدية» التى كانت تستعد لرحلتها إلى البصرة ، ومنعت هذه القوات المسافرين والشحنات من الوصول إلى الباخرة ، ونقلت البضائع إلى باخرة عثمانية . وعادت «المجيدية» من بغداد فى ٦ من يوليو - تموز - متوجهة إلى البصرة ، ولم تكن تحمل سوى البريد البريطانى . ونظراً لخلوها النام وخفتها فإن إحارها كان محفوفاً بالأخطار ، وتطور النزاع وأخذ مظهر التحدى السافر . فقد وصلت بغداد فى ١٤ من يوليو - تموز - الباخرة «خليفة» قادمة من البصرة ، ولم تك تلقى مراسيها حتى وضعت على ظهرها حراسة عسكرية عثمانية ، ولم تسمح لها بإنزال ركابها أو شحنتها إلى الأرض ، كما منع إنزال طرود البريد البريطانى .

وأرسل المقيم البريطانى ترجماناً إلى والى بغداد ليحتج لديه على هذا الأسلوب ، فكان مما قاله والى بغداد عن موضوع طرود البريد البريطانى أنه أمر بمنع نزولها إلى البراكى يضطر الإنجليز إلى إرسالها إلى البصرة ثم إحضارها إلى بغداد مرة أخرى على ظهر باخرة عثمانية . وأمام إصرار والى بغداد عادت الباخرة «خليفة» فى اليوم التالى إلى البصرة ، وبعد اتصالات بين لندن وإستانبول قام موزوروس باشا السفير العثمانى فى لندن بإبلاغ لورد جرانفيل وزير الخارجية البريطانية فى ٤ من أغسطس - آب - عام ١٨٨٣ أن الباب العالى قرر مؤقتاً إلغاء الإجراءات التى اتخذتها السلطات العثمانية فى بغداد فيما يتعلق بملاحة بواخر

(١) نسبة إلى السلطان عبدالمجيد الأول (١٨٣٩-١٨٦١) .

السادة لينش في نهر دجلة ، إلا أنه أوضح أن هذا القرار مفيد بثلاثة شروط ، هي :

(١) يجب ألا يفسر هذا القرار بأية حال من الأحوال بأنه ارتياب أو تقليل من قيمة الحقوق ، التي يطالب بها الباب العالي بخصوص الملاحة في نهر دجلة .

(٢) إن مسألة هذه الحقوق ومدى طبيعة الامتيازات التي منحت للشركة يجب التدقيق فيها ومناقشتها بين الحكومتين .

(٣) يجب ألا تكون هناك قضية للمطالبة بالتعويض بسبب ماحدث .

ونفذت الحكومة العثمانية ماوعدت به ، فأوقفت في ذات اليوم إجراءات التصدي لبواخر شركة لينش ، وأذنت لها باستئناف رحلاتها في نهر دجلة ، وأنهت في ٢٠ من أغسطس - آب - عام ١٨٨٣ هذه الإجراءات وغدت الملاحة فيه حرة طليقة (١) .

النشاط العثماني المضاد :

أفادت الحكومة العثمانية على خطورة الملاحة البخارية البريطانية في العراق ، واهتمت بوضع مشروعات عثمانية تنافس البواخر البريطانية وتحد من خطورتها ؛ فأوردت أحد رجال البحرية العثمانية - وهو نجيب بك - إلى البصرة سنة ١٨٤٧ لدراسة الإمكانات المتوفرة محلياً لإنشاء قوة بحرية عثمانية في جنوبي العراق وتأسيس ترسانة بحرية في البصرة لخدمة السفن ، التي أرمعت الحكومة العثمانية شراءها واستخدامها سواء للنقل النهري الداخلي في العراق أو للنقل الخارجي من العراق .. فقد تألفت في بغداد شركة ملاحية بخارية عثمانية تسهم الحكومة في رأس مالها بمقدار النصف ويكتسب للتجار والأعيان بالنصف الآخر . واستطاع رشيد الكوزلكي - والي بغداد - تغطية الاكتتاب المطلوب ، وعهد إلى شركة بلجيكية ببناء باخترتين أطلق عليهما بغداد والبصرة . ووصلت هاتان الباخرتان إلى العراق في عام ١٨٦١ وخصصتا للعمل في نقل المسافرين والبضائع في نهري دجلة والفرات ، ثم صدرت الأوامر بأن يكون نشاط الباخرتين مقصوراً على نقل الركاب والبريد والذهب والأموال السائلة ووقف عمليات شحن البضائع عليهما ، وكان هذا لمنع راجعاً إلى ضعف آلاتها . وعلى عهد نامق باشا والي بغداد ازداد الاهتمام بأمر البواخر النهرية ، فأمر في سنة ١٨٦٧ ببناء ثلاث بواخر جديدة ، هي: الموصل ، والرصافة ، والفرات (٢) .

وسار على هذا النهج مدحت باشا والي بغداد (١٨٦٩-١٨٧٢) ؛ فقد أبدى مزيداً من الاهتمام باستخدام البواخر التي استوردتها من قبل كل من سلفيه رشيد الكوزلكي ونامق . وعمل

(١) لويس ج. ج. مرجع سبق ذكره ، القسم التاريخي ، ج ٤ ، ص ٢٢٥٩-٢٢٦٤ .

(٢) دكتور عبدالعزيز نوار ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٧١-٢٧٢ .

على أن يجعل من نهر الفرات طريقاً للمواصلات العالمية ، يربط بين ساحل بلاد الشام وبغداد والبصرة ، ويمائل طريق قناة السويس . ولتنفيذ هذا المشروع ، أنشأ طريقاً برياً يربط ساحل بلاد الشام بنهر الفرات ، وأقام على طول الطريق نقاطاً للحراسة لمنع العشائر من تهديد القوافل على هذا الطريق ، وفي الوقت ذاته أمر بإجلاء دراسات ميدانية لنهر الفرات ابتغاء تحديد العقبات التي تحول دون استخدام البواخر فيه استخداماً آمناً ، واستورد كراكات لإزالة هذه العقبات (١) .

ومن إسهامات مدحت باشا أيضاً في مجال خطوط الملاحة البخارية في أنهار العراق أنه ربط نهري دجلة والفرات بقناة في أقصر مسافة بينهما وهي تقع بين بغداد والفالوجة ، وبذلك أصبح خط البواخر في دجلة متصلاً باستمرار بخط البواخر في نهر الفرات ، واستخدمت في النهر مجموعة من البواخر ، كان من بينها :

(١) الباخرة بابل .

(٢) الباخرة نينوى .

(٣) الباخرة نجد .

(٤) الباخرة آشور .

وكانت تعمل بين بغداد والبصرة وإستانبول ؛ لمواجهة نمو التجارة المتبادلة بين العراق وأوروبا والهند .

وبعد عزل مدحت باشا في ٢٣ من مايو - أيار - ١٨٧٢ ، عملت السلطات العثمانية على دعم الملاحة البخارية في أنهار العراق ، فبلغ عدد البواخر التي تعمل في نهر دجلة سنة ١٨٧٨ سبع باواخر ، وكانت تعمل تحت إدارة رئاسة الأسطول العثماني في البصرة (٢) .

مد خطوط للاتصالات البرقية عبر العراق لربط أوروبا بالهند :

لم يكن الاهتمام الدولي بين العثمانيين والإنجليز والفرنسيين بالعراق مقصوراً على إنشاء وتنظيم خطوط ملاحة بخارية فحسب ، بل امتد هذا الاهتمام إلى ميدان آخر هو إنشاء خطوط للمواصلات الحديدية والبرقية عبر العراق . وتضافرت عدة عوامل سياسية في وسط آسيا والشرق الأوسط على اهتمام الانجليز بإنشاء الخطوط الحديدية ، ولعل أهمها حرب القرم (١٨٥٣-١٨٥٦) وثورة جنود السيبوي Sepoy في الهند سنة ١٨٥٧ ضد الحكم البريطاني .. فقد حملت هذه الثورة الإنجليز على مزيد من التقدير لطريق العراق في المواصلات البريطانية كقاعدة لمواجهة للتمردات العسكرية في الهند . ورأى الإنجليز أيضاً أن مد خطوط حديدية في

(١) المرجع السابق ، ص ٢٩١ .

(٢) لوريير ج.ج ، مرجع سبق ذكره ، القسم التاريخي ، ج ٤ ، ص ٢٢٥٤ .

العراق يساعد على نقل مزيد من التجارة الشرقية ، عبر العراق في طريق سريع وسهل وأمن إلى أوروبا ، كما أن التنافس التجاري بين روسيا وبريطانيا دعا السلطات البريطانية إلى التفكير في وسيلة فعالة للتغلب على النجاح الذي كانت تلقاه السلع الروسية ^(١) . وفي سنة ١٨٥٦-١٨٥٧ وبموافقة الحكومة البريطانية وتأييد شركة الهند الشرقية ، تكونت شركة لإنشاء سكة حديد وادى الفرات لربط البحر المتوسط بالخليج عبر العراق ، وكان من بين القائمين على هذا المشروع شيزني قائد بعثة الفرات الرسمية (١٨٣٥-١٨٣٧) . وقد أخفق مشروع سكة حديد الفرات سنة ١٨٧٢ بعد ستة عشر عاماً من الجهود ، وتلاه مشروع بريطاني آخر لسكة حدى وادى دجلة ، وكان يقوم على ربط ديار بكر والموصل وبغداد والكويت بخط حديدي واحد . ولكن لحق المشروع الجديد بمصير سابقه ^(٢) .

واقترن التفكير في إنشاء الخط الحديدي بمشروع مد خطوط للاتصالات البرقية عبر العراق بين أوروبا والهند . وكان الاقتراح أن تتولى المشروع الأخير شركة المواصلات الهندية الأوروبية ، وكان لابد من الحصول على موافقة حكومتى إستانبول ولندن معاً على المشروعين وعلى موافقة السلطان على ضمان رأس مال الشركة التي تقوم بتنفيذ المشروع . وعرضت فرنسا مشروعاً يعارض المشروع البريطاني ؛ إذ تقدمت جماعة فرنسية بعرض لتنفيذ المشروع ، دون أن تنمك بالحصول على ضمان السلطان رأس مالها ^(٣) . ولكن الحكومة البريطانية كانت تعتقد أن مشروع الخط الحديدي سيكون قليل الفائدة بعد شق قناة السويس ، كما أن قيمته ستكون تافهة إذا تم مشروع خط الاتصالات البرقية على طول نهر الفرات .

وشعرت الحكومة العثمانية خلال الخمسينيات من القرن التاسع عشر بالفوائد التي تجنيها من إنشاء خط الاتصالات البرقية لربط العراق وغيره من أنحاء الدولة بإستانبول . وقررت أن تمد خطاً للبرق من إستانبول عبر آسيا الصغرى إلى بغداد والبصرة ، على أن تقوم الحكومة البريطانية بمد هذا الخط من الخليج العربى إلى الهند . وزاد اهتمام الإنجليز بهذا المشروع على أثر إخفاق المحاولات التي بذلت في سبيل مد وتشغيل الخط البرقى عن طريق البحر الأحمر إلى الهند ، وأسفرت المفاوضات بين الحكومتين العثمانية والبريطانية عام ٢٨٦٣ على مد خط برقى تقوم الحكومة العثمانية بتمويله مالياً والحكومة البريطانية فنياً . ونفذ المشروع . وأصبح العراق هو الرابطة ، بواسطة الخطوط البرقية ، بين الشرق والغرب ^(٤) .

(١) دكتور زكى صالح ، مرجع سبق ذكره ، ص ٤٩-٥٢ .

(٢) لوديمر ج.ج. ، مرجع سبق ذكره ، القسم التاريخى ، ج ١ ، ص ٢٥٦ ، ج ٤ ص ٢٢٧٢-٢٢٧٤ . وانظر أيضاً مذكرة ضافية عن مشروع سكة حديد وادى الفرات فى الجزء الرابع من المرجع السابق ، ص ٢١٤٠-٢١٤٩ .

(3) Hoskins H.L., op. cit., PP. 334-335.

(٤) لوديمر ج.ج. ، مرجع سبق ذكره ، القسم التاريخى ، ج ٤ ص ٢١٥٤-٢١٥٩ .

الفصل الثالث

صور من حملات التشهير بالدولة (٣)

مناقشة عزلة العراق (تمة)

السياحة الدينية في العراق :

العتبات المقدسة :

توجد في العراق العتبات المقدسة، وهي المزارات الرئيسية للشيعة يفدون إليها من أنحاء العالم الإسلامي يتبركون بها . وقبل أن نشير إلى أماكن هذه العتبات المقدسة، نذكر أولاً أن أضرحة الشيعة في العراق تنقسم بوجه عام إلى ثلاث مجموعات ، تتعلق المجموعة الأولى باغتيال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، والثانية بموقعة كربلاء التي استشهد فيها الإمام الحسين بن علي ، والثالثة تتعلق بالأئمة الذين خلفوا الحسين ، وعلى ذلك فالعتبات المقدسة تشمل :

أولاً : قبر علي ويوجد في النجف^(١) . ويعتبر ضريحه من أهم معالم مدينة النجف ويسمى الضريح المقدس ، أو وادي السلام ، أو وادي الإنقاذ ، وله طابقان . والمبنة محلاة بالذهب حتى الأرض ، وتوصف القبة بأنها هضبة من الذهب ترتفع وسط الصحراء . ويلاحظ أن مدينة النجف نشأت واتسعت حول هذا الضريح وسط صحراء موحشة . وتعرف مدينة النجف باسم النجف الأشرف أو مشهد علي .

ثانياً : قبر الإمام الحسين بن علي في كربلاء ، وهي موقع استشهاد الحسين ، ولذلك سميت باسم مشهد حسين ، وهي تقع على بعد خمسة وخمسين ميلاً من جنوب الجنوب الغربي من مدينة بغداد ، وتقع على الضفة اليسرى لقناة الحسينية التي تحيط بها من جانبها الشمالي والغربي ، وهي محاطة من الشمال والشرق والجنوب بمزارع النخيل والحداثق والفواكه ، وتوجد إلى الغرب منها بادية الشام التي تقترب جداً منها حتى تصل إلى أسوارها . وتعرف الكربلاء أيضاً باسم الغضارية، وقدماً باسم «نينوى» . والأضرحة الرئيسية في كربلاء ، هي : ضريح الحسين وضريح العباس أخ الحسين من

(١) تذكر مصادر إسلامية أن علياً دفن في الكوفة ولم يدفن في النجف ، بينما تقر مصادر أخرى العكس وتقول إنه لا يوجد في مسجد الكوفة الكبير سوى المكان الذي جرح فيه على جرحاً أودى بحياته ، على الرغم من أن جرحه لم يكن بالغاً ، ولكن السيف كان مسموماً .

أبيه . ويوجد ضريح الحسين ، ويسمى «بركة حضرة حسين» في اتجاه الطرف الغربي لكريلاء ، وهو مؤلف من مبنى كبير يقال له الصحن ، وله سبعة مداخل . وتحيط بالصحن خمس وثلاثون غرفة كبيرة ، ويقع الحرم في وسط الصحن ، وهو عبارة عن مبنى مسقوف عليه قبة مرتفعة مذهبة ، وعدد كل نهاية من نهايتها مدنة عالية جداً تواجه المدخل الرئيسي للصحن . وترتفع من زاوية الصحن مدنة أضخم من هاتين المدنتين ، ولكنها أقل رونقاً . ويوجد مقام الحسين وابنه علي أكبر في وسط البناء تحت القبة ، ويحيط بالصريحين غطاء من الحديد الصلب المشبك المطلي بالفضة ، ويدخله غطاء من الخشب ، وكلاهما سداسي الشكل . وتوجد في إحدى الزوايا قبور اثنين وسبعين شهيداً سقطوا في معركة كريلاء إلى جانب الحسين ^(١) . أما ضريح العباس فيقع إلى الشرق من ضريح الحسين علي مقربة من وسط المدينة ، وهو يشبه ضريح الحسين إلا أنه أصغر مساحة وقبة من الآخر المنقوش ، ولكن مآذنه مطلية بالذهب .

وتوجد في كل من هذه الأضرحة خزائن للثروات لاتعرف قيمتها . وفي عام ١٨٠١ قام الوهابيون بنهب خزائن ضريح الحسين ، ولكنها مع ذلك بقيت أغنى من غيرها . وقد بقيت هذه الثروات تحت إشراف دائرة الأوقاف العثمانية ، كما قام نادر شاه بطلاء قباب الأضرحة بالذهب . وتضاء المصابيح في مآذن الأضرحة كل ليلة ، ولكن أشد المناظر مهابة وجلالاً هو انعكاس ضوء الشمس عند المغيب على المآذن الذهبية التي تتوهج بنور يبهل الأبصار ^(٢) .

ثالثاً : الكاظمية وتقع على الضفة اليمنى لنهر دجلة على بعد ثلاثة أميال إلى الشمال الغربي لمدينة بغداد ، وكانت تتصل ببغداد عن طريق الترام الذي تجره الخيول ، وقد أنشأه مدحت باشا والي بغداد عام ١٨٧٠ ، وهي تعد ضاحية من الضواحي الهامة لبغداد . ويعتبر ضريح الإمام السابع والإمام التاسع من أئمة الشيعة من المعالم الرئيسية لمدينة الكاظمية ، وهما الإمام موسى ابن جعفر وحفيده الإمام محمد بن علي . ولكن المدينة حملت اسمها نسبة لاسم الإمام السابع موسى الكاظم . ويلاحظ أن الزوار الشيعة كانوا يتركون حيوانات ركوبهم في الكاظمية قبل ذهابهم إلى كريلاء ، ولاسمح للمسيحيين بدخول فناء المكان المقدس المحاط بأسوار مرتفعة . والمبنى في شكله عبارة عن مكعبين كل منهما محاط بقبة ، وحول كل مبنى أربع مآذن ترتفع من زوايا البناء . وقام نصر الدين ، شاه فارس ، سنة ١٨٨٤ بطلاء القبتين وزخرفة المدنتين بالذهب تشبهاً بما عمله نادر شاه في مدينة كريلاء ، وقد أوقفت أموال كبيرة لصالح هذا المبنى .

(١) لرويمر ج.ج. ، مرجع سبق ذكره ، القسم الجغرافي ، ج ٢ ، ص ١٠٢٩-١٢١٢ .

(٢) المرجع السابق ، القسم نفسه والجزء نفسه ، ص ١٢١٢ .

وتدير أملاكه دائرة الأوقاف العثمانية وهي تقوم بدفع المرتبات والنفقات والمساعدات .
ويبلغ عدد سكان الكاظمية الدائمين ٨,٠٠٠ نسمة منهم حوالي ٧,٠٠٠ من الشيعة
وحوالي ألف من الفرس ، ٢٠٠ من الهنود الشيعة و٥٠ من رعايا الروسيا من سلالة
فارسية ، وجدير بالذكر أن اللغة الفارسية واسعة الانتشار في العتبات المقدسة، حيث
يفهمها عامة الناس تقريباً .

إدارة أضرحة العتبات المقدسة :

كانت دائرة الأوقاف العثمانية تقوم بإدارة شؤون الأضرحة ، وتعين الحراس والخدم
وتدفع مرتباتهم . وكان يوجد في كل ضريح من الأضرحة الرئيسية -مثل : ضريح علي في
النجف ، والحسين وعباس في كربلاء ، وضريح الكاظمين في الكاظمية ، وأضرحة الأئمة
الشيعة المدفونين في سامراء -حارس يسمى «كدار» أي حامل المفاتيح ، ورئيس للخدم يطلق
عليه «سرخدمة» وعدد آخر من الخدم . ويقال إن الحرس والخدم في سامراء كانوا من أهل
السنة ، ويعتبر «كدار» النجف من أغنى رجال العراق . ويبلغ عدد الخدم الذين تدفع لهم
مرتبات في كل ضريح من أضرحة النجف وكربلاء والكاظمية خمسة عشر ، كما يوجد أيضاً
٩٥ خادماً في كربلاء و٢٥٠ في النجف و٣٠ في سامراء . وعلى الرغم من أنه كانت لا تدفع
لهم مرتبات إلا أنه معترف بوجودهم رسمياً^(١) .

وكانت دائرة الأوقاف مسئولة عن الإيرادات المالية للأضرحة ، التي يأتي جزء منها
عن طريق الهبات الكبيرة على شكل أراض ومنازل وحوانيت ، وجزء منها عن طريق
التبرعات الخاصة ، وتتكون مالية الأضرحة أيضاً من الكنوز الموجودة بها والتي يتكون الجزء
الأعظم منها من المجوهرات . وتوجد هذه الكنوز في عهدة موظفين من الدائرة يقومون
بفحصها ومراجعتها على فترات ، ولا يعرف الأغراب شيئاً عن عددها أو قيمتها ، ويحتفظ
الحراس بسجلات للهبات تنشر عليها دائرة الأوقاف . وكانت الحكومة الفارسية تسهم في
عمليات التمويل المالي لعمليات الصيانة والإنارة في العتبات المقدسة ، فكانت تقدم منحة
قدرها ثلاثة آلاف تومان لحراس كربلاء لإنارة الأضرحة ، ومنحة أخرى قدرها ألفان من
التومان لحراس النجف لصيانة ضريح علي ، ومنحة ثلاثة قدرها ١٢٥٠ توماناً لحراس
الكاظمية .

تدفع شيعة فارس على العتبات المقدسة :

وكان عدد الزوار الشيعة يتراوح في السنة بين عشرين ألفاً وخمسة وعشرين ألف زائر
بما فيها الرجال والنساء والأطفال . ومع ذلك فإن عدد الزوار لم يكن ثابتاً . كان يتزايد أ

(١) المرجع السابق ، القسم التاريخي ، ج ٦ ، ص ٣٢٧ .

ينتاقص من عام لآخر . ففي بعض السنوات كانت تقفز أعدادهم قفزات كبيرة . وعلى سبيل المثال بلغ عدد الزوار الشيعة الذين دخلوا العراق عام ١٨٨٩ من جميع الجهات ٢٣,٩٩٠ زائراً ، وفقاً للإحصائيات الرسمية العثمانية ، ثم قفز عددهم في العام التالي (١٨٩٠) إلى ٥٧,٠٦٧^(١).

وكان شيعة الفرس هم أكثر الزوار عدداً ، يليهم الهنود الذين يصلون بحراً إلى البصرة ، بالملات بل بالألوف مع من ينضم إليهما من شيعة الأفغان والتبت ، فضلاً عن سكان بنجاب ولاهور وكشمير وغيرها . وقد خصص لإقامتهم في البصرة خانات ، وهم يتدفقون عادة بين شهري أكتوبر - تشرين أول ، ومارس - آذار - قبل حلول شهور الصيف الحارة . وكان الممثلون البريطانيون السياسيون في العراق يؤثرون للخدمات التي يحتاج إليها الزائرون الهنود باعتبارها رعايا بريطانيين . وكان من بين الذين يأتون سويّاً إلى البصرة مع الهنود أعداد كبيرة منهم تنتمي إلى طائفة البهرة .

ويبلغ متوسط المدة التي يقضيها الزوار في العراق حوالي شهرين . ويتراوح مايفقه أفقر هؤلاء في هذه الفترة مابين مئتين ومائة روبية ، بينما يبسط الأغنياء أيديهم في الإنفاق للعناية بأنفسهم وخبولهم أو لشراء سلع عادية وأشياء مقدسة أو لتقديم هبات للأضرحة أو هدايا للموظفين والأدلاء والخدم .

وليس هناك وقت محدد من السنة لزيارة «العتبات المقدسة» ، ولكن يختار الشيعة عادة الأوقات ذات الطقس البارد للقيام بها لتخفيف أعباء الرحلة عنهم . ويركب الزوار الأثرياء المسافرون عن طريق البر الخيول أو يحملون على هودج ، بينما تحمل النساء والأطفال فيما يشبه السلال على ظهور الخيل . ويقوم بإرشاد كل جماعة من الزوار شاوليش أو مرشد ، يحمل علماً أحمر أو أخضر مكتوبة عليه آية قرآنية أو أسماء الأئمة ، ويسبقه حصان تتدلى منه أجراس ذات أنغام^(٢) .

ويقوم الزوار القادمون عن طريق البر من الحدود الفارسية بزيادة الكاظمية أولاً ، ثم يستأنفون رحلتهم بالعربات التي تجرها الخيول إلى كربلاء والنجف . ويسلك هذا الطريق أيضاً معظم الزوار القادمين من الخليج العربي ، فيأخذون سفناً من البصرة إلى بغداد . ويسافر بعض الزوار القادمين عن طريق البحر من البصرة ويصعدون في نهر الفرات ويصلون إلى الكوفة ويوزرون النجف قبل دخولهم كربلاء ، ويזור جميع الزوار أو غالبيتهم العظمى كربلاء والنجف والكاظمية . ويذهب حوالي ربعهم إلى سامراء ، وهم أولئك الذين يبدأون رحلتهم

(١) المرجع السابق ، القسم التاريخي ، ج ٦ ، ص ٢٢٧٨ .

(٢) المرجع السابق ، القسم التاريخي ، ج ٦ ، ص ٢٢٧٧ .

بالعربات من الكاظمية ، ثم يسلكون طريقاً يسير غرب دجلة يوصلهم إلى مكان مقابل لسامراء^(١)، حيث توجد بها مدافن لأحد عشر إماماً من أئمة الشيعة ؛ ولذلك تعد المدينة مزاراً للوافدين الشيعة ؛ وبها وكيل فنصل لحكومة فارس يرعى شئون الزائرين الفرس .

وعندما يصل الزائر إلى أحد الأضرحة الكبرى في «العتبات المقدسة» .. فإنه يظهر نفسه أولاً بوضوء معين ، ثم يدخل صحن الضريح بإرشاد أحد الموظفين . وعند عتبة الضريح يطلب الزائر من صاحب المقام السماح له بالدخول ، وعندما يدخل يردد بعض الصلوات ثم يدور حول القبر ثلاث مرات مقيلاً السور الذي حوله ، وفي النهاية يركع أمامه مرتين . أما الزائر الثرى الراغب في الحصول على ميزات أكثر ، فيعهد إلى عدد من المقرئين بتلاوة القرآن الكريم ثم سرد قصة استشهاد الحسين . ثم يقوم هذا الزائر بتوزيع الصدقات على الفقراء وتقديم العطايا من النقود والمجوهرات إلى الضريح . ويتزود الزوار -وخاصة في كربلاء- بالمسابح وبأفراس من «النخري» أو التراب المقدس يضعونها تحت رؤوسهم عند الركوع في الصلاة . وكذلك يتزودون بأكنفة مطبوع عليها آيات قرآنية لاستخدامهم أو لاستخدام أقاربهم أو أصدقائهم ، وتطلق كلمة «الزيارة» على عملية السفر إلى العتبات المقدسة وزيارة الأضرحة . ويحق للزائر بعد إتمامها أن يطلق على نفسه «كربلائي» .

شيعة فارس يصبحون معهم جثث أقاربهم لدفنها في العتبات المقدسة :

كان شيعة فارس بوجه خاص يصبحون معهم إلى العراق جثث ذويهم ، الذين أوصوا بأن يدفنوا في أرض مقدسة بإحدى العتبات المقدسة . وكانت هذه أمنية كل شيعي اعتقاداً منه بأنه سوف يحظى يوم الحساب بحماية الإمام الذي جاوره في قبره ، ومن ثم يدخل الجنة . وكانت جثث الموتى الشيعة في فارس توضع داخل غرفة أو قبة من الطوب حتى يحين موعد سفر أو صيائهم أو ذويهم إلى العراق لزيارة «العتبات المقدسة» ، فيأخذون الجثث معهم لدفنها هناك . وكانوا يسافرون بطريق القوافل ويضعون الجثث في ثوابيت خشبية مغطاة بطبقة سميكة من الصوف . وعند وصول الجثة أو بقاياها إلى المكان المعد لدفنها فيه .. كانت تجرى عملية الغسل مرة أخرى استجلاً للبركة ، وكانت عملية الغسل بالغة الخطورة على الصحة العامة ؛ إذ كانت تنسب في انتشار الأوبئة في العراق خاصة في منطقة النجف^(٢) . وكانت السلطات العثمانية في العراق تتقاضى شتى الرسوم تحت مختلف الأسماء ، سواء عند اجتياز الزوار

(١) تقع سامراء على الضفة اليمنى لنهر دجلة . وقد أسسها الخليفة العباسي المعتصم الذي اتخذها مركزاً للخلافة العباسية عام ٨٣٦م وظلت على هذا الوضع حتى عام ٨٩٢م . وكان الاسم الأصلي الأرامى للمدينة هو سامر ، الذي تغير رسمياً إلى اسم «سر من رأى» ولكنه يكتب الآن وينطق سامراء . .

(٢) في المفاوضات التي دارت بين الجانب العثماني والجانب الفارسي في أثناء زيارة شاه فارس للعتبات المقدسة عام ١٨٧٠ ، أثار الجانب العثماني موضوع نقل وفات شيعة فارس إلى العراق لدفنها في=

الحدود العراقية أو على وفات الموتى أو دفنهم ، وكانت القنصلية العثمانية في كرمان شاه في فارس تمنح الزوار تأشيرة دخول العراق بعد دفع عشرين قرشاً من الذهب ، أي مايساوي ثلاثة شلنات وسبعة بنسات عن كل زائر ، وكانت هذه القنصلية تصدر تصاريح بمرور جثث الفرس المطلوب دفنها في العراق ، بعد دفع تسعة شلنات عن كل جثة . واكتشفت السلطات العثمانية أن بعض الزوار كانوا يضعون جثثين في تابوت واحد كوسيلة للتهرب من دفع رسوم على إحدى الجثتين ، ولذلك عمدت السلطات العثمانية إلى فتح التوابيت ، للتأكد من أن كل تابوت لايحوي إلا رفاتاً واحداً . وكانت رسوم الدفن تتراوح بين أربعين جنيهًا إسترلينيًا وعشرين جنيهًا وأربعة جنيهات وجنيهين ، وجنيه ، ويضعة شلنات تبعاً للمكان الخاص بالدفن^(١) ، وكانت أعلى أسعار الدفن في منطقة النجف ثم كربلاء ثم الكاظمية ثم سامراء . وقد بلغ عدد جثث الشيعة الفرس التي دخلت العراق عام ١٨٨٩ ودفنت في «العتبات المقدسة» ٥٦٢٠ ، ثم قفز عددها في سنة ١٨٩٠ إلى ٩٧٥٤ جثة^(٢) .

«الهنود المتقاعدون» في العتبات المقدسة :

وكانت توجد في «العتبات المقدسة» أعداد وفيرة من الهنود الشيعة ، اطمأنوا إلى قضاء حياتهم فيها على مقربة من مقابر الإمامين علي والحسين وغيرهما . وقد تركزت إقامتهم في النجف وكربلاء^(٣) وعرفوا باسم «الهنود المتقاعدون» ، وقد تراوح عددهم بين ثمانية آلاف وعشرة آلاف هندي ، وكانوا يتمتعون بحماية بريطانيا لهم على أساس أنهم رعايا بريطانيون . وكان لبريطانيا ممثلون سياسيون في النجف وكربلاء والكاظمية ، وكانوا من المسلمين الهنود^(٤) ، يراعون مصالح المتقاعدين من الشيعة الهنود .

= «العتبات المقدسة» . وقد طالب الجانب العثماني بالا يتم نقل وفات الموتى من فارس إلا بعد انقضاء ثلاث سنوات على الوفاة منعاً لانتشار الأوبئة في العراق ، وقد أجيب الجانب العثماني إلى طلبه .

(١) كان المكان المخصص للدفن في كل منطقة من مناطق «العتبات المقدسة» هو الرواق أو إيوان الذهب ، أو حجرة الصحن . والمقابر الرئيسية في العراق الخارجة عن أروقة الأجنته ، والتي يتم فيها الدفن أيضاً هي كالتالي من حيث الأهمية : وادي السلام في النجف ، وادي الإيمان في كربلاء ، ومقابر القرشي في الكاظمية ، وترمة في سامراء .

(٢) المرجع السابق ، القسم التاريخي ، ج ٦ ، ٢٢٨٢ .

(٣) أما الجالية الهندية في بغداد فكان أعضاؤها يختلفون عن هنود «العتبات المقدسة» . كان هنود بغداد بمثابة لاجئين كرهو الحياة تحت حكم الإنجليز المسيحيين في الهند واستقروا في بغداد بصفتها أقرب ملاذ لهم في دار الإسلام . وكانوا من أهل السنة يتفقون مذهبياً مع أهل بغداد ، وقد سمحت لهم السلطات البريطانية في الهند بأن يحصلوا على إيراد أراضيهم في الهند .

(٤) نذكر من هؤلاء الممثلين السياسيين : محمد تقى خان في كربلاء ، ومحمد حسن خان في الكاظمية .

وصية ملك أوض^(١) oude في الهند :

وكانوا يحصلون على أنصبتهم من وصية ملك أوض ، وكان قد توفي بها عام ١٨٤٩ كان قد عقد اتفاقية قبل وفاته مع حكومة الهند ، وقصر توزيع حصيلة الوصية على الشيعة الهنود ثم الفرس ثم العراقيين في العتبات المقدسة ، وخص العاكفين على الدراسات المذهبية الشيعية فيها بنصيب متميز . وكانت حصيلة الوصية تشكل مبلغاً ضخماً ؛ إذ بلغت أول الأمر حوالي ٧٣٣٤ روبية كل شهر أى ما يوازي ٧٥٠ جنيه إسترليني حسب سعر التبادل في ذلك الوقت ، وهى مبلغ كبير بالنسبة إلى قيمة النقد وقوته الشرائية وقتذاك . ثم ازدادت حصيلة هذه الوصية نتيجة ضمايم أخرى من عقارات ملك أوض الراحل ، وكانت ضخامة هذه الوصية تضفى عليها أهمية سياسية كبيرة ؛ إذ نشأ خوف من أن تؤدي هذه الأموال الضخمة إلى سخط الباب العالي والسلطات العثمانية في العراق ؛ لأن الدولة العثمانية كانت سنية المذهب ، وأن يؤدي هذا السخط بدوره إلى تصاعد التوتر بين الشيعة وأهل السنة ، كما أن الوكالة السياسية البريطانية - من حيث هى ممثلة حكومة الهند في العراق - هى التى يتم عن طريقها التوزيع ، فأصبح فى يدها سلاح خطير ، وانزعجت السلطات العثمانية لتساعد النفوذ البريطانى فى العراق فى مجال جديد هو شيعة العتبات المقدسة^(٢) . ولذلك نهت حكومة الهند على التوكيل السياسى البريطانى فى العراق ، تجنباً لإثارة المشكلات السياسية ، أن يوزع تلك الأموال بروح الحكمة والحصافة ... وبمرور الزمن ظهرت مشكلات وارتباطات خطيرة فى توزيع أموال الوصية ، أسهم فيها عدم وضوح النص الأصلي للوصية التى وقعها ملك أوض . وصدرت التنبيهات بأن ينال الشيعة الهنود فى كربلاء والنجف والكاظمية نصيبهم كاملاً فى وصية أوض ، واشتبكت هذه الإجراءات اشتباكاً مخلاً بأعمال بعض التجار الهنود فى العراق وبإجراءات حماية مصالح الهند البريطانية فى العتبات المقدسة .

(١) تكتب هذه اللفظة فى بعض المراجع العربية «أوده» .

(٢) فى الواقع نجحت الحكومة البريطانية فى إقامة علاقات مع جماعة «الإخوان المجتهدين» فى كربلاء والنجف من خلال وصية أوض . وكان بعضهم يتدخل فى توزيعها ، وكان الإخوان المجتهدون ومن غلاة الشيعة عنصرأ قوياً من عناصر الحياة السياسية والدينية فى «العتبات المقدسة» ، وظلوا فترات طويلة يتمتعون بهذا الوضع . وكانت أقوالهم وأراؤهم تظفر بالتقدير العميق من الجماهير ، وكانوا يفسرون العدوة والبلغضاء المسيحيين ، وفى الوقت ذاته يتدخلون فى الشؤون الداخلية لحكومة فارس . وكان السفير البريطانى فى فارس يرجو أن يتحالف «الإخوان المجتهدون» مع الحكومة البريطانية لصد النفوذ الروسى فى فارس ، ولكنهم رفضوا أن يدخلوا فى علاقات ودية وثيقة مع ممثل الحكومة البريطانية . ومع ذلك نجحت السلطات الفارسية فى إيفار صدر الباب العالي على المجتهدين ، واعتبرتهم عنصراً مشاغباً خطيراً ينشئون علاقات ودية بدولة أوروبية ، وكان من جراء هذه الخطة أن نفذ العثمانيون خطة القمع للإخوان المجتهدين فى عام ١٩٠٤ .

انظر :

لوريمر ج.ج. ، مرجع سبق ذكره ، القسم التاريخى ، ج ١ ، ص ٥٥٥ و ج ٤ ، ص ٢٢٨٢-٢٢٨٥ .

ولما أصبح صرف تلك الأموال ، على الرغم من التحفظات الموضوعة لصالح الهنود ، بأيدي مجتهدى كربلاء والنجف أسىء صرفها أو بددت . وفي سنة ١٨٦٦ أثار «نواب إقبال الدولة» ، وهو نزيل هندي من المشتغلين بالحياة العامة ومن عائلة أوصى ويقم في بغداد ، مشكلة إصلاح هذا الاضطراب والعبث في توزيع أموال الوصية . وفي سنة ١٨٦٧ أوصى الوكيل السياسي . بعد التشاور مع «نواب إقبال الدولة» بأن تصرف مستقبلاً حصيلة الوصية على مجتهدى الهنود فقط ، ويتم توزيعها عن طريق لجنة من وجهاء الهنود في المنطقة بإشراف الوكيل السياسي ، ولكن رفضت حكومة الهند هذا الاقتراح استناداً إلى نص الاتفاقية كما فهمته وفسرته آنذاك .

وعرضت السلطات البريطانية حلاً لهذه المشكلة أن يسافر اثنان من علماء النجف إلى بمباي على فترات زمنية متقاربة لتسلم أموال الوصية والقيام بتوزيعها على مستحقيها ، ولكن ظلت مشكلة وقف ملك أوصى دون حسم ، وكثر تردد الشيعة بين العراق والهند في محاولات مكثفة لإيجاد حل يرضى عنه جميع الأطراف . ومات «نواب إقبال الدولة» في الحادي والعشرين من شهر ديسمبر - كانون أول - عام ١٨٨٧ ، والموضوع نتجابه تيارات متعارضة . وقد استغرق هذا الموضوع مكاتبات عديدة ضافية بين حكومة الهند والمقيم البريطاني في العراق والممثلين السياسيين لبريطانيا في «العقبات المقدسة» والسفير البريطاني في إسطنبول وحكومتى الدولة العثمانية وبريطانيا وزعماء الشيعة في «العقبات المقدسة» . وكان واضحاً حرص الحكومة البريطانية - على مختلف المستويات - على حماية مصالح الشيعة الهنود في «العقبات المقدسة» وكفالة الأمن والاستقرار لهم والطمأنينة على حصولهم على أنصبتهم كاملة من وصية ملك أوصى^(١) .

زيارات الهنود السنين للعراق :

وكان العراق يستقبل أيضاً زواراً من أهل السنة يأتون من الهند بوجه خاص لزيارة قبرى الإمام أبى حنيفة وعبدالقادر الجيلانى في بغداد^(٢) ، وكانت أعدادهم أقل من أعداد

(١) لودير ج.ج. مرجع سبق ذكره ، القسم التاريخي ، ج ١ ، ص ٤٢١-٤٢٢ ، ٤٤٦ ، ٤٥٧ ، ٤٧٢ ، ٤٨٧ ، ٥١٠ ، ٥٥٥ ، ج ٤ ، ص ٢٠٧-٢٠٨ ، ٢١٨٧ ، ٢٢٤٤-٢٢٥١ ، ٢٢٥٣-٢٢٨٠ .

(2) Gibb Hamilton and Harold Bowen, op. cit., Vol. I, Part 1, p. 75.

ويعتبر جامع الشيخ عبدالقادر وضريحه اللذان وصفا على سبيل التكريم بأنهما «جناب غوث الاعظم والمستجير» ليس فقط من معالم بغداد الرئيسية ، بل هما أيضاً مركز ديني هام يزوره المسلمون السنين من أنحاء العالم ؛ وخاصة الأفغان والهنود . والقراء والنزلاء الذين لا يستطيعون تكاليف الإقامة ويعتمدون في المعيشة على البقاء بالقرب من الضريح . وكان حوالى أربعة آلاف رغيف توزع يومياً من مطبخ «بيرو المستجير» ، وكان دخل الضريح من الهبات والأتاف الدينية يبلغ زهاء ١٢,٠٠٠ ليرة تركية في العام . انظر : المرجع السابق ، القسم التاريخي ، ج ٦ ، ص ٢٣٩٢ .

الزائرين الشيعة ، ولكنهم كانوا يفقدون بصورة مستمرة طوال العام .

وكانت هذه السياحة الدينية - بنوعها الشيعة والسنية - من العوامل التي أسهمت مع غيرها في انفتاح العراق على العالم الإسلامي الخارجي ؛ فلم يتعرض لعزلة خارجية فضلاً عن انتعاش الحياة الاقتصادية بما كان ينفقه الزوار من أموال ، وبما كانوا يجلبونه معهم من بضائع مثل السجاد الفارسي وقد ازدهرت تجارته في العراق ، كما كانوا يقومون بشراء مقادير كبيرة من الشاي والسكر والملابس الصوفية ؛ لأن أعداداً كبيرة منهم كانت تأتي من أقطار باردة الطقس ، وأنشئت بالمناطق المجاورة للعتبات المقدسة مجموعات كبيرة من الخانات والمحلات التجارية .. كل ذلك بالإضافة إلى الضرائب ، التي كانت تفرضها السلطات العراقية على الزوار وعلى رفات الموتى .

إن الدولة العثمانية - وهي الدولة السنية والمدافعة عن المذهب السني في العالم الإسلامي - قد سمرت السبل أمام شيعة فارس والهند وأفغانستان وغيرهم لزيارة العتبات المقدسة ، في العراق ، وكانت في تصرفاتها مثلاً يحتذى في الترفع عن سياسة التعصب الديني المذهبي . وقد يرى البعض أن الدافع لها على انتهاج سياسة التسامح هو رغبتها في الحصول على الإيرادات ، التي تأتي عن طريق زيارة الشيعة للمزارات المقدسة . ولكن لم تكن تشكل هذه الإيرادات دخلاً كبيراً للحكومة .. فقد قدر دخلها في عام ١٨٨٩ بمبلغ ٤٨٠٧ من الجنيهات الإنجليزية ، وبلغ هذا الدخل في السنة التالية (١٨٩٠) ٩٢٣٤ جنيهاً إنجليزياً . وكان في مقدور السلطات العثمانية في العراق الاستعاضة عن مثل هذه المبالغ بتدبير موارد مالية أخرى لخزانة الحكومة .

ثالثاً : التنوع البشري والديني في العراق :

كان العراق يموج بتنوع بشري وديني ، وإن كان أقل عنفاً من مثيله في بر الشام .. ففيه العصبية الكردية ، والعشائر العربية ، وأهل السنة وأهل الشيعة ، والعداء المذهبي مستحکم بين أفراد هاتين الطائفتين .. والأكراد منقسمون : منهم من يعتنق المذهب السني ، ومنهم من ينتسب إلى المذهب الشيعي . وإلى جانب هؤلاء وأولئك كان يوجد أتراك عثمانيين ، ومسيحيون منتشرون في طول البلاد وعرضها ، وكذلك يهود ، ولم يكن المسيحيون في العراق على مذهب ديني واحد ، ففيهم الكاثوليك ، وفيهم البروتستانت . وكانت الموصل من أهم معاقل المسيحية في العراق ، وكان للمسيحيين فيها ثلاث عشرة كنيسة .

وكان من أهم الطوائف المسيحية في العراق النساطرة واليعاقبة والأرمن . كان معظم المسيحيين في العراق من النساطرة ، واتخذ بطريرك النساطرة الذين اعتنقوا المذهب الكاثوليكي من بغداد مقراً له .. وكان يتسلم براءة تعيينه في منصبه من باب روما مباشرة . أما اليعاقبة ،

فقد تحولت جماعات منهم إلى الكاثوليكية وعرفوا باسم السوربان وظل الباقون على مذهبهم . وكانت الموصل مقراً لكركسهم البطريركي ، وكانت تقيم في بغداد ستون أسرة من الكاثوليك المنتمين لكنيسة روما ، وكان أفرادها يترددون على البصرة لممارسة عمليات تجارية واسعة فيها ، وأنشأوا بها مستشفى الآباء الكرمليين وأحقوه بالكنيسة الكاثوليكية . أما بطريركية الأرمن الكاثوليك فمقرها لبنان ، وكان يوجد أيضاً في بغداد مسيحيون كلدان وكانوا أصلاً من أتباع المذهب النسطوري ثم خرجوا عليه . وكانت لغتهم اللغة الكلدانية ، وكانوا يمارسون طقوسهم الدينية بها ، وانتشر الأرمن في شمالي العراق ووسطه وجنوبه على السواء في كركوك ، وأربيل ، والموصل ، وماردين ، وبغداد والبصرة ، وكانوا يتكلمون العربية والتركية والفارسية . وكان بعضهم يتحدث بالإنجليزية والبرتغالية والهندية ؛ مما أكسبهم ميزات هامة أفادتهم في نشاطهم التجاري ، كما اشتغلوا أعواناً المقيم البريطانى في بغداد وهو الكلدوس جيمس ريتش Claudius James Rich (١٨٠٨-١٨٢١) ، وقد عين منهم موظفين له ، واتخذ هذا المقيم الإنجليزي من الأسقف الأرمني في ماردين وكيلاً له في هذه البلدة . وكان يوجد أيضاً في العراق اللاتين الكاثوليك .

نشاط البعثات التنصيرية في العراق :

وفي ظل الامتيازات الأجنبية ، وفدت إلى العراق جماعات من المنتصرين وازداد نشاطها بوجه خاص في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، ووجد عداء ديني مذهبي مستحكم بين المنتصرين الكاثوليك وأقرانهم البروتستانت .. كانت توجد بعثات تنصيرية من الكاثوليك الفرنسيين في بغداد والبصرة ومن الدومينيكيين الإيطاليين في الموصل والكوشيين في الموصل أيضاً ، وعملت هذه الجماعات على تحويل أكبر عدد ممكن من مبيحي العراق إلى المذهب الكاثوليكي ، وأحرزت انتصارات مذهبية كبيرة ؛ خاصة على عهد حكومة المماليك (١٧٤٩-١٨٣١) ؛ إذ دخلت في الكاثوليكية أعداد لا يستهان بها من النصارى واليعاقبة والأرمن . وبرز في هذا الميدان تريوش Trioch المنصر الفرنسي ، وكان من الخبراء الفرنسيين في شئون العراق ، وتولى منصب قنصل فرنسا في العراق ، وعين رئيس أساقفة وعلى بالبعثة الكرملية في البصرة ، وكان أول رئيس أساقفة في العراق ، واهتم بالسيطرة على الكلدان ، فقد كان من المعتاد أن ينتخب المطران الكلداني من بين القسيسين الكلدان في العراق ، وأراد تريوش أن يجعل تولية المطران بمعرفة بابا روما ، وبذلك يسيطر عليهم النفوذ البابوي ويقيم سداً متيناً دون تسرب البروتستانتية إليهم ^(١) ، وخيل للمراقبين في ذلك الوقت أن الكاثوليك بحماية فرنسا سيبتلعون مسيحي العراق .

(١) انظر تفاصيل الخطوات التي اتخذها تريوش لتحقيق غرضه في :

تكتور عبدالعزيز سليمان نوار : تاريخ العراق الحديث ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٠٣-٢٠٤ .

والحق أن وكلاء فرنسا السياسيين في بغداد ، والبصرة ، والموصل اهتموا بنشر المذهب الكاثوليكي في العراق اهتماماً فاق اهتمامهم بخدمة المصالح السياسية لفرنسا في هذا الإقليم ، بل كانوا يعتقدون أن المصالح التنصيرية والسياسية مرتبط بعضها ببعض بعروة وثقى ، لانفصام لها . وتنبهت الحكومة البريطانية لخطورة النشاط الفرنسي في التنصير الكاثوليكي . وكان المنصرون الإنجليز - إلى جانب القناصل والسلطات البريطانية بصفة عامة في العراق - لحكومتهم وسائل تقادى هذا الخطر المحتمل ، فاقترحوا أن توثق بريطانيا علاقات الصداقة والثقة مع مسيحيي العراق . وكان المنصرون الإنجليز ومعهم القناصل يعتقدون أن كل موظف فرنسي علماني هو في ذات الوقت منصر كاثوليكي ، وأن جميع البعثات التنصيرية الكاثوليكية تتمتع بالحماية الفرنسية ، وأنه عندما تنتهار الدولة العثمانية ستجد فرنسا في مسيحيي العراق الكاثوليك ركيزة سياسية ودينية ، تساعد على بسط سيطرتها على أكبر رقعة من ممتلكات الدولة العثمانية . وقد برز في ميدان التنصير الهروتستانتي جروفر Groves A.N. وهو أول منصر هروتستانتي إنجليزي ، وقد وصل إلى العراق عام ١٨٢٩ ، ووجد من السلطات العثمانية الحاكمة في العراق تسامحاً دينياً ؛ إذ سمحت له بفتح مدرسة لتعليم الإنجليزية والعربية ، وكان يقوم هو بالتدريس فيها ، واتخذ من التعليم وسيلة للدعوة للهروتستانتي ، كما سمحت له ببيع الإنجيل ، وعقد اجتماعات دينية في حرية تامة .

وعلى الرغم من هذا التسامح فقد احتضنته المقيمة البريطانية في بغداد مع أقرانه ، وتعدى نشاطهم حدود بغداد إلى الموصل ، وماردين ، وبو شهر . وإزاء هذا النشاط اعتقد الفرنسيون أن الإنجليز لا يسعون إلى احتلال العراق فقط بل ، يتطلعون إلى تحويل سكانه إلى المسيحية . وكان ريتش نفسه يعتقد أن الدين الإسلامي هو العقبة في إصلاح أمور العراق ، وذهب جروفر في تقاؤه إلى حد الاعتقاد بأنه من الممكن تحويل عدد كبير من مسلمي الموصل إلى المسيحية . ووصل إلى العراق المنصر الأمريكي الهروتستانتي جرانت في صف ١٨٣٩ ، وفي برنامجه تحويل نساطرة العراق إلى الهروتستانتي . ويلاحظ أن النساطرة كانوا لا يكونون ولاء للدولة العثمانية ، بل كانوا يتطلعون إلى اليوم الذي تستولى فيه الدولة الأوروبية على ممتلكات الدولة . وكان المنصرون يغذون في النساطرة الاتجاهات الانفصالية عنها بمقولة أنهم يشكلون كياناً مسيحياً قائماً بذاته ، يجب أن يكون بمنأى عن نفوذ السلطان العثماني المسلم ، ولأنشطهم به أي رابطة من روابط التبعية . وكانت البعثات التنصيرية الأمريكية تقدم خدمات طبية إلى السكان بجانب العملية التنصيرية ، وفتحت بعض المدارس ، وأحضرت مطبعة طبعت كتباً تعليمية باللغة العربية .

ووجدت مؤسسات دينية مسيحية تعليمية يديرها المنصرون . وكانت رسالتها في الظاهر تعليم اللغة العربية وإحدى اللغتين الفرنسية أو الإنجليزية وقلة من المواد الثقافية ، ولكنها كانت

في إحمتهما وسداها مراكز للتصير ، وكانت لمؤسسات الفرنسية في البصرة كاثوليكية ، و بها قسم لتعليم البنات اللغة العربية وأشغال الإبرة ، وكان في هذه المدينة أيضاً دار للكرملين ، وكانت هذه المؤسسات ذات نفوذ . وكان النفوذ الفرنسي الديني ظاهراً ملموساً ، بل إن هذا النفوذ الديني هو الذي تبقى للفرنسيين في العراق . وعمل الإنجليز على مواجهة النشاط الفرنسي بنشاط على شاكلته . واتفقت المقيمة البريطانية في بغداد مع جروفر المنصر الإنجليزى على استيراد كتب مطبوعة لتعليم اللغة العربية من مالطة . ولقيت هذه الكتب مقاومة من الكاثوليك . وأرادت إنجلترا أن تتخلص من مشكلة تصدير الكتب العربية إلى العراق ونجح جروفر في إحضار آلة طباعة ، وقد وصلت هذه المطبعة إلى البصرة عام ١٨٣٠ ، ولكن الحرب التي نشبت بين داود باشا والى بغداد وعلى رضا باشا والى حلب الذى تولى مهمة طرد المماليك من العراق لم تسمح بإرسال المطبعة إلى بغداد .

وكان في العراق الصابئون ، وهم بين النصارى والمجوس ، ويعبدون الكواكب والنجوم^(١) . وقد ورد ذكرهم في القرآن الكريم في موطنين : سورة البقرة ، «إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً قلهم أجبرهم عند ربهم ولاخوف عليهم ولاهم يحزنون»^(٢) وسورة الحج «إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة ، إن الله على كل شيء شهيد»^(٣) . ويثير بعض الباحثين ظلالاً من الشك حول الصابئين الموجودين في العراق إبان الحكم العثماني ، وهل هم الذين ورد ذكر أجدادهم في القرآن الكريم . وكان مقرهم في العصر العثماني «سوق الشيخ» على نهر الفرات ، والناصرية ، والعمارة ، وقلة صالح ، وشرطة المنتفك وغيرها ، ويقيم رئيسهم الديني الذى يطلق عليه «القارئ» عادة في سوق الشيخ ، ولتغتهم العربية ضعيفة ، ويرى الرجال لحاهم حتى تطول ، ولهم مقدرة خاصة على العمل في الذهب والفضة ، ويعمل معظمهم في هذه المهنة وفي بناء القوارب وأعمال التجارة ، ونادراً من يعمل منهم في الزراعة ، والتعميد هو أحد طقوسهم الرئيسية ويدخل الماء في جميع شعائهم الهامة . ويحترمون يحيى أو يوحنا المعمدان كنبى ويعتقدون أنه تجسد ، ويعتبرون أن موسى والمسيح عليها السلام كان معلمين زائفين ، ويعتقدون أن الجنة تقع في النجم الشمالى . ولهم كتب

(١) محمد فريد جدوى : المصحف المفسر ، الطبعة السادسة ، مطبعة محمد على صبيح وأولاده بالأزهر بمصر ، ١٣٧٢هـ - ١٩٥٣م ، ص ١٣ ، ص ٤٤٩ .

سيد قطب ، في ظلال القرآن ، ج ١ ، ص ٤٢ ، حاشية رقم ٩ .

(٢) سورة البقرة ، آية رقم ٦٢ .

(٣) سورة الحج ، آية رقم ١٨ ومعناها : والذين آمنوا واليهود والصابئون والنصارى والمجوس والمشركون سيعرضون على الله يوم القيامة فيحاسبهم على ما اعتقدوا وما عملوا فيفصل بينهم فيما كانوا فيه يختلفون ، إن الله على كل شيء شهيد .

مقدمة خاصة بهم وكتاب آخر للطقوس الدينية ، وليس من عاداتهم الختان ، وفي استطاعة الزوج أن يتزوج إذا أثبت أن زوجته الأولى عاقراً^(١) .

وكان الصابليون مجالاً للتنافس على النفوذ في العراق بين إنجلترا وفرنسا .. حاولت كلتاها أن تبسط حمايتها عليهم . وفي منتصف القرن التاسع عشر كان شيخ الصابليين ، واسمه يحيى ، من أنصار إنجلترا .. رحل من العراق إلى الهند ، ثم عاد منها ليوطد صلاته برجال الدين والمنصرين الأنجليكان والكاثوليك ؛ مما أدى إلى حدوث تصدع بين الصابليين إذ انتقدوا مسلكه . وكان على رأسهم الشيخ داموق الذي لجأ إلى الحكام العثمانيين ، وكانوا يعملون في ذلك الوقت على كبح جماح النفوذ البريطاني المتزايد بين الطوائف ، ورد عليهم الشيخ يحيى بأن خفض رسوم التعميد والزواج وغيرها من الرسوم الدينية ليكتسب شعبية بين أفراد طائفته . ولم تترك أثراً محسوساً المجاهدات التي بذلها قسيسو الموصل والربيعان البروتستانت خلال القرن التاسع عشر في أوساط الصابليين ؛ إذ ظلوا متمسكين بمذهبهم إلى الوقت الحاضر^(٢) .

أما اليهود فقد انتشروا في شتى مدن العراق ، وقد بلغ عددهم في بغداد في مطلع القرن التاسع عشر حوالي ٢,٥٠٠ أسرة يهودية تضم زهاء ثمانية آلاف نسمة ، وعددهم في السليمانية ١,٨٠٠ نسمة ، وفي ماردين حوالي ٨٠٠ ، وكانوا في كل مدينة يعيشون في أحياء خاصة بهم شأنهم في ذلك شأن سائر اليهود في الشرق وأوروبا . ويقال إن أول إصابة بالطاعون ظهرت في سنة ١٨٣٠ كانت في حيهام القنر ، وكانوا يشتغلون في أخطر العمليات التجارية والمصرفية ، وفي الوقت ذاته اشتغل بعضهم في أحقر الحرف .. كانوا يتحدثون بالعربية ويكتبون بالعبرية . ولم يكونوا في تصرفاتهم مثلاً للأمانة ، منهم من دبروا المؤامرات السياسية ، ومنهم من تعاونوا مع ريش المقيم البريطاني في بغداد فكانوا يقدمون له إحصاءات عن دخل المدن الهامة في العراق ، ومنهم من عمدوا إلى الغش والتدليس في مسائل سك النقود ونقل الأموال السائلة خارج العراق ، وكان رئيس طائفة الصرافين يهودياً ، وكانوا تحت الحماية البريطانية .

وشعر يهود العراق أنهم على قدر كبير من الأهمية في نظر بريطانيا وفرنسا اللتين تنافستا على كسب ودهم واصطناعهم عملاء . وكان فونتاننييه Fontanier ممثل فرنسا يسعى في أواخر الثلاثينيات من القرن التاسع عشر لجمع الاتباع من اليهود وسط الحماية الفرنسية عليهم ، وكان اليهود يرحبون بأن يكونوا تحت حماية أي دولة أوروبية حتى يحصلوا على مزيد من الامتيازات ، ويكونوا بمنأى عن نفوذ السلطات العثمانية ويظفروا بفرص واسعة للإثراء . أما إنجلترا .. فقد اتخذت منهم عملاء اشتغلوا في خدمة مصالحها وبخاصة على عهد

(١) لوديمر ج.ج. مرجع سبق ذكره ، القسم الجغرافي ، ج ٦ ، ص ٢٠٦٢-٢٠٦٤ .

(٢) دكتور عبدالعزيز سليمان نوار : تاريخ العراق الحديث ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢١٨-٢٢٠ .

رينش Rich القنصل البريطاني في بغداد ، واتجه اهتمام إنجلترا باليهود إلى ميدان جديد هو تنصيرهم على المذهب البروتستانتي . وأخذت الجمعيات التنصيرية ترسل منصرين إلى يهود العراق ، وأسندت أول الأمر إلى منصر إنجليزي بروتستانتي يدعى صمويل Samuel مهمة تحويل اليهود إلى المسيحية ، وقدم إلى البصرة سنة ١٨٣٦ ، وخاض مجادلات مع كبار رجال الدين اليهود في المعبد اليهودي لم تسفر عن ازدياد تمسكهم بعقيدتهم فحسب ، بل أمعنوا في السخرية به إمعاناً بلغ حد إيذائه ، فترك البصرة على كره منه إلى بغداد حيث لقي أذى من اليهود فاق الضرر الذي أصابه في البصرة . وكان يتجول في شوارع بغداد ويوزع كتبه المسيحية . واثارت ثائرة المسلمين إذ اعتقدوا أن هدف حكومته الإنجليزية من إيغاده إلى العراق هو احتلال البلاد وتحويل جميع السكان إلى المسيحية ، وكان مما قوى هذا الاعتقاد وجود بعثة شيزني في ذلك الوقت في نهر دجلة ، ثم النشاط المحموم الذي أبداه هذا المنصر الإنجليزى واجتمعت عليه نقمة المسلمين واليهود ببيتون خطة لاغتياله .. فقرر إخراجهم من بغداد إلى البصرة على أن يغادر العراق سريعاً ، وتولى مهمة تحويل اليهود إلى المسيحية بعد صمويل عدد من البولنديين كانوا قد تحولوا من لليهودية إلى المسيحية . وباشروا عملهم التنصيري بطبيعة الحال تحت حماية الإنجليز ، وتكونت جمعية تشرف على عمليات تنصير اليهود، وأطلق عليها Society of the Conversion of the Jews أى جمعية هداية اليهود إلى المسيحية ، وأحرزت نجاحاً جعل بعض المنصرين يعتقدون أنه في الاستطاعة تحويل المعبد اليهودي في بغداد إلى كنيسة ^(١) .

سؤال يفرض نفسه قرضاً :

وهناك سؤال يفرض نفسه فرضاً في هذا الصدد ، وهو ، لماذا لم تشهد مصر هذا النشاط التنصيري العريض والمكثف كما شهدته بلاد الشام والعراق ؟ وتتلخص الإجابة عن هذا السؤال في أن الأزهر الشريف وقف سداً منيعاً في وجه هذا النشاط ؛ فالأزهر كان ولا يزال قلعة الإسلام والقبلة العلمية للمسلمين ، كما كان ولا يزال أيضاً حصناً للغة العربية حافظ عليها طوال الحكم العثماني . يضاف إلى ذلك أن مصر كانت خالية من التنوع البشري والديني واللغوي ، الذي كان من أبرز سمات تاريخ الشام والعراق .. فلم يكن أمام المنصرين الأوروبيين مجال رحيب للتسلل إلى أوساط المجتمع في مصر لممارسة نشاطهم التنصيري ، وكان سكان مصر يتألفون من المسلمين والأقباط الأرثوذكس واليهود ، يتكلمون اللغة العربية . وكانت الجبهة الداخلية متماسكة هادئة تربط عناصرها الثلاثة صلات من الولائم والتعاضد السلمي . كانت هجرة الأوروبيين إلى مصر قد زادت منذ النصف الأول من القرن التاسع عشر ، ونشطت في خلال

(١) المرجع السابق ، ص ٣١٦-٣١٨ .

هذه الفترة حركة قدوم البعثات التنصيرية من كاثوليكية وپروتستانتية ، ومن فرنسية وإيطالية وإنجليزية وأمريكية وألمانية ، واهتمت بتحويل الأقباط الأرثوذكس إلى المذهب الكاثوليكي أو المذهب الپروتستانتي ونشر المسيحية بين مسلمي مصر . ولكنها لم تصادف إلا نجاحاً محدوداً في المجال القبطي ، لأن الأقباط - شأنهم في ذلك شأن المسلمين - كانوا محافظين ومتعصبين . فلم يرض معظمهم عن مذهبهم الأرثوذكسي بديلاً . حقيقة .. التحق عدد كبير من الأقباط بالمدارس ، التي أنشأها البعثات التنصيرية ؛ خاصة في الصعيد حيث قام تنافس شديد بين البعثات الپروتستانتية والكاثوليكية لاجتذاب أقباط الصعيد إلى مذهبها . وكانت كفة الپروتستانت أرجح من كفة الكاثوليك نتيجة الجهود المكثفة التي بذلتها البعثة التنصيرية الأمريكية ، بعد أن اتخذت أسويط مقراً لها في الصعيد . وكان هدف الأقباط من إلحاق أبنائهم بمدارس هذه البعثة هو الإفادة من فرصة أتاحت لهم للتزود بصلاح العلم ، وبقيت غاليته على المذهب الأرثوذكسي . أما تنصير المسلمين فكان يحدث في حالات فردية ونادرة ، وقعت تحت إغراء المال بشتى صورته وأشكاله . وكان الأزهر الشريف يثور على هذه الحالات ، على الرغم من ندرتها وتفاهة المركز الاجتماعي للمسلمين الذين ارتدوا عن دينهم ، وحتى هؤلاء كانوا يعودون سراعاً إلى رحاب الإسلام .

رابعا : الصراع بين الدولة العثمانية وفارس على العراق :

لم تتمر السياسة الحصيفة التي أرسى قواعدها السلطان سليمان المشرع في أثناء وجوده في العراق في سنة ١٥٣٥ عقب فتح هذا الإقليم ، حين أحترم مشاعر الشيعة وحافظ على أماكنهم الدينية وهي العتبات المقدسة ويسر السبل أمام زائريها ^(١) ، فاستمرت الحروب والمنازعات بين الدولتين منذ الثلاثينيات من القرن السادس عشر حتى أوائل القرن التاسع عشر ^(٢) . وكانت هذه الحروب بين الدولتين تنقطع في بعض الفترات لتعود أشد ضراوة من سابقتها . وتبادل الطرفان الهزيمة والانتصار ، وعاد العراق أو أجزاء كبيرة منه لحكم فارس أكثر من مرة ^(٣) .

(١) انظر في هذه الدراسة ص ٢٤-٢٥ .

(٢) Hurewitz J.C., op. cit., Vol. I, p. 90. A Historical Introduction to the Treaty of Peace, Erzurem, between the Ottoman Empire and Persia., concluded on 28 July, 1823.

(٣) من الأمثلة التي تتساق في هذا الصدد أن بغداد استسلمت عام ١٦٢٢ لحكم عباس الأول شاه فارس وأصبحت الكاظمية ، وكوت ، والعمارة ، وكربلاء ، والنجف ، بما فيها من أماكن يقدها أهل الشيعة ، بل والحلة أيضاً ، أصبحت جميعاً في أيدي الشاه ، واستمر العراق تابعاً للدولة الفارسية حتى عام ١٦٣٨ حين أعد السلطان مراد الرابع (١٦٢٣-١٦٤٠) حملة على العراق ، واستولى على بغداد وعاد العراق مرة أخرى للحكم العثماني . ثم ظهر على مسرح السياسة في بلاد فارس سنة ١٧٢٩ نادر شاه ، وهو أمير تركماني من قبيلة أفشر ، ويعرف أيضاً بلقب طهماسب قولي خان ، وتمكن من القضاء على حكم فارس =

ويرجع العداء بين الدولتين إلى سبب عام ، هو العداء الديني المذهبي المستحكم بين أهل السنة وأهل الشيعة ؛ فالدولة العثمانية كانت تعتبر نفسها المدافع الأول عن المذهب السني بينما تعتبر فارس نفسها المدافع الأول عن المذهب الشيعي ، كما يرجع العداء إلى أسباب خاصة . كان الشيعة في العراق ينظرون إلى شاه فارس على أنه الملاذ ولجأون إليه كلما نزل بهم ضيق أو أعوزتهم الأموال ، وكانت تنظم حملات في فارس لجمع التبرعات لشيعة العراق ، والتي كانت حكومتها تهتم بالقيام بإصلاحات معمارية في «العتبات المقدسة» ، أو قوافل تجارية . ومما شجع الفرس على غزو العراق أن نصف سكانه تقريباً كانوا من الشيعة ، ومما ساعد العثمانيين على صد هجوم فارس على العراق أن للنصف الآخر من سكانه كانوا من أهل السنة . واستعان الفريقان المتصارعان بالعصبيات والعشائر العربية والكردية ، وقامت روسيا في بعض الأحيان بدور بارز في زيادة حدة النزاع بين العثمانيين والفرس تماشياً مع سياستها التقليدية في خلق الأزمات أمام الدولة العثمانية وتصعيد هذه الأزمات . واعتقدت بريطانيا أن روسيا هي السبب في اندلاع الحرب بين فارس ؛ والدولة العثمانية ، والتي استمرت من سنة ١٨٢٠ حتى سنة ١٨٢٣ ، وكان زمام المبادرة في الهجوم على العراق في يد فارس ؛ لأنها كانت تتطلع دائماً إلى استرداده ، بينما لم يكن لدى العثمانيين رغبة في التوسع على حساب الدولة الفارسية .

= الأفغانيين السنة ، الذين كانوا قد انتمسوا بقيادة زعيمهم الشاهر مير محمود سنة ١٧٢٢ على الصفويين وحلوا مكانهم . وأعاد نادر شاه الصفويين إلى الحكم ، وأصبح هؤلاء مجرد حكام صوريين ، وتركزت السلطة الفعلية في يد نادر شاه ، وبالمثل أن أعلن نفسه حاكماً على فارس متخذاً لقب شاه سنة ١٧٣٦ بعد أن أزال الصفويين من الحكم ، وكان هو العدو الأكبر للعثمانيين حتى قتل في ١٩ يونيو - حزيران ١٧٤٧ . وفي أثناء حكمه حاصر بغداد والموصل أكثر من مرة ، وعقدت عدة معاهدات صلح بينه وبين العثمانيين ، ولكنها سرعان ما كانت تنتقض ويتجدد القتال . وقد حاول نادر شاه أن يدخل تعديلاً خطيراً على نظام قوافل الحج إلى الحجاز ليؤكد نفوذه الديني منافساً السلطان العثماني . وكان هذا الشاه قد بنى المذهب الشيعي الجعفري ، نسبة إلى الإمام جعفر الصادق ، وأراد أن يرسل إلى الحجاز قافلة حج ورئيسية فارسية يرأسها أمير حج فارسي . واستهدف أيضاً صرف الحجاج الفرس عن الذهاب إلى دمشق للانضمام إلى قافلة الحج الشامي كما جرت العادة ، ورفض السلطان العثماني ، الأخذ بهذا النظام لأنه اعتبره انتقاصاً لسلطته الدينية لإشرافه على الأماكن المقدسة في الحجاز ، ولأنه يستمد من هذا الإشراف لقب «حامي حامي الحرمين الشريفين» .

انظر :

Minorsky V., Encycl. of Islam, Art. Nadir Shah.

Muhammad Ali Hikmat; Essai sur l'Histoire des Relations

Irano - Ottomanes de 722 à 1747. Paris, 1937, pp. 184-184.

دكتور عبد الكريم رافق : بلاد الشام ومصر ، من الفتح العثماني إلى حملة نابليون بونابرت (١٥١٦-١٧٩٨)، دمشق ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٨ ، ص ٢٩٩-٣٠٠ .

لوريمر ج.ج. ، مرجع سبق ذكره ، القسم التاريخي ، ج ١ : ص ٥٥ ، ص ١٢٩-١٤١ .

وكانت حرب ١٨٢٠-١٨٢٣ هي آخر حرب بين العراق وفارس ، ولتصرت فارس في مراحلها الأولى ثم أحرز العراق انتصارات في مراحلها الأخيرة بسبب نفشى وباء الكوليرا في الجيشين . وظل الموقف معلقاً حتى أبرمت معاهدة أرضروم الأولى في ٢٨ من يوليو - تموز - عام ١٨٢٣^(١) ، ولكن هذه المعاهدة لم تحسم مشكلة الحدود بين العراق وفارس فبقيت مشكلة مزمنة متأزمة أثارت عديداً من المشكلات والأزمات ، واكفهر الجو بين العراق وفارس في الأربعينيات من القرن التاسع عشر بخاصة حين كان نجيب باشا والياً على بغداد (١٨٤٢-١٨٤٧) . وكان سبب تدهور العلاقات مشكلة الحدود والمشكلة الكردية ، ووقعت مصادمات بين العراقيين والفرس في عريستان ، والسليمانية ومنطقة بنى لام ، وزهاب ، وطالبات فارس بلواء السليمانية وعريستان حتى القرنة ، وبإبعاد الأمراء الفرس المناوئين للشاه عن بغداد ، وهددت بإرسال قوات فارسية لاحتلال البحرين والكويت ، واستعدت لشن حرب شاملة على العراق . وردت الدولة العثمانية بحشد قواتها على حدود فارس واستنفرت قبائل المنتفق وبنى لام والبابانيين ، ودارت المناوشات العنيفة فعلاً على الحدود ؛ خاصة في منطقة السليمانية . ورأت بريطانيا أن تتدخل لإيجاد حل سلمى لمشكلة الحدود التي هي جوهر النزاع . واقتрحت تشكيل جنة مختلطة تضم أعضاء من الإنجليز والروس والعثمانيين والفرس ، أطلق عليها اللجنة المختلطة للحدود The Mixed Boundary Commission ، وكانت بريطانيا قد رأت إشراك الروسيا معها حتى لا تنفرد الأخيرة بعمل انفرادى يؤدي إلى تصعيد الأزمة وازدياد النفوذ الروسى في المنطقة .

واعترض السلطان على تدخل الدولتين البريطانية والروسية في نزاع طرفاه دولتان إسلاميتان . ورأى أن المسألة تخص المسلمين فيجب أن يكون بحثها مقصوراً عليهم ولا شأن للدول المسيحية بهذه المسألة «الإسلامية» . ولكن الدولتين أرغمت السلطان على قبول وساطتهما ، واتخذت اللجنة مدينة أرضروم مقراً لها . وبدأت عملها في ١٥ من مايو - أيار - ١٨٤٣ ، وكانت مهمتها الرئيسية وضع خريطة دقيقة للحدود يرجع إليها عند الحاجة ، وواجهت اللجنة صعوبات جمة في عملها . ووقفت بريطانيا تؤيد الدولة العثمانية في مطالبها في العراق ، وأخذت الروسيا بوجهة النظر الفارسية وتشعبت نقط الخلاف ، واستبان للجنة أن نوسية جميع مشكلات الحدود أمر يتطلب وقتاً طويلاً حتى يستطاع وضع خريطة تفصيلية ، يحدد عليها مكان كل عشيرة في مناطق الحدود وتتبعيتها منعاً لأى نزاع في المستقبل ، ومن ثم رأت اللجنة عام ١٨٤٧ وضع مشروع معاهدة تسجل فيها بعض المشكلات التي تم الاتفاق عليها ، وإرجاء المشكلات الأخرى التي لم يتم الاتفاق عليها ومواصلة بحثها وتسويتها .

(1) Hurewitz, J.C.; op. cit., vol. 1, pp. 90-92.

وعلى هذا الأساس وضعت معاهدة أرضروم الثانية في ٣١ من مايو - آيار - عام ١٨٤٧ وهي معاهدة حدود A boundary agreement ، وبعد إبرام المعاهدة تشكلت لجنة حدود ثانية ، فيها أعضاء إنجليز وروس ، لتسوية مشكلات الحدود المتبقية . ولم تبرز اللجنة الثانية تقدماً يذكر في أعمالها . وعندئذ اقترح بالمرستون إجراء مفاوضات بين حكومات الدول الأربع بدلاً من اللجنة ، فانتقلت المفاوضات إلى عواصم الدول الأربع ، وفي الوقت ذاته ، قامت لجنة ثانية بمسح للحدود من مصب شط العرب جنوباً حتى الحدود المشتركة في الأناضول (١٨٥٧-١٨٦٥) . وكانت المفاوضات قد توقفت بسبب نشوب حرب القرم ، واستفاضة في أثنائها الشائعات بأن فارس ستدخل في هذه الحرب إلى جانب روسيا ضد الدولة العثمانية . وعلى الرغم من أن الشاه صرح بأنه لن يطعن أخاه السلطان العثماني المسلم من الخلف ، كان رشيد باشا الكركلي - والي بغداد - يرى أن احتمال انضمام فارس إلى روسيا هو احتمال قوي ، وأدرك حجم الخطر الجسيم ، الذي يتعرض له العراق لو دخلت فارس الحرب ضد الدولة العثمانية ، ولذلك طلب من الإنجليز أن يرسلوا قوات هندية للإسهام في الدفاع عن العراق ، ولم يكن يدرى أن القنصل البريطاني في بغداد كان يحث حكومته على احتلال العراق ، مذكراً إياها برغبتها في خلال أزمة التوسع المصري في الشام ونجد في تنفيذ هذا المشروع . وأكد لها القنصل أن أوضاع العراق تتطلب إلى حد بعيد احتلال بغداد . ولكن حال دون تحقيق هذه الرغبة تحالف بريطانيا مع الدولة العثمانية ^(١) ، وأخيراً أنجزت لجنة الحدود مهمتها في عام ١٨٦٥ ووضعت خريطة للحدود من جبال أراغات إلى الخليج العربي ، وافقت عليها الدولة العثمانية وفارس وعقدت معاهدة حدود جديدة ^(٢) ، ومع ذلك لم نحل مسألة الحدود بصفة نهائية إلا في أواخر أكتوبر - تشرين أول - عام ١٩١٤ ، عندما قبلت الدولتان بصفة نهائية تحديد الحدود بينهما ^(٣) .

حسبنا أننا ذكرنا ثلاثاً من الولايات العربية الكبرى هي مصر ، ودر الشام ، والعراق ، والتي دخلت تحت الحكم العثماني . أما الأقاليم العربية الأخرى التي خضعت للسيادة العثمانية مثل الحجاز واليمن وأجزاء من منطقة الخليج العربي .. فإن الوجود العثماني لم يكن مستقراً فيها ولم يكن قوياً ولم يكن مستمراً . أما الولايات العربية في شمالي إفريقيا ، وهي التي يطلق عليها الـ *Les Régences* ، وهي حسب ترتيب دخولها تحت الحكم العثماني : الجزائر ، وطرابلس ، وتونس .. فإن قريها من أوروبا لم يفرض عليها عزلة ، بل قام صراع حربي صليبي سافر وعنيف بين البرتغاليين والإسبانيين من ناحية وسكان هذه التباينات من ناحية

(١) دكتور عبدالعزيز سليمان نوار ، تاريخ العراق الحديث إلخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٤٤-٢٤٦ .

(2) Hertslet Ed., op. cit., pp. 167-168.

(3) Hurewitz, J.C.; op. cit., vol. 1, p. 90.

أخرى ، ثم تطور إلى جهاد ديني بحري إسلامي ، حملت لواءه هذه النيابات دفاعاً عن إسلامها وعروبيتها . وقد استطاع هذا الجهاد الديني أمداً طويلاً حتى القرن التاسع عشر . ومما هو جدير بالذكر أن نيابات شمالي إفريقيا كانت أولى الولايات العربية التي تساقطت تبعاً في قبضة الاستعمار الأوروبي ؛ فاحتلت فرنسا الجزائر عام ١٨٣٠ وسطت حمايتها على تونس سنة ١٨٨١ ، أما طرابلس فقد احتلتها إيطاليا عام ١٩١١ .

* * *

نخلص من هذا العرض الموضوعي لمسألة العزلة التي قيل إن الدولة العثمانية قد فرضتها على الأقاليم العربية التابعة لها إلى عدة حقائق :

أولاً : إن الدولة العثمانية قد فتحت منذ وقت مبكر جداً أبواب ولاياتها العربية على مصاريعها للاتصال بأوروبا ، وأبرم السلطان سليم الأول في عام ١٥١٧ معاهدة مع جمهورية البندقية لتعزيز العلاقات الاقتصادية بينها وبين مصر . ثم جاء ابنه السلطان سليمان المشرع فدعم هذا الانفتاح مع أوروبا أمام الدولة العثمانية بما فيها الولايات العربية ، فعقد عام ١٥٣٥ معاهدة الامتيازات الأجنبية مع فرنسا وعقد خلفاؤه معاهدات أخرى متعاقبة ، على غرارها ، مع إنجلترا ودول أوروبية أخرى .

ثانياً : لم تنقطع الصلات بين الولايات العربية ، فلم تكن هناك حواجز أو سدود مصطنعة بين هذه الولايات . وظلت العلاقات الاقتصادية والثقافية والدينية - ويمثل الأخيرة الحج إلى الحجاز - قائمة ومستمرة ووثيقة .

ثالثاً : إن غلق البحر الأحمر في وجه السفن البرتغالية أولاً ثم السفن الأوروبية عامة كان الغرض منه منع اتصال البرتغالي الصليبي إلى هذا البحر واحتلال ثغر جدة تمهيداً للزحف على مكة المكرمة والمدينة المنورة وغيرها من الأماكن المقدسة في الحجاز ثم مواصلة الزحف على تبوك ومنها إلى بيت المقدس في فلسطين . وكان هذا التماسل قد اتخذ من الصليب والمدفع ، شعاراً له ، ثم لمنع الزحف الهولندي والفرنسي والبريطاني على الولايات العربية . وكان غلق البحر الأحمر أمام السفن الأوروبية بمثابة إجراء أمن داخلي وخارجي للحدود الشرقية للممتلكات العثمانية ، واتخذت الدولة من اليمن خط دفاع ، ورأت عدم الخروج إلى المحيط الهندي ؛ لأن صراع الدول الأوروبية مع الدولة العثمانية كان يدور في معظم مراحلها فوق البحار . وكانت الدولة الأوروبية تملك من أسباب القوة البحرية أضعاف ماكانت تملكه الدولة العثمانية في البحار الشرقية . وكانت القوات الصاربية الرئيسية للدولة قوات برية ، ولم تكن قوات بحرية ؛ فالمعارك لم تكن متكافئة من حيث نوعية السلاح . وكانت الدولة العثمانية تضع نصب عينها النجاح

الذى حققه الاستعمار الأوروبى فى استيلائه على الهند وغيرها من الأقاليم الواقعة فيما وراء البحار ، وكانت الدولة تخشى أن تصيب الدول الأوروبية الاستعمارية نجاحاً على غرارها باستيلائها على ولاياتها العربية البعيدة عنها ، فطلت متمسكة بسياسة غلق البحر الأحمر أمام السفن الأوروبية حتى القرن الثامن عشر ، ثم تخلت عن هذه السياسة مرحلياً لظروف كانت خارجة عن إرادتها .

رابعاً : إن غلق البحر الأحمر فى وجه السفن الأوروبية لم يمنع السفن الإسلامية من أن تعمّر عبابه ، محملة بشحنات من البضائع الشرقية فضلاً عن بعض محاصيل ومنتجات اليمن والحجاز وغيرها من الأقاليم الواقعة على ساحل هذا البحر . وكانت السفن الإسلامية تبدأ رحلاتها من ثغر المخا فى اليمن وترتفع إلى ثغور البحر الأحمر مثل جدة وسواكن والسويس^(١) .

خامساً : إن نظرة الشعوب العربية إلى أوروبا كانت قائمة على الحذر والشك ؛ لأن رواسب الحروب الصليبية فى الشرق العربى كانت لا تزال عالقة فى أذهان الجماهير .

سادساً : حدث انفتاح بين مصر وى الشام والعراق من ناحية أوروبا من ناحية أخرى فى القرن الثامن عشر ، ثم اتسعت فى القرن التاسع عشر أبواب هذا الانفتاح وتعددت مجالاته وكثرت شرايينه ، وكانت لكل ولاية عربية ظروفها فى الأخذ بسياسة الانفتاح . وهذه الظروف هى التى حددت حجم ونوعية هذا الانفتاح ، فظروف كل من مصر وى الشام والعراق كانت تختلف بعضها عن بعض .

* * *

(١) انظر معلومات أكثر تفصيلاً عن العلاقات التجارية بين الولايات العربية بعضها وبعض وعن دور الحج فى تنشيط العلاقات التجارية بينها ؛ نظراً لإعفاء بضائع الحجاج من الرسوم الجمركية وعن التفتيش وعن علاقات الولايات العربية فى مياادين التجارة مع أوروبا :

Gibb Hamilton and Bowen Harold; op. cit., Vol. 1., Part 1, pp. 299-313.

الفصل الرابع

صور من حملات التشهير بالدولة (٤)

السلطان العثماني رجل أوروبا المريض

نشأة قصة المريض المشرف على الموت :

من حملات التشهير بالدولة إطلاق عدة مسميات أو صفات على السلطان العثماني ، فهو «المريض الذي لا يرجى شفاؤه» و «المريض المشرف على الموت» و «رجل أوروبا المريض» . وقد أطلقت هذه المسميات ، أول ما أطلقت ، في المجال الدبلوماسي المتعلق وعلى أعلى المستويات . ولكن لم تَمُضْ سنوات ذات عدد حتى أذيعت هذه المسميات وما أحاطت بها من ملاحظات في الخمسينيات ، من القرن التاسع عشر . ووقف عليها الرأي العام في بريطانيا ثم انتقلت إلى سائر الدول الأوروبية ، وتلقفها المؤرخون والباحثون ورجال السياسة المتحاملون واتخذوا منها مادة للتشهير بالدولة العثمانية . وسواء كانوا هذا التوجيه بإيعاز من حكومات بعض الدول الأوروبية ، أو جاءت كتابتهم بوحى من تفكيرهم وحدهم ، فقد كان الهدف هو النيل من الدولة والإعداد للفكرى المسبق لدى الشعوب الأوروبية بأن سقوط الدولة العثمانية أمر وشيك ، وأن نهايتها السريعة آتية لا ريب فيها .

كانت عبارة «رجل أوروبا المريض The Sick Man of Europe» ، وأمثالها قد صدرت أولاً عن نيقولا الأول قيصر روسيا (١٨٢٥-١٨٥٥) في حديث جرى سنة ١٨٤٤ بينه وبين أبردين Aberdeen رئيس وزراء بريطانيا في وندسور Windsor في إنجلترا ، وكانت تجمع بين الاثنين صداقة وثيقة . والحق أن هذا التصريح لم يكن جديداً على القيصر ، فقد سبق أن أعلن رأياً يتفق في لحنه وسداه مع هذا التصريح ، وإن كان أشد عنفاً وأكثر بعداً عن اللباقة الدبلوماسية ، حين صرح عام ١٨٣٣ بقوله «ليس في استطاعتي أن أبعث الحياة في الموتى . إن الإمبراطورية العثمانية دولة ميتة ، وليس لدى ثقة في أن يستمر هذا الجسم العجوز محافظاً على الحياة . إنه في حالة انحلال في جميع النواحي» .

"I have no power to give life to the dead, and the Turkish Empire is dead. I have no confidence in this old body preserving life, it is in dissolution from all sides".^(١)

(١) دكتور محمد مصطفى صفوت : المسألة الشرقية ومؤتمر باريس ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٧ .

ثم أعاد القيصر عبارة رجل أوروبا المريض وعبارات أخرى على شاكلتها في شهر يناير - كانون ثان - عام ١٨٥٣، قبيل نشوب حرب القرم، في ثانيا حديث مع سير هاملتون سيمور Sir Hamilton Seymour السفير البريطاني لدى البلاط الروسي. وكان صديقاً حميماً له، ومع غيره من رجال السياسة. وكانت هذه الأحاديث تدور حول اعتقاد نيقولا الأول أن سلطان الدولة العثمانية رجل مريض للغاية، وقد يلفظ أنفاسه الأخيرة فجأة. وأن من الخير للسلام العالمي أن تفكر الدول ملياً في توزيع ممتلكاته قبل وفاته، وأعرب عن رأيه في إمكان تسوية الأمور بين بريطانيا والروسيا دون حاجة إلى قيام أي حرب.

وكان مشروعه لاقسام ميراث رجل أوروبا المريض يقوم على الأسس الآتية :

أولاً : تحتل للروسيا الأستانة، ولكن لاتضمها إليها .

ثانياً : ترابط القوات الروسية في البوسفور، وترابط القوات للنمساوية في الدردنيل .

ثالثاً : تستقل ولايتا الدانوب، وهما الأفلاق والبلغدان، وكذلك الصرب وبلغاريا. ولكن تكون هذه الدول تحت حماية روسيا؛ أي يكون استقلالها استقلالاً مزيغاً .

رابعاً : تحتل بريطانيا مصر، ولها إذا شاعت أن تستولى على جزيرة كريت .

وقد أثار عرض القيصر شكوك بريطانيا واعتقدت أن نواياه هي القضاء على الدولة العثمانية. ولذلك لم تأخذ به لسببين : أولهما، أنها كانت لاتزال متمسكة بسياستها التقليدية تجاه الدولة العثمانية، وهي المحافظة على سلامة الدولة وتماسك ممتلكاتها، وثانيهما أنها كانت تشك في إخلاص قيصر روسيا في تقديم مشروعه، لأنها علمت أنه عرض سراً على فرنسا الاستيلاء على جزيرة كريت. ولما نشبت حرب القرم، نشرت الحكومة البريطانية وثائق تلك المحادثات لتكشف للرأي العام الأوروبي الأغراض الحقيقية للروسيا من دخولها الحرب^(١). وقد ظلت بريطانيا متمسكة بسياستها التقليدية تجاه الدولة العثمانية حتى عام ١٨٧٨، ثم تخلفت عنها على عهد الوزارة الثانية، التي شكلها بنيامين دزرائيلي اليهودي، وقد شكلها في فبراير - شباط - ١٨٧٤^(٢) وتسمى عام ١٨٧٦ باسم لورد بيكونزفيلد Beaconsfield، فاحتلت بريطانيا جزيرة قبرص عام ١٨٧٨، ثم مصر عام ١٨٨٢ على عهد وزارة جلاستون الثانية. ومما

(١) انظر كلاً من :

Grant A. and temperley H.; op. cit., pp. 212-213, fn. 1.

Temperley H.; England and the Near East : The Crimea. 1936, pp. 233-237.

دكتور محمد مصطفى صفوت : مؤتمر برلين إلخ، مرجع سبق ذكره، ص ٢٦-٢٨.

(٢) بقيت هذه الوزارة في الحكم حتى شهر أبريل - نيسان - عام ١٨٨٠، وخلفها وزارة جلاستون حتى شهر يونيو - حزيران - عام ١٨٨٥.

يذكر أن لورد سالزبوري Salisbury إبان وزارته الثالثة (١) قد صرح في حديث له جرى عام ١٨٩٥ مع دى كورسيل de Courcel ، السفير الفرنسى فى لندن، بأنه أسف أشد الأسف لأن الحكومة البريطانية رفضت مشروع تقسيم الدولة العثمانية الذى عرضه عليها نيقولا الأول قيصر روسيا عام ١٨٥٣ ، وقال إن الحكومة البريطانية قد ساندت الحصان الخاسر. backed the wrong horse. ، وهكذا واكبت بريطانيا الدول الأوروبية وعلى رأسها روسيا والنمسا فى خطتها التدميرية للدولة العثمانية (٢) .

مسئولية أوروبا :

هذا المرض الذى انتاب السلطان العثمانى إنما هو تعبير دبلوماسى قصد به الضعف السياسى والعسكرى ، بعد أن بلغا بالدولة حد الاضمحلال والتدهور فى القرن التاسع عشر . حقيقة كان جانب من الضعف الذى أصاب الدولة يرجع إليها ، وسنقدم فصلاً عن المآخذ على الدولة نعرض فيه لمسئوليتها عن هذا التدهور . ولكن كانت الدول الأوروبية الكبرى هى المسؤولة عن جانب كبير من ذلك الضعف الذى ألم بالدولة .. أخذت روسيا والنمسا أول الأمر بسياسة التوسع الإقليمى على حساب ممتلكات الدولة العثمانية فى وسط أوروبا وفى حوض الدانوب وعلى حدوده وعلى سواحل البحر الأسود وشبه جزيرة البلقان ، وتغلغت روسيا فى القرم وأرمينيا وابتلعت معظم آسيا الوسطى والقوقاز . وأصبحت هاتان الدولتان فى حالة حرب لم تكد تنقطع مع الدولة العثمانية حتى استنفدتا قوة الدولة وحيويتها ولم تعطيها قسطاً طويلاً من الراحة لالتقاط أنفاسها أو لاستعادة حيويتها . ثم انضمت فرنسا إلى ركبهما فاحتلت الجزائر ثم وضعت تونس تحت حمايتها . ونهجت بريطانيا هذا النهج فاحتلت جزيرة قبرص ثم مصر بما فيها قناة السويس . واحتلت إيطاليا جزر الدوديكانيز وولايتى برقة وطرابلس . وهكذا اتبعت روسيا والنمسا وفرنسا وبريطانيا وإيطاليا سياسة عدوانية تجاه الدولة ، استهدفت تمزيقها وتوزيع ممتلكاتها أسلاباً فيما بينها . ووجهت الدولة ثورات عنيفة قامت بها الشعوب المسيحية الخاضعة لها . ودأبت روسيا والنمسا على تحريك هذه الشعوب ثورياً بدافع الشعور القومى حياً، وبمقولة إنه يجب ألا تخضع هذه الشعوب لسلطان مسلم جاهل متبرير حيناً ثانياً . وادعت

(١) ألف لورد سالزبوري ثلاث وزارات :

(أ) الوزارة الأولى وقد تالفت فى شهر يونيو - حزيران - عام ١٨٨٥ .

(ب) الوزارة الثانية وقد تالفت فى شهر أغسطس - آب - عام ١٨٨٦ وظلت فى الحكم إلى شهر أغسطس

- آب - عام ١٨٩٢ .

(ج) الوزارة الثالثة وقد تالفت فى شهر يونيو - حزيران عام ١٨٩٥ وظلت فى الحكم إلى شهر يوليو -

تموز - عام ١٩٠٢ .

انظر :

Ensor R.C.K., of. cit., pp. 608-611,

(2) Taylor A.J.P. op.; cit., p. 359.

الروسيا لنفسها حق حماية الرعايا الأرثوذكس في الدولة العثمانية . ورأت فرنسا ضرورة حماية اللاتين ورجال الدين الكاثوليك في الدولة . ولم يكن أحد من هذين الطرفين مستعداً لقبول المساومة أو التحكيم . ثم بسطت فرنسا حمايتها على الموارنة في لبنان ، وبسطت بريطانيا حمايتها على الدروز في الجبل . وهكذا تسابقت أوروبا المسيحية المتحضرة على التهام ولايات دولة إسلامية ، وإنشاء مناطق نفوذ لها في ولايات أخرى ، وفرض معاهدات غير متكافئة على الدولة ، ونهب ثرواتها .

لقد أرادت الدولة الأخذ بسياسة الإصلاح وتطوير نظمها في الحكم والإدارة وتحقيق المساواة بين رعاياها دون تفرقة بين مسلم وغير مسلم . وأصدرت من أجل الإصلاح فرمانين مشهورين هما : خطي شريف جلخانه ، عام ١٨٣٩ و ، خطي همايوني ، عام ١٨٥٦ ووجدت أن نظام الامتيازات الأجنبية يقف حجر عثرة في سبيل تنفيذ الإصلاحات المنشودة . وكان هذا النظام يجعل الأجانب في الدولة بمنأى عن الخضوع للسلطات التشريعية والقضائية والتنفيذية . وطالبت الدولة عقب حرب القرم مباشرة الدولة الأوروبية ، التي كانت متحالفة معها في هذه الحرب المرافقة على إلغاء هذا النظام . فأجابت بأنها لاتقر إطلاقاً إلغاء هذا النظام . وتكررت محاولات الدولة وتكرر رفض الدول ، ولو كانت نيات الدول الأوروبية خالصة نحو الدولة لاستجاب لطلبها . ولكنها ذهبت إلى أبعد من ذلك ففرضت رقابة دولية ضارية على شئونها المالية وفتحت أبواب بلادها على مصاريحها أمام جمعيات عثمانية سرية ، تتآمر على سلامة الدولة . ومع ذلك فإن رجل أوروبا المريض الذي لم يكن يرجى شفاؤه عام ١٨٥٣ ظل يقارم الزحف الاستعماري الأوروبي في شتى صوره وأشكاله ما استطاع إلى هذه المقاومة سبيلاً ، ويعمل على إدخال الإصلاحات ما وسعته الإمكانيات وسط ظروف متناهية في صعوبتها وظلامها وأخطارها ، ولم تتحقق نبوءة قيصر الروسية فطلت الدولة قائمة سبعين عاماً حتى سقطت عقب الحرب العالمية الأولى ، وتوارى رجل أوروبا المريض إلى مغيب .

إجراء مذابح دينية عامة

بين رعايا الدولة المسيحيين

وهناك مسألة خاص فيها المؤرخون والباحثون المتعاملون على الدولة العثمانية ، ونعرا عليها في استفاضة غير عادية قيامها بإجراء مذابح دينية عامة بين أفراد بعض الطوائف المسيحية الخاضعة للدولة ، وأدعوا عنها أنباء مبالغ فيها إلى حد بعيد ، ونظروا إليها على أنها بقعة سوداء في تاريخ الدولة ، والأمر العجيب أن الغالبية العظمى من هذا الفريق من المؤرخين والباحثين لم يتكلموا قط عن المذابح العامة ، التي تعرض لها رعايا الدولة المسلمون على أيدي المسيحيين . ويلاحظ أيضاً أن القلة الضئيلة العدد من المؤرخين الذين تكلموا عن مذابح

المسلمين ، لم يتعرضوا لها إلا بشكل عام فى بضع كلمات ، لم تتجاوز سطراً واحداً فى الوقت الذى لم يغادروا صغيرة ولاكبيرة من تفاصيل مذابح المسيحيين إلا أحصوها وأبرزوها ، بل وبالغوا فيها . ويلاحظ عليهم جميعاً أنهم أغفلوا أو تجاهلوا عدة حقائق ، منها : أن أفراد الطوائف المسيحية هم الذين كانوا يبدأون بذبح جموع المسلمين ، وأن هذه المذابح كانت تحدث فى المناطق التى يتكاثر فيها عدد المسيحيين ، ويقل فيها عدد الرعايا المسلمين فيكون الأخيرون صيداً سهلاً فى أيدي المسيحيين ، وأن السلطات العثمانية كانت تفاجأ بوقوع هذه المذابح على أيدي جمعيات ثورية إرهابية ، تكررت وتدرت خارج حدود الدولة بعلم وتشجيع حكومات بعض الدول الأوروبية ، فكان لامنوحة للدولة العثمانية عن مقابلة هذا العدران على رعاياها المسلمين بعدوان على غرارها على الطوائف المسيحية ، التى اشتركت فى ذبح المسلمين لحصر هذه المذابح فى نطاق ضيق ، ومنع انتشارها فى مناطق عثمانية أخرى .

بواعث الدولة على إجراء المذابح الدينية :

هناك عدة عناصر هامة تتصل اتصالاً وثيقاً بمسألة المذابح الدينية ، تحكمت فى موقف الدولة فأملت عليها اتخاذ هذا الإجراء . ونحن لانسوق هذه العناصر دفاعاً عن الدولة ، بل للإحاطة بكافة جوانب هذه المسألة ؛ حرصاً منا على التزام الموضوعية والحيادة فى هذه الدراسة . كان للرأى العام الإسلامى فى الدولة بعمامة وفى إستانبول بخاصة وكذلك أعضاء الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة ثلث تأثيرهم ، عندما نترامى إلى مسامعهم أبناء ذبح المسلمين فى ولايات الدولة . وسنرى بعد قليل أن المظاهرات الصاخبة كانت تطوف فى شوارع العاصمة تنادى بضرورة الرد على هذه المذابح ، وتحمل السلطان الحاكم مسئولية تعرض الرعايا المسلمين للذبح ويتهمه بالتقاعس عن أداء واجبه . وقد سبق أن ذكرنا مراراً فى هذه الدراسة أنه للحكم على حادث وقع فى عصر سابق .. يجب أن يوضع فى الاعتبار الأول التقاليد والعادات ، التى كانت سائدة فى ذلك العصر ، ولانقيس الحادث بمعايير الوقت الحاضر . ومع ذلك ففى التاريخ المعاصر ، لاتزال تقع مذابح عامة بين طوائف من السكان فى بعض الدول ، على الرغم من أن هيئة الأمم المتحدة قد أصدرت الإعلان العالمى لحقوق الإنسان على امتداد الساحة العالمية فى اليوم العاشر من شهر ديسمبر - كانون أول - عام ١٩٤٨ أى منذ أكثر من ثلاثين عاماً . أما العنصر الثانى فكان يتمثل فى أن هذه المذابح الدينية قد حدثت فى القرن التاسع عشر حين كانت الدولة تمر بدور عصيب من أدوار اضمحلالها والذى انتهى بزيالها عقب الحرب العالمية الأولى . وفى هذا الدور تعرضت جيوشها لهزائم حربية أليمة متعاقبة أو خاضت معارك ضارية متتالية ، مما أدى إلى أن تصاعد الإنفاق العسكرى بسبب هذه وتلك ، وزادت القروض المالية الخارجية عدداً وحجماً ؛ مما أدى إلى ارتباكات مالية حادة فى الموازنة العامة للدولة ، وأعلنت سنة ١٨٧٥ عجزها عن سداد فوائد القروض المتركمة عليها لمدة خمس

سنوات^(١) ، فأساء هذا التصرف إلى سمعة الدولة وأفقدتها عطف الحكومات والأنصار في إنجلترا وفرنسا ، وأثار كثيراً من الشكوك حول قدرتها على البقاء دولة متماسكة .

فكانت الحالة النفسية للعثمانيين هابطة ، وأرادوا أن يثبتوا لأوروبا بعامة ولرعاياهم المسيحيين بخاصة أنهم قادرون على توجيه ضربات مماثلة لهم . وكان العنصر الثالث هو مبدأ المعاملة بالمثل ، وهو مبدأ تأخذ به دول عديدة في كثير من الحالات . ولعل هذا السبب هو الذي حدا ببعض المؤرخين إلى القول بأن المذابح الدينية التي أقدم عليها العثمانيون قد تعددت وبرزت في تاريخ الدولة العثمانية كلما ازدادت هذه الدولة ضعفاً . وغفل هذا الفريق من المؤرخين عن حقيقة هامة ، هي أن تلك المذابح لم تحدث إلا نتيجة ثورات هادرة قامت بها الشعوب المسيحية للانفصال عن الدولة ، وأنها اتخذت من تلك المذابح وسيلة لتحقيق هدفها . ولم يسبق أن اشتعلت ثورات ، صاحبها مذابح حين كانت الدولة قوية منيعة مهيبية الجانب .

كان من نتائج الأسلوب الذي عالج به ذلك الفريق من المؤرخين والباحثين المتحاملين مسألة المذابح الدينية العامة أن علق في أذهان الكثيرين أن الدولة العثمانية كانت دولة متبربرة يحل لها من وقت إلى آخر إجراء مذابح عامة بين أفراد الشعوب المسيحية الخاضعة لها ، وأن هدفها هو استئصال المسيحية من شرقي أوروبا ونصفية الوجود المسيحي منها .

المذابح الجماعية بين المسلمين

والمسيحيين في اليونان

خطط اليونانيون للثورة استهدفوا منها بصفة أساسية تحرير أنفسهم من سيطرة العثمانيين ، الذين كانوا يختلفون عنهم في الدين والجنس واللغة والتقاليد والعادات والثقافة . وقد مرت هذه الثورة بمرحلتين . تولت قيادة المرحلة الأولى والتخطيط لها جمعية الإخوان Philiké Hetairia ، وهي جمعية سرية تكونت في سنة ١٨١٤ في ثغر أوديسا على الساحل الشمالي للبحر الأسود ، وانضم إليها كل ذى حيلة من اليونانيين في الدولة العثمانية . وانتخب إسكندر هيسلنتي Alexander Hyselantes أحد كبار ضباط الجيش الروسي رئيساً لها ، أملاً في أن تظهر الجمعية بتأييد قيصر روسيا ، وكان برنامج الجمعية متشعباً :

استقلال اليونان ، وطرد العثمانيين من أوروبا ، وبعث الدولة البيزنطية ، واستعادة إستانبول - القسطنطينية - عاصمة لها . ورأى هيسلنتي أن تبدأ الجمعية نشاطها الثوري في

(١) عقدت الدولة أكثر من أربعة عشر قرصاً حتى وصل الدين العثماني إلى مائتي مليون جنيه إسترليني بفائدة سنوية قدرها ١٢ مليون جنيه . وكانت النتيجة الأولى تأسيس البنك العثماني سنة ١٨٦٣ برعاية فرنسي، وبتولي وكالة إنجليزى كشركة فرنسية بريطانية ، أسهمت أكثر من أى هيئة في استنزاف ثروات الدولة وادت بها إلى الإفلاس .

ولايتي الدانوب - الأفلاق والبلغدان^(١) - فقد كان يحكم كل ولاية منهما حاكم يوناني من الفغاريتين^(٢) Phanariotes يطلق عليه هوسبودار Hsopodar . وكان السلطان العثماني يعينهما ، ويؤديان له الجزية . كما كانت غالبية السكان من المسيحيين ، بينما كان المسلمون فيهما يشكلون أقلية عديدة . ونزل رئيس الجمعية مع أتباعه في ولاية مولدافيا في السادس من شهر مارس - آذار - عام ١٨٢١ ، ودخلوا عاصمتها وأذاع بلاغاً حريياً ، كان مما جاء فيه أن قوة عسكرية رهيبة قد تم إعدادها لمعاقبة العثمانيين على جرأتهم ، وهي تعزم إبادتهم عن بكرة أبيهم .

وفي الوقت ذاته جردوا القوة العثمانية المرابطة في العاصمة من أسلحتها . وكان عدد أفرادها قليلاً ، ثم شرعوا في إجراء مذابح عامة بين المسلمين سكان جالاتز Galatz وچاسي Jassy ، وقد أخذوهم على غرة ونالوا منهم مثلاً عظيماً لأنهم كانوا قلة . وأقر رئيس الجمعية المجازر البشيرة التي ذهب ضحيتها ألوف المسلمين في هاتين المنطقتين وفي غيرها ، وانتقل رئيس الجمعية مع أعوانه إلى الولاية الأخرى ، والأشياء وتتأدى الرعايا المسيحيين إلى الثورة على العثمانيين . وقد فشلت الثورة في المرحلة الأولى لعدة أسباب ليست هذه الدراسة موطناً لعرضها . وبهذه أن نذكر أن اليونانيين في المرحلة الأولى للثورة هم الذين بدأوا عمليات الذبح الجماعي للمسلمين . ولما علم السلطان محمود الثاني بما اقترقه الثوار اليونانيون ، أمر بذبح بعض اليونانيين في إستانبول ممن حامت حولهما التشبهات في أنهم كانوا من بين المخططين للثورة أو الضالعين معها ، كما استطاع الجيش العثماني إخماد الثورة في غير عذاء . ولكن ما لبثت الثورة أن انتقلت إلى الجنوب في بلاد المورة وهي المهة الأول لليونانيين ، والتي قامت في أرجائها الحصار الإغريقية بمظاهرها الرائعة في العصور القديمة ، كما امتدت الثورة إلى الجزر اليونانية .

وبدأت الثورة مرحلتها الثانية^(٣) . وكان هدفها في هذه المرحلة مقصوراً على استقلال

(١) رومانيا حالياً . وكان يطلق على هاتين الولاياتين أيضاً مولدافيا وولاشيا .

(٢) نسبة إلى حي الفغار في إستانبول ، وكان يسكن هذا الحي الأرستقراطية اليونانية .

انظر في هذه الدراسة الفصلين الثالث والثالث عشر - الجزء الأول .

(٣) لم يشترك هيسلنتي في المرحلة الثانية ، لأنه لما أخفقت الثورة في مرحلتها الأولى خشى على حياته وترك جنوده لمصيرهم وفكر في ضمان سلامته . ورأس إليهم خطاباً انطوى على أكاذيب ، كان من بينها أن تلقى رسالة من السلطات العليا في النمسا ، تطلب منه الذهاب إليها ليناقتش مع إمبراطور النمسا مخطط مواصلة العمليات الحربية ضد الدولة العثمانية ؛ لأن الإمبراطور يريد أن تشترك القوات النمساوية في الحرب . وتسلسل هيسلنتي مع أخوين له إلى النمسا . ولكنه لم يكذب عبر الحدود النمساوية حتى أمر مترينغ بالقبض عليه وأودعه المعتقل حيث ظل فيه ست سنوات إلى أن مات في منفاه سنة ١٨٢٨ ، انظر :

Miller W.: op. cit., p. 68.

اليونان فقط . ولم يكن من أهدافها طرد العثمانيين من أوروبا أو إحياء الدولة البيزنطية . واشتعلت الثورة فى پتراس Patras فى أبريل - نيسان - عام ١٨٢١ . وأوقع الثوار المسيحيون بالمسلمين مذبة رهيبه . ثم امتدت الثورة عبر مضيق كورنث Corinth إلى الشمال فى مقدونيا و تراقيا Thessalie . واحتل الثوار تريبوليتزا Tripolitza مقر السلطات العثمانية فى المورة ، ومنحوا بالمسلمين أقطع تمثيل . ولم يقل عدد المسلمين واليهود الذين ذبحهم الثوار اليونانيون فى هذه المدينة عن ثمانية آلاف شخص ، تركت جثثهم فى العراء مما أدى إلى انتشار أوبئة فتكت باليونان فنكاً ذريعاً . وداعت أغنية شعبية بين الثوار جاء مطلعها على هذا النحو : يجب ألا يبقى عثمانى واحد فى بلاد المورة ، وقد ترجمها الثوار من الناحية العملية بذبح آلاف المسلمين فى أنحاء شبه جزيرة المورة . وأسهم رجال الدين اليونانيون إسهاماً فعلياً فى المذابح العامة التى ارتكبها الثوار الثنائيون فى المورة ؛ مما أضفى على الثورة اليونانية الطابع الدينى إلى جانب الطابع القومى ، وكان الثوار قد لجأوا إلى الرأى العام الأوروبى يستغيثونه لمساعدة شعب مسيحى فى نضاله للتخلص من حاكم مسلم هو السلطان العثمانى .

وكانت الحكومات الأوروبية قد وقفت أول الأمر موقف الحيدة ، ولقيت استغاثة الثوار استجابة من الشعوب المسيحية على الرغم من اختلاف المذاهب الدينية المسيحية بين هذه الشعوب والثوار . فقد كان يؤلف بين الفريقين وحدة الهدف وهو إنزال الهزيمة بالسلطان العثمانى المسلم ، الذى يحكم شعباً مسيحياً لأول مرة فى شرقى أوروبا . وفضلاً عن ذلك كان الأوروبيون ينظرون إلى الثوار اليونانيين على أنهم سلاله هوميروس وحفدة بركليس . وتألقت لجان فى باريس ولندن وجنيف لمساعدة الثوار وإمدادهم بالأموال والأسلحة والمتطوعين ، وكان أشد المتحمسين لهم بيرين Byron الشاعر الإنجليزى الذى ذهب إلى المورة فى أغسطس - آب - عام ١٨٢٣ ليثير مزيداً من الحماس فى نفوس اليونانيين وتكثيف عدد الثوار . وقد توفى فى مدينة مسكولونجى Mescologhi فى اليوم التاسع عشر من شهر أبريل - نيسان - عام ١٨٢٤ ، ونظر إليه للثوار على أنه من أبطال الثورة ، وأقام له الشعب اليونانى فيما بعد التماثيل فى عدة مدن وأطلق اسمه على شوارع المدن والقرى الجبلية وفاء لذكراه .

ولم يقف السلطان محمود الثانى مكتوف اليدين إزاء هذه الثورة وما تخطلها من مذابح عامة ، فقد اتخذ عدة إجراءات . كان من بينها إرسال قوات عسكرية لإخماد الثورة ، ولكنها فشلت فى إنجاز مهمتها . وكان الإجراء الثانى هو إجراء مذابح عامة بين كبار اليونانيين مثل باش ترجمان الباب العالى^(١) وعدد من كبار القناريين . ولما اتسع نطاق مذابح المسلمين على يد الثوار ، واشترك بعض رجال الدين اليونانيين فى العمليات الحربية وفى ذبح المسلمين أمر

(١) يطلق عليه كبير مترجمى الباب العالى أو الترجمان الأول .

السلطان بذيح جريجورى الخامس بطريرك الكنيسة اليونانية فى إستانبول . وعلقت جثته ثلاثة أيام على بوابة قصره ، ثم جاء اليهود وأنزلوا الجثة وطافوا بها فى شوارع العاصمة ، وهى على الأرض ثم ألغوا بها فى البحر^(١) ، ولم ترهب الفوار المذابح التى أمر بها السلطان فمضوا يفتحون الحصون ويفتكون بحامياتها وبالمذنبين المسلمين فى المناطق القريبة منها على نحو ما فعلوا فى تريبولتزا . ورد العثمانيون عليهم بإجراء مذابح فى جزيرة خيوس Chios وغيرها . وكان النصر حليف الثوار فى الفترة من سنة ١٨٢١ حتى سنة ١٨٢٥ لتفوق اليونانيين فى البحر ولتدقق المساعدات العسكرية والمالية على الثوار . ولم يتغير المركز الحربى للطرفين إلا بعد أن استعان السلطان بمحمد على باشا وإلى مصر.. فأرسل حملة بقيادة ابنه إبراهيم نزلت فى المورة فى فبراير - شباط - ١٨٢٥ ، وأنزلت الحملة المصرية بالثوار هزائم اليمية متلاحقة مما أدى إلى تدخل الدول الأوروبية . وكانت روسيا قد أعلنت أنه لا بد من التدخل لإنقاذ الشعب اليونانى من الغناء^(٢) ، وقررت منح الثوار الاستقلال الذاتى لليونان ثم جعلته مستقلاً تماماً تضمنه الدول الأوروبية الكبرى ؛ كى تغل يد روسيا عن التدخل فى شئون اليونان إذا بقيت مستقلة استقلالاً ذاتياً . ويعد منح اليونان الاستقلال التام من أهم معالم الدراسات التاريخية البلغانية ، كما أنه يمثل مرحلة من مراحل انكماش رقعة الدولة العثمانية فى أوروبا .

مذابح المسلمين فى بلغاريا

بينما كان كبار ساسة أوروبا يفكرون فى كيفية قضاء عطلتهم فى مستهل صيف ١٨٧٥ ، ويعتقدون أن فى استطاعتهم قضاء فترة راحة طويلة بعد أن تمت تسوية الأزمة الفرنسية الألمانية ، فوجئوا بقيام ثورة فى الهرسك والبوسنة . ولم يعبأ أحد بهذه الثورة أول الأمر غير إجناتيف Ignatiev السفير الروسى فى إستانبول ، وكان الرأى السائد لدى رجال السياسة أنها من الثورات العادية الوقوع فى الدولة . ولكن لم يكد يمر شهر واحد حتى اضطروا إلى توجيه أنظارهم نحو البلقان ونحو الدولة العثمانية ، ومن سوء حظ الأخيرة أنها تهافت فى إخماد الثورة وفشلت فى القضاء عليها ؛ إذ سرعان ما امتدت الثورة إلى الشعوب البلغانية المجاورة منتهزة هذه الفرصة للاستقلال نهائياً عن الدولة العثمانية ، وكان البلغاريون من بين هذه الشعوب . واكتسبت ثورتهم أهمية خاصة ؛ لأن عدداً من الحكومات والشعوب الأوروبية اتخذت منها مادة خصبة للتشهير بالدولة العثمانية ابتغاء استغزاز الرأى العام الأوروبى ، وإعادة فتح باب المسألة الشرقية . وتوزيع ممتلكات الدولة أسلاباً بين الدول الأوروبية .

اشتعلت الثورة هادرة فى بلغاريا فى شهرى مايو ويونيو - آيار وحزيران - عام ١٨٧٦ ،

^(١) تسال بعض اليونانيين فى ظلمة الليل وانتشلوا جثة البطريرك من البحر ، وأبحروا بها إلى أوديسا حيث تم دفنها ، ثم نقلت الجثة بعد خمسين عاماً إلى الكاتدرائية الكبرى فى أثينا حيث نجت .

(2) Grant A.J. and Temperley Harold; op cit., p. 204.

وكانت روسيا وراء هذه الثورة . وكانت قد بدأت في شكل عصيان في سبتمبر وأكتوبر - أيلول وتشرين أول - من العام السابق ، واستطاعت الدولة أن تقضى عليها في مهدها بواسطة باشي بوزوق عساكرى أى قوات غير نظامية أرسلتها إلى بلغاريا . ولكن حدث أن تسال عملاء روس في أوائل شهر أبريل - نيسان - عام ١٨٧٦ إلى هذه الولاية ، وخططوا لثورة يقوم بها السكان المسيحيون الصغالية الأرثوذكس - وتجمعهم مع الروس وحدة الجنس والعقيدة والمذهب الدينى - وقام هذا للتخطيط على تحريك ثورة تبدأ بمذابيح عامة يقوم بها الثوار ضد المسلمين . وفى الوقت ذاته ، ينشط الثوار فى إشعال الحرائق فى عدة مدن . وذكر العملاء أن الروس قد صحت عزيمتها على شد أزر الثوار وعلى تدخل قواتها لتأييدهم ، إننا تعرضوا لهزيمة وتعميض خسائرهم . وتدفقت الأسلحة والأموال سراً إلى الثوار عن طريق ولاية الأفلاق ، وهى جزء من رومانيا الحالية وتجاور بلغاريا . وكانت الاتصالات للتخطيط للثورة قائمة على قدم وساق بين عملاء الروسيا والبلغاريين . وكانت الاجتماعات تتم تارة فى بلغاريا ، وتارة أخرى فى رومانيا، التى ازدحمت بعدد كبير من البلغاريين على اختلاف نوعياتهم .

وكان من أسباب تذمر البلغاريين أن الدولة العثمانية قد أنزلت فى بلغاريا عائلات من الشراكسة هربوا من حكومة الروسيا طلباً للاحتماء بالدولة . وانتهز عملاء الروسيا فرصة هذه الهجرات الإسلامية ، التى تمت تحت إشراف السلطات العثمانية ، فأخذوا فى روع البلغاريين أن الدولة تبغى إقطاع أراضيهم لهؤلاء الشراكسة واستبعاد المسيحيين أصحاب البلاد الأصليين .

إنشاء الإكساركية البلغارية :

وفوق هذا كله كان هناك سبب هام جداً شجع البلغاريين على القيام بثورتهم ؛ فقد ازدادوا عتواً وجبروتاً واعتزازاً بقوميتهم وبأنفسهم بعد أن أصدر السلطان عبدالعزيز فرماناً مؤرخاً فى اليوم الحادى عشر من شهر مارس - آذار - عام ١٨٧٠ بإنشاء كنيسة خاصة بهم مستقلة عن الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية - اليونانية - فى إستانبول ، وبذلك تحرر البلغاريون الأرثوذكس من نفوذ البطريرك اليونانى فى إستانبول ، والذى كانت له زعامة دينية على جميع الصغالية المسيحيين فى بلاد البلقان مثل البلغاريين والصرب . ونص هذا فرمان على أن يكون بطريرك الكنيسة الجديدة من أهل بلغاريا ، وأن تصدر «براءة» أى أمر سلطانى بتعيينه فى منصبه . وكان يطلق على شاغل هذا المنصب الدينى الرياسى لقب إكسارك Exarch ومن هذه اللفظة اشقت عبارة «الإكساركية البلغارية» The Bulgarian Exarchate ، ومعناها الكنيسة السلافية ذات البطريرك البلغارى .

وقد تضافر عاملان على إنشاء الكنيسة البلغارية ، كان أولهما : أن الدولة العثمانية كانت تنقم على اليونانيين اشتراكهم فى الثورات التى قام بها سكان جزيرة كريت المسيحيون

صند الحكم العثماني ، وشد أزهم وإمدادهم بالأسلحة والذخائر والمتطوعين ، وإسهامهم إسهاماً فعلياً في المذابح الوحشية التي ارتكبتها الكريتيون المسيحيون ضد مسلمي الجزيرة . وكان من رأى فؤاد باشا «أنه يجب عزل اليونانيين عن المسيحيين الآخرين قدر الاستطاعة ، وإبعاد البلغاريين عن سيطرة الكنيسة اليونانية» . وكان غالى باشا يشاطره هذا الرأى . واستطاع الاثنان أن يقتعا السلطان عبدالعزيز بالأخذ برأيهما . أما العامل الثانى فكان الضغط الشديد الذى مارسه الروسيا على السلطان لإنشاء هذه الكنيسة تأسيساً على أن البلغاريين يشكلون قومية متميزة ، ويجب أن تكون لهم كنيسة مستقلة عن الكنيسة اليونانية وتضم شملهم . وكان الهدف الحقيقى للروسيا هو دعم حركة الجامعة الصقلية Panslavism التى تنادت إليها ، واستهدفت منها ضم جميع الصقالبة الأرثوذكس فى أوروبا تحت جناحها ، أملاً فى قضائها على الوجود العثماني فى أوروبا . وكان من أكبر دعاة هذه الحركة هو إجناتيف Ignatiev سفير الروسيا فى إستانبول . وكان هدفه الأساسى العمل على انهيار الدولة العثمانية أو وقوعها تحت السيطرة الروسية (١) .

واستجاب السلطان عبدالعزيز لطلب الروسيا ، لأنه اعتقد أن إنشاء الإكساركية البلغارية يتماشى مع سياسة «فرق واحكم» *divide et timpera* إذ كانت سياسة الدولة تنجه إلى تعميق الانقسام بين العناصر المسيحية فى البلقان مثل اليونانيين والبلغاريين والصرب وغيرهم ، نظراً للصعاب التى كانت تواجهها الدولة فى دعم نفوذها بين هذه العناصر . ومما هو جدير بالذكر أن صدور «براءة» تعيين أول إكسارك تنفيذاً لفرمان ١١ مارس - آذار - ١٨٧٠ قد تأخر سنتين بسبب معارضة البطريرك اليونانى فى إستانبول ، فلم تصدر هذه «البراءة» إلا فى سنة ١٨٧٢ ، بعد أن حاول البطريرك اليونانى إقناع السلطان عبدالعزيز بإلغاء الفرمان ، الذى أصدره عام ١٨٧٠ بإنشاء الإكساركية البلغارية . ولكن باءت محاولاته بالإخفاق ، ولم ينجح إلا فى تأخير تعيين البطريرك البلغارى سنتين . فلما صدرت براءة تعيينه أصدر البطريرك اليونانى قرار الحرمان ex-communication ضد الإكسارك ورجال الدين التابعين له وأتباع الكنيسة البلغارية . وقد أوجد إنشاء هذه الكنيسة الجديدة صراعاً دينياً حاداً فى البلقان بين اليونانيين أو البطريركيين Patriarchists وبين البلغاريين أو الإكساركيين Exarchists وسارع الفريقان إلى تكوين عصابات من قطاع الطرق مستخدمين شتى الأسلحة ، وأخذ كل فريق يثبت صحة مذهبه بالضربات القاتلة . ويعد إنشاء الإكساركية البلغارية نقطة بارزة فى تاريخ الدراسات البلقانية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، وبالقائى فى تاريخ الدولة العثمانية (٢) .

(١) دكتور محمد مصطفى صفوت : مؤتمر بريان ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٨ .

(٢) عن الإكساركية البلغارية ، انظر كلاً من :

Miller W., op. cit., pp. 344-346.

Grant A., and Temperley, op. cit., pp. 297-298.

Ensor R.C.K., op. cit., p. 41.

== ١٣٤ == صور من حملات التشهير بالدولة (٤) السلطان العثماني رجل أوروبا المريض ==

ويتعيين الإكسارك البلغارى ازداد الطابع الدينى رسوخاً إلى جانب الطابع القومى للثورة البلغارية على الحكم الإسلامى العثمانى .

وبدا الثوار عملياتهم فى كافة أرجاء بلغاريا فى أول مايو - آيار - عام ١٨٧٦ بإجراء مذابح عامة بين المسلمين ، الذين كانوا مجردين من السلاح ، فكانت خسائرهم فادحة . وعجز الباشى بوزوق عساكرى ، وهم القوات العثمانية غير النظامية ، عن مواجهة الموقف المتعدد الجبهات . واستجد الوالى العثمانى بإستانبول لترسل له نجدات عسكرية من القوات النظامية . ولجأ - كإجراء مؤقت - إلى توزيع ما لديه من أسلحة على السكان المسلمين . وفى فورة غضبه رد المسلمون على البلغاريين بالمثل . ولكن كفة المسيحيين كانت راجحة على كفة المسلمين فى هذه المذابح ، فيما عدا قرية باتاك Batak وتقع شمالى جبل رودوب Rhodope وكان أهلها قد انضموا إلى الثوار فهاجمتها قوة من الباشى بوزوق بقيادة عصمت أغا وزميله محمد أغا . وأعمل أفراد القوة القتل فى سكان القرية ، ولم يفرقوا بين ذكر وأنثى أو بين شاب ورجل طاعن فى السن . ويقول بارنج أحد رجال السفارة البريطانية فى إستانبول بعد زيارته للقرية إن مذبحه باتاك تعد أشنع جريمة وحشية لطخت تاريخ القرن التاسع عشر ، وإن عدد سكان القرية كان سبعة آلاف شخص لم ينج منهم إلا ألفان فقط . وسنلتقى بهذه الشخصية البريطانية بعد قليل ، وكان من أكبر المتحاملين على الدولة العثمانية فى مذابح البلغاريين ، على النقيض من رئيسه سير هنرى إليوت Sir Henry Elliot السفير البريطانى فى إستانبول .

هياج الرأى العام الإسلامى :

المطالبة بمعاملة المسيحيين بالمثل :

وقد ثار الرأى العام الإسلامى فى الدولة على المذابح ، التى تعرض لها المسلمون فى بلغاريا . وقام طلبة المدارس الدينية فى العاصمة وكذلك أنباع الطرق الصوفية بمظاهرات صاخبة ضد السلطان عبدالعزيز ، واعتبره المتظاهرون مسئولاً عن هذه المذابح وعن الارتباكات المالية التى عانت منها الدولة ، ولتهموا المصدر الأعظم بأنه ذو ميول أو اتجاهات روسية Russophil ، واستقر رأى معظم الوزراء ومن إليهم من كبار المسؤولين على ضرورة عزل السلطان عبدالعزيز . واستصعدوا فتوى من حسن خير الله أفندى شيخ الإسلام تجيز عزله تأسيساً على أنه «مخلل الشعور ، وليست له دراية بالمسائل السياسية ، ولتبيزه فى إنفاق أموال الدولة ، وإخلاله بالمسائل الدينية والدنيوية ، وتسببه فى خراب الدولة ، وفساد الأمة الإسلامية». وتم عزل السلطان عبد العزيز فى الثلاثين من شهر مايو - آيار - عام ١٨٧٦ ، وعين مكانه السلطان مراد الخامس . ولم تمض إلا أيام ذات عدد حتى جاز السلطان عبدالعزيز إلى ريه فى ظروف غامضة . أما السلطان الجديد مراد الخامس ، فقد خلع

هو الآخر بعد ثلاثة شهور من تعيينه . وصدرت فتوى من شيخ الإسلام تجيز خلع بقاء على إصابته بخبل في قواه العقلية^(١) . وعين مكانه أخوه عبد الحميد الثاني في اليوم الحادي والثلاثين من شهر أغسطس - آب - عام ١٨٧٦ ، واستغل الثوار البلغاريون هذه الهزات العنيفة المتلاحقة التي تعرض لها العرش العثماني في هذا الوقت العصيب ، ووسعوا نطاق عمليات مذابح المسلمين بحيث شملت النساء والأطفال . ولما وصلت القوات النظامية من الجيش العثماني إلى بلغاريا ، استطاعت السيطرة على الموقف ، واستخدمت العنف في إخماد الثورة . وإزاء هذه النكسة التي أصابت ثورة بلغاريا ، أذاع المرجفون في أوروبا طويلاً وعرضاً أنباء مبالغاً فيها عن المذابح التي تعرض لها البلغاريون ، وذهبوا إلى أن الدولة العثمانية بإقدامها على هذه المذابح قد ارتكبت وحشية لم ير لها القرن التاسع عشر من قبل مثيلاً .

خطف فتاة مسيحية اعتنقت الإسلام :

وفي هذا الوقت العصيب وقع حادث مؤسف أدى إلى تصعيد الموقف المتأزم بين الدولة العثمانية وبعض الدول الأوروبية الكبرى، التي اتهمت الدولة بأنها ممعنة في ممارسة تعصبها الديني ضد المسيحيين ، على النقيض من الدول الأوروبية التي تضع في اعتبارها الأول سياسة التسامح الديني مع رعاياها دون تمييز بينهم في الدين أو المذهب . وأرادت أن تتخذ من هذا الحادث ذريعة للتدخل في شئونها وتزيق أوصالها .

ويتلخص هذا الحادث طبقاً لرواية ميلر Miller في أن فتاة مسيحية بلغارية اعتنقت الإسلام حديثاً ، تعرض لها بعض اليونانيين في اليوم الخامس من شهر مايو - آيار - عام ١٨٧٦ في أثناء وجودها في محطة للسكة الحديدية في مدينة سالونيك ، ومزقوا غطاء وجهها - اليشمك Yashmak - وخطفوها وأخفوها في دار قنصل الولايات المتحدة الأمريكية في هذه المدينة . وانتشر الخبر بين المسلمين ، وتزعمهم عدد كبير من غوغائهم ، صبرا جام غضبهم وتعصبهم الديني على قنصل فرنسا وقنصل ألمانيا . وكان القنصل الأخير من رعايا بريطانيا، وقع عليه اختيار حكومة برلين ليمثل المصالح الألمانية في مدينة سالونيك . واستطاع هؤلاء المسلمون القبض على القنصلين وساقوهما إلى أحد مساجد المدينة حيث تم قتلها في اليوم السادس من الشهر ذاته . وألقت السلطات العثمانية القبض على ستة من رعايا المسلمين الذين تزعموا الحركة وأمرت بشنقهم فوراً^(٢) ، ولعل السلطات العثمانية أرادت أن تنفي عن نفسها شبهة الاشتراك في تدبير قتل القنصلين . ولكن هذا التصرف من جانب السلطات العثمانية لم يكن كافياً في نظر الحكومات الأوروبية ، التي اتهمت الدولة بالتراخي في حماية القنصلين، ونظرت إلى قتلها على أنه أشد خطراً وأكثر أهمية من مذابح البلغاريين . ومن ثم لجأت إلى

(١) نشر الأستاذ محمد فريد بك التميمين الكاملين لنهايتي الفترتين في كتابه ص ٢٧٦ ، ص ٢٨٤ على التوالي .

(2) Miller W.; op. cit., p. 367.

تدبير سياسية وعسكرية ، سنشير إليها بعد حين .

أما محمد فريد بك فيذكر هذا الحادث في صورة أدنى إلى الحقيقة ، وتتماشى مع المنطق ومع تسلسل الأحداث ، فيقول : إن هذه الفتاة قد وصلت في الخامس من شهر مايو - آيار - ١٨٧٦ إلى سالونيك لتتخذ الإجراءات الشرعية لإشهار إسلامها أمام قاضي المدينة . وكانت في حراسة بعض الجنود العثمانيين ، وفي طريقها إلى دار المحكمة تعرض لها بعض رعايا اليونانيين واعتمدوا على كثرتهم العددية ، وانهالوا ضرباً على الجنود العثمانيين حتى استطاعوا خطف الفتاة وأخفوها في دار قنصل الولايات المتحدة الأمريكية ، ثم نقلوها إلى دار أحد كبارائه . وانتشر الخبر سريعاً في أوساط المسلمين فثار تائرتهم ، واحتشدوا أمام دار والي العثماني وطلبوا منه البحث عن الفتاة ، ووعدهم والي باتخاذ الإجراءات الكفيلة بإنقاذ الفتاة ، ولم تنثر جهود والي في هذا الصدد . وفي اليوم التالي اجتمعت حشود كثيرة من المسلمين في أحد المساجد وانهما والي بالنقصان عن إنقاذ الفتاة ، وانتشرت الشائعات بأن الفتاة محتجزة سرّاً في دار قنصل ألمانيا ، وفي أثناء هذا الهياج حضر قنصل فرنسا وألمانيا . ويقال إنهما دخلا الجامع . ولقوات الإضاءة بأن البيت قنصل ألمانيا ازداد الهياج . وفي أقل من القليل بلغت الحدة منتهاهما من المجتمعين ، وتدعوا على القنصلين بالقتل^(١) .

عقد مؤتمر دولي في برلين لبحث حماية رعايا الدولة المسيحيين :

تطايبت الأنباء عن هذا الحادث إلى العواصم الأوروبية ، واجتمع في برلين في اليوم الحادى عشر من شهر مايو - آيار - عام ١٨٧٦ ، أى بعد مضي أربعة أيام على مقتل القنصلين - مؤتمر ثلاثى ضم بسمارك المستشار الألماني ، وأندراسى وزير خارجية النمسا والمجر ، وغورتشاكوف إسكندر^(٢) Gortchakov Alex. المستشار الروسى . ويلاحظ أن الدول الثلاث التى اشتركت في هذا المؤتمر كانت ، تشكل ماعرف في تاريخ أوروبا الحديث «باتحاد القياصرة الثلاثة Dreikaiserbund الذى تكون في سنة ١٨٧٢ ، واستمرت اجتماعات المؤتمر ثلاثة أيام أصدر في نهايتها لائحة برلين أو مذكرة برلين Berlin Memorandum ، وهى مذكرة شديدة اللهجة طالبت الباب العالي باتخاذ إجراءات رادعة لحماية الرعايا المسيحيين الخاضعين للدولة وتحسين أوضاعهم ، وأن يوافق الباب العالي على تشكيل لجنة دولية لمراقبة تنفيذ ما جاء في المذكرة ، وأن تبرم هدنة مع الثوار لمدة شهرين أو سنة أسابيع للوصول إلى اتفاق مرض للثوار .

(١) محمد فريد بك ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٩٩ .

وانظر رواية مصطفى كامل باشا عن هذه الحادثة في كتابه :

المسألة الشرقية ، ج ١ ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٩٠٩ ، ص ٢١٥-٢١٦ .

(٢) توجد شخصيتان تحملان الاسم ذاته : الأولى الأمير إسكندر غورتشاكوف ، والثانية الأمير ميخائيل غورتشاكوف .

فإذا لم يصل الباب العالي إلى عقد مثل هذا الاتفاق .. فإن الدول ستلجأ إلى استخدام القوة لتنفيذ ما جاء في مذكرة برلين^(١) .

وعرض المؤتمر على بريطانيا وفرنسا وإيطاليا الاشتراك في التوقيع على هذه المذكرة ، فرفضت بريطانيا متذرة بأنها لم توجه إليها الدعوة للاشتراك في المؤتمر الثلاثي . وكان دزرائيلي - لورد بيكونزفيلد Beaconsfield ، فيما بعد - رئيس الوزارة البريطانية يرمي إلى عدم تدخل روسيا في مسائل الدولة العثمانية ، وأن من الأفضل ترك العثمانيين يفصلون فيها بما يرون . وأصدرت الوزارة البريطانية في اليوم الرابع والعشرين من شهر مايو - أيار - عام ١٨٧٦ الأوامر إلى وحدات من الأسطول البريطاني بالتحرك إلى خليج بيسكا Besika ليكون على أهبة التوجه إلى البوسفور ، إذا أعلنت روسيا الحرب على الدولة العثمانية وحاولت احتلال إسطنبول . أما فرنسا وإيطاليا فقد وافقتا على الاشتراك في مذكرة برلين ، ويلاحظ أن فرنسا كان قد تأثر مركزها الدولي عقب هزيمتها في الحرب السبعينية ، وإن كانت دأبة السعي لاستعادة مركزها السابق . أما إيطاليا التي كان يطلق عليها صغرى الدول الكبرى فكانت تريد أن تشجع غرورها بمواكبة الدول الكبرى . أما الباب العالي فوقف موقفاً سلبياً من مذكرة برلين لعلمه بتعذر اتفاق الدول الكبرى فيما بينها لتباين أطماعها وأهدافها ولعدم موافقة بريطانيا على المذكرة . وانصرف الباب العالي للتصدي للثورات المسيحية التي اندلعت في أنحاء شتى في شبه جزيرة البلقان ، ولمواجهة المؤامرات التي كانت تحيكها روسيا ضد الدولة العثمانية ، وكان الموقف يتدهور وينذر بأن الحرب آتية لا ريب فيها . وكان تقدير الدولة للموقف السياسي والحربي سلبياً ، فقد تطورت الأحداث تطوراً أدى إلى إعلان روسيا الحرب في اليوم الرابع والعشرين من شهر أبريل - نيسان - عام ١٨٧٧ على الدولة ، وانضمت إلى روسيا كل من رومانيا والصرب والجبل الأسود .

تدهور جلاستون بالدولة العثمانية :

تطارت الأنباء المبالغ فيها عن مذابح البلقاريين المسيحيين إلى جلاستون زعيم حزب الأحرار في إنجلترا ، فخرج من عزلته حيث كان عاكفاً على التعمق في دراسة اللاهوت . وكان هذا الزعيم السياسي إنجليزياً يقيض تعصباً دينياً ، وكان يمتد الدولة العثمانية مقفاً شديداً بصفتها دولة إسلامية تحكم شعباً أوروبياً مسيحياً ، فلما قامت الثورة البلغارية وما اقترنت به من مذابح لم ينظر إليها نظرة موضوعية تتناول جميع جوانبها ، ولكنه نظر إليها نظرة دينية

(١) يلاحظ أن مذكرة برلين المؤرخة في ١٣ من مايو - أيار - عام ١٨٧٦ تضمنت الخطوط الرئيسية التي جاءت في المذكرة التي وضعها أندراسي في الثلاثين من ديسمبر - كانون أول - عام ١٨٧٥ ، وكانت تشمل الإصلاحات التي يجدر في نظر الدول أن يتبناها الباب العالي لإصلاح حال رعايا الدولة المسيحيين ، وتأييد لجنة دولية للإشراف على تنفيذ الإصلاحات المقترحة .

ضيفة على أنها ثورة شعب مسيحي يئن من مظالم حاكم مسلم ، فقام - مدفوعاً بشعوره الديني المتأجج ومناوئته لحزب المحافظين الذي كان وقتذاك في الحكم - بجولات في المدن الإنجليزية يلقي أمام الجماهير خطباً حماسية مستغلاً بلاغته ومقدرته الخطابية . وتناول المذابح البلغارية ، وهاجم الدولة العثمانية ، ونعتها بأنها نقمة على الحضارة والإنسانية ، وطالب بطرد العثمانيين نهائياً من أوروبا ، هم وما ملكت أيديهم Bag and Luggage ، كما طالب بإنقاذ الشعوب المسيحية الخاضعة لهم ، ونشر في عام ١٨٧٦ كتاباً صغيراً عنوانه

Bulgarian Horrors and the Question of the East.

أى «الأحوال البلغارية والمسألة الشرقية» . وكان مما جاء في هذا الكتيب .

“Let the Turks now carry away their abuses in the only possible manner, namely, by carrying off themselves. Their Zaptielis and their Mudirs, their Binbashis and their Yuzbachis, their Kaimakams and their Pashas, one and all, bag and baggage, shall, I hope, clear out from the province they have desolated and profaned”.^(١)

«قليلهم الأتراك الآن مساوئهم بعيداً ، وبالطريقة الوحيدة الممكنة ، أى يرحلوا بأنفسهم . ومعهم الصنطية^(٢) والمدبرون ، والبنباشية^(٣) ، واليوزباشية^(٤) ، والقائمقامية^(٥) ، والباشوات ، جميعاً ، هم وما ملكت أيديهم . وإننى لأمل أن يرحلوا عن الولاية^(٦) التى نشروا فيها الخراب وندسوها .

(١) Miller W., op. cit., p. 366.

(٢) معناها رجال الشرطة .

(٣) البنباشية ، وتكتب أحياناً بعباشية ، وأحياناً أخرى بكباشية ومعناها الضباط من رتبة بباشى ، بباشى ، بكباشى ، أى مقدم .

(٤) يوزباشية ، مفردا يوزباشى ، أى الضابط من رتبة يوزباشى ، ومعناها فى المصطلح العسكرى الحديث نقيب .

(٥) القائمقامية مفردا قائمقام ، أى الضابط الذى يحمل هذه الرتبة . وتعادل فى المصطلح العسكرى الحديث عقيد .

(٦) يقصد جلستون من هذه العبارة بلغاريا . ويستند معظم المؤرخين الإنجليز إلى هذه العبارة ، وكانوا فى مجموعهم متعاطفين مع جلستون ، ويقررون أنه لم يطالب بطرد العثمانيين من جميع ممتلكاتهم فى أوروبا . ولكن الحقيقة أنه طالب فى موطن آخر فى كتيبه (ص ٤٥) بضرورة طرد العثمانيين من البوسنة والهرسك . ويستشف الدارس المحايد من كتابة جلستون أن هدفه النهائى كان طرد العثمانيين من جميع ممتلكاتهم فى أوروبا . وإنقاذ الشعوب المسيحية الخاضعة لهم من سيطرتهم .

ويذكر أحد المؤرخين الإنجليز أنه بيع من هذا الكتيب في خلال ثلاثة أو أربعة أيام عدد ضخم بلغ أربعين ألف نسخة ^(١) . ومن المحتمل - إن لم يكن من المؤكد - أن هذا الرقم مبالغ فيه إلى حد كبير . ولكن المهم أن الخطب التي ألقاها جلدستون والكتيب الذي نشره ^(٢) كانا أول وأشهر وأخطر حملة إعلامية سياسية ضد الدولة العثمانية ، قام بها زعيم سياسي في تاريخ السياسة البريطانية . وقد وضع جلدستون كتيباً ثانياً باسم Lesson in Massacre أي «دروس في المذابح» . ولكن لم يكن لهذا الكتيب الثاني الشعبية العريضة أو الأثر القوي الذي ظفر به الكتيب الأول ، ويقول جلدستون إنه منذ المذابح التي تعرض لها البلغاريون جعل من المسألة الشرقية شاغله الأول . ولم تكن تسوية المسألة الشرقية في نظره سوى عقد مؤتمر دولي لتصفية الدولة العثمانية بتقطيع أوصالها ، وتخليص الشعوب المسيحية الخاضعة لها من السيطرة العثمانية ومنحها الاستقلال ، أو تحويلها إلى مناطق نفوذ للدول الأوروبية الكبرى أو احتلالها عسكرياً أو ضمها إليها .

تحليل موقف جلدستون :

ولنا عدة ملاحظات على حملات التشهير ، التي قام بها جلدستون على المذابح البلغارية:

أولاً : أنه أفاض في الكلام عن المذابح التي تعرض لها البلغاريون ، ولم يتعرض للمذابح التي ذهب ضحيتها المسلمون ، وهي ظاهرة عامة في كافة المذابح التي لاكتها أسنة المؤرخين والباحثين الأوروبيين في تاريخ الدولة العثمانية ، كما سبق أن ذكرنا .

ثانياً : أنه لم يذكر أن البلغاريين هم الذين أخذوا زمام المبادرة بذبح المسلمين . وأن المذابح التي قام بها المسلمون جاءت متأخرة وكانت دفاعاً عن أنفسهم ، وأن البلغاريين لم تكن لديهم الشجاعة ، مع توافر الأسلحة لديهم والتي تدفقت عليهم من عملاء الروس ، للوقوف في مواجهة عسكرية ضد القوات العثمانية ، وإنما اختاروا المدنيين المسلمين هدفاً عسكرياً لهم . وكانت كل جريرتهم في نظر البلغاريين أنهم عثمانيون أصلاً أو بلغاريون اعتنقوا الإسلام ، وهم في كلتا الحالتين سوائهم أهل للبلغاريين المسيحيين ذبحهم واستصلحهم .

ثالثاً : تناسى جلدستون حرب الأفيون الأولى (١٨٣٩-١٨٤٢) ، وحرب الأفيون الثانية

(1) Ensor R.C.K., op. cit., p. 45.

(٢) يذكر إنسور أن جلدستون نشر كتيبه أولاً ، ثم قام بجولته في المدن الإنجليزية مهاجماً الدولة العثمانية . ناعياً عليها ارتكابها المذابح البلغارية . وهذه مسألة شكلية . ولكننا أثرنا الإشارة إليها تماشياً مع المبدأ القانوني ، وهو الأخذ بالأحدث .

(١٨٥٦-١٨٥٧) اللتين شنتهما بريطانيا على شعب الصين لإجباره على الانفتاح في الأفيون كسلعة تجارية وعلى تعاطيها . وتناسى أن بريطانيا قد استخدمت أحدث الأسلحة البرية والبحرية، وقصفت بالمدافع والقنابل الجيش والشعب والمنشآت، ونشرت المذابح والحرائق والخراب في الصين^(١) .

(١) لم تكن الصين تعرف الأفيون إلا بعد أن تسلسل التجار البرتغاليين والهولنديون ، ونزلوا في مدينة كانتون Canton في جنوبي الصين في القرن السابع عشر ، فأخذت هذه السلعة تظهر في البلاد بالتدريج وفي نطاق محدود جداً إلى أن دخل رجال من بريطانيا الميدان ، وأخذوا ينقلون الأفيون كسلعة تجارية من الهند إلى الصين بمقايير متزايدة عاماً بعد عام .

ويلاحظ أن الهند كانت أكثر الدول إنتاجاً للأفيون . وكان حكام الهند - سواء على عهد شركة الهند الشرقية البريطانية أو على عهد تبعيةها المباشرة للحكومة البريطانية (وزارة الهند) - حريصين على التوسع في إنتاج الأفيون وعلى إيجاد أسواق ضخمة لاستهلاكه . وروايت بريطانيا أن الصين بلاد مترامية الأطراف كثيفة السكان تعد خير سوق للتجارة فيه ، وقد اضطرت حكومة بكين إلى إصدار أول مرسوم سنة ١٧٢٩ يمنع الاتجار في الأفيون واستهلاكه . وتواتت المراسيم في هذا الصدد . ولم تعبأ بها شركة الهند الشرقية البريطانية التي اشتركت في هذه التجارة بعد أن كانت مقصورة على أفراد وجماعات من التجار ، وتظاهرت أنها لا تقرر هذه التجارة ، ولكنها ما لبثت أن كشفت عن وجهها القبيح ، فزادت من مساحة الأراضي الهندية لزراعة الأفيون . ومضت في تصدير معظم محصول الأفيون إلى الصين في سفن مجهزة بالمدافع حتى إذا اقتربت من شواطئ الصين ، انطلقت منها زوارق سريعة تحمل صناديق الأفيون في حماية رجال مسلحين . ولما اعترضت حكومة بكين لدى بريطانيا على إصرارها على تصدير هذه السلعة ، شنت بريطانيا حرباً على الصين عام ١٨٣٩ من أجل حرية الاتجار في الأفيون ، واستطاعت هذه الحرب، التي تسمى حرب الأفيون الأولى ، إلى عام ١٨٤٢ ، وكانت عبارة عن مذابح ارتكبتها القوات البريطانية مدججة بأحدث الأسلحة وأشدها فتكاً ، وتساقط الصينيون تل . وانتهت هذه الحرب بهزيمة ساحقة لجيش الصين الذي لم يكن لديه أسلحة ذات خطر، وأبرمت معاهدة نانكين Nankin ، وتقرر بمقتضاها أن تستولي بريطانيا على جزيرة هونغ كونج Hong-kong ، وهي ذات موقع إستراتيجي هام ، وأن تدفع حكومة الصين غرامة حرية ضخمة لبريطانيا ، وتعويضات مالية للتجار الذين أضرَبوا في تجارة الأفيون بسبب العمليات الحربية . كما تضمنت المعاهدة نصاً يقرر أن تهريب الأفيون خروج على القانون . ويكشف هذا النص عن نفاق السياسة البريطانية تجاه الشعوب الشرقية غير المسيحية ؛ لأنه على الرغم من إدراج هذا النص في المعاهدة ، مضت الحكومة البريطانية تضغط على حكومة الصين كي توافق لورد بالمستون Palmerston المندوب البريطاني في الصين يطلب منه السعي لمعد اتفاقاً مع الصين تسمح بخول الأفيون إلى البلاد كسلعة تجارية ، وأن تقوض حكومة بكين رسوماً جمركية عالية على الأفيون المستورد حتى تزداد حصيلة الرسوم الجمركية ، وبالتالي تتضاعف موارد الحكومة . ولكن رفض إمبراطور الصين هذا الاقتراح بشقيه قائلاً قد أكون عاجزاً عن منع هذه الرسوم أن تدخل بلادى على كره مني ، لأن بعض الناس تدفعهم شهواتهم وحجبهم للمال الحرام إلى عصيان أمرى . ولكن ليس في العالم قوة تستطيع أن تفريني على أن أستمند للدولة إيرادات من تسميم شعبي ونشر الرذيلة فيه .

وأصرت الحكومة البريطانية على موقفها ، وأعدت مستعمرة هونغ كونج لإيواء التجار والمهربين وحجنتها تحصيناً قوياً . وأعدت فيها مستودعات لتخزين صناديق الأفيون ، ريثما تنقلها زوارق التهريب=

رابعاً : لم يعد جلاستون - وهو زعيم حزب الأحرار - إلى التشهير بفرنسا حين أقدمت على إجراء مذابح عامة بين أهل الجزائر عقب احتلالها هذا البلد حين أقدمت على إجراء مذابح عامة بين أهل الجزائر عقب احتلالها هذا البلد عام ١٨٣٠ ، والسبب معروف ، وهو أن الجزائريين شعب عربي مسلم . وفي قاموس الاستعمار الأوروبي بعامة والإنجليزى بخاصة أنه لانتزيب على دولة أوربية مسيحية إذا غزت بلداً إسلامياً أو بلداً عربياً إسلامياً واستعمرته واستذلت أهله واستغلتهم . ومما يذكر فى هذا الصدد أن مصر وقعت قريبة الاحتلال البريطانى عام ١٨٨٢ على عهد وزارة الأحرار الثانية وكان رئيسها جلاستون ، وكان وزير خارجيتها لورد جرانفيل George Granville وقد شكلت فى أبريل - نيسان - عام ١٨٨٠ ، وتلاعبت هذه الوزارة بالأفراط فوصفت الاحتلال البريطانى لمصر بأنه احتلال مؤقت ، ومع ذلك استطال ثلاثة وسبعين عاماً . كما حدث على عهد هذه الوزارة استيلاء فرنسا على تونس عام ١٨٨١ ، وكانت قد ظفرت عام ١٨٧٨ بموافقة بريطانيا على استيلائها على هذا البلد العربى الإسلامى بعد مفاوضات متعشرة مع لورد سالزبرى Salisbury وزير الخارجية البريطانية^(١) وكان

= وفى زوارق مسلحة تمنحها السلطات البريطانية فى هونغ كونج ترخيصاً رسمياً لمزاولة عمليات التهريب فى حماية العلم البريطانى .

واقطعت بريطانيا أحداثاً لإشغال حرب ثائية ، ابتغاء إكراه حكومة الصين على إباحة تجارة الأفيون . وهذه هى حرب الأفيون الثانية (١٨٥٦-١٨٥٧) ، وأغارت القوات البريطانية على بلاد الصين . وأمطرت سكانها بالقنابل ودمرت المدن والقرى . ولم يكن فى مقنور الجيش الصينى أن يقاوم القوات البريطانية ، وأسفرت هذه الحرب عن هزيمة الصين . وكان من أهم نتائجها اتساع مستعمرة هونغ كونج ، بحيث لم تعد مقصورة على الجزيرة المواجهة للساحل ، بل على قسم كبير من الإقليم الساحلى المجاور لها . وبذلك أصبحت المستعمرة البريطانية متصلة اتصالاً مباشراً ببلاد الصين لاتحول بينهما مياه البحر الضيق كما كانت الحال من قبل . واضطرت حكومة بكين فى عام ١٨٥٨ إلى إصدار أمر ببيع استيراد الأفيون وبفرض ضريبة على المستورد منه .

ويعلق كاتب إنجليزى على إشغال بريطانيا حربى الأفيون بقوله وليس فى التاريخ التجارى الإنجليزى صفحة تلحق ببلادنا عاراً أشنع مما ألحقته بنا وتجارنا وساستنا قصة الإنتجار فى الأفيون مع الصين ، إذا سردناها ببساطة ثامة من غير تهويل . فقد شنت إنجلترا أكثر من حرب واحدة على الشعب الصينى الأمرل المسكين ، من أجل الفوائد التى يجنيها المتجربون فى هذه السموم ، وقد استولت إنجلترا غوة على أرض صينية اغتصبها اغتصاباً ، لكى تجعل منها مرفأ يعتمص به المهربون الذين لم يلبثوا أن اتسعت تجارتهم وتزايد نشاطهم رغم أنف السلطات الصينية . وحسب أى رجل إنجليزى أن يتطلع هذه القصة لكى يدرك السبب فى أن الأجانب يحكمون على هذه البلاد باتها ، مع إدانتها التمسك بالباباء السامية ، لتسمح للاعتبارات الإنسانية أن تحول بينها وبين مطامعها .

انظر : دكتور محمد عوض محمد - الاستعمار والمذاهب الاستعمارية ، دار الكتاب العربى ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٩٥٦ ، ص ٨٦-١٠١ .

(١) كان لورد سالزبرى يشغل منصب وزير الهند فى وزارة المحافظين الأولى ، وكان يرأسها بنيامين دزرائيلى اليهودى - وقد شكلها فى فبراير - شباط - ١٨٧٤ ، ثم نقل فى التعديل الوزارى الذى تم فى إبريل - نيسان - ١٨٧٨ وزيراً للخارجية خلفاً للورد ليرى ، الذى أقصى من منصبه .

هدفه هو استرضاء فرنسا والتخفيف من ثورتها ، عندما ترامت إليها أنباء الاتفاقية السرية التي فرصتها بريطانيا في الرابع من شهر يونيو - حزيران - عام ١٨٧٨ على الدولة العثمانية تحت سلاح التهديد ، واحتلت بمقتضاها جزيرة قبرص ونصت الانفاقية: على أن احتلال بريطانيا لقبرص هو احتلال مؤقت . ومع ذلك استطل إلى الحرب العالمية الأولى ، حيث أعلنت ضم قبرص إليها ، وفي سنة ١٩٢٥ طبقت نظام المستعمرات عليها .

ونخلص من هذه الملاحظات إلى أن موقف جلدستون من مذابح البلقاريين كان يتسم بالتحيز الصارخ للمسيحيين ، على الرغم من أنه ينتمي إلى ديانة سمحة كريمة هي المسيحية . وقد دفعه هذا التحيز إلى تناقض في موقفه بالنسبة إلى سلبته في حالات ، أكثر سوءاً وقعت في التاريخ القريب له .

وجدير بالذكر أن حزب الأحرار كان مؤيداً لرئيسه في حملات التشهير التي قام بها . وكان لورد جرانفيل ، وهو من أقطاب الحزب^(١) على رأس المناصرين له في موقفه . كما حصل جلدستون على وعد بتأييد الصحف البريطانية الكبرى ، وعلى رأسها جريدة التايمز The Times لحملات التشهير بالدولة العثمانية ، وكذلك على عدد من كبار الناشرين وكبار المؤرخين الإنجليز^(٢) ومن إليهم من أعلام الفكر في إنجلترا^(٣) .

مذكرة بريطانيا للدولة العثمانية :

عرض وتحليل ونقد

أرسل لورد ديري وزير خارجية بريطانيا مذكرة مؤرخة ، في الثامن عشر من شهر

(١) كان جرانفيل وزيراً للمستعمرات في وزارة حزب الأحرار الأولى التي شكلها جلدستون في ديسمبر - كانون أول - عام ١٨٦٨ ثم عينه وزيراً للخارجية في ذات الوزارة عام ١٨٧٠ عقب وفاة لورد كلارندون وزير الخارجية في الوزارة ذاتها عام ١٨٧٠ عقب وفاة لورد كلارندون وزير الخارجية . وفي وزارة جلدستون الثانية التي ألفها في أبريل - نيسان - عام ١٨٨٠ ، كان جرانفيل وزيراً للخارجية . وفي وزارة جلدستون الثالثة التي شكلها في فبراير - شباط - عام ١٨٨٦ ، كان جرانفيل وزيراً للمستعمرات . وفي وزارة جلدستون الرابعة التي ألفها في أغسطس - آب - ١٨٩٢ ، لم يظهر جرانفيل في التشكيل الوزاري ، لأنه كان قد توفي في العام السابق (١٨٩١) .

(٢) كان منهم كارليل Carlyle ، وفرويد Froude ، وستب Stubbs ، واكتون ، وجرين Green R. ، وفريمان Freeman .

(٣) نذكر من بينهم : تينسون Tennyson ، روسكين Ruskin ، وبيرون جونز Burne-Jones ، وداروين Darwin .

ونخلص من ذكر هذه الأسماء اللاحقة إلى أن أعلام الفكر في إنجلترا ، كانوا من زمرة المهاجمين أو المعارضين للدولة العثمانية .

سبتمبر - أيلول - عام ١٨٧٦ إلى سير هنرى إليوت السفير البريطانى فى إستانبول ، اشتملت على خلاصة تقرير ضاف عن مذابح البلغارىين المسيحيين ، تلقاه من بارنج Baring سكرتير السفارة البريطانىة فى إستانبول .

وكان الوزير قد عهد إليه بتقصى الحقائق عما نسب إلى العثمانيين من إجراء مذابح عامة فى بلغاريا بين سكانها المسيحيين . وقد جاء تقرير بارنج ، يشع بالتحيز الصارخ ضد العثمانيين والمبالغة الشديدة فى وصف المذابح والأهوال التى تعرض لها البلغارىين . ولم يبد بارنج أدنى اهتمام فى تقريره بمذابح المسلمين على أيدي البلغارىين ، ولم يذكر أن البلغارىين هم الذين بدأوا عمليات الذبح الجماعى للمسلمين ، ثم ذكر أرقاماً غير مؤكدة عن عدد ضحايا المسيحيين .

ثم طلب وزير الخارجية فى مذكرته أن يوجه السفير اللوم إلى الحكومة العثمانية على ارتكاب تلك المذابح ، وأن يطلب باسم الملكة فيكتوريا من السلطان عبدالحميد الثانى شخصياً - ولم يكن قد استكمل ثلاثة أسابيع على ارتقائه العرش - أن تدفع الحكومة العثمانية تعويضات مالية للثوار ، وأن تعيد على نفقتها بناء ما تهدم من كنائسهم ومنازلهم ، وأن تقدم مساعدات للأهالى المسيحيين ، الذين بقوا على قيد الحياة وشردوا من بيوتهم وفقدوا مصادر رزقهم ، وأن تدبر على وجه السرعة وسائل إعاشتهم وتأمين مستقبلهم ، وأن تأمر بإعادة المنهوبات والمسروقات إلى ذويها المسيحيين ، وأن تعيد السيدات المخطوفات إلى بعولتهن ، وأن توقع عقوبات رادعة على الموظفين العثمانيين ، الذين أمروا بإجراء تلك المذابح ، أو الذين اشتركوا فى تنفيذها أو الذين أظهروا تراخياً فى منعها ، وأن يحكم بلغاريا حاكم قدير بشرط أن يكون مسيحياً .

وإذا أرادت الدولة أن يكون الحاكم مسلماً ، فلا بد من تعيين مستشارين له من المسيحيين حتى يستطيع السكان المسيحيون فى بلغاريا الاعتماد عليهم والاطمئنان عليهم . وأضاف وزير الخارجية إلى هذه المطالبات قوله إن الحكومة البريطانىة قد استحوذت عليها الدهشة حين تراءت إلى مسامعها أن الباب العالى قد أمر بترقية الذين شاركوا فى ذبح المسيحيين ومنحهم أوسمة .

وقرر وزير الخارجية أن الباب العالى قد أخفيت عليه حقائق الموقف الرهيب فى بلغاريا ، وألا ما أخذت تلك المذابح هذا الحجم الكبير وهذا العنف البالغ وهذه الوحشية التى تقشعر منها الأبدان . وضرب لورد دربى مثلاً بمقتلة قرية باتاق . وقال إنها بدأت فى اليوم التاسع من شهر مايو - أيار - عام ١٨٧٦ ، واستمرت حتى اليوم الحادى والعشرين من شهر يوليو - تموز - من السنة ذاتها . واستطرد فقال إنه لم تكن لمذابح البلغارىين أصداء واسعة وأليمة فى بريطانيا فحسب ، بل امتدت هذه الأصداء إلى كافة أرجاء أوروبا . وأكد أن الدول

الموقعة على معاهدة باريس لسنة ١٨٥٦ لن تقف مكتوفة الأيدي أمام المذابح، التي ارتكبتها الدولة ضد البلغاريتين المسيحيين. وفي ختام المذكرة طلب وزير الخارجية من السفير البريطاني أن يقابل المصدر الأعظم ويترك له نسخة من هذه المذكرة لتنفيذ ما جاء بها .

على هذا النحو جاءت مذكرة وزير الخارجية البريطانية ترديداً لحملات تشهير جلدستون بالدولة العثمانية ، وقد سمحت الحكومة البريطانية لنفسها بالتدخل في صميم الشؤون الداخلية للدولة العثمانية بتقديم مطالب جائرة ، تمس سيادة الدولة على أحد أقاليمها وبثأليب الدول الأوروبية عليها ، وهي الدول الأطراف في معاهدة باريس (٣٠ من شهر مارس - آذار - عام ١٨٥٦) ، والتي نصت على منع أي دولة من التدخل في الشؤون الداخلية للدولة العثمانية . كما أن ثلاثاً من الدول الأطراف في هذه المعاهدة ، وهي بريطانيا وفرنسا والنمسا ، قد وقعت في ١٥ من أبريل - نيسان - عام ١٨٥٦ على معاهدة عرفت باسم معاهدة ضمان استقلال الإمبراطورية العثمانية ، وتماسك أقاليمها ، تعهدت فيها الدول الثلاث بأن تضمن مجتمعة ومنفردة استقلال الدولة وسلامة ممتلكاتها كما تعهدت بعدم التدخل ، مجتمعة ومنفردة أيضاً ، بين السلطان ورعاياه ولا في الإدارة الداخلية للدولة العثمانية . وإذا قامت صعوبات أو استجدت مشكلات بين الدولة العثمانية وغيرها من الدول الأطراف في المعاهدة ، فقبل الالتجاء إلى استخدام القوة يجب الاحتكام إلى الدول الأخرى الموقعة على هذه المعاهدة ، ولحققت هذه المعاهدة الثلاثية بمعاهدة باريس وغدت جزءاً منها^(١) . ولحق أن معاهدة باريس ، كانت أول معاهدة وقعتها الدولة العثمانية^(٢) لا يكون فيها أي انتقاص لممتلكات السلطان أو إضعاف لقوته... وجعلت أمر استقلال الدولة العثمانية في أمورها الداخلية جزءاً من القانون الدولي والدبلوماسية الأوروبية^(٣) .

ويلاحظ أيضاً أن مذكرة وزارة الخارجية البريطانية أغفلت عدة حقائق في موضوع المذابح .. فلم تعرض للمذابح التي تعرض لها المسلمون ، ولم تذكر أن البلغاريتين هم الذين بدأوا بنذبح المسلمين . ومن المؤسف جداً أن الحكومة البريطانية عمدت إلى نشر هذه المذكرة في مجموعة وثائق الكتاب الأزرق لسنة ١٨٧٦ ، وهنا ممكن الخطورة ، لأن المؤرخين والباحثين في الأجيال التالية استفادوا منهم العلمية عن المذابح من هذه الوثيقة وغيرها . وفيها طمس للحقائق وقلب للأوضاع وإزهاق للحق وإحقاق للباطل .

(1) Great Britain, Parliamentary Papers, 1856, Vol. 61. pp. 444-445.

وقد تم تبادل وثائق التصديق على هذه المعاهدة الثلاثية في باريس في ٢٩ من أبريل - نيسان - عام ١٨٥٦ .

(٢) كان يمثل الدولة العثمانية في مؤتمر باريس كل من خالي باشا وقؤاد باشا .

(٣) دكتور محمد مصطفى صفوت : المسألة الشرقية ومؤتمر باريس ، مرجع سبق ذكره ، ص ٥٢-٥٣ .

نتائج حملات جلادستون التشهيرية بالدولة العثمانية :

كان لحملات التشهير التي اندفع إليها جلادستون ضد الدولة العثمانية أصداء بعيدة في كافة أنحاء أوروبا ، كما ترتبت على هذه الحملات نتائج خطيرة في السياسة الدولية ، انعكست آثارها على مركز الدولة العثمانية وولاياتها المسيحية البلقانية وموقف الدول الأوروبية الكبرى . وكان من بين هذه النتائج :

أولاً : ساد الاعتقاد في أوروبا - سواء في الدوائر الرسمية أو على الصعيد الجماهيري - أن العثمانيين كانوا هم الجناة في مذابح البلقانيين ، وأن الأخيرين هم المجنى عليهم ، ثم جاءت الوثائق الرسمية تؤيد هذه الحقيقة الزائفة في أذهان الأجيال المتعاقبة .

ثانياً : فقدت الدولة العثمانية عطف وتقدير قطاعات كبيرة من الرأي العام في إنجلترا وفرنسا وغيرها .

ثالثاً : ازداد اعتقاد الحكومات الأوروبية أن الدولة العثمانية لم تعد صالحة للبقاء كدولة متماسكة قوية قادرة على تطوير نظمها وتحسين معاملة رعاياها المسيحيين ، وأن وجودها أصبح يهدد السلام العالمي للخطر ، وأن الحل الأمثل هو استبعادها من الخريطة السياسية لشرقي أوروبا كخطوة أولى ، ثم تقسيم ممتلكاتها ذات الأهمية الإستراتيجية في آسيا ، وإفريقية بين الدول الأوروبية الكبرى .

رابعاً : أما النتيجة الرابعة فتنبثق عن النتيجة السابقة ، وهي أن حملات جلادستون التشهيرية قد وضعت حداً للسياسة التقليدية التي سارت عليها بريطانيا ، وهي المحافظة على سلامة الدولة العثمانية وتماسك ممتلكاتها ، بصفتها دولة كبرى محايدة وحاجزة A Great Neutral Buffer State تحول دون استيلاء روسيا على إستانبول والمضائق ، والتسلل منها إلى المياه الدفيلة ، وتكفل لبريطانيا في الوقت ذاته الاطمئنان إلى مصالحها في حوض البحر المتوسط ومنطقة الشرق الأوسط وسلامة مواصلاتها مع الهند . فلم يكن في مقدور حكومة المحافظين ورئيسها دزرائلي أن تعلن التمسك بهذه السياسة التقليدية القديمة ، وبالتالي لاتستطيع التدخل للدفاع عن العثمانيين . وأعلنت روسيا الحرب على الدولة العثمانية في اليوم الرابع والعشرين من شهر أبريل - نيسان - عام ١٨٧٧ ، وكانت هذه رابع وآخر حرب اشتعلت بين هاتين الدولتين في القرن التاسع عشر (١) . وقد خاصتها روسيا تحقيقاً لأطماعها التوسعية في الدولة العثمانية ، وانتصاراً لحركة الجامعة الصقلية ومساندة للشعوب المسيحية البلقانية . وانضمت كل من رومانيا والصرب والجبل الأسود إلى جانب روسيا . وعبرت القوات الروسية نهر

(1) Miller W.; op. cit., p. 373 .

الدانوب وانتسابت مع حليفاتها في اتجاه الجنوب ودخلت بلغاريا، واحتلت أدرنة واقتربت من مشارف الأستانة في شهر يناير - كانون ثان - عام ١٨٨٧. أما في الشرق.. فقد استولت روسيا على معظم أرمينيا. وطلب السلطان عبد الحميد الثاني الصلح. ف عقدت هدنة في اليوم الحادي والثلاثين من شهر يناير - كانون ثان - تلتها معاهدة سان ستيفانو San Stefano وقد فرضتها روسيا على الدولة العثمانية، في اليوم الثالث من شهر مارس - آذار - وكانت معاهدة ثنائية غير متكافئة، وستنكلم عنها في موطن قادم في هذه الدراسة.

جاءت الهزائم العسكرية المتلاحقة التي تعرضت لها الدولة العثمانية في هذه الحرب تأكيداً عملياً ومجسداً لرأى وزارة المحافظين البريطانية في أن سياستها التقليدية تجاه الدولة العثمانية، إنما هي سياسة عقيمة، وأنها مضيعة للأرواح والأموال والوقت والجهد^(١). وكان بنيامين دزرائيلي زعيم حزب المحافظين ورئيس الوزارة وقتذاك ولورد سالزبوري وزير الخارجية يدينان بالرأى القائل إن الدولة العثمانية لم تستفد من الفرصة التي أتاحتها لها صلح باريس عام ١٨٥٦ لتنظيم شئونها وتوطيد دعائم ملكها، بل تدهورت أوضاعها المالية والعسكرية وازدادت إمبراطوريتها تزعزاعاً وفشلت في حكم ولاياتها، وعجزت عن دفع فوائد ديونها والوفاء بسائر التزاماتها^(٢).



(1) Seton-Watson R.W.; Disraeli; Gladstone and the Eastern Question. A Study in Diplomacy and Party Politics, London, 1935, P. 423.

(2) على الرغم من التغيير الجذري الذي طرأ على السياسة التقليدية لبريطانيا تجاه الدولة العثمانية منذ عام ١٨٧٧ أو ١٨٧٨ من الناحية العملية أو التطبيقية، لم تغير بريطانيا موقفها من إطماع روسيا، إذ ظلت حريصة على وقف التوسع الروسي نحو البحر المتوسط، وعلى منع الروس من السيطرة على المضائق، وعلى الحيلولة دون تسللهم من أرمينيا إلى العراق والشام وغيرها.
انظر: دكتور محمد مصطفى صفوت - مؤتمر برلين إلخ، مرجع سبق ذكره، ص ١٧-١٩.

الفصل الخامس

خدمات الدولة العثمانية للإسلام والعروبة (١)

أولاً : حماية الأماكن المقدسة الإسلامية

من مخططات الصليبية البرتغالية

حماية المسجد الحرام والمسجد النبوي والمسجد الأقصى :

كانت أعظم خدمة أسدتها الدولة العثمانية للإسلام أنها وقفت في وجه الزحف الصليبي الاستعماري البرتغالي للبحر الأحمر والأماكن المقدسة الإسلامية في أوائل القرن السادس عشر الميلادي . فعلى الرغم من أن الدولة أخفقت في طرد الاستعمار البرتغالي من مراكزه في المحيط الهندي ومنطقة الخليج العربي .. إلا أنها نجحت في منع تغلظه إلى الحجاز ، حيث كان البرتغاليون يعتزمون تنفيذ مخطط صليبي مسرف في وحشيته ، وهو دخول البحر الأحمر واجتياح إقليم الحجاز باحتلال ميناء جدة ، ثم للزحف على مكة المكرمة واقتحام المسجد الحرام وهدم الكعبة المشرفة ، ثم موالاة الزحف منها على المدينة المنورة لنهب قبر الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، ثم استئناف الزحف على تبوك ، ومنها إلى بيت المقدس والاستيلاء على المسجد الأقصى ، وبذلك تقع هذه المساجد الثلاثة في أيدي البرتغاليين . وكان الأسطول البرتغالي قد نجح في دخول البحر الأحمر وقام بمحاولتين لاحتلال ميناء جدة : كانت الأولى في عام ١٥١٧ والثانية في سنة ١٥٢٠ ولكنه أخفق في محاولتيه ، فأرسل البرتغاليون حملة كبرى إلى ميناء السويس ، باعتبارها قاعدة الأسطول العثماني في البحر الأحمر ، واستهدفوا تدمير هذه القاعدة . ولما بلغوا الطور علموا أن الأسطول العثماني يقف في حالة تأهب ، فارتدوا على أعقابهم دون أن يلتحموا به (١) .

قررت الدولة اتخاذ اليمن قاعدة حربية للدفاع عن البحر الأحمر ومنع السفن البرتغالية من دخوله كما سبق أن ذكرنا ، ثم عممت هذا المنع على جميع السفن المسيحية بحيث كان على هذه السفن أن تفرغ شحناتها في ثغر المخا في اليمن وتعود أدرجها إلى المحيط الهندي . وكانت شحنات هذه السفن يعاد نقلها على سفن إسلامية ، يعمل عليها بحارة مسلمون ، وترتفعاً

(١) دكتور عبدالعزيز محمد الشناري : المراحل الأولى للوجود البرتغالي إلخ ، بحث سبق الإشارة إليه.

إلى تغور البحر الأحمر . وكانت حجة الدولة العثمانية في هذا المنع هي أن الأماكن الإسلامية المقدسة في الحجاز تطل على مياه البحر الأحمر، ويجب ألا تندس مياهه بوجود سفن مسيحية تمخر عباب هذا البحر ، وقد ظل هذا الحظر معمولاً به حتى القرن الثامن عشر .

وجدير بالذكر أن المشروع البرتغالي الصليبي لم يكن الأول من نوعه . فقد حدث في أثناء الحروب الصليبية في الشرق العربي أن تجرأ أحد أمراء الصليبيين واسمه أرناط في المصادر العربية ، وريندى شاتيو في المصادر الأوروبية ، وكان صاحب حصن الكرك ، وقام بمشروع خطير سنة ١١٨٢ لغزو الحرمين الشريفين .. فبنى عدة سفن حملت أجزائها مفككة على ظهر الجمال حتى إبله (إيلات) على خليج العقبة ، وأعيد تركيبها ثم قامت بهجوم على ساحل الحوراء^(١) قرب ينبع ، وأغار الصليبيون على القوافل وأصبحوا على مسيرة يوم واحد من المدينة المنورة ، واعتزموا الزحف عليها ونبش قبر الرسول صلى الله عليه وسلم وإخراج جسده الطاهر ونقله إلى بلادهم . غير أن العالم الإسلامي في الشرق وقتذاك كان تضمه وحدة سياسية قوية على رأسها صلاح الدين الأيوبي . روقع على مصر واجب حماية الأماكن المقدسة في الحجاز . فما كادت تصل إليه وهو في الشام هذه الأخبار حتى عهد إلى نائبه في مصر العادل سيف الدين بتجهيز قائد الأسطول الأمير حسام الدين لؤلؤ ، وبتعقب هؤلاء الصليبيين في الحجاز وإبادتهم أو أسرهم ، وأمر صلاح الدين بقتل الأسرى ليكونوا عبرة لكل من يتجرأ على الاعتداء على حرمة الله وحرمة رسوله^(٢) .

(١) يفتح الماء وسكون الواو .

(٢) انظر تفصيلات وافية عن هذا الموضوع في بحث عنوانه ، بحر الحجاز في العصور الوسطى - للدكتور حسين ربيع ، وقد سبق الإشارة إلى هذا البحث في هذه الدراسة .

ثانياً : الدولة خافض على إسلام وعروبة شمالي إفريقيا

الدولة تبسط سيادتها على ثلاثة أقاليم فى شمالي إفريقيا :

من الخدمات الجليلة التى أسستها الدولة العثمانية للإسلام والعروبة ، بل لعل من أعظم خدماتها أنها حافظت على إسلام وعروبة سكان شمالي إفريقيا من أخطار الغزو الصليبي الاستعماري الأوروبي ، الذى حملت لواءه البرتغال وإسبانيا والمنظمة الصليبية التى اشتهرت باسم فرسان القديس يوحنا ، وكانت قد اتخذت لها فى نهاية المطاف من جزيرة مالطة مستقراً ومقاماً ، وكان من أهداف هذا الغزو أيضاً إنشاء ممالك مسيحية تنتشر على الساحل الشمال لإفريقية كمرحلة ثالثة ، وبذلك يغزو البحر المتوسط فى المدى البعيد بحيرة مسيحية أوروبية ، ويعقب ذلك فى مرحلة أخرى تغلغل صليبي أوروبي جنوباً فى داخل القارة الإفريقية . ولكن تصدت الدولة العثمانية لهذه المشروعات الصليبية الاستعمارية .. فأصبحت أحلاماً وغدت هباءً منبثاً .

بسطت الدولة العثمانية سيادتها على ثلاثة أقاليم فى شمالي إفريقيا فى القرن السادس عشر ، وكانت حسب ترتيب دخولها تحت السيادة العثمانية : الجزائر وطرابلس ، وتونس . ولم تمد الدولة نفوذها إلى مراكش - المملكة المغربية حالياً - لأسباب سنعرض لها فى موطن قادم فى هذا الفصل . كان سكان تلك الأقاليم - وبخاصة للجزائر وطرابلس - قد استجدوا بالدولة العثمانية ، على أساس أنها أكبر وأقوى دولة إسلامية اكتسحت دولاً أوروبية عديدة ، وفتحت مصر والشرق العربى الآسيوى . وطالب سكان شمالي إفريقيا بإنقاذهم من الزحف الصليبي الاستعماري الأوروبي ، الذى كان خطره يتفاقم يوماً بعد يوم ، واستجابت الدولة لاستغاثاتهم . ولذلك لم يكن دخول العثمانيين إلى شمالي إفريقيا نتيجة معارك حربية خاضتها القوات المسلحة العثمانية ضد أهالى البلاد ، أو تدخل مباشر من حكومة إستانبول على غرار ماحدث فى الشام أو مصر أو العراق ، ولكنهم فتحوها منقذين للسكان من أخطار القضاء على دينهم وطمس عروبتهم ، وتحويل بلادهم إلى جزء من العالم المسمى . أما تونس فكان الوضع فيها يختلف اختلافاً جوهرياً عن الوضع فى الجزائر وطرابلس ، اشتد الصراع عليها بين الدولة العثمانية والإمبراطورية الرومانية المقدسة وكان على رأسها الإمبراطور شارل الخامس .

تبادلت الدولتان الهزيمة والانتصار أكثر من مرة ، وفى إحدى المرات التى انتصر فيها الإمبراطور أقامت البابوية فى روما احتفالات رائعة ابتهاجاً بانتزاع تونس من المسلمين . ونجح الإمبراطور فى أن يصطنع أحد الأمراء ، وهو مولاي الحسن الحفصى ، ليكون عميلاً للاستعمار

وقبل أن يحكم تونس باسم الإمبراطور وتحت حمايته . ولما انتزعت الدولة العثمانية تونس عام ١٥٦٩ وأعادتها إلى رحاب الكتلة الإسلامية دفعت الدولة العثمانية ثمناً باهظاً .. فقد تكون تحالف دولي صليبي ضدها ، أوقع بها هزيمة بحرية فادحة في معركة لپانت البحرية عام ١٥٧١ ، وشجعت هذه الهزيمة إسبانيا على إعادة غزو تونس وإعادة حكم الحفصيين إليها . ولكنهم لم يحتفظوا بمركزهم سوى عام واحد ، وعاد إليها العثمانيون سنة ١٥٧٤ ليستقر حكمهم فيها وليؤسسوا النيابة الثالثة والأخيرة في شمالى إفريقيا .

كان من الطبيعي أن يقوم الأسطول العثماني بدور رئيسى فى هذا الصراع ، الذى احتدم بين الجانبين الصليبي والإسلامى فى شمالى إفريقيا ؛ فالتقات الصليبية كانت تأتى من أوروبا عبر البحر المتوسط إلى الأقاليم الشمالية للقارة الإفريقية . وكانت الأساطيل الإسبانية وقوات فرسان القديس يوحنا فى رودس أولاً ، ثم فى مالطة ثانياً وغيرها من القوى البحرية تتردد على القواعد العسكرية التى أنشأها الصليبيون ، وتناثرت على طول الساحل الشمالى لإفريقية من مراكز حتى طرابلس . وكان الأسطول العثماني فى القرن السادس عشر يعمل متعاوناً مع القوات البحرية ، التى كان يقودها قادة محليون نشأوا فى خدمة الأسطول العثماني .

ولاستطاع إدراك أهمية وحجم الدور الرائع الذى قامت به الدولة من أجل الحفاظ على إسلام وعروبة سكان شمالى إفريقيا من الغزو الصليبي الأوروبى إلا بعرض سريع أولاً لنشأة الأسطول العثماني وتنظيماته وتطوره ، فى مواجهة الصراع ، الذى خاضه ضد الدول الأوروبية فى حوض البحر المتوسط .

نشأة الأسطول العثماني

الفتوحات العثمانية الأولى كانت برية :

من المعروف أن الدولة العثمانية نشأت دولة برية في الأناضول . ولما عبرت جيوشها البحر إلى غاليبولي عام ١٣٥٦ ، تبعها حركة تهجير واستيطان^(١) في السهل الساحلي الأروبي المطل على بحر مرمرة حتى رودس . ومضت الدولة معتمدة على جيوشها في محاربة الدول الأروبية مثل الصرب ، التي كانت تعتمد هي الأخرى على قواتها البرية . ولذلك كان في مقدور الدولة العثمانية أن تقضى على إمبراطورية الصرب ، دون اللجوء إلى قوات بحرية . ونهج العثمانيون النهج نفسه عندما فتحوا إقليم الأفلاق والبغدان وبلاد المجر ، وغيرها من الدول والكيانات السياسية التي كانت تعتمد على القوات البرية وحدها . أما بلاد اليونان فقد فتحها العثمانيون من الداخل وكانت ذات سواحل قليلة نسبياً ، ومن هنا كان العثمانيون يختلفون عن البيزنطيين الذين كان لهم أسطول ؛ إذ كانت ممتلكاتهم تمتد على سواحل بحرية ، كما كانوا يمتلكون عدداً كبيراً من الجزر . وكان العثمانيون يخطون أيضاً عن البنادقة والجنوبيين الذين كانت قواتهم الرئيسية الضاربة تعتمد على السلاح البحري . وبمضى الوقت شعر العثمانيون بالحاجة الماسة إلى إنشاء أسطول لتأمين فتوحاتهم في البلقان ، وللاستيلاء على الجزر المحيطة بهذا الإقليم وفي بحر إيجه والبحر الأيوني ، ولل قضاء على البقية الباقية من ممتلكات البيزنطيين ، ولطرد البنادقة والجنوبيين من المناطق المتعددة ، التي كانوا قد تغلغلوا فيها وامتلكوها منذ أن أتاحت لهم الحروب الصليبية عديد الفرص لتنمية تجارتهم .

(١) انظر ملايسات حركة تهجير واستيطان مسلمي الأناضول ، وكانت حركة حكومية وشعبية كعقمة للتوسيع العثماني الإقليمي في أوروبا .

دكتور عبدالعزيز محمد الشناوي : أوروبا في مطلع إلخ ، مرجع سبق ذكره ، الطبعة الأولى ، ص ٥٩٧-٥٩٩ .

(2) Gibb Hamilton & Bowen Harold, op. cit., Vol. I, Part I, p. 89.

والواقع أن البنادقة خرجوا بنصيب الأسد من غنيمة توزيع أشلاء دولة البيزنطية ، إذ أخذوا الحى البندقى في القسطنطينية يباشرون فيه نشاطهم التجارى ، واستولوا على معظم الجزائر القريبة لبحر مرمرة والدردينل ، بالإضافة إلى بعض المراكز الساحلية في شبه جزيرة المورة ، وبقعة واسعة من الأرض شمالي خليج كورنث Corinth ، ثم ضم البنادقة إلى هذه الممتلكات جزيرة كريت التي اشتروها من يونيفرس دى مونتفرات .

انظر :

دكتور سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، مرجع سبق ذكره ، ج٢ ، ص ٩٢٧ .

كان إنشاء الأسطول ضرورة حربية للعثمانيين :

غير أن نشأة الأسطول العثماني كانت ترجع أساساً إلى رغبة الدولة العثمانية في القضاء على أسطول جمهورية البندقية . وإذا رجعنا قليلاً إلى الوراء ، نجد أن هذه الجمهورية كانت قد استحوذت على أكثر من ربع ممتلكات الدولة البيزنطية (١) في مقابل الخدمات ، التي أُنْتُهتْها البندقية للحملة الصليبية الرابعة التي غيرت وجهتها ، وهي مصر إلى القسطنطينية (٢) ، وأطاحت بحكم الدولة البيزنطية ، التي استقرت مؤقتاً في رابيزون على الساحل الجنوبي للبحر الأسود ومناطق أخرى (٣) . وإذا كانت بعض الجزر والأماكن في شبه جزيرة البلقان كانت لانزال في أيدي الدولة البيزنطية والدولة اللاتينية التي أسسها صليبيو الحملة الصليبية الرابعة ، لم يكن في مقدور هاتين الدولتين المتناحرتين إنشاء وسائل دفاع قوية أمام الهجمات العثمانية . كما لم يكن في مكتة الدولة العثمانية قهرها ، دون أن يكون لديها سلاح بحري (٤) . وفي الوقت ذاته ، كان احتلال الممتلكات البيزنطية واللاتينية أمراً ضرورياً لسلامة الممتلكات العثمانية ، ثم كان هناك عامل هام جداً حمل العثمانيين على إنشاء الأسطول . ويمثل هذا العامل في أن جمهورية البندقية كانت هي الدولة ، التي تستطيع بقواتها البحرية الضخمة والمنظمة أحسن تنظيم الوقوف أمام العثمانيين . ونجم عن هذا الوضع أن جمهورية البندقية كانت العقبة الرئيسية في تأمين الفتوحات العثمانية على الأرض الأوروبية وفي الجزائر القريبة منها ثم ، في التوسع في الحوض الشرقي للبحر المتوسط على الأقل في المراحل الأولى لنشأة الأسطول . ولذلك كان إنشاء الأسطول العثماني ضرورة قومية عثمانية للتغلب على أسطول جمهورية البندقية .

البندقية تنشئ إمبراطورية استعمارية في الليقانت :

والحق أن جمهورية البندقية - وهي قوة غربية وأفدة من وسط أوروبا - تسالت إلى عدة مناطق في الحوض الشرقي للبحر المتوسط - كان لها مراكز ومحطات بحرية على سواحل

(١) روبرت كلاري : فتح القسطنطينية على يد الصليبيين ، ترجمة دكتور حسن حبشي ، القاهرة ، ١٩٦٤ ، ص ١٠٩-١٥٤ .

(٢) في الواقع لم يستسلم البيزنطيون للغزو الكاثوليكي الغربي ، ولم يؤسسوا حكماً لهم في طرابيزون فقط ، وإنما أقاموا عدة ملكيات وإمارات اتسمت بالطابع القومي البيزنطي ، وذلك في إقليم البانيا ، وإبيروس Epirus ، وتراقيا Thrac ، والمورة . وقد سقطت الدولة اللاتينية التي أقامها صليبيو الحملة الرابعة بعد زهاء سبع وخمسين سنة (١٢٠٤-١٢٦١) انظر :

دكتور سعيد عاشور ، المرجع السابق ، ص ٩٢٨ .

(٣) عن النشاط البحري العربي للدولة العثمانية على عهد السلطان مراد الثاني ، انظر :

دكتور عبدالعزيز محمد الشناوي : أوروبا في مطلع إلخ ، مرجع سبق ذكره ، الطبعة الأولى ، ص ٦٢٤-٦٢٠ .

بلاد المورة وبحر الأرخبيل وفي مقدونيا وفي الدردنيل (أبيدوس) وبحر مرمره (رودستو) وهرقية . والجزر الأيونية والجزر الواقعة في جنوب الأناضول وغربه . وكان لها مراكز على ساحل دلماشيا في البحر الأدرياتي وبعض الأقاليم في شبه الجزيرة الإيطالية واستولت على جزيرتي كريت وقبرص . وكانت تريد الاحتفاظ بما استحوذت عليه من قواعد ومابلقته من نفوذ وقوة وهيبة . وقد أطلق الأستاذ شارل ديبل Charles Diehl ، أستاذ التاريخ البيزنطي بجامعة باريس على تلك الممتلكات ، إمبراطورية البندقية الاستعمارية، ^(١) وكان الاسم الرسمي لها هو «جمهورية القديس مرقس» ، وهي ذات نظام جمهورية أوليجاركي ^(٢) . وتجاوزت كثير من ممتلكات هذه الإمبراطورية مع ممتلكات العثمانيين ، كما أصبحت البندقية تتحكم في الطرق البحرية التي تصل بينها وبين القسطنطينية وموانئ الأناضول والشام ومصر . ولهذه الأسباب وغيرها ، تضاربت مصالح الدولة العثمانية مع مصالح جمهورية البندقية ؛ مما أدى إلى قيام صراع حربي بينهما . وكان هذا الصراع يدور فوق الماء ويعتمد على الأساطيل في المكان الأول ، ولما كانت جمهورية البندقية أسبق من الدولة العثمانية في الاعتماد على الأساطيل الحربية ، بل والأساطيل التجارية التي كانت تتحول عند الحاجة إلى أساطيل حربية .. كان على الدولة العثمانية أن تبذل غناية بالغة بإنشاء أساطيل تنادى أساطيل البندقية، إن لم تنفوق عليها في صراع زاده عنفاً وتاجراً مطيع عليه الفريقان المتصارعان من طموح واعتزاز بالنفس وشجاعة فائقة وعزيمة لا تني أمام الأخطار . وكان من عادة البحارة البنادقة أنهم عند التحامهم مع العدو ، تنطلق حناجرهم بصيحات جماعية مدوية ماركو ! ماركو ! Marco Marco ، استلاباً لبركات هذا القديس ، واعتقاداً منهم أن القوس به يحقق لهم نصراً عزيزاً في المعركة .

ويلاحظ أن جمهورية البندقية أقامت مجدها على التجارة الخارجية ، وأثرت منها ثراء عريضاً معتمدة على أسطولها . وكما كانت التجارة الخارجية مصدر قوتها ، كانت هي العامل المرجح لحكومة الجمهورية في علاقاتها الدولية . ولذلك كانت سياستها الخارجية متقلبة بل وخالية من المبادئ ، فهي حيناً ترحب بالإسهام في حملة صليبية موجهة ضد العثمانيين ، إذا رأت أن في هذا الاشتراك مايكفل لها المحافظة على ممتلكاتها ومصالحها التجارية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط ، كما حدث حين وضعت أسطولها ومواردها المالية في خدمة حملة نيقوبوليس الصليبية عام ١٣٩٦ ضد السلطان أبي يزيد الأول . وكانت هذه الحملة تجسد أكبر التكتلات الصليبية التي واجهتها الدولة في القرن الرابع عشر من حيث عدد الدول ، التي

(١) شارل ديبل : البندقية جمهورية أرستقراطية ، تعريب دكتور أحمد عزت عبدالكريم والأستاذ توفيق إسكندر ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٤٧ ، ص ٣٩ .

(٢) حكومة تكون فيها السلطة مركزة في يد قلة من الأفراد أو العائلات . ويوصف هذا الطراز من الحكومات بأنه حكم القلة أو حكم الخاصة ، والكلمة مأخوذة من Oligarchie الفرنسية .

لشركت فيها بالسلاح والعتاد والأموال والقوات البرية والبحرية^(١). وكانت حيناً آخر تهدان العثمانيين ، بل وتقبل شروطاً مهينة لها إذا لقيت هزيمة من الأسطول العثماني ، ورأت أن هذه المهادنة وقبول الشروط المذلة ؛ مما يسمح لها باستئناف نشاطها التجاري في أسواق الحوض الشرقي للبحر المتوسط .

وإذا كانت جمهورية البندقية قد أضررت نتيجة تحول طريقى التجارة الشرقية من البحر المتوسط إلى طريق رأس الرجاء الصالح ، فإن هذا الإضرار لم يقع فجأة ولم يكن شاملاً ، فظلت تمارس نشاطها التجاري مع دول غربي أوروبا وشمالها ، وظلت تبنى في دار الصناعات إحدى دول حوض البحر المتوسط قوة تحسب لها الدول حساباً ، وظلت تبنى في دار الصناعات البحرية في ثغر البندقية أحدث وأقوى أنواع السفن الحربية ، وظلت الدبلوماسية التي تميزت بها حكومتها تقوم بدور هام في سياسة البحر المتوسط وسياسة القارة الأوروبية ، واشترك سفراؤها في المؤتمرات الدولية الهامة وبرزوا فيها مثل مؤتمر وستفاليا (١٦٤٨) ومؤتمر أوترخت (١٧١٣) حتى انتهت حياة هذه الجمهورية في أواخر القرن الثامن عشر .

انساق العثمانيون لحروب البحار للأسباب التي بسطناها ولأسباب أخرى ، طرأت فيما بعد على السياسة الدولية ، مثل : مواجهة الغزو البرتغالي الصليبي للبحار الشرقية ، والنشاط المعادي الذي مارسته الروسية في البحر الأسود . ومن ثم انصرف العثمانيون يحدون عدتهم لإنشاء أسطول حربي يستعملون به قواتهم المسلحة البرية . ولم يلبث أن نما هذا الأسطول وقفز إلى مصاف أساطيل الدول الأوروبية الكبرى في حوض البحر المتوسط ، وتعددت قواعده البحرية في حوض البحر المتوسط والبحر الأسود والبحر الأحمر ومنطقة الخليج العربي . وأثبتت الدولة أنها تملك كثيراً من مقومات الدول البحرية ، ووضعت له تنظيمات ، نوجزها فيما يلي :

القائد العام للأسطول :

إذا كان السلطان هو القائد الأعلى للقوات العثمانية المسلحة بما فيها الأسطول ، فإن القائد العام للأسطول كان يطلق عليه قبودان باشى ، ومعناها رئيس قباطنة السفن الحربية ، وهى مشتقة من كلمة إيطالية^(٢) ، ثم حُرِفت إلى كلمة قبطان . وكان القبودان باشى يجمع خلال القرون الأولى لنشأة الأسطول بين منصبتين : القائد العام للأسطول وحاكم ولاية ، وكان يحمل طوخين ، ويطلق عليه بصفته الأخيرة بكاريكى أو بكاريك^(٣) . وكان له ديوان على غرار ديوان

(١) انظر تفصيلات وافية عن هذه التكتلات الصليبية فى :

دكتور عبدالمعز محمد الشناوى ، أوروبا فى مطلع القرن إلخ ، مرجع سبق ذكره ، الطبعة الأولى ،

ص ٦١٢-٦٢٠ .

(٢) ، (٣) انظر ثبت المصطلحات التركية فى نهاية هذه الدراسة .

حكام الولايات ، وكان يعقد جلساته في مقر ديوان البحرية ، وكان له معظم اختصاصات الوالي ، فكان مسئولاً عن الأمن العام في المناطق التي نيظت به ^(١) .

كانت غاليبولي إلى عام ١٥١٦ مقر قيادة الأسطول .. فكان قيودان باشي يحكم صنجقية غاليبولي ، ولذلك أطلق عليه أيضاً بكاريكي غاليبولي . وألحقت الدولة بهذه الصنجقية كلاً من قضاء جالاطه وإزميد Izmid في نيقوميديا في الأناضول؛ لأن الغالبية العظمى من سكان جالاطه - وهي إحدى ضواحي إستانبول - من أهل جنوة . وقد أسهموا بجهودهم وخبراتهم البحرية والملاحية في تطوير ودعم الأسطول العثماني ، بعد أن فتح السلطان محمد أبو الفتح السطونطيدية . أما إزميد .. فكانت تعد من المصادر الرئيسية لتزويد ترسانة البحرية بالأخشاب اللازمة لبناء الأسطول . ولما نقلت قواعد الأسطول إلى إستانبول على عهد سليم الأول ألحقت بسلطة القيودان باشي جميع السواحل تقريباً لشبه جزيرة البلقان والجزر القريبة منها ، ومناطق ساحلية أخرى في حوض البحر المتوسط . وتكونت من هذه المناطق والجزر «إيالت بحر سفيد» وترجمتها الحرفية ولاية بحر إيجة ، ولكنها كانت تشمل أقاليم ساحلية في حوض البحر المتوسط بعامه . وقد فُسمت هذه الإيالة إلى صناجق ، يحكم كل منها ، دريا بكاري، Derya Beyleri أي بك البحر ، وقد شمل سلطانه أربعة عشر صنجقاً ^(٢) .

ومما يذكر أن بعض الثغور في ولايات الدولة كانت تتبع مباشرة القيودان باشي . وعلى سبيل المثال كانت الإسكندرية خارجة عن سلطة الباشا العثماني في القاهرة ، وكانت تتبع القيودان باشي مباشرة . وظل هذا الثغر على هذا الوضع الإداري حتى تم جلاء الحملة، البريطانية عن مصر عام ١٨٠٧ في مستهل حكم محمد علي .. ولذلك يقرر أحد المؤرخين أن محمد علي كان هو المستفيد الوحيد من هذه الحملة ، بعد أن أخفقت في تحقيق الأغراض التي توختها بريطانيا منها . ونجح محمد علي في حمل الباب العالي الموافقة على إلغاء تبعية هذا الثغر لقيودان باشا ، وجعل الإسكندرية تابعة لحكومة القاهرة . وكان الإنجليز يخشون أن يرددها محمد علي القائد عام الأسطول العثماني ^(٣) . وكان حكام كل من رشيد ودمياط والسويس يطلق عليهم قيودان . وقد عادت هذه الثغور الثلاثة إلى الحكم الأم : حكومة القاهرة .

(١) وعلى سبيل المثال ، كان يتولى المحافظة على الأمن العام في جالاطه وقاسم باشا ، بينما كان يتولى هذه المسئولية في سائر أحياء إستانبول كل من آغا الإنكشارية ، والبيستنجي باشي ، والجيبي جي باشي ، والطوبجي باشي . وكان قائد الأسطول يلجأ إلى النظام الذي يتبعه هؤلاء في المحافظة على الأمن العام في مناطقهم . وكانت توجد في مناطق قائد الأسطول مراكز حراسة تخرج منها دوريات من البحارة تجوب أنحاء المناطق التي يعهد بها إليهم . وكان يرأس هؤلاء البحارة ضباط بحريون .

(٢) بروكلمان كارل ، مرجع سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ٩١ .

(3) Douin George et Mme Fawtier-Jones E.C., L'Angleterre et L'Egypte, etc., op. cit., p. LXX.

وكان أول ضابط يشغل منصب قيودان باشي هو بلطه أو غلر سليمان ، وقد عينه السلطان محمد أبو الفتح في هذا المنصب؛ تقديراً لجهوده في أثناء حصار القسطنطينية عام ١٤٥٣ . وأصدر السلطان سليمان المشرع فرماناً بترقية خير الدين بربروس إلى منصب قائد عام للأسطول العثماني مكافأة له على خدماته الحربية للإسلام في الجزائر وتونس . وسرجهء الكلام عن هذه الشخصية لحين تعرضنا لهذين الإقليمين الإسلاميين العربيين . وحسبنا أن نذكر هنا أنه منذ تعيينه في منصب قيودان باشي رفعت هذه الوظيفة إلى مرتبة وزير ، ومنح شاغلها ثلاثة أطوار ورتبة الباشوية وأصبح يطلق عليه قيودان باشا . وكانت له أسبقية على جميع الوزراء الآخرين ، وكان ترتيبه يأتي مباشرة بعد الصدر الأعظم وشيخ الإسلام . وعين عضواً في الديوان الهمايوني (الإمبراطوري) . ومنذ تعيين خير الدين بربروس في الديوان ، أصبح من التقاليد المرعية أن شاغل هذا المنصب يكون عضواً فيه بحكم منصبه - ex-officio . وكان يحضر جلساته كلما كان موجوداً في العاصمة .

تنظيمات البحرية :

كان يقوم مقام قيودان باشا في إدارة البحرية مسئول كبير ، يشرف على بناء السفن وإصلاحها وتسليحها ، وكان يطلق عليه ترسانة إميني Tersana Emini أى أمين الترسانة . أما المخازن البحرية فيتولى مسئوليتها اثنان ، أحدهما بقلب أمين ويسمى «نبارلر إميني» Enbarlar Emini والآخر بقلب ناظر ويطلق عليه «نبارلر ناظري» Enbarlar Naziri وكان هذان المسئولان الأخيران يقلان مرتبة عن مرتبة «ترسانة إميني» . أما رئيس الميناء فكان يطلق عليه «ليمان ريسي» Liman Reisi ويمنح رتبة البكوية ، وكان للبحرية أيضاً مفتش يتولى قيادة حرسها ويسمى «ترسانة كخياسي» Tersana Kahyasi . ومن تنظيمات البحرية أيضاً وجود عدد من الوظائف الإدارية ، مثل : كاتب للسفن يطلق عليه «قايونلار كاتبى» Kaylyonlar Katibi ، ومصراف يطلق عليه «سركى إميني» (١) Sergi Emini .

وحدات الأسطول :

كانت سفن الأسطول تتكون في القرن السادس عشر - شأن كل الأساطيل المقاتلة في البحر المتوسط وقتذاك - من السفن المزودة بأشعة قليلة ومجاديف ، ويطلق عليها في اللغة التركية جكديري ، أو جكديرية ، وكانت الأشعة تستخدم حين لا يكون العدو على مرمى البصر . أما المجاديف .. فلانستخدم إلا في وقت الاشتباك في المعركة ، ويجلس المجدفون في أماكن معدة لهذا الغرض ، ويوجهون السفينة إلى الالتحام بسفن العدو ومهاجمتها طبقاً لأوامر قائد السفينة . وكانت مرتبة السفينة تتحدد بعدد الأماكن المخصصة للمجدفين فيها ، ولذلك

(1) D'Ohsson Ignatius Mouradges; op. cit., t. VII, p. 435.

كان عدد الملاحين فيها قليلاً، فى حين كان عدد المجدفين والمقاتلين كبيراً . وعلى سبيل المثال كان طاقم السفينة المقاتلة من النوع المتوسط ذات المجاديف ، يطلق عليها فى اللغة التركية «قادرغة» ، على النحو التالى :

١٩٦	مجدفون
١٠٠	مقاتلون (رجال مسلحون)
٣٠	بحارة
٣٠	ضباط

أما السفينة المقاتلة من النوع الكبير الحجم ذات المجاديف ، يطلق عليها فى اللغة التركية «ماثونة» ، فكان عدد العاملين عليها كالتالى :

٣٥٧	مجدفون
١٧٥	مقاتلون
٥٥	بحارة
٦	ضباط

أما سفينة القيادة وتسمى «باشفرده Bastarda» ، القبطان ، وهى مأخوذة من كلمة إيطالية ، فكان طاقمها موزعاً وفق النظام التالى :

٤٩٧	مجدفون
٢٥٠	مقاتلون
٧٦	بحارة
٨٠	ضباط

وكان من الرجال المسلحين فى السفن ذات المجاديف على اختلاف أحجامها : الطربجية أى الذين يطلقون قذائف مدافعهم على سفن الأعداء ، ومنهم من كانوا مزودين بالسيف البائنة لاستخدامها ، إذا اقتضى الأمر ونجحوا فى التسلل إلى سفن الأعداء ، واشتبكوا فى معارك على ظهورها . أما البحارة .. فكانوا على الرغم من قلة عددهم النسبى ذوى اختصاصات متباينة ، وكان منهم من يسهر على صيانة أسلحة السفينة ويطلق على الواحد منهم آلنجر ، ومنهم من يعمل فى تسيير السفينة ، ويطلق عليه الدرومىجى ، ومنهم غلمان السفينة ، ويسمون يلكجى ، ومنهم النجارون والمقلطون .

وكان القائمون بهذه الأعمال رجالاً تخصصوا في الشئون البحرية ، أو درجوا على ركوب البحار في المقام الأول وعلى شئون القتال ، ويطلق عليهم في اللغة التركية «لوند» ، ومعناها بحارة مقاتلون متمرسون ، وهي مأخوذة من مصطلح إيطالي^(١) . ولكن أعفى اللوند من أعمال التجديف والقتال في سفن الأسطول منذ القرن السادس عشر ؛ إذ كان عملهم شاقاً وخطيراً وكانوا يقبلون القيام به على مضض . وخشي القبودان باشا أن تؤثر حالتهم النفسية على كفاءتهم القتالية ، فعهده بهذه العمليات إلى رجال يمكن إجبارهم عليها . وكان هؤلاء الرجال من أسرى الحرب البالغين ، واللذين كانوا يصحون عبيداً بمجرد وقوعهم في الأسر ومن المجرمين العتاة ، الذين صدرت عليهم أحكام بالعمل كعبيد في السفن ذات المجاديف عتوية لهم .

تطوير الأسطول العثماني :

وقد أدخلت الدولة العثمانية تطوراً هاماً في نوعية سفن أسطولها ؛ إذ أقيمت في منتصف القرن السابع عشر على بناء سفن شراعية كبرى مزودة بمدافع ، كان يتراوح عددها بين أربعين وخمسين مدفعاً في كل سفينة . وكان هذا التطوير قد سبقها إليه الدول الأوروبية الكبرى ، التي تبحر سفنها في المحيطين الأطلنطي والهندي ، بعد أن انتضح لهذه الدول أنه لاقيمة للسفن ذات المجاديف في المعارك الحربية .

ورأت الدولة العثمانية ألا تظل متخلفة في هذا الميدان ، وكانت قد مرت بتجربة مريرة في حملتها على جزيرة كريت ، التي أرادت انتزاعها من جمهورية البندقية لأسباب سياسية وعسكرية ودينية وعائلية^(٢) ، وخاضت الدولة صراعاً دامياً استطال أمده خمسة وعشرين عاماً (١٦٤٤-١٦٦٩) ، وتعرضت لهزائم كثيرة ، اعتبرت إحداهما - وقد حدثت عام ١٦٥٦ - أنها لاقتل كثيراً من حيث نتائجها السيئة عن معركة ليبانت ، وكان القبودان باشا المسؤول هو كنعان باشا ، وقد عزله السلطان محمد الرابع (١٦٤٨-١٦٨٧) وأُلقي به في السجن^(٣) .

والواقع أن الدولة العثمانية في حملة كريت واجهت تفوقاً بحرياً من جمهورية البندقية ، التي كانت أسبق منها في تطوير نوعية سفن أسطولها وخاضت المعركة ، وهي تملك مجموعة قوية من السفن الشراعية الكبرى بالإضافة إلى السفن ذات المجاديف . وكانت وحدات الأسطول

(١) انظر ثبت المصطلحات التركية في نهاية هذه الدراسة ، الجزء الرابع .

(٢) انظر عرضاً لأسباب حملة كريت وأحداثها ونتائجها في :

دكتور عبد العزيز محمد الشناوي ، أوروبا في مطلع إلخ ، مرجع سبق ذكره ، الطبعة الأولى ، ص ٨٠-٨١ .

(3) Gibb Hamilton & Bowen Harold, op. cit., Vol. I, Part 1, pp. 96-97.

العثماني مقصورة على السلاح التقليدي وهو السفن ذات المجاديف ، ويفضل السلاح المطور استطاعت جمهورية البندقية في بداية الحرب فرض الحصار على الدردنيل ، وقطع الطريق بين القوات العثمانية في كريت والاتصال المباشر ببحر إيجة (١). وإزاء تدهور الموقف الحربي .. ركزت الدولة العثمانية ، والحرب مشتعلة أوارها ، جهودها على بناء سفن شراعية كبرى مزودة بالمدافع ، واستمر هذا التركيز حتى المراحل الأخيرة من الحرب . وكان من نتائج هذا التطوير أن خفت وطأة حصار البندقية للدردنيل ، وتوجت الحملة بانتزاع جزيرة كريت من جمهورية البندقية وتوقيع اتفاقية التسليم في اليوم السابع والعشرين من شهر سبتمبر - أيلول - عام ١٦٦٩ ، وقعها أحمد كوبريللي باشا المصدر الأعظم والقائد فرانيسكو موروسيني Francesco Morosini قائد قوات جمهورية البندقية .

وكان من بين السفن الشراعية الكبرى التي بنّتها الدولة العثمانية ثلاث سفن رئيسية ، عرفت باسم سفن القيادة «صنجاقي كميليري» ، وهي من حيث الأهمية قيودانه Kapidana ، باطرونه Patrona ، ورياله Riyala وهذه الأسماء الثلاثة مشتقة من كلمات إيطالية ، وكان قادة هذه السفن الثلاث يحملون البكوية ، فكان يقال بك قيودانه ، وبك باطرونه ، وبك رياله .

وعلى عهد السلطان أحمد الثالث (١٧٠٣-١٧٣٠) بنت الدولة من السفن الشراعية الكبرى من زوات الأسطح الثلاثة Three-deckers ، وعدداً من السفن الصغيرة السريعة والخفيفة . وجرت عادة العثمانيين على إطلاق أسماء من نسج الخيال على السفن الحربية ، مثل: «تحفة الملوك» و «فاتح بحري» أي فاتح البحر ، و «بريدي ظافر» أي بريد الظفر . وقد استخدمت السفن الشراعية الكبرى في غارات حربية على سواحل إسبانيا وفي الهجوم على مالطة . ويعلق أحد المؤرخين الإنجليز على تعزيز الأسطول العثماني في ذلك الوقت بأنه كان بحثاً لذكریات مجد قديم (٢) .

وكان من المعتاد أن ترجع السفن الكبيرة المخصصة للخدمة في البحر المتوسط إلى قواعدها في الخريف قبيل اليوم السادس والعشرين من شهر أكتوبر - تشرين أول - كل عام ، وألا تخرج من هذه القواعد إلا في أواخر الربيع في اليوم الثالث والعشرين من شهر أبريل - نيسان ؛ إذ يخرج الأسطول في رحلات تفتيشية . فكان هذان التاريخان - عند العثمانيين - يشيران إلى الوقت الذي يفصل بين الصيف والشتاء .

وقبل حلول اليوم الثالث والعشرين من شهر أبريل - نيسان - كان قيودان باشا يرسل سنوياً إلى النيابات الثلاث في شمالي إفريقيا ، وهي طرابلس وتونس والجزائر ، عدداً من

(١) Loc. Cit.

(٢) Gibb Hamilton & Bowen Harold, op. cit., Vol. 1, Part 1, p. 98.

ضباط الأسطول يجمعون المتطوعين للخدمة في الأسطول، ويعطون أجر ستة أشهر مقدماً لتدبير معيشة عائلاتهم . وكان يطلق على هؤلاء المتطوعين «بايراق عسكرى» أى قوة البيارق ، وقد عرفوا بهذا الاسم ؛ لأن كل ضابط يختص بجمع هؤلاء المتطوعين ، إنما كان يجمعهم تحت لواء - بيرق - يتم عن وظيفة^(١) . أما السفن الحربية المخصصة للخدمة في البحر الأسود فلم تكن تخضع لهذا التنظيم الزمنى ، وبالتالي لم تكن تتمتع بفترة استرخاء عسكرى خشية أن تتعرض لهجوم غادر من الأسطول الروسى . أما أسطول البحر الأحمر .. فكان يخضع فى تحركاته ونشاطه لمقتضيات الظروف .

مصطلحات الأسطول العثمانى ذات أصول إيطالية :

وجدير بالذكر أن أسماء أنواع السفن فى الأسطول العثمانى ووظائفه وألقاب شاغليها مأخوذة من مصطلحات إيطالية تقابلها فى المعنى لعدة أسباب ، منها : تغلغل بحارة البندقية وخنوة فى الشرق . وكان رجال الأسطول العثمانى فى نشأته قد تتلمذوا على هؤلاء البنادقة والجنوبيين ، وقد تعمق هذا التأثير الإيطالى نتيجة سياسة السلطان محمد الفاتح . كان الإمبراطور ميخائيل السابع باليولوج Michael VII Palaeologue أراد أن يكافئ أعضاء جالية جنوة فى القسطنطينية على مساعدتهم له فى العودة إلى العرش سنة ١٢٦١ ، وإعادة قيام حكم يونانى فى القسطنطينية .. فسمح لهم بأن يحكموا ضاحية جالاطه من ضواحي العاصمة بمثابة مستعمرة ذات استقلال ذاتى . ولما فتح السلطان محمد أبو الفتوح القسطنطينية ، وأطلق عليها إستانبول .. عهد إليهم بمساعدته على تدعيم الأسطول العثمانى ؛ لأن العثمانيين كانوا حديثى عهد بصناعة بناء السفن وعلوم الملاحة البحرية فى أعالي البحار ، ولأن أهل جنوة كانوا بحارة ممتازين . هذه الكثرة الملحوظة فى المصطلحات الإيطالية التى أدخلها العثمانيون على أسطولهم ، والتى مرت بنا أمثلة كثيرة عليها ، جعلت أحد كبار المؤرخين الإنجليز المتخصصين فى تاريخ الدولة العثمانية ونظمها يذهب رأياً إلى أنه كان من المتوقع أن يأخذ الأسطول العثمانى ، حين خرج إلى حيز الوجود ، طابعاً تركياً (عثمانياً) بوجه خاص أو طابعاً إسلامياً على الأقل ، ولكن لم يحدث شيء من هذا .. فعلى العكس كان صوره طبق الأصل من أساطيل إيطاليا .

It might be expected that the Ottoman navy, when it came into being, would have a peculiarly Turkish, or at least Moslem, character. This was not so, however, It was, on the contrary, a faithful copy of the navies of Italy ^(٢)

(1) Loc. Cit., p. 100.

(2) Gibb Hamilton & Bowen Harold, op. cit., Vol. I, Part, I, p. 91.

ثم أكد في موطن نال من كتابه هذا الرأي بصورة أخرى ولسبب آخر فقال : «وطبقاً لجميع الآراء ، تظهر على الأقل حقيقة واحدة واضحة ، هي أن كل من كان يسميهم الأوروبيون المعاصرون «أتراك» ، بمعنى المسلمين الذين يتكلمون اللغة التركية ، لم يتألقوا كبحارة ، وإن الأسطول كان يعتمد بشكل مثير في جانبه الخاص بركوب البحر - تمييزاً له عن مظهره الحربي - على اليونانيين من أهل جزر وسواحل بحر إيجة وعلى المسلمين ، الذين يتكلمون العربية من سكان نيابات شمالي إفريقية . ومن هذا الحكم نستطع الحقيقة البارزة ، وهي أن الأسطول العثماني لم يكن نتاجاً عثمانياً أصيلاً إذا أُجيز استخدام هذا التعبير .

"From all accounts one point at least emerges clearly: that what contemporary Europeans called (Turks), that is, Turkish-speaking Moslems, did not shine as sailors : the navy being very strikingly dependent, in its sea faring as opposed to its military aspect, on Greeks from the islands and coasts of the Aegean and Arabic-speaking Moslems from the North African Regencies. And in this judgment the fact is evidently that the Ottoman navy, was not, if such an expression may be used, an indigenous Ottoman product" (١)

وهذا الرأي قابل للمناقشة ، لأن العبرة ليست في المظهر وإنما في المخبر . فالأسطول العثماني حمل راية الجهاد البحري الديني الإسلامي ضد تكتلات بحرية صليبية أوروبية عاتية ، سواء في حوض البحر المتوسط أو البحر الأسود أو المحيط الهندي أو منطقة الخليج العربي ، ودافع عن الإسلام وأمن الحدود الجنوبية والشرقية للولايات العربية في آسيا من الغزو الصليبي البرتغالي بوجه خاص . وقد اعترف كبار المؤرخين الأوروبيين بأن المعارك التي خاضها الأسطول العثماني كانت معارك صليبية (٢) Croisades chrétiennes ، وطبقاً لرأي مؤرخ إنجليزي عاش في عصر سابق لعصر جب ويون ، كان الأتراك العثمانيون ينادون اليونانيين في الملاحة البحرية علماً وفناً وممارسة (٣) .

ولا يقدح في قيمة السلاح البحري العثماني أن الدولة اعتمدت . أول الأمر على عدد من المهندسين والعمال المدربين الإيطاليين في بناء وحدات الأسطول ، أو أن دور بناء السفن كانت تضم عمالاً يونانيين وإيطاليين . ومن المعروف أن خدمتهم في دور الصناعات البحرية لم تكن تنسم بطابع الاستمرار ، فهي تتأثر بأحكام الحاجة ومقتضيات الظروف . ولكن الحقيقة التي

(1) Loc, Cit., p. 106.

(2) Lavis et Rambaud, op. cit., t. V, p. 859.

(3) Thornton Thos., The Present State of Turkey, 2 vols., London, 2nd ed., 1807, vol. 1, pp. 77-78.

لامراء فيها أن الأسطول العثماني قد ضم أخلاطاً من الأتراك العثمانيين والعرب من سكان شمالي إفريقية ، ومن العناصر البلقانية التي اعتنقت الإسلام ، وتديروا جميعاً في ظل الأسطول العثماني . وإلى جانب هؤلاء وأولئك كان الأسطول ينتظر عدداً من البحارة اليونانيين المسيحيين ، وعدداً أقل من بحارة شبه الجزيرة الإيطالية اجتذبتهم المغنم الوفيرة ، التي كانوا يظفرون بها في خدمة الأسطول العثماني ، فجاءوا زرافات إلى قاعدة الأسطول في إسطنبول ينشدون العمل^(١) .

لقد كان يعوز الأسطول العثماني العامود الفقري الذي مكن للأساطيل الأوروبية المعادية له وأمدتها بقوة فائقة ، ونعني به القوة البحرية التجارية القوية . ولكن كان مما عوض هذا الضعف الإمكانات المادية للعثمانيين .. كانوا يحصلون على الأخشاب بكميات وفيرة من بعض جهات الأناضول ؛ خاصة من الغابات القائمة على سواحل البحر الأسود . وكانت مناجم ولائي الأتلاق والبغدان - رومانيا حالياً - تقدم المعادن الضرورية لصناعة الملاحة والأسلحة وكانت أشربة الفن تستورد من فرنسا^(٢) ، ثم كانت السرعة والمرونة اللتان كانت عمليات بناء السفن تتم بهما .

ومع ذلك .. فإن الدولة كانت تعتمد بصورة أو بأخرى على السفن العثمانية التجارية ، التي كانت تنردد على الموانئ العثمانية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط ، إذ كان القبردان باشا يلجأ إلى إجراء استثنائي لسد النقص في عدد بحارة الأسطول الحربي . فكان يتفق مع قباطنة السفن التجارية على وضع سفنهم في خدمة الأسطول زمن الحرب ، في مقابل إعفائهم من دفع الرسوم الجمركية على البضائع ، التي تحملها سفنهم في أوقات السلم وبهذا الإجراء استطاع قبردان باشا أن يحصل على خدمات مايزيد على ألفي بحار مدرب ، يعملون في خدمة الأسطول في وقت الحرب .

وبقي هذا الإجراء الاستثنائي معمولاً به حتى عهد السلطان محمود الأول (١٧٣٠-١٧٥٤) ، فقد اعترض كمرك أميني - مدير الجمارك - على الإعفاء الجمركي لشحنات السفن التجارية ، وأصر على أن يؤدي أصحاب البضائع الرسوم الجمركية المقررة عليها . وكان يهدف من هذا الاعتراض إلى استنباط موارد مالية لخزانة الحكومة واستطاع أن يحقق هدفه^(٣) . وأصبح لازماً على قبردان باشا أن يعتمد اعتماداً كلياً على السفن الحربية دون سواها ؛ مما جعل الأسطول العثماني يواجه موقفاً صعباً إبان الحرب التي اشتعلت عام ١٧٣٦

(١) بريكمان كارل ، مرجع سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ٨٩ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٨٨-٨٩ .

(٣) Gibb Hamilton & Bowen Harold; op. cit., vol. 1, Part I, p. 105.

بين الدولة العثمانية والروسيا ؛ إذ استطاعت الأخيرة أن تحتل ميناء آزوف وغيره من الثغور البحرية في البحر الأسود ، وأن تتقدم في نهر الدانوب وتحتل ولاية البغدان وتدخل مدينة واسى عاصمتها^(١) ، واضطرت الدولة إلى تخصيص جزء لا يستهان به من الأسطول العثماني للعمل في البحر الأسود لمواجهة احتمالات خطر التقدم الروسى في هذا البحر ، وإلى إبقاء عدد من السفن الصغيرة في نهر الدانوب للدفاع عن ولايتى الأفلاق والبغدان .

الأسطول العثماني عبر تاريخ الدولة :

كان حكم السلطان مراد الأول (٣٦٠-١٣٨٨) هو البداية الحقيقية لنشأة الأسطول العثماني .. فإلى جانب سياسته في التوسع الإقليمي في البلقان ، ونقله عاصمة الدولة إلى أدرنة في أوروبا ، بنى هذا السلطان عدداً من السفن ، ونظم قوة عسكرية من البحارة ، وأقام داراً للصناعات البحرية في كل من أزمير وكميليك ، وأنشأ ثكنات عسكرية للبحارة في غاليبولى . وقد انتهج ابنه أبو يزيد الأول (٣٨٨-١٤٠٣) سياسة أبيه ، واهتم بتعزيز الأسطول وتوسيع ميناء غاليبولى ؛ حتى أصبح يتسع لسبعين سفينة . وكان قد وضع في برنامجه الحربى فتح القسطنطينية وفرض عليها حصاراً محكماً ، وكانت أوروبا تتوقع سقوطها بين يوم وليلة . ولكن تعرضت الدولة لكارثة الغزو المغولى بقيادة تيمور الأعرج (تيمور لك) ، وواجهتها هزيمة أليمة في معركة أنقرة في اليوم العشرين من شهر يوليو - ١٤٠٢ ، ووقع السلطان أسيراً ورفاقه في الأسر في السنة التالية ، وتعرضت الدولة لكارثة أخرى هي الحرب الأهلية بين أمراء الأسرة العثمانية كان كل منهم يبتغى إلى للعرش سبباً .

وقد استطلت هذه الحرب الأهلية عشر سنوات (١٤٠٣-١٤١٣) ، وانتهت بتولى العرش محمد الأول^(٢) ابن أبى يزيد (١٤٣١-١٤٤٦) ، وكان لهاتين الكارثتين أثرهما على الأسطول شأن سائر أجهزة ومرافق الدولة . ولكن هذا السلطان أسدى إلى الدولة خدمة جليلة ؛ إذ أزال آثار كارثة المغول ومحنة الحرب الأهلية ، وعمل على إعادة تنظيم الدولة بحيث مهد الطريق أمام خلفائه السلاطين ؛ ليتابعوا سياسة تعزيز القوات المسلحة العثمانية بما فيها الأسطول ،

(١) انتهت هذه الحرب بعقد معاهدة بلجراد في الثامن عشر من شهر سبتمبر - أيلول - عام ١٧٢٩ ، وكان من بين ما جاء فيها التزام روسيا بهدم قلعة ميناء آزوف وعدم تجديدها مستقبلاً ، وأن يسمح للروسى بأن تقيم قلعة جديدة على مقربة من الجزيرة الواقعة في نهر دون Don ، الذى يصب في الساحل الشمالى للبحر الأسود . كما قررت المعاهدة عدم السماح للروسى ببناء أو إبقاء سفن حربية أو تجارية في البحر الأسود أو بحر آزوف ، وأن يمارس رعايا روسيا نشاطهم التجارى في البحر الأسود على سفن عثمانية. انظر:

Hurewitz J.C., op. cit., vol. 1, pp. 47-51.

محمد فريد بك ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٥٠-١٥٥ .

(٢) كان السلطان محمد الأول يطلق عليه أيضاً محمد شلبى ، وتكتب بالجمع المعطشة جالبى .

وليمضوا قديماً في برنامجهم الحربى الهادف إلى التوسع . فقد بنى السلطان مراد الثانى (١٤٢١-١٤٥١) ، عدداً من السفن مكنت العثمانيين من انتزاع سالونيك من جمهورية البندقية .

نشاط مكثف للأسطول على عهد أبى الفتوح بعد فتح القسطنطينية :

ويعد حكم السلطان محمد أبى الفتوح (١٤٥١-١٤٨١) بداية مرحلة هامة فى تاريخ الأسطول العثمانى ؛ لأن مشروعه الرئيسى الذى نفذه فى مستهل حكمه الطويل ، وهو فتح القسطنطينية تطلب بناء عدد كبير من السفن ، يذهب بعض المؤرخين اليونانيين إلى أنها بلغت أربعمائة وعشرين سفينة بين كبيرة ومتوسطة وصغيرة .

لم يقف نشاط الأسطول العثمانى بعد فتح القسطنطينية عام ١٤٥٣ ، بل ازدادت ميادين العمل أمامه على عهد السلطان محمد أبى الفتوح . وكانت هذه الأعباء الجديدة أمراً طبيعياً بعد أن أصبح الأسطول يسيطر على ضفاف اليوسفور الأوروبية والآسيوية وأصبح الطريق أمامه مفتوحاً إلى البحر الأسود للقضاء على مملكة طرابيزون وممتلكات جمهورية جنوة فيه وفى بحر إيجه وموانئ شبه جزيرة المورة ، ثم فرق ذلك كله الصراع البحرى ، الذى خاضه الأسطول ضد جمهورية البندقية .

استولى السلطان محمد أبو الفتوح بفضل الأسطول سنة ١٤٥٩ على عدد من الموانئ الهامة فى بلاد المورة (١) ، ثم تفرغ السلطان للقضاء على مملكة طرابيزون ، وهى كما ذكرنا دولة مسيحية يونانية قامت على أنقاض الدولة البيزنطية بعد سقوطها المؤقت عام ١٢٠٤ . وهاجم عاصمتها طرابيزون على البحر الأسود براً وبحراً ، واستولى عليها عام ١٤٦١ ووقع آخر ملوكها وهو دافيد كومنين David Comnène أسيراً ، وظل فى الأسر بضع سنين ، ثم صدر الأمر سنة ١٤٧٠ بنهبه مع جميع رفاقه . وكان لجمهورية جنوة ممتلكات ومحطات تجارية فى البحر الأسود وبحر إيجة ، وكان من البرنامج الحربى للسلطان محمد أبى الفتوح طرد الجنويين من هذه الأقاليم ، وقد بدأ بطردهم من مدينة إينوس (٢) Enos والجزر القريبة منها . وفى سنة ١٤٦١ انتزع السلطان منهم موقعاً هاماً فى شمالى الأناضول هو أماستريس Amastria ثم استولى فى عام ١٤٧٥ على ثغر كافه Caffè ويقع فى شبه جزيرة القرم على البحر الأسود ، ثم انتزع منهم آروف على ذات البحر ، ووضع يده على كل المحطات التجارية التابعة لجمهورية جنوة فى منطقة البحر الأسود ، واعترف تثار خانبة القرم وملحقاتها بالسيادة

(١) كان من الموانئ التى انتزعتها السلطان :

كورنت Corinth - أفارينو Avarino - نفاران Navarin أركاديا Arkadia - مونيغاسيا Monemvasia .

(٢) تقع مدينة إينوس على دلتا نهر ماريتزا Maritza وخليج إينوس .

العثمانية ، وأصبح البحر الأسود بحيرة عثمانية .

وكانت الحرب التي اندلعت بين السلطان محمد أبى الفتح وجمهورية البندقية أطول أمدا وأشد عنفاً وأكثر تعقيداً من الحرب ، التي خاضها ضد جمهورية جنوة ؛ إذ استطال أمد حرب البندقية مايقرب من سبعة عشر عاماً (١٤٦٣-١٤٧٩) ، وامتد نشاط الأسطول العثماني إلى أجزاء شتى من الحوض الشرقى للبحر المتوسط سواء حول الجزر المفتثرة فى بحر إيجة أو على سواحه الشمالية وشملت صراعاً صليبيّاً أوروبياً ضارياً دعا إليه البابا سكست الرابع Sixte (١٤٧١-١٤٨٤) . ففى بلاد المورة هاجم الأسطول العثماني سنة ١٤٦٧ الجزر الهامة فى IV جزر بحر الأرخيل الخاضعة للبندقية ، وكان من أهمها جزيرة أطلق عليها الملاحدون الإيطاليون فى العصور الوسطى اسم نجرپون Negrepon أى الجسر الأسود^(١) ، واستولى العثمانيون عليها وانتقموا من للحامية والسكان المدنيين انتقاماً ذريعاً ، فقطعوا تقطيعاً أجسام بعض جنود القلعة بواسطة المناشير ، ووضعوا البعض الآخر منهم على الخوازيق ليموتوا موتاً بطيئاً ، ومثلوا بجثة نائب البندقية فيها أشعث تمثيل ، ونجحت جمهورية البندقية فى العام التالي (١٤٦٨) فى تكوين تحالف صليبي ضد الدولة العثمانية .

وقد ضم هذا التحالف بالإضافة إلى جمهورية البندقية - البابا سكست الرابع وحقان نابولى والمجر وترنسلفانيا وفرسان القديس يوحنا فى جزيرة رودس . وبسبب هذا الحلف الصليبي .. انتقلت العمليات الحربية إلى سواحل آسيا الصغرى ، واستولت القوات المتحالفة على أزمير ، وحالت دون استيلاء الأسطول العثماني على ثغر ليلانت وكان تابعاً لجمهورية البندقية . وفى الجبهة الأوروبية اجتاح الأسطول العثماني ساحل دلماشيا ، وكانت تتناثر عليه عدة موانئ ومراكز تابعة لجمهورية البندقية ، التي خشيت أن تتساقط تباعاً بقية ممتلكاتها فطلبت الصلح . ولكن رفض السلطان محمد أبو الفتوح وقف إطلاق النار حتى لايعطيها فرصة لاسترداد نفاسها واقترب الأسطول العثماني من البندقية ذاتها حين أغار على إقليم فريول Frioul ، وبك المنطقة الواقعة بين البندقية وثرغريستا وكان سكان الثغرين يشاهدون أسنة الليران وأعمدة الدخان تتصاعد من القرى ، التي أحرقتها مدفعية الأسطول .

وأخذ الموقف بالنسبة لجمهورية البندقية يتدهور من سوء إلى أسوأ ، وانضمت عرى التحالف الصليبي سنة ١٤٨٧ بخروج مملكتى نابولى والمجر منه وتبعهما سائر الأعضاء . ووقفت جمهورية البندقية وحيدة أمام العثمانيين ، واضطرت إلى قبول معاهدة سنة ١٤٧٩ وكانت معاهدة مهينة لها تقرر فيها أن تدفع مبلغاً باهظاً باسم تعويضات الحرب ، فضلاً عن جزيرة سنوية ، وأن تتنازل للدولة عن عدة مدن وجزر^(٢) ، وأن تسحب قواتها من الأماكن التي

(١) تسمى الآن جزيرة إيبييه Eubée ، وكانت لها قلعة تسمى إغريبيوس Egrippos .

(٢) تنازلت جمهورية البندقية للدولة العثمانية عن :

أرجوس ، نجرپون ، وكنوس ، وماين Magne .

بقيت لها في ألبانيا . وسمحت الدولة العثمانية لجمهورية البندقية في مقابل فداحة هذه التنازلات بأن يمارس البنادقة التجارة الحرة في الأراضي العثمانية ، وبأن تعين حكومة الجمهورية ممثلاً تجارياً في جالاطه في إستانبول ؛ ليشرّف على مصالحها كمظهر من مظاهر تطبيع العلاقات بين الدولتين .

وهكذا قام الأسطول العثماني بدور رئيسي في بسط سيطرة الدولة على الساحل الشرقي للبحر الأدرياني . وفي السنة التالية (١٤٨٠) هاجم الأسطول ثغر أوترانت Otrante في مملكة نابولي ، ونجح السلطان في إنزال قواته في الثغر وذبح قائد الحامية وأسر اثني عشر ألفاً من جنودها وسكانها . واعتزم أن يتخذ من أوترانت قاعدة للزحف على شبه جزيرة إيطاليا من الجنوب إلى الشمال حتى يصل إلى روما مقر البابوية ، ولكنه جاز إلى ريه في اليوم الثاني من شهر مايو - آيار - عام ٤٨١ عن اثنين وخمسين عاماً ، وانسحب العثمانيون من أوترانت . ويقرر أحد المؤرخين أن أوروبا تنفست الصعداء حين تطايرت الأنباء بوفاة ، واعتقدت أنها أنقذت من خطر شديد ، وأمر البابا سكمت الرابع أن تقام صلاة الشكر ثلاثة أيام سويًا^(١) . وعلى عهد السلطان أبي يزيد الثاني (١٤٨١-١٥١٢) ، فرضت ضريبة خاصة على إستانبول ومدن أخرى للإئناق على بناء السفن^(٢) . ولما تولى العرش ابنه سليم الأول (١٥١٢-١٥٢٠) نقل في عام ١٥١٦ المراكز البحرية الرئيسية للأسطول من قاعدتها الأصلية في غاليبولي إلى إستانبول ، حيث أنشأ داراً لصناعة السفن «ترسانة» في ضاحية جالاطه على القرن الذهبي ، ويطلق عليها في اللغة التركية «ترسانة بوزغازي» أي بوزغاز البحرية^(٣) . وقد أمر بهذا النقل قبل أن يخوض صراعاً حروباً ضد دولة المماليك الشراكسة في الشام ومصر ، وقد بنى سليم في هذه الترسانة سفناً أكبر حجماً من أي سفينة استعملت حتى ذلك الوقت . وكان يعد العدة لفتح جزيرة رودس منذ أن عاد إلى إستانبول عقب انتهاء العمليات الحربية في الجبهتين الآسيوية والإفريقية . ولكن فاجأه الموت وهو في الطريق من إستانبول إلى أدرفه في اليوم الثاني والعشرين من شهر سبتمبر - أيلول - عام ١٥٢٠ عن أربعة وخمسين عاماً ، وبعد حكم قصير دام زهاء ثمانين سنوات . وارتقى العرش من بعده ابنه سليمان ، وعلى عهده كان للأسطول نشاط لم تشهد له الدولة العثمانية من قبل مثلاً .

ومما يذكر أن السلطان سليم بعد أن أقام في القاهرة بضعة أشهر غادرها في اليوم الثامن والعشرين من شهر مايو - آيار - عام ١٥١٧ إلى الإسكندرية ؛ ليقوم بالفتيش على الأسطول

(١) Lavalée, Histoire de la Turquie, t. I, p. 275.

(٢) Gibb Hamilton & Harold Bowen, op. cit., Vol. I, Part I, p. 105, fn. 2.

(٣) لم تكن جالاطه Galata حتى بداية القرن السادس عشر تمتاز عن بيرا Pera إذ كانت لقطعة جالاطه تطلق على كل المنطقة .

العثماني ، وكان بقيادة بيري باشي Piri وسافر إليها بطريق النيل من بولاق إلى رشيد ومنها امتطى صهوة جواده وسار ، في حراسة ألف فارس من سلاح الفرسان ،^(١) على طول الشريط الساحلي إلى الإسكندرية ، حيث يلغها في اليوم الثاني من شهر يونيو - حزيران - وأقام في قلعة المدينة ، ثم استعرض الأسطول وكان يتكون من مائتي سفينة . ثم زار المدينة واستقبل فيها مشايخ العربان الذين قدموا له ، التقاد ، أي هدايا القُدوم . وكانت عبارة عن خيول وجمال وأغنام وأبقار وغير ذلك ، وغادر الإسكندرية في اليوم السادس من شهر يونيو - حزيران - عائداً إلى القاهرة . من الطريق نفسها فبلغها في اليوم الثاني عشر من ذات الشهر بعد غيبة استمرت أسبوعين^(٢) ، وتدل ملابسات هذه الزيارة على أن الهدف الرئيسي منها كان التفتيش على الأسطول وبالتالي على مدى اهتمامه به وضخامة عدد وحدته .

الأسطول على عهد السلطان سليمان المشرع :

منذ أن استولى السلطان سليمان المشرع على العرش (١٥٢٠-١٥٦٦) ظفر الأسطول بعناية بالغة منه . فأنشأ له - إلى جانب قاعدته الرئيسية في إستانبول - قواعد بحرية في جزر بحر الأرخبيل وفي أثولنا على ساحل ألبانيا وفي غيرها ، كما أنشئت قاعدة بحرية وترسنة في ميناء السويس يرتكز إليها أسطول البحر الأحمر والبحار الشرقية^(٣) .

وقد استهل سليمان حكمه بعد أن فرغ من فتح بلغراد عام ١٥٢١ بانتزاع جزيرة رودس ، من فرسان القديس يوحنا في أواخر عام ١٤٢٢ ، وكانت قوة الأسطول العثماني المهاجم تتكون من ثلاثمائة سفينة بين سفن حربية وسفن نقل الجنود . وبدأت بنقل طلائع الحملة وكان عدد أفراد هذه الطلائع عشرة آلاف مقاتل ، ثم جاءت بالقوات الرئيسية وقوامها مائة ألف جندي كانوا تحت قيادة السلطان^(٤) .

(١) كانت الأوامر قد صدرت إلى يونس باشا بأن يتحرك بقواته من تروجه لمقابلة سليم في رشيد والتوجه معه إلى الإسكندرية . وقد صدر أمر السلطان بعد عودته إلى القاهرة بتعيين يونس باشا نائباً للسلطان في حكم مصر ثم عزله في شهر شعبان ٩٢٣ (١٩) من أغسطس - آب - إلى ١٦ من سبتمبر - أيلول - عام ١٥١٧) وولى مكانه خاير بك ثم أمر في الشهر ذاته بقتل يونس باشا وفصل رأسه عن جثثاته .

(٢) ابن إياس ، مصدر سبق ذكره ، نشر الأستاذ الدكتور محمد مصطفى ، ج ٥ ، ص ١٨٤-١٨٧ ، وانظر أيضاً Combe Etienne, op. cit., p. 14 .

(٣) عن نشاط الأسطول العثماني على عهد السلطان سليمان المشرع في البحر الأحمر والبحار الشرقية . انظر : دكتور عبدالعزيز محمد الشناوي : المراحل الأولى للوجود البرتغالي في البحر الأحمر ، بحث سبقت الإشارة إليه .

(٤) انظر أسباب فتح السلطان سليمان المشرع لجزيرة رودس ووقائع الفتح في : دكتور عبدالعزيز محمد الشناوي : أوروبا في مطلع الفتح ، مرجع سبق ذكره ، الطبعة الأولى ، ص ٦٩٠-٦٩٢ .

وبفضل استيلاء السلطان سليمان على جزيرة رودس ، زادت سيطرة الأسطول العثماني على الحوض الشرقي للبحر المتوسط . فقد كانت له من قبل سيطرة على سواحل الأناضول والبلقان والشام ومصر ، وقد استغل السلطان سليمان استيلاءه على جزيرة رودس استغلالاً حربياً واسع النطاق . فقام الأسطول العثماني بتطهير بحر إيجه من الجزر والمحطات البحرية ، التي كان يتخذها البنادقة وغيرهم جيوباً عسكرية لهم ، وما لبث أن نقل الأسطول عملياته الحربية إلى البحر الأيوني ثم البحر الأدرياتي .

النشاط الحربي للأسطول العثماني في بحر إيجه عام ١٥٣٧ :

بينما كانت الحرب تدور في ضراوة بالغة بين قوات فرنسا وقوات الإمبراطورية الرومانية المقدسة التي زحفت على فرنسا من ناحية الجنوب الشرقي ، وتكبدت فيها الدولتان خسائر فادحة .. استجاب السلطان سليمان في مايو - أيار - ١٥٣٧ لنداء فرنسوا الأول ملك فرنسا ، وأنفذ حملة لتخفيف الضغط على القوات الفرنسية ، ولكي يضطر الإمبراطور شارل الخامس إلى حجز جزء من قوات الإمبراطورية في الجبهة الشرقية ^(١) . وقد استولى الأسطول العثماني على أفلونا Avlona وهو ميناء يقع على البحر الأيوني . ومن هذا الميناء اتجه الأسطول إلى جزيرة كورفو Corfu ، وفرض عليها حصاراً ، وتصدى للعثمانيين الأسطول الإسباني بقيادة أندريه دوريا André Dorea أحد مشاهير القادة البحريين الإسبانين . وانتصر على الأسطول العثماني في المراحل الأولى ، ولكن سرعان ما تفوق عليه خير الدين بربروس باشا وحول الهزيمة إلى نصر ، ثم اضطر إلى رفع الحصار عن كورفو ، وعوض هذا الانسحاب بفتح جزر بحر إيجه ^(٢) بما تضمنه من جزر الدوديكانيز Dodékanése ، ولما رأى حاكم جزيرة ناكسوس Naxos ^(٣) وهي كبرى جزر الأرخبيل اليوناني ^(٤) ماحل بسائر الجزر سارع إلى إعلان خضوعه للسلطان العثماني ، وعقد معاهدة تمهد فيها بدفع جزية قدرها خمسة آلاف دوكة سنوياً وأن يكون تابعاً للسلطان .

(١) انظر تفاصيل من الموقف الدولي في أوروبا عقب سلم السيدات أو صلح كنبراي

La Paix des Dames ou la Paix de Cambrai.

وارتداد خطر العثمانيين سواء في القارة الأوروبية أو في حوض البحر المتوسط ، في دكتور عبد العزيز محمد الشناوي : أوروبا في مطلع إلخ ، مرجع سبق ذكره ، الطبعة الأولى ، ص ٢٥٩-٢٦٢ .

(٢) كان من بين الجزر التي استولى عليها الأسطول العثماني :

Syra-Guira (Gyatos) - Pathmos - Stampalia - Eginé.

(٣) كان اسم هذا الحاكم كريسبو Crispo .

(٤) تسمى جزر بحر الأرخبيل اليوناني سيكلاديس Cyclades . وهذه اللفظة مشتقة من الكلمة اليونانية Kuklos ومعناها دائرة ، لأن جزر بحر الأرخبيل في مجموعها تكون دائرة حول ديلوس Délos وهي أصغر جزر الأرخبيل .

نشاط الأسطول على سواحل دلماشيا في البحر الأدرياتي سنة ١٥٣٨ :

وعلى الرغم من عقد هدنة نيس في اليوم الثامن عشر من شهر يونيو - حزيران - عام ١٥٣٨ بين الإمبراطور شارل الخامس وفرنسا الأول ملك فرنسا (١) ، وفيها تقرر وقف العمليات الحربية بينهما لمدة عشر سنوات .. أثبتت الأحداث أن هذه الهدنة لم تكن إلا قصاصة ورق لا قيمة لها . فقد استمرت الحرب مستعر أوارها بين العاهلين في الحوض الشرقي للبحر المتوسط ، وتدعم مركز الإمبراطور بانضمام جمهورية البندقية والبابا پول الثالث وفرديناند ملك النمسا إليه ، وظهر التحالف الفرنسي العثماني قوياً في هذا الوقت العصيب . فواصل خير الدين بريروس باشا - قيودان باشا - عملياته الحربية ومضى يستكمل الاستيلاء على بقية جزر بحر الأرخيبل (٢) ، ثم قام بهجوم على جزيرة كريت ، وتصدى له أندريه دوريا القائد البحري الإسباني . ولكن كان النصر حليف خير الدين بريروس الذي أشعل النيران في مدينتين بقذائف مدفعية الأسطول ، كما أحرق عدداً كبيراً من القرى الساحلية في الجزيرة (٣) .

انتصار بحري ساحق للأسطول في معركة بريغيزا :

هاجم الأسطول العثماني السواحل الجنوبية لشبه جزيرة إيطاليا ، وأنزل قوات عثمانية على مقربة من المدينة البحرية أوترانت Otrante وانتشرت الشائعات في أرجاء أوروبا بأن السلطان سليمان المشرع يبتغي الزحف منها على روما مقر البابوية والكنيسة الكاثوليكية ، وأنه سوف بها مافعله السلطان محمد أبو الفتوح حين دخل القسطنطينية عام ١٤٥٣ ، وحول كاتدرائية القديسة صوفيا إلى مسجد . وارتفعت الأصوات في أوروبا تطالب بضم الصفوف لمواجهة هذا الخطر الإسلامي العثماني الداهم ، الذي تتعرض له الكنيسة الكاثوليكية . وعقد في عام ١٥٣٨ حلف صليبي دولي ، كان قوامه الإمبراطورية الرومانية المقدسة وجمهورية البندقية والبابوية . وتلاقت أساطيل هذا الحلف تجاه ميناء بريغيزا Prévéza جنوبي جزيرة كورفو . ولجأ خير الدين بريروس إلى الحيلة كي يصرف قادة السفن عن القتال . وتظاهر برغبته في الدخول في مفاوضات للصلح ، وقدم لهم مقترحات في هذا الصدد . وبينما كانت الاتصالات دائرة ، وبينما كان البحارة في حالة استرخاء عسكري .. اشتبك معهم في معركة

(١) من هدنة نيس ، انظر :

دكتور عبدالعزيز محمد الشناوي : أوروبا في مطلع إلخ ، مرجع سبق ذكره ، الطبعة الأولى ، ص ٢٦٢-٢٦٣ .

(٢) كان من بين الجزر التي استولى عليها الأسطول العثماني .

Skiathos - Skyros - Karpathos (Skarpantos).

انظر :

Laviset Rambaud, op. cit., t. IV, p. 732.

(3) Loc. Cit.

وردهم على أعقابهم خاسرين ، واسترد الأسطول العثماني سمعته بعد أن نال منها انتصار الإمبراطور شارل الخامس ، الذي كان قد استولى على تونس عام ١٥٣٥ . ومما يذكر أن وحدات الأسطول الفرنسي بقيادة سان بلانكار Saint-Blancart كانت موجودة في مياه المعركة ، ولكنها لم تشارك على الإطلاق في العمليات الحربية ، وهذه حقيقة يقرها أحد كبار المؤرخين الفرنسيين :

La flotte française, commandée par Saint-Blancart, avait paru dans les eaux de Prévéza, mais sans prendre part à aucune action. (١)

أما التحالف الصليبي الدولي.. فقد ترنح بعد هذه الهزيمة البحرية ، وبذل فرنسا الأول ملك فرنسا جهوده الدبلوماسية لإخراج جمهورية البندقية من هذا التحالف . وعهد بهذه المهمة إلى مبعوثيه الدبلوماسيين وهما رنسون Rincon ، وسيزار كانتلمو Cesar Cantelmo ونجا في هذه المهمة ، وعقد صلح في عام ١٥٣٩ بين الدولة العثمانية وجمهورية البندقية (٢) .

امتداد نشاط الأسطول إلى الحوض الغربي للبحر المتوسط :

ظل نفوذ الأسطول العثماني بعيداً عن الحوض الغربي للبحر المتوسط حتى الثلاثينيات من القرن السادس عشر ، ثم ظهر قوة ضاربة عملاقة شامخة في أنحاء شتى من هذا الحوض ، شملت جنوبى إيطاليا وأجزاء من جزيرة صقلية والساحل الجنوبي لفرنسا وسواحل إسبانيا ، فضلاً عن ثلاثة أقاليم إسلامية عربية ، هي : الجزائر وتونس وطرابلس . وجاء نشاط الأسطول العثماني في مياه تلك الجهات نتيجة عدة عوامل ، كان من بينها :

أولاً : اشتداد الصراع الديني بين الإسلام والمسيحية في منطقة شمالى إفريقية ، وهو الصراع الذى وصل إلى حد الاشتباك المسلح بين البرتغال وإسبانيا من ناحية ، والقوى الإسلامية في شمالى إفريقية من ناحية أخرى ، وقد أضفى عليه البرتغاليون والإسبانيون الطابع الصليبي العنيف ؛ مما دعا القوى الإسلامية إلى الاستجداد بالدولة العثمانية بصفتها أكبر دولة إسلامية .

ثانياً : سياسة التوسع الإقليمي البحرى التى انتهجتها الدولة العثمانية باستيلائها تباعاً على ممتلكات جمهورية البندقية .

ثالثاً : التحالف بين الدولة العثمانية وفرنسا ضد عدوهما المشترك شارل الخامس ، إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة .

(1) Lavisé et Rambaud, op. cit., t. IV, p. 732.

(2) Loc. Cit.

وكان امتداد نشاط الأسطول العثماني إلى الحوض الغربي للبحر المتوسط بمثابة فتح جبهة حربية ثانية ضد الإمبراطور شارل الخامس، وسياسة عليا للدولة على عهد السلطان سليمان، استهدفت منها مزيداً من التعاون بين الدولة العثمانية وفرنسا؛ إذ أصبح الاتصال العسكري والتعاون الحربي بين الدولتين -بفضل الأسطول العثماني- مباشراً وأكثر سهولة وأشد فاعلية، فإن الحروب البرية التي خاضتها الدولة ضد المجر وضد النمسا لم تتح الفرصة أمام فرنسا لتنسيق التعاون المنشود.

أما وقد فتحت الدولة العثمانية جبهة حربية في هذا الحوض الغربي، الذي تطل فرنسا على سواحلها الشمالية.. فقد أصبح في مقدور الدولتين تنسيق وتعزيز التعاون الحربي بينهما، واستطاع الأسطول العثماني أن يتغفل في أنحاء الحوض الغربي، وأن يتخذ من الموانئ الفرنسية قواعد له يحتمي بها، وأن يقوم بمهاجمة ممتلكات الإمبراطور شارل الخامس؛ في إيطاليا وإسبانيا؛ كي يخفف الضغط على القوات الفرنسية في حربها ضد هذا الإمبراطور.

ولم تكن الانتصارات التي حققها الأسطول العثماني تقل من حيث أهميتها عن الانتصارات التي سجلتها الجيوش العثمانية على أرض القارة الأوروبية في بلغراد وفي موهاكز، بل كانت انتصارات الأسطول العثماني أبقيت أثراً من فتوحات المجر والنمسا؛ لأنه نجم عن انتصاراته في الحوض الغربي للبحر المتوسط إنقاذ شمالي إفريقيا من الغزو الصليبي الأوروبي، ودخول ثلاثة أقاليم إسلامية عربية تحت السيادة العثمانية، وتراوحت فترة هذه السيادة بين قرنين وثلاثة قرون.

وسنرجىء الكلام عن الجبهة الإفريقية في الحوض الغربي للبحر المتوسط عند تعرضنا لموضوع الجزائر وطرابلس وتونس.

هجوم الأسطولين العثماني والفرنسي على ثغر نيس :

لم يتأخر السلطان سليمان المشرع عن تقديم المساعدات الحربية، التي طلبها فرنسوا الأول في أثناء الحرب التي اشتعلت من جديد بين هذا الأخير والإمبراطور شارل الخامس حول دوقية ميلان Milan في شمالي إيطاليا عقب هدنة نيس. وقد أبحر خير الدين بربروس من إسطنبول في شهر مايو - آيار - عام ١٥٤٣، على رأس قوة بحرية كبيرة إلى جنوب فرنسا لمساعدة الفرنسيين على تخليص ميناء نيس من قوات شارل الخامس. وكان في رفقته يولان Paulin القائد البحري الفرنسي، واستولى خير الدين في يونيو - حزيران - عام ١٥٤٣ على ثغر رجيو Reggio في جزيرة صقلية ويطل على بوغاز ميسينا، ثم مضى يطهر المنطقة الواقعة في منتصف حوض البحر المتوسط من سفن الإسبانيين حتى بلغ مارسيليا في يوليو - تموز - عام ١٥٤٣ وهناك انضم إليه أميرال فرنسي هو الدوق إنجهين Enghein، الذي كان تحت

إمرته أربعون سفينة مختلفة الأنواع والأحجام .

وتعاون الاثنان في الاستيلاء على ثغر نيس في اليوم العشرين من شهر أغسطس - آب عام ١٥٤٣ ، ولكن تعذر على العثمانيين والفرنسيين الاستيلاء على حصن المدينة ؛ إذ أنقذه من السقوط ووصل أسطول إسباني يقوده أندريه دوريا ، ووصل جيش إمبراطوري من دوقية ميلان . ولما استعصت القلعة على المهاجمين عمد العثمانيون إلى الانتقام الذريع من سكان نيس ، فنهبوا المدينة وقتلوا السكان وأعملوا النار في منشأتها (١) ، ومما هو جدير بالذكر أنه حدث نزاع بين القائد المتحالفين ، إذ هدد خير الدين بربروس زميله الأميرال الفرنسي بوضع الأغلال في يديه ؛ لأن هذا الأخير اهتم بشحن كميات هائلة من اللبنيذ من مارسيليا ، ولم يهتم بتزويد سفنه بمقادير كافية من الذخائر (٢) .

الأسطول العثماني يتخذ من طولون قاعدة حربية له :

وفي سبتمبر - أيلول - عام ١٥٤٣ ، وقع حادث من الحوادث الفريدة في التاريخ التي لاتحدث إلا لماماً أو لاتحدث على الإطلاق .. فإن طولون - وهو الميناء الحربي لفرنسا في حوض البحر المتوسط - قد تحول إلى قاعدة حربية إسلامية عثمانية برضاء وموافقة السلطات الفرنسية . كان الأسطول العثماني في الحوض الغربي للبحر المتوسط ، يهاجم في غير هوادة الأهداف العسكرية الإسبانية ، وكان في حاجة إلى قاعدة حربية يستند إليها في عملياته العسكرية . وفي ضراوة القتال المستعر بين فرانسوا الأول والإمبراطور شارل الخامس ، وقع اختيار ملك فرنسا على ثغر طولون ليكون قاعدة للأسطول العثماني ، وأصدرت الحكومة الفرنسية في اليوم الثامن من شهر سبتمبر - أيلول - عام ١٥٤٣ بإخلاء الثغر من جميع سكان . وطلبت منهم أن يأخذوا معهم جميع أمتعتهم وأموالهم . وهددت كل شخص تسول له نفسه مخالفة هذه الأوامر بأقصى العقوبات واعتبار رفض الهجرة من المدينة عصبياً للحكومة الملكية في باريس ، وأصبحت طولون مدينة إسلامية عثمانية وقاعدة عسكرية للأسطول العثماني . وعادت السلطات الفرنسية ، فخشيت أن يعمد البحارة العثمانيون إلى ارتكاب أعمال التخريب في طولون ، على النحو الذي فعلوه في نيس ، فأصدرت تعليمات لاحقة قصرت فيها الهجرة من المدينة على الأطفال والنساء اللاتي يردن مغادرة طولون ، وقد قضى خير الدين بربروس شتاء ٤٤٥١-٤٤٥١ في طولون .

وتشيد الوثائق الرسمية بحسن سلوك العثمانيين في أثناء مرابطتهم بميناء طولون ، وقد خرجوا منها بحصيلة آدمية بلغت أربعة عشر ألف أسير من قوات شارل الخامس (٣) . وقد بلغ

(1) Lavis et Rambaud, op. cit., t. IV, p. 735.

(2) Loc. Cit.

(3) Loc. Cit., pp. 120-121.

السخط العام في أوروبا أقصى مداه على الملك فرنسوا الأول ، الذي دعم تحالفه مع أكبر دولة إسلامية إلى الحد ، الذي جعله يسمح بتحويل ميناء حبرى فرنسى إلى قاعدة حربية إسلامية عثمانية ، ويجعل هذا الميناء فى خدمة الأسطول العثمانى . ولذلك لم يكن أمراً عجاباً أن أطلق الرأى العام الأوروبى على التحالف بين فرنسوا الأول ملك فرنسا والسلطان سليمان المشرع هذه العبارة «الاتحاد المذنب بين فرنسا والهلال L'Union Sacrilège du Lis et du Croissant»^(١) . وقد أساء هذا التعاون الوثيق إلى مركز الملك فرنسوا الأول فى نظر الرأى العام الأوروبى ، وقرب بين الكاثوليك والبروتستانت ؛ إذ وعد الأمراء الألمان بأن يقفوا إلى جانب الإمبراطور شارل الخامس ضد الدولة العثمانية وضد فرنسا^(٢) .

وكان ذلك العمل العسكرى فى طولون آخر عمل حبرى ، قام به خير الدين بريروس باشا ، إذ اعتزل حياة البحر وعاش فى إستانبول حتى جاز إلى ريه عام ٦٤٥١ ، بعد أن سطر فى تاريخ البحرية العثمانية أروع الصفحات فى البطولة والفداء والنزاهة والإخلاص للإسلام وللدولة العثمانية ، وردع القوى الصليبية الباغية .

والحق أن خير الدين بريروس يعد بطل التاريخ البحرى للعثماني ، ومن أبرز القادة البحريين الذين ظهروا فى العالم فى القرن السادس عشر . وكان طرازاً فريداً بين القادة العثمانيين البحريين ؛ إذ كان يجمع بين المهارة الحربية والثقافة السياسية العميقة ، ملماً بأدق تفاصيل السياسة الدولية ؛ مما جعله عوناً للدولة فى مواجهة المشكلات الخارجية للدولة ، وأكسبه احتراماً وتقديراً عميقين فى الدوائر العليا سواء فى الباب العالى أو فى فرنسا . ويعزو بعض المؤرخين عقد التحالف بين الدولة العثمانية وفرنسا إلى النفوذ العظيم ، الذى كان يتمتع به خير الدين فى الدولة ، وللتقدير العميق الذى ظفر به من المسؤولين فى فرنسا ، وكانوا ينظرون إليه على أنه صديق لفرنسا . كما يقرر المؤرخون أن معاهدة الامتيازات الأجنبية التى أبرمت بين

(١) لفظة Lis بالفرنسية اسم لزهرة ناصعة البياض على شكل حربة ، ويقر شكلها الجانبى من رسم الصليب . كانت تتخذ قديماً شعاراً لفرنسا ثم أطلقت من باب الاستعارة على فرنسا فيقال :

فرنسا
Le Royaume des Lis.
مملكة فرنسا
عرش فرنسا
Le Trône des Lis.

(٢) اشتعلت الحرب من جديد بين فرنسوا الأول والإمبراطور شارل الخامس ، وانتصر فيها ملك فرنسا فى معركة سيريزول Cerisoles فى ١٤ من أبريل - نيسان - عام ١٥٤٤ ، وكانت آخر حرب يخوضها فرنسوا الأول قبل أن تدركه الوفاة فى ٢١ من مارس - آذار - فى عام ١٥٤٧ ، وكانت هذه الحرب قد انتهت بعقد معاهدة كريسي Crespi (١٨ من سبتمبر - أيلول - عام ١٥٤٤) .
انظر دكتور عبدالعزیز الشناوى ، أوروبا فى مطلع إلخ ، مرجع سبق ذكره الطبعة الأولى ، ص ٣٦-٧١٥ .

الدولتين عام ٥٣٥١ ، إنما كانت ثمرة من ثمار جهوده في التقريب بين هاتين الدولتين العملاقتين .

وتوالى انتصارات الأسطول العثماني على عهد السلطان سليمان المشرع ، منذ أن عين بيالة Piale في منصب قيودان باشا عام ٤٥٥١ ، وهو من ألمع القادة الذين جاءوا بعد خير الدين بربروس ، فقد هاجم الساحل المحيط بناپولي سنة ١٥٥٥ ، واستولى على رجيو Reggio وأسر سكانها ، وأحرز انتصارات بحرية متعاقبة : احتل عام ١٥٥٦ ميناء بنزرت في تونس . وفي العام التالي كان يقود مائة وخمسين سفينة دمر بها ميورقة ، وأحرق سورنتو Sorento بالقرب من ناپولي . وفي عام ١٥٥٨ ظل رابضاً بأسطوله المكون من تسعين سفينة أمام ولونة Valona على ساحل ألبانيا ، يراقب أساطيل الأعداء الذين كانوا يتأهبون لمهاجمة جربة وطرابلس ، ثم أحرز في ٣١ من شهر يوليو - تموز - عام ١٥٦٠ أعظم انتصاره البحري وهي احتلال جربة ، وكانت قد سقطت قبل ذلك في أيدي الإسبانيين . وكان أسطوله يتكون وقتذاك من مائة وعشرين سفينة . وقاد حملة موقفة على جزيرة خيوس Chios (ساقز Sakiz) وكانت آخر جزيرة في بحر إيجه ، استعصت على العثمانيين ، فسقطت الجزيرة ومينائها في يوم واحد هو عيد الفصح عام ١٥٦٥ (١) .

هزائم الأسطول العثماني :

وإذا كان للأسطول العثماني انتصاره الباهرة .. فقد كانت له أيضاً هزائمه الأليمة شأن أساطيل كل الدول دون استثناء . وحسبنا أن نذكر منها إخفاقه في فتح جزيرة مالطة سنة ١٥٦٥ على عهد السلطان سليمان المشرع وتعرضه لخسائر فادحة في الأرواح والسفن ، ثم هزيمته في معركة لبنان سنة ١٥٧١ على عهد السلطان سليم الثاني . وقد وصلت هذه الهزيمة إلى حد الكارثة .. فقد تحطمت غالبية وحدات الأسطول ، بحيث لم ينج منها إلا القليل ، كما قتل أو غرق عدد من كبار القادة البحريين والبحارة المدربين . وإذا كانت الدولة قد استطاعت بناء عدد كبير من السفن خلال العام التالي إلا أن خسارتها البشرية في الضباط والبحارة المتعربين في شلون الملاحة والقتال البحري كانت فادحة ؛ لأنها لم تستطع تعويضهم بالسرعة نفسها ، التي تم بها بناء سفن جديدة .

ومن هنا يمكن القول إن بناء الإنسان أصعب بكثير من بناء السفن . وكان هذا هو سبب ضعف الأسطول العثماني بعد معركة لبانت ، فلم يخض معركة بحرية ذات شأن إلا في منتصف القرن التالي ، حين أرسلت الدولة حملة بحرية لانتزاع جزيرة كريت من جمهورية البندقية ، وقد استغرق فتحها خمسة وعشرين عاماً (١٦٤٤-١٦٦٩) ، وقد كشف طول أمد هذه

(١) انظر عرضاً لانتصارات بيالة باشا في :

الحرب عن أن الأسطول لم يستعد أمجاده الأولى . ومما هو جدير بالذكر أن الدولة العثمانية لم تحاول إخفاء حجم هزيمة ليبانت عن الجماهير . فلم تطلق عليها نكسة أو أوصافاً أخرى ابتغاء التمويه على أفراد الشعب أو الاستخفاف بعقولهم ، بل أطلقت عليها «صغين دونما سفرى» أى «معركة الأسطول الذى غرق» ، وتعرف هذه المعركة فى تاريخ الدولة العثمانية باسم «إينة بخشى»^(١) Ine Bahti ، وفى القرن التاسع عشر تحطم الأسطول العثمانى فى معركة نظارين البحرية (١٨٢٢) .

ويلاحظ أن هذه الهزائم الثلاث الأليمة التى تكبدها الأسطول العثمانى قد وقعت ؛ لأنه كان يواجه فيها قوات بحرية تتبع عدة دول بحرية تحالفت ضده . وفى حملة مالطة انضمت إسبانيا فى الدفاع عن الجزيرة إلى جانب أصحابها فى ذلك الوقت ، وهم فرسان القديس يوحنا . وفى معركة ليبانت ، واجه الأسطول العثمانى تحالفاً رهيباً هو العصبة المقدسة - La Sainte-Ligue التى تتأدى إليها البابا بيوس الخامس . وقد تم تكوين العصبة فى ٥٢ من مايو - أيار - عام ١٥٧١ من البابوية ، وإسبانيا ، والبندقية ، وتوسكانيا ، وجنوة ، وقلورانس ، وساقوى ، ومانتو ، وبارما ، وفرسان القديس يوحنا بجزيرة مالطة .

وقد تضمن ميثاق العصبة نصوصاً حددت عدد السفن والبحارة والجنود والأموال التى يقدمها الأطراف المتحاذون فى هذه العصبة . وتدخل البابا بيوس الخامس ؛ للقضاء على التنافس الذى ثار بين أعضاء العصبة حول منصب القائد العام . واستطاع أن يقتنعهم بقبول تعيين قائد بحرى ، سبق له خوض معارك ضد مسلمى شمالى إفريقيا ، وهو دون جوان النمساوى Don Juan d'Autriche ، وهو ابن غير شرعى للإمبراطور شارل الخامس . وقد تسلم القيادة العامة للأساطيل المتحالفة فى ٢٢ من أغسطس - آب - عام ١٥٧١ ، واحتشدت هذه الأساطيل فى ميناء مسينا بجزيرة صقلية فى ١٥ من سبتمبر - أيلول . وكانت تضم خيرة القواد البحريين فى الدول المتحالفة . وبعتت الأسرات المالكة فى أوروبا والإمارات الإيطالية بعدد كبير من أمرائها إلى قيادة الأساطيل الصليبية ؛ إظهاراً لعواطفها نحو الحملة الصليبية ورمزاً لتضامنها .

ومما يذكر أن دون جوان القائد العام رأى أن سفن جمهورية البندقية يعوزها العدد الكافى من البحارة المدربين ، فأمر بوضع خمسمائة بحار إسباني على كل سفينة من سفن البنادقة . وكانت كل سفينة صليبية بمثابة قلعة طافية على سطح الماء تحمل مدفعية ثقيلة

(١) يطلق على هذه المعركة فى المراجع الفرنسية Lépante وفى المراجع الإنجليزية Lepant وفى المراجع الإيطالية Lepanto . وقد دارت المعركة فى المنطقة الواقعة بين خليج ليبانت وخليج باتراس patras ولهذا يرى بعض المؤرخين بأنه خليج بلان يطلق على هذه المعركة البحرية اسم معركة باتراس وليس معركة ليبانت.

وخمسائة بحار عدا طاقم السفين . وقابل العالم المسيحي أنباء هزيمة الأسطول العثماني في المعركة بابتهاج شديد . وأقيمت في جميع أنحاء العالم المسيحي صلاة شكر te Deum ، ونظمت الاحتفالات ، وأقيمت الزينات في روما والبندقية وغيرها . وسارت المراكب وسط قرع المطبول إلى الكابيتول ، حيث صعد إليه القائد كولونا الذي اشترك في المعركة ممثلاً للبابوية .

وفي معركة نفارين^(١) البحرية واجه الأسطول العثماني أساطيل ثلاث دول أوروبية كبرى هي بريطانيا وفرنسا والروسيا . وكان الأسطول العثماني يضم الأسطول المصري وأسطولى نيابتي تونس والجزائر ؛ مما أضفى على المعركة صورة أسطول مسيحي يفنك بأسطول إسلامي ، مما دعا السلطان محمود الثاني إلى إعلان الجهاد الديني ضد المسيحيين ؛ خاصة الروس ، على أساس أن الروسية هي العدو اللدود رقم ١ للدولة العثمانية .

مسلعو الأندلس يستجدون بالدولة العثمانية :

كان من الطبيعي أن يتجه سكان الأندلس قبل سقوط الحكم الإسلامي فيها ، ويعد انتهاء هذا الحكم ، وكذلك أهالي شمالي إفريقية ، إلى الدولة العثمانية بصفتها أكبر دولة إسلامية ينشدون مساعدتها عسكرياً في الصراع ، الذي احتدم بين الإسلام والمسيحية في تلك الأقاليم ، وهو صراع اتخذ الطابع الصليبي العنيف . كانت الكيانات المسيحية في الأندلس تضغط ضغطاً لاهوادة فيه على مانقي للمسلمين من معازل ومراكز . ولما طويت صفحة الحكم الإسلامي في الأندلس بعقد معاهدة غرناطة في اليوم الخامس والعشرين من شهر نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٩٤١ ، أثبتت الأحداث أن هذه المعاهدة لم تكن إلا ستاراً للغدر والخيانة^(٢) ؛ إذ عمدت السلطات المسيحية الحاكمة في إسبانيا إلى تصفية الوجود الإسلامي الشعبي في شتى أنحاء البلاد ، واتخذت إجراءات تعسفية ضد المسلمين الذين أثروا الحفاظ على دينهم . وقدمت أعداد كثيفة منهم إلى ديوان التحقيق - محاكم التفتيش - وصدرت عليهم أحكام جائرة بالإعدام أو السجن مدى الحياة مع مصادرة أملاكهم . ومضت في اضطهاد البقية الباقية منهم ، فمنعهم من التحدث باللغة العربية ، ومن ارتداء ملابسهم الوطنية ، ومن التردد على الحمامات العامة ، ومن حمل السلاح ، وفرضت عليهم وضع شارة زرقاء على قبعاتهم ، وخصصت لهم في كل مدينة منطقة معينة أو حياً من أحيائها يسكنون فيه ، وحولت جميع المساجد إلى كنائس ، وأمرت المسلمين بأن يخرؤوا للأذقان سجداً في الشوارع ، إذا مر بهم كبير الأبحار^(٣) .

(١) بجانب معركة نفارين ، وقعت معارك بحرية تحطم فيها الأسطول العثماني ، فنكر منها على سبيل المثال معركة سينوب في البحر الأسود ، حيث استطاع الأسطول الروسي القضاء على الأسطول العثماني ، في أواخر شهر نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٨٥٢ .

(٢) محمد عبدالله غنان : نهاية الأندلس إلخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٤٤-٢٥٦ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٥٤ .

أهداف البرتغاليين والإسبانيين من نقل الحرب الصليبية إلى شمالي إفريقيا :

كان البرتغاليون والإسبانيون يشنون حروباً متصلة على أقاليم شمالي إفريقية ، باعتبارها بلاداً إسلامية ، تحوى رصيداً بشرياً إسلامياً هائلاً يشد أزر مسلمي الأندلس في جهادهم الديني . فكان هدفهم العاجل احتلال شمالي إفريقية للفصل بين المغاربة المتمركزين على الساحل الشمالي للقارة الإفريقية وبين المسلمين في الأندلس . أما أهدافهم الصليبية التالية ، فكان من بينها تحويل المغاربة إلى المسيحية وطمس عروبتهم ، وقد دل هذا الهدف المزدوج على أن أحلام اليقظة كانت تراود البرتغاليين والإسبانيين ؛ لأن تنصير مسلمي شمالي إفريقية وطمس عروبتهم ، كانا أمرين في حكم الاستحالة تنفيذهما .

كان دخول الإسلام وانتشاره في شمالي إفريقية عاملين هامين في تعريب الجماعات التي تقطن هذه الأرجاء الشاسعة ، وكان انتشار الإسلام فيها قد بدأ مبكراً . ولم تلبث التقارير أن أصبحت منذ أواخر القرن الأول الهجري أى القرن السابع الميلادي مركزاً هاماً للثقافة الإسلامية العربية ، يتلقى فيه الدارسون مبادئ الشريعة الإسلامية ، ويدرسون اللغة العربية والأدب العربي ، ثم يخرجون إلى جماعات البربر فيعلمونهم أصول الدين وقرءونهم القرآن الكريم ، وينشرون بينهم اللغة العربية . واقتربت تلك الأهداف الصليبية بهدف اقتصادي هو انتزاع التجارة الإفريقية من أيدي المسلمين والاستيلاء على موارد الثروة الطبيعية في البلاد والتوغل جنوباً في الداخل .

وكانت كفة البرتغاليين راجحة في هذا الصراع الصليبي ؛ إذ احتلوا عام ١٤١٥ مدينة سبته Ceuta في أقصى الساحل الشمالي لإفريقية من ناحية الغرب في مواجهة بوغاز جبل طارق ، وكان احتلالهم لهذا الموقع الإستراتيجي الهام أمراً بالغ الخطورة ، لأن احتلال البرتغاليين لهذه المدينة كان من بين الأسباب التي أعاققت سكان شمالي إفريقية عن تعزيز القوات الإسلامية في الأندلس عن طريق بوغاز جبل طارق . ولذلك حرص البرتغاليون والإسبانيون من بعدهم على الاحتفاظ بهذا الموقع ، ثم احتل البرتغاليون سنة ١٤٢٨ مدينة طنجة في غربي سبته لإحكام الحصار حول المعبر الجنوبي لشبه جزيرة أيبيريا عن طريق بوغاز جبل طارق ، وأقام البرتغاليون مؤسسة تجارية لهم في وهران (١٤٨٣-١٤٨٧) .

تغاقم الخطر الصليبي الإسباني على شمالي إفريقية :

وعلى الرغم من هذا الترفيق ، الذي لازم البرتغاليين في صراعاتهم الصليبي ضد مسلمي شمالي إفريقية ، كان خطرهم أقل من خطر الإسبانيين ؛ لأن البرتغاليين اتجهوا بعد

فترة نحو الساحل الغربي لإفريقية حيث ركزوا نشاطهم وأنشأوا لهم قواعد عسكرية ، وهو الاتجاه الذي أسفر في النهاية عن وصولهم بجزراً إلى رأس العواصف - رأس الرجاء الصالح - وانتهى بهم إلى الوصول بجزراً إلى الهند ، وخاصوا صراعاً صليبياً صارياً ضد الكيانات الإسلامية على ساحل ملبار ومنطقة الخليج العربي وجنوبي شبه الجزيرة العربية وغيرها .

إما الإسبان فكانوا ينفذون وصية الملكة إيزابلا الأولى ، التي كتبتها قبل وفاتها عام ١٥٠٤ ، وكان مما جاء فيها : «إني أرجو من الأميرة ابنتي والأمير زوجها ، وأمرهما بطاعة وصايا الكنيسة أمنا المقدسة . فعليهما أن يقوموا بحمايتها ، وألا يكفا عن المضى في فتح إفريقية ومحاربة الكفار ، وكانت تقصد المسلمين واليهود بكلمة الكفار ، وكانت هذه الملكة لشدة تعصبها للمذهب الكاثوليكي قد عرفت في التاريخ باسم الملكة إيزابلا الأولى الكاثوليكية» La Reine Isabelle Ière La Catholique ، وكان زوجها على شاكلتها ، وعرف باسم فرناندو الخامس الكاثوليكي . وقد توفي عام ١٥١٦ . وقد أطلق الإسبان على الحرب بينهم وبين مسلمي شمالي إفريقية حرب الاسترداد (١) Reconquista ، وهي تسمية تطوى على التحدى والمغالطة ؛ لأنه لم يسبق لهم الاستيلاء على أقاليم شمالي إفريقية .

احتل الإسبان عام ١٥٠٥ المرسى الكبير في غربي الجزائر ، وقتلوا أربعة آلاف مسلم وأسروا ثمانية آلاف مسلم ، واحتلوا مليلة ومدينة الجزائر (٢) ، وفي عام ١٥٠٨ احتلوا حجر باديس . وفي العام التالي استولوا على بجاية ، وفي سنة ١٥١١ احتلوا ميناء طرابلس وقاموا بتدمير منشآت المدينة ، كما استولوا على وهران وغيرها من المدن الساحلية (٣) . وعلى هذا النحو .. تناثرت على طول الساحل الشمالي لإفريقية ابتداء من طرابلس إلى المغرب الأقصى محطات عسكرية ، اتخذها الإسبان ، ومن قبلهم البرتغاليون جيوا صليبية .

(١) دكتور محمد خير فارس : تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثماني إلى الاحتلال الفرنسي .. الطبعة الأولى ، ١٩٦٩ ، ص ١٣ .

(٢) كانت مدينة الجزائر في أول نشأتها عبارة عن جزيرة صغيرة لاتبعد عن الساحل الشمالي لإفريقية إلا بمسافة لاتتجاوز ثلاثمائة متراً . وأقام عليها الإسبان قلعة اتخذوها قاعدة عسكرية بضميريين منها الساحل بالقنابل ، ثم ربطها خير الدين بربوريس بقوة ساحلية مواجهة لها . ونشأت من الجزيرة والقرية مدينة الجزائر . وهي الطريقة ذاتها التي كان الإسكندر المقدوني قد اتبعها في تأسيس مدينة الإسكندرية .

(٣) دكتور جلال يحيى : المغرب الكبير وهجوم الاستعمار ، مرجع سبق ذكره ، الجزء الثالث ، ص ١٥ .

مسلمو الأندلس وشمالى إفريقيا يستغيثون بالدولة العثمانية :

وفى ذلك الوقت - قبل سقوط الحكم الإسلامى فى الأندلس ، وفى أثناء الحروب الصليبية الضارية التى أشعلها البرتغاليون والإسبانيون ، فى شمالى إفريقيا - ترامت إلى مسامع المسلمين فى هذه الأقطار الانتصارات الباهرة ، التى أحرزتها الدولة العثمانية إلى ذلك الوقت فى أوروبا وآسيا ، وما تخللها من نجاح السلطان محمد أبى الفدوح أو السلطان الفاتح محمد الثانى فى فتح القسطنطينية فاشربت الأعناق إليه وإلى خلفائه ، ودارت اتصالات بين الجانبين ، ناشد فيها مسلمو الأندلس وشمالى إفريقيا سلاطين الدولة بتقديم معونات عسكرية لهم فى نضالهم ضد الصليبية الأيبيرية ، واتجهوا أيضاً إلى دولة المماليك الشراكسة فى مصر ، وإلى مراکش من أجل هذا الهدف.

(١) أهل غرناطة يستجدون بالسلطان محمد أبى الفتح :

أرسل أهل غرناطة فى منتصف عام ٧٧٤١ - أى قبل سقوطها بإحدى عشرة سنة كآخر معقل إسلامى فى الأندلس - سفارة إلى إسبانيول ، وجهوا فيها نظر السلطان محمد أبى الفتح إلى تدهور أحوال المسلمين فى الأندلس وناشدوه التدخل لإنقاذهم (١) . ولكن كان فى حكم الاستحالة أن يستجيب السلطان محمد أبو الفتح لهذه الاستغاثة ؛ لأنه كان هو الآخر كما سبق أن ذكرنا منصرفاً إلى مواجهة تحالف صليبي يهدد دولته بأفدح الأخطار . وقد ضم هذا التحالف البابا سكست الرابع Sixte (١٤٧١-١٤٨٤) ، وجمهورية البندقية ، وحكام نابولى ، والمجر ، وترانسلفانيا ، وفرسان القديس يوحنا فى جزيرة رودس ، وعدداً من الزعماء الألبانيين الذين كانوا لايزالون يضمرون عداً شديداً للدولة العثمانية . واستولت القوات المنحالفة على أزمير ، وحالت دون استيلاء العثمانيين على إلبانت ، وكان تابعاً لجمهورية البندقية ، ولم تضع الحرب أوزارها إلا سنة ١٤٧٩ (٢) . وشرع السلطان محمد أبو الفتح يعد مشروعاً لفتح روما عاصمة البابوية الكاثوليكية ، واتجه بقواته إلى أوترنت فى مملكة نابولى عام ١٤٨٠ ليتخذ منها قاعدة للزحف على روما ، ولكنه جاز إلى ريه فى اليوم الثانى من شهر مايو - آيار - عام ١٤٨٠ (٣) .

(١) دكتور عبدالحليل التميمي . بحث عنوانه «من مسلمى غرناطة إلى السلطان سايمان القانوني» سنة ١٤٥١ م منشور فى المجلة التاريخية المغربية . تونس ، العدد الثالث ، شهر يناير - كانون ثان - عام ١٩٧٥ ، ص ٣٧-٤٦ . انظر مقدمة البحث .

(٢) انظر عرضاً للملابسات تكوين هذا التحالف الصليبي ، وأخبار الحرب التى خاضتها الدولة العثمانية ضد الدول الأعضاء فى التحالف فى :

دكتور عبدالعزيز محمد الشنولى ، أوروبا فى مطلع . إلخ ، الطبعة الأولى ، ص ٦٦٠-٦٦٦ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٦٦٦-٦٦٧ .

وانتبه مسلمو غرناطة في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي إلى السلطان الملك الأشرف قايتباي (١٤٦٨-١٤٩٦) ؛ سلطان دولة المماليك الشراكسة يرجون تدخله لإنقاذهم من الملوك المسيحيين . وقد أرسل الأشرف قايتباي وفوداً إلى البابا وإلى ملوك الدول الأوروبية ، يذكرهم بأن المسيحيين في أرجاء دولته يتمتعون بكافة الحريات ، في حين أن إخوانه في الدين في مدن إسبانيا يتعرضون لألوان شتى من الظلم . وهدد على لسان مبعوثيه بأنه سوف يتبع سياسة المعاملة بالمثل ، وهي التكتيل بالمسيحيين إذا لم يكف حكام قشتالة وأراجون وغرناطة عن هذه السياسة الحمقاء ، وعن طرد المسلمين من أراضيهم ، وطالب بعدم التعرض لهم ورد ما أخذ من أراضيهم^(١) . ولكن لم يكن لهذا التهديد أو الوعيد أي أثر في تغير الموقف العام للإسبانيين والبرتغاليين تجاه المسلمين ، سواء في الأندلس أو في شمالي إفريقيا .

(ب) أهل الأندلس يستجدون بالسلطان أبي يزيد الثاني :

واستجد مسلمو الأندلس مرة أخرى ، بعد وفاة السلطان محمد أبي الفتح بابنه السلطان أبي يزيد الثاني (١٤٨٠-١٥١١) ، ولكن تزامنت على السلطان الجديد الأزمات الداخلية والخارجية مثل مشكلة نزاعه على العرش مع أخيه الأمير جم ، وما أثاره هذا النزاع من مشكلات مع البابوية في روما وبعض الدول الأوروبية ، ثم هجوم البولنديين على مولدانيا - جزء من رومانيا حالياً - والحروب في ترانسلفانيا والمجر وجمهورية البندقية ، وتكوين تحالف صليبي آخر ضد الدولة من البابا جيل Jules الثاني وجمهورية البندقية والمجر وفرنسا ، وما أسفر عنه هذا التحالف من حرب تنازلت الدولة في نهايتها عن بعض ممتلكاتها ، وانتهى حكم السلطان أبي يزيد بصراع مع أبنائه أسفر عن خلعهم وقتله مسموماً^(٢) .

وتوالت نداءات أهل الأندلس لملوك المغرب ، غير أن الأوضاع الداخلية التي كان عليها المغرب وخضوع ابن وطاس لإسبانيا وعقد معاهدة سنة ١٥٣٨ معها وازدياد النفوذ الإسباني البرتغالي على السواحل المغربية .. كل ذلك جعل من المستحيل القيام بإجراء حازم وفعال لنصرة أهل الأندلس ، وإنقاذهم من المأساة التي تعرضوا لها ، فسقطت غرناطة عام ١٤٩١ ، وطويت صفحة الحكم الإسلامي في شبه جزيرة أيبيريا .

نخلص من هاتين الاستغاثتين المتلاحقتين للسلطان محمد أبي الفتح والسلطان أبي يزيد الثاني إلى أن الدولة العثمانية لم تستطع - لظروفها الداخلية والقوات الصليبية التي

(١) دكتور عبد الجليل التميمي : بحثه السابق الذكر . المجلة التاريخية المغربية ، العدد الثالث لعام ١٩٧٥ .

(٢) انظر عرضاً لهذه الأزمات الداخلية والأخطار الخارجية التي واجهها السلطان أبو يزيد الثاني في : دكتور عبدالعزيز محمد الشناوي : أوروبا في مطلع العصور الحديثة إلخ ، مرجع سبق ذكره ، الطبعة الأولى ، ص ٦٦٩ - ٦٧٩ .

واجهتهم أن تمد يد المساعدة لمسلمي الأندلس لإنقاذهم من الوقوع في براثن الصليبية الإسبانية، وبقي مسلمو شمالي إفريقية يواجهون ضراوة الصليبية الإسبانية بالذات .
سكان شمالي إفريقية مجاهدون إسلاميون ، وليسوا قراصنة :
مناقشة قرية ألصقت بهم :

اجتذب هذا الصراع الصليبي عدداً كبيراً من البحارة المسلمين من أقاليم شمالي إفريقية، وكانوا قد نشأوا في مطلع حياتهم في خدمة الأسطول العثماني ، ثم كونوا سفناً كانت بمثابة أساطيل صغيرة تعمل لحسابهم في عمليات النقل البحري ، وتجاهد في الوقت ذاته ضد البرتغاليين والإسبانيين ، وأطلق عليها «مراكب الجهاد» ، وكان من قادة هؤلاء المجاهدين المغامرين : عروج ، وأخوه خير الدين بربروس ، وحسن باشا ، وصالح ريس ، ودراجوت باشا^(١)، وغيرهم .

ويصر المؤرخون والباحثون الأوروبيون إصراراً شديداً على أن الفضل في نجاح هؤلاء الرؤساء البحريين المسلمين إنما يرجع إلى أصولهم المسيحية الأولى ، فقد كانوا يونانيين أو إيطاليين أو ألبانيين قبل أن يعتنقوا الإسلام . واستهدف هذا الفريق من المؤرخين والباحثين تصوير القادة البحريين المسلمين المغاربة بأنهم أجناب عن الدولة ، وأنهم قوم قلب ، ومجردون من المبادئ الخلقية ، وأن هدفهم الأسمى هو خوض المعارك جرياً وراء مغنم يظفرون بها، وأرغل هؤلاء المؤرخون في التهمك عليهم والسخرية بهم ليوضحوا ، في زعمهم ، وضاعة أصلهم . فقالوا عن بياله باشا إنه ابن إسكافي ، وقالوا عن أتلج علي إن والده كان صائد سمك ، وهكذا لم يغادروا صغيرة ولا كبيرة تسيء إلى قادة الأسطول العثمانيين المسلمين إلا أحصوها ، مع أن هؤلاء القادة كانوا مثلاً أعلى في الفدائية والبطولة في المعارك التي خاضوها ضد تكتلات صليبية دولية ، كما كانوا على جانبي كبير من التقوى حرصوا على إنشاء مساجد في إسطنبول وأفردوا فيها أماكن لتكون مئوى لهم بعد وفاتهم .

وقد خلس أولئك المؤرخون رأياً إلى إطلاق صفة «القراصنة» على قادة الأسطول العثماني ، وكانوا يحرسون على ذكر اسم كل قائد مقروناً بهاتين الصفتين ويهذين الترتيبين قرصان ، وأمير بحر تركي . وهذا الرأي وماسبقه من تبريرات يعد نوعاً من التحامل على الدولة العثمانية ، لا يقدح في قدرها أو في كفاية هؤلاء القادة المسلمين ؛ فالدولة هي التي تعهدتهم بالتدريب في أسطولها وخرجوا قادة أذناً استطاعوا أن يشقوا طريقهم في حياة البحر ، وأن يخوضوا بنجاح ، دفاعاً عن دينهم ، صراعاً صليبيّاً ضارياً ضد درلئين بحريتين هما

(١) يرد هذا الاسم في بعض المراجع طرغود ، وفي المراجع الفرنسية Dragut ، وفي المراجع الإنجليزية Torgud .

البرتغال وإسبانيا ، كانتا تتمتعان في ذلك الوقت بمصادر مالية وحربية رهيبة ، وأسهمت كلتاهما بأكبر نصيب في حركة الكشف الجغرافية فيما وراء البحار سواء في الأمريكتين أو في إفريقية وآسيا بعد الوصول بحراً إلى الهند ، ويعد عبور المحيط الأطلنطي . فالوصف العلمي الذي يلحق بهؤلاء القادة ورجالهم هو أنهم مجاهدون إسلاميون خاضوا صراعاً صليبيّاً ضد برتغاليين وإسبانيين ، أرادوا الاستيلاء على بلادهم ، وتحويل سكانها إلى المسيحية وطمس عروبتهم . أما وصفهم قراصنة فقول بجانب الحق والواقع ، وكان مبعثه شعور الأوروبيين بالهتة والضغينة بسبب ما أنزله المجاهدون من خسائر بالأوروبيين وبفرسان القديس يوحنا . ومن المؤسف حقاً أن نفرأ من المؤرخين والباحثين العرب قد سايروا مسابقة عمياء للمؤرخين الأوروبيين في هذا الرأي الخاطيء ، وقد سبق أن تعرضنا لموقف أولئك العرب من هذه التسمية الخاطئة والظلمة معاً^(١) .

الدولة العثمانية ومجاهدو شمالي إفريقية :

برز من بين صفوف المجاهدين في شمالي إفريقية بابا عروج^(٢) ، وكان ذا شخصية قوية ودرية واسعة بأساليب مهاجمة الإسبانين^(٣) ، وذاع اسمه على كل مكان على أثر انتصاراته عليهم . طلب إليه رجال القبائل في الجزائر أن يساعدهم على استرداد ميناء بجاية من الإسبانين ، وكانت بجاية تعتبر أكبر ميناء في المنطقة الشرقية من المغرب المتوسط في ذلك الوقت . وحقق بابا عروج الآمال المعقودة عليه ، فكانت بجاية أول ميناء استطاع المسلمون تحريره من حكم الإسبانين ، ونقل قاعدة عملياته من جزيرة جربة إلى ميناء جيجل في شرقي الجزائر ، ثم طلب مواطنو بلدة الجزائر إلى عروج مساعدتهم على الصمود في وجه الإسبانين ، الذين كانوا قد أقاموا قلعة منيعة تسمى بينون Pénon على الجزيرة المواجهة للساحل والبلدة ، ويلاحظ أن بينو مصطلح يطلق على الجزر الساحلية والرءوس الداخلة في البحر .

واعتماد الإسبانين أن يقيموا عليها قلاعاً حصينة كي تهدد سكان الساحل ، وتمنع في الوقت ذاته وصول سفن المسلمين إليهم . فسار بابا عروج بطريق البر على رأس ثمانمائة جندي نظامي وخمسة آلاف متطوع جزائري ، في الوقت الذي أرسل فيه سفناً محملة بالمجاهدين ومسلحة بالمدفعية لتهديد حصن بينو ، ونجح في صد هجوم إسباني عن هذه البلدة عام ١٥١٦ ، وتمكن من إقامة حكمه على الساحل المواجه للجزيرة الخاضعة للإسبانين . وساعده هذا النجاح على أن يؤسس ، بصفته قائد تحرير ، حكومة عسكرية تحت قيادته انضم إليها عدد كبير

(١) انظر في هذه الدراسة من ٦٧٤ حاشية رقم ٢ ، من ص ٦٧٤-٦٧٥ .

(٢) يرد اسمه في بعض المراجع العربية أوروج ، وفي المراجع الفرنسية Aroudj ، وفي المراجع الإنجليزية Aruc .

(٣) بدأ بابا عروج نشاطه في الجهاد الديني البحري سنة ١٥١٠ ، وكان يمتلك في ذلك الوقت نحو عشر سفن .

من القبائل وسكان المدن ، واستولى على أقاليم المغرب الأوسط الواحد بعد الآخر ^(١) . وعهد بابا عروج إلى أخيه خير الدين بإدارة كل شرقي البلاد واتخذ دلس مقراً لإقامته وعاصمة للمشرق ^(٢) . وكان لنجاح بابا عروج أصداء واسعة في تلمسان عاصمة بني زيان في غربي الجزائر ؛ إذ ظهر فيها اتجاه نحو توحيد الجهد مع هذه السلطة البحرية المجاهدة ؛ خاصة وأن بني زيان هادنوا الإسبانيين الذين كانوا يحتلون في ذلك الوقت وهران والمرسى الكبير .

وتخرج موقف المسلمين حين استتجد آخر حكام بني زيان بالإسبانيين ، الذين رحبوا بهذا التفارب ، وكانوا يخشون هجوم بابا عروج على وهران فأرسلت إسبانيا حملة قوية بلغت خمسة عشر ألف مقاتل ، تمكنت من التوغل في أرض الجزائر وحصار مدينة تلمسان ، ووقع بابا عروج في أيديهم أسيراً وقتلوه عام ١٥١٨ ^(٣) ، وكان يبلغ من العمر وقتذاك أربعة وأربعين عاماً . ومما يذكر أنه كانت له لحية حمراء فأطلق عليه عروج بريروس ^(٤) Barberousse أى صاحب اللحية الحمراء ، وقد لحق هذا اللقب بعد وفاته باسم أخيه خير الدين ^(٥) ، الذى كان يسمى خزر ريس ^(٦) Hizir Reis وفاقت شهرته به شهرة عروج بهذا اللقب الذى أصبح لصيقاً بخير الدين ، ويهمن أن نذكر أن عروج كان قد نجح فى ضم معظم صفوف شعب الجزائرى وقرب بينه وبين سائر مسلمى شمالي إفريقيا فى كفاحهم ضد العدو المشترك ، وخلفه أخوه خير الدين بريروس فى قيادة عمليات الجهاد فى بلاد المغرب الكبير ^(٧) .

الدولة العثمانية وخير الدين :

كان موقف خير الدين حرجاً بعد مقتل أخيه ، وقد أدرك فى الحال ضعف موقفه السياسى ومركزه الحربى . فقد كان يحيط به الأعداء ، وهم بقية بني زيان فى تلمسان وأنصارهم ، وبنو حفص ، والإسبانيون ، وكانوا اجمعياً يتربصون به الدوائر ويعملون على الإطاحة به . ولم يكن يتمتع أول الأمر بشعبية واسعة عريضة كشعبية أخيه . ولم تكن له

(١) استولى بابا عروج على مليانة ، وعدية ، وتاس وأقام فيها حاميات ، وقد أدى نجاحه إلى اضمحلال معظم القيادات الأهلية القديمة ، أمام نمو هذه السلطة الجديدة .

(٢) دكتور عبد الرحمن التميمي ، أول رسالة من أمالي مدينة الجزائر إلى السلطان سليم الأول سنة ١٥١٩ ، المجلة التاريخية المغربية ، تونس ، العدد السادس ، شهر يوليو - تموز - عام ١٩٧٦ ، ص ١١٧ .

(٣) دكتور محمد خير فارس ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٦-٢٧ .

(٤) كانت هذه الكلمة اختصاراً أو إيماءاً لعبارة *ayant la barbe rousse* .

(٥) Lavis et Rambaud, op. cit., t. IV, p. 805.

(٦) دكتور أرجمند كوران : أحمد باي قسنطينة المدافع عن الجزائر . بحث تقدم به إلى المؤتمر التاريخى الخامس الذى عقد فى أنقرة فى الفترة من ١٢ إلى ١٧ من شهر أبريل - نيسان - عام ١٩٥٦ ، وقد نشره دكتور عبد الجليل التميمي كملحق لرسالة دكتور كوران التى عرّ بها ، ص ٧٨-٨٥ .

(٧) دكتور جلال يحيى : الغرب الكبير إلخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٢-٢٣ .

صدقات برؤساء القبائل ، فضلاً عن أنه كان يواجه نقصاً في السلاح والعتاد ؛ فكل هذه العوامل جعلت خير الدين يستجد بالدولة العثمانية ، وكانت قد نجحت في إنزال ضربة أليمة بالدولة الصفوية في فارس (١٥١٤) ، ونجحت في ضم بر الشام (١٥١٦) ومصر والحجاز والمناطق الساحلية في اليمن إليها (١٥١٧) .

سكان مدينة الجزائر يرسلون رسالة استغاثة للسلطان سليم الأول :

وقد نشر الأستاذ الدكتور عبدالجليل التميمي ترجمة عربية لوثيقة تركية (١) محفوظة في دار المحفوظات التاريخية بإستانبول - طوب قابي سراي - تحت رقم ٦٤٥٦ ، وهذه الوثيقة عبارة عن رسالة مرجهة من سكان بلدة الجزائر ، على اختلاف مستوياتهم ومؤرخة في أوائل شهر ذي القعدة عام ٩٢٥ ، في الفترة من ٢٦ من شهر أكتوبر - تشرين أول - إلى ٣ من شهر نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٥١٩ ، وكتبت بإيحاء وتوجيه من خير الدين بربروس إلى السلطان سليم الأول عقب عودة الأخير من مصر والشام إلى إستانبول (٢) ، واستهدف منها خير الدين ربط مصير قضية للجزائر بالدولة العثمانية .

وجاء في الرسالة أن خير الدين كان شديد الرغبة في أن يذهب بنفسه إلى إستانبول ليعرض على السلطان سليم الأول شخصياً أبعاد قضية الجزائر ، ولكن زعماء مدينة الجزائر توسلوا إليه أن يبقى فيها كي يستطيع مواجهة الموقف إذا تحرك الأعداء ، وأشاروا عليه بأن يوفد إلى السلطان بعثة أو سفارة تقوم بهذه المهمة نيابة عنه . والرسالة التي حملتها البعثة موجهة باسم القاضى والخطيب والفقيه والأئمة والتجار والأعيان وكافة سكان مدينة الجزائر العامرة ، وهي تفيض بالولاء العميق للدولة العثمانية وللتقدير العظيم للسلطان والرغبة الأكيدة لسكان الجزائر في الاعتماد على الدولة ، وأنهم عبيد لها . وقد وقع اختيار خير الدين بربروس على مبعوث شخصى له يرأس البعثة ، وهو الفقيه العالم الأستاذ أبو العباس أحمد بن قاضى .

ويستدل من تاريخ حياة هذا الفقيه أنه كان أكبر علماء الشريعة الإسلامية ، وكان يجمع بين التبحر في العلوم الدينية والإلمام بالمسائل العسكرية .. فكان إلى جانب بابا عروج في حصار قلعة بجاية ، وحصر حصار الإسبانيين لمدينة تلمسان ، واستطاع أن ينجو من الأسر وأن يلجأ إلى مدينة الجزائر ، كما أنه عايش الأحداث السياسية للبلاد ، فكان في مقدوره أن يصور تصويراً دقيقاً للسلطان العثماني أوضاع المسلمين المتردية تجاه الأخطار المحدقة بهم في

(١) يقر الدكتور التميمي أن الوثيقة كتبت باللغة العربية ، ثم ترجمت إلى اللغة التركية . وقام هو بدوره بترجمتها إلى اللغة العربية . انظر بحثاً له بعنوان «أول رسالة من أهالي مدينة الجزائر إلى السلطان سليم الأول سنة ١٥١٩» نشره في المجلة التاريخية المغربية ، تونس ، العدد السادس ، يوليو - تموز ١٩٧٦ .

(٢) المرجع السابق .

المغرب . فكل هذه العوامل جعلت خير الدين يختار هذا القاضى لرياسة البعثة ؛ إذ أراد أن يكون مبعوثه شخصية دينية لها وزنها العلمى الكبير فى دراسات الفقه الإسلامى وذات دراية بشئون الحرب ، وأراد أن يدلل عن طريق هذه الشخصية أن سكان الجزائر متعلقون بالدولة العثمانية ، وراغبون فى ربط مستقبلهم السياسى ومصير بلادهم بالدولة العثمانية (١) .

وتقول الرسالة إن أهل مدينة الجزائر - وهم عبيد السلطان العثمانى - ليس لهم ملاذ سواء يفرغون إليه فى موقفهم الحرج ، وأشادوا بأفضال بابا عروج فى مدافعة الكفار ؛ لأنه كان ناصراً للدين وحامى المسلمين المجاهد فى سبيل الله إلى أن وقع شهيداً فى حصار الإسبانيين لمدينة تلمسان ، وخلفه أخوه المجاهد فى سبيل الله أبو التقي خير الدين ، وكان له خير خلف . فقد دافع عنا ، ولم نعرف منه إلا العدل والإنصاف واتباع الشرع النبوى الشريف ، وهو ينظر إلى مقامكم العالى بالتعظيم والإجلال ، ويكرس نفسه وماله للجهاد لرضاء رب العباد وإعلاء كلمة الله ، ومناط آماله سلطنتكم العالية مظهراً لإجلالها وتعظيمها . على أن محبتنا له خالصة ونحن معه ثابتون ونحن وأميرنا خدام أعتابكم العالية ، وأهالى إقليم بجاية والغرب والشرق خدمة مقامكم العالى . وإن المذكور حامل الرسالة المكتوبة سوف يعرض على جلالتم مايجرى فى هذه البلاد من الحوادث . والسلام .

دراسة تحليلية للموثيقة :

تكشف الدراسة التحليلية للرسالة التى بعث بها أهالى مدينة الجزائر إلى السلطان سليم الأول عن آراء واتجاهات خير الدين بربروس تجاه الدولة العثمانية ، وكان من بينها :

أولاً : أن خير الدين يمثل الحاكم المسلم الأمل فى شمالى إفريقيا ، فهو يحترم وينفذ مبادئ الشريعة الإسلامية ، ويتخذ من العدل شرعة ومنهاجاً له فى الحكم .

ثانياً : أن نشاطه يتركز فى قيادة عمليات الجهاد الدينى الإسلامى .

ثالثاً : أنه يكن للسلطان كل تقدير ، وللدولة العثمانية ولاء دون حدود .

رابعاً : أنه شديد الرغبة فى الحصول على مساعدات عسكرية فى المقام الأول من الدولة العثمانية .

خامساً : سلامة وتمسك الجبهة الداخلية مع وضوح وحدة الهدف أمام المواطنين .

(١) أثبتت الأحداث أن هذا القاضى لم يكن أهلاً للثقة التى وضعها خير الدين فيه . إذ تحالف مع أعداء خير الدين ، هجم على مدينة الجزائر ، واحتلها بحكمها خمس سنوات واضطر خير الدين إلى الانسحاب إلى جيجل ، حتى استطاع استرداد مدينة الجزائر بعد خمس سنوات وقبض على القاضى وأعدمه .

استجابة سليم الأول لاستغاثة أهل مدينة الجزائر :

نجحت البعثة الجزائرية في تحقيق أهدافها .. فقد سارع السلطان سليم الأول إلى منح رتبة بكار بك إلى خير الدين بربريس ، وهي رتبة تخول صاحبها اختصاصات إدارية واسعة ومنشعبة ، كما تجعله قائداً أعلى للقوات المسلحة في إقليمه ممثلاً للسلطان . وكان من مدلولات منح هذه المرتبة الرفيعة^(١) أن بلاد الجزائر أو المنطقة التي كان يحكمها خير الدين في ذلك الوقت -والتي قد يمتد إليها نفوذه ونفوذ خلفائه في قبال الأيام- تصبح تحت السيادة العثمانية وأن أي اعتداء خارجي على أراضيها يعتبر اعتداءً على الدولة العثمانية . ودعم السلطان سليم هذا القرار بقرارات تنفيذية ؛ إذ أرسل إلى خير الدين قوة من سلاح المدفعية العثمانية ، وكان هذا السلاح من أقوى أسلحة الجيش العثماني ، كفل له الانتصار على جيش دولة المماليك الشراكسة في معركة مرج دابق (١٥١٦) ، كما أرسل ألفين من الجنود الإنكشارية . وكانت الفياق الإنكشارية ، كما مر بنا - تعد من خيرة الجنود البيادة - المشاة - في القوات المسلحة العثمانية .

ومنذ ذلك الوقت (١٥١٩) بدأ الإنكشارية يظهرين في الحياة السياسية والعسكرية في الأقاليم العثمانية في شمالي إفريقية ؛ بحيث أصبحوا عنصراً بارزاً ومؤثراً في سير الأحداث ، بعد أن كثر إرسالهم إلى تلك الأقاليم عندما استبان للسلطين بوارى ترددهم وأنهم غدوا مركزاً خطيراً من مراكز القوى في الدولة . وأذن السلطان سليم أيضاً في الوقت ذاته لمن يشاء من رعاياه المسلمين في السفر إلى الجزائر والانخراط في صفوف المجاهدين ، وقرر منح المتطوعين الذين يذهبون إلى الجزائر الامتيازات المقررة للفياق الإنكشارية^(٢) تشجيعاً لهم على الانضمام إلى كتائب المجاهدين .

وقد أقبل سكان الأناضول على السفر إلى الجزائر والتطوع في عمليات الجهاد ، وسواء أكان الدافع لهم هو النزعة الدينية الجياشة والمتأصلة في نفوسهم انتصاراً لدينهم أم الرغبة في الحصول على نصيبهم من مغانم وفيرة .. فقد ترتبت على القرارات التي اتخذها السلطان سليم الأول عدة نتائج هامة ، كان من بينها :

أولاً : دخول الجزائر رسمياً تحت السيادة العثمانية اعتباراً من عام ١٥١٩ ، ودعى للسلطان سليم على المنابر في المساجد وصريت العملة باسمه^(٣) .

ثانياً : إن إرسال القوات العثمانية جاء نتيجة استغاثة أهل بلدة الجزائر بالدولة العثمانية واستجابة لرغبتهم .. فلم يكن دخول القوات العثمانية غزواً أو فتحاً عسكرياً ضد رغبة أهل البلدة .

(١) لم يكن في الدولة العثمانية كلها أول الأمر سوى اثنين يحمل كل منهما رتبة بكار بك . ويشمل نفوذ أحدهما الممتلكات العثمانية في أوروبا ، ويطلق عليه «بكار بك الروم إيلي» ، ويشمل نفوذ الآخر ولايات الأناضول ويسمى «بكار بك أناضولي» ، وكان الأول يحمل ثلاثة أطواخ ، بينما كان الثاني يحمل طوخين .

(٢) دكتور أرجمند كوران السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر (ص ١١) .

(٣) دكتور محمد خير فارس : مرجع سبق ذكره ، ص ٣٠ .

ثالثاً : إن إقليم الجزائر كان أول إقليم من أقاليم شمالي إفريقيا يدخل تحت السيادة العثمانية ، وأصبحت الجزائر ركيزة حرية للدولة العثمانية لتمد نفوذها بعد ذلك إلى إقليمين آخرين ، هما : طرابلس وتونس إنقائاً لأقاليم إسلامية عربية ، تعرضت لغزو صليبي منظم وعنيف من سكان شبه جزيرة أيبيريا .

على هذا النحو شهد حكم السلطان سليم الأول بداية متواضعة نسبياً لمد النفوذ العثماني إلى أحد أقاليم شمالي إفريقية وهو الجزائر من أجل الحفاظ على إسلام وعروية السكان هناك ، لأن السلطان سليم لم يطل به الأجل ؛ إذ قضى نحبه في اليوم الثاني والعشرين من شهر سبتمبر - أيلول - عام ١٥٢٠ ، تاركاً لابنه السلطان سليمان المشرع مهمة توطيد السيادة العثمانية على إقليم الجزائر ، ومد هذه السيادة إلى إقليمين آخرين ، هما : طرابلس وتونس .

صعوبة موقف خير الدين :

كان أمام خير الدين بربروس في وضعه السياسي والعسكري الجديد أن يحارب في جبهتين: أولاً : الجبهة الإسبانية لطرد الإسبانين من الجيوب التي أقاموها على ساحل الجزائر . وقد أصاب في هذه الجبهة نجاحاً كبيراً ، فضم إليه عنابة وقالة في شرقي الجزائر ، ثم حقق انتصاراً باهراً على الإسبانين ، حين استولى عام ١٥٢٩ على حصن بيلون الإسباني المقام على الجزيرة المواجهة لبلدة الجزائر ، وكان قد استمر يقصف الحصن بقذائف مدافعه طوال عشرين يوماً حتى تداعت جواربه ، ثم اقتحم الحصن مع قوات كثيفة العدد ، كانت تحملها خمس وأربعون سفينة جاءت من الساحل . وأسر قائد الحصن مارتين دى فرج Martin de Verge مع كبار ضباطه واقتيدوا إلى قصر خير الدين حيث تعرضوا لمهانة ؛ إذ أمر بضربهم بالعصى ضرباً مبرحاً^(١) ، ثم أقام خير الدين حاجزاً أمام وصول أطلال الحصن والجزيرة بالساحل ويستخدم من ناحيته الداخلية كرصيف للسفن ، وبذلك أوجد ميناء حصيناً وأمناً ترفأ إليه السفن . وإذا كانت سنة ١٥١٩ تعد بداية وصول النفوذ العثماني رسمياً إلى شمالي إفريقيا .. فإن استيلاء خير الدين على البيلون سنة ١٥٢٩ ، يعد بداية تأسيس ما عرف باسم نيابة الجزائر ، فمنذ ذلك التاريخ تحول ميناء الجزائر إلى عاصمة كبرى للمغرب الأوسط بل وكل شمالي إفريقيا العثمانية بداياتها الثلاث . وبدأ استخدام مصطلح الجزائر للدلالة على إقليم المغرب الأوسط^(٢) ، ولكن وهران ظلت قاعدة إسبانية تهدد الجزائر ، حتى نهاية القرن الثامن عشر (١٧٩٢) .

(1) Lavis et Rambaud, op. cit., t. IV, pp. 808-809.

(٢) دكتور صلاح العقاد : المغرب العربي ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٢ .

ثانياً : الجبهة الداخلية وكانت تتمثل في محاولة توحيد المغرب الأوسط . وقد تعرض كما ذكرنا لمؤامرات بنى زيان والحفصيين ومن بعض القبائل الصغيرة ، ولكنه استطاع من منطقة نفوذه باسم الدولة العثمانية . ورأت الإمارات العربية في دخولها تحت السيادة العثمانية سياجاً يحميها من تعرضها للأطماع الصليبية الإسبانية ، ومن قهرها على اعتناق المسيحية .. ولهذا أعلنت تبعيةها للدولة العثمانية ، وما لبث أن مد خير الدين النفوذ العثماني إلى بعض المدن الداخلية الهامة مثل قسنطينة Constatine .

خير الدين يجعل الجزائر قاعدة عثمانية لصد الهجوم الإسباني :

وقد نجح خير الدين بربروس نجاحاً بعيداً في إنشاء هيكل دولة قوية في الجزائر بفضل المساعدات العسكرية ، التي كان يلقاها من السلطان سليمان المشرع ، واستطاع أن يوجه ضربات قوية للسواحل الإسبانية . وكانت جهوده مثمرة في حركة إنقاذ آلاف المسلمين في إسبانيا - المورييسكيين - من الإفلات من قبضة الحكومة الإسبانية واللجوء إلى شمالي إفريقيا ، فقام في سنة ١٥٢٩ بتوجيه ست وثلاثين سفينة خلال سبع رحلات إلى السواحل الإسبانية لنقل سبعين ألف مسلم^(١) ، مما جعل مسلمي غرناطة وبلنسية وغيرهما يستجدون بخير الدين لإنقاذهم^(٢) ، واستطاع أن يجعل الجزائر قاعدة عثمانية لصد الهجوم الإسباني . ولما كان خير الدين يترجم خيفة من ازدياد مطامع الفياق الإنكشارية وتطلعهم إلى الاستئثار بالنفوذ ، استقدم إلى الجزائر ثمانية آلاف جندي ألباني ليوازن بهم قوة الإنكشارية ، وكون لنفسه حرساً خاصاً من المهاجرين المسلمين الأندلسيين^(٣) . وغدا خير الدين بربروس الحارس الأمامي للدولة العثمانية في الحوض الغربي للبحر المتوسط ، وكانت تسانده قوات هذه الدولة ومواردها في صراعه ضد شارل الخامس إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة ، وكانت تضم وقتذاك إسبانيا وبلجيكا وهولندا وألمانيا والنمسا وإيطاليا .

وكانت هناك عدة عوامل بالغة الأهمية ، أملت على السلطان سليمان المشرع الاهتمام بمد نفوذ الدولة إلى تونس في الصراع ، الذي احتدم بينه وبين الإمبراطور شارل الخامس . وسنرجى الكلام عن هذه العوامل إلى مطلع الفصل التالي .

(١) دكتور عبد الجليل التميمي : رسالة من مسلمي غرناطة إلى السلطان سليمان سنة ١٥٤١ ، بحث سبقت الإشارة إليه .

(٢) المرجع السابق .

(3) Lavis et Rambud, op. cit., t. 4, p. 809.

الفصل السادس

خدمات الدولة العثمانية للإسلام والعروبة (٢)

ثانياً : الدولة حافِظ على إسلام وعروبة شمالي إفريقيا (تتمة) (٢)

الدولة تعيد تونس إلى رحاب الكتلة الإسلامية

تتداخل بل تترايط أحداث دخول الجزائر وتونس تحت السيادة العثمانية بحيث يصعب الفصل بينها ، على عكس الأحداث الخاصة بطرابلس . وحرصاً على تسلسل الأحداث السياسية ، المحلية والدولية - فيما يتصل بالجزائر وتونس في ذهن القارئ - ، كان من المناسب عدم الإلتزام بالترتيب التاريخي لدخول هذه الأقاليم الثلاثة تحت السيادة العثمانية ، وهو الترتيب الذي سبق أن ذكرناه : للجزائر ، ثم طرابلس ، ثم تونس ، ونرجئ دراستنا عن طرابلس إلى ما بعد الانتهاء من تونس .

السلطان سليمان يعهد إلى خير الدين بفتح تونس :

استدعى السلطان سليمان المشرع إليه في إستانبول خير الدين بربروس عام ١٥٢٣ فذهب إليه مع بعض وحدات من الأسطول . وعهد إليه السلطان بإعادة تنظيم الأسطول وبالإشراف على بناء عدد من السفن في الترسانة ، ثم طلب منه أن يستولى على تونس وإعلانها ولاية تابعة للدولة العثمانية ، قبل أن يسبقه الإمبراطور شارل الخامس في الاستيلاء عليها . وفضلاً عن ذلك كانت هناك عدة عوامل أملت على السلطان سليمان الاهتمام بمد النفوذ العثماني إلى تونس . كان من بينها : موقعها الجغرافي في منتصف الساحل الشمالي لإفريقية تقريباً ، وتوسطها بين الجزائر وطرابلس ، وقربها من إيطاليا التي كانت أحد جناحي الإمبراطورية الرومانية المقدسة وقتذاك (وكان الجناح الآخر إسبانيا) ، ومجاورتها لجزيرة مالطة مقر فرسان القديس يوحنا الحلفاء الطبيعيين للإمبراطور شارل الخامس وأشد الطوائف المسيحية لئلا في عداة الإسلام والمسلمين ، ثم الإمكانيات الهائلة التي تتيحها موانئ تونس في التحكم في المواصلات البحرية في البحر المتوسط . وهكذا .. تضافرت عدة عوامل على إضفاء أهمية عسكرية على تونس في هذا الصراع الحربي ، بين السلطان سليمان والإمبراطور شارل الخامس .

غادر خير الدين بربروس إستانبول على رأس قوات ، تتكون من ثمانين سفينة وثمانية

آلاف جندي ، واتجه رأساً إلى تونس وظهر أمام ميناء تونس في شهر أغسطس - آب - عام ١٥٣٤ واستولى عليها ، وأعلن تبعيةها للدولة العثمانية ، وإنهاء الحكم الحفصيّ فيها ^(١) ، كما سقطت في يديه المدن الساحلية ، وتوغلت قواته جنوباً في الداخل ، وأعلنت القبائل ولاءها للدولة العثمانية .

استيلاء شارل الخامس على تونس :

كان لنجاح خير الدين في احتلال تونس أصداً بعيدة في أوروبا .. ذلك أن الإمبراطور شارل الخامس كان يدرك الأهمية العسكرية لموقع إقليم تونس في السيطرة على الملاحة في حوض البحر المتوسط ، ونظر إلى هذه النجاح الإسلامي العثماني على أنه تهديد مباشر للمواصلات البحرية بين إسبانيا وإيطاليا ، جناحي الدولة الرومانية المقدسة في ذلك الوقت . ونظر إليه أيضاً على أنه انتصار للإسلام وهزيمة للمسيحية ، وتشجيع لمجاهدي شمالي إفريقيا على مواصلة الهجوم على السواحل الإسبانية وإنقاذ الموريكيين .

لهذه الأسباب .. قرر شارل الخامس غزو تونس ، وأعد حملة جرارة ^(٢) خرجت من برشلونة في أوائل يونيو - حزيران - عام ١٥٣٥ ، وكانت هذه الحملة هي الحملة الأولى له على شمالي إفريقيا . وتمكن من الاستيلاء على تونس في السنة ^(٣) ذاتها بسبب التفوق العددي ، والخيانة العربية التي حمل لواءها مولاي الحسن الحفصيّ وأتباعه ، ويسبب سوء الأوضاع الداخلية في تونس ووجود عدة آلاف من الأسرى المسيحيين في مدينة تونس قاموا بحركة تمرد ، حين شعروا أن قوات الإمبراطور تقترب من المدينة فحطموا أبواب السجون وانتشروا في شوارع المدينة يرتكبون أعمالاً تخريبية ، ويمهدون السبيل أمام القوات الإمبراطورية لدخول العاصمة . وأقامت البابوية في روما احتفالات كبرى إبتهاجاً بسقوط تونس في يد الإمبراطور شارل الخامس ، عاehl العالم المسيحي ، Le Chef de la Chrétienté .

كان ضياع تونس صدمة للدولة العثمانية ولمجاهدي شمالي إفريقيا . وافق مولاي الحسن الأمير الحفصيّ على أن يحكم تونس باسم شارل الخامس وتحت حمايته ، كما تنازل له عن ميناء حلق الوادي حيث أقام الإسبان قاعدة بحرية صليبية عسكرية . ورد خير الدين على انتصار شارل الخامس بغارة مفاجئة على جزر البليار ، واستولى منها على ستة آلاف أسير مسيحي وعاد بهم إلى قاعدته في الجزائر ^(٤) . ووصلت أنباء هذه الغارة وحصيلتها

(١) دكتور محمد خير فارس ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٤ .

(٢) كانت الحملة تضم خمسين سفينة حربية يعمل عليها سبعة آلاف بحار ، وتصحب السفن مجموعة من ناقلات الجنود بلغ عددها أربع مائة وأحدى وخمسين سفينة ، كانت تحمل تسعة وعشرين ألف مقاتل .

(٣) دكتور محمد خير فارس ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٤ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٢٤-٢٥ .

الآدمية الدسمة من الأسرى المسيحيين إلى روما ، وسط احتفالات البابوية بانتزاع تونس من المسلمين .

وكان السلطان سليمان المشرع قد أراد مكافأة خير الدين بديروس على خدماته ، التي أداها للإسلام فعينه قيودان باشا أي قائداً عاماً للأسطول العثماني ، وعين في منصبه في الجزائر ابنه حسن باشا وشهرته حسن أغا^(١) . وركز خير الدين نشاطه في الحوض الشرقي للبحر المتوسط أولاً ثم في الحوض الغربي ، بينما واصل حسن أغا جهود والده في الجزائر ، فلم تنقطع جهوده عن مهاجمة الإسبانيين في الحوض الغربي للبحر المتوسط .

هزيمة منكرة للإمبراطور :

ظهرت الأهداف البعيدة من استيلاء الإمبراطور شارل الخامس على تونس .. فقد أعد حملة جرارة لغزو الجزائر ، وكان من أهداف هذه الحملة اجتثاث النفوذ العثماني من البحر المتوسط ، وعزل فرنسا بمنع الدجذات العسكرية عنها عن طريق حليفها الدولة العثمانية ، وهو التحالف الذي أطلق عليه في أوروبا في ذلك الوقت كما ذكرنا «التحالف المذنب» ، لأنه يقوم على تحالف الصليب مع الهلال . وكان شارل الخامس يعتقد أنه لولا الوجود العثماني في شمالي إفريقيا ، لاستطاع إنشاء مملكة مسيحية هناك لإسبانيا . وكان هذا الإمبراطور يتوجس خيفة من احتمال قيام الدولة العثمانية بحملة على إسبانيا ، وقد نوقش هذا الاحتمال في بلاط مدريد^(٢) .

وقد أذاع شارل الخامس على جميع الدول المسيحية في أوروبا أن عزمته قد استقرت على الانتصار للمسيحية ، والثأر من غارة المسلمين على جزر البليار . وجمع أسطولاً كان من أقوى التجمعات البحرية المعاصرة ، التي ظهرت في القرن السادس عشر^(٣) ، وكان يتكون من خمسمائة وست عشرة سفينة من السفن للحربية وناقلات الجنود . وعهد بقيادة هذا الأسطول إلى عدد من كبار القادة البحريين ، كان من بينهم أندريه دوريا André Doria وفرناند كورتيز Fernand Cortez . وكانت الحملة تضم ٣٦,٢٥٠ من الجنود الألمان والإيطاليين والإسبانيين

(١) يقع المورخ ماسكيراى E. Masqueray في خطأ : إذ يذكر أن حسن أغا معناها حسن الخصي Hassan Eunuque ولعله يجهل أن لفظة أغا في اللغة التركية تعني الرجل الذي أجريت له عملية الخصاء ، وتعني أيضاً رتبة عسكرية في القوات العثمانية المسلحة . وكانت هذه اللفظة بمعناها الأخير ، وبوجه عام تطلق على العسكريين تمييزاً لهم عن المدنيين ، الذين كان تطلق عليهم لفظة أفندي . وفي اللغة العربية تطلق على الأولين أرباب السيف وعلى الآخرين أرباب القلم .

(٢) الدكتور عبد الجليل التميمي : رسالة من مسلمي غرناطة إلى السلطان سليمان سنة ١٥٤١ ، بحث سبقت الإشارة إليه .

(٣) المرجع السابق .

وفرسان القديس يوحنا من مالطة والقوات البابارية ، وجعل من نفسه القائد الأعلى للحملة . واختار لإنزال حملته مدينة الجزائر ؛ بصفتها مقر القوة الإسلامية العثمانية في المغرب .

وتمكنت الحملة من النزول بسهولة إلى البر في جهة مجاورة لميناء الجزائر في اليوم الثالث والعشرين من شهر أكتوبر - تشرين أول - عام ١٥٤١ .

كان شارل الخامس يعتقد أن الله سبحانه وتعالى سيؤيده بنصر من عنده ، طالما كان القسيسون والرهبان ومن إليهم من رجال الدين المسيحي في إسبانيا يدعون الله أن ينصره نصراً عزيزاً على المسلمين^(١) . والحق أن من فضائل هذا الإمبراطور إيمانه العميق بالله جل علاه ، وشدة تدينه ، وإن كان من مساوئه في ذات الوقت اللدد في عداة الإسلام ، وأنه كان يحمل كراهية وبغضاء لأحد لهما للمسلمين . لم يضع هذا الإمبراطور في تقديره للموقف الحربي التغييرات العنيفة في الجو في فصل للخريف في بلاد الجزائر .. كان الجو صحواً حين هبط بقواته إلى أرض الجزائر ، وما أن تمت عمليات الإنزال بسلام حتى اكفهر الجو وهطلت السماء هطلاً شديداً^(٢) متتابعاً ، وهبت رياح عاصف استمرت عدة أيام واقتلعت خيام جنود الحملة ، وارتطمت السفن بعضها ببعض ؛ مما أدى إلى غرق كثير منها ، وقذفت الأمواج الصاخبة ببعض السفن إلى الشاطئ ، وهجم عليها المدافعون المسلمون واستولوا على أدواتها وذخائرها .. أما الأمطار فقد أقسدت مفعول البارود .

وفي وسط هذه الكوارث ، حاول الإمبراطور مهاجمة مدينة الجزائر ، إلا أن كل محاولاته باءت بالفشل . وكان الجزائريون قد خرجوا لملاقاة قوات الغزو مستغلين تلك الكوارث الطبيعية التي حلت بها ، فأقنوا جزءاً كبيراً منها . واضطر الإمبراطور إلى الانسحاب مع بقية جنوده على ما تبقى لهم من سفن ، واتجه بهم إلى إيطاليا بدلاً من إسبانيا^(٣) . وكان من العوامل التي ساعدت على إلحاق هذه الهزيمة بالإمبراطور التفاف الجزائريين حول حسن أغا باشا ، وأهم من ذلك التجدلات العسكرية التي بعث بها السلطان سليمان المشرع إلى حسن أغا والتي نظر إليها أهل الجزائر ومسلمو إسبانيا على السواء باعتبارها تعزيزاً لشوكة المسلمين^(٤) . وكانت الهزيمة التي منى بها الإمبراطور أكبر هزيمة بحرية حاقت به في حياته . وقد شبه أهل الجزائر هذه الهزيمة بهزيمة أصحاب الفيل ، التي ورد ذكرها في القرآن الكريم ، فقالوا في

(1) Lavissee et Rambaud, op. cit., t. IV, p. 811.

(٢) يفتح كل من الماء والطاء واللام . ويقال أيضاً تهطالاً بفتح التاء يسكنون الماء وفتح الطاء . ويقال مطر هطل (يفتح الماء وكسر الطاء) كثير الهطلان .

(٣) الدكتور محمد خير فارس ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٨-٢٩ .

(٤) الدكتور عبد الجليل التميمي : رسالة من مسلمي غرناطة إلى السلطان سليمان سنة ١٥٤١ ، بحث مسبق الإشارة إليه .

رسالة وجهوها إلى السلطان سليمان المشرع إن الله سبحانه وتعالى عاقب شارل الخامس وجنوده ،بعقاب أصحاب الغيل ، وجعل كيدهم فى تضليل ، وأرسل عليهم ريحاً عاصفاً وموجاً قاصفاً ؛ فجعلهم بسواحل البحر مابين أسير وقتيل ، ولا نجا منهم من الفرق قليل^(١) .

أهل الجزائر يبعثون برسالة إلى السلطان عقب هزيمة الإمبراطور ، يحددون فيها مطالبهم :

ومما يذكر فى هذا الصدد أن سكان الجزائر - سواء أهل الإقليم الأصليين أو مسلمى الأندلس الذين فروا بدينهم إلى الجزائر - بعثوا برسالة فى الشهر التالى لهزيمة شارل الخامس إلى السلطان سليمان المشرع ، مؤرخة فى أوائل شهر شعبان عام ٩٤٨ - أولخر شهر نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٥٤١ ، وقد أوضحت هذه الرسالة الأحوال المولمة والمفجعة التى تحيط بالمسلمين الذين احتفظوا بدينهم فى إسبانيا ، بعد أن طويت صفحة الحكم الإسلامى فى الأندلس وتعرضهم لاضطهاد السلطات المسيحية ولمحاكمات ديوان التحقيق - محاكم التفتيش - وإحراقهم .

وصفتهم الرسالة بأنهم «عبيدك الفقراء المساكين المنقطعون بجزيرة الأندلس ، وجملة عدتهم ثلاثمائة ألف وأربعة وستون ألفاً ، وأنهم يشكون إلى السلطان سليمان «مايلاقون من بلواهم باكين متضرعين مستصرين بعناية مولانا السلطان ، دام عزه ونصره ، لما أصابهم من أعداء الدين وطغاة المشركين ، وماهم فيه من مكابدة الكفار» . وأشادت الرسالة بالخدمات الجليلة التى أداها خير الدين باشا «المجاهد فى سبيل الله ، وناصر الدين ، وسيف الله على الكافرين ، للإسلام . ومضت الرسالة تقول إن أهل الأندلس قد سبق لهم أن استغاثوا به فأغاثهم ، وكان سبباً فى خلاص كثير من المسلمين من أيدى الكفرة المتمردين ونقلهم إلى أرض الإسلام ، وأصبحوا من رعايا الدولة العثمانية المخلصين .

وحددت الرسالة مطلبين أساسيين :

أولاً : إرسال نجدات عسكرية «لنصرة الجزائر ، لأنها سياج أهل الإسلام ، وعذاب وشغل لأهل الكفر والطغيان ، وهى موسومة باسمكم الشريف ، وتحت إيالة مقامكم العنيف ، وقد أصبحت القلوب المنكسرة بها عزيزة ، والرعية المختلفة بها مؤلفة أليفة» .

ثانياً : إعادة خير الدين باشا إلى منصبه السابق - يكرر بكى الجزائر - «فهو الممثل لأوامر مولانا ، لأنه أحيا هذا الوطن ، وأرعب قلوب الكفار وخرب ديار المردة والفجار ، ... وإنه لهذا الوطن نعم ناصر ، وجميع أهل الشرك منه خائف وحائر»^(٢) .

(١) المرجع السابق .

(٢) يكتدر عبدالجليل التميمى : رسالة من مسلمى غرناطة إلى السلطان سليمان القانونى سنة ١٥٤١ ، بحث سبقت الإشارة إليه .

وقد وصفت الرسالة السلطان سليمان باللقاب عديدة ، لها دلالاتها السياسية والدينية والحربية العميقة (١) .

الإسبانيون ينقلون نشاطهم الحربي إلى تونس :

بعد الهزيمة الفادحة التي نزلت بالإمبراطور شارل الخامس أمام مدينة الجزائر في أواخر أكتوبر - تشرين أول - عام ١٥٤١ ، كف الإسبان عن مهاجمة الجزائر ، ولكنهم نقلوا الصراع بينهم وبين القوى الإسلامية العثمانية والمغربية إلى تونس .. فقد استطاع أندريه دوريا القائد البحري الإسباني الاستيلاء على عدة مدن في إقليم تونس ، مثل : صفاقس ، وسوسة ، ومنستير ، مما أثار سخط السكان على بلى حفص لتخاذلهم أمام القوى الصليبية . واندلعت ثورات داخلية ضدهم في بقاع شتى ، واضطر مولاي الحسن إلى الرحيل إلى أوروبا التماساً لمساعدتها .

وفي هذه الأثناء ظهر قائد بحري من العثمانيين هو دراجوت باشا ، ليملأ الفراغ السياسي والحربي في تونس ، على نحو ما فعل الأخوان عروج وخير الدين ، وغدا منافساً خطيراً لأندريه دوريا في البحر المتوسط . واستطاع دراجوت باشا أن يتخذ من طرابلس ، التي أصبحت نياحة عثمانية ، قاعدة عسكرية من قواعد الجهاد الديني البحري في شمال إفريقيا ، ولحقل ميناء قفصة في عام ١٥٥٦ ، وتوغل في الداخل حتى بلغ القيروان ، ولحقها وأقام فيها حامية عام ١٥٥٨ .

ولكن ظل الإسبان يسيطرون على سواحل تونس بمعاونة عملائهم بنى حفص ، ورأى السلطان سليمان المشروع أن يستولى على جزيرة مالطة نظراً لأهميتها في الصراع الحربي والديني ، الذي ازداد احتداماً بين الدولة العثمانية وإسبانيا حول تونس ، فأرسل أسطولاً ضخماً بلغ عدد قطعة مائة وخمسة وتسعين وحدة مختلفة الأنواع والأحجام ، تحمل ثلاثين ألف جندي تحت قيادة مصطفى باشا . وبدأ الأسطول حصاره للجزيرة في ١٩ من مايو - آيار - عام ١٥٦٥ ، واستمر الحصار أربعة أشهر ، وتكبد العثمانيون خسائر فادحة في الرجال والسفن ، وبلغ عدد القتلى والفرقي والمفقودين عشرين ألفاً . وكان من بينهم دراجوت باشا الذي قتل في إحدى العمليات الحربية في ١٦ من يوليو - تموز - عام ١٥٦٥ ، واستعصت الجزيرة على

(١) من هذه الألقاب :

السلطان ابن السلطان ابن السلطان - سلطان الإسلام والمسلمين - صاحب الخلافة العليا - حائز الفضيلة الستية من خدمة المساجد الثلاثة - الفائز بشرف الدين والنينا من الجهاد في سبيل الله والسقاية في المسجد الحرام والعمارة - معهد طريق الحج والعمرة والزيارة - قاص للمحدين وقاطع دابر الطغاة والبلغاة- سلطان البرين والبحرين - له ملك مصر وإنهارها ، والشام وديارها ، والحجاز وشرف مقدارها .

العثمانيين فانسحبوا منها في ١١ من سبتمبر - أيلول عام ١٥٦٥^(١) وظلت جزيرة مالطة معقلاً لفرسان القديس يوحنا أكثر من قرنين ، إلى أن أطاح بحكمهم بونابرت ، حين استولى على مالطة في شهر يونيو - حزيران - عام ١٧٩٨ والحملة الفرنسية بقيادته في طريقها إلى مصر .

العلاج علي ومحاولة إعادة الحكم الإسلامي إلى إسبانيا :

وإذا كان دراجوت باشا قد قضى نحبه شهيداً في معركة جزيرة مالطة ، قبل أن يحرق تونس تماماً من الصليبية الأوروبية والاستعمار الأوروبي ومن العملاء العرب بنى حفص .. فإن هذا العيب وقع على عاتق نيابة الجزائر . ولعلت أسماء عدد من القادة البحريين ، ممن تولوا نيابة الجزائر بعد خير الدين بربروس ، مثل ابنه حسن باشا ، وصالح ريس ، والعلي علي^(٢) . وقد اتخذ العلاج على خطوات عملية سنة ١٥٦٩ ، لتنفيذ مشروع خطر للغاية ، هو إعادة الحكم الإسلامي في إسبانيا^(٣) .

وتنصر المراجع الأوروبية على أن العلاج علي كان في مطلع حياته مسيحياً ومن مواليد إقليم كالابريا في جنوبي إيطاليا ، ثم وقع أسيراً في إحدى الغارات العثمانية على الموانئ الإيطالية ، وأجبر على العمل بإحدى السفن الحربية ذات المجاديف التابعة للأسطول العثماني ، ثم تحول إلى الإسلام .. بينما تقرّر المراجع التركية أنه كان عثمانياً إسلامياً المولد ، ولم يكن قط مسيحياً ولا إيطالياً ، والتحق بخدمة الأسطول وتدرج في مناصبه ، واشترك مع دراجوت باشا في صد حملة الإمبراطور شارل الخامس على جزيرة جربة في تونس ، وقد أخفق

(١) دكتور عبدالمعز محمد الشناوي : أوروبا في مطلع إلخ ، مرجع سبق ذكره ، الطبعة الأولى ، ص ٧٢٣-٧٢٤ .

(٢) يرد اسمه في المراجع العربية العلاج علي (بضم العين وسكون اللام) ، ولوج علي ، وأولج علي ، ولج علي . ولكن الاسم الأكثر استخداماً وشيوعاً هو العلاج علي . ويرجع كرامرز أن كلمة علاج أطلقت عليه في شمالي إفريقية ، وأنها كلمة عربية جمعها لوج (بضم العين واللام) للدلالة على أصله الأجنبي ، ولكن مدلولات كلمة علاج في اللغة العربية متعددة ومتباينة ، منها حمار الوحش الغليظ ، ورجل عج أي شديد ، والعلاج هو الرجل الضخم من كفار العجم . ويطلق بعض العرب العلاج علي الكافر مطلقاً ، واستعمل الرجل إذا نبئت لهيته ، وكل نى لهية علاج . وإذنا أخذنا بتفسير كرامرز.. فإن المعنى الثاني هو المقصود ، علاج وأعلاج مثل حمل وجعل وأعمال . وإذا أخذنا ليقال علاج للأمر الذي لم تنبت لهيته . وجمع علاج وهو رأي ضعيف . ويعترف هذا المؤرخ بأن هناك أقوالاً متناقضة في هذا الصدد .

انظر :

كرامرز J. H. Kramers في دائرة المعارف الإسلامية ، مادة أولوج علي ، ويرد اسم الطلع علي في المراجع الفرنسية Buldj-Ali وفي المراجع الإنجليزية Uluc Aly ، وتجمع المراجع الإيطالية الاسم في كلمة واحدة على هذا النحو Ochiaiy .

(٣) دكتور جلال يحيى : المغرب الكبير إلخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٨ .

دكتور صلاح العقاد : المغرب العربي ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٧ .

الإمبراطور في احتلال الجزيرة ، ثم رقى إلى منصب بكاريكي طرابلس ثم بكار بكلي الجزائر . واشترك في معركة لپانت البحرية حيث كان قائداً للجنح الأيسر للأسطول العثماني .

ورقى بعد هذه المعركة إلى منصب قبودان باشا تديرأ لبطلته في المعركة ؛ لأنه استطاع أسر سفينة القيادة الخاصة برئيس فرسان القديس يوحنا ، كما نجح في الخلاص بجزء من الأسطول وإعادته سالماً إلى إستانبول ، بعد أن حلت الهزيمة بالأسطول العثماني . وقد ظل يشغل منصب قبودان باشا طيلة خمسة عشر عاماً حتى توفي فجأة في اليوم الحادي والعشرين من شهر يونيو - حزيران - عام ١٩٨٧ في مسجده الخاص ، طوب خانة ، الذي أقامه في جالاطه في ضواحي إستانبول ، وأبدى نشاطاً كبيراً في حركة إعادة بناء الأسطول العثماني بعد كارثة لپانت . واشترك في استرداد تونس وحلق الوادي سنة ١٥٧٤ ، وكان إذا أقبل فصل الربيع خرج مع رجاله في سفن حربية كبيرة إلى أعالي البحار ، ويتعرض للسفن الإسبانية في رحلاتها في حوض البحر المتوسط ، ويعرقل خطوط المواصلات البحرية بين إسبانيا والدولة الخارجية ، ويعرض التجارة الإسبانية للخسائر الجسيمة . كما كان يهبط في سفن خفيفة وسريعة على مواقع معينة على السواحل الإسبانية ، مسترشداً بإشارات ضوئية يبعث بها إليه مسلمو إسبانيا ، أو بناء على معلومات مسبقة يتلقاها منهم ، وكان يقوم بتدمير المنشآت في هذه الأماكن ويأسر سكانها . ولذلك كان الإسبانيون أهل السواحل ينتقلون إلى الداخل مصادفة ، تتراوح بين خمسة وستة فراسخ إذا أقبل الربيع ؛ تجنباً لكوارث يتعرضون لها .

ومن المؤكد أن العليج على - قبل أن يقدم على مشروع إعادة الحكم الإسلامي في إسبانيا - كان على علم تام بالجهود الجبارة التي بذلتها الدولة العثمانية ، إبان وجود خير الدين بربروس في الجزائر للقضاء على الزحف الصليبي الاستعماري على شمالي إفريقية ، كما كان يعلم تماماً مدى النجاح الذي حققه خير الدين في طرد الإسبانيين من بعض قواعدهم وتحطيم حصن بينون وفي تشجيعه ، بل وفي إسهامه في حركة إنقاذ آلاف المسلمين في إسبانيا من الإفلات من قبضة الحكومة الإسبانية واللجوء إلى شمالي إفريقية . فهذه الحقائق لا تخفى على شخصية حاكمية في نيابة الجزائر ونعني بها شخصية العليج على . بقى سؤال يفرض نفسه في هذا المرحل : هل كان مشروع إعادة الحكم الإسلامي في إسبانيا بتوجيه من السلطان العثماني سليم الثاني ، الذي كان يتبوأ عرش الدولة في ذلك الوقت ؟ أم كان هذا المشروع بوحى من العاطفة الدينية لدى العليج على أو من تفكيره السياسي ؟

من المستبعد تماماً الأخذ بالسبب الأول ؛ لأن الحياة الخاصة للسلطان سليم الثاني (١٥٦٦-١٥٧٤) كانت تشعشع بالقاذورات . أذمن تناول الخمور حتى أطلق عليه السكير ، وأسرف في إرتكاب أقدّر أنواع الموبقات الجنسية ، وكان ينتمي إلى مجموعة السلاطين

المعروفين في تاريخ الدولة باسم السلاطين للتناوب^(١) Les Sultans Fainéants ، وأهم من ذلك كله ، وفوق ذلك كله ، أنه في السنة ذاتها التي اتخذ فيها الطعج على الخطوات الأولى لتنفيذ مشروع إعادة الحكم الإسلامي إلى إسبانيا كانت الدولة مشغولة بالحملة التي أرسلتها بقيادة سنان باشا لإعادة السيطرة العثمانية على اليمن ، ثم انصرفت في العام التالي إلى فتح جزيرة قبرص وانتزاعها من جمهورية البندقية (١٥٧٠-١٥٧١) ؛ وكان محمد صوفلو باشا الصدر الأعظم قد اقترح على السلطان سليم الثاني أن توجه الدولة حملة قبرص إلى إسبانيا لمحاربة مليكها فيليب الثاني (١٥٥٦-١٥٩٨) إذ كانت المقابح تحيط بهذا الملك من يمين ويسار ، وهو في وضعه المحفوف بالأخطار ، لا يستطيع للقوات العثمانية المسلحة دفعاً . ولكن لم يأخذ السلطان باقتراح الصدر الأعظم لأنه كان متأثراً برأى صديق يهودى من البرتغال ، اسمه جوزيف نانسي Joseph Nansi ؛ اتخذه السلطان صديقاً له^(٢) . تصاف إلى هذه الحقائق حقيقة أخرى ، هي أن الدولة تعرضت لكارثة كبرى ، حين تحطم أسطولها في معركة لوانب البحرية في السابع من شهر أكتوبر - تشرين أول - عام ١٥٧١ ؛ فلم يكن في مكتبة السلطان سليم الثاني - سواء قبل عام ١٥٦٩ أو بعده - أن يفكر في مشروع خطير مثل إعادة الحكم الإسلامي إلى إسبانيا ، ولم يبق إلا السبب الثاني وهو أدنى إلى الحقيقة .

كان العلاج على يفكر في مشروعين : طرد الإسبانين من تونس ، وإعادة الحكم الإسلامي إلى إسبانيا ، وفي تقديره للموقف الحربى رأى أن يجعل الأسبقية في التنفيذ للمشروع الثاني ، على أساس أن نجاحه في تحقيقه يؤدي إلى إنكماش الوجود المسيحي في إسبانيا ، وبذلك يضع حداً للتهديد الصليبي الإسباني المستمر لشمال إفريقيا ، ويسهل عليه طرد الإسبانين والبرتغاليين نهائياً من المراكز ، التي كانت لا تزال في أيديهم في شمال إفريقيا .

وتنفيذاً لهذا البرنامج الحربى ، عقد الطعج على اتفاقاً سرئاً في مطلع سنة ١٥٦٩ مع الثوار المسلمين ، الذين اعتصموا بجبال الأندلس ، ثم الاتفاق بمقتضاه على أن يقوموا بثورة هادرة في الوقت ، الذي تصل فيه القوات الإسلامية من الجزائر إلى مراكز معينة على الساحل

(١) انظر في هذه الدراسة الفصل الحادى والعشرون ، الجزء الأول .

(٢) كان يسمى هذا اليهودى في مطلع حياته دون ميجه Don Miguez ، قام بدور بارز في سياسة الدولة العثمانية . وفي ظل شتى أنواع الانحراف الخلقي الذي تردى فيه السلطان سليم الثاني . تمتع هذا اليهودى البرتغالى بتقوى كبير لديه ، وزين له فتح جزيرة ناكسوس Naxos ، وتم استيلاء العثمانيين عليها عام ١٥٦٧ وخلصوا حاكمها الدوق الحادى والعشرين من الأسرة الحاكمة وفي كريسي Crispi ، وبلغ من خطورة هذا اليهودى البرتغالى لدى السلطان أن الأخير أعطى صفيه جزيرة ناكسوس إقطاعاً له . ولم تمض سنوات ذات عدد حتى تجرأ اليهودى ، وأعلن نفسه دوقاً عليها «بفضل الله» . ولم تنفطماعه عند هذا الحد ، فقد زين للسلطان فتح جزيرة قبرص على أمل أن يأخذها إقطاعاً له . وكان من بين الأسانيد التي ساقها اليهودى للسلطان أن نبذ قبرص لإيضارعه نبذ آخر في العالم ، وفي نشوة الخمر واللذة قال سليم اليهودى «مستكون ملكاً على قبرص» .

الإسباني . ونجح العلاج على في إنزال الأسلحة والعتاد والمتطوعين على الساحل الإسباني في عام ١٥٦٩ . وفي هذا الوقت تزامت إليه الأنباء عن استعداد دون جوان أمير النمسا لغزو الجزائر، فعدل عن مشروعه مؤقتاً ، ورأى أن يبدأ بالتخلص من المراكز الإسبانية في تنس ، ومع ذلك .. فإن مشروع فتح إسبانيا لإعادة الحكم الإسلامي فيها ظل حياً في أذهان الحكام الذين تعاقبوا على نيابة الجزائر في الفترة الباقية من القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر ، وكانت هذه المشروعات تقوم على التعاون الوثيق بين نيابة الجزائر ومسلمي إسبانيا . وقد ذكر الأستاذ محمد عبدالله عنان طرفاً منها (١) .

تونس تعود إلى رحاب الكتلة الإسلامية العثمانية :

كان إخفاق العثمانيين في فتح جزيرة مالطة وتحطيم الأسطول العثماني في معركة لپانت دافعين قوين للإسبانيين على معاودة الهجوم على تونس .. فقد هاجمها دون جوان النمساوي بقوات بلغ عددها ٢٧,٠٠٠ مقاتل ، واحتل تونس سنة ١٥٧٣ . وقد رد العلاج على رداً سريعاً على الصليبيين ، فهاجم تونس على رأس قوات قفز تعدادها إلى ستين ألف مقاتل ، وكان معه قوجه سنان باشا (٢) ، وأباد الحاميات الإسبانية عن بكرة أبيها ودخل تونس عام ١٥٧٤ ، ومعنى هذا الانتصار أن العلاج على وسنان باشا استطاعا بعد ثلاث سنوات من كارثة لپانت أن ينتزعا تونس من أيدي الإسبانيين . وكان الأوروبيون المعاصرون ينظرون إلى استيلاء الإسبانيين على تونس على أنه من أبهى الصفحات في تاريخ الإمبراطور شارل الخامس ومفخرة من مفاخر حكمه ، ولكن عادت تونس إلى رحاب الكتلة الإسلامية العثمانية ، واستقرت النيابة الثالثة والأخيرة في شمال إفريقية .

أهل طرابلس يستغيثون بالدولة العثمانية من فرسان القديس يوحنا :

طرابلس تدخل في رحاب الدولة العثمانية :

استولت إسبانيا على مدينة طرابلس عام ١٥١٥ ، على عهد الإمبراطور شارل الخامس لتتخذها جيباً صليبيّاً بجانب الجيوب الصليبية التي أقامتها ، وتناثرت على طوال الساحل الشمالي لإفريقية . وظلت طرابلس تحت الحكم الإسباني المباشر زهاء عشرين عاماً ، ثم أراد هذا الإمبراطور أن يلقي عبء مكافحة الإسلام في طرابلس على عاتق فرسان القديس يوحنا . وكانوا قد نقلوا مقر قيادتهم ومركز نشاطهم الصليبي إلى جزيرة رودس بعد طردهم من بلاد الشام مع قنول الصليبيين سنة ١٢٩١ على عهد دولة المماليك البحرية ، فلما استولى السلطان سليمان المشرع على جزيرة رودس في أواخر عام ١٥٢٢ ، انتقلوا إلى جزيرة مالطة ، وأسهموا

(١) محمد عبدالله عنان : نهاية الأندلس إلخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٨٢-٢٩٠ .

(٢) قوجه معنما العظيم أو الكبير .

إسهاماً حريياً ومباشراً في المحالفات الصليبية التي تكونت من البابوية في روما ومن دول أوروبية ضد الدولة العثمانية .

وكانوا يمتلكون عدداً من السفن تجوب البحر المتوسط ؛ بحثاً عن سفن المسلمين في أعالي البحار يستولون على شحناتها ، وأسرون ركابها ويزجون بهم في غيابات السجون إلى أن يدركهم الموت .. فعهد الإمبراطور شارل الخامس إلى هؤلاء الصليبيين العناية بحكم طرابلس عام ١٥٣٥^(١) ؛ كي يتفرغ لمواصلة الحرب الصليبية ضد سكان الجزائر وقونس ، وليتفرغ لمواجهة المشكلات المتصاعدة بينه وبين السلطان سليمان المشرع الذي لم يكن يعترف به إمبراطوراً للدولة الرومانية المقدسة ، بل كان يرى أنه ملك إسبانيا فقط كما كان في مطلع حياته^(٢) . وأراد الإمبراطور أيضاً أن يكرس جزءاً من وقته لمواجهة تفاقم حركة مارتن لوثر في ألمانيا بعد صلح كاننبراي أو صلح السيدات ١٥٢٩ La paix de Cambria ou La Paix, des Dames وكيف زج فرنسا الأول ملك فرنسا في هذا النزاع لمساعدة البروتستانت على الرغم من أنه كاثوليكي نكاية في الإمبراطور^(٣) .

ويهمنا هنا أن نذكر أن فرسان القديس يوحنا أخذوا ميناء ومدينة طرابلس غنيمة باردة ، وجعلوا من ميناء طرابلس جيباً صليبياً ينطلقون منه لاصطياد السفن الإسلامية على نحو ما كانوا يفعلون . وأقاموا حكومة مسيحية دينية مسرفة في تعصبها استهدفت تغيير الوجه الإسلامي العربي لهذا الأقليم ، ولكنهم اصطدموا بالشعور الديني الإسلامي المتأجج في نفوس السكان . وكان الإسبانيون قد نجحوا في اختكار التجارة لأنفسهم ، بعد أن حرّموها على الوطنيين والأجانب ، فتحولت تجارة جمهورية البندقية وتجارة السودان إلى مصراته^(٤) .

عند أهالي طرابلس إلى مقاومة الاحتلال للصليبي - سواء على عهد الإسبانيين أو على عهد فرسان القديس يوحنا - ردأبوا على مهاجمتهم ابتغاء استرجاع مدينة طرابلس ومينائها ، ولكن جهودهم في هذا السبيل أخفقت لأن إمكاناتهم الحربية والبشرية ومواردهم المالية كانت ضعيفة ، فرأوا أن ينهجوا نهج أهل الجزائر ، فاستجدوا بالدولة العثمانية وكانت قد بلغت ، إبان حكم السلطان سليمان المشرع ، الأوج في ازدياد قوتها وتساعد نفوذها واتساع رقعتها في أوروبا وآسيا وإفريقية^(٥) .

(١) دكتور نقولا زيادة ، ليبيا في العصور الحديثة ، من مطبوعات معهد البحوث والدراسات العربية التابع لجامعة الدول العربية ، القاهرة ، ص ٢٤ .

(٢) دكتور عبدالعزيز محمد الشناري : أوروبا في مطلع إلخ ، الطبعة الأولى ، ص ٧٠٣-٧١٢ .

(٣) أنظر تقيميلا وأفية عن هذا الموضوع في المرجع السابق ، ص ٢٥٩-٢٦٢ .

(٤) دكتور نقولا زيادة ، مرجع سبق ذكره ، ص ٤٧ .

(٥) أنظر مظاهر القوة والنفوذ والتوسع الإقليمي للدولة على عهد السلطان سليمان المشرع في : دكتور عبدالعزيز محمد الشناري : أوروبا في مطلع إلخ ، مرجع سبق ذكره ، الطبعة الأولى : ص ٦٨٣-٧٢٤ .

وقد أرسل أهل تاجوراء وفداً إلى السلطان سليمان المشرع ، يلتمسون تدخله حربياً لتحرير بلادهم من الحكم الصليبي ، ويعلمون ولاهم له ودخول بلادهم تحت السيادة العثمانية ، واستجاب السلطان سليمان لطلبهم ، وأرسل مراد أغا مع قوة صغيرة إلى مدينة طرابلس ، ولكنه لم يتمكن من احتلالها .. فاستقرت هذه القوة العثمانية في تاجوراء ، وانصرفت إلى إقامة تحصينات عسكرية حول هذا الموقع وإنشاء طريق يبدأ من تاجوراء ويتجه نحو مدينة طرابلس .

ثم طلب مراد أغا إلى الباب العالي إرسال قوات برية وبحرية لتعزيز القوة التي تحت قيادته ابتغاء إنهاء الحكم الصليبي في طرابلس ؛ فأصدر السلطان سليمان إرادة إلى فوجيه سنان باشا الصدر الأعظم بالتوجه إلى طرابلس على رأس الأسطول . واستطاع ضرب منشآت الميناء ودخل المدينة عام ١٥٥١ ، وكان دراجوت باشا ممن أعاد سنان باشا في عملياته الحربية^(١) . وصدر فرمان من السلطان بتعيين مراد أغا والياً على طرابلس في العام ذاته فكان أول الولاية العثمانيين عليها ، ثم خلفه دراجوت باشا الذي استطاع أن يقضى على قلل فرسان القديس يوحنا من إقليم طرابلس ومد النفوذ العثماني ؛ بحيث شمل السواحل الليبية كلها تقريباً . وهكذا زال حكم فرسان القديس يوحنا في طرابلس بعد فترة بلغت ست عشرة سنة ، وأصبحت طرابلس منذ سنة ١٥٥١ ولاية عربية تحت السيادة العثمانية . وقد نجح دراجوت باشا في الحصول على مرافقة الباب العالي على إرسال فيالق إنكشارية لتعزيز الحامية العثمانية ؛ لمنع أى اعتداء صليبي ، قد يقع عليها سواء من جانب الإسبانيين أو من جانب فرسان القديس يوحنا . وهذا الحذر يفسر حقيقة هامة هي أن اهتمام السلطات العثمانية ، كان معظمه موجهاً إلى سواحل طرابلس والنواحي العسكرية أكثر من النواحي المدنية ؛ فانصرفت هذه السلطات إلى تحصين المدن الساحلية في ولاية طرابلس .. أما أفراد فيالق الإنكشارية .. فقد تزوجوا بالنساء العربيات في الولاية ، واهتموا بامتلاك الأراضى الزراعية وأشجار النخيل .

وكانت حصيلة هذه الزيجات المختلطة نشأة طوائف عرفت باسم القولوغلية^(٢) ، وتطورت الأحداث في هذه الولاية حين قام أحد الإنكشارية ، ويسمى أحمد القرماني^(٣) بإعلان نفسه حاكماً عليها سنة ١٧١١ ، منتهزاً فرصة غياب خليل باشا والي طرابلس ، الذي كان قد هرب إلى مصر لاجئاً سياسياً^(٤) ، عقب ثورة قام بها أهل الولاية بسبب ضياع سفينتين

(١) لكتور نقولا زيادة ، مرجع سبق ذكره ، ص ٤٤ .

(٢) يكتب هذا المصطلح أحياناً قولوغلان ، ومفرده قولوغلى . وكان القولوغلي يتركزون في حي المنشية ، وعلى ساحل مدينة طرابلس وفي مصراته ، والزاوية .

(٣) نسبة إلى مدينة قرمان في الأناضول . وأرتحل مصطفى ، وهو الجد الأكبر لأحمد القرماني ، إلى طرابلس . وكان بحاراً صغيراً وامتلك بعض المزارع والنخيل في حي المنشية . واندمج أبناءه وحفدته مع أهالي البلاد وصاهروهم .

(٤) انتهى أمره بمقتله في شهر أغسطس - آب - عام ١٧١١ أمام مدينة زواوه في غربي مدينة طرابلس . =

فى جنوبى البحر الأدرىاتى تصدت لهما سفن تابعة لفرسان القديس يوحنا وأضرمت فىهما النار.

واستطاع أربعانة رجل من السبعانة الذين كانوا فىهما النجاة من النيران ، واقتيدوا أسرى إلى جزيرة مالطة ، وفشلت جهود الدولة فى زحزحة أحمد القرمانيلى عن منصبه . وأخيراً أصدر السلطان أحمد الثالث فرماناً سنة ١٧١١ بتعيينه والياً على طرابلس على أن يكون حكمه فيها وراثياً فى أسرته ومنحه لقب الباشوية ^(١) . وأرسل إليه سفينتين حربييتين بكامل طاقميهما ومعدتيهما . وكانت الأولى تحمل ثلاثين مدفعاً أخذت من فرسان مالطة ، والثانية تحمل أربعين مدفعاً أخذت من البندقية . ووصلت هاتان السفينتان فى الوقت المناسب لأن القوات البحرية التى كانت تحت تصرف أحمد باشا القرمانيلى تضاءلت إلى حد بعيد ؛ بسبب سوء حالة السفن وعدم كفاية استعداداتها ^(٢) . وقد استطال حكم أسرة القرمانيلى مائة وأربعة وعشرين عاماً (من أواخر يوليو - تموز - عام ١٧١١ حتى أوائل يونيو - حزيران - عام ١٨٣٥) ^(٣) . ثم عادت طرابلس إلى الحكم العثمانى المباشر حتى عام ١٩١١ حين وقعت فريسة للاحتلال الإيطالى . . فكانت آخر ولاية أو نيابة من نيابات شمالى إفريقيا تزول عنها السيادة العثمانية ، بعد عزل السلطان عبدالحميد الثانى بسنتين .

هبوط حدة الصراع بين الدولة العثمانية وإسبانيا :

تراخى اهتمام إسبانيا بشمالى إفريقيا منذ أواخر القرن السادس عشر ، وقبّلت الأوضاع السياسية التى نجمت عن تدخل الدولة العثمانية وإنشاء النيابات الثلاث ؛ لعدة أسباب ، منها :

أولاً : المصاعب الداخلية التى واجهها فيليب الثانى ملك إسبانيا .

ثانياً : تركيز هذا الملك اهتمامه على المستعمرات الإسبانية ، التى تأسست عقب حركة الكشوف الجغرافية فى المكسيك وأمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية ، مثل : جواتيمالا ، وسلفادور ، وهندوراس ، ونيكاراجوا ، وبيرو ، ومانجم عن هذه الكشوف والمستعمرات من تدفق الفضة على العوائل الإسبانية . وانتهى الأمر فى أيام فيليب الثانى إلى أن أصبحت

= يجدير بالذكر أن مصر وتونس كانتا تقبلان عن طيب خاطر رؤساء القبائل ومن إليهم فى طرابلس وبرة كلما نزل بهم ضيم .

(١) كان أحمد القرمانيلى يحمل أول الأمر لقب بك ، ثم ميرميران أى كبير الأمراء ، وبكرك . ولما صدر فرمان تعيينه من السلطان سليمان ، حمل لقب الباشوية .

(٢) ردد لفوميكاكى : طرابلس الغرب تحت حكم أسرة القرمانيلى . تعريب الأستاذ طه فوزى ، ومراجعة الأستاذين حسن محمود وكمال الدين عبدالعزيز الخربوطلى ، من مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية التابع لجامعة الدول العربية ، القاهرة ، ١٩٦١ ، ص ١٩ .

(٣) يكتو عبدالعزیز محمد الشناوى : العلاقات المصرية الليبية فى العصور الحديثة ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢.

إسبانيا، القنادة، التي تجرى منها الفضة إلى بقية أوروبا ، وفي ذلك الوقت بدأ عصر الفضة في أوروبا ، وظلت الفضة خلال الخمسين سنة التالية تسيطر على تطور الحياة السياسية والدينية والاجتماعية والاقتصادية في أوروبا^(١) .

ثالثاً : الأعباء المالية المتزايدة التي كانت تتحملها خزانة حكومة مدريد في تمويل الحاميات الإنسانية المربطة في المدن الساحلية في شمالي إفريقيا ، لأن الأهالي فيها امتنعوا عن التعاون مع قادة هذه الحاميات .. فكانت الحكومة الإسبانية ترسل مواد التموين وغيرها عبر البحر المتوسط إليها ، وقد أدى هذا الوضع إلى إنقاص حجم الحاميات الإسبانية .

رابعاً : قيام منازعات مستمرة بين العسكريين والمدنيين في إدارة هذه الجيوب العسكرية .

أما الدولة العثمانية .. فقد فتر اهتمامها هي الأخرى بشمالي إفريقية بعد أن أسست النيابات الثلاث ، وبعد أن إطمأنت إلى إبعاد أخطار الزحف الصليبي الاستعماري عن تلك الأقاليم إلى حد بعيد ، ولأن الدولة كانت قد بدأت تدخل في دور الاضمحلال منذ حكم السلطان سليم الثاني السكير ، وتعاقب سلاطين ضعاف من بعده على العرش ، ورؤساء شغلوا منصب الصدارة العظمى لم يكونوا على مستوى المسؤولية ، وظهر مراكز قوى في الدولة على النحو الذي بسلطانه من قبل .

وقد طلب فيليب الثاني ملك إسباني توقيع هدنة مع الدولة سنة ١٥٨١ على عهد السلطان مراد الثالث (١٥٧٤-١٥٩٦) ، واستجاب الباب العالي لهذا الطلب الذي كان معناه أن إسبانيا قد قبلت الأوضاع السياسية ، التي نجمت عن تدخل الدولة العثمانية في شمالي إفريقية وإنشاء النيابات الثلاث تحت العيادة العثمانية . ولكن النزاع كان يتجدد بين إسبانيا ونيابة الجزائر طوال القرنين السابع عشر والثامن عشر ؛ بسبب استمرار احتلال الأسبانيين مدينة وهران، وقد تم جلاء الإسبانين عنها عام ، وأصر حسان باشا داي للجزائر على تسليم مفاتيح المدينة إلى الباب .

إخفاق الدولة العثمانية في بسط سيادتها على مراكش :

قد تصاعد البعض عن الأسباب التي جعلت الدولة العثمانية تمد نفوذها إلى ثلاثة أقاليم في شمالي إفريقية ، وهي : الجزائر وطرابلس وتونس وتدخلها تحت السيادة العثمانية . ولم تنتهج هذه السياسة فيما يتعلق بالإقليم الشقيق الرابع المتبقى وهو مراكش ؛ خاصة وأن هذا

(1) Lavissee et Rambaud; op. cit., L. V., pp 932-933 et 935-937.

وانظر أيضاً :

دكتور محمد فزاد شكري ودكتور محمد أنيس : أوروبا في العصور الحديثة ، الجزء الأول ، من النهضة الإيطالية حتى الثورة الفرنسية . مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٩٦١ ، ص ٨٢-٩٢ .

الإقليم كان يعاني كزملائه من الوجود الصليبي الاستعماري المتمثل في البرتغال وإسبانيا .
والواقع أن الدولة العثمانية لم تغفل عن هذا الموضوع .

ويرى هذا الاهتمام على عهد السلطان سليمان المشرع بالذات .. فقد كان هذا السلطان يدرك أهمية وحدة الصف الإسلامي في الصراع المحتدم بين القوى الإسلامية والقوى الصليبية في شمالي إفريقية ، بعد أن وحدت وحدة الهدف بين الأغلبية العظمى والساحقة بين جماهير مسلمي شمالي إفريقية وانضمام الدولة العثمانية إلى صفوفهم . وكان هذا السلطان يدرك أيضاً الأهمية البالغة لموقع مراكش من الناحية العسكرية ، فهي دولة متوسطة ومحيطية في الوقت ذاته ؛ بمعنى أن سواحلها تطل على البحر المتوسط والمحيط الأطلنطي ، كما أنها تقترب جداً من إسبانيا من جهة بوغاز جبل طارق ، وكان في استطاعة السلطان سليمان - لو قدر له أن ييسط السيادة العثمانية عليها - أن يتخذ من الموانئ المراكشية قواعد عسكرية لضرب السواحل الإسبانية . وكانت تابعة للإمبراطور شارل الخامس مما يعطيه ثقلاً حريياً إسلامياً ومزيداً من الفرص والقوة في صراعه الضاري مع هذا الإمبراطور ، وكان أحدهما عاقل العالم الإسلامي ، والآخر عاقل العالم المسيحي . كما كان هذا السلطان يرى أن دخول مراكش تحت السيادة العثمانية يساعده على المضى بخطى سريعة في تصفية الوجود الصليبي في شمالي إفريقية .

استطاع محمد المهدي السعدي أن يؤسس في مراكش دولة الأشراف السعدية ، وأن يحكم البلاد بدلاً من أسرة بنى وطاس ، التي قضت في الدفاع عن مراكش حتى سقطت جميع ثغورها في أيدي البرتغاليين والإسبانيين . وكان محمد للوطاس قد تقدم بعرض إلى محمد المهدي السعدي ، يحكم الأخير بمقتضاه مدينة مراكش عاصمة الجنوب باسم الأسرة الوطاسية . ولكنه رفض هذا العرض ؛ لأنه كان يتطلع إلى توحيد جميع أنحاء مراكش تحت سلطته ، وشت شمل الأسرة الوطاسية ودخل مدينة فاس عام ١٥٤٩ واتجه إلى تحرير بعض الموانئ الشمالية ، كما فعل في الجنوب من قبل ، واسترد أصيلة والقصر الصغير (١٥٤٩-١٥٥٠) ، ولم يبق للبرتغاليين سوى سبتة وطنجة ومزغان .

وحدث أن هرب أحد أفراد أسرة بنى وطاس ، وهو أبو حمسون على الوطاسي ، من مراكش وذهب يلتمس مساعدة حكام البرتغال وإسبانيا لإعادة أسرته إلى الحكم ، ولكن لم تسفر مساعيه عن نتيجة عملية ، فولى وجهه شطر إستانبول حيث قابل السلطان سليمان المشرع ، الذي أصدر أمراً إلى صالح ريس بكسر بكى الجزائر بإعداد حملة لفتح مراكش بالتعاون مع أبى حمسون الوطاسي ، وتعيينه سلطاناً تحت السيادة العثمانية . واستطاع صالح ريس دخول فاس سنة ١٥٥٤ وغذا أبو وطاس حاكماً ، وبذلك امتد نفوذ الدولة العثمانية إلى مراكش ، ولكن لم يطل أمده سوى بضعة أشهر ؛ لأن محمد المهدي السعدي استطاع أن يسترد فاس من العثمانيين والوطاسيين ، وأن يعيد عنها النفوذ العثماني والجزائري .

كان من المتوقع أن يحدث نوع من التضامن أو التعاون بين الدولة العثمانية والدولة السعدية ، بعد أن استقرت لها الأوضاع في مراكز نظراً لوحدة الهدف بينهما ، فالدولة السعدية قامت أساساً لتصفية الجيوب البرتغالية في مراكز . وكان السلطان سليمان المشرع يفكر في تكوين اتحاد إسلامي ومجاهد ، يواجه أخطار الزحف الصليبي الاستعماري الإسباني والبرتغالي على أقاليم شمالي إفريقية ، بل كان يطمح في دخول الدولة السعدية في تبعية الدولة العثمانية طوعاً على غرار جاراتها الشقيقات . وقد أرسل السلطان سليمان سفارة إلى محمد المهدي السعدي للوصول إلى إتفاق يحقق وحدة الصف الإسلامي بعد أن تحققت وحدة الهدف ، ولكن رفض محمد المهدي الفكرة من حيث المبدأ رفضاً باتاً ، ورفض الاعتراف بالسلطان العثماني كأكبر قائد في حركة المجاهدين المسلمين في شمالي إفريقية وحوض البحر المتوسط ، ورفض الاعتراف بالخلافة الإسلامية العثمانية ، على أساس أن العثمانيين ليسوا عرباً ، وإنما هم أعاجم .

وكان محمد المهدي يعزز بنسبه إلى أسرة الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، فهو ينحدر من سلالة علي بن أبي طالب ، وكان لفكرة الشراكة في مراكز أهمية كبيرة في حياتها السياسية والدينية والاجتماعية .

وتعمقت هذه الأهمية ، منذ أن وصل إدريس بن عبدالله وبنى مدينة فاس^(١) ، وكان سكان مراكز يعززون بحكامهم بصفتهم حفدة وذرائع البيت النبوي الشريف . وتبوأ هؤلاء الحكام مكاناً علياً في قلوب أهل البلاد ، وأصبحت أضرحتهم أماكن زيارة وتبجيل . وكان هذا الانتماء إلى آل رسول الله صلى الله عليه وسلم من أسباب تفوق الأسرة السعدية على القيادات المنافسة الأخرى ، ومما ساعد على ترسيخ هذه الفكرة في أذهان أهل مراكز انتشار الطرق الصوفية ، ولاسيما الطريقة الشاذلية التي تفرع عنها كثير من الطرق الصوفية في شمالي إفريقية . وأصبحت مراكز الإقليم الوحيد من أقاليم المغرب الكبير الذي اعتز بحسب ونسب قيادته السعدية ، واحتفظ لنفسه بشخصية قائمة بذاتها ، ورفض دخوله تحت السيادة العثمانية ، على الرغم من استمرار الصلات والروابط وتشابه المصالح بين شعوب شمالي إفريقية ، وأطلق عليه شخصه لقب «أمير المؤمنين» . ولما أدرك السلطان سليمان إصراره على موقفه ، عهد إلى صالح ريس بإعداد حملة أخرى لفتح مراكز . وبينما كانت الاستعدادات قائمة على قدم وساق توفي صالح ريس ، . أمر السلطان خلفه حسن باشا خير الدين الذي أعيد تعيينه في منصب بكلر بكى الجزائر بأن يمشي في مشروع فتح مراكز ، ولكن لم تصادف الحملة توفيقاً . ثم جاءت مشكلة تلمسان ، فأضافت عنصراً جديداً من عناصر النزاع بين العثمانيين والسعديين^(٢) .

(١) دكتور السيد عبدالعزيز سالم : المغرب الكبير ، العصر الإسلامي ، الناشر الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٦ ، ص ٤٨٧-٥٠١ .

(٢) انظر عرضاً لهذه المشكلة في :
دكتور جلال يحيى ، المغرب الكبير إلخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٧-٣٩ .

ثالثاً : إيجاد وحدة على الطبيعة بين الولايات العربية

ومن الخدمات التي أدتها الدولة العثمانية للعالم العربي أنها أوجدت بين الولايات العربية التي دخلت تحت سيادتها - من منطقة الخليج العربي إلى الحدود الغربية للجزائر في شمالي إفريقيا - وحدة على الطبيعة من نوع خاص ؛ فاحتفظت هذه الولايات بمقوماتها الأساسية : الدين الإسلامي ، واللغة العربية ، والثقافة العربية الإسلامية ، والتقاليد والعادات الموروثة عبر الأعصر والأدهار . وكان سكانها تجمعهم دولة إسلامية واحدة هي الدولة العثمانية ، وينتمون لجنسية واحدة هي الجنسية العثمانية بالتعبير الحديث ، وتضمهم رعاية واحدة بصفتهم رعايا عثمانيين ، ويشاركون في تبيعتهم لحاكم واحد هو السلطان العثماني . ولم تلجأ الدولة العثمانية إلى إقامة حدود مغلقة بين الولايات العربية أو حواجز مصطنعة بين سكانها ، فكانت حرية الانتقال والسفر أمامهم مكفولة ومحترمة في جميع الأوقات . وكانت فرص العمل متاحة لهم في كل الأوقات .

وكان في مقدور العربي في دمشق مثلاً أن ينتقل إلى بغداد أو مكة المكرمة أو المدينة المنورة أو القاهرة أو القيروان أو غيرها من مدن الولايات العربية ، ويعيش فيها ويمارس ألوأناً من النشاط الاقتصادي أو الثقافي ، دون أن يحصل على إذن بالخروج أو الإقامة .

وكانت هذه الوحدة هي أول وحدة تتحقق للعالم العربي إبان الحكم العثماني بعد تفتت وحدته بسقوط الدولة العباسية في حوالي منتصف القرن الثالث عشر الميلادي ، عقب غزو المغول وتخريب مدينة بغداد وانسيابهم في وادي الرافدين ثم شمالي بلاد الشام إلى جنوبي فلسطين . ولذلك يرى جمهرة من المؤرخين والباحثين أن الوحدة التي تمت على أيدي العثمانيين هي نقطة البداية في تاريخ العرب الحديث^(١) . فضلاً عن تلك التبعية السياسية كانت وشيجة الدين تربط سكان الولايات العربية بالسلطان العثماني باستثناء أهل الذمة . وكانوا قلة عديدة يعيشون على هامش المجتمعات الإسلامية في الولايات العربية ماعدا بعض الجهات

(١) يتبادر إلى ذهن بعض المثقفين ربط بداية تاريخ العرب الحديث ببداية تاريخ أوروبا الحديث على أساس أنهما وقعا في وقت واحد تقريباً هو عصر النهضة الأوروبية . ولكن كان هذان الحادثن - الوحدة في ظل الحكم العثماني والنهضة الأوروبية - مختلفين بعضهما عن بعض في نشأتها ومعالجتها وتطورهما وسير الأحداث في العالم العربي وفي أوروبا .

في بلاد الشام^(١) . وكانت وشيجة الدين من أقوى الوشائج التي ربطت الجماهير العربية بالدولة العثمانية ، فأخلصوا لها واشتركوا في حروبها ضد التكتلات الصليبية التي واجهتها ، وكان ولاؤهم لها والنصاقهم بها يزداد إذا تعرضت الدولة لهزيمة عسكرية من دولة أوروبية . وكان الدين يعمل في تلك العصور عمل القومية في الوقت الحاضر ، في تقرير الأوضاع السياسية والحربية لشعوب الولايات العربية^(٢) . وكانت تفسيرات علماء الدين للأحداث الكبرى والعلاقات والروابط الاجتماعية هي التفسيرات التي تتقبلها الجماهير عن طيب خاطر . ولعل خير مثال للترابط الديني بين سكان الولايات العربية إبان الحكم العثماني ماحدث في مصر عند ما هبطت الحملة الفرنسية أرضها عام ١٧٩٨ بقيادة بوناپرت .

وكانت هذه الحملة أول غزو عسكري مسيحي أوروبي لولاية عربية من ولايات الدولة العثمانية في الشرق الإسلامي في التاريخ الحديث . أعلن السلطان سليم الثالث (١٧٨٩-١٨٠٧) الجهاد الديني ضد الفرنسيين . وللجهاد الديني في الفقه الإسلامي هو فرض عين على كل مسلم بالغ قادر على حمل السلاح ، واستجاب لدعوة للجهاد الديني العرب في الحجاز والشام وشمال إفريقيا .. فعن الحجاز خرجت جموع من العرب بقيادة رجل ثري يسمى محمد الكيلاني . ويقول الجبرتي في حوادث شهر شعبان عام ١٢١٣ (٨ من يناير - كانون ثان- إلى

(١) يرى الأستاذ أنيس صايغ أن العلاقات بين الأكثرية المسلمة السنية في الولايات العربية والأقليات المذهبية والنصرانية فيها قد خلقت مشكلة شائكة ومزمنة فيها بشكل عام وفي كل بقعة في الولايات العربية بشكل خاص . وقال إن عوامل خارجية وبداخلية وسياسية ونفسية متعددة قامت بدور بارز في قيام هذه المشكلة واستحالتها ، وإن فرنسا وبريطانيا قد أسهمت بتصيب وإفر في توسيع الشقة بين الأكثرية والأقلية وأيدتا أفراد الأقليات بالموال والأسلحة والتشجيع وحرضتاهم ضد الاختلاط مع الأكثرية أولاً ثم ضد الاندماج في الفكرة القومية بعد ذلك ، وأكد أن مشكلة العلاقات بين الأكثرية والأقلية تخضع لمؤثرات كثيرة غير عربية أكثر مما تخضع له من مؤثرات عربية . وخلص إلى أن هذه الحقائق لاتحجب حقيقة الأوضاع ، وهي أن أفراد الأكثرية والأقليات كانوا مسئولين معاً مسئولية مباشرة عن ضعف العلاقات ، فنتج عن ذلك أن انكمشت على نفسها الأقليات وهي أقيمت لها تراثها وبنورها وبحقها في الحياة العربية ونفسها عن حركتي الوحدة والاستقلال بعد ذلك ومطالبت بدلاً منهما بهدفين متناقضين لهما : الارتباط مع دولة أخرى من خارج المنطقة العربية ارتباطاً مشبوهاً يهدد الاستقلال ، والانفصال عن الوحدة الشاملة وتفتيت الدولة الواحدة إلى عدة كيانات سياسية مبشرة .

انظر : أنيس صايغ : الهاشميون والثورة العربية الكبرى . بيروت ، ١٩٦٦ ، ص ١٦٤-١٦٥ .
وبهذه الآراء صحيحة إلى حد بعيد ، وهي تتناول فترتين : الفترة الأولى الخاصة بالحكم العثماني للولايات العربية ، والفترة الثانية وتنصب على الفترة التالية بعد سقوط الدولة العثمانية عقب العرب العالمية الأولى . وتغلغل الزحف الاستعماري الأوروبي في الشرق العربي الآسيوي وتزامنه عليه . والفترة الأولى هي التي تخص هذه الدراسة وتحتاج إلى إضافة بعض الحقائق لتكون الصورة أكثر وضوحاً . وسنرجع بحثنا عنها إلى كتابنا القادم بإذن الله وهو دور الدولة العثمانية في نشر الإسلام في أوروبا وموقفها من أهل الذمة في الدولة » .

(٢) أنيس صايغ ، الهاشميون والثورة العربية الكبرى ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٥٥ .

٥ من فبراير - شباط - عام ١٧٩٩) ، لما وردت أخبار الفرنسيين إلى الحجاز وأنهم ملكوا الديار المصرية ، انزعج أهل الحجاز لذلك وضحوا بالحرم ... وإن هذا الشيخ (الكيلاني) صار يعط الناس ويدعوهم إلى الجهاد ، ويحرضهم على نصرته الحق والدين ، وقرأ بالحرم كتاباً مؤلفاً في معنى ذلك . فاتعظ جملة من الناس ، وبذلوا أموالهم وأنفسهم واجتمع نحو الستمائة من المجاهدين^(١) . وركبوا البحر إلى القصير مع ما انضم إليهم من أهل ينبع وخلافه^(٢) .

وكان عرب الحجاز خصوماً أشداء للجنرال ديزيه Désaix ، الذي عهد إليه بونايرت بغزو الصعيد والقضاء على قوات مراد بك . وقد صمموا على الظفر بإحدى الحميين : الاستشهاده أو الانتصار ، واتخذوا شعاراً لهم الآية القرآنية الكريمة : انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلك خير لكم إن كنتم تعلمون^(٣) . وتطلق عليهم المزاجع الفرنسية المكاريين Les Mecquois أي أهل مكة ، وهذه التسمية تنطوي على خطأ واضح ، لأن أفراد القوة التي جاءت من الحجاز لم يكونوا جميعاً من سكان مكة المكرمة ، بل انضمت إليهم أفراج من المدينة - المنورة والطائف وجدة وينبع وغيرها^(٤) . وتكونت منهم في الصعيد ومن مسلمي أقاليم الوجه القبلي وبخاصة عرب الهوارة وأهالي النوبة وقوات مراد بك جبهة حربية إسلامية ، في مواجهة جبهة حربية مسيحية ، كانت تتألف من القوات الفرنسية ، النهرية والبرية ، والفيالق القبطية بقيادة المعلم^(٥) يعقوب حنا في الجيش الفرنسي^(٦) .

(١) يذكر نقولا ترك أن عددهم كان ثمانية آلاف مجاهد ، وهو رقم مبالغ فيه . انظر :

مذكرات نقولا ترك : نشر وترجمة وتعليق جامستن فييت Gaston Wiet . القاهرة ، مطبعة المعهد الفرنسي للآثار الشرقية ، ١٩٥٠ ، ص ٤٨ ، النص الفرنسي .

(٢) الجبرتي ، مصدر سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ٤٤ .

(٣) الآية رقم ٤١ ، سورة التوبة .

(٤) دكتور عبدالعزيز محمد الشناوي : الوحدة العربية في التاريخ الحديث والمعاصر . مرجع سبق ذكره ، ص ٢٨ .

(٥) «المعلم» لقب لشخص وجيه مثقف مستمد من الإنجيل ، لأن السيد المسيح عليه السلام كان يتخذ لنفسه لقب «المعلم» وكان ينادي الناس بالمعلم ويرفض أي لقب آخر .

(٦) أسرفت بعض الطوائف غير الإسلامية في مصر في تشييد الفرنسيين إسرائفاً وصل إلى حد تكوين فرق عسكرية من أبناء هذه الطوائف . وقام الضباط والجنود الفرنسيون بتدريبهم على النظم العسكرية الأوروبية وتزويدهم بالأسلحة الحديثة ، ثم ألحقت هذه الفرق بجيش الاحتلال الفرنسي لسد النقص في عدده ، نتيجة المعارك التي خاضها في مصر والشام ، وإخماد الثورات الشعبية ، وقتل الطامعين وغيره من الأمراض الوبائية بالجنود الفرنسيين ، وعجز حكومة باريس عن إرسال تعزيزات عسكرية إلى الحملة . وقد نظر الشعب المصري إلى هذه الفرق على أنها أدوات لدعم الاحتلال الفرنسي لمصر ، وأنه لولا هذا لما أنشأت السلطات الفرنسية في إنشائها وتدريبها وتسليحها . وتزعم هذه الحركة المعلم يعقوب=

كذلك جاء إلى مصر رجل من مدينة درنة بطرابلس الغرب لقب نفسه بالمهدي ، ودعا إلى قتال الفرنسيين ؛ فأقبل عليه الناس أفواجاً ومنهم إليه رجال القبائل من أولاد علي والهنادى

= هنا ، إذ كون فرقاً عسكرية من شباب الأقباط . وكانوا يرتدون زياً مشابهاً لزي الجنود الفرنسيين ولقد كلب قيادة هذه الفرق ومنحه رتبة أغا ثم رقى على عهد مينو إلى رتبة لواء Général ومنحه رسمياً لقب « القائد العام للقبائل القبطية بالجيش الفرنسي » . وقد أنشأ للفرنسيين فى حملة الصعيد نظاماً بريدياً دقيقاً على الهجن ارتبطت بفضلها فصائل الجيش الفرنسى المنتشرة على طول نهر النيل ما بين القاهرة وأسوان . واتخذ من أسيوط مركزه هو والقادة الأقباط لوقوعها فى منتصف المسافة تقريباً بين القاهرة وأسوان ، ولأن أهالى أسيوط كانوا يعرفونه جيداً إذ كان وكيلاً عاماً على إقليم أسيوط لسليمان بك أحد أمراء على بك الكبير . وكان المعلم يعقوب الساعد الأمين للقائد ديزيه فى حملة الصعيد ضد الجبهة الحربية الإسلامية . ورفض أن تكون مهمته مقصورة على تدبير المال والإشراف على شئون تموين الجيش الفرنسى ، بل اشترك اشتراكاً فعلياً فى الحرب إلى جانب الفرنسيين . وكان يدلهم على بعض المراكز الحربية . ولما انتصر يعقوب فى واقعة «عين القوصية» قلده الجنرال ديزيه من مساء يوم الانتصار فى حفل أقامه له سيفاً كتب على نصله اسم الواقعة .

ولما ثارت القاهرة ثورتها الثانية (٢٠ من مارس آذار - إلى ٢١ من أبريل - نيسان - عام ١٨٠٠) على عهد كبير كان كبار الأقباط وعلى رأسهم المعلم جرجس جوهرى ، وقلناؤس ، وملطى ، يمدون الثوار المصريين بالأموال والنخائر . ولكن كان المعلم يعقوب ومن سار على شاكلته من الأقباط يصلون الثوار ناراً حامية . وفى هذا يقول الجبرتي (ج٢ ، ص٩٦) إن المعلم يعقوب كرك (أى عسكر أو رابط) فى داره بالدرب الواسع جهة الرومي ، واستعد استعداداً كبيراً بالمعسكر والسلاح . وتحصن بقلعة التى كان شيدها بعد الواقعة الأولى (أى ثورة القاهرة الأولى على عهد بوناپرت) فكان معظم حوب حسين بك الجدارى معه . ولما أسرف كبير فى استخدام العنف بعد قصفه على الثورة الثانية ، فرض على أهالى القاهرة غرامة حربية كبيرة . وعهد كبير إلى المعلم يعقوب أن «يفعل فى المسلمين مايشاء» . وما يذكر أن بطريك الأقباط لم يقر يعقوب على تصرفاته . وكثيراً ما بذل له النصيح بالعدل عن خطته ، ولكن يعقوب كان يظلم له القول . وكان يدخل الكنيسة راكباً جواده ورافعاً سلاحه . ولم يزد إلا إمعاناً فى تأييده للفرنسيين . ولما لقي الجنرال ديزيه مصرعه فى موقعة مارنوجو فى ذات اليوم الذى اغتيل فيه الجنرال كبير فى القاهرة وهو يوم ١٤ من شهر يونيو - حزيران - عام ١٨٠٠ ، اتجهت الفكرة إلى إقامة تمثال له فى باريس . وكتب يعقوب خطاباً مؤثراً أملاه عليه وجدانه وأبدى فيه حزنه العميق على فقد «عزيزه» ديزيه الذى حارب بجانبه لإخضاع أرض «طيبة» . وتبرع بثلاث قيمة التمثال . ويقول الجبرتي إن يعقوب كان «صاحب مال لأنه لم يشأن أن يجمع لنفسه عندما جمع للفرنسيين» .

ولما تقدر جلاء الفرنسيين عن مصر صمم على الرحيل معهم وحاول أن يصطحب معه عدداً كبيراً من شباب الأقباط الذين كانوا تحت قيادته فرفضوا ولم يخرج معه إلا بعض أقاربه وهم زوجته مريم نعمة الله ، وابنته منة ، وأخوه حنين وابنة أخته ولقبها سيداويس واستقل الجميع سفينة إنجليزية تسمى بالاس Pallas وبينما كانت السفينة تشق طريقها أصيب يعقوب بمرض لم يمهله طويلاً فمات فى عرض البحر . واستجاب إدموندز Edmonds ريان السفينة لرجاء أهله فلم يلق بجثته فى البحر بل وضعها فى برميل مليء بالنديف حفظها حتى بلغت السفينة مارسيليا حيث دفنت .

ويحلو لبعض الباحثين أن يقرروا أن المعلم يعقوب قد سافر إلى فرنسا مع الفرنسيين لتحقيق مشروع وطنى خطير ، هو السعى لدى الحكومات الأوروبية لتحقيق استقلال مصر . والمعلم يعقوب لم تكن له زعامة سياسية فى مصر حتى يتصدى لمل هذه المهمة . ولم تكن علاقته طيبة مع كبار الأقباط=

وغيرهم . كما انضم إليه سكان القرى التي مر بها . وسار بهذه الجموع المسلحة حتى بلغ دمنهور في أبريل - نيسان - عام ١٧٩٩ ، وكانت تعسكر بها حامية فرنسية ، أبداها المهدي

= فضلاً عن المسلمين الذين نظروا إليه على أنه أحد الخونة المارقين الذين يظهرون في فترات الحكم الأجنبي ويكُونون خلالها حرباً على مواطنيهم . وهو لم يبرز في الميدان السياسي إلا على عهد الحملة الفرنسية عندما تقاضى في خدمة الفرنسيين . وكان نشاطه قبل الاحتلال الفرنسي مقصوراً على الميدان الاقتصادي . وأين هو الوفد الذي وافقه من أجل السعي لتحقيق استقلال مصر ؟ هل هو أهله وعشيرته؟ وماهى أنباء هذا الوفد حين نزل في مارسيليا ؟ إن الثابت أنه لم يكن لديه تفويض من شيخ الأزهر أو علمائه أو كبار الأقباط . وإنما التفويض الوحيد الذي كان يحمله يعقوب كان من بعض كبار الأقباط المطالبة بالحكومة الفرنسية برد قروض مالية قدموها للجنرال مينو في أواخر عهد الحملة الفرنسية حين نصبت مواردها المالية . ولكن الحكومة الفرنسية ماطلت أول الأمر في الدفع ثم رففت أن تعترف بالدين . وسافر ورتة أولئك الأقباط إلى باريس على عهد نابليون الثالث يبدلون جهدهم لديه لاسترداد تلك القروض ولم تغير الحكومة الفرنسية موقفها وظلت على رفضها الاعتراف بهذه القروض . ومجمل القول إنه لم يفوض أحد في مصر المعلم يعقوب في التكلم في مستقبل مصر السياسي . والحق أن المعلم يعقوب كان من أعوان الاستعمار الفرنسي في مصر . فلما حمل الاستعمار مصداً ورحل عن البلاد ، كان على هذا الفرع أن يتبع الأصل ويرحل معه . ومن ثم كان هروب يعقوب مع لؤلؤ الحملة الفرنسية الفاشلة . ومن حسن حظ مصر أن حركة يعقوب لم تنش طويلاً ولم تجد تأييداً من كبار الأقباط وعقلائهم فإن هذه الحركة لو قدر لها أن تعمر طويلاً لقصت على الوحدة القوية الرائعة بين المسلمين والأقباط ولغرست بذور الانقسام والشقاق في مصر ولأوجدت هوة سحيقة بين هذين المتصيرين وهو أمر جد خطير . وكان الجبرتي يشيد في أكثر من موضع بوحدة المسلمين والأقباط في مقاومة الحملة الفرنسية . (ج٢ ص ١٥ على سبيل المثال) .

ويصف الأستاذ محمد شفيق غريال الجيش الذي جمعه يعقوب من شباب أقباط مصر أنه أول جيش تكون من أبناء البلاد بعد زوال الفراعنة . وقد تناسى أو لعله فاته أن المهمة الأولى والرئيسية للجيش إنما هي الدفاع عن الوطن . وليست دعم احتلال أجنبي عسكري صامراً كالاحتلال الفرنسي لمصر (١٧٩٨-١٨٠١) . ولعل مما يشفع له في هذه الكذبة أنه وضع بحثه عن المعلم يعقوب عام ١٩٣٢ ولم يكن قد وصل إلى منصب الأستاذية في كلية الآداب بالجامعة المصرية - جامعة القاهرة حالياً - ولم يكن قد اكتمل نضجه العلمي بعد .

عن المعلم يعقوب ، انظر كلاً من :

- الجبرتي ، مصدر سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ١٥ ، ٩٦ ، ١٠٨ ، ١١٥ ، ١٢٩ ، ١٦٢ ، ١٧٨ ، ١٨٦ ، ١٩٣ ، ٢٦٦-٢٦٥ .
نقولا ترك مذكرات النص الفرنسي ، مرجع سبق ذكره ، ص ٤٦ ، ١٠٢ ، ١٠٥ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١١٤ ، ١٢٤ .

أحمد حافظ عوض ، فتح مصر الحديث أو نابليون بونابرت في مصر ، القاهرة ، ١٩٢٥ ص ٢٠ .
محمد شفيق غريال : الجنرال يعقوب والفارس لاسكاريس ومشروع استقلال مصر في سنة ١٨٠١ ، مطبعة المعارف شارع الفجالة مصر ، ١٩٣٢ ، ص ٢٠ .
يعقوب نخلة : تاريخ الأمة القبطية ص ٢٨٩-٢٩١ .

Gaston Homsy, Le Général Jacob et L'Expédition de Bonaparte en Egypte. Marseille, 1921; p. 17, 30-32, 101-102, 115, 120-121, 130-131-133, 134-145=

عن بكرة أبيها . وكان لانتصار المهدي صدى كبير في أنحاء البلاد ، فهرع إليه الناس من كل حدب وصوب . ولما علم الجنرال مارمون حاكم الإسكندرية العسكرى نبأ الكارثة التي حلت بالحامية الفرنسية في دمهور ، أرسل نجدة مزودة بالمدفعية لتعقب المهدي ولكنها هزمت ، فأرسل قوات أخرى من رشيد ودارت معركة سنهور ، وكانت من أشد المعارك هولاً ومن أعنف الوقائع التي واجهها الفرنسيون في مصر ، إذ كانت أشبه بمجزرة بشرية . وكان عدد رجال المهدي خمسة عشر ألف مقاتل من المشاة وأربعة آلاف من الفرسان . واستمر القتال سبع ساعات . وانتهى بفوز المهدي وارتداد الفرنسيين إلى الرحمانية (١) .

واعترف بوناپرت بأهمية العازل الديني بين الفرنسيين والشعب الإسلامى العربى في مصر ، وخلص رأياً إلى أن الحرب ضد المسلمين سكان مصر تطلبت توضيحات جسيمة واعتبرها حرب استنزاف للفرنسيين ولم يمكن للتغلب عليها (٢) ، وأخفقت سياسته الإسلامية في مصر التي يطلق عليها الفرنسيون (٣) La Politique Musulmane de Bonaparte إخفاقاً ذريعاً ، كما أكد نقولا ترك - وهو من موارنة لبنان وعاصر أحداث الحملة ، أهمية العازل الديني في عبارات صريحة ، فقال إن المصريين وصفوا بوناپرت بأنه نصرانى ابن نصرانى (٤) ، ومعنى ذلك أن المصريين لم يصفوا بوناپرت بأنه أوروى ابن أوروى ، ولم يقولوا عنه إنه فرنسى ابن فرنسى ، بل اتخذوا الدين معياراً لتقييم بوناپرت . وكانت المظاهرات تطوف في شوارع القاهرة تطلق هتافات مسجعة ، وتعلن عن ولائها للسلطان .

الله ينصر السلطان ويهلك فرط الرمان (٥)

Douin George: L'Egypte Indépendante, Projet de 1801.=

Documents Inédits. Publication de la Société (Royale) de Géographie d'Egypte, Le Caire, 1924, pp. I-XVI.

ويلاحظ أن نوا متعاطف مع حركة المعلم يعقوب ، ويحاول أن يسوق مبررات النشاط وتصرفات يعقوب.

(١) الجبرتي ، مصدر سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ٨٨ .

دكتور عبدالعزیز محمد الشناوى ، الوحدة العربية الخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٨ .

عبدالرحمن الرافعى ، تاريخ الحركة القومية ، مرجع سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ٨٦-٦٠ .

(٢) دكتور عبدالعزیز محمد الشناوى : صور من دير الأزهر الخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ٦٢-٦٤ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٦٣-٦٢ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٦٤-٦٦ .

(٥) الجبرتي ، مصدر سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ٨٨ ، ص ٩٣ .

فرط الرمان هو اسم أطلقته الجماهير على رجل يوناني فظ شرس اسمه برتلى Barthélemy ويرد ذكره في بعض المراجع الفرنسية باسمه القاهرى Grain de Grenade أى فرط الرمان . عينه الفرنسيون عقب دخولهم القاهرة في منصب كتخدأ مستحفظان أى وكيل محافظ القاهرة . وأمصح=

كما صرح كبار علماء الأزهر للجنرال كليبر عقب إخعاد ثورة القاهرة الثانية بأن السلطان العثماني ، هو سلطاننا و سلطان المسلمين^(١) . ولم تكن ثورة القاهرة والمقاومة الشعبية التي انتشرت في الأقاليم تهدف إلى استقلال مصر ، ولكنها كانت في لحمتها وسداها تستهدف غرضين مزدوجين أو غرضاً واحداً ذا شقين ، هما : إنهاء الحكم الفرنسي المسيحي من مصر ، وإعادة البلاد إلى حكم السلطان المسلم وخليفة المسلمين . يقول الأستاذ غريال «ثار أهل القاهرة ثورتين عتيقتين ، وقام الفلاحون في الأقاليم كلما أتيحت لهم الفرصة ... والتاريخ الصحيح لا يجد في الفن الشعبية بالقاهرة والأقاليم إلا باعثاً إيجابياً واحداً ، هو الرغبة في العودة لما ألفه الناس . ولا يمكن تسمية ما ألفوه استقلالاً ، إنما اسمه الوحيد حكم المماليك تحت السيادة العثمانية»^(٢) ، ويزيد الرابطة الدينية وضوحاً ما ذكره الأستاذ الأمريكي كرسوفر هيرولد Christopher Herold أن العثمانيين والمماليك كانوا مسلمين . والواقع أن الكوارث العسكرية التي نزلت بالمماليك على يد الفرنسيين قد قربت بين المماليك والشعب المصري ، وعلى الرغم من أن المماليك كانوا قد اعتصروا أرزاق الشعب واستنزفوا موارده المالية .. إلا أنهم كانوا أولاً وقبل كل شيء إخوة له في الدين . ولما تدخل علماء الأزهر فأطلق بونابرت سراح أسرى المماليك ، دخل كثير منهم إلى الجامع الأزهر وهم في أسوأ حال ، وعليهم الثياب الزرق الممزقة فمكثوا به يأكلون من صدقات المجاورين والمارين . وإن هذا التصرف من القادرين نحو المماليك خلق يعدة الإسلام جديراً بالإعجاب العظيم : وهو أن يطعم المظلومون ظالمهم المقهورين ، بدافع الشعور بالأخوة أكثر من الرحمة^(٣) .

على هذا النحو لم ينظر سكان الولايات العربية إلى السلطان العثماني على أنه سلطان المسلمين فحسب ، بل نظروا إليه أيضاً على أنه خليفة المسلمين يستظلون بظل خلافته . وكان يطلق عليه «الخليفة الأعظم» ، وخليفة المسلمين ، وحامي الحرمين الشريفين ، ومالك البرين

= من علائهم العتاة . وكان هذا الرجل معروفاً لأهل القاهرة بقسوته وكراهيته العميقة لهم . وكانت تهفو نفسه إلى المشاجرات والقتل . ولما شغل هذا المنصب برزت هوايته وهي القتل الجماعي للمماليك والمصريين على السواء . وكان يطوف بشوارع القاهرة والسيف مسلول في يده ، وبحوله قوة تبلغ المائة من اليونانيين من أفراد الفياق اليونانية التي كبتها بونابرت وألقها بالجيش الفرنسي .

انظر : دكتور عبدالعزیز محمد الشناوى : صور من دور الأزهر الخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ٨٦-٩١ .

(١) الجبرتي ، مصدر سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ١٠٧ .

(٢) محمد شفيق غريال : الجنرال يعقوب الخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٥٥ .

(٣) كرسوفر هيرولد : بونابرت في مصر ، ترجمة فؤاد أندراوس . الناشر دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٧ ، ص ١٩٥ .

والبحرين ، والسultan الغازى^(١) ، والسultan ابن السultan^(٢) ، إلى غير ذلك من الألقاب .

وكان السultan بحكم موقعه كرئيس للدولة يعتبر رئيساً لشيوخ الإسلام ، ورئيساً للصدر الأعظم ، وقائداً أعلى للقوات المسلحة العثمانية ، فكان السultan يجمع بين يديه سلطات الهيئات الدينية والمدنية والعسكرية فى الدولة . وتأسيساً على هذه السلطات الواسعة المخولة له ، كان يرسل إلى كل ولاية عربية حاكماً عربياً عاماً مسلماً ، يطلق عليه الباشا العثمانى أو الوالى العثمانى . وجرت العادة أيضاً على أن يصدر السultan فرمانات بتعيين كبار الموظفين فى المناصب الكبرى أو القيادية فى الولاية ، مثل : قاضى القضاة ، والدفتردار ، وقادة الفرق العسكرية التى ترابط فى الولاية . ويشكلون مع الباشا وكبار علماء الدين الإسلامى ونقيب الأشراف ديواناً عاماً ، يساعد الباشا فى شئون الحكم والإدارة . ويكون هذا الديوان فى الوقت ذاته رقيباً على تصرفاته ، وكان السultan يحرص على الاعتراف له بالسيادة على الولاية ، وعلى أن ترسل له جزية سنوية فيما عدا إقليم الحجاز ، وعلى أن يذكر اسمه مقرراً بالدعاء له على منابر المساجد فى خطب أيام الجمعة والعيدى ، وعلى أن تضرب العملة باسمه ، وعلى أن ترابط فى الولاية بعض فرق عسكرية من القوات العثمانية ، يطلق عليها «الأوجاقات» تدافع عن الولاية من أخطار الغزو الخارجى وتحافظ على الأمن الداخلى .

ولم يطلق سكان الولايات العربية على هذه الفرق العثمانية المرابطة فى بلادهم اسم جيش الاحتلال ، بل أطلقوا عليها الحاميات العثمانية أى التى تحمى الذمار ، وهى جملة معبرة تنبثق عن العاطفة الدينية ، التى كانت جياشة فى شتى فئات المجتمعات العربية ؛ إذ كانت السمة البارزة فى تاريخ الولايات العربية وقتذاك أنها كانت مجتمعات دينية إسلامية بكل ماتحمله هذه السمة من معانى . ولم ينظر العرب للدولة العثمانية على أنها دولة أجنبية ، ولم ينظروا إلى الحكم العثمانى على أنه استعمار . وظلت هذه الفكرة السياسية الدينية مسيطرة على أذهان الغالبية العظمى من الجماهير العربية إلى أوائل القرن العشرين ، حين انفجرت بشكل عملى عندما أغارت إيطاليا على ولايتى برقة وطرابلس سنة ١٩١١^(٣) . ولم تتدخل الدولة فى

(١) الغازى كلمة تركية مأخوذة من اللغة العربية غزا ، يغزى ، غزواً فهو غاز . ومعناها فى اللغة التركية المجاهد فى سبيل الله .

(٢) كان لقب «السultan ابن السultan» له دلالة ، بمعنى أن سلاطين الدولة العثمانية كانوا يتميزون بأنهم سلالة أسرة عربية كريمة المحدد ذات جنود صميقة فى التاريخ توارثت الحكم عبر قرون متعاقبة .

(٣) اعتبر المصريون أن مصر فى حالة حرب ضد إيطاليا ، لأن مصر كانت لاتزال تحت السيادة العثمانية طبقاً للقانون الدولى العام . وتعترف النول وفى مقبعتها بريطانيا بهذه السيادة . وبفضل ذلك اعتقد المصريون أن تقديم العون المادى فى شتى صوره وأشكاله إلى الدولة العثمانية والمجاهدين الليبيين أمر واجب بحكم الرابطة النينية والعربية والجوار والمصالح المشتركة . وفى مستهل الحرب تحدث وفد من كبار المصريين إلى هيربرت كتشنر المتمدن البريطانى فى مصر بشأن إرسال قوات من الجيش =

شئون الحكم إلا في نطاق ضيق ويقدر يسير، واعتبرت نفسها مسئولة عن حماية الولايات العربية، وتوفير الأمن العام فيها، وإقامة الشعائر الدينية، والحفاظ على مبادئ الشريعة الإسلامية، وتنظيم وحماية قوافل الحج، سواء قافلة الحج الشامي أو المصري أو العراقي أو اليمني، إلى إقليم الحجاز، والإشراف على مرفق القضاء، وجمع الضرائب عن طريق غير مباشر بواسطة شيوخ الطوائف في المدن والملزمين في الأرياف. فكان تدخل الدولة مقصوراً - في الأعم الأغلب - على هذه المجالات في الولايات العربية، وتركزت سكانها يعيشون على النحو الذي كانوا يألفون.

إن الوحدة التي هي من نوع خاص وذات طبيعة خاصة، والتي قامت بين الولايات العربية إبان الحكم العثماني، تبدو أكثر إشراقاً إذا قورنت بالتفتت السياسي الذي اصططنه الدول الأوروبية الاستعمارية، عقب استحواذها على معظم هذه الولايات تحت اسم الاحتلال أو

= المصري إلى ليبيا مساعدة الدولة العثمانية والمجاهدين الليبيين. ولكنه اعتر من عدم قبل هذا الرأي بحجة أنه إذا أرسلت مصر بقوات من جيشها إلى ليبيا، فإن هذه القوات تترك فراغاً في الجيش يصعب سده، وأنه سيخسر في هذه الحالة إلى أن يطلب من لندن أن ترسل جنوداً بريطانياين حتى تكون في مصر قوات عسكرية كافية لمواجهة أي عدوان خارجي قد تتعرض له البلاد. ثم طلب عدد كبير من ضباط الجيش المصري السماح لهم بالتطوع في الحرب فأبدي لورد كتشتر استعداده للموافقة على طلب الضباط بشرط أن تشغل وظائفهم بغيرهم. بمعنى إذا عاد الضباط بعد انتهاء العمليات الحربية إلى مصر وجدوا أنهم قد فقدوا وظائفهم. وطلب زعماء البدو من قبيلة أولاد على الصحراء القريبة أن يعيروا الحنود المصرية إلى بركة للاشتراك في الحرب. ووافق كتشتر على طلبهم. ولكنه أبلغهم أنه سيدخل تعديلاً في قانون التجنيد من شأنه إلغاء الإعفاء المقرر لهم من الخدمة العسكرية في ظل القانون المعمول به وقتذاك. وإذا كان نفوذ المعتمد البريطاني طامعاً على الحكومة المصرية لجأ المصريين إلى الجهود الذاتية فتألفت في ١٤ أكتوبر - كانون أول - عام ١٩١١ لجنة عليا برئاسة الأمير عمر طوسن لجمع التبرعات المالية والعينية وإرسالها إلى القوات الإسلامية في ليبيا. وقرعت من هذه اللجنة لجان فرعية طافت بأرجاء البلاد لجمع التبرعات. وأقبل الشعب المصري بجميع طوائفه على البذل والسفاه. وفي إحدى المرات سافر إلى مدينة المنصورة الأمير عمر طوسن مع بعض أعضاء اللجنة العليا وجمع في أقل من نصف ساعة مائة ألف وستة آلاف جنيه. وفي السنة ذاتها، تأسست جمعية الهلال الأحمر المصري بمناسبة اندلاع الحرب الطرابلسية. وكانت مستشفيات ميدان وأرسلت بعثة طبية لمعاونة جرحى الحرب وتوالى إرسال البعثات الطبية إلى ليبيا في شهر يناير - كانون ثان - عام ١٩١٢. وأقيمت في حديقة الأزبكية في ٦ من يناير - كانون ثان - سوق خيرية خصص لإيرادها لجمع التبرعات. وعمد الشعب المصري إلى مقاطعة البضائع الإيطالية ووقف التعامل مع البنك الإيطالي. واضطر التجار الإيطاليين إلى مغادرة البلاد بسبب توقف نشاطهم التجاري.. إلى غير ذلك.

انظر :

دكتور عبدالعزيز محمد الشناوي : العلاقات بين مصر وليبيا إلخ مرجع سبق ذكره ، الفصل الثامن :

الحرب الإيطالية الطرابلسية ، ص ٤٢-٧٠ .

الانتداب من قبل عصبة الأمم ، أو مناطق النفوذ ، وذلك بعد سقوط الدولة العثمانية عقب الحرب العالمية الأولى . وحسبنا أن نشير إلى مثالين صارخين في هذا الصدد .. فقد أقامت فرنسا من نفسها دولة مندوبة على سوريا ولبنان ، فأنشأت عام ١٩٢١ دولة مستقلة في مقاطعة العلويين حول اللاذقية ، ثم أعلنت استقلال جبل الدروز في أبريل - نيسان - عام ١٩٢٢ ، وقسمت سوريا إلى دولتين : دولة دمشق ، ودولة حلب . وملحت صحنق إسكندرونة^(١) - داخل دولة حلب - كيئانا خاصاً تمتع بقدر كبير من الاستقلال الذاتي ، واعترفت باللغة التركية لغة رسمية طبقاً للمعاهدة الفرنسية التركية المعروفة باتفاقية فرانكلن بويو Franklin-Boullion الموقعة في أكتوبر - تشرين أول - عام ١٩٢١^(٢) . أما المثال الثاني فكان إنشاء بريطانيا إمارة شرقى الأردن في عام ١٩٢١ بعد عام النكبة^(٣) ؛ تنفيذاً لأحد قرارات مؤتمر القاهرة البريطاني الذي بدأ جلساته في اليوم الثاني عشر من شهر مارس - آذار - عام ١٩٢١^(٤) . وكان إنشاء هذه

(١) أطلق على الإسكندرونة منذ شهر سبتمبر - أيلول - عام ١٩٢٨ اسم هاتاي كإجراء تمهيدى لتنازل فرنسا عنها لتركيا . وقد تم التنازل رسمياً في إتفاقية وقعت في اليوم الحادى والعشرين من شهر يونيو - حزيران - عام ١٩٣٩ وكان هذا التنازل يتعارض أشد التعارض مع صك انتداب فرنسا على سوريا ولبنان ، إذ نصت مادته الرابعة على أن « الدولة صاحبة الانتداب سوف تكون مسئولة عن التنازل ، أو تأجير ، أى جزء من أراضي سوريا ولبنان ، أو وضعه بائى شكل تحت إشراف دولة أجنبية . ولكن كان ثمن هذا التنازل هو إبعاد تركيا عن الانضمام إلى الاتحاد السوفيتى فى الحرب العالمية الثانية ، وذلك وقعت بعد ثمان وأربعين ساعة من الاتفاقية الأخيرة اتفاقية جديدة فى اليوم الثالث والعشرين من شهر يونيو - حزيران - تحت اسم دبلوماسى هو اتفاقية تبادل المعونة والمساعدة .

انظر :

ستون وإيمز م . ف . بريطانيا والدول العربية . عرض للعلامات الإنجليزية العربية (١٩٢٠-١٩٤٨) ترجمة دكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى ، الناشر مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٢ ، ص ١٠٢-١٠٤ .

(٢) تكدت هذه الأحكام فى بروتوكول المعاهدة الفرنسية التركية لحسن الجوار المنعقدة فى ٢٠ مايو - أيار - ١٩٢٦ .

(٣) أطلق العرب على سنة ١٩٢٠ عام النكبة ، ففيه عقد مؤتمر سان ريمو الذى قرر إعلان الانتداب البريطانى على فلسطين والعراق ، والانتداب الفرنسى على سوريا ولبنان ، وفيه اشتعلت ثورة عارمة فى العراق تحولت إلى حرب دينية مقدسة بعد أن انضم إليها الشيعة . وفيه وزع على أهالى فلسطين بيان رسمى ، صادر باسم جورج الخامس ملك بريطانيا ، مكتوب بثلاث لغات هى العربية والإنجليزية والعبرية جاء فيه أن الحكومة البريطانية وطدت عزمها على إنشاء الوطن القومى اليهودى فى فلسطين على مراحل . وفيه وقعت معركة ميسلون فى ٢٤ من شهر يوليو - تموز - واستشهد فيها يوسف العظمة وزير الدفاع . ودخلت القوات الفرنسية بدمشق فى اليوم التالى ، وأطاحت بحكومة فيصل العربية فى سوريا ، وغادر فيصل دمشق فى ٢٨ من الشهر ذاته ، وسقطت الملكية التى أنشأها فيصل فى دمشق بعد أربعة أشهر من قيامها . وبدأ عهد الانتداب الفرنسى ، إلى غير ذلك من أحداث دامية فى لبنان وسوريا .

(٤) وافقت الحكومة البريطانية على اقتراح ونستون تشرشل وزير المستعمرات على عقد مؤتمر بريطانى فى القاهرة للبحث فى الموقف المضطرب فى الشرق العربى الآسيوى . وكانت عضوية المؤتمر مقصورة =

الإمارة ووضعها تحت النفوذ البريطاني أكبر دليل على سوء نية بريطانيا نحو العرب في تفريق شملهم وتفتيت صفهم ؛ فالإقليم الذي قامت عليه إمارة شرقى الأردن لم يكن له أى كيان مستقل بحدوده الخاصة قبل سنة ١٩٢١ ، فى أى عهد من عهود التاريخ العربى القديم ، وكان يتبع غيره من المناطق المجاورة أو يشكل مع غيره من المناطق المجاورة دولة واحدة أو إقليماً واحداً فى دولة أوسع . كان إقليم شرقى الأردن يتبع الحجاز حيناً ، وباشوية دمشق حيناً آخر ، ويطلق عليه «مصرفية الكرك» ، ثم أدخلته بريطانيا فى المنطقة التى عهدت إلى فيصل بحكمها من دمشق تحت إشراف الحاكم العسكرى العام ، لورد ألتنى ، الذى استغل ضعف الإدارة الفيصلية ، وأدخل إلى شرقى الأردن عدداً من ضباط المخابرات البريطانية للإشراف على الإقليم إشرافاً مباشراً ، ولم يترك لفيصل نفوذاً فعلياً . ولما سقطت حكومة فيصل فى شهر يوليو - تموز - عام ١٩٢٠ ، أصبح شرقى الأردن فى فراغ سياسى وقانونى ، وانتهز سير هريوت صمويل المندوب السامى البريطانى فى فلسطين الفرصة ، وذهب إلى شرقى الأردن وجعل أولئك الضباط البريطانيين خاضعين لإدارته مباشرة ، ووزعهم على عدد من الألوية ، وأسس لكل منهم حكومة فى اللواء الذى هو فيه . وكانت كل حكومة منفصلة عن الحكومات الأخرى المزيفة تمام الانفصال . وكان عددها عشر حكومات (١) .

وقبيل انعقاد مؤتمر القاهرة البريطانى كان الأمير عبدالله ، وهو الابن الثانى للحسين بن على ملك الحجاز ، قد وصل من المدينة المنورة على رأس قوة صغيرة إلى معان فى الجزء الجنوبي من شرقى الأردن ، وكان يصبر على أن هذا الإقليم يتبع الحجاز . وأعلن أنه يعتزم الزحف على دمشق لطرد الفرنسيين منها والثار لأخيه فيصل (٢) ، ثم ارتحل شمالاً من معان إلى عمان ليؤكد إصراره على تنفيذ وعيده . وأدرك أعضاء مؤتمر القاهرة خطورة الموقف ، إذا التحم عبدالله فى قتال مع الفرنسيين ؛ فإنه سيلقى هزيمة منكرة لا شك فيها ؛ خاصة وأنهم استعدوا حربياً فحشدوا قوات كبيرة فى درعا وعلى امتداد حدود حوران وأنشأوا الخنادق . وتوقع

على كبار العسكرين والمذنبين الإنجليز . وجاء تشرشل من لندن إلى القاهرة ليخضر جلسات المؤتمر . كما جاء من العراق سير برسى كوكس المندوب السامى البريطانى فى بغداد . ومن القدس جاء سير هجيريوت صمويل المندوب السامى البريطانى فى فلسطين . كما حضره عربى واحد ويهودى واحد ، أما العربى فهو جعفر العسكرى أحد عملاء بريطانيا وكبير المناصرين لفيصل ، أما اليهودى فكان سامون حزيقال .

(١) كانت هذه الحكومات العشر هى : حبلون ، اليلقاء ، الكرك ، الطفيلة ، جرش ، إربد ، الكورة ، مواب ، السلط ، عمان .

(٢) أذاع عبدالله منشورات وجهها إلى أهالى سوريا ، قال فيها إنه جاء إلى معان لمحاربة الفرنسيين من أجلهم وأنه لن يترك الميدان إلا بعد أن يسترجع سوريا ، وأعلن نفسه نائباً لملك البلاد أى والده ، ثم أخذ يلقب نفسه فى منشوراته باسم صاحب الجلالة منقذ سوريا ومحررها . وأسس فى معان جريدة تدعى له اسمها «الحق يعلو» وأرسل دعائه إلى رؤساء العشائر للانضمام إليه فى حربه المقدسة .

الإنجليز أن الأمر سينتهي باحتلال فرنسا لشرقي الأردن وضمه إلى سوريا مما يؤدي إلى قيام أزمة خطيرة بين بريطانيا وفرنسا ، لأن بريطانيا كانت قد قررت أن يكون إقليم شرقي الأردن منطقة نفوذ بريطاني يشرف عليها المندوب السامي في فلسطين . ورأى الإنجليز ضرورة صرف عبد الله عن مشروعه ، وأن يعرضوا عليه تعيينه أميراً على إقليم شرقي الأردن . وسافر تشرشل إلى القدس في أواخر مارس - آذار - عام ١٩٢١ وكان قد سبقه إليها عبد الله من عمان بيوم واحد ، وتم الاتفاق بينهما . على أساس تبادل المنافع ، فيعين عبد الله أميراً على إقليم شرقي الأردن في مقابل امتيازات هائلة ، ظفرت بها بريطانيا وخدمت أهدافها السياسية والعسكرية في المنطقة (١) .

(١) تقرر أن يتنازل عبدالله عن مطالبه الخاصة بسوريا والعراق وعن عرشيهما ، وأن يعترف بأخيه فيصل ملكاً على العراق ، وبالاقتداب البريطاني على فلسطين والعراق ، وبالاقتداب الفرنسي على سوريا ولبنان ، ويهريرت صمويل مندوباً سامياً على فلسطين وشرقي الأردن ، وأن يسترشد عبدالله بالأراء التي يقدمها له موقف بريطاني كبير يقيم في عمان ، التي اختيرت عاصمة للإمارة ويكون لقبه «المقيم البريطاني» The British Resident ، وأن ترسل بريطانيا للإمارة خبراء ، إنجليز يعرفون اللغة العربية ويعملون في مجالات الدفاع والشرطة والقضاء والبريانية ، وإنشاء قواعد عسكرية بريطانية ، وفتح الجسور بين الأردن وفلسطين ، وعدم الأخذ بنظام التجنيد الإجباري ، وعدم نزع السلاح من الأهالي على أن يمنع نقله إلى فلسطين . وتعهدت بريطانيا بتقديم معونة مالية سنوية بدأت بمائة وثمانين ألف جنيه ، تضاعفت اثنين وسبعين مرة في خلال ثلث قرن ، كما تعهدت بالسعي لتحسين العلاقات بين عبدالله والفرنسيين . وهكذا دخلت شرقي الأردن رسمياً وباعتراف أسرة الملك الحسين بن علي تحت الحماية البريطانية ، وألحقت بالمندوب السامي البريطاني في فلسطين ، وأصبحت الرابطة بين شرقي الأردن وفلسطين واطلة ورمزية تتمثل في شخص المندوب السامي البريطاني .

ومما هو جدير بالذكر أن بريطانيا كانت قد أدمجت شرقي الأردن في فلسطين ، وذلك في صك الانتداب الذي قدمته إلى عصبة الأمم ، ووافق عليه مجلس العصبة في ٢٤ من يوليو - تموز - عام ١٩٢٢ فشل الانتداب البريطاني إقليم شرقي الأردن . ولما كان صك الانتداب ينص على جعل فلسطين وطناً قومياً لليهود طبقاً لتصريح بالفور ، أرسلت الحكومة البريطانية في ١٦ من سبتمبر - أيلول - عام ١٩٢٢ مذكرة رسمية إلى عصبة الأمم ، باستثناء إقليم شرقي الأردن من هذا الوعد . وحددت الحكومة البريطانية تحديداً دقيقاً حدود هذا الإقليم ، فجعلته يشمل جميع المقاطعات الواقعة إلى شرق خط ممتد من نقطة واقعة على خليج العقبة على بعد ميلين إلى غرب مدينة العقبة ماراً بمنتصف وادي عربة والبحر الميت ونهر الأردن حتى المنطقة التي يلتقي بها هذا النهر بنهر اليرموك ، فمنتصف هذا النهر حتى الحدود السورية . وقد استجابت عصبة الأمم لتلك المذكرة .

انظر بخصوص نشأة شرقي الأردن كلاً من :

- أمين سعيد : الثورة العربية الكبرى ، مرجع سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ١٦-٢ .
- أنيس صايغ : الهاشميون والثورة العربية الكبرى ، بيروت ، ١٩٦٦ ، ص ٢١٥-٢٣١ .
- أنيس صايغ : الهاشميون وقضية فلسطين ، بيروت ، ١٩٦٦ ، ص ٩٢-٩٤ .
- خير الدين الزركلي : ما رأيت وما سمعت ، القاهرة ، ١٩٢٢ ، ص ٢٥ .

وكان إنشاء إمارة شرقى الأردن تفتيحاً جديداً للوطن الواحد ، إذ لم يكن إنشاؤها نتيجة حركة شعبية أو وعى قومى . وكان هذا الكيان السياسى الجديد أضعف الأقاليم العربية اقتصادياً وكانت عاصمته عمان قرية صغيرة ، ومما هو جدير بالذكر أن المقيم البريطانى لم يجد فيها داراً واحدة تصلح لسكانه مؤقتاً . وأمام هذه الخيمة ألقى سير هيررت صمويل المدرب السامى البريطانى فى فلسطين وشرقى الأردن خطبة سياسية ، عند أول زيارة رسمية ، قام بها لعمان فى ١٨ من أبريل - نيسان - عام ١٩٢١ .

وهكذا عملت بريطانيا على تفرقة شعوب الأمة العربية فى الشرق العربى الآسيوى ، وإلهاء هذه الشعوب عن مقاومة الاستعمار الأوروبى خلافاً لما وعدت به فى مباحثات الحسين ابن على فى سنتى ١٩١٥-١٩١٦ ، مقابل إعلان الثورة للعربية على الدولة العثمانية . وفى خلال سنة واحدة فصلت بريطانيا شرقى الأردن عن فلسطين ، وفصلت شرقى الأردن وفلسطين عن سوريا ، وفترقت بين سوريا والعراق ، واعترفت بعبد العزيز آل سعود سلطاناً مستقلاً على نجد ، وبجى إماماً مستقلاً على اليمن .. فلا غرو إذا نهجت فرنسا نهجها فى تفتيت سوريا ولبنان كما سبق أن ذكرنا . أما مصر وأقاليم شمالى إفريقيا .. فقد أبقي الاستعمار على التفتيت السياسى ، الذى كان قائماً بينها قبل الحرب العالمية الأولى تحت الاستعمار البريطانى والإيطالى والفرنسى والإسبانى . وظهرت الأحقاد والمطامع الشخصية بين معظم الملوك والرؤساء العرب منذ ذلك الوقت ؛ مما عرقل مسيرة الاستقلال والوحدة العربية . فكانت الصراعات من أبرز سمات تاريخ الحقب السياسية التى مرت بالعالم العربى فى تاريخه الحديث والمعاصر .

رابعاً : أبعاد الزحف الاستعماري على الوطن العربي طوال فترة تراوحت بين ثلاثة وأربعة قرون

ظلت الولايات العربية زهاء فترة تراوحت بين ثلاثة وأربعة قرون ، من القرن السادس عشر إلى أوائل القرن العشرين ، بمنأى عن الزحف الأوروبي الاستعماري عليها مابقيت الدولة العثمانية قوية مهيبه الجانب . فلما دخلت الدولة في دور الاضمحلال ، ووضح للدول الأوروبية أن القوات العثمانية المسلحة لا تستطيع الصمود بنجاح للهجوم الاستعماري .. بدأ العالم العربي يتعرض للغزو الأوروبي المسيحي الاستعماري ، كما تعرضت لهذا الغزو أقاليم أخرى إسلامية وغير إسلامية ، خارج عن نطاق الدولة العثمانية في إفريقية وآسيا والإقلياتوسية وغيرها . وكانت فرنسا من أسبق الدول الأوروبية في الزحف والسيطرة على الأقاليم العربية ؛ فنجحت في احتلال نيابة الجزائر عام ١٨٣٠ ، وإن كانت قد احتلت من قبل مصر وجنوبي بلاد الشام سنة ١٧٩٨ .. إلا أن الاستعمار الفرنسي العسكري لمصر لم يطل أمدّه أكثر من ثلاث سنوات وثلاثة أشهر^(١) ، بينما استطاع الاحتلال الفرنسي للجزائر زهاء مائة وإحدى وثلاثين سنة .

(١) سبق أن احتلت فرنسا أيضاً بيروت في أغسطس - آب - عام ١٨٦٠ ، ورباطت الحملة الفرنسية بقيادة الجنرال دي بوفور نوبيل Général de Beaufort d' Hautpoul في جهات متعددة في لبنان ، وذلك على أثر الفتنة الدينية التي اندلعت بين الموارنة والدرزي ، ثم تطورت إلى فتنة عامة بين المسيحيين والمسلمين . وكان بروتوكول باريس الموقع ٥ من أغسطس - آب - عام ١٨٦٠ قد قرر أن تقوم الدول الخمس الموقعة على معاهدة باريس عام ١٨٥٦ - عدا سربينيا - بإرسال قوة حربية قوامها ١٢ ألف رجل إلى الشام ، وحددت مدة وجود القوات الأوروبية فيها بستة أشهر . ولما كانت فرنسا تعطف على الموارنة وتلقيهم «فرنسيو لبنان» Les Français du Liban ، فقد وافقت على أن ترسل فوراً نصف هذه القوة ، وأن تتقدم إلى أماكن الاضطرابات نوب إبطاء ، وأن ترسل الدول الأخرى فيما بعد - إذا تطلب الموقف ذلك - نصف القوة على أن يتم الاتفاق عليها وقتئذ . وحدث أن ماطلت فرنسا في الجلاء عن لبنان بعد انقضاء الفترة المحدودة . وخشيت بريطانيا أن يكون مرد تسويق فرنسا إلى ازدياد التفاهم بين روسيا وفرنسا بخصوص المسألة الشرقية ، فتتفاوضي روسيا عن الاحتلال الفرنسي للبنان في مقابل تدخل روسيا في بلغاريا . وأمام الضغط البريطاني اضطرت فرنسا إلى الجلاء عن لبنان في ٥ من يونيو - حزيران - عام ١٨٦١ ، بعد احتلال استمر تسعة أشهر .

انظر كلاً من :

Hanotaux Gabriel; Histoire de La Nation Française., t. VIII. Histoire Militaire et Navale. 2ème volume. Du Directoire à la Guerre de 1914, par le Maréchal Franchet d'Esperey, Paris, 1937, pp. 383-384.

Poujoulat Baptism; La Vérité sur la Styrie et l'Expédition Francaise. Paris, 1861, pp. 16-21.=

ولاشك أن من أهم العوامل التي شجعت فرنسا على احتلال الجزائر ، أن الدولة العثمانية كانت قد فقدت أسطولها قبل ذلك بأقل من ثلاث سنوات في معركة نقارين البحرية (٢٠ من أكتوبر - تشرين أول - ١٨٢٧) . ولما كان اقتطاع فرنسا للجزائر بصفة الأخيرة إقليمًا إسلاميًا عربيًا من أقاليم الدولة العثمانية سابقة خطيرة ، قد تحذنها دولة استعمارية أخرى تجاه الوطن العربي .. لم تستلم الدولة العثمانية لانتزاع الجزائر منها . وحاولت بالطرق الدبلوماسية أولاً استردادها ، وبذلت مساعٍ مكثفة لدى بريطانيا والنمسا والروسيا ولدى فرنسا أيضاً تؤكد حقها في بقاء هذا الإقليم في رحاب الدولة ؛ تأسيساً على أن السيادة العثمانية عليه معترف بها من المجموعة الدولية وأن الجزائريين هم رعايا السلطان . ولم تجد الدولة العثمانية تأييداً من بريطانيا في موقفها بسبب التغيير الأساسي ، الذي حدث في السياسة الدولية في أوروبا في ذلك الوقت . فقد وقع انقلاب يوليو (تموز) - أغسطس (آب) عام ١٨٣٠ في فرنسا ، وأطاح بملكية شارل العاشر ملك فرنسا (١٨٢٤-١٨٣٠) ، وهرب إلى إنجلترا في ١٦ من أغسطس - آب - في السنة ذاته ، وانتخاب لوي فيليب ملكاً على فرنسا ونظرت الدول الأوروبية للكبرى إلى هذا الانقلاب على أنه نقض للتصوية الأوروبية العامة ، التي تمت سنة ١٨١٥ عقب إسقاط حكم نابليون الأول وإعادة الحقوق إلى ذريها كما زعم المتحالفون ^(١) ، ثم التقارب الذي حدث بين الملكيات ذات الحكم المطلق وهي روسيا وبروسيا ، والنمسا ، بعضها من بعض ضد خطر الانقلابات وبقيت بريطانيا وحيدة .. فاعتزفت بالنظام الجديد في فرنسا . ولما أكثرت الدولة العثمانية من اتصالاتها الدبلوماسية المكثفة مع بريطانيا التماساً لتأييدها في موقفها من احتلال فرنسا

Hansard's Parliamentary Debates: =

Vol. 159, pp. 1648, 1652-1654.

Vol. 160, pp. 617-618, 627, 641, 696-697, 1816.

Vol. 161, pp. 1540-1541, 2154.

Miller W.; op. cit., pp. 300-303.

محمد كرد علي : خطط الشام ، ج ٢ ، ص ٨٢-٩٢ .

(١) كان منشأ قضية بليجكا قيام حركة وطنية قوية ، تبتغي الاستقلال عن هولندا ، ومسايعها الدائبة للحصول على السلاح من مصادر أوروبية شتى . ولم تلبث أن نشبت الثورة في بروكسل في ٥ من أغسطس - آب - عام ١٨٣٠ ، وتبعته بقية المقاطعات وأحرزت قوات بليجكا انتصارات متلاحقة وأعلنت لجنة الدفاع الوطني أن بليجكا تعتبر نفسها مستقلة منذ ٤ من أكتوبر - تشرين أول - عام ١٨٣٠ ، ووقع صراع سياسي متصعب بين الدول الأوروبية حول الاعتراف باستقلال بليجكا .

أما مسألة البرتغال فكان مردها إلى تصارع آخوين على عرشها ، أحدهما من المحافظين والآخر من الأحرار ، وهما : دون بيدرو Don Pedro الذي تنازل عن العرش لابنته ماريا ، دون مجويل Miguel ، واقتدر هذا التصارع بنزاع دستوري وتدخل بريطانيا وفرنسا في شئون البرتغال للاستئثار بالنفوذ فيها . وأصبحت بريطانيا وفرنسا في صراع سياسي ، انتهى بحل وسط هو جلوس ماريا على العرش بوصاية دون مجويل .

للجزائر، أجابت الحكومة البريطانية أنها لا تستطيع مفاطحة الحكومة الفرنسية فى القصبة الجزائرية دون نسوة مسألتي بلجيكا والبرنغال (١) ، والواقع أن بريطانيا كانت فى شغل شاغل بالانقلاب النيابى الذى وقع فيها فى ذلك الوقت . وكانت النمسا منصرفة إلى إخماد الثورة التى اندلعت عام ١٨٣٠ فى شبه جزيرة إيطاليا (٢) ، وكانت روسيا وبروسيا مشغولتين بالثورة التى اشتعلت فى بولندا فى أواخر السنة ذاتها .

(١) مرجع سبق ذكره .

(٢) قامت الثورة فى الولايات البابوية وفى الدوقيات الشمالية ؛ حيث أقامت جمعية للكاربونارى مركزها العام .

الحرب الباردة بين الدولة العثمانية وفرنسا لاسترداد الجزائر

لما أخفقت الدولة العثمانية فى اتصالاتها الدبلوماسية مع الدول الأوروبية ، حاولت التظاهر برغبتها فى استخدام القوة لاسترداد الجزائر من فرنسا . وكان مما شجعها على التلويح بالإلتجاء إلى الحرب أن فرنسا لم تكن قد وطدت نفوذها فى الجزء الشرقى من الجزائر ، وفى الأقاليم الداخلية مثل قسنطينة ، وأن الدولة كانت قد فرغت من تسوية مشكلاتها مع محمد على والى مصر فى سنة ١٨٣٢ ، عقب حرب الشام الأولى بعقد صلح كونهاية (٨ من شهر أبريل - نيسان - عام ١٨٣٣) . ولكن فرنسا كانت تعلم تماماً أنه ليس فى مقدور الأسطول العثمانى أو الجيش العثمانى خوض معارك ضد قواتها المسلحة . وفى هذه الحرب الباردة بين الدولتين نجحت الدولة العثمانية فى إنهاء حكم أسرة القرمانلى فى طرابلس عام ١٨٣٥ ، وإعادة هذه النيابة إلى الحكم العثمانى المباشر . واستغلت الدولة هذا الوضع الجديد فى نيابة طرابلس فظاهرت ، فى عملية جس نبض لفرنسا ، بعزمها على إرسال قوات برية من الأناضول إلى طرابلس تزحف فى الداخل عبر الأراضى التونسية إلى الجزائر ؛ للاشتراك فى الدفاع عن قسنطينة ، التى كان يدافع عنها للحاج أحمد باى قسنطينة .

وبات معروفاً للجميع أن الدولة لا تستطيع إرسال أسطولها إلى ساحل الجزائر لضرب مراكز الفرنسيين ، أو إنزال قوات برية فى الجزائر للتوغل فى الداخل . وإمعاناً من الدولة فى الحرب الباردة ، طلبت الدولة من باى تونس تسهيل مرور القوات العثمانية البرية عبر أراضيها من طرابلس إلى الجزائر . كما أراد الباب العالى منح رتبة الباشوية لأحمد باى قسنطينة لتوطيد مركزه تجاه الفرنسيين وليزداد أهل الجزائر التفافاً حوله .. فتلقى الباب العالى مذكرة من الحكومة الفرنسية ، جاء فيها أن منح الحاج أحمد هذا اللقب سيؤدى إلى عواقب وخيمة ، وطلبت أن يكف الباب العالى فوراً عن تدخله فى موضوع قسنطينة ، وكان الجيش الفرنسى قد رد الحاج أحمد مدحوراً عن أسوار هذه المدينة فى أواخر شهر نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٨٣٦ ، كما أبلغت فرنسا الحكومة العثمانية أن باريس لن تغض الطرف عن تعيين والى معاد لها فى تونس ، وإذا أرسلت الحكومة العثمانية قوات عسكرية إلى باى قسنطينة ، فإن فرنسا تعتبر نفسها فى حالة حرب مع الدولة العثمانية .

وعلى الرغم من هذه التهديدات الفرنسية المتلاحقة ، دخلت الدولة فى تجربة جديدة ومحدودة ، فأرسلت بعض وحدات من أسطولها بقيادة فوزى باشا إلى ميناء طرابلس فى أواخر شهر يوليو - تموز - عام ١٨٣٧ ، ثم يواصل زيارته إلى ميناء تونس ؛ وردت الحكومة الفرنسية

بتوجيه أسطولها في سبتمبر - أيلول - إلى ميناء تونس ؛ بحجة حماية مصالحها في حوض البحر المتوسط ، وكان من المقرر أن يجري فوزى باشا اتصالات مع مصطفى باشا باي تونس . ولكن تهرب الأخير من مقابلة مندوبه ، وخشى السلطان محمود الثاني أن يتحرض الأسطول الفرنسي بالأسطول العثماني ، على الرغم من أن الأسطول العثماني ظل رابضاً في مياه طرابلس وتجنب الاقتراب من المياه التونسية ؛ ولذلك لم تطل مدة مكث الأسطول العثماني في مياه طرابلس ، فزار مالطة ثم أقلع في سبتمبر - أيلول - عام ١٨٣٧ إلى إستانبول ، وظل الأسطول الفرنسي يقتفى أثره حتى مضيق الدردنيل .

ولم يكف أحمد باي قسنطينة طوال هذه الأحداث عن مطالبة الباب العالي بإرسال نجدات عسكرية ؛ ليستمر في الدفاع عن المدينة أمام القوات الفرنسية ، التي كانت تتدفق على أسوارها . ولكنه لم يظفر من إستانبول إلا بخطابات تشجيع وتقدير لموقفه ، وقعت الدولة بإبداء تمنياتها الطيبة له في الترفيق في دفاعه ؛ لأنها كانت أعجز من إرسال تعزيزات عسكرية له ، وقعت بهذه الحرب الباردة . أما أحمد باي قسنطينة .. فقد ضرب أروع الأمثال في البطولة والقدائية والولاء للدولة العثمانية ، وكان يحارب كممثل للحكومة العثمانية قوات فرنسية جرارة تفوق قوائمه عدداً وعدة . ويعد في نظر بعض المؤرخين المعاصرين أنه أكبر وأبرز الشخصيات المغربية التي ظهرت في العقد الرابع من القرن التاسع عشر^(١) . وفي إحدى المرات أجاب عن اقتراح القائد العام الفرنسي في الجزائر ، بأن يعترف به حاكماً للجزائر وأن يدفع جزية سنوية ، بأنه يحكم البلاد باسم السلطان العثماني فقط . وفي ١٣ من شهر أكتوبر - تشرين أول - ١٨٣٧ سقطت قسنطينة في أيدي جحافل الفرنسيين ، وانسحب أحمد باي إلى جبال الأوراس في الجنوب^(٢) .

ويعد الاحتلال الفرنسي للجزائر الذي بدأ في عام ١٨٣٠ ، توقف الزحف الأوروبي

(١) دكتور عبد الجليل التميمي في تعليقه على بحث دكتور أرجمند كوران ، الذي قدمه إلى المؤتمر التاريخي الخامس ، الذي عقد في أنقرة في الفترة من ١٢ إلى ١٧ من شهر أبريل - نيسان - ١٩٦٦ ، وكان عنوان هذا البحث «أحمد باي قسنطينة للدفاع عن الجزائر» . وقد نشر الدكتور التميمي هذا البحث معرباً في نهاية رسالة دكتور كوران من ص ٧٨-٨٥ . وانظر أيضاً :

دكتور عبد الجليل التميمي : الحاج أحمد باي قسنطينة بتاريخ ولاية الجزائر الشرقية من ١٨٣٠ إلى ١٨٣٧ ، رسالة أجيبت لدرجة الدكتوراة الدولة في التاريخ الحديث .

(٢) استقينا للمادة العلمية لموضوع محاولات الدولة العثمانية لاسترداد الجزائر من الرسالة التي حصل بها الاستاذ أرجمند كوران على درجة الدكتوراة في التاريخ الحديث من كلية الآداب بجامعة إستانبول عام ١٩٥٣ . وقد اعتمد فيها على محفوظات الصدارة العظمى ووزارة الخارجية في إستانبول . وهو يشغل حالياً منصب عميد كلية العلوم الاجتماعية والإدارية بجامعة حجتبة في أنقرة ، وقد ترجمها إلى العربية دكتور عبد الجليل التميمي ، وسبق أن أشرنا إليها في مواطن سابقة في حواشي هذه الدراسة .

الاستعماري على الولايات العربية مدة ناهزت الخمسين عاماً ؛ بسبب اشتداد حدة التنافس بين الدول الأوروبية على تقسيم ممتلكات الدولة العثمانية وتوزيعها أسلاباً فيما بينها ، وما صاحب هذا التنافس من حروب ومؤتمرات ومعاهدات ، اُزجح بها تاريخ الدولة العثمانية في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين . ولنتهجت هذه الدول سياسة التعويض Compensation Policy وسياسة المصالحة Conciliation Policy على حساب الدولة العثمانية في مؤتمر برلين عام ١٨٧٨ ، ويسطت فرنسا حمايتها على تونس عام ١٨٨١ ، واحتلت بريطانيا مصر عام ١٨٨٢ . وكان قد سبق فرض الحماية والاحتلال على هذين البلدين العربيين الإسلاميين انتهاج سياسة التغلغل السلمي Pacific Penetration ، وكان من مظاهر هذه السياسة التدخل في الشؤون المالية لحكومة تونس والقاهرة ، وتقديم قروض أوروبية ضخمة ومتعاقبة لها بحيث عجزتها عن سداد القروض وفوائدها ، ثم تدخلت الدولتان سياسياً ، وأعقب هذا التدخل الغزو العسكري لكل من تونس ومصر في سنتين متعاقبتين .

ولما طلبت الحكومة البريطانية سنة ١٨٩٦ من الحكومة المصرية استرداد السودان (١) اشتركت بقوات رمزية ، واتخذت من هذا الاشتراك الحربي الرمزي في حملة السودان ذريعة لإقامة حكم ثنائي Condominium بريطاني مصري في السودان عام ١٨٩٩ ، وكان هذا الحكم الثنائي في لحمة ومداه فصلاً فعلياً بين شطري الوادي واستثنائاً من بريطانيا بالانفراد في حكم السودان (٢) ، وما لبثت أن عصفت بالمظهر الشكلي لهذا الحكم الثنائي .. ثم احتلت بريطانيا طرابلس وبرقة في عام ١٩١١ . وفي مطلع الحرب العالمية الأولى ، احتلت القوات البريطانية العراق ؛ إذ أبحرت أول فرقة بريطانية من بمباي في اليوم التاسع عشر من شهر أكتوبر - تشرين أول - عام ١٩١٤ بقيادة الجنرال دلمان Delmain W.S. ، وأطلق على هذه الفرقة التي هي قسم من جيش الهند رمز D ، وهو أول حرف من اسم هذا القائد .

وفي يوم ٢٣ وصلت إلى البحرين ، وفي اليوم الثاني من نوفمبر - تشرين ثان -

(١) عن الأسباب التي جعلت الحكومة البريطانية تطلب من الحكومة المصرية استرداد نفقة أولاً ثم بقية السودان ، انظر :

دكتور محمد فزاد شكري : مصر والسودان تاريخ وحدة وادي النيل السياسية في القرن التاسع عشر (١٨٢٠-١٨٩٩) . دار المعارف بمصر ، ١٩٥٨ ، ص ١٧٣-١٨٠ .

(٢) انظر تحليلاً علمياً لاتفاق الحكم الثنائي المتعقد في ١٩ من شهر يناير - كانون ثان - عام ١٨٩٩ بين مصر وبريطانيا في المرجع السابق ، ص ٥٧٤-٥٩٢ .

وانظر النص الرسمي لهذا الاتفاق ، الذي أطلق عليه لفظ «الوفاق» في مجموعة الوثائق الرسمية التي نشرتها رئاسة مجلس الوزراء المصري تحت عنوان :

السودان من ١٢ فبراير - شباط - سنة ١٨٤١ إلى ١٢ فبراير - شباط - سنة ١٩٥٢ ، المطبعة الأميرية ، القاهرة ، ١٩٥٢ ، ص ٩-٥ .

وصلت إلى بندر بوشهر - الميناء البحرى الرئيسى لغاريس على الساحل الشرقى من الخليج - وفى اليوم الثالث منه صارت أمام شط العرب . وفى ساعة متأخرة من اليوم السادس أطلقت مدافع الباخرة أودين Odin قنابلها على حصن القوارىق الواقع على ضفاف شط العرب ثم تلاها نزول جماعة من الجيش بقيادة الضابط روش Rocher .. فكانت أول قدم إنجليزية تهبط أرض العراق غازية معادية ، طامعة فى بسط السيطرة البريطانية العسكرية والسياسية والاقتصادية على هذا الإقليم العربى من أقاليم الدولة العثمانية (١) ، ثم دخلت القوات البريطانية بغداد فى اليوم الحادى عشر من شهر مارس - آذار - عام ١٩١٧ وتقدمت شمالاً وغرباً واحتلت الموصل ، وأنصت احتلال العراق كله ، بعد أن تكبدت فى العمليات الحربية خسائر فادحة فى الأنفس والأموال ، تقدر بمائة ألف بين قتيل ومفقود وجريح ومائتى مليون من الجذبهات الإسترلينية (٢) ، ونجحت بريطانيا فى استقطاب الشريف الحسين بن على أمير مكة المكرمة .. فانضم ضد الدولة العثمانية ، وكان هذا الشريف تلفة غفلة الصالحين ، فانساق وراء بريطانيا معتمداً على وعودها . وما أن انتهت للحرب العالمية الأولى بسقوط الدولة العثمانية حتى تقاسمت الدول الأوروبية ما تبقى من أقاليم عربية - عدا اليمن والحجاز ونجد - وبعد أن كانت أقاليم العربية تشكل كتلة عربية بصورة غير رسمية فى نطاق الدولة العثمانية .. أصبحت أقاليم تحت الانتداب ، أو تحت الاحتلال ، أو تحت الحماية ، وغدت هذه الأقاليم العربية تولى السياسة الأوروبية فى خدمة مصالحها العسكرية والسياسية والاقتصادية ، وتحكم بقرارات تصدر من عواصم أوروبا ، مثل : لندن ، وباريس ، وروما .

(١) الدكتور محمد بدیع الشریف : دراسات تاريخية فى النهضة العربية الحديثة (بالاشتراك مع زميليه) ، مرجع

سبق ذكره ، ٢٦٩-٢٧٥ .

(٢) المرجع السابق .

خامساً : الدولة تضيء الهدوء والاستقرار على الولايات العربية

أضفت الدولة العثمانية على ولاياتها العربية نوعاً من الهدوء والاستقرار السياسي . كانت بلاد العراق والشام في حالة إعياء ، وتعانيان كثيراً من الفوضى والاضطراب والتخريب من آثار غزوات المغول المدمرة ، والتي نجحت مصر في صدّها عندما أوقعت بالمغول هزيمة حاسمة في معركة عين جالوت ، شتت شملهم ، وأنفذت أقاليم الشرق والمغرب العربي من شرورهم .

أخذ السكان في الولايات العربية إلى السلبية والخضوع للعثمانيين .. فقد كان العثمانيون مسلمين مثلهم ، وكانوا يعتنقون المذهب السني مثلهم ، ويحرصون على تطبيق مبادئ الشريعة الإسلامية ، ويحافظون على الشعائر الدينية مثل الاحتفال برؤية هلال رمضان واحترام صياحه وغير ذلك ، وتنظيم قافلة الحج وحراستها وهي في طريقها إلى الحجاز ، وما إلى ذلك من أعمال استهوت أفئدة جماهير ، كانت تعيش في مجتمعات دينية إسلامية متزمنة .

وكان الحكم العثماني حكماً غير مباشر ، ولم تضيق السلطات العثمانية الخناق على الجماهير ، بل تركتهم لشيوخ طوائفهم التي ينتمون إليها ، ولم تتدخل السلطات العثمانية - كما ذكرنا - إلا في نطاق ضيق ومحدود للغاية ، لم يتجاوز مجالات معينة هي توفير الأمن وجمع الضرائب والإشراف على القضاء . وتركزت للجماهير شئون التعليم والصحة والمواصلات وغير ذلك من المرافق ، التي تعتبر في الوقت الحاضر من صميم واجبات الحكومات . وعلى سبيل المثال ظلت معاهد التعليم ومراكز الثقافة العليا ، الدينية والعربية - سواء في العراق أو الحجاز أو اليمن أو الشام أو مصر أو شمالي إفريقيا - تمارس نشاطها على النحو ، الذي كان سائداً قبل دخول الولايات العربية تحت الميمنة العثمانية . وكان كبار العلماء - إلى جانب نشاطهم العلمي المتعدد الجوانب - يمارسون زعامة شعبية على الجماهير ، لم تحاول السلطات العثمانية أن تنال منها ، بل كانت توقرها بل وتخشاها وتعمل على الإفادة منها عند وقوع انتفاضة شعبية أو أزمة طارئة .

ومجمل القول إن السلطات العثمانية تركت الجماهير العربية تحيا على النحو ، الذي ألفته من قبل دون تغيير جوهري يس حياتهم . ولذلك يرى فريق من المؤرخين والباحثين أن الحكم العثماني في مصر والشام كان امتداداً لحكم دولة المماليك ، أما في العراق .. فقد اقترن الحكم العثماني بالهدوء والاستقرار وهدوء الصراع المذهبي بين الشيعة والسنيين ، فيما عدا

الحروب التي كانت تنشب بين الدولة العثمانية وفارس ، ولكن لم تتعرض الجماهير العراقية لمذابح أو عمليات تخريبية . وفي الحجاز أبقى العثمانيون على حكم الأشراف الذي ينتسبون إلى الدوحة النبوية الكريمة ، وأبقوا على الامتيازات الخاصة بأهل الحجاز مثل الإعفاء من التجنيد والجزية . وكانت الدولة تحرص حرصاً شديداً على إرسال حصيلة الأوقاف والاعتمادات المالية المرصودة على الأشراف وفقراء الأماكن المقدسة وإصلاح الحرمين الشريفين ، كما كانت تتدخل لإصلاح ذات البين بين الأشراف .

أما في اليمن .. فلم يكن الحكم العثماني مستقراً لفترات طويلة بسبب اختلاف المذهب الديني ، فقد كان أهل اليمن شديدي التمسك بأن يكون حكامهم من أتباع مذهب الإمامية الزيدية ، وانتهى الأمر باتفاق بتعيين حاكم منهم يعترف بالسيادة العثمانية على اليمن وما تستتبعه هذه السيادة من التزامات . وفي منطقة الخليج العربي كان الحكم العثماني وأهناً شاحباً .. تركت الدولة سكان المناطق التي امتد إليها الحكم العثماني يزاولون نشاطهم التقليدي دون تدخل منها ، وكان فيهم السنيون وفيهم الشيعة . أما في الولايات الثلاث في شمالي إفريقيا فكانت السيادة العثمانية عليها سيادة إسمية . وكان الدايات والبايات والولاة ^(١) يرسلون الجزية إلى الباب العالي أحياناً ويمنعونها أحياناً أخرى ، ولكن الجهاد الديني البحري الإسلامي الذي مارسه سكان شمالي إفريقيا مع حكامهم ضد القوى المسيحية الأوروبية كان يشدهم شداً إلى الدولة العثمانية بصفتها أكبر دولة إسلامية ، وأن سلطانها هو خليفة المسلمين .

ومع ذلك تعرضت بعض الولايات العربية لهزات سياسية وسط الهدوء ، الذي كانت تعيش في ظلاله الوارفة ؛ إذ كان يحتاج الولايات العربية من وقت إلى آخر نوعان من الاضطرابات .

أولاً : انتفاضات شعبية . ومن الخطأ وصفها ثورات . وكان يقوم بها سكان مدينة أو حي من أحيائها ضد الحكام المحليين عندما يتجاوزون المدى في ظلمهم للمحكومين ، ولكن لم تكن هذه الانتفاضات موجهة ضد السلطان العثماني لأن الولاء له أمر مسلم به ، لا تتطرق الثورة عليه إلى أذهان مجتمعات دينية إسلامية . وكان القائمون بهذه الانتفاضات يهددون حاكميهم ، برفع الأمر إلى السلطان في إسطنبول .

ثانياً : حركات سياسية عسكرية يقوم بها أفراد طموحون ذوو عصبية في الولايات العربية . ولم تكن هذه الحركات تبغى الانفصال عن الدولة ، ولكن كان القائمون بها يبغون الانفراد بحكم الولاية أو يقسم منها داخل نطاق الدولة العثمانية ، مع الاعتراف بالسيادة

(١) الدايات جمع داي ، لقب يطلق على حاكم الجزائر . البايات جمع باي ، لقب يطلق على حاكم تونس . وكان حكام طرابلس وبرقة يطلق عليهم ولاة .

العثمانية ، وما يتبعها من سك العملة باسم السلطان العثماني الحاكم والدعاء له على منابر مساجد في صلاة الجمعة والعيدين ، ومع ذلك لم تظهر قيادات هذه الحركات باستجابة من الجماهير ولم تتعاون معها ، بل لم يحدث لقاء فكري بينها وبين زعماء هذه الحركات . ومن الأمثلة على هذا النوع : حركة على بك الكبير في مصر ، وحركة الشيخ ظاهر العمر في فلسطين .

سادساً : الدولة تمنع انتشار المذهب الشيعي إلى ولاياتها العربية

إن هذا الموضوع ذو حساسية لأهل الشيعة ، ولذلك فإننا نمسه بحذر ويقدر؛ احتراماً منا لمشاعرهم ^(١) . من المعروف أن المذهب الرسمي للدولة العثمانية ، كان المذهب السني واعتبرت نفسها حامية لهذا المذهب . وتأسيساً على هذه الحقيقة .. فإنها منعت انتشار المذهب الشيعي إلى ولاياتها العربية في آسيا وإفريقية ، ويشذ العراق عن هذه القاعدة العامة ؛ لأن الدولة العثمانية لما فتحت هذا الإقليم العربي .. وجدت أن الدولة الصفوية في فارس كانت قد سبقتها إلى نشر المذهب الشيعي في أرجائه ؛ حيث لجأ الشاه إسماعيل الصفوي إلى أساليب العنف بل والإرهاب في نشر المذهب الشيعي ، وقام بقتل أئمة السنة ، على الرغم من أن المذهب الشيعي كانت له جذور عميقة في قطاعات مهمة وكبيرة في المجتمع العراقي ؛ نظراً لوجود العتبات المقدسة في النجف وكربلاء وسامراء وغيرها من الأماكن التي توجد فيها مقابر أئمة الشيعة ؛ بحيث أصبح أهل الشيعة وأهل السنة قوتين متوازيتين تقريباً من حيث تعدادهم . وقد أبقت الدولة العثمانية على هذا الوضع ، وذهبت إلى أبعد من ذلك فأحترمت مشاعر أهل الشيعة واهتمت بتعمير مناطق العتبات المقدسة ويسرت زيارتها أمام شيعة العراق وفارس والهند وأفغانستان وغيرها على النحو الذي بمسطناه من قبل . وقد وجدت الدولة العثمانية أقلية شيعية في أجزاء من بعض الولايات العربية ، فأبقت عليها مثل طائفة العلويين والدروز في لبنان . وكان أهل اليمن يعتقدون مذهباً شيعياً هو الإمامية الزيدية ، ووصلت إلى اتفاق بينهم يجمع بين الاعتراف بمذاهبهم ومقتضيات السيادة العثمانية ، على أنها أسدت خدمة جليلة بحصر المذهب الشيعي في فارس ؛ بحيث لم تسمح بتسريبه إلى الأقاليم العربية التي دخلت تحت السيادة العثمانية . ولا تزال إيران إلى اليوم هي المعقل الأول للشيعة في العالم الإسلامي .

* * *

(١) لا يطبق هذا الموضوع على عنوان الفصل الحالي وهو خدمات الدولة العثمانية للإسلام والعروبة لأن أهل الشيعة مسلمون . وإذا كانت الدولة نجحت في منع انتشار المذهب الشيعي إلى ولاياتها العربية بصورة عامة ، فقد جاءت هذه السياسة - فيما جاءت به - في مصلحة أهل السنة وأضرمت بأهل الشيعة ؛ ولذلك كان لزاماً علينا أن نبرز هذه الحقيقة وهي أن أتباع المذاهبين مسلمون . وكانت الدقة في الصياغة اللفظية لعنوان هذا الموضوع تقتضي أن يكون خدمات الدولة لأهل السنة ولكن لما كان هذا الموضوع مقصوداً على هذه الناحية فقد أدرجناه تحت العنوان العام وأرجأه إلى نهاية الفصل مع التمهيد له بهذه العاشرة الضرورية .

خدمات الدولة العثمانية للإسلام والعروبة (٣)

سابعاً : الدولة تمنع اليهود من استيطان سيناء

لما فتح السلطان سليم الأول مصر عام ١٥١٧ ، أصدر فرماناً بمنع اليهود من الهجرة إلى سيناء . ووضح من صدور هذا فرمان أن اليهود كانوا ييغون الهجرة إلى هذا الإقليم المصري واستيطانه ، على أساس أنه يضم الوادي المقدس طوى ، الذي كلم الله سبحانه وتعالى فيه موسى عليه السلام تكليماً . ومن ثم أصدر السلطان سليم الأول فرمان ، الذي سد الطريق في وجوه اليهود . ولما تولى ابنه سليمان المشرع عرش الدولة عام ١٥٢٠ أصدر فرماناً لاحقاً أكد فيه مجاءة في فرمان السابق^(١) ؛ مما يدل على أن الخطر اليهودي كان لايزال ماثلاً من حيث رغبتهم في استيطان سيناء أو بمعنى آخر استعمارهم لها ؛ الأمر الذي كان يقلق الدولة العثمانية .

واستطال حكم سليمان زهاء ستة وأربعين عاماً (١٥٢٠-١٥٦٦) ، ولم يجرؤ اليهود على تنفيذ ماكانوا يبيتون . فلما جاز إلى ريه جاء بعده ابنه السلطان سليم الثاني السكير ، وكان منحرفاً خليقياً (١٥٦٦-١٥٧٤) ، ومنذ حكمه بدأت للنذر الأولى لاضمحلال الدولة ، وخلفه سلاطين على شاكلته وكان أولهم مراد الثالث (١٥٧٤-١٥٩٦) .

وتنفس اليهود الصعداء وأدركوا أن الفرصة سانحة لهم لتحقيق حلم روادهم طويلاً ، ففزعوا في هجرات متقطعة ، وعلى فترات متقاربة إلى سيناء لاستيطانها ، وكانت خطتهم تقوم في المراحل الأولى على تركيز إقامتهم في مدينة الطور . وكان اختيارهم لهذه المدينة اختياراً هادفاً ؛ فهذه المدينة - وهي تقع على الساحل الشرقي لخليج السويس - لها ميناء يصلح لرسو السفن التجارية . وكانت تقصده سفن قادمة من ينبع وجدة وسواكن والعقبة والقازم والسويس . كما كانت المدينة ترتبط برياً بخطوط قوافل مع القاهرة والفرما^(٢) . وبذلك كان يسهل على

(١) دكتور عبد اللطيف إبراهيم : من وثائق التاريخ العربي . بحث منشور في مجلة جامعة القاهرة فرع الخرطوم . العدد الثاني عام ١٩٧١ ، مطبعة جامعة القاهرة ، ١٩٧٢ .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية . مادة : الطور .

وعما يذكر أن مدينة الطور جعلت عاصمة لمحافظة جنوبي سيناء بعد تحريرها من الاحتلال الاسرائيلي . وكانت مدينة سدر عاصمة مؤقتة لها ، ثم انتقلت إلى مدينة الطور ، اعتباراً من يوم الأحد الخامس والعشرين من شهر نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٩٧٩ .

اليهود إيجاد اتصالات خارجية ، فلايصبحون فى عزلة عن العالم ، بل تستطيع السفن أن ترسو فى ميناء الطور تحمل أفواجاً من اليهود الجدد قد يقدمون من بلاد مجاورة .

وقد تزعم حركة التهجير رجل يهودى تطلق عليه وثائق ذلك العصر إبراهيم اليهودى ، استوطن الطور مع أولاده وسائر أفراد أسرته . وكان من المحتمل أن تمر سنوات ذات عدد ، دون أن تدرى السلطات العثمانية سواء فى القاهرة أو فى إستانبول عن هذه التحركات اليهودية المريبة شيئاً ، لولا أن اليهود لما استقر بهم المقام فى سيناء تعرضوا بالأذى لرهبان دير سانت كاترين ؛ مما حمل الأخيرين على إرسال شكاوى مكتوبة تارة ، أو الذهاب إلى القاهرة والممثل أمام ديوان الباشا فى قلعة الجبل تارة ثانية ، أو التحدث إلى المسؤولين فى مقابلات خاصة يشكون من إيذاء اليهود لهم تارة ثالثة .

وكانت شكايات الرهبان تقوم على الأسانيد الآتية :

أولاً : إن دير سانت كاترين هو مكان مقدس ، يجب ألا يتعرض رهبان منقطعون فيه للعبادة إلى الإيذاء من اليهود أو من غيرهم . ومن الأمور الجديرة بالتسجيل هنا أن الدولة العثمانية كانت تهتم برعاية أهل الذمة ، كما أن طلب رهبان دير سانت كاترين كان يتمشى مع منطق الآية القرآنية الكريمة ولتجدن أفرهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون^(١) .

ثانياً : ليس لليهود حق فى أن يسكنوا مدينة الطور على الإطلاق .

ثالثاً : إن رهبان دير سانت كاترين يحتفظون فيه بفرمان شريف وأمر خنكارى^(٢) ، يؤكدان منع اليهود من استيطان سيناء ومن الإقامة فى الطور ومن التعرض للدير ، ومن إيذاء رهبانه .

رابعاً : إن اليهود ينزحون إلى منطقة سيناء بما فيها مدينة الطور فى جماعات كبيرة بقصد إيقاع الفتن .

خامساً : إن اليهود أصبحوا يتوطنون مدينة الطور بنسائهم وأولادهم ، ويحصل منهم غاية الضرر .

سادساً : دأب اليهود على مخالفة الشرع والتقاليد والعادات القديمة المتبعة ، ومنها إذا كانت لهم حاجة ضرورية .. فيتوجه منهم شخص أو شخصان لقضاء هذه الحاجة والعودة فوراً .

(١) سورة المائدة ، الجزء الأخير من الآية رقم ٨٢ .

(٢) أمر خنكارى أى أمر سلاطنى . ولغة خنكارى مشتقة من خنكار ، وهو لقب من ألقاب سلاطين الدولة العثمانية .

وقد اهتمت السلطات العثمانية فى القاهرة ، على أثر تلقيها شكايات رهبان دير سانت كاترين ، اهتماماً زائداً بمنع هجرة اليهود إلى سيناء ومنع استيطانهم بها ، وصدرت فى هذا الصدد ثلاثة فرمانات ديوانية ^(١) ، وكان صدرها كلها إبان حكم السلطان مراد الثالث : أصدر حسن باشا الخادم الوالى العثمانى فى مصر ^(٢) فرمانين متلاحقين فى خلال سنتين ، يحمل أولهما رقم ١٤٩ ، وتاريخه أوائل جمادى الأول عام ٩٨٩ (أوائل شهر يونيو - حزيران - ١٥٨١) ويحمل ثانيهما الرقم ١٥١ ، ومؤرخ فى اليوم التاسع والعشرين من شهر صفر عام ٩٩١ (الثالث والعشرين من شهر فبراير - شباط - عام ١٥٨٣) ، أما الفرمان الثالث فقد أصدره سنان باشا (الثانى) الوالى العثمانى فى مصر ^(٣) فى اليوم العشرين من شهر ذى الحجة ٩٩٣ (الثالث عشر من شهر ديسمبر - كانون أول - عام ١٥٨٥) ويحمل رقم ١٦٠ .

وتتفق هذه الفرمانات الثلاثة فى أنها موجهة إلى «فخر الناب ، ومجرى الحق بالصواب ، نايب الشرع بالطور» ^(٤) ، والأقران الشادية ^(٥) ، والدزدارية ^(٦) ، والحكام ، وأصحاب الإدراك ، وولاة الأمور بالطور عامة ، وتضمن كل فرمان من هذه الفرمانات الثلاثة موضوع الشكوى التى تقدم بها رهبان دير سانت كاترين . وصدرت فيها أوامر للسلطات العثمانية بالقاهرة مشددة بإخراج إبراهيم اليهودى وزوجته وأولاده ، وسائر اليهود من سيناء ، ومنعهم فى قابل الأيام منعاً باتاً من العودة إليها بما فيها مدينة الطور والإقامة فيها أو السكنى فيها . ونهبت الفرمانات الثلاثة على أرباب الوظائف الذين ورد ذكرهم والذين وجهت إليهم هذه الفرمانات بضرورة تنفيذ الأوامر تنفيذاً فورياً «وآلا يتأخروا يوماً واحداً» ، كما نهبت عليهم بالوقوف على الأمر الشريف السلطانى السابق صدوره للرهبان فى هذا الصدد «واعتماد مضمونه والعمل به وعدم العدول عنه» ، وفى نهاية كل فرمان جاءت هذه العبارة «امتثلوا

(١) الفرمانات الديوانية هى التى تصدر عن ديوان الباشا العثمانى ، الذى يحكم الولاية ، ويكون ثانياً عن السلطان فى حكمها ويرأس حكومتها . وفى الحالة التى نتكلم عنها يقصد بالفرمان الديوانى الفرمان الذى يصدر عن ديوان الباشا فى قلعة الجبل بالقاهرة . أما الفرمانات السلطانية فيصدرها الصدر الأعظم بعد عرضها على الديوان الإمبراطورى (الهمايونى) ، ثم يعرضها على السلطان فأذا وافق عليها وضع الصدر الأعظم عليها خاتم السلطان ، والفرمانات السلطانية منها مامور خاص بولاية معينة ؛ ومنها مامور عام يطبق فى جميع ولايات الدولة .

(٢) تولى حكم مصر من جمادى الأولى ٩٨٨ حتى ربيع آخر ٩٩١ (يونيو - حزيران - عام ١٥٨٠ حتى أبريل - نيسان - عام ١٥٨٣) .

(٣) تولى حكم مصر من شوال ٩٩٣ حتى جمادى الآخرة ٩٩٥ (سبتمبر - أيلول - عام ١٥٨٥ حتى مايو - أيار - عام ١٥٨٧) .

(٤) نايب الشرع أى نائب الشريعة المطبق أحكامها . وهو القاضي .

(٥) الشادية مصطلح تاريخى ، مفردة شاد ، بمعنى مفتش فيقال شاد الدواوين أى الذى يفتش على الدواوين .

(٦) الدزدارية مصطلح تاريخى ، مفردة دزدار ، وهو أحد العسكريين الذين يرأسون قوة عسكرية فى إحدى القلاع .

بالأوامر العالية وقابلوها بالسمع والطاعة .

وكان كل فرمان يحمل الخاتم الخاص باسم والى العثمانى الذى أصدره .

ويدل صدور هذه الفرمانات الثلاثة ومحتوياتها على عدة حقائق ، نذكر من بينها :

أولاً : حرص الدولة العثمانية حرصاً بالغاً على منع اليهود من استيطان شبه جزيرة سيناء بما فيها مدينة الطور ، وتخوفها من تجمعاتهم فيها .

ثانياً : إن أطماع اليهود فى سيناء كانت أطماعاً قديمة . وإن أرض مصر لم تكن فى يوم من الأيام خارجة عن نطاق التفكير اليهودى ، وإن تفكيرهم اتجه فى زمن مبكر إلى سيناء وهى متاخمة لفلسطين . ووقفت الدولة العثمانية فى وجه أطماع اليهود فى سيناء ، منذ بداية الحكم العثمانى ، ولم تحد عن سياستها طوال هذا الحكم ، سواء الحكم المباشر أو غير المباشر تحت حكم محمد على وخلفائه إلى الاحتلال البريطانى لمصر عام ١٨٨٢ .

ثالثاً : رغبة الدولة العثمانية فى إشعار اليهود بقوتها وبقوتها لأغراضهم من استيطانهم سيناء . رابعاً : العلاقات الطيبة والوطيدة بين السلطات العثمانية ورجال دير سانت كاترين ، عندما لقى الأخيرون موافقة فورية لطلباتهم .

خامساً : إن استيطان اليهود سيناء كان يقلق رجال الدين . وكانت السلطات العثمانية حريصة على توفير أسباب الراحة لهم وتأمينهم على أرواحهم وأموالهم وأوقافهم (١) .

ومما هو جدير بالذكر أنه لما احتلت بريطانيا مصر سنة ١٨٨٢ ، وتحولت السيادة العثمانية إلى سيادة اسمية واهية إلى أبعد الحدود ، وأصبحت الكلمة العليا فى الحكومة المصرية لسلطات الاحتلال .. عاودت اليهود أطماعهم فى سيناء ، بعد أن رفض السلطان عبدالحميد الثانى فتح أبواب الهجرة أمامهم إلى فلسطين . وكان تيودور هرزل قد أطلق على سيناء اسماً معبراً هو فلسطين المصرية ؛ ليتخذ منها فى قابل الأيام نقطة وثوب إلى فلسطين الآسيوية أو فلسطين بمعناها المتعارف عليه . ورأى هرزل أن يبدأ أنصاره الصهيونيون استيطان منطقة العريش أى فى شمالي سيناء بدلاً من جنوبيها ؛ أى على عكس ما فعل اليهود عام ١٥٨١ ، عندما حاولوا استيطان منطقة الطور ودير سانت كاترين . ولذلك دخل هرزل فى مفاوضات سنة ١٨٩٨ مع بعض أعضاء الوزارة البريطانية ؛ خاصة جوزيف تشمبرلين Joseph Chamberlain وزير المستعمرات ، ولورد لانزدون Lansdowne وزير الخارجية من أجل توطين اليهود فى سيناء على أساس إقامة دولة يهودية فيها ، تتمتع بالحكم العثمانى فى نطاق الإمبراطورية . ووافق الوزيران (٢) على الاقتراح من حيث المبدأ نظراً للمكاسب التى تعود على

(١) دكتور عبداللطيف إبراهيم ، مرجع سبق ذكره .

(٢) كان هذان الوزيران عضوين فى وزارة لورد سالزبرى الثالثة ، التى تكونت فى عام ١٨٩٥ وشغلا المنصبين نفسيهما فى الوزارة التالية ، وهى وزارة بالفور التى تشكلت فى عام ١٩٠٢ .

بريطانيا . وكان من بين هذه المكاسب ضمان حماية الضفة الشرقية لقناة السويس ، وعزل مصر عن الولايات العربية في غربي آسيا ، وإضعاف الدولة العثمانية ، ورد عملي على التقارب الذي حدث بين برلين وإستانبول ، وإقامة دولة في وسط العالم العربي تسير في ركاب الاستعمار البريطاني^(١) .

وبعد مفاوضات مضنية وصافية ، تكونت في سنة ١٩٠٢ لجنة قوامها ثمانية أعضاء تقول دائرة المعارف اليهودية إنهم يمثلون الحكومة المصرية^(٢) ، ولكن ليس من بين أسماء أعضائها مصري واحد ، بل كانوا جميعاً أجانب بحيث يصعب تحديد الأسماء اليهودية والأسماء الإنجليزية من غير اليهود . وكانت أهداف اللجنة دراسة المشروع على الطبيعة ، وإنشاء إدارة يهودية في العريش ، وتكوين مجالس بلدية يهودية في أنحاء سيناء لاستغلال الأراضي وتنظيم توطين اليهود وغير ذلك من مسائل . وغادرت اللجنة القاهرة في أول سنة ١٩٠٣ وعادت في آخر مارس - آذار - وانتهت رأياً إلى أن سيناء تصلح لاستيطان اليهود ، وأوصت بأن تكون العريش هي المرحلة الأولى لتنفيذ المشروع على أسس علمية وتخطيط مسبق ، يوضع بعناية باستقدام خبراء زراعة ومهندسين ومن إليهم من الفنيين لتهيئة الطرق ومد الخطوط الحديدية وإنشاء الموانئ وتقسيم الأراضي واستصلاحها وزرع السكان اليهود فيها . واشترطت اللجنة شرطين : ألا تكون الدولة المقترحة تحت حكم مصر وإنما تحت حكم بريطانيا ، وأن يسمح لها بجلب ماء نهر النيل إلى سيناء .

يرتبط الأستاذ الدكتور محمد عوض محمد على هذا الحادث بقوله إن حكومة مصر ، بلغ بها التساهل إلى حد السماح لبعثة صهيونية أن ترتاد شبه جزيرة سيناء ، وأن تبحث وتتقرب في العريش^(٣) . والواقع أنه لم يكن في استطاعة الوزراء أن يعترضوا على قرارات سلطات الاحتلال ، التي ابتدعت تعبيراً دبلوماسياً مهذباً هو سياسة النصائح البريطانية ؛ بمعنى أن الأوامر البريطانية تأخذ شكل نصائح ، فإذا لم يقبل رئيس الوزراء المصري أو أحد من الوزراء المصريين تنفيذها كان يعد متحدياً من منصبه^(٤) .

وعلى كل حال جاء الرفض من جانب لورد كرومر المعتمد البريطاني في مصر ؛ لأنه

(١) أنيس صايغ : الهاشميون وقضية فلسطين ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٢ .

(٢) The Jewish Encyclopedia. Vol. 12, p. 678.

(٣) يكتو محمد عوض محمد : الاستعمار والمذاهب الاستعمارية . الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٩٥٦ ، ص ١٢٢ .

(٤) كانت الوزارة القائمة بالحكم في ذلك الوقت هي وزارة مصطفى فهمي باشا ، المشهور بولاه العميق للاحتلال البريطاني . وقد بقيت وزارته في الحكم ثلاثة عشر عاماً (نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٩١٥ حتى نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٩٠٨) ، كانت كلها خضوعاً للإنجليز واستسلاماً لطلباتهم .

رأى أن المشروع يتطلب تحويل مقادير هائلة من مياه النيل إلى سيناء مما يؤثر على كميات المياه اللازمة للزراعة المصرية ، وأن تنفيذ المشروع الصهيوني يزيد من متاعب الإنجليز في حكم مصر ، وأن الإنجليز يواجهون المشكلات وليس من الحكمة إضافة جديد إليها . يضاف إلى ذلك أن الرأي العام في مصر كان يعارض المشروع معارضة شديدة ، كما اعترض السلطان عبد الحميد الثاني على هذا المشروع . وأثار الباب العالي آراء فقهية تقول إن الفرمانات الصادرة من السلطان إلى ولاية مصر من أسرة محمد علي لا تخول لهم الحق في المرافقة على توطين جماعات من السكان أغراب عن البلاد ، ومنحهم الحكم الذاتي في المنطقة التي ينزحون إليها ويقيمون فيها . وقد أرسلت وزارة الخارجية البريطانية مذكرة مؤرخة في اليوم التاسع عشر من شهر يونيو - حزيران - عام ١٩٠٣ إلى هرتزل ، قررت فيها أنه يتعذر عليها أن تمضي في بحث مشروع توطين اليهود في سيناء ، ثم أوردت هذه المذكرة بمذكرة أخرى مؤرخة في اليوم السادس عشر من شهر يوليو - تموز - عام ١٩٠٣ ، قالت فيها إنها قررت بصفة نهائية ترك مشروع سيناء ووضعه على الرفة^(١) .

(١) Stein Leonard, The Balfour Declaration. London, 1961, p. 26 & f. no. 93.

ثامناً : الدولة خد من هجرة اليهود إلى فلسطين

الدولة العثمانية تعاصر مولد ونشأة الحركة الصهيونية :

نطلع اليهود -على مر العصور التاريخية- إلى فلسطين كإقليم ، يجمع شنائهم وينشئون فيه دولة ، منذرعين بادعاءات دينية وتاريخية ليست هذه الدراسة موطناً لعرضها . وكانت أصواتهم تلو حيناً وتخت حيناً آخر تبعاً للملابسات التي أحاطت بهم ، وتبعاً لظروف الدولة التي كانت تمارس سيادة فعلية على فلسطين . ولكن لوحظ أن أصواتهم ازدادت ارتفاعاً بل ضجيجاً ، وعلى فترات متقاربة منذ الثمانينيات في القرن التاسع عشر . وتنادوا إلى تهجير اليهود المشتكين في أنحاء العالم إلى فلسطين ، وإنقاذهم من الاضطهاد الذي يتعرضون له في المجتمعات التي يعيشون فيها ، وطالبوا بإنشاء دولة يهودية في فلسطين ، وأطلقوا على المشارف الجنوبية لمدينة القدس القديمة ؛ تأكيداً لإصرارهم على إنشاء الدولة اليهودية في فلسطين .

وشقت هذه الحركة طريقها بما توفر لها من قيادات سياسية على أعلى المستويات العلمية ، ووسائل الدعاية والإعلام ، والتنظيم الدقيق ، والتمويل الرتيب ، وما إلى ذلك من عناصر القوة . وأنشأت الحركة منظمات أو أجهزة صهيونية ، تتولى اتخاذ الخطوات التي تؤدي في النهاية إلى تحقيق هدفها المنشود ، ونجحت في استقطاب الدول الكبرى إليها عطفاً وتأييداً وبذلك . ولئن كانت فلسطين تعتبر في نظر اليهود أرض الميعاد تشدهم دينياً إليها ، فقد أصبحت أيضاً أرض الخلاص ، تجذبهم سياسياً إليها ، يقيمون فيها دولة يتفأولون في ظلها الأمن بعيداً عن الاضطهادات الدينية ، وتعد إليهم مجداً سياسياً تألق في فترة قصيرة موهلة في القدم ، ثم ذرى أعصراً وأدهاراً وعاشوا على ذكرياته ويكون ويتباكون .

وكان على الدولة صاحبة السيادة وقتذاك على فلسطين -وهي الدولة العثمانية - أن تخوض دفاعاً عن فلسطين صراعاً سياسياً مريباً ضد القوى الصهيونية والدول الأوروبية الماصرة لها ، ونجح الصهليون في توقيت حركتهم نجاحاً باهراً ، فاخترتوا فترة عصيبة من فترات الاضمحلال التي كانت تمر بها الدولة العثمانية . واتضح للمراقبين السياسيين في ذلك الوقت مدى التدهور الذي أصابها في مواجهة الزحف الاستعماري الأوروبي على ممتلكاتها بحيث أصبح سقوطها وشيكاً ، فلم يعد للدولة الوزن السياسي أو القل العسكري الذي كانت تتمتع به على عهد سلاطين الفترة الأولى ، ولذلك فلم يكن في مقدورها أن تخوض بنجاح صراعاً سياسياً رهيباً ضد الصهيونية والدول الأوروبية ، فعملت في حدود إمكانياتها على الحد من الهجرة اليهودية إلى فلسطين .

الدولة ترفض طلب يهود روسيا الهجرة إلى فلسطين :

تعرض اليهود في روسيا لموجة من المذابح وغيرها من صور الاضطهادات ، على أثر اتهامهم بالاشتراك في تدبير مؤامرة إغتيال إسكندر الثاني قيصر روسيا سنة ١٨٨١ ، وأثرت أعداد كبيرة منهم الهجرة إلى فلسطين . ويلاحظ أن يهود روسيا كانوا أكثر يهود العالم ميلاً إلى الهجرة إلى فلسطين بالذات ، وتفضيلها على أي إقليم آخر يستقرون فيه . فبالإضافة إلى الاعتبارات الدينية والتاريخية التي كانت تشدهم في زعمهم إلى فلسطين - وهي اعتبارات يشترك فيها كافة اليهود - كانوا يعتقدون كيهود شرقيين أن المعيشة في فلسطين كإقليم في الشرق أكثر ملاءمة لهم من الحياة في دول غربي أوروبا أو في الولايات المتحدة . وكان بطء حركة تحرير يهود روسيا من الاضطهاد من ناحية ، وتعرضهم في كل حين وأن لاضطهاد منظم من السلطات الحاكمة الروسية من ناحية ثانية ، قد جعل يهود روسيا أشد رغبة في الهجرة لينشروا الخلاص من الاضطهاد في مهجر جديد .

وقد طلبت بعض الشخصيات اليهودية وأعضاء حركة محبي صهيون^(١) Lovers of Zion من القنصل العثماني العام في ثغر أودسا منح هؤلاء اليهود تصريحات لدخول فلسطين والاستقرار فيها . وتلقى القنصل العثماني رداً من حكومته في اليوم الثامن والعشرين من شهر أبريل - نيسان - عام ١٨٨٢ ، علق نسخة منه خارج دار القنصلية ،

(١) هي هيئة تكونت في أودسا باسم Chibbath Zion ، أي محبي صهيون . ومن أودسا انتشرت فروع لها في معظم المدن الروسية ، وفي دول شرقي أوروبا مثل رومانيا وبلغاريا ، ثم في غربي وشمال أوروبا مثل فرنسا وإنجلترا ولتوانيا . واستهدفت هذه الهيئة تشجيع الهجرة إلى فلسطين ، وإنشاء مستعمرات زراعية فيها ، تكون في الوقت ذاته مراكز للإشعاع الثقافي اليهودي عن طريق تعلم اللغة العبرية وجعلها لغة حياة . ونشر التاريخ اليهودي والأدب اليهودي . وكان أعضاء هذه الهيئة يجتمعون برئاسة شخصيات متحمسة قوية من بين رجال العلم والزعماء الاشتراكيين والخامات . وكان من بين هذه الشخصيات ليون ينسكرك Leon Pinsker وأحد هاعام Achad Ha-am . وقد نجحت جماعة محبي صهيون في إنشاء المستعمرات الصهيونية الأولى في فلسطين ، ومهدت الطريق أمام الحركة الصهيونية لتواصل السير في الاتجاه نفسه . وإذا كانت حركة محبي صهيون قد أفسحت الطريق للحركة الصهيونية بعد مؤتمر بال الأول ، فلم يكن هناك تعارض بين الحركتين ، لأن أهداف حركة محبي صهيون كانت أهدافاً إقليمية ، تتعلق بالترابن غير الرسمي في فلسطين وأهدافاً ثقافية بجعل فلسطين مركزاً ثقافياً لليهود . وأهدافاً اقتصادية بإنشاء مستعمرات زراعية في فلسطين . وهذه الأهداف تقترب إلى حد كبير من الأهداف الصهيونية وتعتبر مقدمة لها .

انظر كلاً من :

Stein Leonard, op. cit., p. 13 & 62.

Weizmann Chaim, Trial and Error, London, 1950, p. 28, 38 & 42.

دكتور محمد حافظ غانم : المشكلة الفلسطينية على ضوء أحكام القانون الدولي . القاهرة ، ١٩٦٥ ، من مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية ، ص ٢٠-٢٢ .

جاء فيه أن الحكومة العثمانية تبذل جميع اليهود الراغبين في الهجرة إلى فلسطين أنه من غير المسموح لهم الاستقرار فيها . ولكنهم يستطيعون الانتقال إلى أقاليم أخرى في الدولة العثمانية بشرط أن يكونوا في أعداد قليلة ، وبشرط أن يتجنسوا بالجنسية العثمانية ؛ أى بشرط أن يصبحوا من رعايا الدولة ، أو أن يقبلوا الالتزام بتنفيذ قوانينها واحترام تقاليدها وعاداتها .

كان هذا القرار صدمة أليمة لليهود ، ولكن لم يتطرق اليأس إلى نفوسهم ، فاتجهت وفود منهم إلى إسطنبول في مايو - آيار - ويونيو - حزيران - عام ١٨٨٢ للتأكد من أن هذا الإعلان هو صورة حقيقية لرد الباب العالي ، وأنه يتمشى مع سياسة الدولة إزاء هجرة اليهود إلى فلسطين ، فإذا كان الأمر كذلك - فإن هذه الوفود تنتمى من الباب العالي أن يأذن لليهود في الاستقرار في فلسطين ، نظراً للملابسات التي تحيط بهم في روسيا ، وقد انضم وفدان من رومانيا وبلغاريا لهذه الوفود . وبمساعي لويس والاس Lewis Wallace السفير الأمريكي في إسطنبول ، وتدخل بعض الشخصيات اليهودية في العاصمة استطاعت هذه الوفود مقابلة وزيرى الحربية والداخلية . وقد أكدوا لأعضاء هذه الوفود أن الإعلان الذى علقه القنصل العثمانى خارج دار القنصلية فى أودسا صحيح فى مضمونه ، وأنه يتمشى نصاً وروحاً مع السياسة العليا للدولة العثمانية ، وهى منع الهجرة اليهودية إلى فلسطين ، وقد تحدث والاس السفير الأمريكى فى اليوم التالى مع سعيد باشا وزير الخارجية فنتقى منه الإجابة ذاتها .

اليهود ينتهجون سياسة التحدى للباب العالي :

وعلى الرغم من الموقف الواضح والمعلن ، الذى اتخذته الحكومة العثمانية بمنع هجرة اليهود إلى فلسطين .. فإنهم رأوا جرياً على سياستهم أن ينتهجوا سياسة التحدى ، ووضع الباب العالي أمام الأمر الواقع . فأبحر بعض اليهود المتحمسين والمتجمعين في إسطنبول إلى يافا فى اليوم التاسع والعشرين من شهر يونيو - حزيران - عام ١٨٨٢ ، وإزاء هذا التصرف أبرق الباب العالي فى اليوم ذاته إلى حاكم القدس يأمره ألا يسمح لأى يهودى قادم من روسيا أو رومانيا أو بلغاريا بأن يهبط أرض فلسطين ، كما اتخذ إجراءات المنع ذاتها فى حيفا وبيروت واللاذقية وغيرها من موانئ الساحل الشامى ^(١) .

وبعد حوالى ستة أشهر ، أرسل الباب العالي مذكرة رسمية فى الحادى والعشرين من شهر يناير - كانون ثان - عام ١٨٨٣ إلى رؤساء البعثات الدبلوماسية في إسطنبول بنص قرار مجلس الوزراء العثمانى بمنع استيطان اليهود الروس فى فلسطين . وأمام ضغط الدول الأوروبية

(١) دكتور محمود صالح منسى ، مرجع سبق ذكره ، ص ٨٢ .

أصدر الباب العالي سنة ١٨٨٤ تعليمات جديدة بالإذن لليهود في دخول فلسطين ؛ من أجل زيارة الأماكن المقدسة ، بشرط ألا تطول إقامتهم عن ثلاثين يوماً .

مؤتمر كاتوويتز :

عقد أعضاء جماعة محبي صهيون مؤتمر كاتوويتز Kattowitz في مدينة بيسنك في نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٨٨٤ حضره أربعة وثلاثون عضواً ورأسه ليون بنسكر ، وكان افتتاح المؤتمر في العيد الملوي لسير موسى مونتيفيور^(١) Sir Moses Montefiore وقصر المؤتمر إنشاء اتحاد مونتيفيور لفرقية الزراعة بين اليهود ؛ خاصة لمعاونة المستعمرات اليهودية في فلسطين ، . وأعلن رئيس المؤتمر أن الأرض للوحيدة التي تصلح لهدف اليهود وتحقيق آمالهم هي فلسطين .. واتفق على مساعدة المستعمرات بالأموال ، وعلى إيفاد مندوبين إلى إسطنبول لأخذ تصاريح بالعمل في المستعمرات اليهودية ، دون أن تقام في وجه سكانها عقبات من السلطات الحاكمة في فلسطين ، وانتخب بنسكر رئيساً للاتحاد الجديد ، وأنشئ المركز الرئيسي في أودسا حيث كان بنسكر رئيساً لجماعة محبي صهيون المحلية أيضاً .

ويلاحظ أن أعضاء المؤتمر لم يطالبوا بإنشاء دولة يهودية في فلسطين ، وكانت مناقشاتهم تدور حول تيسير الهجرة إلى فلسطين وإنشاء المستعمرات فيها والمسائل الثقافية . وهي أهداف كانت تمهد في نهاية المطاف إلى إنشاء الدولة اليهودية في فلسطين ؛ لذلك يرى زعماء الصهيونية أن مؤتمر كاتوويتز يعتبر من الناحية التاريخية البداية المنظمة للحركة الصهيونية^(٢) .

الدولة العثمانية تطيل مدة إقامة اليهود في فلسطين إلى ثلاثة أشهر :

ظلت العواصم الأوروبية المتعاطفة مع اليهود تضغط على الباب العالي ضغوطاً لاهوادة فيه للتخفيف من ذلك الشرط الزمى لإقامة اليهود في فلسطين ، ورأى الباب العالي في سنة ١٨٨٧ إيالة الهدنة المسموح بها للحجاج اليهود إلى ثلاثة شهور بدلاً من شهر واحد . ومعنى هذا القرار الجديد أن الحكومة العثمانية كانت لا تزال عند رأيها ، وهو منع الهجرة اليهودية إلى فلسطين ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً ، أو على أسوأ الفروض الحد من تدفق اليهود عليها ومنع استقرارهم فيها تحت ذريعة الأغراض الدينية ، ثم اتخذت في السنة ذاتها قراراً هاماً يعتبر مكملاً للقرار الأول ، وهو تغيير الوضع الإداري للبيت المقدس .

(١) هو إحدى الشخصيات الإنجليزية ، التي اهتمت اهتماماً بالغاً بتوطيد اليهود في فلسطين في النصف الأول من القرن التاسع عشر . وزار فلسطين سبع مرات في الفترة من سنة ١٨٢٧ ، إلى سنة ١٨٧٤ . وكان في هذه السنة في التسعين من عمره . وقد قدم مبالغ كبيرة متتابعة للتعبؤ باليهود اجتماعياً واقتصادياً في فلسطين .

(2) Weizmann Chaim, op. cit., p. 38.

الوضع الإداري لبيت المقدس قبل السلطان عبدالحميد الثاني :

كان العثمانيون بعد أن فتحوا بلاد الشام عام ١٥١٦ ، جعلوا بيت المقدس صندقية تتبع باشا دمشق الذي كان يطلق عليه أيضاً باشا الشام . وأظهر العثمانيون في هذا الوقت المبكر تقديرهم خاصة لأهمية بيت المقدس ، فكان يحكمها أحياناً حاكم بلقب ميرمران أى أمير الأمراء وهو باشا بطوخين . ويتولى حكمها أحياناً أخرى أحد الوزراء وهو باشا بثلاثة أطواخ ، وكانت الدولة تكتفى أحياناً ثالثة بحاكم يلقب متسلم يرسله باشا الشام . وكان عليه أن يرسل مالا معيناً إلى الباشا في دمشق ، مما يجمعه من ضريبة الأرض أو «الميرى» ومن الجزية على أهل الذمة ومن العوائد المختلفة . وكانت تتبع صندقية بيت المقدس ثلاث مدن ، هى : أريحا وتقع إلى الشمال الشرقى ، ثم بيت لحم والخليل وتقعان في الجنوب . أما مدن نابلس ، وعجلون ، وغزة ، فكانت كل منها صندقية قائمة بذاتها تتبع باشا دمشق ، وكانت يافا تتبع غزة - ميناء بيت المقدس^(١) .

عبدالحميد يدخل تعديلاً على الوضع الإداري لبيت المقدس :

رأى السلطان عبدالحميد الثاني أن ألبصار اليهود في أنحاء العالم قد ازدادت شخوصاً نحو بيت المقدس بفعل الحركة الصهيونية ، التي كانت تغذى هذا التركيز على بيت المقدس ، بل إن لفظة صهيونية مشتقة من «صهيون» ، وهو جبل يقع على المشارف الجنوبية لمدينة القدس القديمة ، والحركة الصهيونية بمعناها العام هى عودة اليهود المشتتين في أنحاء العالم إلى بيت المقدس وتأسيس دولة يهودية في فلسطين .. فقرر عبدالحميد إدخال تغيير جذري على الوضع الإداري لبيت المقدس فجعلها سنة ١٨٨٧ «متصرفية» خاصة تتبع الباب العالي رأساً^(٢) .

(١) دكتور أحمد عزت عبدالكريم : التقسيم الإداري لسورية في العهد العثماني . الباشاوات العثمانية والعصبيات الإقطاعية ، بحث منشور في حوايات كلية الآداب ، جامعة إبراهيم باشا الكبير (عين شمس حالياً) ، المجلد الأول ، سنة ١٩٥٠ ، ص ١٤٩ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٨٢ .

ويرفر دكتور محمد محمود الديب أن متصرفية القدس كانت في سنوات الحكم العثماني الأخيرة كانت متصرفية مستقلة ، وتضم أربعة أقضية هى : بئر السبع ، والخليل ، وغزة ، بالإضافة إلى بيت لحم وأريحا اللتين كانتا ناهيتين ، أما شمال فلسطين فكان يتبع لواحد :
(أ) لواء نابلس . ومن أعماله طولكرم ، وجنين ، وطوباس ، وبيسان .
(ب) لواء عكا . ومن أعماله صفد ، وطبرية ، والناصرة ، وحيفا .
انظر : دكتور محمد محمود الديب : حدود فلسطين . دراسة تحليلية لوثائق الانتخاب . من مطبوعات - معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٧٩ ، ص ٨ .
وقد استقى دكتور الديب هذه المادة العلمية من :
وزارة الدفاع الوطني - الجيش اللبناني ، الأركان العامة ، الشعبة الخاصة ، مؤسسة الدراسات

والمتصرفية في التنظيم الإداري العثماني عبارة عن منطقة تلى الولاية ، تريد أن تقرر لها الدولة وضعاً متميزاً أو كياناً خاصاً فتجعلها قسماً إدارياً قائماً بذاته تابعاً للباب العالي رأساً، أسوة بالولاية، وإن كانت المتصرفية أقل مساحة من الولاية . ومن الأمثلة على المتصرفيات التي من هذا النوع المتميز : متصرفية لبنان ، ومتصرفية القدس الشريف . ومتصرفية دير الزور على نهر الفرات^(١) . وكان هدف السلطان عبدالحميد الثاني من رفع الوضع الإداري لبيت المقدس من صنجقية إلى متصرفية مستقلة وجعلها تابعة رأساً للباب العالي في إسطنبول، هو إحكام مراقبة الدوائر العليا في حكومة إسطنبول على الحد من حركة الهجرة اليهودية إلى فلسطين .

وأصدر السلطان عبدالحميد الثاني فرماناً بتعيين محمد شريف رعوف باشا متصرفاً على بيت المقدس ، وكان حازماً نزيهاً يسارع إلى طرد الحجاج اليهود من فلسطين بمجرد انقضاء الثلاثة شهور المسموح بها لهم ، كما كان يمنع قدر استطاعته بيع الأراضي لليهود . وقد ظل في منصبه حتى عام ١٨٨٩ ، ثم ضعفت رقابة الدولة على تنفيذ هجرة اليهود بضع سنين ، وهال عرب فلسطين تفاقم التصلب اليهودي إلى بلادهم . وأرسل أعيان بيت المقدس في اليوم الحادي والعشرين من شهر يونيو - حزيران - عام ١٨٩١ شكوى إلى الباب العالي ، يطلبون فيها اتخاذ إجراءات فعالة وفورية لمنع دخول اليهود الأجانب وشرائهم الأراضي . وكانت جماعة بنى موسى^(٢) قد أنشأت عام ١٨٩١ مستعمرة ديشوفوت ، كما قامت بنشاط واسع في الحقل التعليمي ، فأُنشأت أول مدرسة عبرية للبنات في يافا ، ثم مدارس عبرية في القرى الزراعية . وقد استجاب الباب العالي لهذا النداء ، وجدد القيود المفروضة على هجرة اليهود إلى فلسطين في السادس عشر من شهر يوليو - تموز - عام ١٨٩١ ، ثم أصدر في آخر العام التالي (اليوم الثلاثين من شهر ديسمبر - كانون أول - عام ١٨٩٢) قانوناً يحرم بيع

= الفلسطينية ، القضية الفلسطينية والخطر الصهيوني ، بيروت ، ١٩٧٣ ، ص ٤٧-٤٨ . هذا وطبقاً للكاند الإداري في الدولة العثمانية ، كانت الولاية يرأسها وال ، والولاية مقسمة إلى ألوية ، على كل منها لواء أو متصرف ، واللواء مقسم إلى أقضية وعلى كل منها قائمقام ، والقضاء إلى نواح ، والتاحية تنتظم عدداً من القرى .

(١) يلاحظ أن بعض الولايات من ناحية أخرى كانت تتبعها عدة متصرفيات : كولاية حلب التي كانت تتبعها متصرفيات : الرها ، ومرعش ، ودير الزور في بعض الأوقات ، ثم أصبح يطلق على بعض المتصرفيات اسم «اللواء» ، ويدير اللواء «متصرف» .

(٢) أنشأ جماعة بنى موسى أحد هاعام . وكان عدد كبير من أعضاء هذه الجماعة من قادة حركة محبي صهيون . وزار أحد هاعام فلسطين مرتين . وقد تمت أول زيارة له في سنة ١٨٩١ نيابة عن لجنة أوبسا ، ثم زارها مرة أخرى في سنة ١٨٩٣ . وكان من أشد المتحمسين لشراء أراضٍ عربية في فلسطين ، وتوطين اليهود فيها ، كما نادى بالتركيز على الأعمال الثقافية . ولم تنشأ جماعة بنى موسى طويلاً : إذ حلت سنة ١٨٩٦ بسبب تضارب الآراء والنزاع بين شخصياتها .

أراضى الحكومة إلى اليهود بكافة جنسياتهم ، حتى ولو كانوا رعايا عثمانيين ^(١) .

المستعمرات الصهيونية الأولى :

على الرغم من الحظر الذى فرضه السلطان عبدالحميد الثانى على هجرة اليهود إلى فلسطين ، استطاع عشرون شاباً من يهود روسيا الوصول إليها عام ١٨٨٢ ، كانوا رواداً فى ميدان التوطين والاستغلال . وكانت أول مستعمرة تدعى «ريشون لوزيون» Richon Le Zion أى الأولى فى صهيون ، ثم تعاقب إنشاء مستعمرات مشابهة بجوار يافا ، ثم قام يهود روسيون آخرون بإقامة مستعمرة «بتاح تكفا» أى باب الأمل فى ذات المنطقة ^(٢) ، وفى الوقت ذاته أسس يهود من رومانيا مستعمرين زراعتين إحداهما فى «ريش بتاح» (الحجر الأساسى) بالقرب من صفد ، والأخرى فى سامارين على طريق حيفا ، وقام بعض يهود من بولندا بإنشاء مستعمرة بيسود حمالاه (أساس الصعود) بالقرب من الحولة . وعلى هذا النحو استقر اليهود فى وقت قصير فى أربع مناطق : يهودا ، والسامرة ^(٣) ، وشمال الجليل وجنوبه حيث تجمعت فيها أغلب المستعمرات اليهودية ، ولم يكن أمراً سهلاً إنشاء هذه المستعمرات ويقاؤها لأن هؤلاء اليهود وغالبيتهم من دول أوروبية لم يعتادوا الجهد البدنى ، الذى تتطلبه فلاحه الأرض وموالاته العناية بها ، كما كان الجو الحار نسبياً عائقاً لهم ، وكانوا يتعرضون لهجمات العرب من وقت لآخر كإجراء مضاد للنشاط اليهودى .

التحويل المالى الأوروبي للمستعمرات :

كان من المحتمل أن يفشل مشروع المستعمرات اليهودية فى فلسطين فى أواخر القرن التاسع عشر ، لأنها -بجانب هذه العوامل المعوقة - كان المشروع فى حاجة ماسة إلى جهات مالية تقوم بتمويله . وقد وجد أولئك اليهود مساعدات مالية من ثرى يهودى فرنسى هو البارون إدموند دى روتشيلد (١٨٤٥-١٩٣٤) ، الذى ظل يوالى هذه المستعمرات بتقديم منح سخية طيلة خمسين عاماً ، كما أسس مستعمرة تدعى عكرين فى الضفة الغربية لنهر الأردن ، أسكن فيها بعضاً من اليهود الذين تسالوا من جنوبى روسيا . وقد أظهر هؤلاء اليهود وفاءهم لكرم هذا الثرى فغيروا اسم مستعمرتهم إلى زكرون يعقوب تخليداً لذكرى والد البارون إدموند . وفى الوقت ذاته ، قام تسعة من أعضاء ريشون لوزيون بإنشاء مستعمرة جديدة ،

(١) دكتور محمود صالح منشى ، مرجع سبق ذكره ، ص ٨٤ .

(٢) كان يهود القدس قد أسسوا هذه المستعمرة قبل ذلك بعدة سنوات ، ولكنهم غادروها لظهور الملايا بها ، ثم عادوا إليها بعد ذلك .

(٣) يهودا مصطلح عبرى معناه الجزء الجنوبي من فلسطين ، وسامرا مصطلح عبرى أيضاً معناه الجزء الشمالى منها . ويرد هذان المصطلحان فى بعض المراجع : يهودية وسامرية .

سميت قطرة Katra أو جدارة Gederah في يهودا ، وجعلوها ذات اكتفاء ذاتي ^(١) .

ومضى البارون إدموند دي روتشيلد في تمويل عمليات التمسك اليهودي إلى فلسطين؛ ابتغاء توطين اليهود فيها ، على الرغم من الحظر الذي أقامه الباب العالي على دخول اليهود إلى فلسطين . وفي الفترة من ١٨٩٠ إلى ١٨٩٥ تم إنشاء خمس مستعمرات أخرى ، وكانت مستعمرة حديدية هي أهم هذه المستعمرات ، وكانت المنطقة التي أنشئت فيها في السامرة مليئة بالمستنقعات ومات كثيرون من اليهود بسبب الملاريا . وقام المهاجرون بتخفيف المستنقعات وغرسوا فيها عدداً كبيراً من شجر الكافور ، وأصبحت صالحة للزراعة واستغلت الأراضي في زراعة القمح وأنتجت محاصيل وفيرة منه ، كما زرع عنب النبيذ الفرنسي بإشراف خبراء .

وفي الجليل زرع البساتين وأشجار توت دودة القز وأقيمت عدة مخايين كثيرة للنبيذ لتعتيقه في مستعمرة ريشون لوزيون ، وكان البارون إدموند دي روتشيلد يشتري في معظم الأحوال النبيذ كله لحسابه ، وأنشأت جماعة من محبي صهيون شركة نبيذ الكرمل سنة ١٨٩٦ ونجحت نجاحاً بعيداً في تسويقه في أوروبا وأمريكا وبلاد الشرق . والواقع أن معظم المستعمرات كانت تركز نشاطها الزراعي في إنتاج الكروم ، ولم تكن المعونات المالية التي كان يقدمها البارون إدموند دي روتشيلد مقصورة على الإسكان ، بل شملت أيضاً بناء المعابد والمدارس والمستشفيات والملاجئ للطاعنين في السن ^(٢) .

تفسير قيام المستعمرات الصهيونية الأولى :

وكان مما ألهم قلوب اليهود حماساً لقضيتهم وتصميماً على الهجرة إلى فلسطين نداء بعنوان «التحرر الذاتي Auto-Emancipation» ، وجهه سنة ١٨٨٢ ليون بنسكي Leon Pinsker ، وهو طبيب روسي من أودسا صور فيه الإذلال والبؤس واليأس ، الذي تعرض له يهود روسيا عقب مقتل إسكندر الثاني قيصر روسيا عام ١٨٨١ ، وقال في ندائه إن حالة الانحطاط التي تدهور إليها اليهود ، إنما ترجع إلى أن الشعب اليهودي لم يعد شعباً حياً ، بل أصبح اليهود أجانب أينما حلوا ، مشفقين في كل مكان حتى أنهم غدوا محقرين . ورأى أن العلاج الصحيح الوحيد هو إنشاء قومية يهودية في أرضها الخاصة بها . وهذا هو التحرر الذاتي لليهود ، تحررهم كافة بين الأمم بتجميع اليهود في دولة خاصة بهم ، واشترط - لكي يظلوا في دولتهم الجديدة أبداً الأبدن ؛ حتى لا يضطروا إلى الانتقال من مهجر إلى مهجر - أن تكون الدولة المرتبة من الانتماء وتعدد الموارد الطبيعية والاقتصادية فيها بحيث تكفي جموع اليهود . وفي هذه الدولة يتعارف رجال العلم والمال والسياسة على النهوض بها قديماً ، وكان

(١) دكتور حسن مبري الخولي ، رسالة دكتوراة تحت إشرافنا ، مرجع سبق ذكره ، ج ١ ، ص ٢٩-٣٠ .

(2) Cohen Israel, A Short History of Zionism, London, 1951, p. 28.

ينسكز مشدوداً بعقله وعاطفته إلى فلسطين كى تكون الدولة القومية المنشودة ، واقترح تكوين شركة يهودية تجمع بين أعضاء مجلس الإدارة وأثرياء اليهود ، تشتري مساحات شاسعة من الأراضي فى فلسطين ، ثم تقسم قطعاً صغيرة وتباع بثمن أغلى من ثمنها الأصلي بقدر قليل تشجيعاً لليهود على شرائها وتقديم تسهيلات لهم ، وتستخدم المبالغ المتحصلة من بيع الأرض مضافاً إليها التبرعات المالية التى يقدمها أثرياء اليهود ، ويتكون من حصيلة هذه وتلك صندوق لإسكان المهاجرين الفقراء .

وبجانب هذه الوسائل العملية .. أتجه التفكير السياسى لى ينسكز إلى إيجاد نوع من الحصانة السياسية للدولة اليهودية ، المرتجاة عن طريق موافقة الحكومات الأوروبية وغير الأوروبية على إنشاء الدولة اليهودية فى فلسطين ، ثم قيام هذه الحكومات بتقديم المساعدات فى شتى صورها وأشكالها إلى الدولة اليهودية فى فلسطين^(١). وكان هذا النداء بما تضمنه من حلول عملية وآراء سياسية خطة عمل لزعماء الصهيونية وحافظاً لليهود العالم على تركيز الهجرة اليهودية إلى فلسطين على الرغم من وقوف السلطان عبد الحميد الثانى فى وجهها، كما أن هذا النداء يفسر قيام المستعمرات الصهيونية الأولى فى فلسطين بما عرف عن اليهود من تعدد الوسائل والحيل والموارد والأنصار والتحاييل على للقانون لتحقيق أهدافهم .

المؤتمر الصهيونى الأول عام ١٨٩٧ :

على هذا النحو عاصرت الدولة العثمانية مولد ثم نشأة الحركة الصهيونية . وقد أشدت ساعد هذه الحركة بعقد المؤتمر الصهيونى الأول فى مدينة بال بسويسرا الذى نذادى إلى عقده تيودور هرتزل Theodor Herzl الصحفى النمساوى اليهودى .

واستمرت جلسات المؤتمر ثلاثة أيام هى ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ من شهر أغسطس - آب - عام ١٨٩٧ ، وحضره ما يقرب من مائة وخمسين مندوباً من اليهود جاءوا من مختلف أنحاء العالم . واتخذ المؤتمر عدة قرارات هامة يطلق عليها برنامج بال ، ويتضمن إنشاء دولة يهودية فى فلسطين تجمع شتات اليهود من أنحاء العالم ، وإنشاء المنظمة الصهيونية العالمية وتقرية الروح للقومية اليهودية ، والاهتمام بتدريس ونشر اللغة العبرية بين جميع يهود العالم ، وإنشاء معهد عال للدراسات العبرية فى بيت المقدس أو يافا يهتم بدراسة الأدب العبرى والتاريخ العبرى .

وفى هذا المؤتمر ، وضع شعار العلم الرسمى للدولة اليهودية المرتجاة ونشيد قومى لها، كما تقرر أن يدفع كل يهودى يعتنق مبادئ الحركة الصهيونية مبلغاً زهيداً كل سنة ، حددت قيمته بشكل واحد^(٢) . وبعد عقد المؤتمر الصهيونى الأول توالى عقد المؤتمرات الصهيونية

(١) دكتور حسن صبرى الضولى ، رسالة بكتواره تحت إشرافنا ، مرجع سبق ذكره ، ج ١ ، ص ٢٦-٢٨ .
(٢) الشيكل Shekel عملة يهودية كانت تعادل شلنتين وستة بنسات . وتستخدم هذه اللفظة أيضاً للتعبير من وحدة فى الموازين فى المجتمع اليهودى ، وهى تعادل نصف رطل ، والكلمة مشتقة من اللغة العبرية «شكال» .

بصفة رئيسية سنوياً أول الأمر ثم مرة كل سنتين . وسرعان ما اتسع نطاق الحركة الصهيونية واشتد ساعدها ، وبخل زعمائها وأقطابها في اتصالات مختلفة الصور والأشكال مع الحكومات الأوروبية لمساندتها في تنفيذ برنامج بال ، وهكذا تطورت أطماع اليهود : فبعد أن كانوا ينطلقون إلى الإقامة في فلسطين والاستقرار تحت الحكم العثماني .. قفزت أطماعهم إلى الاستيلاء على فلسطين وإقامة دولة عنصرى فيها ، وجاء مؤتمر بال الأول فرفع آخر حجاب عن وجه اليهود^(١) .

السلطان عبد الحميد يواجه زعيماً صهيونياً خطيراً :

كان من نتائج المؤتمر الصهيوني الأول أن وجد هرتزل نفسه يتزعم قولا وعملا حركة سياسية عنصرية هي الحركة الصهيونية ، وقد نصبه هذا المؤتمر رئيساً للمنظمة الصهيونية العالمية^(٢) . Z.W.O. وكان على السلطان عبد الحميد أن يواجه في خلال الثلاث عشرة سنة التى تيقنت له في الحكم منذ عقد مؤتمر بال الأول ، حتى تم عزله (١٨٩٧-١٩٠٩) المؤامرات الصهيونية والمنظمات الصهيونية لتهديد فلسطين كخطوة أولى لإقامة الدولة اليهودية فيها . ولذلك .. فإن دراسة موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية تتصل اتصالاً وثيقاً بتاريخ هذا السلطان ، الذى تصدى لها بكل ما أوتى من عزيمة ودبلوماسية ؛ مما أضاف إلى أعبائه في الحكم وفي مواجهة الزحف الاستعماري الأوروبي على ممتلكات الدولة أعباء ثقلاً جديدة في مواجهة الصهيونية العالمية .

كان هرتزل من أخطر زعماء الصهيونية في العالم .. تميز تفكيره السياسى بالمرونة والحصافة ، وتعدد الجوانب فضلاً عن حذقه التضليلي والخداع والنفاق . كان إذا سد في وجهه طريق سلك طريقاً آخر ، وإذا تخلت عنه دولة أوروبية كبرى كان يعلق عليها آمالاً كبيراً في مساعدة الحركة الصهيونية اتجه إلى دولة أخرى من الدول العظمى . وكان يسعى سعياً حثيثاً لحشد أكبر عدد ممكن من الدول لمناصرة حركته أو العطف عليها أو عدم الوقوف منها موقفاً سلبياً ، وفوق هذا كله وضع في مخططة الاتصال بالسلطان عبد الحميد الثاني . وكان يظهر في تفكيره السياسى أخلاق اليهودى اللع . فهو يتخذ من المال وسيلة لإغراء السلطان على الإذن في إنشاء الدولة اليهودية المرتجاة في فلسطين ، زاعماً له أن الحركة الصهيونية هي دعوة إنسانية سلمية لا تنطوى على أى أخطار تهدد الدولة العثمانية . وأكد له كذباً وزوراً أن الصهيونيين يكونون ولاء للدولة العثمانية ولسلطانها ، وأن المنظمة الصهيونية اعترضت على كل نسل يهودى ، مهما كان ضئيل الحجم إلى فلسطين دون موافقة السلطة صاحبة السيادة على البلاد وهي الدولة العثمانية . وأكد له أن فوائد جمعة ستجنحها الدولة العثمانية ، إذا أذنت لليهود في إقامة دولة ذات حكم ذاتى في فلسطين ؛ لأن اليهود عنصر نشيط دعوب على العمل يحترم

(١) أنيس صايغ : الهاشيميين وقضية فلسطين ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٢ .

(٢) تستخدم هذه الحروف الثلاثة من قبيل الاختصار بديلاً لهذه العبارة

القانون ، له خبرات واسعة وعميقة في شتى ميادين العلم ومجالات العمل . كما أن أنثرياء اليهود على استعداد لسحب رؤوس أموالهم من البلاد ، التي يقيمون فيها ونقلها إلى فلسطين لاستخدامها في استغلال موارد البلاد الاقتصادية . وفي ثانيا الحديث ، عرض على السلطان تقديم معونات مالية ضخمة ، تساعد على تدعيم المركز المالي للحكومة العثمانية ، في وقت كانت موازنة الدولة تعاني عجزاً يعكس أزمات مالية عنيفة تهدد بانهايار الاقتصاد العثماني .

اتساع نطاق الحركة الصهيونية :

اتسع نطاق الحركة الصهيونية في خلال سنة واحدة - وهي الفترة التي انقضت منذ عقد مؤتمر بال الأول إلى اجتماع مؤتمر بال الثاني : أغسطس - آب ١٨٩٧ وأغسطس ١٨٩٨ - وكانت سكرتارية المؤتمر الأول قد نشرت كتيبات باللغات الأوروبية توضح أهداف الحركة الصهيونية ، كما نشرت نسخاً منها باللغات العربية والعبرية والفرنسية لتوزيعها على يهود الشرق . وسرعان ما أسست في هذه الفترة جمعيات صهيونية جديدة ، بلغ عددها سبعمائة وثمان وثلاثين جمعية في الدول الأوروبية ، وأسس يهود مصر جمعيتين ويهود أمريكا خمسين جمعية . وكان يهود روسيا أكثر يهود أوروبا تقبلاً للحركة الصهيونية ، وكان ياليهم يهود النمسا ثم يهود رومانيا .. أما في أمريكا فكانت نيويورك معقلاً للحركة الصهيونية منذ هذا الوقت المبكر؛ إذ تأسست في هذه المدينة وحدها ست وعشرون جمعية صهيونية ، كما تكونت في شيكاغو ثماني جمعيات ، وتوزعت بقية الجمعيات على سائر المدن الأمريكية .

ومن أهم المؤتمرات الصهيونية ^(١)، المؤتمر الصهيوني الخامس في مدينة بال ، وقد عقد في الفترة من ٢٦ إلى ٣٠ ديسمبر - كانون أول - عام ١٩٠١ ، وتم فيه إقرار قانون النظام الأساسي للمنظمة الصهيونية . وبمقتضى هذا القانون أصبح عقد المؤتمرات الصهيونية يتم مرة كل سنتين بدلاً من اجتماعها السنوي ، على أن تستمر اجتماعات اللجان التنفيذية عن المؤتمرات الصهيونية ، كما تقرر جواز إنشاء جمعيات صهيونية في أي منطقة؛ إذا طلب ذلك خمسة آلاف صهيوني ممن يدفع كل منهم شيئاً واحداً وهو الاشتراك السنوي .. وقرر هذا المؤتمر تقديم إعانة مالية لدار الكتب القومية اليهودية في بيت المقدس .

وقد زخرت هذه المكتبة بعدد من المصادر والمراجع والدوريات ، وأصبحت فيما بعد نواة المكتبة العامة للجامعة العبرية في بيت المقدس والتي شيد لها مبنى خاص عند إنشاء مباني الجامعة ، كما قرر المؤتمر الشروع في وضع دائرة معارف يهودية وإنشاء مكتب لشؤون الإحصاء ، وقرر أيضاً أن تعليم الشعب اليهودي على أسس قومية هو أحد العناصر الرئيسية في البرنامج الصهيوني . وأهاب المؤتمر بجميع الصهيونيين أن يعمل كل منهم في دائرته ؛ لتحقيق هذه الغاية .

(١) دكتور حسن صبري الخولي ، رسالة دكتوراه تحت إشرافنا . مرجع سبق ذكره ، ج ١ ، ص ٧٥ .

تجديد فرض القيود على هجرة اليهود إلى فلسطين عام ١٩٠٠ :

وصل إلى علم السلطان عبدالحميد أن أفواجا من اليهود لانتزال تتعاقب على فلسطين ؛ إذ كان قناصل بعض الدول الأوروبية في فلسطين يتدخلون لصالح اليهود ، مستغلين قيام نظام الامتيازات الأجنبية ، ولأن اليهود كانوا يصطنعون بعض الوسائل للتحايل على القانون . ورأى السلطان منع هذا التدفق اليهودي على فلسطين ؛ فأصدر في نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٩٠٠ ، فرماناً يحدد إقامة الزائرين اليهود لفلسطين بمدة لا تتجاوز ثلاثة أشهر . وعلى الرغم من أن السلطان كان قد أصدر فرماناً على غرارہ سنة ١٨٨٧ ، ثارت ثائرة اليهود على فرمان عام ١٩٠٠ ودفعوا بعض الحكومات الأوروبية وغيرها إلى الاحتجاج عليه لدى السلطان . فأبلغت الحكومة الإيطالية الباب العالي أنها لا تميز بين رعاياها المسيحيين ورعاياها اليهود ، ومن ثم فهي تحتج على صدور هذا فرمان . وتلاها السفير الأمريكي الذي قدم في اليوم الثامن عشر والعشرين من شهر فبراير - شباط - عام ١٩٠١ احتجاجاً مماثلاً باسم حكومته ، وكذلك نهجت الحكومة البريطانية هذا النهج . وكان رد الباب العالي أن فرمان سنة ١٩٠٠ ليس أمراً جديداً فهو تجديد لفرمان سابق مماثل .

ورأى السلطان عبدالحميد كى يخفف من حدة هذه الاحتجاجات ، أن يقابل في قصره هرتزل زعيم الحركة الصهيونية . وتمت المقابلة في اليوم السابع عشر من شهر مايو - آيار - عام ١٩٠١ ، وكان معه اثنان من أقطاب الحركة الصهيونية ثم قابله السلطان مرتين آخرين ، وعرض هرتزل على السلطان مشروعاً صهيونياً خطيراً . ويلاحظ أنه كان يتلاعب بالالفاظ ليخفي حقيقة أغراضه .. اتبع السياسة المرنة فكان يتكلم تارة عن الدولة اليهودية في فلسطين ، وتارة أخرى عن الوطن القومي اليهودي في فلسطين ، وتارة ثالثة يتكلم عن الكيان اليهودي في فلسطين ؛ مما يدل على أنه كان كاذباً مخادعاً منافقاً يتبع الازدواجية في أسلوب العمل .

مشروع صهيونى يعرضه هرتزل على السلطان :

وصلت المباحثات بين السلطان عبدالحميد الثانى وهرتزل إلى جوهر الموضوع . فعرض الأخير أن يصدر السلطان فرماناً بالسماع لليهود الأجانب بالهجرة إلى فلسطين والوطن فيها ومنحهم قسماً وافراً من الحكم الذاتى ، وأن يدفع اليهود - عند صدور فرمان - مبلغاً كبيراً من المال قدر بثلاثة ملايين من الجنيهات ، وقدرته بعض المراجع بمليونى جنيه . ثم يقومون بعد ذلك بدفع جزيرة سنوية للدولة . وكان المشروع الصهيونى يقوم فى خطوطه الأساسية وفق النظام المعمول به فى جزيرة ساموس (١) ، وهى جزيرة يونانية من جزر إيجه كان قد أسهم عدد

(١) بلغ عدد سكان هذه الجزيرة فى الحرب العالمية الأولى ٤٨,٦٠٠ نسمة .

دكتور حسن مبرى الخولى ، مرجع سبق ذكره ، ج ١ ، ص ٧٤ .

كبير من سكانها في الكفاح المسلح ، الذي خاضه اليونانيون من أجل استقلال بلادهم عن الدولة العثمانية في العشرينيات من القرن التاسع عشر . ولما قررت بريطانيا وفرنسا والروسيا في سبتمبر - أيلول - عام ١٨٣١ منح اليونان الاستقلال التام ، وأن تمتد حدود المملكة اليونانية من خليج أرثا Artta إلى فولا Vola ، ظلت جزيرة ساموس خارجة عن نطاق المملكة اليونانية المستقلة الوليدة . وبناء على تدخل بريطانيا وفرنسا والروسيا أصدر السلطان محمود الثاني فرماناً في اليوم الحادي عشر من شهر ديسمبر - كانون أول - عام ١٨٣٢ ، قرر فيه منح سكان جزيرة ساموس الحكم الذاتي ، ونص الفرمان على أن يتولى حكمها أمير مسيحي له جيشه الخاص وعلمه الخاص ومجالس الإدارة المحلية ، على أن يدفع هذا الحاكم اليوناني للدولة العثمانية جزية سنوية قدرها ثلاثمائة ألف قرش (١) .

كان السلطان عبدالحميد الثاني أدهى من أن يستجيب لهرتزل ، وكان في خلال مقابلاته مع هرتزل مستمعاً أكثر منه متكلماً . وكان يرخي لهرتزل في حبال الكلام ليجعله يصرح بكل مافي جعبته من آراء ومشروعات ومطالب ، ويتظاهر العاهل العثماني بمصاييرته مما جعل هرتزل يعتقد أنه على وشك النجاح في مهمته ، ثم يتبين له في نهاية الأمر أنه في جهوده مع السلطان عبدالحميد يسير في طريق مسدود . سئل مرة جمال الدين الأفغاني عن رأيه في هذا السلطان وكان يجالسه كثيراً ، فقال «إن السلطان عبدالحميد لو وزن بأربعة من نوابغ رجال العصر لرجحهم : ذكاء ودهاء وسياسة ، خصوصاً في تسخير جلسه ... ولا عجب إذا رأيناه يذلل مابقاء في ملكه من الصعاب من دول الغرب ، ويخرج المناوئ له من حضرته راضياً عنه وعن سيرته مقتنعاً بحجته ، سواء في ذلك الملك والأمير والوزير والسفير ...» (٢) .

وبعد أن استقبل السلطان هرتزل ثلاث مرات رفض أن يقابله بعد ذلك وأنعم عليه بالنيشان المجيدي ، ويعترف هرتزل بأنه هو الذي التمس من السلطان أن يمنحه وساماً من رتبة رفيعة . وكان هدفه من هذا الالتماس هو خداع الذين يتصلون به ، فقال في يومياته «إذا رفض السلطان أن يستقبلني فليعطني على الأقل دليلاً مرئياً على أنه بعد أن استمع إلى اقتراحاتي ورفضه ، فإنه لا يزال يريد أن يبقى على نوع من العلاقة بيننا : مثلاً وساماً من رتبة عالية يبرهن على هذا ... إنني لم أهتم يوماً بالأوسمة ، ولا أهتم بها الآن . ولكني أريد شاهداً أمام من

(١) يذكر تقيل برير أن هرتزل عرض على السلطان تقديم مبلغ كبير من المال ، في مقابل أن يصدر السلطان فرماناً لشركة أراض يهودية للاستيطان في فلسطين وتطوير الزراعة فيها تمهيداً لإقامة جمهورية أرستقراطية على غرار جمهورية البندقية السابقة ، انظر :

Nevil Barbour, Nisi Dominus, A Survey of the Palestine Controversy, London, 1946, pp. 45-48.

(٢) أحمد أمين : زعماء الإصلاح في العصر الحديث ، الطبعة الثالثة القاهرة ، ١٩٧١ ، ص ١٢٥ .

أتعامل معهم في لندن على أنني حزت قبولاً لدى السلطان»^(١) .

ومع ذلك فإن للصبر حدوداً . وضاق السلطان عبد الحميد ذرعاً بالضغط المتواصل الذي مارسه هرتزل على الحكومة العثمانية ؛ من أجل فتح أبواب فلسطين للهجرة لليهودية . وكان هرتزل قد عهد إلى أحد عملائه واسمه نفلنسكى Newlinsky بأن يعرض على السلطان رشوة بمبلغ مليوني جنيه مقابل الحصول على فلسطين^(٢) ، فأراد السلطان أن يحسم الموقف بصفة قطعية .. فأدلى إلى هذا الوسيط بتصريح كان من القوة والصد والخطورة ماجعل هرتزل يدونه في مذكراته ، وكان مما جاء على لسان السلطان «انصحوا هرتزل بالابتعاد عن خطوات جديفة في هذا الموضوع . إنني لا أستطيع أن أتخلى عن شبر واحد من الأرض . فهي ليست ملك يميني ، بل ملك شعبي ، لقد ناضل شعبي في سبيل هذه الأرض ، ورواها بدمه ، فليحفظ اليهود بملايينهم . وإذا مزقت إمبراطوريتي يوماً فإنهم يستطيعون أنذاك أن يأخذوا فلسطين بلائهم ، أما وأنا حتى فإن عمل المبعض في بدني لأهون علي من أن أرى فلسطين قد بترت من إمبراطوريتي .. وهذا أمر لا يكون ، إنني لا أستطيع الموافقة على تشريح أجسادنا ونحن على قيد الحياة»^(٣) .

لقد كان في حكم الاستحالة أن يستجيب السلطان عبد الحميد لإغراءات الصهيونيين المالية ؛ لأن مثل هذه الاستجابة تتعارض تعارضاً جذرياً مع سياسة الجامعة الإسلامية ، التي تنادى إليها واحتضنها وغدت تشكل ركناً أساسياً في سياسته الإسلامية واستهدف منها استقطاب العالم الإسلامي؛ للوقوف إلى جانبه في وجه الزحف الاستعماري الأوروبي على الدولة .. فإن خضوعه للإغراءات المالية التي يلوح بها الصهيونيون له كان يعد انتحاراً سياسياً لعبد الحميد وتناقضاً صارخاً لسياسة الجامعة الإسلامية .

عقد أول مؤتمر صهيوني في فلسطين سنة ١٩٠١ :

ومن أخطر المجالات التي امتد إليها النشاط الصهيوني في عام ١٩٠١ اجتماع أول مؤتمر صهيوني في فلسطين ، وكان الهدف منه أن يكون صورة أخرى من صور مؤتمر بال . وقد أعد له مناجم أوسكين Ussikkin Menachem Mendel (١٨٦٣-١٩٤١) ، وهو أحد أقطاب الصهيونيين روسي السولد والنشأة ، وأقام بعض الوقت في ثغر أودسا ، وكان هذا الثغر مقراً لنشاط صهيوني مكثف .

(١) دكتور أحمد طربين : فلسطين في خطط الصهيونية والاستعمار (١٨٩٧-١٩٢٢) من مطبوعات معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٧٠ ، ص ٥٦-٥٧ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٤٩ .

(٣) صالح مسعود أويصير : جهاد شعب فلسطين خلال نصف قرن . رسالة ماجستير في التاريخ الحديث تحت إشرافنا ، الطبعة الأولى ، بيروت ، ١٩٦٨ ، ص ٣١ .

اجتمع المؤتمر في مستعمرة «زخرون يعقوب» ، واستهدف تنظيم وتوحيد صفوف يهود فلسطين ، بعد أن لوحظ أن الانقسام بين أفراد الطائفة اليهودية كان حاداً وعنيفاً . وقد وضع المؤتمر تنظيماً يضم جميع يهود فلسطين ممن بلغ كل واحد منهم الثامنة عشر عاماً ، وأن يدفع كل عضو اشتراكاً سنوياً حدد بفرنك واحد ، وأن يجتمع المؤتمر مرة كل سنة ، وأن يتم اختيار أعضاء المؤتمر بالانتخاب ، فتقوم كل مجموعة من السكان قوامها خمسون يهودياً بانتخاب مندوب عنها يمثلها في المؤتمر ، وقسمت فلسطين إلى ستة أقسام ^(١) ، وتقرر تشكيل عدة لجان تنبثق عن المؤتمر وتعمل طوال العام بصفة رتيبة .

الدولة تمنع عقد مؤتمرات صهيونية في فلسطين :

كان عقد هذا المؤتمر الصهيوني في فلسطين بمثابة عملية جس نبض ، قام بها الصهليون ليتبينوا موقف الدولة العثمانية من فكرة عقد مؤتمرات صهيونية في فلسطين بدلاً من العواصم الأوروبية . ولاشك أن عقد هذه المؤتمرات داخل فلسطين كان يعد كسباً معنوياً للحركة الصهيونية ، وشدا لليهود قاطبة إلى فلسطين بصفتها أرض الميعاد التي تجذبهم دينياً ، وبصفتها أرض الخلاص التي تستقبلهم سياسياً لإقامة دولة فيها تقيم شروط الاضطهاد ، وفيها أيضاً قضاء على ما يسمى «البديل الإقليمي» Territorial Alternative ؛ أي طالما كانت الدولة العثمانية تضع العراقيل أمام هجرة اليهود إلى فلسطين .. فلا مناص من اختيار إقليم بديل يكون موطناً للدولة اليهودية المرجاة ، وكان من بين الأقاليم البديلة : سنياء ، أو قبرص ، أو المحمية البريطانية في شرق إفريقيا ، أو الأرجنتين ، أو إكوادور ، أو بيرو ، أو أستراليا ، أو غينيا الجديدة ، أو جزيرة مدغشقر .

نتبه الباب العالي إلى أنه أمام امتحان سياسي خطير ؛ فالصهيونيون يمدون نشاطهم في عقد المؤتمرات إلى داخل فلسطين ، وكان عقد مؤتمرهم الأول فيها سنة ١٩٠١ سابقة يدرجون عليها في السنوات التالية . ولذلك قرر الباب العالي وقف هذا النشاط الصهيوني السياسي الدولي في فلسطين ، فلم ينعقد المؤتمر بعد ذلك في فلسطين ولم تجتمع لجانه ، وإن ظل الصهليون يواصلون عقد مؤتمراتهم في عواصم أوروبا .

(١) كانت هذه الأقسام الستة على النحو التالي :

- (أ) بيت المقدس ، والخليل ، ومتسة ، وعربطوف .
- (ب) المستعمرات حول الرملة .
- (ج) يافا ، يتاج تكفاء .
- (د) الناصرة ، وطبرية ، والمستعمرات القائمة في هذه المنطقة .
- (هـ) الحسبة ، وزخرون يعقوب ، وحيفا .
- (و) صفد ، ومستعمرات الجليل .

مشروعات صهيونية لغزو فلسطين مالياً وبشرياً :

على الرغم من جهود السلطان عبدالحميد للحد من الهجرة اليهودية إلى فلسطين ، مضت الحركة الصهيونية ، تمارس وضع خططها في أوروبا لتنفيذها في أرجاء فلسطين بإنشاء أجهزة ، تتولى عمليات شراء الأراضي العربية وتمويل عمليات الشراء وتوزيع الأراضي على فقراء المهاجرين ابتغاء زيادة كثافة السكان اليهود . ولم تعبأ بقيود السلطان عبدالحميد ؛ إذ كانت تعلم علماً يقينياً بالمشكلات التي تثيرها في وجهه الدول الأوروبية والشعوب المسيحية الخاضعة للدولة ، وكان هذه الدول والشعوب كانت على اتفاق وموعد مع أقطاب الحركة الصهيونية لتصعيد الأزمات أمام السلطان ، حتى تستطيع الحركة الصهيونية التسلل بأجهزتها ومشروعاتها إلى فلسطين في غفلة عن السلطان . وكان من بين الأجهزة الصهيونية التي تبسّلت لولاً إلى فلسطين : منظمة الاستعمار اليهودي في فلسطين ، وقد أنشأها المليونير اليهودي إدموند روتشيلد سنة ١٨٨٢ ، ولكنهم لم تعلن رسمياً إلا في عام ١٩٠٠ ، وكانت تقدم الأموال لليهود الراغبين في الهجرة إلى فلسطين ، وتشتري لهم الأراضي وتنشئ المستعمرات ، وقد أنشأت اثنتين وأربعين مستعمرة هي أقدم المستعمرات اليهودية في فلسطين .

وأنشئ في عام ١٩٠١ الصندوق القومي اليهودي - كيرن كايبت - Keren Hayesod ، ويتكون رأس ماله من التبرعات والإعانات والصدقات ، ووزعت صناديق التبرعات بكثرة ملحوظة في معابد اليهود وأنديتهم ومدارسهم ومكاتبهم في جميع أنحاء العالم . وتأسس سنة ١٩٠٢ بنك أنجلو - فلسطين في لندن ، وأنشئ أول فرع له في القدس سنة ١٩٠٣ ، ثم امتدت فروعه إلى أكثر مدن فلسطين . وعلى الرغم من أنه بنك صهيوني ، لم يكشف عن طابعه الصهيوني مما ساعده على القيام بدور هام لخدمة الصهيونية ، وكان يمد المستعمرات والشركات والمؤسسات الصهيونية بالأموال والقروض ، ويتلاعب باقتصاديات العرب ، وهو اليوم البنك الرئيسي لإسرائيل (١) .

عبدالحميد يرفض إنشاء جامعة عبرية في فلسطين :

وقف السلطان عبدالحميد الثاني في وجه مشروع صهيوني سياسي ، أضفت عليه الصهيونية ثوباً ثقافياً هو إنشاء جامعة عبرية في بيت المقدس ، استهدفت منه استقطاب عدد كبير من الأساتذة اليهود في جامعات العالم والباحثين اليهود إلى فلسطين لتكون هذه الجامعة دعامة علمية للدولة اليهودية المرتجاة في فلسطين ، ووسيلة للتسلل الثقافي الصهيوني على أعلى المستويات إلى فلسطين .

(١) دكتور حسن هبيري الخولي ، رسالة دكتوراه تحت إشرافنا ، مرجع سبق ذكره ، ج ١ ، ص ١٠٣-١٠٤ .

كان نيردور هرتزل قد تقدم إلى السلطان عبد الحميد الثاني بمذكرة مؤرخة في اليوم الثالث من شهر مايو - آيار - عام ١٩٠٢ ، طلب فيها أن يأذن له في إنشاء جامعة عبرية في بيت المقدس ، تفتح أبوابها للطلبة العثمانيين ، بدلاً من إيفادهم في بعثات علمية إلى الجامعات الأوروبية ، وصور للسلطان دافعين شريفيين يكتمان وراء هذا المشروع .. كان أحدهما دافعاً سياسياً وكان الآخر دافعاً إسلامياً . أما الدافع الأول فكان حرص هرتزل الصهيوني على عدم تعريض الطلاب العثمانيين في أوروبا لأخطار الغوايات السياسية ، فيعتقدون آراء ثورية قد يطالبون بتطبيقها في الدولة بعد عودتهم من أوروبا ، وتكون الدولة أمام أحد أمرين : إما تعريض الطلبة العثمانيين لأخطار هذه الاتجاهات السياسية الثورية وإما أن تحول بينهم وبين مآهل العلم في أوروبا .

أما الدافع الثاني .. فإن الطلبة العثمانيين قد يبتعدون عن التقاليد الإسلامية ؛ بمعنى أن الحياة الخلقية المجابة التي تسود مدن أوروبا قد تفتتهم ، ومضى هرتزل يقول في مذكرته : إننا معشر اليهود نلعب دوراً هاماً في الحياة الجامعية في جميع أنحاء العالم ، والأساتذة اليهود يملأون جامعات البلدان ، كما أن هناك عدداً كبيراً من العلماء والمتخصصين في جميع الحقول التعليمية . لهذا فإننا نستطيع أن نقيم جامعة يهودية في إمبراطوريتكم ، ولكن في القدس مثلاً ، وعندئذ لن يضطر الطلاب العثمانيون إلى الذهاب إلى الخارج ، بل يبقون في بلادهم ويتلقون فيها أفضل التدريب ، وهم خاضعون لقوانين بلادهم وتقاليدها . والجامعة اليهودية تقوم بتقديم أفضل ما تقدمه أحسن الجامعات ومدارس التدريب المهني ومدارس الزراعة ، ولن تقدم مثل هذه المؤسسة إلا ما هو الأفضل ، وبذلك تقوم بدورها في خدمة العلم والطلاب والبلاد^(١) .

والواقع أن هرتزل لم يكن يهدف إلى فتح آفاق جديدة للتعليم الجامعي والمهني أمام الشبان العثمانيين ، بقدر ما كان يطمح في استدراج السلطان عبد الحميد ؛ كي يأذن في إنشاء جامعة عبرية تصفى عليها الدولة العثمانية صيغة شرعية ، وتغذيها الحركة الصهيونية بأساتذة صهيونيين وأموال صهيونية كي تغدو مركز إشعاع سياسي ثقافي صهيوني في فلسطين . ولهذا رفض السلطان عبد الحميد المشروع الصهيوني جملة وتفصيلاً ؛ لأنه رأى فيه تمكيناً للحركة الصهيونية في فلسطين .

وإذا كان هرتزل قد توفي في اليوم الثالث من شهر يوليو - تموز - عام ١٩٠٤ ، فقد ظلت فكرة إنشاء جامعة عبرية في بيت المقدس حية في نفوس أقطاب الحركة الصهيونية من بعده .. فاستطاعوا أن يضعوا الحجر الأساسي لمباني هذه الجامعة ، قبل أن تنتهي الحرب العالمية الأولى حين وفدت إلى فلسطين البعثة الصهيونية في شهر أبريل - نيسان - عام

(١) انظر نص هذه المذكرة في : وزارة الإرشاد القومي ، الهيئة العامة للاستعلامات ، ملف وثائق فلسطين .
جزمان ، القاهرة ، ١٩٦٩ ، ج ١ ، وثيقة رقم ٥١ ، ص ١٢٩ .

١٩١٨ لاتخاذ الخطوات العملية لإنشاء الوطن القومي اليهودي في فلسطين ؛ تنفيذاً لتصريح آرثر جيمس بالفور Arthur James Balfour بتشجيع الهجرة اليهودية ، وإنشاء الجامعة العبرية ، وإقامة مستعمرات جديدة لتوطين المهجرين اليهود وغير ذلك من خطوات تهويد فلسطين . وكان بالفور قد أدلى ، بصفته وزيراً للخارجية بتصريح خطير في مجلس العموم البريطاني بجلسة ١٩ من شهر نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٩١٧ جاء فيه « نرجو حكمة حضرة صاحب الجلالة أن يكون إنشاء وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين من بين نتائج الحرب الحالية (الحرب العالمية الأولى) » .

"His Majesty's Government hope that the establishment in Palestine of National Home for the Jewish people will result from the present War (١) .

وقد نجح حايم ويزمان Haim Weizman رئيس البعثة الصهيونية في الحصول على موافقة بالفور على أن تضع البعثة حجر الأساس لمباني الجامعة العبرية ، على أرض شاسعة تقع على جبل سكوبس Mount Scopus ، واشترط وزير الخارجية أن تحصل البعثة على تصريح من السلطات العسكرية البريطانية في فلسطين بإقامة مباني الجامعة في هذا المكان . ولما فاتح رئيس البعثة في شهر مايو - آيار - عام ١٩١٨ الجنرال اللنبي Allenby القائد العام للقوات البريطانية في هذا الموضوع .. لم يجده متحمساً لهذا الموضوع ، أو بتعبير أدق لهذا التوقيت على أساس أن الحرب كانت تجتاز فترة حرجة بالنسبة لبريطانيا وحلفائها . وكان الألمان قد أحرزوا انتصارات عسكرية واقتربوا من باريس ، ولم تنجح محاولات حايم ويزمان في زحزحة القائد العام عن موقفه المعارض .. إلا بعد أن أبرق الأخير إلى لندن يطلب تعليماتها ، وأبرقت له بالموافقة .

وأقيم في اليوم الرابع والعشرين من شهر يوليو - تموز - عام ١٩١٨ الاحتفال بإرساء الحجر الأساسي في مباني الجامعة . وقد وضعت أساساتها من اثني عشر حجراً بعدد أسباط بني إسرائيل ، وافتتحت الجامعة رسمياً في أول أبريل - نيسان - عام ١٩٢٥ في حفل عالمي رأسه بالفور صاحب التصريح المشهور ، وأنشئت بها تباعاً مدرسة للدراسات الشرقية ومعهد للميكروبات ومعهد للكيمياء الحيوية وأصبح المعهدان الأخيران نواة لكلية العلوم . وأنشئ أيضاً معهد للدراسات اليهودية .. وحول مستشفى روتشيلد الكبير في بيت المقدس إلى معهد للبحوث الطبية ، ثم تحول إلى كلية للطب ، وكانت هناك محطة للتجارب الزراعية يعمل فيها عدد من الاختصاصيين .. فجعلت هذه المحطة التجريبية كلية للزراعة ، وتتابع إنشاء الكليات والمعاهد وسائر مرافق الجامعة ، وتدفقت عليها التبرعات المالية والعينية مثل الأجهزة العلمية والمراجع والكتب والدوريات .

(1) Hansard's Parliamentary Debates, Vol. 99, 1917, House of Commons, Session of Nov. 19th, 1917, p. 383.

وتناولت آمال اليهود واعتقدوا أن الجامعة العبرية ستصبح عما قليل نذراً لأكبر جامعات الغرب مثل كمبريدج ولندن وباريس وهارفارد في أمريكا ، وقد ظفرت هذه الجامعة بالحرية التامة والتأييد المطلق من سلطات الانتداب البريطاني في فلسطين ، بعد أن توارت الدولة العثمانية التي حالت بكل نقلها دون تنفيذ هذا المشروع الصهيوني ، الذي يشد من أزر الحركة الصهيونية في الوقت الذي حاربت سلطات الانتداب إنشاء جامعة عربية في القدس ، وكان إنشاؤها حلماً رواد الشعب العربي في فلسطين ، وناقشته المؤتمرات العربية التي عقدت تباعاً في القدس وحيفا ونابلس وغيرها من المدن الفلسطينية . وكان من أهمها المؤتمر الإسلامي الذي عقد في القدس ليلة الإسراء (٢٦) من رجب عام ١٣٥٠ أي في شهر ديسمبر - كانون أول - عام (١٩٣١) ، ورأى ضرورة إنشاء جامعة عربية يطلق عليها جامعة المسجد الأقصى نفق بجانب الجامعة العبرية . وتكونت لجنة لجمع التبرعات ، كان من بين أعضائها وزير مصري سابق هو الأستاذ محمد علي علوية باشا ، ويذكر أن اللجنة جاست خلال البلاد العربية ثم استقلت الباخرة من ميناء البصرة إلى كراتشي في الهند .. فبلغتها في اليوم الخامس عشر من شهر مايو - آيار - عام ١٩٣٣ ، وتألقت لجان من مسلمي الهند تتولى جمع التبرعات وإرسالها إلى بنك في فلسطين ، ووعد الأمراء والوزراء بتأييد هذا العمل ودعيت اللجنة إلى مآتب رسمية أقامها نائب الملك في الهند وحكام الأقاليم الإنجليز . ثم لاحظت اللجنة بعد إقامة استطلاعات خمسة أشهر في فصل الصيف شديد القبط أنه لم يتم شيء من الوعود التي بذلت . ويقول الأستاذ علوية إن مسئولاً كبيراً أطلعته على خطاب رسمي سري من الحكومة البريطانية إلى المسؤولين في الهند جاء فيه إن رجال الوفد الفلسطيني من عليّة القوم ، وأنه يجب حسن استقبالهم والحفاوة بهم ، ولكن جمع المال لمشروعهم يعارض وسياسة الحكومة البريطانية في فلسطين^(١) . ومعنى ذلك أن إنشاء جامعة عربية في فلسطين - وهو مشروع حضاري إنساني - كانت بريطانيا تراه معارضاً لسياسة انتدابها على فلسطين ، وكان موقفها هذا مظهر آخر لتحيزها الصارخ لليهود ورغبتها في وأد أو خلق أي مشروع يدعم الكيان العربي والقومية العربية في فلسطين .

تلك هي معالم سريعة لبعض مظاهر النشاط الصهيوني الذي واجهته الدولة العثمانية ، وكان هذا النشاط يتجه أساساً إلى فتح أبواب فلسطين للهجرة اليهودية إليها واستيطانها والسيطرة على اقتصادياتها بشراء أراض زراعية وإقامة مشروعات صناعية وتجارية ، فضلاً عما يتطلبه هذا الاستعمار الاستيطاني اليهودي من إنشاء أجهزة للحكم المحلي والإدارة المحلية ، وقيام مؤسسات تعليمية وثقافية ؛ حتى يتم صبغ فلسطين بصبغة يهودية وصولاً إلى تأسيس الدولة

(١) محمد علي علوية : فلسطين والضمير الإنساني . القاهرة ، ١٩٦٤ ، من ص ١١٩-١٢٠ .

اليهودية فيها .

وقد وفقت الدولة العثمانية في وجه الهجرة اليهودية ما وسعتها المقدرة على مقاومة هذه الهجرة . ولكنها لم تنجح تماماً في منع هذه الهجرة أمام ضغط بعض الدول الأوروبية الكبرى التي التفتحت مصالحها الاستعمارية مع مصالح الصهيونية ؛ ولأن الدولة العثمانية لم تكن على درجة من القوة المادية والأدبية في المجال الدولي بحيث يتسنى لها وقف الهجرة وقفاً تاماً ، ولكنها كانت هجرة محدودة نسبياً . وكان هذا العرض التاريخي المعجل حريصاً على بيان مدى نجاح الدولة ومدى إخفاقها فيما يتصل بالحد من الهجرة اليهودية ، فقد نجح اليهود في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين في إنشاء مستعمرات ، ويلاحظ أن هؤلاء اليهود وفدوا من دول أوروبية مثل اللوسيا ورومانيا وبولندا وغيرها . وقامت بتنظيم هجراتهم ومساندتها وتمويلها هيئات صهيونية عالمية ذات نفوذ واسع في الدول الأوروبية الكبرى ، كما أن بعض هذه الهجرات كانت غير مشروعة أى غير قانونية ، إما بتهريب نفر من المهاجرين عبر الحدود واجتباب نقاط الحراسة أو رشوة الرقباء ، وإما عن طريق النزول ببواخر نزلوا غير قانوني ، وإما بدخول البلاد دخولاً قانونياً ثم البقاء فيها بعد المدة الموقعة المسموح لهم بالمكث فيها ، وإما عن طريق الزواج بيهوديات فلسطينيات أو يهوديات مقيمات إقامة دائمة ولسن بفلسطينيات .

نقطة الضعف في سياسة عبد الحميد تجاه المسألة الفلسطينية :

إن نقطة الضعف التي تسجلها هذه الدراسة على السلطان عبد الحميد الثاني ، تجاه المسألة الفلسطينية ، أنه أصدر فرمانات جزئية لصالح بعض اليهود ، وأذن لهم بمقتضاها في شراء بعض مساحات محدودة من الأرض الفلسطينية . وقد استغل اليهود على عاداتهم هذه فرمانات فأقاموا عدة مستعمرات ، أشرفت عليها أجهزتهم المالية والفنية لتمويل الهجرة اليهودية إليها وتأسيس المستعمرات فيها وإستصلاح أراضيها وإستغلالها اقتصادياً^(١) . وليس في مكة المؤرخ أو الباحث المحايد أن يجد تقييداً أو تبريراً لمواقفة السلطان على إصدار هذه فرمانات الجزئية بالقول بأن السلطان تعرض لضغوط دول أوروبية كبرى لم يقو على الوقوف في وجهها ؛ فإن هذه فرمانات كانت سنداً قوياً في يد الصهيونية للتوسع في شراء مزيد من الأراضي الفلسطينية سواء بطرق مشروعة أو غير مشروعة .

كما لا يمكن القول بأن عبد الحميد لم يكن يتوقع أن موافقته على بيع أراض محدودة في فلسطين لليهود تكون بداية لتهويد فلسطين ، فإن مثل هذا التفسير يعد تجريداً للسلطان من صفات السياسي الحصيف المحذك بعيد النظر . وقد أجمع جمهور المؤرخين على أنه كان على

(١) أنيس صايغ : الهاشميون وقضية فلسطين ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٢ .

حظ موفور من هذه السجایا ، وعلى الرغم من هذه «السفطة» التي وقع فيها عبدالحمید.. فإنه نجح في الحد من الهجرة اليهودية إلى فلسطين . ويتضح هذا النجاح في أنه لما احتلت بريطانيا والجيش العربي بقيادة فيصل فلسطين في سبتمبر - أيلول - عام ١٩١٨ ، وأخضعتها للحكم العسكري البريطاني^(١) ، ثم طبقت عليها نظام الانتداب البريطاني كان اليهود يشكلون أقلية عددية بالنسبة لسكانها العرب ؛ إذ كان عدد الأولين خمسين ألفاً ، بينما كان عدد العرب ستمائة وخمسين ألفاً^(٢) . ومعنى ذلك أن يهود فلسطين كانوا يمثلون أقل من ١٠ ٪ من سكانها العرب ، وكانت هذه النسبة العددية الضئيلة لليهود ثمرة من ثمار سياسة السلطان عبدالحمید .

وفي عهد الحكم البريطاني حدثت الزيادة الرهيبة للهجرة الجماعية الضخمة إلى فلسطين حيث تكاثفت بريطانيا والصهيونية على إغراق فلسطين باليهود ، دون أن تقيم هاتان القوتان العاتيتان وزناً لمبدأ الاستيعاد الاقتصادي الذي يجعل حجم الهجرة اليهودية مرتبطاً بقدرة البلاد الاقتصادية على استيعاب مهاجرين جدد ، وكانت القنصليات البريطانية في أنحاء العالم تمنح اليهود تأشيرة دخول إلى فلسطين . وأصدرت السلطات البريطانية في فلسطين قانوناً لتيسير تدفق المهاجرين اليهود على فلسطين ، وبدأت في تنفيذه سنة ١٩٢٠ ، قبل أن تصدر

(١) فاجأت بريطانيا العالم العربي بوضع فلسطين كلها تحت إدارة عسكرية بريطانية ، أطلق عليها O. E. T. A. South . وهذه الأحرف اختصار لعبارة Occupied Enemy Territory Administration South أي الإدارة الجنوبية لبلاد العدو المحتلة ، يحكمها مدير عام ، مقره في بيت المقدس ، ويخضع للورد اللنبي القائد العام لقوات بريطانيا وحليفاتها في الشرق . وكانت هذه الإدارة تحكم المنطقة الممتدة من الحدود المصرية جنوباً حتى خط الناقورة غرباً ، فنهز الأردن شرقاً . وتضم لواء القدس ، ولواء نابلس ، ولواء عكا . ثم أنشأت «الإدارة الشرقية لبلاد العدو المحتلة» O.E.T.A. East ، وتضم داخل سوريا من معان جنوباً حتى حدود تركيا الجنوبية شمالاً مع أفضية ألب ، وجسر الشغور والباب غرباً والفرات شرقاً . وتركت بريطانيا إدارة هذه المنطقة في أيدي رجال الثورة العربية ، وعلى رأسهم الأمير فيصل بن الحسين .

ولم يدع الفرنسيون الفرصة لتفوتهم ، فطالبوا الإنجليز بتمكينهم من أخذ نصيبهم في أقاليم الشرق العربي الآسيوي . ودارت اتصالات سياسية متعثرة ، لم يشترك فيها العرب ، ولم يؤخذ فيها رأيهم ، وانتهت باتفاق ٣٠ من سبتمبر - أيلول - عام ١٩١٨ بقرار إنشاء «الإدارة الغربية لبلاد العدو المحتلة» O.E.T.A. West . وتشمل : جبل لبنان ، ولواء طرابلس ، ولواء اللاذقية ، وقضاء أنطاكية ، وقضاء إسكندرية . وهذان القضاءان من ولاية حلب . ووضعت هذه المنطقة بأكملها تحت نفوذ فرنسا مباشرة . انظر كلاً من :

أمين سعيد ، مرجع سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ١٢ .

جورج أنطونيوس ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٨٧ - ٢٩٠ .

(٢) أكرم زعتر : القضية الفلسطينية ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٥٥ ، ص ٤٧ .

عصبة الأمم صك الانتداب ، ثم أصدرت تلك السلطات لصالح اليهود قوانين معدلة لقانون الهجرة في سنوات ١٩٢١ ، ١٩٢٤ ، ١٩٢٥ ، ١٩٢٨ ، ١٩٣٣^(١) . وأقامت الصهيونية من جانبها معسكرات لإعداد المهاجرين إعداداً عقائدياً ونفسياً وعسكرياً . وعرفت هذه المعسكرات باسم «الهاخسراه» وأقيمت في إيطاليا وفرنسا وألمانيا والنمسا وبولندا ودول أوروبا الشرقية ، وكان من يتم تدريبه ينضم إلى فرق «الحالوتسيم» أي الطلائع الذين قام الوطن القومي اليهودي في فلسطين ثم دولة إسرائيل على سواعدهم .

وقد نشرت حكومة الانتداب في فلسطين إحصائية في يناير - فبراير (كانون ثان - شباط) عام ١٩٤٨ عن عدد السكان منذ عام ١٩٢٢ حتى ٣١ من مارس - آذار - عام ١٩٣٧^(٢) ، وقد شملت هذه الإحصائية تعداد السكان المسلمين والمسيحيين واليهود وزيادة الكثافة السكانية في فلسطين على النحو التالي :

السنة	عدد السكان المسلمين والمسيحيين	عدد السكان اليهود
١٩٢٢	٥٥٧,٣٤١	٨٣,٧٩٠
١٩٣١	٧٨٢,٠٥٤	١٧٤,٦٠٦
١٩٣٥	٨٧٥,٣٧١	٣٥٥,١٥٧
١٩٤٠	١,٠٠١,٨٨٠	٤٦٣,٥٣٥
١٩٤٦	١,٢٢١,٨٤٠	٦٠٨,٢٣٠
مارس-آذار-١٩٤٧	١,٢٣٧,٠٢٢	٦١٤,٣٣٩

ونكتشف هذه الإحصائية عن حقيقة مهمة ، هي أنه في الوقت الذي تضاعف فيه عدد المسلمين والمسيحيين مرة واحدة نتيجة الزيادة الطبيعية في عدد السكان بالتوالد ، تضاعف عدد اليهود إلى حوالي ثمانية أمثال . ولم تكن هذه الزيادة عن طريق التوالد ، ولكن عن طريق الهجرة إلى فلسطين كنتيجة مباشرة لسياسة الحكومة البريطانية في فتح أبواب فلسطين على مصاريعها أمام اليهود .

(١) صالح مسعود أبو يصير ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٢٢-١٢٥ .

ولحق رقم ٧ من ص ٩٢-٩٣ .

ولحق رقم ٧ من ص ٩٤-٩٧ في المرجع ذاته .

(٢) صلاح مابدين : فلسطين بين الصهيونية واليهودية . طبع وزارة الخارجية ، الجمهورية العربية المتحدة ،

د.ت. ج ١ ، ص ٤٩ .

على هذا النحو ، جاءت الخطورة على فلسطين بعد زوال الدولة العثمانية ، وبالأذات بعد عزل السلطان عبدالحميد الثاني عام ١٩٠٩ ؛ لأن بعض اليهود نجحوا في التسلل إلى بعض المراكز في مجالس جمعية الاتحاد والترقي ، التي سيطرت على تقاليد الحكم في الدولة بعد غياب السلطان عبدالحميد . وقد لمس السفير البريطاني في إسطنبول نفوذ مركز اليهود في درائر الحكومة العثمانية ، وذكر هذه الحقيقة في صراحة تامة في مذكرة بعث بها في شهر أغسطس - آب - عام ١٩١٠ إلى وزارة الخارجية البريطانية ، وكان مما جاء فيها «إن لجنة الاتحاد والترقي تبدو في تشكيلها الداخلي تحالفاً يهودياً تركياً مزدوجاً ؛ فالأتراك يمدونها بالمادة العسكرية الفاخرة ، ويمدها اليهود بالعقل المدبر ، وبالمال ، وبالنفوذ الصحفى القوي في أوروبا... إن اليهود الآن في موقف الملمهم والمسيطر على الجهاز الداخلى للدولة» (١) . وقد نجم عن وجود اليهود في بعض مراكز القوى في العهد الجديد ، أن تراخت رقابة الدولة على الحد من الهجرة اليهودية إلى فلسطين ، بالنسبة إلى ماكان عليه الحال أيام السلطان عبدالحميد . ومع ذلك .. لم يطل أمد حكم رجال الاتحاد والترقي إلا سنين عددا ؛ إذ ما لبثت أن قامت الحرب العالمية الأولى ، وكان من نتائجها أن تمت تصفية الدولة على أيدي الاتحاديين ، وانفسح المجال أمام بريطانيا والصهيونية لتهود فلسطين .

ومجمل القول إن الدولة العثمانية بمحاولاتها المكررة منع الهجرة اليهودية إلى فلسطين قد افتحمت هذه المشكلة ، ولكنها لم تستطع عبورها ، ونجحت فقط في الحد منها ، ونجحت في الحفاظ على عروبة فلسطين وعلى وحدة الصف العربى بين مسلميها ومسيحييها ، ولكنها أخفقت في منع التسلل اليهودى إلى فلسطين .

(١) وزارة الإرشاد القومى . ملف وثائق فلسطين ، مصدر سبق ذكره ، ج ١ ، وثيقة رقم ٥٨ ، ص ١٥٥ .

الفصل الثامن

آراء محايدة

في حكم السلطان عبدالحميد الثاني (١)

إسفاف في الصاق التهم بعبدالحميد :

حكم السلطان عبدالحميد الثاني زهاء أربعة وثلاثين عاماً (١٨٣٦-١٩٠٩)، فكان من أطول سلاطين الدولة العثمانية حكماً ، وكان في زمانه ولا يزال ملء الأسماع . ولكنه تعرض لحملة إعلامية شرسة من خصومه السياسيين تناولوا فيها حياته العامة والخاصة بكل نقیصة؛ فهو السلطان السفاح ، والسلطان الأحمر ، والسلطان الديكتاتور ، والسلطان المنافق الذي كان يتظاهر بالتقوى والصلاح والزهّد والتّقشف أمام رعاياه ، ويحرص حرصاً بالغاً على التظاهر بأداء الشعائر الدينية ، ويحيط نفسه بعلماء الدين ويستخدمهم في توزيع الصدقات من قبيل الدعاية له ، وهو في الوقت ذاته السلطان المسرف في شهواته النسائية ، وقد جمع حوله من نسائه وجواريه مائتين وخمسين سيدة ، كن آيات في جمال الوجه وامتشاق القوام والرقّة البالغة وما إلى ذلك من عناصر الأنوثة الطاغية . ثم أضاف خصومه إلى كل هذه المثالب أنه نشر في أنحاء الدولة شبكة من الجاسوسية ، بلغ عدد أفرادها ثلاثين ألف شخص ، على غرار شبكة الجاسوسية الروسية القيصرية المعاصرة له .. إلى غير ذلك من أساليب التهمج عليه .

وتلقف الحاقدون على الدولة وعليه عناصر هذه الحملات وانطلقوا يعطون صوراً مشوهة عنه وعن حكمه . وفي غمرة هذه الحملات الإعلامية فسر الخصوم والحاقدون ، وملهم عرب ، كل مشروع إصلاحی تعهده عبدالحميد تفسيراً تمسغياً . ففي رأيهم كان هدفه الخفي والأوحد من بعض هذه المشروعات ، هو أن تشد قبضته على الولايات العثمانية ليحكمها بيد من حديد إرضاء لنزعتة الاستبدادية . وأن هدفه من بعض المشروعات الأخرى كان إحاطة نفسه بهالة من القدسية ، تجعله بمعنى عن كل نقد يوجه إليه من رعاياه . وليس الهدف من الفصول الأربعة التي وضعناها عن السلطان عبدالحميد ، هو وضع تاريخ شامل لحكمه ، فإن هذا التاريخ يتطلب وضع أضعاف مضاعفة من هذا العدد ، وإنما الهدف منها هو توضيح الملابسات ، التي أحاطت به عند تولية العرش وإبراز بعض المعالم الرئيسية في حكمه ؛ ليسترشد بها الباحثون عن الحقائق للمجردة .

الانقلاب الدستوري :

وقد نجحت هذه الحملات الإعلامية ونجحت الجمعيات العلنية والسرية ، التي كانت تعمل لتفويض حكم عبد الحميد ، وبشرت نشاطها المعادي في أقاليم تابعة للدولة حيناً ولكنها بعيدة عن العاصمة ، وفي دول أوروبية حيناً آخر . وبلغ نجاحها القمة حين قامت «عثمانلى اتحاد وترقى جمعيتى» أى «جمعية الاتحاد والترقى العثمانية» بثورة عسكرية في شهر يوليو - تموز - عام ١٩٠٨ ، وأصدر عبد الحميد على أثرها في اليوم الرابع والعشرين من الشهر ذاته قراراً بإعادة العمل بالمشروطية (١) أى الدستور - وهو الدستور الذى سبق أن أصدره في الثالث والعشرين من شهر ديسمبر - كانون أول - سنة ١٨٧٦ ، وأطلق على هذه الثورة العسكرية تعبير مذهب هو الانقلاب الدستوري . واستأثرت الجمعية بالنفوذ وغدا السلطان عبد الحميد في الظل . وكانت جمعية الاتحاد والترقى منظمة سرية أنشأها بعض أعضاء جمعية «تركيا الفتاة» (٢) ، واستقر بها المطاف في النهاية في مدينة سالونيك ، وضمت أخلاطاً شتى من

(١) تكتب في اللغة التركية مشروطيت .

(٢) جمعية تركيا الفتاة جمعية سرية أنشأها الأتراك العثمانيون سنة ١٨٦٥ وحضر أول اجتماع لها عقد في شهر يونيو - حزيران - من السنة ذاتها ستة من الأحرار ، كان من بينهم تاقم كمال ، وأية الله بك . وقد أحضر الأخير مع في الاجتماع كتباين أحدهما عن جمعية الكاربوناري Carbonari ، والآخر عن جمعية سرية في بولندا . وكانت جمعية الكاربوناري جمعية إيطالية تأسست في نابولي عام ١٨٠٧ من المشتغلين بحرق الأخشاب . وكان هدفها طرد الفرنسيين والتمساريين من شبه جزيرة إيطاليا وتوحيدها وتأسيس حكومة دستورية بها . وانضم إلى جمعية تركيا الفتاة في وقت مبكر الأمير مصطفى فاضل وهو أخ الخديو إسماعيل من أبيه . وأصبح من أقطاب الجمعية . وكان من بين دوافعه حقه على السلطان عبدالعزيز الذى أصدر فرماناً في اليوم السابع والعشرين من شهر مايو - آيار - عام ١٨٦٦ يجعل ريادة الحكم في مصر تقول إلى أكبر أبناء الوالى الحاكم ومن هذا إلى أكبر أبنائه وهكذا . ونجم عن هذا فرمان إقصاء الأمير مصطفى فاضل عن حكم مصر وكان ولياً للعهد حتى سنة ١٨٦٦ ، ثم فقد الأمل في تعيينه صدر أعظم كتعويض عن حرمانه من وراثته الحكم . وقد صنف مصطفى فاضل أملاكه في مصر وغابرها للإقامة في فرنسا ، حيث لحق به فريق من أعضاء الجمعية ، واتجه فريق آخر إلى لندن وعاشوا جميعاً منفصلين . وقد بذل الأمير مصطفى فاضل نفوذه وشرطاً كبيراً من أمواله في دعم الجمعية . وأرسل من باريس خطاباً مفتوحاً إلى السلطان عبدالعزيز باللغة الفرنسية شرح فيه التدهور الذى انحدرت إليه الدولة العثمانية ، واقترح للنهوض بها إدخال عدة إصلاحات ، وكان من بينها إصلاحات دستورية . وقد ترجم هذا الخطاب إلى اللغة التركية بمعرفته ثلاثة من الأحرار كان من بينهم تاقم كمال وطبعوه ونشروه في نطاق واسع ، فكانت له أصداء واسعة . وفي فبراير - شباط - عام ١٨٧٧ نشرت جريدة بلجيكية اسمها Nord على أى الشمال ، انباء تقول إن الأمير مصطفى فاضل قد أنشأ مؤسسة مصرفية في الدولة العثمانية . فأرسل الأمير إلى الجريدة تكذيباً لهذا النبا وأشار إلى أنه من مؤيدي جمعية تركيا الفتاة La Jeune Turquie ، وقد أعادت نشر هذا التكتيب جريدة Couriet d'Orient التى تصدر في بيرا ، وهي إحدى ضواحي إسطنبول - وكان رئيس تحريرها على علاقة طيبة بحرار الدولة . وقد ترجم هذا الخطاب إلى اللغة التركية . وجاء اسم الجمعية في الترجمة التركية على هذا النحو =

عناصر ذات جنسيات مختلفة وديانات متعددة . ولكن كانت الكثرة الغالبة فيها من الأتراك العثمانيين يليهم اليهود ثم بعض العرب ، وكان معظمهم من ضباط الجيش . ولكن كان العسكريون العثمانيون الذين من أصل تركي هم العناصر البارزة في مجالس الجمعية . وكان هدفهم القضاء على حكم السلطان عبد الحميد .

الانقلاب العسكري :

ولم يتقنع هؤلاء العسكريون من رجال الاتحاد والترقي بالانقلاب الدستوري ، فقاموا في العام التالي (١٩٠٩) بانقلاب عسكري متذرعين بقيام حركة مضادة بدأت في ليلة ١٢-١٣ من شهر أبريل - نيسان - من السنة ذاتها ، وبرزعها الذرلوش وأئمة المساجد وفريق من علماء الدين الإسلامي وطلبة المعاهد الدينية وضباط الجيش «الآلالية» ، وهم الضباط الذين نشأوا وتقدموا من بين صفوف الجند بناء على خدمتهم الطويلة وخبراتهم العملية . ولقيت هذه الحركة استجابة من جماهير العامة ، وتنادوا إلى إلغاء الدستور بحجة أن مبادئ الشريعة الإسلامية باتت في خطر . وطافت المظاهرات في شوارع إستانبول تهتف «باشا سون شريعة محمدية، أوى قلتش الشريعة المحمدية» (٣) .

وفي غمرة هذه الهتافات نادى الضباط الآلالية بتسريح ضباط الجيش خريجي الكليات والمعاهد العسكرية ، وكان يطلق عليهم الضباط «المكتبية» . وامتدت الحركة بسرعة من

= «يكي عثمانلى ار» ومعناها «العثمانيون الجدد أو الشباب» . ومنذ سنة ١٨٦٧ حين انتقل مركز نشاط الجمعية السياسية إلى أوروبا بسبب إبعادهم أو نفيهم ، حرص الأوروبيون على إطلاق اسم La Jeune Turquie أى تركيا الفتاة عليها . وفي اللغة التركية لا يرد الاسم إلا في صحيفة الفرنسية المستعارة «جون توك» . وقد نمت الجمعية بسرعة وأصبح عدد أعضائها في وقت من الأوقات ٢٤٥ عضواً .

وتمثل حركة تركيا الفتاة حركة قومية علمانية ، تستند أساساً على قطاع المثقفين . وكانت تستهدف تحقيق أربعة مبادئ : هي : الحرية الفردية ، قيام النظام الدستوري ، والقضاء على الإقطاع ، والتحرر من السيطرة الأجنبية . ولذلك ارتبطت الحركة القومية في مبدأ نشأتها بحركة تركيا الفتاة . واتخذت الحياة الثقافية والأدبية أول الأمر طريقاً للتعبير عن اتجاهاتها . وكان قيام الجمعية دليلاً على أن الطبقة المثقفة التركية الأصل قد سمحت عزيمتها على إيجاد قوة من العناصر الوطنية ، تقرض الإصلاح على السلاطين فرضاً ، كما كانت تعنى بداية إحساس الطبقة المثقفة بقوتها الذاتية وحاجتها إلى التعبير عن نفسها .

وكان لهذه الجمعية اليد الطولى في عزل السلطان عبد العزيز ، وتولية السلطان مراد الخامس ، ثم عزله وتعيين عبد الحميد الثاني مكانه وقام ملحد باشا بدور بارز في إصدار دستور عام ١٨٧٦ .
انظر كلاً من :

Lewis Bernard; op. cit., pp. 152-174.

(١)

في جزء من فصل عنوانه The Seeds of Revolution بدور الثورة .

(ب) دائرة المعارف الإسلامية بحث بعنوان جمعية «الإمبراطورية العثمانية» بقلم Rustow D.A.

(٢) انظر في هذه الدراسة الفصل الرابع ، الجزء الأول .

إستانبول إلى أنحاء الأناضول خاصة في إقليم أضنة حيث قام متعصبو المسلمين بذبح الأرمن . وكان قد أرسل منشور بتاريخ ١٥ من أبريل - نيسان - عام ١٩٠٩ إلى جميع الحكام العثمانيين يطلب منهم المحافظة على مبادئ الشريعة الإسلامية . ويبدو أن متعصبى المسلمين في أضنة فسروا هذا المنشور بذبح الأرمن ، وأسرع رجال الاتحاد والترقى إلى تجريد قوات عسكرية أطلق عليها بعض المؤرخين الأوروبيين جيش الإنقاذ^(١) ، وأطلق عليه في اللغة التركية «حركت أوردوسو» أى «جيش الحركة» ، وقد زحفت هذه القوات من سالونيك على إستانبول واحتلتها في اليوم الرابع والعشرين من شهر أبريل - نيسان - عام ١٩٠٩ بعد قتال مرير . ونجح رجال الاتحاد والترقى في خلع السلطان عبدالحميد ، وإخراجه من العاصمة في صورة غير كريمة منفيًا في سالونيك . وأقاموا بدلاً منه أخاه الأمير رشاد ، الذى تسمى باسم محمد الخامس . وكان في الرابعة والستين من العمر ، يستجيب لما يؤمر به . وخلص للجو لرجال الاتحاد والترقى ، وحولوا جميعتهم من منظمة سرية إلى حزب سياسى علنى في شهر أبريل - نيسان - عام ١٩٠٩ ، في بيان أناعته للجمعية في الصحف ، وانفردوا بالحكم إذ سمح لهم السلطان العجوز أن يحكموه وأن يحكموا باسمه^(٢) . وقد أطلق عليه أحد المؤرخين «السلطان الأبله»^(٣) ، وهى تسمية ظالمة لأنه لم يكن له من الأمر شيء . وقد ارتضى هذا الوضع حفاظاً على السلطنة العثمانية وعلى الخلافة الإسلامية إلى أن جاز إلى ربه عام ١٩١٨ في السنة ذاتها ، التى لقي فيها السلطان المعزول عبدالحميد الثانى ربه . وأصبحت لرجال الاتحاد والترقى السيطرة المطلقة على أعنة الحكم منذ عزله حتى تصفية الدولة ماعدا فترة قصيرة الأمد .

وسائل الإرهاب التى لجأ إليها عبدالحميد :

من البديهيات أن لكل حاكم - أياً كان لقبه إمبراطوراً أو سلطاناً أو ملكاً أو أميراً - مزايا وعيوباً . وقد انطوى حكم هذا السلطان على مثالب ، وهذه حقيقة لا مراء فيها مثل مذابح الأرمن ، وسنتكلم عنها في فصل قادم ، وتعطيل أحكام الدستور فترة طويلة بلغت إحدى وثلاثين سنة ، على الرغم من أن بعض الباحثين ساقوا تفسيرات شتى لهذه الفترة الزمنية الطويلة . ولكن من الثابت أيضاً أن حكم هذا السلطان قد حفل من نواح أخرى بمزايا ، بل وبمفاخر لا سبيل إلى التشكك فيها أو التقليل من أهميتها .

لجأ عبدالحميد إلى إعدام أو إبعاد أو اعتقال بعض خصومه السياسيين ولكن ليس معنى

(1) Lewis B.; op. cit., p. 216.

Loc. Cit.

وانظر أيضاً : سامع المصرى ، مرجع سبق ذكره ، ص ١١٢ .

(٢) أنطونيوس جورج ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٨٠ .

(٣) دكتور فيليب حتى ، مرجع سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ٢٥٠ .

هذه الإجراءات أنه خصب أرض الدولة بدماء هؤلاء الخصوم ، أو أنه ملأ السجون بالمعتقلين ، أو أنه جند جيشاً من الجواسيس ، بلغ تعداده حداً خرافياً هو ٣٠,٠٠٠ شخص . ومن المبادئ المقررة على كل دولة وفي جميع العصور أن كل حكومة تنتظم أجهزة للحفاظ على أمن الدولة الداخلي والخارجي مثل المباحث العامة والمخابرات الحربية - الاستخبارات - وما إليها من أجهزة أمن الدولة العليا . كان عبدالحميد يعلم علماً يقينياً أنه توجد جمعيات سياسية مدنية وعسكرية ، تعمل في السر للتخلص منه أو للتأمر على الدولة .

حادث قصر چراغان :

وقد ظلت ماثلة في ذهن السلطان عبدالحميد الأحداث التي وقعت في اليوم العشرين من شهر مايو - آيار - عام ١٨٧٨ ، والأيام التالية ، ولم يكن قد مضى عامان على ارتقائه العرش ، فقد اقتحمت في صباح ذلك اليوم جموع المتأمرين قصر چراغان ، وهو قصر يقع على الساحل الأوروبي للبرسفور بين بشكطاش وهي إحدى ضواحي إستانبول وقرية أورناكدى^(١) ، وكان محتجزاً فيه السلطان المخلوع مراد الخامس ، في محاولة للمناداة به سلطاناً بدلاً من عبدالحميد الثاني ، أخيه الأصغر .

استأجر أو أغرى خصوم السلطان شخصاً حاقداً عليه ، اسمه على سعاوى أفندي . كان قد وفد من بخارى إلى إستانبول طلباً للعلم ، وأصاب نجاحاً بعيداً في دراسة اللغة العربية فأصبح متمكناً منها وخطيباً مفوهاً . ولكنه كان يعيل بطبيعته إلى بث الدسائس وإثارة الفتن ، ففاه السلطان عبدالعزيز عام ١٨٦٧ خارج الدولة ، ومكث تسع سنوات في منفاه ، ثم عاد إلى إستانبول بمساعى مدحت باشا على عهد السلطان عبدالحميد ، الذي عينه ناظراً على المكتب السلطاني الذي يتعلم فيه أنجال عبدالحميد . ولكن مالبث أن عزله لعدم تغير طباعه ولتدخله في الشؤون السياسية .

واستغل خصوم السلطان انشغاله ببحث الموقف الناجم عن عقد معاهدة سان ستفانو ، التي فرضتها روسيا على الدولة في ٣ مارس - آذار - عام ١٨٧٨ ، ووجود زهاء مائة وخمسين ألف مسلم في إستانبول ، هاجروا إليها من البلاد التي احتلتها القوات الروسية بخيولها في الحرب . وكان من بين هؤلاء المهاجرين المسلمين أعداد ساخطة على الأوضاع القاسية التي تردوا فيها نتيجة هزيمة الدولة أمام روسيا ، فدبر خصوم السلطان مؤامرة لخلعه عن العرش . وقد بدأت خيوط المؤامرة بإعلان ظهر في جريدة «بصيرت» أي البصيرة في عددها الصادر في ١٩ من مايو - آيار - عام ١٨٧٨ ، وكان هذا الإعلان باسم على سعاوى أفندي ،

(١) انظر معاني كلمة چراغان وبعض معلومات عن هذا القصر ، في ثبث المصطلحات التركية ، في نهاية هذه الدراسة ، الجزء الرابع ، تحت لفظة چراغان .

قال فيه إنه ستظهر له مقالة في الجريدة ذاتها في اليوم التالي عن أسباب ضعف الدولة ووسائل إصلاحها . ونصح أن هذا الإعلان كان بمثابة تحدى ساعة الصفر لتنفيذ المؤامرة بخلع السلطان عبدالحميد والمناداة بمراد الخامس سلطاناً على الدولة . ففي الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم التالي احتشد زهاء خمسمائة من المتآمرين أمام قصر چراغان . وكان معظمهم من المهاجرين وإن كانوا جميعاً قد تزواوا بزى المهاجرين ، وكان يفودهم على سعاوى أفندى . وانقسموا لفريقين : هاجم فريق القصر من ناحية البر بقيادة على سعاوى أفندى ، وهاجم فريق آخر القصر من ناحية البحر بقيادة صالح بك . واقترح الفريقان القصر وقتلوا أفراد الحرس وانطلقوا في أرجاء القصر ، بحثاً عن السلطان المخلوع إلى أن عثروا عليه منزوياً في حجرته وسلموه «طبيجة» . وقد أسرعت قوات الحرس السلطاني من قصر يلدز حيث كان يقيم السلطان عبدالحميد ، وحاصرت القصر برأ وبحراً وقتل في هذا الحادث عشرون من المتآمرين ، كان من بينهم على سعاوى أفندى وجرح ثلاثون . وقدمت الحكومة المتهمين للمحاكمة أمام محكمة عسكرية أصدرت حكماً واحداً بإعدام أحد المتهمين ، ولكن استبدل السلطان عبدالحميد السجن مدى الحياة بالإعدام ، كما أصدرت المحكمة على المتهمين الآخرين أحكاماً بالنفى . وكانت هذه هي أول مؤامرة أو محاولة لخلع السلطان عبدالحميد من العرش ، وقد باءت بالإخفاق . وقد أُنْصِر فيها السلطان المخلوع مراد الخامس ؛ إذ صدرت الأوامر بنقله إلى سرداب مظلم في جناح مالطة بقصر يلدز حيث كان يقيم عبدالحميد (١) .

إحراق الباب العالي :

لم تمر أيام ذات عدد على حادث قصر چراغان حتى قام فريق جديد من المتآمرين بإحراق الباب العالي في اليوم الثالث والعشرين من ذات الشهر . وأُتت النيران على دار الأحكام العدلية ووزارة الداخلية ودائرة شورى الدولة ودار التشريعات وغيرها من مبان ، والتهمت جميع مآكان بها من أثاث ومفروشات وأوراق رسمية .

من ذيول حادث قصر چراغان :

استطاع مراد الخامس من سجنه في جناح مالطة تهريب رسالة إلى أحد معارفه ، وهو رجل يوناني يقيم في إسطنبول يسمى كليانتي سكالييري Cleanthi Scalieri كان رئيس أحد المحافل الماسونية . وعن هذا الطريق كانت المعرفة بينهما ، وجاء في خطاب مراد إلى سكالييري «إذا لم تنقذني من هذا المكان فإن جناح مالطة سيكون مقبرتي» .

وكان مركز هذا اليوناني كرئيس لم حفل ماسوني قد أتاح له عديد الفرص لإيجاد صلات مع كبار الماسونيين الأوروبيين في إسطنبول . وما كاد ينقل سكالييري خطاب مراد

(١) محمد فريد بك ، مرجع سبق ذكره ، ص ٤٤١-٤٤٢ .

الخامس حتى تحرك لإنقاذه ، فكتب خطاباً مفتوحاً باللغة الإنجليزية إلى السلطان عبدالحميد ويحث به إلى جريدة إنجليزية تصدر في إستانبول اسمها Eastern Express ، وأرفقه بطلب لنشره في الجريدة وقد اتطوى خطابها على تهديد لرئيس التحرير . فأحال الأخير الخطاب المفتوح والطلب إلى سعيد باشا مستشار قصر بلاذ .. فما كان منه إلا أن هز كتفيه وقال : أنشروه إذا شئت . وكان لنشره وقع سيء في نفس عبدالحميد الذي اتخذ إجراءات صارمة مع الجريدة ورئيس تحريرها وسعيد باشا . ولكن جاء هذا الخطاب بنتيجة واحدة بالنسبة لمراد الخامس ؛ إذ صدرت الأوامر بإخراجه من سجنه في جناح مالطة وإعادته إلى قصر چراغان^(١) .

محاولة أخرى للقيام بانقلاب :

لم يترك سكاليري وأصدقائه الماسونيون الموضوع يقف عند هذا الحد .. فقد علم عبدالحميد من تقرير عرض عليه أنهم بذلوا محاولة لدى المحققين الماسونيين البريطانيين والألماني ، وكان يرأسهما ولي عهد بريطانيا وإمبراطور ألمانيا ، كي يتدخل السفيران البريطاني والألماني في إستانبول لدى عبدالحميد ، ويبدو أن الحكومتين البريطانية والألمانية قد أحجمتا عن التدخل في هذا الموضوع ، وانضم سكاليري إلى خصوم عبدالحميد وكونوا لجنة عرفت باسم لجنة سكاليري - عزيز بك . وكان الأخير أحد كبار موظفي الأوقاف . وضمت هذه اللجنة عدداً من خصوم السلطان عبدالحميد . وكان هدفها عزل عبدالحميد وإعادة مراد الخامس إلى العرش . وأقسم أعضاء اللجنة على ألا يدخروا جهداً لتبشير انقلاب Coup d'Etat لتحقيق هدفهم ، ولما وقف عبدالحميد الثاني على تفاصيل هذه المؤامرة للجديدة أمر بمحاصرة مقر اللجنة وهو دار عزيز بك وقبضت قوات الشرطة على الحاضرين . واستطاع بعض الأعضاء ومنهم سكاليري الإفلات من قبضة السلطات العثمانية وسافروا إلى الخارج ، أما الباقون فقد قدموا للمحاكمة أمام محكمة عسكرية ، أصدرت عليهم أحكاماً تتراوح بين السجن مدداً مختلفة والنفي في إحدى القلاع النائية^(٢) . وهكذا فشلت هذه المحاولة الجديدة التي خططت لها لجنة سكاليري وعزيز بك لخلع السلطان عبدالحميد كما أخفقت من قبل محاولة علي سغاري أفندي ، ولم يكن لهاتين المحاولتين من نتيجة سوى أنهما جعلتا السلطان عبدالحميد يتخذ احتياطات أمن للحذر من خصومه . وجدير بالذكر أن هاتين المحاولتين وعملية إحراق للباب العالي قد تعاقبت ، وكان الجيش الروسي لا يزال يحاصر إستانبول معسكراً في ضواحيها يهدد باقتحامها .

وكان عبدالحميد يعلم كذلك أن للدول الأوروبية عملاء من جنسيات شتى منتشرين في إستانبول وأمهاات المدن في طول البلاد وعرضها ، لأن هذه الدول لم تقنع بما حصلت عليه في

(1) Lewis B.; op. cit., p. 176.

(2) Lewis B.; op. cit., p. 176-177.

مؤتمر برلين عام ١٨٧٨ ويعدّه من مكاسب إقليمية هائلة ، وإنما كانت تنطلق إلى مزيد من الأقاليم والامتيازات ، ودبرت المؤامرات لتحقيق أهدافها . وفي سنة ١٨٨٥ نجحت بلغاريا في ضم روم إلى شرق - ولاية الرومي الشرقية - إليها بموافقة بريطانيا والنمسا والمجر خلافاً لما نصت عليه معاهدة برلين لعام ١٨٧٨ بتقسيم بلغاريا الكبرى . وردت روسيا في العام التالي بتحويل باطوم إلى ميناء حربي ، أقامت فيه تحصينات عسكرية بدلاً من جعله ميناء حراً كما نصت معاهدة برلين ، ونشبت حرب بين الدولة العثمانية ومملكة اليونان التي ضمنت إليها أقاليم عثمانية .

وفي عام ١٩٠٣ تفجر صراع دموي رهيب بين سكان مقدونيا المسيحيين . وتكونت جمعيات إرهابية مسيحية من البلغاريين والصرب والرومانيين واليونانيين ، وظفروا بالمساعدات المالية والأسلحة والعتاد والحماية من قناصل بعض الدول . وسنشير إلى هذه المنظمات الإرهابية عند كلامنا عن مثيلاتها الأرمنية في الجزء الثالث من هذه الدراسة . وفرضت الدول رقابة إدارية مختلطة على سالونيك ، وقوصوه ، ومناسر . وأنشئت شرطة دولية . واستغلت النمسا الفرصة لدعم نفوذها على كل الأراضي التي تصلها ببحر الأرخبيل ، وحصلت على امتياز سكة حديدية تمر بنو في بازار^(١) Noyibazar . وردت روسيا عليها بمشروع مضاد^(٢) ، وعلى هذا النحو كانت الأخطار الخارجية الجسيمة تحيط بالدولة من يمين وشمال : اقتطاع ممتلكاتها رقابة دولية رسمية على شئونها المالية والإدارية ، تصاعد نفوذ سياسي أوروبي ، تغفل اقتصادي متخذاً أشكالاً شتى ؛ فضلاً عن أخطار داخلية كان من بينها مؤامرات لإنهاء حكم السلطان عبدالحميد .

ولا يعاب على حاكم أن يحتاط لنفسه ، وأن يحافظ على الدولة والعرش معاً من أن يتعرضا لهزات عنيفة تنشأ عن اعتقاله أو عزله . وقد أثبتت الأحداث التي تعاقبت على الدولة بعد عزله عام ١٩٠٩ رأيه الثاقب وحصافته السياسية ، وكان لكل قضية سياسية من قضايا

(١) أعلن أمهرنتال Achrenthal ، وزير خارجية النمسا الجديد سنة ١٩٠٨ ، عن مشروع تزعج النمسا إنشاءه ، يقوم على مد خط حديدي يمر بصنجر نوفا بازار Novi Bazar ، ويتصل بنهاية الخطوط العثمانية عند ميتروفيتكا Mitrovica ، وبهذا تتصل قسماً مباشرة بغير سالونيك على بحر إيجه ، كما يزداد الجبل الأسود انصلاً من الصرب . ويلاحظ أن الروح العدائية ضد الروسية كانت كامنة وراء هذا المشروع النمساوي .

(٢) وضع هذا المشروع إزفولسكي Izvolsky وزير خارجية روسيا الجديد ، ويقوم على إنشاء خط حديدي ، يمتد من الحدود الشرقية للصرب على نهر الدانوب إلى سان جيوفاني دي مدويا San Giovanni di Medua في ألبانيا . ومن شأن هذا المشروع أن يكن هناك اتصال حديدي من الصرب إلى ألبانيا على البحر الأدرياتي المؤدي إلى البحر المتوسط . ويواجه في الوقت ذاته المشروع النمساوي الذي ينتهي بغير سالونيك على بحر إيجه المؤدي إلى البحر المتوسط .

خصومه ظروفها وملايساتها .. أما تعميم الحكم على جميع القضايا فليس من العدالة في شيء . وهذا سؤال يفرض نفسه فرضاً على الباحث المحايد إذا أنهى جانباً هذا التعداد الخيالي لعدد الجواسيس وهو ٣٠,٠٠٠ لماذا هذا الإصرار على تسميتهم «جواسيس» بدلاً من رجال المباحث أو المخابرات أو الاستخبارات أو غير ذلك من المسميات ؟ الجواب عن هذا التساؤل معروف ، فكلمة جواسيس تنفر منها النفس وتوحي إلى الذهن بالجور الرهيب الذي كانت تحياه الدولة على عهده . فتكون الصورة عن حكم عبدالحميد في الذهن والنفس معاً أشد ظلاماً وأعمق إيلاًماً وأكثر بشاعة . لقد لجأ السلطان عبدالحميد إلى إعدام بعض خصومه أو إبعادهم خارج الدولة إلى أوروبا أو اعتقالهم ولجأ أيضاً إلى مراقبة خصومه . ولكن لم تكن هذه الوسائل بالحجم الرهيب الذي صورته حملات التشهير بهذا السلطان .

مناقشة أسر الشريف الحسين وعائلته في إستانبول :

والى جانب وسائل الإعدام والإبعاد والاعتقال ، كان عبدالحميد إذا شعر بخطورة من ألد كبار خصومه السياسيين استمالة إلى المعجى إلى إستانبول ليكون على مقربة منه ويأمن شراً .. فكان يوجه إلى دعوة رفيقة لاستضافته في العاصمة وينزله في قصر رحيب تحيط به الحدائق الوارفة الظلال . ويسبغ على ضيفه مظاهر التكريم ، ويقوم على خدمته حشد من الأتباع والخدم ، ويتيح له أسباب الحياة الرغدة . وكان من هؤلاء «الضيوف» الشريف الحسين ابن علي أمير مكة المكرمة فيما بعد^(١) .. تلقى دعوة رفيقة من عبدالحميد ليذهب مع أسرته إلى إستانبول ، ويقم فيها بعض الوقت ، فوصلها عام ١٨٩٣ وكان في نهاية العقد الرابع من عمره ، ومعه زوجته وأولاده الثلاثة الذين كانوا قد بلغوا سن الالتحاق بالمدارس وهم علي (ملك الحجاز فيما بعد) ، وعبدالله (ملك المملكة الأردنية الهاشمية فيما بعد) ، وفيصل (ملك العراق باسم فيصل الأول فيما بعد) .

وكان من مظاهر تكريم السلطان للشريف الحسين أنه خصص له ولأسرته داراً ساحلية تطل على البوسفور ، وعينه عضواً في مجلس شورى الدولة وفي عدد من المجالس الفخرية . وقد ظلت هذه الأسرة في إستانبول معززة بمكرمة زهاء خمسة عشر عاماً أمضتها في حياة هادئة ، موظف أفرادها بإنعامات سلطانية كثيرة . ووجد الشريف الحسين وابنه عبدالله علاقتهما بالسفير البريطاني في إستانبول ؛ مما يدحض قول عبدالله فيما بعد إن الأسرة كانت في حالة أسر وإبعاد ونفي^(٢) .

يقول الأستاذ أنيس صايغ إن نقل الحسين من مكة المكرمة إلى إستانبول كان «تقليداً

(١) عين في هذا المنصب في سبتمبر - أيلول - عام ١٩٠٨ .

(٢) عبدالله بن الحسين (الملك) - منكرات الملك عبدالله . نشر أمين أبي الشعر ، عمان ، ١٩٦٥ ، ص ٢٣-٢٤ .

مألوفاً ، سار عليه السلاطين وطبقوه على أمراء مكة منذ قرون ، حاولوا بواسطته أن يأمنوا جانب الأمراء الذين كانوا يصرفون وقتهم وجهودهم على المشاغبة ضد بعضهم بعضاً . ولم يمر يوم واحد في قرون الحكم العثماني لم يكن نصف الأمراء المتنازعين في مكة ، على الأقل ، في ضيافة السلطان في العاصمة . كان الحسين مكرماً في الأسمانة ومقرباً من السلطان . . كان وعائلته ضيوف شرف على الخليفة ، وقد حصلوا على إنعامات سلطانية كثيرة . وعين عميد العائلة عضواً في عدد من المجالس الاستشارية والفخرية ، وعين ابنه فيصل سكرتيراً للسلطان^(١) .

والواقع أن السلطان عبدالحميد كان يتوجس خيفة من الشريف الحسين ابن علي ، ويرى فيه رجلاً ذا أطماع سياسية واسعة ، وأنه إذا ظفر بمنصب أمير مكة المكرمة .. فإنه لن يقع بهذا المركز الرفيع ، بل إنه سيتطلع في قابل الأيام إلى حكم العرب أجمعين ثم إلى منصب الخلافة الإسلامية . كانت هناك منافسة حادة على منصب أمير مكة بين الشريف الحسين وعمه الشريف عون الرقيق الذي ظفر بالإمارة في عام ١٨٨٢ ، وأمثلاً قلب الحسين حقداً وحسداً وتوالت شكائاته إلى السلطان عن المظالم التي يفرلها عمه بالحجاج وابتزاز أموالهم وتقاعسه عن الضرب على أيدي العريان الذين كانوا يقتلون الصحة^(٢) ، ولكن عبدالحميد التزم جادة الحق والحكمة السياسية فأرسل بعثة برياسة أحمد رابيت باشا لتقصي الحقائق ، وجاء تقريرها في مصلحة الشريف عون الرقيق ، وألقت تبعة ماحداث من فتن واختلال الأمن على والي الحجاز حسين جميل باشا ؛ فأصدر السلطان فرماناً بعزله وتعيين راتب باشا مكانه . وظل عون الرقيق أميراً على مكة المكرمة . واستدعى السلطان إلى إستانبول الشريف الحسين مع أسرته . ولما جاز عون الرقيق إلى ربه الشريف سنة ١٩٠٥ ، رفض السلطان تعيين الشريف الحسين أميراً على مكة ، وعين في هذا المنصب ابن أخ الشريف المتوفى ، وهو علي بن عبدالله بن محمد بنو عون الذي كان من أصدقاء السلطان عبدالحميد .

ولم تكد تمر ثلاث سنوات حتى وقع حادث لم يكن في الحسبان ، وهو حدوث الانقلاب الدستوري سنة ١٩٠٨ ونجاح رجال الاتحاد والترقي في حمل السلطان على إصدار المشروطية ، وفيه حددت اختصاصات السلطان . وكان الشريف علي بن عبدالله أمير مكة من خصوم رجال الاتحاد والترقي بحكم صلاته الوثيقة بالسلطان ، فخشى أن ينتقموا منه فغادر

(١) أنيس صايغ : الهاشميون والثورة العربية الكبرى ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٧-٢٨ .

(٢) نكتور فايق بكر الصراف : العلاقات بين الدولة العثمانية وإقليم الحجاز في الفترة ما بين ١٢٩٢-١٢٣٤ هـ (١٨٧٦-١٩١٦ م) . مطابع سجل العرب ، القاهرة ، ١٩٧٨ رسالة دكتوراه تحت إشرافنا . ص ٨٦-٩٤ .

الحجاز مسرعاً إلى مصر لاجئاً سياسياً . وانتهز رجال الاتحاد والترقي هذه الفرصة وعزلوه من منصبه وعينوا مكانه الشريف عبدالإله وكان طاعناً في السن مات بعد يومين من تعيينه . ويقال إنه مات من شدة الفرح بتعيينه في هذا المنصب^(١) .

ونجحت الجهود المكثفة التي بذلها الشريف الحسين وابنه عبدالله لدى السفارة البريطانية في إسطنبول ولدى رجال الاتحاد والترقي ، الذين كان لهم النفوذ الأعلى في الدولة لاستصدار فرمان سلطاني بتعيين الحسين بن علي أميراً على مكة^(٢) . ولما وقّع السلطان عبدالحميد الثاني على هذا فرمان ، عبر عن مخاوفه من أطماع الحسين قائلاً : «لقد خرجت الحجاز من يدنا ، واستقل العرب ، وتشقت ملك آل عثمان بتعيين الشريف الحسين أميراً على مكة المكرمة . وباليته يقع بإمارة مكة المكرمة وباستقلال العرب فقط ، ولكن سيعمل بدعائه إلى أن ينال مقام الخلافة لنفسه»^(٣) .

وقد تحققت مخاوف السلطان عبدالحميد وصحت نبوءاته . فقد أعلن الشريف الحسين بن علي الثورة في الخامس من شهر يونيو - حزيران - عام ١٩١٦ على الدولة العثمانية منضمناً إلى بريطانيا ، وناذى به أعيان الحجاز في الثاني من نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٩١٦ «ملكاً على البلاد العربية» . ولكن اعترفت به بريطانيا وفرنسا في الثالث من يناير - كانون ثان - عام ١٩١٧ «ملكاً على الحجاز» ، وتزعم أولاده الثلاثة على ثلاثة عروش عربية ، صدرت بشأنها قرارات من مقر رئاسة الوزارة البريطانية - ١٠ داروينج ستريت في لندن - ثم كانت خاتمة نشاطه السياسي ، حين أعلن نفسه خليفة على العالم الإسلامي في عمان حيث كان في زيارة ابنه عبدالله أمير شرق الأردن في ذلك الوقت ، منتهزاً فرصة إقحام الجمهورية التركية على إلغاء الخلافة في الثالث من شهر مارس - آذار - عام ١٩٢٤^(٤) .

(١) أنيس صايغ : الهاشميون والثورة العربية الكبرى . مرجع سبق ذكره ، ص ٣٦-٣٧ .

(٢) محمد طاهر العمرى الموصلى : تاريخ مقدرات العراق السياسية ، ٢ مجلدات ، بغداد ، ١٣٤٢هـ-١٩٢٥م ، المجلد الأول ، ص ١٧٧ .

(٣) مرت مساعي الحسين للظفر بالخلافة الإسلامية بمرحلتين رئيسيتين : كانت المرحلة الأولى حين طلب بمسقطه الشريف مكة وأميرها من بريطانيا في اليوم الرابع عشر من شهر يوليو - تموز - عام ١٩١٥ أن توافق على إعلانه خليفة على المسلمين ، ضمن طلبات أخرى في مقابل تحريك ثورة عربية ضد الدولة العثمانية إبان الحرب العالمية الأولى . وجاء الرد المؤرخ في اليوم الثلاثين من شهر أغسطس - آب - عام ١٩١٥ من سير آرثر ماكماهون Sir Arthur Me Mahon ، المندوب السامي البريطاني في القاهرة ، يقول «ولنا نصرح هنا مرة أخرى أن جلالة ملك بريطانيا العظمى يرحب باسترداد الخلافة إلى بيت عربي صميم من فروع تلك النوحة النبوية المباركة . وعلق عليها «الشريف» الحسين في رده على المندوب السامي بقبوله وأما الخلافة فإن الله يرضى عنها . ويصر الناس بها» .

أما المرحلة الثانية فكانت في أثناء وجود «الملك» الحسين في عمان التي كان قد وصلها في اليوم الثامن من شهر يناير - كانون ثان - عام ١٩٢٤ قادماً من مكة المكرمة للتفاوض مع زعماء فلسطين في=

ويتحقق نبوءات السلطان عبدالحميد الثاني ، دل هذا السلطان على أنه كان سياسياً محكماً من الطراز الأول بعيد النظر ، ذا حصافة سياسية ، حريصاً على المحافظة على استقلال الدولة وعلى تماسك ممتلكاتها . ولكن الملابس السياسية والقوى الأوروبية كانت أقوى من الدولة لتقف في وجهها وهي تقترب من فترة الاحتضار ، أو بعبارة أكثر دقة ، وهي تبتاز فترة الاضمحلال وبخاصة بعد عزله عام ١٩٠٩ .

أهداف حملات التشهير بالسلطان عبدالحميد :

والرأي الراجح أن التشهير العنيف والواسع النطاق الذي افترق بسيرة السلطان عبدالحميد الثاني ، يستهدف بعد عزله تحقيق أربعة أغراض . كان الغرض الأول هو الدفاع عن أعضاء جمعية الاتحاد والترقي ، حين أقدموا على خلع عبدالحميد عام ١٩٠٩ ، فأرادوا تبرير تصرفهم بأنهم - وهم في زعمهم حماة الدولة - لم يكن أمامهم سوى طريق واحد هو إنهاء حكمه كي تستعيد الدولة مكانتها وتسترد ولاياتها السليبة ، التي انتزعتها منها الدول الأوروبية على عهده .

وكان الغرض الثاني هو تعطية فشلهم الذريع في حكم الدولة ، سواء في شئون الداخلية أو الخارجية كي يعتقد الرأي العام في الدولة وفي خارجها أن حكمهم لم يكن أسوأ من حكم عبدالحميد ، الذي لم يكن فيه الفر يتمتع بحريته أو يأمن على حياته ، وأن البلاد في ظل هذا السلطان كانت محرومة من الحياة الدستورية خاضعة تماماً للسيطرة الأجنبية .

ومن الثابت تاريخياً أن رجال الاتحاد والترقي حين استأثروا بالنفوذ ، ثم انفردوا بالحكم انقلبوا حكاماً طغاة مستبدين من الطراز الأول ، أو كما يسميهم الأستاذ محمد شفيق غريال «رجال الطغيان العسكري»^(١) ، فقد لجأوا إلى أساليب استفزازية دلت على الحماقة والجهالة

= مستقبل بلادهم ، كما أجرى مفاوضات مع وفد صهيوني أنتدبته اللجنة التنفيذية الصهيونية . وفي أثناء إقامته في عمان جاءت الأنباء بأن الجمهورية التركية قد ألغت الخلافة . فاستغتم هذه الفرصة واتفق مع ابنه عبدالله ، أمير شرقى الأردن ، على اتخاذ الترتيبات لإجراء بيعه الملك الحسين بالخلافة . وتم لهما ما أرادوا . وجرى البيعة في اليوم الثاني عشر من شهر مارس - آذار - عام ١٩٢٤ في عمان ، حين الرجوع إلى ملوك وروساء وقادة الفكر في العالم العربي والإسلامي : مما أسخط عليه الجميع وعنده مستغلاً نهراً للفرص ، يعمل لتحقيق مصالحه الشخصية . وقد غادر الخليفة والملك الحسين عمان في اليوم العشرين من شهر مارس - آذار - عام ١٩٢٤ ، يحمل لقباً جديداً هو الخلافة في وقت كان عرشه يهتز اهتزازاً عنيفاً أمام هجوم قوات «السلطان» عبدالعزيز آل سعود . واضطر إلى التنازل عن العرش لابنه على في اليوم الرابع من شهر أكتوبر - تشرين أول - من العام ذاته . وسرعان ما انهارت الدولة الهاشمية وغادر الملك على الحجاز ونهذى في اليوم الثامن من شهر يناير - كانون ثان - عام ١٩٢٦ بالسلطان عبدالعزيز سعود ملكاً على البلاد الحجازية ، انظر :

أمين سعيد : الثورة العربية الكبرى ، مرجع سبق ذكره ، المجلد الثالث ، ص ١٧٤-٢٢٠ .

جامعة الدول العربية : الوثائق الرئيسية في قضية فلسطين ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٢-١٣ .

(١) بحث مزيد وضعه الأستاذ محمد شفيق غريال لاستيفاء المادة العلمية عن الأتراك العثمانيين ، في دائرة المعارف الإسلامية ، الترجمة العربية ، الطبعة الثانية ، مادة «الأتراك» .

بأصول الحكم ، وأناروا مزيداً من الفقرة بين العناصر التركية الأصل والعناصر المسيحية والإسلامية غير التركية ، فكانت هذه العناصر طرائق قددا اشتعلت بينها العدواة والبغضاء .

وكان التنسيق ، من أبسط وأولى هذه الوسائل الاستغزازية ، والتنسيق يقابل في شكله الظاهري التطهير في بعض الدول العربية في التاريخ المعاصر .. فقد عمد رجال الاتحاد والترقي بعد أن استتب لهم الأمر إلى طرد عدة آلاف من الموظفين العرب والألبانيين والأكراد من مناصبهم الحكومية ، بحجة أنهم وصلوا إليها إيان الحكم الحميدي عن غير طريق الكفاءة والاستحقاق ^(١) . ولاتتريب على رجال الاتحاد والترقي ، إذا قاموا بحركة التنسيق مستهدين الصالح العام وتأمين حركتهم وحكمهم ، ولكن اتضح بما لا يدع مجالاً للشك أن حركة التنسيق كانت في لحمتها وسداها حركة عنصرية ؛ لأنهم عيّنوا موظفين طورانيين أى من الأتراك العثمانيين في جميع المناصب ، التي خلت بطرد شاغلها سواء كانوا عرباً أو ألبانيين أو أكراداً .

ولكى يضفى رجال الاتحاد والترقي طابعاً قانونياً على حركة التنسيق ، ألغوا في عاصمة كل ولاية لجنة خاصة على أن تتبع هذه اللجان لجنة عليا في وزارة الداخلية ، ووضعوا لها قواعد تهتدى بها ذراً للرماد في العين . وكانت الدولة إيان حكمهم الذي استمر حتى نهاية الحرب العالمية الأولى تفقد كل عام أقاليم هامة في أوروبا وإفريقية وآسيا ، وكانت الصعوبات الداخلية والأخطار الخارجية التي واجهتهم بعد عزل عبدالحميد جعلتهم يزدادون تمسكاً بمقاليذ الأمور بحيث أصبح بقاؤهم على كراسي الحكم هو عندهم غاية الغايات . ولضمان هذا الهدف الأسفى في نظرهم قبضوا على البلاد بيد من حديد واعتمدوا على سياسة «الحزب الواحد» وهو حزب الاتحاد والترقي ، وهي سياسة ثبت فشلها الذريع في التاريخ المعاصر سواء في بعض الدول العربية أو الأوروبية ؛ حيث ساد الكبت والرهبة والتمزق والحكم الاستبدادى المعنف وفرض الرقابة على الصحف وحل الجماعات وتضريد القادة وإنشاء المحاكم العسكرية تصدر أحكاماً قاسية متفقاً عليها من قبل ، وتوزيع المناصب على الأنصار ومن إليهم من أهل الثقة وما إلى ذلك من عيوب نظام «الحزب الواحد» .. فلما قامت هذه الحرب عام ١٩١٤ لم يتبق للدولة من ممتلكاتها في أوروبا سوى جزء صغير هو ترافيا الشرقية .

ووجد رجال الاتحاد والترقي في نشوب هذه الحرب «مغامرة قد يكسبونها ، فإذا تم لهم ذلك نسي مواطنهم إخفاق حكامهم في كل ساحولوه منذ أن استولوا على مناصب الحكم ، وكان هذا الإخفاق ظاهراً شاملاً . فالحكم الدستورى كان اسمياً ، والوحدة العثمانية التي تجلت مظاهرها إيان الانقلاب الدستورى (١٩٠٨) تلاشت سريعاً وحلت محلها خطة عصبية تركية ، أخذت للشعوب غير التركية بالحديد والدار . وكان رجل الدولة يلعون على السلطان عبدالحميد

(١) أمين سعيد : الثورة العربية الكبرى ، مرجع سبق ذكره ، ج ١ ، ص ٤ .

انفراط عقد الدولة في أيامه وتفريطه في صيانة ولايات الدولة ، وهامهم أنفسهم لم يبقوا - وقد حلوا محلها - على منع ما فقدته الدولة في حروبه ... (١) فزج أولئك العسكريون بالدولة في أتون الحرب في مستهل شهر نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٩١٤ إلى جانب دولتي الوسط - ألمانيا ، والنمسا والمجر - وانتهت الحرب بهزيمة الدول الثلاث وحليفاتها الأخريات . وتمت على أيدي رجال الاتحاد والترقي تصفية الدولة العثمانية ، أما الدولتان الأخريان .. فقد تم تفتيتهما إلى دول من الصف الثاني أو الصف الثالث .

أما الغرض الثالث من حملات التشهير بالسلطان عبدالحميد الثاني فكان إبراز صورة وضيفة ناصعة البياض لعهد مصطفى كمال - كمال أتاتورك (٢) ومشايخه ، إذا قورن حكمهم بحكم السلاطين العثمانيين بعامه والسلطان عبدالحميد بخاصة ؛ إذ كان أقرهم إلى أذهان الجماهير التركية لقرب عهدهم به ، ولأنه كان من أشهر السلاطين ، وإن كانت شهرته قد لوثتها الدعاية ضده ، وكانت دعاية مرجحة . كما كان من أهداف كمال أتاتورك وأنصاره - على غرار أهداف رجال الاتحاد والترقي - تبرير تصرفاتهم حين ألغوا نظام السلطنة العثمانية (أول نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٩٢٢) ، ثم أنشأوا النظام الجمهوري وأعلنوا قيام الجمهورية التركية (٢٩ من أكتوبر - تشرين أول - عام ١٩٢٣) ، ثم ألغوا الخلافة الإسلامية (٣ من مارس - آذار - عام ١٩٢٤) ومضوا في سياستهم فأذكروا الصفة الإسلامية والصفة الشرقية للجمهورية التركية ، ولم يهتموا إلا بالطابع التركي المتزمت والطابع غير الديني المتحرر ، وجعلوا قوانينهم كلها مدنية صرفة منقولة عن القانون السويسري مما كان له أفدح النتائج ؛ فألغوا نظام تعدد الزوجات ، كما أصبح من حق التركية أن تتزوج رجلاً مسيحياً أو يهودياً ، وقرروا الأخذ بنظام الزواج المدني وتقرير حقوق متساوية للزوج والزوجة ، وتخويل كل شخص بالغ الحق في تغيير عقيدته الدينية حسب رغبته . وفرضوا أجهزة مدنية كافية لمواجهة مهمة تسجيل الزواج بعد أن أصبح مدنياً ؛ كي يصبح زواجاً قانونياً لاتعترف الدولة بسواه ، وتعترف الدولة بنتائجه من ثبوت حقوق الإرث وما إلى ذلك ، وشهروا حرياً على الحجاب بالنسبة للسيدات ، وعلى الأزياء القديمة بالنسبة للرجال الذين كان عليهم أن يرتدوا الملابس الأوروبية والقبعات (٣) ، ومنعوا أئمة المساجد ، من ارتداء العباءة خارج المساجد ، وحولوا عدداً كبيراً من

(١) الأستاذ محمد شفيق غريال . بحث سبق ذكره .

(٢) أسقط من اسمه الكلمة العربية الصحيحة مصطفى ، وفي من أسماء النبي صلوات الله وسلامه عليه ، واكتفى بالاسمين كمال وأتاتورك . ومعنى الاسم الأخير : والد الأتراك . واشتهر بالاسم الأخير فقط .

(٣) صدر في شهر مارس - آذار - عام ١٩٢٦ بيان من «رياسة الشؤون الدينية الإسلامية في المملكة المصرية» يتند بجعل الأتراك المسلمين على ارتداء القبعات . وقد وقع على هذا البيان شيخ الجامع الأزهر ومفتي الديار المصرية .

المساجد الكبرى والصغرى عن أغراضها الدينية إلى أغراض مدنية .

من الأمثلة الصارخة التي تناسق في هذا الصدد المسجد الذى كان فى أول أمره كاتدرائية القديسة صوفيا فى القسطنطينية ، ثم حولها السلطان محمد الفاتح أو أبو الفتح عتب فتح هذه المدينة مباشرة إلى مسجد ليكون المسجد الجامع الرئيسى فى العاصمة الجديدة ، التى أطلق عليها اسماً إسلامياً هو إستانبول أى دار الإسلام ، كما سبق أن ذكرنا ، ثم جاء الكماليون فحولوا هذا المسجد إلى متحف وطنى . ولم يشيد الكماليون أى مسجد جديد فى أنقرة عاصمة الجمهورية . وجعلوا الأجازة الأسبوعية الرسمية فى وزارات الحكومة ومصالحها يوم الأحد بدلاً من يوم الجمعة ، وأصبحت الأجازة تبدأ من الساعة الأولى من بعد ظهر يوم السبت إلى صباح يوم الإثنين ، وأبطلوا كتابة اللغة التركية بالحروف العربية واتخذوا لها حروفاً لاتينية ليسهل نطقها باللغة التركية ، وتيسيراً للقراءة والكتابة على المتعلمين وتوثيقاً للاتصال باللغات الأوروبية مفاتيح العلوم الحديثة ... هذه هى الذرائع التى ذكرها غريال^(١) . أما المؤرخ الإنجليزي برنارد لويس . فقد قرر أن الكماليين استندوا إلى أن الاتحاد السوفيتى قد اتخذ قراراً مماثلاً فى الأقاليم السوفيتية التى يتكلم سكانها لغات تركمانية .. فكان هذا القرار مثلاً يحتذى ودافعاً لحكومة الجمهورية التركية على إصدار قرار على غرارها^(٢) ، وأهم من هذه الإجراءات كلها ، وفوق هذه الإجراءات كلها ألغى الكماليون منصب شيخ الإسلام ووزارة الأوقاف والمؤسسات الخيرية ، وأنشأوا إدارتين جدينتين إحداهما للشئون الدينية ألحقت بمتكبر رئيس الوزارة فى أنقرة ، والأخرى للمؤسسات الخيرية^(٣) ، وألغوا أيضاً التعليم الدينى فى جميع مراحل التعليم . وكانت جميع هذه الإجراءات تنبثق من نظرة الكماليين إلى الإسلام ، وهى نظرة تمثلت فى أنه عقيدة دينية فقط ، فلم يكن الإسلام فى نظرهم نظاماً سياسياً أو اجتماعياً ، وتأسيساً على هذه النظرة .. جردوا الجمهورية التركية من صفاتها الدينية ، ومن ثم اتخذوا هذه الإجراءات التى وصفها الأستاذ غريال بأنها كانت عملية «هدم عنيف» .

وفى الوقت ذاته ، عمل الكماليون على تنزيك العبادة *Turkicization of Worship* ، فأذان الصلاة يجب أن يكون باللغة التركية من مآذن المساجد ، وأن يتلى القرآن الكريم باللغة التركية وأمراً بترجمته إلى اللغة التركية ترجمة رسمية معتمدة من الحكومة وكذلك الأحاديث النبوية الشريفة واعتمدوا مبالغ كبيرة لهذا الغرض . وأن تكون الصلاة باللغة التركية ، وأن يرتدى أئمة المساجد قبة من نوع الطائفة (Un Beret) حتى يكون فى مكنة الأئمة السجود ، ولكن منعهم من ارتداء العباء خارج المساجد . وكان ارتداؤها مقصوراً على الأئمة ونفر من علماء الدين .

(١) الأستاذ محمد شفيق غريال ، البحث السابق .

(2) Lewis Bernard; op. cit., p. 277.

(٣) انظر فى هذه الدراسة الفصل الرابع عشر ، الجزء الأول .

هذه الإشارة السريعة والعابرة لبعض الإجراءات ، التي اتخذها الكماليون تبذروا على طرف نقيص من تصرفات السلاطين السابقين .. فبينما ولت الجمهورية التركية وجهها شطر أوروبا تنقبض منها العلوم والثقافة ونظم التعليم والقوانين المدنية والجنائية والتجارية والبحرية ونظم الحكم والإدارة وما إلى ذلك بعيداً عن مبادئ الشريعة الإسلامية والقاعدة الإسلامية والشرقية ، التي أقام عليها أجدادهم السابقون دولة مترامية الأطراف اكتسحت جيوشها لأول مرة في التاريخ أقاليم في شرقي ووسط أوروبا ، نجد أن السلاطين - محمود الثاني ، وعبدالمجيد الأول ، وعبدالعزیز ، وعبدالحميد الثاني^(١) .. كان لهم تحفظات في كل ما اقتبسوه من الحضارة الغربية ، وقد حروا على هذه التحفظات حتى لانفقد الدولة طابعها الإسلامي البارز وطابعها الشرقي . وعلى سبيل المثال احتاطوا في النقل عن القوانين الأوروبية ، فاحتفظوا لحياة الأسرة ؛ أي لكيان الأمة الاجتماعي ، بأساسها الشرعي الإسلامي^(٢) ، وفي التزبي بالأزبياء الأوروبية أنكروا القبيحة ، بينما اعتبر الكماليون عدم استخدام القبيحة والإصرار على ليس الطريوش جريمة يعاقب عليها القانون .

أما الغرض الرابع والأخير من حملات التشهير بالسلطان عبدالحميد الثاني .. فكان رغبة القائمين على الحركة الصهيونية في تدمير سيرته ، انتقاماً منه لسياسته المعادية لأهدافهم في فلسطين . وقد عرضنا بعض معالم هذه السياسة في الفصل السابق ، ونضيف هنا حقيقتين تتصلان بالأيام الأخيرة بل وبالساعات الأخيرة من حكم هذا العامل المسلم العثماني .

الحقيقة الأولى :

أسهم الصهيونيون - بتعاون قليل أو كثير مع بريطانيا- في تأليب أعضاء جمعية الاتحاد والترقي الناقمين على حكم السلطان عبدالحميد ، وقد تلاقحت دوافع الفريقين .. فالصهيونيون يحقدون على السلطان لسياسته الرامية إلى الحد من الهجرة اليهودية إلى فلسطين ، ويحقدون عليه لأنه اتخذ من بعض كبار العرب مستشارين له في حاشيته مثل عزت العابد وأبي الهدي الصيادي وغيرهما ، وكانوا قد بلغوا شأواً بعيداً في النفوذ ، وشجعوا السلطان على المضي في معارضته للحركة الصهيونية .

أما بريطانيا فكانت تحقد على السلطان ، لأنه ولي وجهه شطر برلين واتخذ من الإمبراطور الألماني ولهم الثاني سنداً له في السياسة الأوروبية ، واستقدم إلى إسطنبول عدداً

(١) كانت سنوات حكم هؤلاء السلاطين على التوالي : ١٨٠٨-١٨٢٩ ، ١٨٢٩-١٨٦١ ، ١٨٦١-١٨٧٦ ، ١٨٧٦-١٩٠٩ .

(٢) غريال ، بحث سبق ذكره .

(٣) أنيس صايغ : الهاشميون وقضية فلسطين ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٢-٢٣ .

كبيراً من الخبراء الألمان العسكريين والمدنيين من رجال المال والهندسة ، وقاموا بتنفيذ مشروعات شتى في أنحاء الدولة ، بعد أن تبين للسلطان أن بريطانيا وفرنسا تتسابقان على اقتطاع ممتلكات الدولة . وكما تلاقت دوافع الصهيونية وبريطانيا التحمت أيضاً أهدافهما في التخلص من حكم السلطان عبدالحميد .. أراد الصهيونيون حاكماً من طراز آخر يبعد المستشارين العرب من ناحية ، ويتيح عديد الفرص أمام الصهيونيين لتحقيق أهدافهم في فلسطين من ناحية أخرى ، وأرادت بريطانيا حاكماً جديداً يعيد إليها مكانتها ، التي كانت لها في إستانبول قبل أن تنبؤ ألمانيا مكان الصدارة على سائر الدول في العاصمة العثمانية .

ولهذه الأهداف وتلك الدوافع ، رجب الصهيونيون بالانقلاب الدستوري عام ١٩٠٨ ثم بالانقلاب العسكري عام ١٩٠٩ ، وحدث ماكانوا يشتهون . فقد تغلغل الصهيونيون في مجالس جمعية الاتحاد والترقي التي تولت الحكم ، وكانوا من حيث النفوذ يجيئون في الجمعية بعد الأتراك العثمانيين . وبرز منهم عدد ليس بالقليل في الدوائر العليا في حكومة إستانبول ، ونذكر منهم على سبيل المثال طلعت باشا والذي شغل منصب وزير الداخلية ، وهو يهودي اعتنق الإسلام^(١) ، ويطلق عليه وعلى أمثاله في التاريخ العثماني الدونمة .

وقد استطاع الصهيونيون في السنة ذاتها التي تم فيها الانقلاب الدستوري تأسيس وكالة صهيونية A Zionist Agency في إستانبول ، وعينوا رئيساً لها فيكتور جاكوبسون Victor Jacobson (١٨٨٩-١٩٣٤) وهو يهودي ، روسي المولد ، تعلم في ألمانيا واكتسب الجنسية العثمانية . وكان نشاط الوكالة الصهيونية ، وتقصى أبناء نشاط العرب في العاصمة للعثمانية وموافاة الهيئة التنفيذية الصهيونية بالاتجاهات العربية نحو الهجرة اليهودية إلى فلسطين وتمليك اليهود لأراضيها ، كما كان عليها الإسهام في التمويل المالي لصحيفة Le Jeune Ture - التركي الشاب - وكانت تصدر في العاصمة العثمانية وتساند سياسة رجال الاتحاد والترقي في الحكم^(٢) .

واستطاع فيكتور جاكوبسون أن يتصل ببعض رجال السياسة العرب والصحفيين العرب في محاولات مكررة ، لإقناعهم بأنه من الخير للقومية العربية أن يكف العرب عن معارضتهم للنشاط الصهيوني في فلسطين لأنه في استطاعة الصهيونيين ، إذا أفلح العرب عن معارضتهم ، أن يساعدهم على تحقيق آمانيهم القومية^(٣) واستمرت هذه الاتصالات قائمة حتى شهر يوليو - تموز - عام ١٩١٤ ، ولكنها لم تسفر عن نتيجة إيجابية ، ويقول شتاين إنه

(١) المرجع السابق .

(2) Stern Leonard; op. cit., p. 36, 92, 93 & 206-207.

(3) Loc. Cit.

لما حوكم بعض زعماء العرب في سنة ١٩١٥ أمام دواوين عرقية^(١) في بيروت ودمشق بتهمة الخيانة العظمى وجدت السلطات العثمانية في أوراق بعض المتهمين ما يثبت قيام اتصالات بينهم وبين رجال الوكالة الصهيونية في إستانبول ، وإن هذه الأوراق قد أثبتت أن الزعماء العرب لم يستمعوا لعروض الصهيونيين ، وأن هؤلاء الزعماء قد خلصوا رأياً إلى أنه ليس في مقدور الصهيونيين مساعدة القضية العربية على حساب ولائهم للدولة العثمانية^(٢) .

وقد أسهم مع فيكتور جاكوبس في نشاطه بين العرب لغيف من الشبان الصهيونيين أصبحوا فيما بعد من زعماء الحركة الصهيونية ، كان من بينهم ديفيد جرين (بن جورون) ، وين زفي ، وموسى شرتوك (شريت) . وقد ذاع خبر هذا النشاط الصهيوني في صفوف العرب وناقشته جمعياتهم في استفاضة وعمق ووقفت ضده وحذرت الجماهير العربية منه . وقد نجحت هذه الجمعيات بفضل تيقظ أعضائها في إحباط محاولة ، قام بها جاكوبس لشراء أراض عربية في فلسطين بمبلغ ثلاثة ملايين جنيه^(٣) ، وأسس الصهيونيون أيضاً في كبرى مدن بعض الولايات العربية بعد عزل السلطان عبدالحميد ماعرف باسم المكتب الفلسطيني للمنظمة الصهيونية The Palestine Office of the Zionist Organization ، وكان يشرف على هذه المكاتب الدكتور آرثر روبين Dr. Arthur Ruppin كبير الخبراء الصهيونيين في الشؤون العثمانية . وكانت مهمته إيجاد جو من الثقة بين العرب نحو اليهود ، وتبديد مخاوف العرب من أن اليهود سيقتلون حقوقهم إذا استولوا فلسطين .

الحقيقة الثانية :

وجد الصهيونيون في القرار الذي أصدره مجلسا الأعيان - الشيوخ ، والمعبرثان - النواب - في اليوم الثامن والعشرين من شهر أبريل - نيسان - عام ١٩٠٩ بعزل عبدالحميد عن العرش فرصة لاجتياز الزمان بمثلها ، فأرادوا التلصق من هذا السلطان . وقد حمل قرار العزل إلى السلطان وقد قوامه ثلاثة أعضاء^(٤) كان أحدهم يهودياً اسمه قره صو أفندي كان يكن العداء والبغضاء للسلطان ، لأن الأخير كان قد طرده من قصره حين حاول التأثير عليه لقبول

(١) دواوين عرقية . جمع ديوان عرقى . وهو محكمة عسكرية عليا ، من اختصاصاتها محاكمة المتهمين بتهمة الخيانة العظمى ، وإصدار أحكام الإعدام عليهم ، ويصدق وزير الحربية على أحكامها . ويتكون الديوان العرقى من هبنتين : هيئة تحقيق وهيئة قضاة ، ويرأس كل هيئة ضابط ، وجميع أعضاء الهيئتين من الضباط .

(2) Stein Leonard.; op. cit., pp. 93-94.

(٣) أنيس صايغ : الهاشميين وقضية فلسطين ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٤ .

(٤) يذكر الأستاذ برنارد لويس أن عدد أعضاء الوفد ، الذي حمل قرار البرلمان إلى السلطان كان يتكون من أربعة أعضاء : اثنين من مجلس الأعيان ، واثنين من مجلس المعبرثان .

Lewis B.; op. cit., p. 217, fn. 28.

تهجير اليهود إلى فلسطين وتوطينهم فيها . ويعلق أحد الباحثين العرب على ما أسماه موقف الشماعة فيقول « وإنه لمنظر مليء بالشماعة والحقد ، أن يخلع سلطان الدولة العثمانية وخليفة المسلمين ، وأن يحمل له بلاغ الطرد أحد أبناء اليهود الذين حرم عليهم فلسطين ^(١) . فلم يكن أمراً عجباً أن أسهمت الحركة الصهيونية بأجهزتها الإعلامية والسياسية في حملات التشهير بالسلطان عبدالحميد ، الذي لم تكن له قناة أمام المخططات والمؤامرات الصهيونية لتهويد فلسطين .

* * *

(١) صالح مسعود أبو بصير ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٢-٢٣ .

الفصل التاسع

آراء محايدة

في حكم السلطان عبدالحميد الثاني (٢)

حقيقتان هامتان :

ولدراسة تاريخ السلطان عبدالحميد الثاني دراسة موضوعية محايدة ، يجب أن نوضع في الاعتبار حقيقتان هامتان :

الحقيقة الأولى :

عاصر حكم السلطان عبدالحميد للزحف الاستعماري الأوروبي في أعنف مراحله على ما تبقى من أقاليم ، لم يكن قد وصل إليها الاستعمار بعد في آسيا وإفريقية والإقياوسية . كان لدى الدول الأوروبية فائض سكاني كنتيجة من نتائج الانقلاب الصناعي في أوروبا ، وعملت أوروبا على تصدير هذا الفائض إلى أراض جديدة تستعمرها . فأصبح الزحف على تلك المستعمرات ظاهرة بارزة في السياسة الدولية في الثمانينيات والتسعينيات من القرن التاسع عشر ، وزاد عدد المستوطنين الأوروبيين في شتى المستعمرات وسارت في ركبهم البعثات التنصيرية . وكان مما ساعد على اتساع نطاق حركة للزحف الاستعماري شق قناة السويس (١٨٦٩) والتقدم المذهل في وسائل المواصلات ، مثل : بناء للسفن الحديدية التي تسير بالبخار والتوسع في مد الخطوط الحديدية ، وعلى سبيل المثال الخط الحديدى الذى أقامته الروسيا عبر سبيريا في محاولة للتوسع على حساب الصين ، وأطلق عليه الخط الحديدى عبر سبيريا Trans Siberian Railway ويبلغ طوله ٦,٦٠٠ كيلو متراً ، وينتهى عند فلاديفستوك ، وهو الميناء الحبرى الذى أقامته الروسيا على المحيط الهادى ، واستغرق مد هذا الخط الحديدى السنوات من ١٨٩١ إلى ١٩٠١ .

نظريتان استعماريتان في السياسة الدولية :

وجدير بالذكر أن نظريتين استعماريتين أصبحتا في ذلك الوقت قاعدة أساسية ركنت إليهما السياسة الدولية ؛ فظهرت للنظرية البيولوجية السياسية . وكان من مبادئها أن للدول الكبرى حقاً في التهام الدول الصغرى ، وأن الشعوب الصغيرة يجب أن تموت أو أن تقضى أمام الدول الكبرى ، وقد لحقت هذه النظرية تأييداً وانتشاراً واسعين في القرن التاسع عشر ؛ تبريراً لضراوة الزحف الاستعماري الأوروبي على أقاليم شتى في أنحاء العالم .

وأصبحت هذه النظرية البيولوجية السياسية نظرية استعمارية أخرى ، أطلق عليها Res Nullius ، أى الأرض التى لا صاحب لها ويترجمها بعض الباحثين ترجمة حرة غير حرفية على هذا النحو : الملك المباح ، وقد تنادى إليها غلاة المستعمرين . ومن مبادئها إباحة استعمار الأقاليم التى تسكنها شعوب مختلفة أو قبائل منعزلة عن ركب الحياة وغير مسيحية وخارج القارة الأوروبية .. فإن هذه الأقاليم التى تسكنها أمثال هذه الشعوب أو القبائل تعتبر فى حكم المناطق المهجورة التى لا يعرف لها صاحب ، وتصبح هذه المناطق ممتلكات شرعية لأول دولة تستطيع بقواتها المسلحة أو ببعض أفراد منها أن ترفع علمها فوق ربوعها . وقد وضع مؤتمر برلين الإفرىقى (١٨٨٤-١٨٨٥) عدة شروط لهذا الاستيلاء ؛ حتى يحدث جميع آثاره القانونية فى المجال الدولى^(١) .

الروسيا تتطلع معظم آسيا الوسطى ومعظم القوقاز :

كانت الروسيا فى خلال عشرين سنة بعد حرب القرم قد نجحت فى ابتلاع معظم آسيا الوسطى ومعظم القوقاز .. فعند سنة ١٨٦٤ ، كان التوسع الروسى الإقليمى مستمراً فى تركستان^(٢) . وفيما بين سنتى ١٨٦٥ ، ١٨٦٨ استولت للروسيا على تركستان الشرقية بما فيها طشقند وسمرقند ، وهى المدينة الشهيرة التى كان يحكم منها جنكيزخان وتيمورلنك إمبراطوريتها الشاسعة ، وأصبحت بخارى إمارة تابعة لسان بطرسبرج ، وتوغلت فى تركستان الغربية سنة ١٨٨٠ . وفى هذه السنة التقت الإمبراطوريات الثلاث : البريطانية والروسية والصينية عملياً فى مكان واحد ؛ لأن البريطانيين اندفعوا فى آسيا غرباً بقدر سرعة الروس فى الاندفاع شرقاً ، ولم يكن هناك حاجز بين أراضي كل منها إلا جبال أفغانستان وصحراء فارس .

(١) كان من أهم هذه الشروط :

(أ) شرط الحيابة . (ب) شرط الإدارة .

أما شرط الحيابة فهو العنصر المادى ، إذا ما وضعت الدولة يدها فعلاً على الإقليم سواء برقع أعلامها عليه ، أو بإصدار إعلان يجعل هذا المعنى ، بشرط أن تترك النواة على الإقليم مايكفل لها العمل على احترام سلطة العلم أو تنفيذ الإعلان . ولا ضرورة للإنفاق مع سكان الإقليم الأصليين على هذا الأمر ؛ إذ إن هذا الأمر - حتى فى حالة انقاده - لا يترتب أثراً قانونياً .

أما الشرط الثانى - وهو شرط الإدارة - فلا بد أن يتوفر فيه أمان : أولهما ثبوت النية على أن الدولة تعتزم إدخال الإقليم فى ولايتها . وثانيهما هو إقامة إدارة - فى صورة ما - على الإقليم لإظهار أن الدولة التى تحوز الإقليم تعتزم إدارة هذا الإقليم الذى أدخلته فى ولايتها . وقد أخيف هذا الشرط الأخير لتفادى النتائج التى قد تترتب على الحيابة الرمزية .

انظر :

دكتور حامد سلطان ، مرجع سبق ذكره ، ص ٧٠٨-٧١٦ .

(٢) التركستان بوجه عام هى البلاد الواقعة إلى الجنوب من الروسيا الأوروبية وسيبيريا ، وإلى الشمال والغرب من فارس (إيران) وأفغانستان .

وأصبح تهديد روسيا للهند تهديداً مباشراً ، بعد أن كان في حرب للفرم تهديداً غير مباشر بتهديد المواصلات البريطانية إلى الهند .

الروسيا تحتل بعض الأراضي الأفغانية :

وأعدت روسيا خطة لغزو الهند براً ، وكانت أفغانستان دولة حاجزة Un Etat Tampon تعتمد على بريطانيا . وفي عام ١٨٨٥ احتلت القوات الروسية بعض الأراضي الأفغانية على الحدود ، وفزع جلاستون رئيس الوزارة البريطانية من هذا التحرك العسكري الروسي . وطلب من البرلمان فتح اعتماد مالي إضافي قدره أحد عشر مليون جنيه ، واتهم روسيا بالعدوان على دولة صغيرة دون استفزاز منها ، وكانت الحرب تندلع بين بريطانيا والروسيا .. لولا أن استبان على الطبيعة استحالة مرور الوقت المسلحة في ممرات جبال الهمالايا . فولى قيصر روسيا وجهه شطر الصين ، وهي إمبراطورية شاسعة كان قد دب الوهن والانحلال في أوصالها ، وكان يطلق على إمبراطورها «ابن السماء» . ولكن أدت محاربه إلى هزيمة ساحقة لقيتها روسيا على يد دولة فنية هي اليابان عام ١٩٠٥ ، واعترفت في معاهدة بورتسموث Portsmouth المنعقدة في اليوم الخامس من شهر سبتمبر - أيلول - عام ١٩٠٥ بتنازلها لليابان عن بورت آرثر Port Arthur ، ومنشوريا ، وكوريا والنصف الجنوبي من جزيرة سخالين Sakhaline .

تقسيم فارس إلى منطقتي نفوذ روسي وبريطاني :

وقام صراع حاد بين روسيا وبريطانيا حول فارس .. أرادت كل منهما الانفراد حيناً والاستئثار بأكبر قسط من النفوذ فيها حيناً آخر ، وكان النفوذ الروسي قد تسال إلى فارس وتفاقم فيها نتيجة حالة الفساد والانحلال والفوضى التي اندحرت إليها فارس . واستطاعت روسيا أن تدخل في حرس الشاه ضابطاً من الروس إلى جانب ضباط وجنود القوزاق ، وأن تنشئ « طرقاً وتمد خطوطاً حديدية ، ويقول إنزور Ensor إنه لو لم تكن بريطانيا دولة عظمى لاستطاع قيصر روسيا ضم فارس إلى إمبراطوريته ، والوصول عن طريق الخليج العربي إلى المياه الدافئة^(١) . ويلاحظ أنه كانت لبريطانيا مصالح تجارية في الخليج ولكن مصالحها الرئيسية كانت مصالح عسكرية ، وفي ٣١ من أغسطس - آب - عام ١٩٠٧ عقدت اتفاقية بين روسيا وبريطانيا تناولت ثلاث مشكلات رئيسية ، هي : فارس ، وأفغانستان ، والتبت . وتم بمقتضاها تقسيم فارس إلى منطقتي نفوذ : إحداهما في الشمال للروسيا ، والأخرى في الجنوب لبريطانيا ، وبينهما منطقة وسطى محايدة تركت لفارس ، مع اعتراف الدولتين بسيادة الشاه على

(1) Ensor R.C.K.; op. cit., pp. 402-403.

المنطقتين الروسية والبريطانية^(١) .

وبخصوص أفغانستان تعهدت روسيا ألا تقيم معها علاقات سياسية إلا عن طريق بريطانيا ، في مقابل تعهد بريطانيا بعدم إحداث أى تغيير في الوضع السياسى لأفغانستان أو اتخاذ أى إجراء ينطوى على تهديد للروسيا . أما بخصوص التبت .. فتعهدت الدولتان بعدم التدخل فى شئون هذا الإقليم وألا تبعثا بممثلين لهما إلى لاسا Lhasa عاصمة التبت ، وألا تدخلتا معها فى مفاوضات إلا عن طريق إمبراطور الصين صاحب السيادة على التبت .

محاولة روسيا إنشاء مستعمرة لها فى شرقى إفريقية :

وامتدت الأطماع الاستعمارية للروسيا فى الثمانينيات من القرن التاسع عشر إلى إنشاء محطة للفحم لسفنها على ساحل إفريقية الشرقى ؛ أى على خطوط المواصلات البحرية إلى منطقة الخليج العربى والهند والشرق الأقصى ؛ على أمل أن تطور هذه المحطة فيما بعد إلى قاعدة بحرية روسية لتنتهى بإنشاء مستعمرة لها على غرار المستعمرات ، التى أنشأتها بريطانيا وفرنسا وإيطاليا فى شرقى إفريقية . وتكلمت الصحف الروسية عن مشروع «أول مستعمرة روسية فى إفريقية»^(٢) ، وارتبط هذا المشروع فى أذهان الدوائر العليا فى الروسية بفرض نوع من الحماية الدينية على مسيحيي الحبشة .. فكان هذا المشروع الروسى الاستعمارى مزيجاً من أهداف متشعبة عسكرية وسياسية ودينية واقتصادية .

واتخذت روسيا خطوات تهديدية لتنفيذ مشروعها . ففي اليوم العاشر من شهر ديسمبر - كانون أول - عام ١٨٨٨ أبحر أتشينوفا Atchinoff ، وهو كاهن قوقازى ، ومعه وفد يتكون من مائتين من الرهبان والعسكريين والصناع والنساء والأطفال الروس من ميناء أودسا على ظهر إحدى السفن الروسية وسط شعور قياض من الحماس متجهاً إلى البحر الأحمر عبر قناة السويس ، ولما بلغت السفينة مصموع رفضت السلطات الإيطالية السماح لأفراد الوفد بالنزول ، فواصلت السفينة رحلتها جنوباً إلى ميناء تاجورة فى يناير - كانون ثان - عام ١٨٨٩ ونزل جماعة من الوفد فى ساجالو Sagallo ، وهو ميناء مهجور يتبع مستعمرة أوبوك الفرنسية ، وقام أعضاء الجماعة على الفور برفع راية البحرية الروسية على الميناء .. مما دل على أن أتشينوفا أراد اتخاذ هذا الميناء قاعدة لعملياته سواء فى ذلك الوقت أو فى الزمن الآجل ؛ مما أزعج

(١) تعرضت المواد الخاصة بفارس لنقد شديد فى كل من الروسية وبريطانيا ؛ ففي الروسية هاجمها الكونت ويست Witte الذى تولى رئاسة الوزارة فيما بعد ، فأنزل إن الاتفاقية تنق عبثة فى سبيل تقدم الروسية جنوباً فى فارس . بينما هاجمها لورد كرزون Curzon نائب الملك فى الهند ، على أساس أن منطقة النفوذ التى أعطيت للروسيا تضم إحدى عشرة مدينة من اثنتى عشرة مدينة ، من أمهات المدن الفارسية .

(٢) الدكتور السيد محمد رجب حراز : التوسع الإيطالى فى شرقى إفريقية ، وتأسيس مستعمرتى إريتريا والصومال . مطبعة جامعة القاهرة ، عام ١٩٦٠ ، ص ٢٩٨ .

السلطات الفرنسية في أوبوك وأمرت في اليوم السابع عشر من شهر فبراير - شباط - عام ١٨٨٩ إحدى السفن الفرنسية بإطلاق مدافعها على ساجالو بحجة أن وفد أنشونوف غير مكف رسمياً من الحكومة الروسية بالزول في هذا الميناء . وقد اضطر أنشونوف إلى طلب التسليم بعد أن قتل من الوفد الروسي عشرة رجال . وعندئذ سمحت السلطات الفرنسية للرهبان الروس من جماعة أنشونوف بالسفر إلى داخل الحبشة ، وأعادت أنشونوف والأعضاء العسكريين الروس إلى السويس حيث استقلوا سفينة روسية عادت بهم إلى بلادهم^(١) .

وعلى الرغم من هذا الإخفاق مضت الحكومة الروسية في مشروعها ، فانتهزت فرصة اعتلاء النجاشي منليك الثاني العرش في نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٨٨٩ عقب موت النجاشي يوحنا لكي تحصل من العامل الحبشي الجدي على موقع في شرقي إفريقيا . وتأسست في روسيا عام ١٨٨٩ جمعية تهدف إلى تأسيس مستعمرة روسية على ساحل الحبشة تكون بمثابة محطة بحرية للقمع على الساحل الشرقي لإفريقية . وأرسلت الحكومة الروسية في ذات السنة الضابط ماشكوف Machkoff في سفارة خاصة إلى الحبشة للدعاية الروسية وإظهارها بمظهر الدولة المتعاطفة معها والحانية على رعاياها المسيحيين والوقوف على جانبهم ضد الأطماع الإيطالية الرامية إلى تحويل هؤلاء الرعايا من المذهب الأرثوذكسي إلى المذهب الكاثوليكي . وظفر هذا المبعوث الروسي باستقبال طيب من النجاشي منليك الثاني الذي كان يطمع في الحصول على تأييد روسيا للحبشة في نضالها ضد إيطاليا . وعلى ذلك كانت الحكومة الروسية متفقة مع حكومة النجاشي في ذلك الوقت على هدم النفوذ الإيطالي في الحبشة . ثم رأت الحكومة الفرنسية في أوائل العقد التاسع من القرن التاسع عشر أن تنسق سياستها مع روسيا والحبشة من أجل مصالحها الاستعمارية في تقويض التسلل الإيطالي إلى الحبشة حتى تستطيع تحطيم الحصار الذي فرضته إيطاليا على المستعمرة الفرنسية أوبوك^(٢) . فحصل إلى أعالي النيل والسودان عن طريق شرقي إفريقيا وتنافس بريطانيا في السيطرة على وسط إفريقيا . ولكن كان تشجيع بريطانيا للوجود الإيطالي في شرق إفريقيا كفيلاً بتبديد آمال روسيا وفرنسا والحبشة معاً .

خصائص استعمار إفريقية :

والحق أنه في استعمار إفريقية تبدو ثلاث خصائص ، هي : البداية المتأخرة ، والزحف

(١) المرجع السابق ، ص ٢٩٨-٢٩٩ .

(٢) انتقلت السلطات الفرنسية عام ١٨٩٠ من مقرها في أوبوك إلى جيبوتي ، وهي ميناء أسسته على رأس جيبوتي ؛ نظراً لأن الموقع الجديد يسيطر على طرق القوافل من هرد الحبشة . وأصبحت جيبوتي عاصمة المستعمرة ، وهجر التجار الفرنسيون أوبوك واتجهوا بقوافلهم إلى العاصمة الجديدة .

الكاسح ، والاستعمار قصير الأمد نسبياً^(١) . ففي آسيا بدأ الاستعمار في مناطقها المدارية بصورة فعّلية في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، بينما تأخر الاستعمار الفعلي الحقيقي في إفريقيا حتى القرن التاسع عشر أى بنحو قرنين من الزمان .

وقد مر استعمار إفريقية بمرحلتين أساسيتين : مرحلة أولى طويلة الأمد استطالت نحو ثلاثة قرون من القرن ١٥-١٦ حتى القرن ١٩ ، وهي مرحلة الاستعمار الساحلى .. مرحلة مواطنى الأقدام ، ظلت القوى الاستعمارية فيها تتأرجح طويلاً أمام السواحل ، دون أن تتمكن من التغلغل إلى الداخل وذلك بسبب الجغرافية الطبيعية «القارة - الكتلة» لوجود الأنهار الحبيسة والصحارى الشاسعة والغابات الكثيفة . ولهذا السبب كان الاستغلال الاستعماري مقصوراً على أخف وأغلى السلع الساحلية وهي تجارة الرقيق ؛ ولهذا كان استعمار إفريقية في المرحلة الأولى استعماراً ديموجرافياً . وكان نزيفاً بشرياً رهيباً أصاب إفريقية بفقر الدم والضمور ، وانتزع عشرات الملايين من أبنائها ، منهم من نقل حياً ، ومنهم من مات في الطريق .

أما منذ القرن التاسع عشر وخاصة بعد مؤتمر برلين الإفريقي (١٨٨٤-١٨٨٥) .. فقد توغل الاستعمار في قلب إفريقية واستعمر الأرض لا الإنسان فحسب ، وحل الاستعمار الجغرافى محل الاستعمار الديموجرافى . وكما كان الاستعمار الديموجرافى نزيفاً بشرياً كان الاستعمار الجغرافى نزيفاً اقتصادياً رهيباً ، وهكذا لم يبدأ الاستعمار الجغرافى في إفريقية إلا في القرن التاسع عشر على الرغم من أن إفريقية كانت أقرب إلى أوروبا من آسيا ، وعلى الرغم من أن المستوى الحضارى والمادى والتنظيم السياسى لآسيا المدارية .. كان أعلى وأشد قوة منه في إفريقية البدائية نسبياً .

أما الخصيصة الثانية للزحف الاستعماري على إفريقية ، وهي أنه كان كاسحاً ، فمردها إلى أن سيطرة أوروبا لم تحدث تدريجياً أو على فترة طويلة ، بل شمت في شكل موجة فجائية سريعة انتظمت كل القارة واكتسحتها في بضعة عقود من أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين حيث كانت القوى الاستعمارية الأوروبية قد وصلت إلى أقوى درجات النمو ووسائل الحرب الحديثة المدمرة ، واستطاعت أن تغتصب لنفسها ما استطاعت أن تستولى عليه تحت ستار الملك المباح تارة ، والمجال الحيوى Lebensraum تارة أخرى .

أما الخصيصة الثالثة ، وهي قصر مدة الاستعمار الإفريقي ، فترجع إلى أن تحرير معظم أقطار إفريقية بدأ في القرن العشرين في الوقت ذاته تقريباً الذى بدأ فيه تحرر آسيا ؛ فتحرير القارتين يكادان يتعاصران على الرغم من الحقيقة التى سبق أن أشرنا إليها ، وهي أن

(١) دكتور جمال حمدان : إفريقيا الجديدة ، دراسة في الجغرافية السياسية ، القاهرة ، ١٩٦٦ ، ص

الاستعمار في آسيا كان أسبق منه في إفريقية . ولكن بدأ تحرر معظم أجزاء القارتين عقب الحرب العالمية الثانية ؛ لأن روح العصر كانت روحاً تحررية ، ولأن قوى سياسية كبرى جذبة كسرت احتكار الدول الاستعمارية الكبرى القديمة . ونخلص من هذا العرض إلى أن السلطان عبدالحميد الثاني عاصر حركة التمدد الاستعماري الأوروبي الجنوبي على إفريقية ، فانزعجت من الدولة ولايات عربية إفريقية على عهده .

الاستعمار البريطاني :

حركة الجامعة البريطانية في إفريقية :

ظهرت حركة الجامعة البريطانية (١٨٨٤-١٩٠٢) ، وهي مشروع استعماري استهدف إنشاء إمبراطورية إفريقية بريطانية ، تمتد من رأس الرجاء الصالح ويخترق القارة الإفريقية من جنوبها إلى شمالها ، والعمل على «تلوين معظم خريطة القارة الإفريقية باللون الأحمر البريطاني» ، ونفزع عن هذا المشروع مد خط حديدي يصل بين مدينتي الكاب والقاهرة .

وقد تنادى إلى حركة الجامعة البريطانية في إفريقية سيسيل رودس Cecil Rhodes (١٨٥٣-١٩٠٢) ، وهو أحد رواد الاستعمار البريطاني ، ومن أنشط رجال المال والسياسة الإنجليز .. قضى شطراً طويلاً من حياته في جنوب إفريقية ، وترك بصماته قوية في ميداني السياسة والمال . أسس سنة ١٨٩٠ شركة إفريقية الجنوبية على غرار شركة الهند الشرقية القديمة ، فأيدتها الحكومة البريطانية في غزو الأقاليم الغنية في حوض نهر زمبيزي ، وإنشاء مستعمرة روديسيا عام ١٨٩٠ . والواقع أن بريطانيا كانت قد اندفعت كالأخطبوط في مستعمرة الرأس شمالاً وشرقاً وغرباً ، وكان سكان مستعمرة الرأس فلاحين هولنديين عرفوا باسم البوير^(١) Boers ، وقد ضاقوا ذرعاً بالحكم الاستعماري البريطاني وأساليبه فنزحوا في جماعات كثيفة العدد شمالاً إلى نهر فال Vaal ، وأسما في شماليه وجنوبيه جمهوريتي الترنسفال وأورانج الحرة . وحدث أن ازدادت أهمية هاتين الجمهوريتين في نظر بريطانيا عقب اكتشاف الذهب عام ١٨٨٥ في الترنسفال والماس في الأورانج ، وتدفق عليهما جمهور من البريطانيين في

(١) البوير تعني الفلاحين الهولنديين الذين استوطنوا جنوب إفريقية ، واشتغلوا أساساً بالزراعة . وكان الهولنديون قد نزحوا إلى جنوب إفريقية في القرن السابع عشر . وظلت هولندا صاحبة السيادة على مستعمرة الرأس إلى أن تخلت عنها لإنجلترا ، أثناء حروب نابليون . لقاء ستة ملايين من الجنيهات كتعويض لها .

وكلمة بوير مشتقة من اللغة الهولندية ومعناها الفلاح الذي يعمل في فلاحه الأرض ، وأصبحت كمصطلح تاريخي تعني المستوطنين الهولنديين في جنوب إفريقية . أما في معناها العام ، فأصبح الإنجليز يطلقونها على الشخص الشرس اللفظ الفليب القلب ، وهي تكتب في اللغة الإنجليزية Boer تارة Boor تارة أخرى .

طلب الثروة وأنشأوا الخطوط الحديدية ، وقامت في وسط المناطق التعدينية في الترنسفال مدينة جوهانزبرج Johannesburg الغنية الرحيبة ، والتي غدت أعظم مركز لاستخراج الذهب في العالم . وخاف البوير أن يطفى عليهم سيل المهاجرين المغامرين ، الذين ازدادوا عتواً بعد أن يمس بمسيل رودس السيطرة البريطانية على روديسيا . وأرسل حملة بريطانية بقيادة جيمسن Jameson في ديسمبر - كانون أول - عام ١٨٩٥ ؛ لضم جمهورية الترنسفال إلى المستعمرات البريطانية لوكنها منيت بهزيمة منكرة في يناير - كانون ثان - عام ١٨٩٦ أمام كروجر Kruger الزعيم والقائد الجمهوري البويري ، واكفهر الجوبين البريطانيين والبوير . ومما زاد الموقف اشتعالاً أن ولهم الثاني إمبراطور ألمانيا أرسل في اليوم الثالث من الشهر ذاته ، عشية هزيمة الحملة البريطانية برقية تهنئة إلى كروجر ، جاء فيها «أهنتكم بإخلاص أنتم وشعبكم على نشاطكم الذي قمتم به ، دون طلب المساعدة من الدول الصديقة ضد الجموع للرحل المسلحين المعكرين للسلام الذين اقتحموا بلادكم ، وأهنتكم على نجاحكم في إعادة الأمن والمحافظة على استقلال بلادكم من هجوم خارجي» (١) .

وكان لهذه البرقية أصداء بعيدة في الرأي العام البريطاني ، أثارت فيه مشاعر الحق والأسى ، وفسرها بأنها نوع من الشتمة والتدخل الألماني المنطوي على الشر ودليل على النوايا الخطيرة لألمانيا تجاه بريطانيا . ودارت اتصالات سياسية على جانب كبير من الخطورة بين ألمانيا وفرنسا والروسيا لتنسيق خططها الرامية إلى الاستفادة من متاعب بريطانيا في حرب البوير (٢) ، وظفر البوير بعطف الشعوب الأوروبية التي نظرت إلى هذه الحرب على أنها صراع محتدم بين الحرية والاستعمار . وكان كل نصر يحرزه البوير يستقبل في أوروبا بحماس هادر ، وكل هزيمة تحل بهم تقابل بالحزن (٣) ، واستعد البريطانيون والبوير لجولة حربية أخرى لحسم الموقف .

ونشبت الحرب بعد قرابة ثلاث سنوات ، في أكتوبر - تشرين أول - عام ١٨٩٩ ، وزحف إليها المتطوعون من كل فج عميق من فجاج الإمبراطورية للوقوف إلى جانب بريطانيا الأم .. وانتصر البوير في المراحل الأولى للحرب وأظهروا صلابة في محاربة قوات بريطانية مدربة كثيفة العدد ، ولكن نجح القائدان الإنجليزيان روبرتس Roberts Frederick ووكشنر Kitchener Herbert في استرداد ماكان البريطانيون .. فقد خسروه في أول الحرب وأخذوا

(1) Ensor R.C.K.; op. cit., p. 232.

(2) Taylor A.J.P.; op. cit., pp. 387-389.

(3) Fisher H.; op. cit., p. 1068.

عاصمة الفرنسيين^(١) وعاصمة أورانج الحرة^(٢) ، واستخدم البريطانيون في محاربة البوير ، طرقاتاً متبريرة ، على حد تعبير كاميل باترمان^(٣) ؛ إذ عمدوا إلى إحراق بيوت البوير وحشّدوا النساء والأطفال في نقاط عسكرية كانوا يموتون فيها من الجوع والبرد والأمراض وأوهنوا مقاومتهم . وانتهت الحرب بعد معاهدة فيرينينج Vereeniging (٣١ من شهر مايو - آيار - عام ١٩٠٢) وبمقتضاها ضمت بلاد البوير إلى الممتلكات البريطانية وجعلت اللغة الإنجليزية لغة رسمية وأُجيز استخدام اللغة الهولندية في المحاكم وكذلك في المدارس إذا أراد أباء للتلاميذ ذلك . وهكذا أسدل الستار على حرب البوير ، وكانت حرباً استعمارية ضارية عاصرت حكم السلطان عبد الحميد الثاني ، واستندت كثيراً من موارد الإمبراطورية البريطانية ، ونحمت بسببها خسائر فادحة في الأرواح والأموال^(٤) .

ومن أجل تحقيق فكرة حركة الجامعة البريطانية في إفريقية ، استولت بريطانيا على مديرية خط الاستواء ، بعد أن طردت منها أمين باشا^(٥) مدير المديرية في أوائل سنة ١٨٨٩ . وكانت هذه المديرية هي المنطقة الوحيدة التي لم يستطع المهدي وخلفاؤه أن يسيطروا نفوذهم عليها^(٦) ، واستولت بريطانيا أيضاً على أقاليم شتى في غربي وشرقي إفريقية . ففي غربي القارة استعمرت نيجيريا ، وساحل الذهب ، وسيراليون ، ومصب نهر غمبيا . وفي شرقي القارة استعمرت أوغندا وكنيا^(٧) والصومال ، واحتلت مصر عام ١٨٨٢ ، ثم رحلت عنها بمقتضى إتفاقية ١٩ يناير - كانون ثان - عام ١٨٩٩ .

والحق أن حكم الملكة فيكتوريا شهد نشاطاً واسعاً في ميادين الاستعمار والتسلط . واستطال حكمها أكثر من ثلاثة وستين عاماً (١٨٣٧-١٩٠١) ، وأطلق عليه العصر الفيكتوري

(١) بريثوريا Pretoria .

(٢) بلومفونتين Bloemfontein .

(٣) Methods of Barbarism وكان هنري كاميل باترمان Sir Henry Campell-Bannerman من أعلام حزب الأحرار في مجلس العموم ، ألف وزارته الأولى والوحيدة في ديسمبر - كانون أول - عام ١٩٠٥ وظلت في الحكم إلى أن قضى نفيه في ٢٢ من أبريل - نيسان - عام ١٩٠٨ ، وخلفتها في الشهر ذاته وزارة أسكويت Asquith الأولى . ومما يذكر أن كاميل باترمان أعطى - وهو رئيس وزارة - حكومة مسئولة للترنسفال وأورانج الحرة سنة ١٩٠٨ .

(٤) بلغت خسائر بريطانيا في حرب البوير ٥٠٧٧٤ قتيلًا ، ٢٢٠٨٢٩ جريحاً ، وأكثر من ١٦٠٠٠٠ مائتا بالحي ، وتكبّت ٢٢٢ مليون جنيه .

(٥) هو طبيب ألماني عمل حيناً في خدمة الدولة العثمانية ، ثم اعتنق الإسلام ، واختار لنفسه اسم محمد أمين الحكيم .

(٦) عبد الرحمن الراجعي : مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال (تاريخ مصر القومي منذ سنة ١٨٨٢ إلى سنة ١٨٨٢) ، الطبعة الثانية ، ١٩٤٨ ، القاهرة ، الناشئ مكتبة النهضة المصرية . ص ١٤٥-١٥٣ .

(٧) اغتصبت بريطانيا من أملاك مصر الجنوبية أوغندا ، وأنييرو ، ومنطقة البحيرات ، والجزء الجنوبي من مديرية خط الاستواء القديمة .

The Victorian Age ، وأضيف في عام ١٨٧٦ إلى ألقابها لقب جديد هو «إمبراطورة الهند، على عهد وزارة دزرائيلي الثانية رغبة في إيجاد مزيد من علائق التبعية بين شبه القارة الهندية ، ودولة تقع على جزيرة كبيرة ثانية في أقصى الطرف الشمالي الغربي من أوروبا (١) . وكان للعصر الفيكتوري خصائصه في الاستعمار البريطاني المتعدد القارات ، والسياسة الخارجية المحسوبة بحساب دقيق ، والإصلاحات الداخلية المتعددة ، كما ازدان مجموعة من أعلام الفكر ، تركوا بصماتهم قوية في مسيرة الحضارة الإنسانية .

الاستعمار الفرنسي :

انطلقت فرنسا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، تؤسس لها مستعمرات واسعة وعديدة في إفريقية وآسيا ، بالإضافة إلى المستعمرات التي كانت لها قبل ذلك التاريخ (٢) ، ولنا عدة ملاحظات على حركة التوسع الاستعماري الفرنسي ، نذكر منها :

أولاً : إن كارثة سيدان (٢ من سبتمبر - أيلول - عام ١٨٧٠) التي تعرضت لها فرنسا في الحرب السبعينية لم تؤثر على سياستها التوسعية الاستعمارية ، بل على النقيض ازدادت هذه السياسة نشاطاً ابتغاء دعم مركز الجمهورية الثالثة في نظر الرأي العام الفرنسي ؛ حتى لا يتهمها بأنها استكانت للهزيمة العسكرية وأصبحت تؤثر الملامة والانكماش الإقليمي . وكانت حكومة الجمهورية تجد تشجيعاً من ألمانيا على توجيه طاقاتها العسكرية نحو الاستعمار ، بدلاً من توجيهها إلى استعادة الألزاس واللورين من ألمانيا . وكان في انطلاق فرنسا إلى ميادين الاستعمار خارج أوروبا ؛ إرضاء لكبريائها ووسيلة لتستعيد مكانتها كدولة كبرى في السياسة الدولية .. ولذلك كان من المعالم الهامة في تاريخ السياسة الاستعمارية لفرنسا أن الغالبية الساحقة من مستعمراتها الكبرى قد تأسست بعد كارثة سنة ١٨٧٠ ، وكان الشعاع الذي تردد على ألسنة الجماهير الفرنسية هو "La France se renaîtra" ، أي ستولد فرنسا من جديد .

ثانياً : إن اختيار فرنسا قد وقع على إفريقية لتكون الميدان الأساسي للاستعمار الفرنسي ، وقد بدأت غزوها من الشمال وتوغلت في جوف القارة ، وامتدت إلى شرقها وغربها .

ثالثاً : إن نهمها الاستعماري امتد إلى ممتلكات الدولة العثمانية . قبل منتصف القرن التاسع

(١) انظر أسانيد دزرائيلي رئيس الوزارة البريطانية في مواجهة المعارضة العنيفة ، في مجلس العموم والبرديات ، عند النظر في قانون إضافة لقب إمبراطورة الهند إلى ألقاب ملكة إنجلترا .

Ensor R.C.K., op. cit., pp. 38-39.

(٢) كانت فرنسا قد فقدت معظم مستعمراتها في القرن الثامن عشر ، خصوصاً في الهند وأمريكا ، وأصبحت لاتملك في سنة ١٨١٥ إلا بعض بقايا المستعمرات القديمة ، وسهينجال ، وجزيرة ريونيون ، وجوبان ، وجويلوب ، ومارتنيك ، ومدائن الهند الخمس .

عشر، ثم بعده إبان حكم السلطان عبدالحميد الثاني (الجزائر ١٨٣٠، وتونس ١٨٨١).

رابعاً : وكما أن بريطانيا ناددت إلى حركة الجامعة البريطانية، في إفريقية - كما مر بنا - ومانفزع عن هذه الحركة من محاولات لمد خط حديدي يخترق القارة الإفريقية اختراقاً طولياً من مدينة الكاب إلى مدينة القاهرة .. سعت فرنسا منذ أوائل العقد التاسع من القرن التاسع عشر لتنفيذ مشروع استعماري على شاكلته، أطلق عليه ومشروع البحر الأحمر - المحيط الأطلنطي، ، ويقوم على مد خط حديدي يخترق القارة الإفريقية اختراقاً عرضياً من الساحل الغربي للبحر الأحمر إلى ساحل إفريقية المطل على المحيط الأطلنطي، بالزحف من الشرق والغرب معاً صوب حوض النيل الأعلى . وكان لفرنسا مستعمرات على سواحل خليج تاجورة المطل على خليج عدن - مستعمرة الصومال الفرنسي - وكانت تمتلك أيضاً مستعمرات واسعة في إفريقية الغربية . وكانت أهداف فرنسا من هذا التوسع الاستعماري في جوف إفريقية هو الوصول إلى منابع النيل من الحيشة ، عن طريق نشر النفوذ الفرنسي فيها على أنقاض النفوذ الإيطالي^(١) من ناحية، وإرسال حملات عسكرية من الممتلكات الفرنسية الإفريقية إلى حوض النيل ابتغاء الاستيلاء على إقليم بحر الزغال على وجه الخصوص ؛ استناداً إلى أن هذا الإقليم تنطبق عليه نظرية «الملك المباح» ، منذ أن أخلى المصريون السودان للاستيلاء على فاشودة، ورفع العلم للفرنسي عليها من ناحية أخرى^(٢) .

خامساً : أن زحفها الاستعماري على إفريقية واستغلال مستعمراتها اقتصادياً وعسكرياً وإنشاء خطوط للمواصلات البحرية للأسطول الفرنسي ومحطات أمانة له .. كل ذلك وكاب زحفها على آسيا لذات الأغراض ، وقد نجحت في كلتا القارتين نجاحاً بعيداً^(٣) .

(١) كان النفوذ الإيطالي في الحيشة قد تعرض الكارثة : نتيجة الهزيمة الساحقة التي نزلت بالقوات الإيطالية على يد الأخباش في واقعة عدوة في أول مارس - آذار - عام ١٨٩٦ ، ويبلغ عدد القتلى الإيطاليين أربعة آلاف وعدد الأسرى ألفين . ونتج عن هذه المعركة استقلال الحيشة استقلالاً كاملاً ووسعت الحدود بين إريتريا والحيشة عند الخط النهرى «مارب - بيليسا - مونا» Mareb - Belesa - Mona .

(٢) انظر تقسيمات واقية من هذا الموضوع في كل من :

دكتور محمد فؤاد شكرى مصر والسودان ، مرجع سبق ذكره ، ص ٤٤-٤٥ و دكتور السيد محمد رجب حراز ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٢٩-١٥٨ ، ٢٢٢ .

دكتور محمد رياض وبكتورة كوش عبدالرسول : إفريقيا : دراسة لقومات القارة ، بيروت ، ١٩٦٦ ، ص ٢٨-٣٦ .

(٣) أنشأت فرنسا مستعمرة فرنسية واسعة في وادي الكونغو - الكونغو الفرنسية - (١٨٧٦-١٨٨٥) بجانب دولة الكونغو الحرة وسميت هذه المستعمرة (إفريقية الاستوائية الفرنسية) . وبوسط حمايتها بعد سنة ١٨٨٠ على أراضي واسعة في حوض النيجر ، وأمدت نفوذها حتى بحيرة تشاد ، وسميت المنطقة الجديدة السودان الفرنسي (١٨٩٠-١٨٩٨) . واحتلت في سنة ١٨٩٢ تومبيكتو - وهي من المدن الإسلامية =

سادساً : اتخذت فرنسا من بعض جزرها النائية في الإقيانوسية ، مثل : كالدونيا الجديدة Nouvelle Caledonie ، وإيريد الجديدة Nouvelles Hebrides منفى لزعماء الجزائر الوطنيين ، ومثوى لأرباب السوابق الفرنسيين لتطهير المجتمع الفرنسي من شرور الآخرين .

نزول ألمانيا وإيطاليا وبلجيكا ميادين الاستعمار :

أولاً : الاستعمار الألماني :

وفي أثناء حكم السلطان عبدالحميد ، نزلت ألمانيا وإيطاليا وبلجيكا ميادين الاستعمار . كان بسمارك المستشار الألماني يصرح طوال السنوات الأولى عقب قيام الاتحاد الألماني أنه لا ينطلع إلى الاستعمار ، وأنه ينظر إلى المستعمرات على أنها من قبيل الكماليات بالنسبة لدولة ناشئة مثل ألمانيا ، وأن الجهود يجب أن تتضافر لتنظيم البناء الداخلي والذي شديده بالحدود والثار . ومن أقواله في هذا الصدد «إني لست رجلاً استعماريًا ، ولست في حاجة إلى مستعمرات على الإطلاق ؛ لأنها تثير القلاقل والمشكلات .. إن مثل المستعمرات لنا نحن الألمان ، كمثّل الملابس الحريرية التي يرتديها الشريف البولندي وليس تحتها ملابس داخلية يستر بها عورته» . ولكنه تراجع عن هذه السياسة أمام ضغط الرأي العام الألماني ، فانتهج سياسة استعمارية نشيطة معللاً إياها بقوله «إن للضرورة أحكاماً» . ففي سنتي ١٨٨٤ ، ١٨٨٥ غدت ألمانيا تملك مستعمرات بلغت مساحتها في إفريقية وحدها بضعة ملايين من الأميال المربعة من الأرض؛ فضلاً عن قواعد في آسيا وجزر في الإقيانوسية ، اتخذتها محطات لها (١) .

= الشهيرة بتجاربتها وموقعها على رأس خط قوافل شمالي إفريقية - وسيطرت فرنسا على جزء كبير من الصحراء ، التي تفصل الجزائر عن السنغال ومئات الممتلكات الفرنسية على خليج غينيا . وأعلنت حمايتها سنة ١٨٩٢ على داهومي وساحل العاج وغانة . وأنشأت في عام ١٨٩٥ ماعرف باسم إفريقية الغربية الفرنسية . وربطت السلطات الفرنسية ساحل العاج وداهومي بالتيجر والسودان الفرنسي ، وربطت ممتلكاتها في شمالي إفريقية بممتلكاتها في إفريقية الغربية عن طريق الصحراء وموريتانيا (١٩٠٠-١٩١٠) . واستولت سنة ١٨٨٢ على الصومال الفرنسي ، عند باب المندب وأخذت تتوغل في إقليم بحر الغزال واستولت على جزيرة مدغشقر عام ١٨٩٥ . أما في شمالي إفريقية ، فكانت قد احتلت الجزائر عام ١٨٣٠ ثم بسطت حمايتها على تونس عام ١٨٨١ واقتسمت بعد عزل السلطان عبدالحميد مراكش مع إسبانيا ، عقب منافسة حادة للغاية بينها وبين ألمانيا على هذا الإقليم الوحيد ، الذي بقي مستقلاً في شمالي إفريقية حتى عام ١٩١١ . أما في آسيا فكانت قد بسطت حمايتها على كمبوديا سنة ١٨٦٢ ، واحتلت كوشن سنين سنة ١٨٦٧ ثم دخلت في حرب ضد الصين التي تنازلت لها في سنة ١٨٨٢ عن منطقة توتكان ، واعترفت بحمايتها على ولاية أنام Annam (فيتنام) .

(١) أعلنت ألمانيا في شهر إبريل - نيسان - عام ١٨٨٤ الحماية على كل جنوب غرب إفريقية ، فيما عدا خليج والفش Walfisch Bay ؛ أي من حدود أنجولا البرتغالية حتى الحدود الشمالية لمستعمرة الرأس ، وفي شهر يوليو - تموز - من السنة ذاتها ، ضمت الخط الساحلي في الكمرن فضلاً عن توجولاند . وبـ

ولكن يلاحظ من ناحية أخرى أن المكاسب التي عادت على ألمانيا من مستعمراتها كانت ضئيلة نسبياً على الرغم من تعدد هذه المستعمرات ومساحاتها الشاسعة . فقد كانت مستعمراتها ، باستثناء إفريقيا الشرقية الألمانية ، فقيرة نسبياً في المواد الخام وغير منتجة المواد الغذائية ، كما فضلت الحكومة الألمانية في توطين المستعمرين الألمان في مستعمراتها ، فضلاً عن أن المستعمرات الألمانية كانت بعيدة عن ألمانيا؛ مما كان يعرضها لأخطار جسيمة في حالة نشوب حرب ؛ إذ كان في مكتة بريطانيا أن تعزلها تماماً عن ألمانيا (١) .

ثانياً : الاستعمار الإيطالي :

مكافحة الإجرام من أسباب الاستعمار الإيطالي :

أما إيطاليا فإن انتشار موجات الإجرام في جنوبي البلاد ؛ خصوصاً بعد إتمام الوحدة الإيطالية ، كان بداية التفكير في انتهاج سياسة نشيطة للاستعمار فيما وراء البحار لإنشاء مستعمرات إيطالية تعمل فيها الحكومة على استعلاء Sublimation طاقات المجرمين من قطاع الطرق والقتلة والصوص ، ومن إليهم من محترفي الإجرام ، واستبدال Substitution العمل الشريف بعملهم الإجرامي ، ولهذا رأت الحكومة الإيطالية نبذ سياسة العزلة من المحيط الدولي بما تحمله من معاني الاستكانة لدخل حدود الوطن الإيطالي Stay-at-hom policy كي تنطلق إلى حياة أفضل ، وفي مجالات رحبة فضيحة في ميادين الاستعمار .

= التنافس بين ألمانيا وبريطانيا على شرق إفريقيا ، وأسس الألمان في عام ١٨٨٥ «شركة إفريقية الشرقية الألمانية» Deutsche Ost Afrike Kompagnie ورد الإنجليز عليهم بتأسيس «شركة إفريقية الشرقية البريطانية» British East African Association ، وعقدت الحكومتان الألمانية والبريطانية في ٢٩ من أكتوبر - أول نوفمبر (تشرين أول وتشرين ثان على التوالي) عام ١٨٨٦ أول معاهدة بينهما لتحديد مناطق نفوذهما في شرق إفريقيا ، على حساب سلطنة زنجبار ، التي انكمشت حدودها إلى شريط ساحلي ضيق ، بعد أن استأجرت الشركتان الأراضي اللازمة لهما من زنجبار . وسميت الأقاليم التي استولت عليها ألمانيا في شرقي إفريقيا «إفريقية الشرقية الألمانية» وكانت تمدها من الشمال إفريقية الشرقية البريطانية ، ومن الجنوب إفريقية الشرقية البرتغالية ، ومن الغرب دولة الكونغو الحرة ، ومن الجنوب الغربي روديسيا .

وفي آسيا انتهزت ألمانيا فرصة قتل اثنين من المنصرين الألمان في الصين ، فاحتلت خليج وميناء كيأو - شو Kiao - Shaw في نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٨٩٧ ، ثم توغلت في شانتونغ Shantung . وفي الإقباتونية أسست ألمانيا عام ١٨٨٤ شركة غينيا الجديدة الألمانية ، وبعد نزاع طويل مع بريطانيا قسمت غينيا الجديدة إلى قسمين : الشمالي لألمانيا ، والجنوبي لبريطانيا ، كما استولت على عدد من الجزر الأخرى في الإقباتونية .

(١) دكتور محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربي (١٥١٤-١٩١٤) ، القاهرة ، د.ت ، ص ٢٠٨ .

عوامل أخرى دفعت إيطاليا إلى الاستعمار :

كما واجهت الحكومة الإيطالية مشكلات داخلية أخرى ، دفعتها إلى الاتجاه إلى الاستعمار ، كان من بينها : الأزمات المالية المتلاحقة ، وتدهور مستوى معيشة السكان ، وهبوط قيمة العملة ، وارتفاع الأسعار ، وكثرة تغيير الوزارات ، وتزايد عدد السكان تزايداً رهيباً ، ثم كانت هناك الأحلام التاريخية ، التي كانت تداعب خيال الإيطاليين بإنشاء إمبراطورية شاسعة الأطراف ، على غرار الإمبراطورية الرومانية القديمة وكانت عاصمتها روما ، وذهبت أحلام الإيطاليين إلى محاولة جعل البحر المتوسط ، أو حوضه الشرقي على الأقل ، بحيرة إيطالية^(١) . وظهرت أطماع إيطاليا في الدولة العثمانية ، بعد أن استقامت الوحدة السياسية في سنة ١٨٧٠ لهذه الدولة الوليدة ، التي كان يطلق عليها «كبرى الدول الصغرى» ، حيناً وصغرى الدول الكبرى» ، حيناً آخر^(٢) . وحدث تسابق بينها وبين فرنسا على امتلاك تونس ، وبذلك إيطاليا محاربتين لانتزاع تونس من الدولة العثمانية .

وكانت المحاولة الأولى سنة ١٨٧٠ عقب انهيار فرنسا نتيجة للكارثة ، التي نكبت بها بهزيمتها في معركة سيدان في اليوم الثاني من شهر سبتمبر - أيلول - عام ١٨٧٠ أمام بروسي وانفجار الثورة في باريس وإعلان الجمهورية الثالثة في اليوم الرابع من ذات الشهر ، وجاءت المحاولة الثانية في أعقاب مؤتمر برلين عام ١٨٧٨ ، وإزدياد نفوذ النمسا والمجر في البحر الأدرياتي والبلقان ، بعد أن احتلت هذه الإمبراطورية الثانية الولاياتين العثمانيتين البوسنة والهرسك في غربي البلقان .

ولكن ساندت بريطانيا دبلوماسياً فرنسا ليمسح حمايتها على تونس ، ولم تكن إيطاليا تملك القوة أو النفوذ لمنع فرنسا من بسط حمايتها على تونس عام ١٨٨١ ، ثم وقع حادث هام أدى إلى نشاط محمود في حركة الاستعمار الأوروبي وهى إيطاليا ميداناً رحيباً للتوسع الاستعماري ، وأتاح في الوقت ذاته فرصة أمام بريطانيا لإرضاء المطامع الإيطالية في الاستعمار والكيد لفرنسا . كانت بريطانيا قد احتلت مصر عام ١٨٨٢ ، ثم ضغطت على الحكومة المصرية سنة ١٨٨٤ لإخلاء السودان وسحب الجيش المصري من أرجائه . ووجدت بريطانيا عميلاً من عملائها يقبل هذا الأمر أو النصيحة ، وهو نوبار باشا بعد أن رفض شريف باشا رئيس الوزارة الاستجابة لرغبة بريطانيا ، وألف نوبار وزارته الثانية في ١٠ من يناير - كانون ثان - عام ١٨٨٤^(٣) على أساس إخلاء السودان . وحدث تسابق بين بريطانيا وفرنسا وإيطاليا والعيشة بل

(١) انظر عرضاً رانعاً لمشكلات إيطاليا الداخلية بعد الوحدة في رسالة دكتوراه السيد محمد رجب حراز ، مرجع سبق ذكره ، ص ٥-٢٥ .

(٢) دكتور محمد مصطفى صفوت : الاحتلال الإنجليزي لمصر إلخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٥٤ .

(٣) ألف نوبار باشا وزارته الأولى على عهد الخديوي إسماعيل في ٢٨ من أغسطس - آب - عام ١٨٨٤ ، وظلت في الحكم حتى ١٩ من فبراير - شباط - عام ١٨٧٩ .

وبلجيكاً على الاستيلاء على الممتلكات المصرية التي أصبحت في نظر هذه الدول وطبقاً للنظرية الاستعمارية ملكاً مباحاً ؛ فأنشأت بريطانيا مستعمرة الصومال البريطاني وتطل على خليج عدن ، وأسست في الداخل على أنقاض مديرية خط الاستواء محمية أوغنده . وأنشأت فرنسا مستعمرة الصومال الفرنسي عند باب المندب وأخذت تتوغل في إقليم بحر الغزال ، واستولت الحبشة على هرر ، واستطاع ليوبولد الثاني ملك بلجيكاً تعديل حدود دولة الكونغو الحرة ، على حساب قسم من أملاك مصر في مديرية خط الاستواء^(١) .

أما إيطاليا ، وقد كان لها نشاط تجارى ملحوظ في البحر الأحمر ، فقد تطلعت إلى تأسيس مستعمرات لها على أنقاض أملاك مصر^(٢) ، ولقيت تشجيعاً من بريطانيا في هذه السياسة الاستعمارية ، لسببين : أولهما ، أن فرنسا كانت تعارض بريطانيا منذ أن احتلت الأخيرة مصر وبذلك قصار جهدها لإنهاء الاحتلال البريطاني لمصر بينما كانت إيطاليا تؤيد بريطانيا قلباً وقالباً ، فأرادت أن تكافئ إيطاليا على موقفها الردي . وثانيهما اشتداد التنافس بين بريطانيا وفرنسا على استعمار إفريقية ، فأرادت بريطانيا أن تتخذ من الوجود الإيطالي في شرقي إفريقية سداً منيعاً في وجه فرنسا ، ومشروعاتها التوسعية للوصول من مستعمرة الصومال الفرنسي إلى منابع النيل وأصقاع شتى من إفريقية الوسطى . وهكذا كانت بريطانيا تصانع إيطاليا وتتخذ منها كما قيل «كلب الجنائى»^(٣) أى الكلب الذى يحرس لسيدته بريطانيا أملاكها . وقد رحبت بهذا التشجيع البريطانى الوزارة الإيطالية التى كان رأسها دبريتيس Agostino Depretis ، وكان وزير الخارجية فيها مانثيني Pasquale Stanislao Mancini الذى ينسب إليه القول المشهور «إن مفاتيح البحر المتوسط توجد في البحر الأحمر»^(٤) ، وقد استطاعت إيطاليا أن تؤسس عدداً لا بأس به من المستعمرات ، كان معظمها على حساب الممتلكات المصرية في إفريقية ، وعلى حساب الدولة العثمانية في طرابلس الغرب وولاية برقة^(٥) .

(١) بخصوص توسع بلجيكاً صوب حوض النيل ، انظر تحت عنوان حاجز لادو Lado Enclave كتاب دكتور محمد فؤاد شكرى ، مصر والسودان إلخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ٤٦٠-٤٦٤ .

(2) El-Sayed Ragab Harraz; Italy and the Beginnings of Her Colonial Empire in East Africa. Cairo, 1959, pp. 33-51.

(٣) دكتور محمد صبرى : الإمبراطورية السودانية في القرن التاسع عشر ، القاهرة ، ١٩٤٨ ، ص ١٦٤-١٦٥ .

(٤) دكتور السيد محمد رجب حراز ، مرجع سبق ذكره ، ص ٤٤-٤٥ .

(٥) استولت إيطاليا في عام ١٨٨٢ على عصب ، الواقعة على الساحل الإفريقى البحر الأحمر ، عند خليج عصب عن طريق امتلاك أراض واسعة ، كانت قد اشترتها شركة رويالينو Rubatineo الإيطالية للملاحة من زعماء ومشايخ هذه المنطقة سنة ١٨٨٠ لاستخدامها في الأغراض التجارية ، ثم استطاع منصر إيطالى اسمه سابيتو Sabitto أن يعقد في عام ١٨٨٠ اتفاقيات باسم الشركة الإيطالية مع مشايخ المنطقة ، تعهد فيها نيابة عن الشركة بأن تقوم الحكومة الإيطالية بحماية ومساعدة هؤلاء الحكام =

ثالثاً : الاستعمار البلجيكي :

مؤتمر برلين الإفريقي (١٨٨٤-١٨٨٥) :

كان من مظاهر النهب الاستعماري وتنظيمه بإرضاء الطابع القانوني والطابع الدولي عليه اجتماع مؤتمر برلين الإفريقي ، خلال الفترة من شهر أكتوبر تشرين أول - عام ١٨٨٤

= وخلفائهم من بعدهم ، مقابل تمهيدهم بعدم التنازل عن شيء من أراضي بلادهم لولة غير إيطاليا ثم عقدت الحكومة الإيطالية مع شركة رويالينو اتفاقاً في مارس - آذار - عام ١٨٨٢ ، تنازلات فيه للحكومة الإيطالية عن حقوقها في خليج عصب مقابل ٤١٧,٠٠٠ ليرة إيطالية ، تدفعها الحكومة على ثلاثة أقساط ووافق مجلس النواب الإيطالي في ٥ يوليو - تموز - عام ١٨٨٢ على هذا الإنفاق ، وانتقلت ملكية إقليم عصب من هذه الشركة إلى الحكومة الإيطالية ، وأصدر مجلس الوزراء قانوناً في اليوم ذاته بتحويل عصب إلى مستعمرة أطلق عليها مستعمرة عصب Colonia di Assab .

واحتلت إيطاليا في ٢٥ من يناير - كانون ثان - عام ١٨٨٥ ثغر بيلول ، الواقع شمالي عصب ، ثم احتلت في ٥ من فبراير - شباط - عام ١٨٨٥ ثغر مصوع ، وأعلنت في ٢٥ من يوليو - تموز - عام ١٨٨٨ سيادتها عليه بجدة أن الحكومة المصرية قامت بإخلاء السودان ، وسحبت القوات المصرية من أرجائه مما جعل مصوع ملكاً مباحاً . ثم زحفت القوات الإيطالية بعد أسابيع قليلة من احتلالها مصوع على بعض المواقع الداخلية فاستولت على مونكولو Monkullo وأوتوملو Otumlo . وفي ١١ من أبريل - نيسان - عام ١٨٨٥ احتلت إيطاليا أرافالي Arafali الواقعة على خليج أنسلي وأركيلو ، وزولا ، وميدر Meder ، وإيد Edd ، وجزر حوافيل Hawakil . وعلى هذا النحو مدت إيطاليا نفوذها الاستعماري على ساحل البحر الأحمر الإفريقي من رأس قصار - جنوبي سواكن - شمالاً إلى حدود مستعمرة أديوك الفرنسية جنوباً . وأصدر ملك إيطاليا مرسوماً في أول يناير - كانون ثان - عام ١٨٩٠ بتوحيد الممتلكات الإيطالية على الساحل الإفريقي ، الملل على البحر الأحمر تحت اسم مستعمرة إريتريا Eritrea ، وهذا الاسم مشتق من التسمية اللاتينية التي كان يطلقها الجغرافيون الرومان على البحر الأحمر ، وهي البحر الإريترى Mare Erythraeum .

ووجهت إيطاليا أنظارها أيضاً إلى الساحل الإفريقي المطل ، على المحيط الهندي من رأس غرداوي شمالاً حتى مصب نهر جوبا جنوباً . وبدأت بإنشاء علاقات صداقة مهتد لملاقات تجارية أول الأمر مع الزعماء المحليين ، الذين يطلق عليهم «سلاطين» ، ثم أخضعت سلطنة أوبيا Obbia للحماية الإيطالية عام ١٨٨٩ ، وتعهد سلطان أوبيا بعدم إبرام أي معاهدة مع أي حكومة أخرى إلا بموافقة الحكومة الإيطالية ، ثم خطط خطة توسعية أخرى فعقدت في ٧ من أبريل - نيسان - عام ١٨٨٩ معاهدة مع سلطان ميجورين Migerin ، وافق فيها على بسط الحماية الإيطالية على كل بلاده وممتلكاته . وتضمنت المعاهدة النص التقليدي بتعهد السلطان بالامتناع عن إبرام أي معاهدة مع أي حكومة أخرى . وكانت تعمل من ناحية أخرى على بسط نفوذها على الحبشة ، ونجحت في عقد معاهدة أوتشالي في ٢ من مايو - أيار - عام ١٨٨٩ ، ثم تطلعت إلى فرض الحماية الإيطالية على ساحل الصومال الجنوبي ، ويطلق عليه ساحل بنادر - وهو يقع جنوبي سلطنتي أوبيا ، وميجورين ، لأن ساحل بنادر يضم عدداً من الموانئ تعد الحبشة بمنافذ هامة على المحيط الهندي . واجتاحت الحكومة الإيطالية إلى الحكومة البريطانية لمساعدتها على امتلاك ساحل بنادر ، وكان من ممتلكات سلطان زنجبار ، لأن بريطانيا كانت صاحبة الكلمة العليا في شئون سلطنة زنجبار ، لأن بريطانيا كانت صاحبة الكلمة العليا في شئون سلطنة زنجبار ، بعد أن أصبحت هذه السلطنة منذ سنة ١٨٩٠ تحت الحماية البريطانية . ونجحت الحكومة البريطانية في ١٢ من=

إلى شهر فبراير - شباط - عام ١٨٨٥ ، وقد اشتركت في عضويته ثلاث عشرة دولة أوربية^(١) . وكان هدفه تنظيم الزحف الاستعماري على إفريقيا Scramble for Africa . وكان من أهم الموضوعات التي بحثها المؤتمر تطوير مؤسسة الكونغو (١٨٧٨-١٨٨٤) التي أنشأها ليوبولد الثاني ملك بلجيكا .. فقد أثار تطوراً مخافاً فرنسا والبرتغال بشكل عنيف ، مما أدى إلى عقد هذا المؤتمر . وكانت اتفاقية برلين التي وقعتها الدول الأوروبية عام ١٨٨٥ تقضى بتسليم حوض نهر الكونغو الشاسع إلى منظمة جديدة ، أطلق عليها دولة الكونغو الحرة Congo Free State أو دولة الكونغو المستقلة Independent State of Congo ، ويحكم الملك ليوبولد الثاني بنفسه شخصياً بمقتضى هذه الاتفاقية دولة تتراعى أطرافها إلى مليون ميل مربع . ومنعاً للنزاع ، الذي قد ينشأ عن تنافس الدول على إفريقيا الوسطى ، أعلن المؤتمر أنه لايجوز لدولة أن تبسط حمايتها على إقليم من الأقاليم ، قبل أن تبلغ هذا النبا إلى حكومات الدول الأخرى . وقرر المؤتمر أيضاً ألا تفرض حكومة حمايتها على إقليم إلا إذا كان رعايا هذه الحكومة قد استوطنوه فعلياً ورفعوا عليه أعلام دولتهم . ونجح الملك ليوبولد الثاني في تحويل الرقابة الدولية عليها إلى رقابة بلجيكية ، واستطاع أن يمنع أى دولة كبيرة أو صغيرة من الاعتداء على حدود هذه الممتلكات الشاسعة التي حصل عليها . وفي النهاية أورثها لبلاده^(٢) .

والى جانب النشاط الاستعماري المكثف في الساحة الدولية للروسيا وبريطانيا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا وبلجيكا وهولنده ، كان للبرتغال وجود استعماري في إفريقيا . فإلى جانب مستعمرتها الشاسعة في غربي إفريقيا وهي أنجولا ، كانت لها مستعمرة كبيرة تتمثل في إفريقيا الشرقية البرتغالية تجاه جزيرة مدغشقر ، وكانت لها أيضاً مستعمرة غينيا البرتغالية التي أسستها عام ١٨٨٥ ، وأنشأت إسبانيا في العام ذاته مستعمرة ريو دي أورو Rio d'Oro على الساحل الإفريقي المطل على المحيط الأطلنطي شمال غربي مستعمرة إفريقيا الغربية الفرنسية . وكان لها أيضاً غينيا الإسبانية .

= أغسطس - آب - عام ١٨٩٢ في الحصول على تنازل من سلطان زنجبار الحكومة الإيطالية عن مدن وموانئ ساحل بنادر وهي براوة ، وميركا ، ومقديشيو ، وأرشيخ ، وعلى الأراضي المجاورة لهذه الموانئ إلى مسافة عشرة أميال بحرية إلى الداخل بالنسبة للموانئ الثلاثة الأولى ، وخمسة أميال بالنسبة للميناء الرابع . وهكذا أسست إيطاليا حمايتها على ساحل الصومال الجنوبي ، المطل على المحيط الهندي مثملاً فلت في ساحل الصومال الشمالي ، مستعينة بالوسائل الدبلوماسية وبالاتفاق مع بريطانيا وتحريضها .

انتظر كلا من :

دكتور سيد محمد رجب حراز ، مرجع سبق ذكره ، ص ٥٩٠-٥٩١ ، ص ٥٩٠-٥٩١ .

دكتور رياض ويكتوريه كوتر ، مرجع سبق ذكره ، ص ٤٩-٥٢ .

(١) هي بريطانيا ، وفرنسا ، وألمانيا ، والنمسا - المجر ، والروسيا ، والدولة العثمانية ، وبلجيكا ، وإسبانيا ، والبرتغال ، وهولندا ، والدانمرك ، والسويد ، والنرويج .

(2) Grant A.J. & Temperley H.; op. cit., pp. 320-321.

التنافس الاستعماري على منطقة الخليج العربي :

كانت منطقة الخليج العربي بساحليها العربي والفارسي في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين مسرحاً لتنافس استعماري دولي حاد ، نشبت بسببه أزمات دبلوماسية عنيفة بين بريطانيا من ناحية ، وكل من روسيا وفرنسا وألمانيا والدولة العثمانية من ناحية أخرى^(١). أرادت روسيا إنشاء ميناء حربي في منطقة الخليج ، وأرادت فرنسا إنشاء قاعدة بحرية لها في ميناء مسقط وفرض الحماية عليه تحت ستار إنشاء محطة للفحم في هذا الميناء ؛ لتكون في خدمة السفن الفرنسية التي ترافق إلى مولائي الخليج . وأرادت ألمانيا مد نفوذها الاقتصادي والسياسي إلى منطقة الخليج بتنفيذ مشروع ب. ب. ب ، وهو الخط الحديدي الذي يبدأ من برلين ويمر ببيزنطة - إسطنبول - وينتهي في بغداد ، كمقدمة لها مابعدا من أهداف عسكرية بعيدة بعد هذه الخط الحديدي بعد ذلك إلى البصرة ثم إلى الفار ثم إلى الكويت . وكانت الدولة العثمانية تقف وراء هذا المشروع ، وقد منح السلطان عبدالحميد الثاني امتياز هذا الخط لألمانيا عقب زيارة ولهم الثاني إمبراطور ألمانيا له عام ١٨٩٩ . وكان العراق من ولايات الدولة العثمانية . وكان لهذه الدولة نفوذ في الأحساء وشط العرب والكويت وقطر والبحرين والقصيم وغيرها ، ولكن هذا للنفوذ كان ضعيفاً لم تأبه به بريطانيا كثيراً أول الأمر ، ووقفت بريطانيا بكل عنف في وجه تلك المحاولات الروسية والفرنسية والألمانية والعثمانية .

كانت بريطانيا تنظر إلى منطقة الخليج على أنه البوابة الكبرى إلى الهند من ناحية ، وإلى العراق وفارس من ناحية أخرى . وكانت لا تطيق أن يكون البريطاني والقوات البريطانية . وبعبارة أخرى كانت تريد السيادة السياسية والسيطرة العسكرية على منطقة الخليج ، دون غيرها من الدول ، وعلى ما يحفظ تلك السيادة وهذه السيطرة من البر .. حتى تستطيع أن تتصرف وفق مصالحها .

ولتحقيق هذا الغرض المزدوج ، عقدت بريطانيا في أواخر القرن التاسع عشر - كما مر بنا - سلسلة من الاتفاقيات مع مشايخ الإمارات العربية في منطقة الخليج ، تعهدوا فيها بالآ يتخلوا أو يؤجروا أو يرهنا بأي شكل من الأشكال ولأي سبب من الأسباب قسماً من أراضيهم إلا بإذن بريطانيا ، التي تعهدت في مقابل ذلك بحماية إمارات الخليج ومشيجاته . واشتهرت هذه الاتفاقيات باسم المعاهدات المانعة Exclusive Treaties ، وكانت من أولى الاتفاقيات باسم المعاهدات التي عقدتها بريطانيا في هذا ، الصدد اتفاقية سنة ١٨٨٠ مع الشيخ عيسى بن علي آل خليفة حاكم البحرين (١٨٧٠-١٩٢٤) ، تعهد فيها بالآ يتفاوض أو يعقد اتفاقيات مع دول

(١) عن النشاط الدولي المعادي لبريطانيا في منطقة الخليج ، انظر : لويمر ج. وج. مرجع سبق ذكره القسم التاريخي ج١ ، ص ٦٢٤-٦٦٦ ، ج٢ : ص ٨٢٩-٨٤٥ ، ج٣ : ص ٨٥٨-٨٦٠ .

أجنبية أخرى دون إذن الحكومة البريطانية ، وألا يسمع بإقامة مستودع فى أراضيها دون الرجوع إليها والحصول على موافقتها ، ثم عقدت معه اتفاقية لاحقة فى سنة ١٨٩٢ ، تعهد فيها حاكم البحرين بعدم التنازل أو رهن أو تأجير جزء من أراضيها إلا بإذن الحكومة البريطانية ، وعدم اعتماد تعيين ممثلين للدول الأجنبية فى بلاده^(١) .

وفى السنة السابقة - أى سنة ١٨٩١ - عقدت بريطانيا مع حاكم مسقط ، وهو فيصل ابن على ، اتفاقية تعهد فيها بعدم تأجير أو رهن جزء من أراضيها إلا بعد الرجوع إلى الحكومة البريطانية ، ثم أبرمت فى سنة ١٨٩٢ مع مشيخات الخليج اتفاقيات مماثلة^(٢) .

ونورد هنا نموذجاً لأحدى هذه الاتفاقيات ، وهى المعقودة مع الشيخ زايد بن خليفة حاكم أبوظبي .

(١) إنى لا أدخل أبداً فى قرار ما ولا محاورة مع أحد من الدول سوى للدولة البهية الإنكليزية .

(٢) بغير رضاء الدولة البهية الإنكليزية لأقبل أن يسكن فى حوزة ملكى وكيل من دولة غير الدولة البهية الإنكليزية .

(٣) أبداً لأسلم ولا أبيع ولا أرهن ولا أعطى للتصرف شيئاً من ممالكى لأحد إلا للدولة البهية الإنكليزية .

وعلى الرغم من أن هذه الاتفاقيات غير محددة المدة التى تسرى خلالها أحكامها فإن بريطانيا اعتبرت معاهدات أبدية^(٣) External Treaties ، ونظرت بريطانيا إلى منطقة الخليج العربى على أنه بحيرة بريطانية^(٤) . وشاءت للدبلوماسية البريطانية ، تماشياً مع خطتها فى انتحال مسميات تخفى وراءها أوضاعها الاستعمارية ، أن تطلق على نفوذها فى الخليج المصطلح اللاتينى Pax Britanica أى السلم البريطانى . ولم يكن هذا السلم سوى رغبتها فى الإبقاء على التفكك السياسى بين مشيخات الخليج ، ولتستمر منطقة الخليج حلقة من حلقات المواصلات البريطانية إلى الهند وجنوب شرق آسيا والإقيانوسية ، وقواعد لأسطولها فى أرجائه ولتقيم من نفسها وصية على إماراته ووسطاً بين هذه الإمارات فى علاقاتها الخارجية بدول العالم .

(١) Aitchison C.U.: A Collection of Treaties, Engagements and Sanads relating to India and Neighbouring Countries, 12 Vols., Calcutra, 1892, vol. XI, pp. 335-337.

(٢) عن الاتفاقيات الممنعة ، انظر لوريمر ج. ج مرجع سبق ذكره : القسم التاريخى ، ج ٢ ، ص ١٦٢ ، ١١٩٢ .

(٣) دكتور جمال زكريا قاسم : الخليج العربى . دراسة تاريخ الإمارات العربية (١٨٤٠-١٩١٤) رسالة دكتوراه فى التاريخ الحديث من كلية الآداب بجامعة عين شمس . مطبعة جامعة عين شمس ، ١٩٦٦ ، ص ٧٠ .

(٤) دكتور صلاح العقاد : التيارات السياسية فى الخليج العربى . دت. القاهرة ، ص ١٨٢ .

وتأكيداً لهذه المعاني التي تضمنتها تلك الاتفاقيات ، أدلى لورد لاندون Lansdowne وزير الخارجية البريطاني في وزارة آرثر جيمس بالفور بتصريح في ١٥ من مايو - أيار - عام ١٩٠٣ جاء فيه ، ويجب علينا أن ننظر إلى إنشاء قاعدة بحرية أو ميناء محصن في الخليج بواسطة أي دولة أخرى على أنه تهديد خطير جداً للمصالح البريطانية . ويجب علينا بكل تأكيد أن نقاومه بجميع الوسائل التي تحت أيدينا ،

"We should regard the establishment of a naval base or a fortified port in the Gulf by any other Power as a very grave menace to British interests, and we should certainly resist it by all the means at our disposal".^(١)

وقام لورد كيرزون Curzon George N. نائب الملك في الهند بزيارة رسمية إلى منطقة الخليج في نوفمبر - تشرين ثان - من السنة ذاتها. وزار مسقط ، والشارقة ، ويندر عباس ، وهرمز ، وقشم ، والبحرين ، والكويت ، ويوشهر ، وغيرها ، وكانت ترافق سفينته مجموعة من وحدات الأسطول البريطاني في الهند في مظاهرة بحرية . وعقد اجتماعات حضرها مشايخ وأمرء الخليج^(٢) واستهدفت بريطانيا من هذه التصرفات تأكيد النفوذ الانفرادي ، الذي تدعيه لنفسها في منطقة الخليج وعزمها الأكيد على الدفاع عن هذا المركز . واطر كيرزون في كتابه رأيه قائلاً ، إن وجود ميناء روسي في الخليج (الفارسي) ، وهو ذلك الحلم الجميل الذي يداعب أفئدة الوطنيين الروس من نيفا إلى القوقاز سيكون حتى في أيام السلم عنصر قلق في حياة الخليج يزعزع التوازن الدقيق ، الذي أسسناه بعد جهد جهيد . وإذا ما وافقت أية دولة على إعطاء الروس ميناء في الخليج (الفارسي) ، فإني اعتبر ذلك إهانة مقصودة لبريطانيا العظمى ، وخرقاً واضحاً للحالة الزاهنة واستفزازاً مقصوداً للحرب . وإني لأتهم الوزير البريطاني الذي يذنب فيوافق على مثل هذا الاستسلام ، واعتبره خائناً لوطنه،^(٣)

وكما استهدفت بريطانيا معارضة روسيا في إيجاد ميناء حربي لها في منطقة الخليج ، استهدفت أيضاً معارضة فرنسا في إنشاء محطة للفحم في مسقط . أما المشروع الألماني وهو خط ب. ب. ب. ، ومساندة الدولة العثمانية له فقد عارضته بكل عنف بعد أن تبين أهدافه . حرصت شيوخ القبائل في منطقة شط العرب على الدولة العثمانية ، وعينت معتلين لها في مناطق شط العرب والخليج كانوا أو معظمهم ضباطاً من جيش الهند يعينون من قبل حكومة الهند ولكلهم يتبعون وزارة الخارجية البريطانية . وكان على رأس هؤلاء المعتلين «مقيم عام،

(1) Ensor R.C.K.; op. cit.; p. 382.

(٢) انظر تفصيلات وافية عن هذه المرحلة والاحتفالات والمهرجانات ، التي أقيمت خلالها والخطب السياسية التي أقيمت فيها ، في لوريير ج. ، مرجع سبق ذكره ، القسم التاريخي : ج ٧ ، ص ٢٨٣٢-٢٨٠٤ .

(3) Curzon George N.; Persia and the Persian Question, Vol. 2, P. 465.

مقره بندر بوشهر على الساحل الفارسى فى منطقة الخليج، كان يعتبر ملك الخليج غير المتوج^(١). وصرح لورد كيرزون بأن نفوذ ألمانيا يجب أن يقف عند حده بل ويختفى . وقال إن لألمانيا مآرب سياسية واقتصادية وعسكرية فى هذا المشروع ، وذهبت الدوائر البريطانية إلى أبعد من ذلك .. فطالبت بأن يكون العراق ملكاً لبريطانيا ومنفذاً طبيعياً إلى الهند . ولم يلبث لورد كيرزون أن ردد هذا الرأى علناً فى خطبة ، القاها فى ١٥ من شهر أبريل - نيسان - عام ١٩١٥ قائلاً «إن الأرض الواقعة شمال الخليج (الفارسى) ليست ملكاً للأتراك .. إنهم دخلاء عليها . وإن من واجب السياسة البريطانية أن تحرر هذه الأرض منهم ، وأن تعود تلك العلاقة الطيبة بين هذه البلاد وبين بريطانيا نتيجة لسياستنا التى اشتغلنا فيها منذ خمسين سنة . وإن نفوذ الألمان يجب أن يأخذ حده ويختفى ، وإن خط حديد برلين - بغداد لن يكون له نفع مالم يكن تحت رقابتنا .

بوابر تسلل استعمارى أمريكى :

وكان للولايات المتحدة الأمريكية نشاط عسكرى وسياسى واقتصادى فى المحيطين الهادى والأطلنطى فى أواخر القرن التاسع عشر .. فقد احتلت سنة ١٨٩٣ جزر هاواى وهى ذات مركز حبرى هام فى المحيط الهادى ، وجعلت منها قاعدة بحرية منيعه فى بيرل هاربور Pearl Harbour . ولم تمض سنوات ذات عدد حتى نشبت الحرب بينها وبين إسبانيا سنة ١٨٩٨ ودمرت الأسطول الإشبانى تدميراً ، واضطرت إسبانيا فى معاهدة باريس فى اليوم العاشر من شهر ديسمبر - كانون أول - عام ١٨٩٨ إلى التخلّى للولايات المتحدة عن بورترىكو فى المحيط الأطلنطى ، والفلبين فى المحيط الهادى ، ومنحت كوبا استقلالها . ولكن الولايات المتحدة وضعت يدها عليها ، فهى ذات موقع حبرى هام ؛ إذ تقع عند مضيق فلوريدا ومدخل خليج المكسيك ، وبذلك تمت لها السيطرة على خليج المكسيك والبحر الكارىبى ، أما فى آسيا فقد استطاعت بسبب امتلاك الفلبينيين ، أن توجد لها منطقة نفوذ بين اليابان والصين والهند الصينية . ومنذ ذلك الوقت بدأت تعمل على بسط سيادتها فى أرجاء المحيط الهادى .

ثم رأت الولايات المتحدة أن تقوم بنفسها بحفر قناة بناما ، واستغلالها بصفة أبدية^(٢) ؛ إدراكاً منها لأهمية هذه القناة من الناحيتين التجارية والعسكرية ، إذ تختصر المسافة بين الشرق

(١) المرجع السابق ، ص ٢٥٩-٢٦٨ .

(٢) كانت حكومة كولومبيا - التى تقع فى أراضيها قناة بناما - قد منحت شركة فرنسية يرأسها فريديناند دى لسبس وثنايه ابنه شارل دى لسبس امتيازاً فى ١٨ من مايو - أيار - عام ١٨٨٨ لإنشاء قناة بناما . وتعثرت الشركة فى أعمالها ، وإلجأ أصحاب الأسهم إلى القضاء الفرنسى . وأصدرت محكمة السين فى باريس حكماً فى ٥ من فبراير - شباط - عام ١٨٨٩ بتصفية الشركة ، وأحيل فريديناند دى لسبس وابنه شارل ، وغيرهما من أعضاء مجلس إدارة الشركة إلى محكمة الجنايات بتهمة تبديد أموال مساهمى=

الأقصى وأمريكا ، وتفتح الطريق أمام الأسطول الأمريكي بين المحيطين الهادى والأطلسي .
 ونداعت إلى أنهانها ذكريات الحرب الأهلية ، التي نشبت بين ولاياتها الشمالية وولاياتها
 الجنوبية (١٨٦١-١٨٦٥) ، فازدادت إدراكاً لأهمية القناة المقترحة . وبعد اتصالات مكثفة
 ولكن غير مفعرة بين الولايات المتحدة وبريطانيا ^(١) ، خلصت الحكومة الأمريكية رأياً إلى أن
 تنفيذ واستغلال القناة يجب أن يكونا بعينين عن الدول الأجنبية . وكانت أحداث الحرب القريبة
 التي اندلعت بين الولايات المتحدة وإسبانيا عام ١٨٩٨ ، جعلت الدوائر العليا الأمريكية ترى
 ضرورة وضع القناة المستقبلية تحت إشراف الولايات المتحدة وصيغها بصيغة أمريكية بحتة ؛
 فالقناة يجب أن تكون في تقديرها قناة أمريكية على أرض أمريكية مملوكة للأمة
 الأمريكية ^(٢) . وانتهى بها المطاف إلى عقد معاهدة مع حكومة بناما ^(٣) في ١٨ من شهر
 نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٩٠٣ ، عرفت باسم معاهدة هاي بونو ^(٤) Hay-Bunau ،
 وبمقتضى هذه المعاهدة خولت جمهورية بناما الحق للولايات المتحدة في إنشاء القناة
 واستغلالها بصفة أبدية ، واستخدام واحتلال منطقة عرضها عشرة أميال في اليابسة بين
 المحيطين الأطلسي والهادى ، وتعتمد في مياهها لمسافة ثلاثة أميال بحرية ، وكذلك على
 الجزر الواقعة في تخوم هذه المنطقة وأربع جزر صغيرة في خليج بناما ، واحتكار إنشاء كل
 وسائل المواصلات في هذه المنطقة والاحتفاظ بها . وخولت المعاهدة للولايات المتحدة أيضاً

= الشركة ، وصدرت عليهم في ١٨ من يونيو - حزيران - عام ١٨٩٣ أحكاماً بالسجن والحبس مدداً
 متفاوتة وغرامات مالية ، وتأسست شركة أخرى تحت اسم «الشركة الجيدة لقناة بناما» ، ثم حلت حكومة
 الولايات المتحدة محلها ، ونفعت لها أربعين مليوناً من الدولارات كتعويض .
 انظر :

دكتور مصطفى الحفناوي : قناة السويس ومشكلاتها المعاصرة . ج٢ ، القاهرة ، ١٩٥٦ ، ص
 ٤٩٩-٥٠١ .

(١) استهدفت هذه الاتصالات عقد معاهدات بين اللواتين بخصوص القناة المقترحة ، وكان من بينها معاهدة
 كلايتون - بلور Clayton-Bulwer في ١٩ من أبريل - نيسان - عام ١٨٥٠ ، ومعاهدة هاي - بونسفوت
 Haye-Pauncefote في ٥ من فبراير - شباط - عام ١٩٠٠ ، ثم معاهدة أخرى تحمل الاسم نفسه في
 ١٨ من نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٩٠١ ، وفي خاصة بعدة موضوعات مثل حيدة القناة وعدم فرض
 الحظر البحري عليها أو مباشرة أى حق من حقوق المتحاربين ، وفرض رسوم على السفن على قدم
 المساواة إلى غير ذلك .

(2) Siegfried André : Suez and Panama, Translated from the French by R.H. Hemming
 and Doris Hemming, Oxford, 1940, p. 228.

(٣) قامت في بناما حركة انفصالية عن كولومبيا ، ونجحت الحركة في ٢ من نوفمبر - تشرين ثان - عام
 ١٩٠٣ ، وأعلنت بناما نفسها جمهورية مستقلة فتلقفت حكومة واشنطن هذه الفرصة ، وسارعت إلى
 الاعتراف بها في ١٢ من الشهر ذاته .

(٤) كان هاي وزير أمريكا . وكان بونو قاريلاً Bunau Varrilla هو ممثل جمهورية بناما .

الحق في الدفاع عن القناة بكافة الوسائل ، وأن تشتري أو تستأجر من أراضي جمهورية بناما ما يلزم لإنشاء محطات بحرية ؛ للتمكن من تنفيذ التزامات هذه المعاهدة على أفضل وجه وحماية القناة بشكل فعال وتأمين حيدتها ، والتزمت الولايات المتحدة ، في مقابل كل هذه الامتيازات وغيرها أن تضمن استقلال جمهورية بناما مع دفع تعويض مالي ودخل سنوي^(١).

وقد افتتحت القناة في اليوم الخامس عشر من شهر أغسطس - آب - عام ١٩١٥ .

والأمر الجدير بالتسجيل في هذا المقام أن جمهورية بناما كانت تملك اسماً ملكية والسيادة على قناة بناما ، على الرغم من أنها صاحبة الإقليم الذي تمر منه القناة . بينما كانت سلطات الولايات المتحدة طاغية على القناة ، لأن جمهورية بناما أعطتها حق الاستيلاء على منطقة القناة واحتلالها وإدارتها والدفاع عنها وإقامة المنشآت العسكرية وغير العسكرية بالشكل الذي تراه لمدة غير محدودة .

وغدت الولايات المتحدة تباشر فعلاً على هذه المنطقة كل منافسه الدول من حقوق على أقاليمها ، بحيث أصبحت إدارة قناة بناما في الحقيقة حكومة مصغرة داخل نطاق حكومة الولايات المتحدة^(٢) . ولم يعد لجمهورية بناما غير مبلغ تنقاضه سنوياً .

وقع الزحف الاستعماري البالغ العنف والضاوأة على شتى أرجاء الساحة الدولية في وقت كانت الدولة العثمانية تعاني كثيراً من أسباب الاضمحلال ، وهو اضمحلال كانت أعراضه ومظاهره قد ظهرت قبل تولي عبدالحميد الحكم بأكثر من مائة وخمسين سنة حين عقدت على عهد السلطان مصطفى الثاني (١٦٩٥-١٧٠٣) معاهدة كارلوفتس Karlovitz في اليوم السادس والعشرين من شهر يناير - كانون ثان - عام ١٦٩٩ ، والقرن السابع عشر يقترب من نهايته.. فكانت هذه المعاهدة استهلالاً سبياً للقرن الثامن عشر بالنسبة للدولة العثمانية ، كما كانت أول معاهدة تعقدها مع النمسا ، والروسيا ، وبلندا ، وجمهورية البندقية ، وتتنازل فيها ، كدولة منهزمة ، عن المجر وترنسلوانيا^(٣) .. أما المجر فكانت تعد الولاية العثمانية الأولى في الدولة

(١) دكتور عبدالله رشوان ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٤٩-٢١٥ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٥٥-٢٥٦ .

(٣) أطلق سكان النمسا هذا الاسم على هذا الإقليم ومعناه البلاد الواقعة فيما وراء الغابات ، لوجرد غابات كثيفة تفصلها عن النمسا ، وهي من أهم أقاليم النمسا ، وتتميز بكثرة المعادن تحت أرضها ويبرز تعدادها عن ثلاثة ملايين نسمة .

وكانت ناليها مصر ، كما وافقت على تنازلات إقليمية أخرى هامة للروسيا ، ^(١) وبولندا ^(٢) وجمهورية البندقية ^(٣) ، ولذلك يرى فريق من المؤرخين أن معاهدة كارلوفتز تعد أول تقطيع لأوصال الدولة العثمانية ^(٤) The First Dismemberment of the Ottoman Empire . لأن هذا العمل الذي بدأ في كارلوفتز قد عملت معظم الدول الأوروبية على استكماله في غالبية المعاهدات التي فرضتها على الدولة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . وكان من نوعية هذه المعاهدات على سبيل المثال معاهدة پاساروفتز Passarovitz kucuk Kaynarca (٢١ من يوليو - تموز - عام ١٧١٨) ، ومعاهدة كيتشك كينارجي Kucuk Kaynarca (٢١ من يوليو -

(١) تنازات الدولة العثمانية للروسيا عن مدينة آزوف ببلاد الترم وفرضتها على البحر الأسود ، وكانت قبائل القوزاق تحول بين الروس والبحر الأسود ، وتطلع بطرس الأكبر إلى الاستيلاء عليها لتكون نافذة بلاده على هذا البحر ، وفعلاً استولى عليها ثم اضطر إلى رفع الحصار عنها في أكتوبر - تشرين أول - عام ١٦٩٥ . ولكنها أُعيدت إلى روسيا بمقتضى معاهدة كارلوفتز . وآزوف تقع عند مصب نهر الدون ، وكان يمكن الوصول إليها مائياً من موسكو ، وكان العثمانيون قد أقاموا حصناً عظيماً في آزوف ، وأصبح تجاور روسيا مع الدولة العثمانية مصدر أخطار ومتاعب للدولة الأخيرة .

(٢) تنازات الدولة لبولندا عن كل بودوليا Podolia وأوكرانيا Ukraine ، ويلاحظ أن إقليم بودوليا عبارة عن مساحة شاسعة من الأرض على امتداد خط تقسيم مياه نهر النيستر Demester ، ونهر بوج Bug الذي يصب في البحر الأسود .

(٣) تنازات الدولة لجمهورية البندقية عن بلاد المورة وساحل للماشيا . وكان البنادقة يتشجعون بالبابوية في روما وبمساعدة جنود مرتزقة من هانوفر وغيرهم من الألمان ، قد استعابوا للماشيا وجردوا العثمانيين من المورة وفي معاهدة كارلوفتز ، نص على أن يحتفظ البنادقة بما حصلوا عليه من أسلاب ولكنهم لم يستطيعوا الاحتفاظ بها أكثر من تسعة عشر عاماً (١٦٩٩-١٧١٨) : إذ نجح العثمانيون في استعادتها منهم . وساعدت العثمانيين على ذلك الكراهية الشديدة التي كان يكنها اليونانيون للبنادقة ، واختلاف المذهب الديني ، فالإيونانيون يتبعون الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية ، والبنادقة يتبعون الكنيسة الكاثوليكية في روما . وكانت سياسة الاحتكار التي فرضتها جمهورية البندقية في خلال التسعة عشر عاماً على التجار اليونانيين في جزد بحر إيجه ، قد أضرت بمصالحهم وأثارت سخطهم . فكان هذا السخط وذلك الإضرار عاملين ساعداً على طرد البنادقة من بلاد المورة ، وكان اليونانيون يفضلون الحكم العثماني على الحكم البندقي .

انظر : Fisher H.A.L.; op. cit., pp. 733-734.

ومما يعد مفخرة للعثمانيين ووصمة عار في تاريخ جمهورية البندقية ، أن البنادقة في أثناء هجومهم على أثينا أطلقوا مدافعهم على الأثر التاريخي الإغريقي «البارثون» Parthenon ، وأحدثوا به أضراراً بالغة لم يمكن إصلاحها . وكان العثمانيون في زحفهم على بلاد المورة قد تجنبوا الإضرار بهذا الأثر التاريخي ، ومع ذلك لاتخلو كتابات معظم الأوروبيين من إصااق التهم والصفات غير الكريمة بالعثمانيين ، ونعتهم بأنهم مسلمون متبررون ونعمة على الحضارة وما إلى ذلك .

(٤) يرى فريق آخر من المؤرخين أن ارتداد الجيش العثماني عن أسوار فينا للمرة الثانية عام ١٦٩٨ يورخ البداية الفعلية لانحلال الدولة العثمانية ، وكان قره مصطفى أي مصطفى الأسود يقود الجيش في هذا الهجوم ، ومن المعروف أن القوات العثمانية سبق لها أن ارتدت عن أسوار فينا للمرة الأولى عام ١٥٢٩ في عهد السلطان سليمان المشرع ، وكان هو الذي قاد قواته .

تموز - عام ١٧٧٤) ، ثم في القرن التاسع عشر معاهدة أدرنة (١٤ من سبتمبر - أيلول - ١٨٢٩) ، ومعاهدة سان ستفانو (٣ من مارس - آذار - ١٨٧٨) ، ومعاهدة برلين (١٣ من يوليو - تموز - ١٨٧٨) .

تسابق الدول الأوروبية على امتلاك الولايات العثمانية :

لم تكن نزعة التسلط الأوروبي على الدولة العثمانية في القرن التاسع عشر بأقل في ضراوتها من مثيلتها في سائر أنحاء العالم .. فقد تسابقت روسيا ، والنمسا والمجر ، وفرنسا ، وبريطانيا ، وإيطاليا ، على اقتسام الولايات العثمانية في أوروبا وآسيا وإفريقية ، فكان على الدولة أن تواجه خمس دول أوروبية كبرى وقفت موقفاً عدائياً منها .

وكانت روسيا والنمسا من أسبق الدول في انتهاز سياسة عدوانية تجاه الدولة العثمانية .

أما روسيا فكان من أعز أمانيتها استيلاؤها على إستانبول ، وفتح مضيق البوسفور والدردنيل^(١) لسفنها الحربية والتجارية دون قيد أو شرط في زمن السلم أو وقت الحرب للخروج من البحر الأسود إلى المياه الدافئة في البحر المتوسط وعند عودة هذه السفن إلى البحر الأسود ، وظلت إستانبول منذ زمن مبكر حتى القرن العشرين حليماً جميلاً يداعب أفئدة قياصرة الروس والشعب الروسي ، ومما يذكر في هذا الصدد أن كاترين الثانية قيصرية الروسية قامت عام ١٧٨٧ برحلة إلى الأقاليم الجنوبية للروسيا بما فيها بلاد القرم ، وفي الإقليم الأخير أقام لها القائد الروسي زينات وأقواس نصر كتبت عليها عبارة «طريق إستانبول»^(٢) .

وفي القرن التاسع عشر كانت روسيا تعمل بوحى من حركة الجامعة الصقلبية Pan Slavism ، وهى حركة روسية قومية كان من أهدافها جمع صقلبية البلقان الأرثوذكس وتخليصهم من السيطرة العثمانية ؛ ومن هنا كان خطر حركة الجامعة الصقلبية على الدولة العثمانية ، لأن هدفها النهائي كان القضاء على الوجود العثماني في أوروبا . أما النمسا فكانت نظرية الأمن الخارجى لديها تقوم على منع أى دولة من تهديدها أو غزوها عن طريق نهر الدانوب من ناحية مصبه في البحر الأسود ، ولذلك كانت تعمل على مقاومة الدولة العثمانية ، التي كانت ولاياتها في شمالي نهر الدانوب (الأفلاق والبيضان) وفي جنوبيه (بلغاريا والصرب والبوسنة) ، فلما سارت هذه الدولة في طريق الانضمحل تلاشى الخطر العثماني .. ولكن خشيت النمسا من الدولة التي يمكن أن تحل محل الدولة العثمانية في شبه جزيرة البلقان وهى الروسية . وكانت الأخيرة تملك من الأسباب ما يجعل كفتها راجحة في البلقان . فقيصر الروسي

(١) يطلق عليها في اللغة التركية «آق كيكز بوغازى» ، وقلمة سلطانية بوغازى» ، و«جنات قلعة بوغازى» ، انظر ثبت المصطلحات التركية في نهاية هذه الدراسة .

(٢) محمد فريد بك ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٨٤ .

هو الرئيس الرسمي وحامي الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية .

وكانت روسيا هي الدولة الصقلية الكبرى ، وكان أكثر سكان البلقان من الصقلية يتحدثون بلغات صقلية حتى سكان بلغاريا ، الذين لم يكونوا صقلية تماماً كانوا قد اصطنعوا لأنفسهم لغة صقلية . وكانت لروسيا مبررات أو ذرائع دينية للتدخل لصالح أتباع الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية ؛ ولذلك تطلعت النمسا إلى كسب توسعات إقليمية في البلقان على حساب الدولة العثمانية . وازدادت مطامع النمسا في الممتلكات العثمانية البلقانية لتعويض خسائرها الإقليمية ، عقب هزيمتها من بروسيا في موقعة سادوا Sadwa في الثاني من شهر يوليو من شهر يوليو- تموز - عام ١٨٦٦ وإبرام معاهدة براغ في الثاني من شهر أغسطس - آب - في ذات السنة .

ولولا أصالة الدولة وعراقها وشموعها ، لأصبحت هباءً منبثاً وطويت صفحاتها في القرن الثامن عشر أو القرن التاسع عشر ، ولكنها ظلت تقاوم عواذي الزمن وتكتلات أوربية أكثر من قرنين من الزمان . وبهذا أن نذكر هنا أنه نتيجة لها الزحف الاستعماري الضاري ، ونتيجة للضعف الشديد الذي انتاب الدولة ، وهو ضعف لم يكن عبد الحميد مسؤولاً عنه لأنه ورث العرش كما ورث هذا المرض ، غدت ممتلكات الدولة نهياً بين الدول الأوروبية الكبرى ، تستولى على ما يروقه منها أو ماتستطيع أن تحصل عليه منها وتجعل توزيع هذه الممتلكات أساساً لتسوية الخلافات بين تلك الدول .. وسنرى أن الزحف الاستعماري على الأقاليم العثمانية قد اتخذ طابع الصراع الديني بين أوروبا المسيحية والدولة العثمانية الإسلامية ، وأن الروح الصليبية ظلت متأججة في نفوس الأوروبيين وإن اتخذت مسميات أخرى . ولم يهدأ بال الدول الأوروبية المسيحية إلا بعد أن نجحت في الإجهاز على الدولة العثمانية في أوائل القرن العشرين، عقب الحرب العالمية الأولى .

يتضح من هذا العرض لبعض معالم حركة التنافس الاستعماري بين الدول إبان حكم السلطان عبد الحميد الثاني عدة حقائق بارزة ، كان من بينها :

أولاً : عدم دقة الرأي الشائع وهو أن الدول الاستعمارية الكبرى كانت قد وصلت إلى درجة التشبع من عمليات النهب والسلب والتسلط في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، وأن جذوة الاستعمار لديها أخذت تخبو في القرن التاسع عشر حتى إذا اقترب هذا القرن من نهايته كانت شهوة الاستعمار لديها قد خمدت . والواقع أن نزعة الاستعمار ظلت مشتعلة في الدول الاستعمارية الكبرى في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، تبغى مزيداً من المستعمرات بالضراوة نفسها التي عرفت بها من قبل . وظلت أيضاً بعد الحرب العالمية الأولى تحت اسم الانتداب من قبل عصبة الأمم حيناً ،

وتحت اسم الاستعمار أو الاحتلال السافر أو مناطق النفوذ حيناً ثانياً ، أو تحت نظام الوصاية من قبل هيئة الأمم المتحدة حيناً ثالثاً .

ويذكر الأستاذان جرانث ، وتميرلي ، هذه الحقيقة في صورة أخرى بقولهما إنه في الثلاثة الأرباع الأولى من القرن التاسع عشر (١٨٠١-١٨٧٥) لم تكن الدول الثلاث الكبرى الاستعمارية ^(١) ، وهي روسيا وفرنسا وبريطانيا ، قد استغدت كل فضاء الأرض ^(٢) . وأنه بعد سنة ١٨٨٠ دخلت ألمانيا وإيطاليا ميدان الاستعمار ، وأدى هذا الموقف إلى تصاعد الأزمات في كل مكان ؛ فذب النزاع بين بريطانيا وفرنسا من أجل مصر ، وبين فرنسا وإيطاليا من أجل تونس . واستغلت ألمانيا هذا النزاع لتحصل لنفسها على مستعمرات شاسعة ، ودفع يأس إيطاليا من الحصول على نصيبها في المستعمرات إلى انضمام إيطاليا إلى التحالف الثلاثي ^(٣) . وظهر مزيد من الخطورة البالغة في السياسة الدولية في التصعيبات من القرن التاسع عشر ؛ إذ كانت كل الأرض الفضاء قد توزعتها الدول الاستعمارية فيما بينها . وكانت مراكز (المملكة المغربية حالياً) هي المملكة المستقلة الوحيدة في شمالي إفريقية . وكان من الطبيعي أن تهوى إليها أفئدة المستعمرين الفرنسيين والألمان ، وتخلت فرنسا عن إدعاءاتها في مصر لتضمن تأييد بريطانيا لها في مراكز . وعلى هذا النحو تأثرت أصول الاتفاق الودي بين فرنسا وبريطانيا سنة ١٩٠٤ وتطوره فيما بعد بالتطورات الاستعمارية في شمالي إفريقية تأثراً عميقاً . أما في آسيا فإن روسيا بعد اقترابها من أفغانستان والهند ، تحولت إلى الصين في سنة ١٨٩٢ وبذلك أجلت ، ولكنها لم تتجنب ، النزاع مع بريطانيا في آسيا . ولما وجدت بريطانيا أن ألمانيا غير راغبة في مساعدتها على وقف التقدم الروسي في الصين ، قبلت التحالف مع اليابان في سنة ١٩٠٢ من أجل هذا الهدف ، وأعلنت اليابان الحرب على روسيا بعد عامين من هذا التاريخ . وهكذا أدى التوسع الاستعماري في آسيا إلى تحالف كما أدى إلى حرب ، وأدى التوسع في إفريقية إلى الاتفاق الودي وربما إلى الحرب العالمية الأولى في سنة ١٩١٤ ^(٤) .

ثانياً : لجأت الدول الاستعمارية إلى أساليب شتى في سبيل بسط سيطرتها ، وكان من بين هذه الأساليب : القوة الحربية ، مزيج من استخدام القوة والشراء ، كما حدث عندما استولت

(١) تجنب المؤرخان الإنجليزيان وصف الدول الاستعمارية بهذا الاسم الحقيقي ، بل قالوا عنها : الدول المتوسعة The three great expanding powers .

(٢) يقصد هذان المؤرخان بعبارة فضاء الأرض نظرية الملك المباح ، التي شرحناها في هذا الفصل .

(٣) تكون تحالف ثنائي من ألمانيا ، والنمسا والمجر ، في سنة ١٨٧٩ ، ثم تحول إلى تحالف ثلاثي بانضمام إيطاليا إليه سنة ١٨٨٢ .

(٤) Grant A.J. & Temperley H.; op. cit., pp. 321-322.

الولايات المتحدة الأمريكية على جزر الفلبين ، رضاء مغتصب من الدولة صاحبة الإقليم كما حدث عندما احتلت بريطانيا جزيرة قبرص ، بحجة تهدها بالدفاع عن ممتلكات الدولة العثمانية في آسيا ضد القوات الروسية ، الاستعمار الملقح غير السافر بحيث يكون للدولة نفوذ سياسي شامل ، تنفرد به دون سائر الدول ويغيد حرية البلاد التي تبسط عليها هذا النفوذ مثل مشيخات منطقة الخليج العربي واستلثار بريطانيا بالنفوذ الأرحد ، وإنشاء مناطق نفوذ مثل تقسيم فارس إلى منطقتي نفوذ بريطانية وروسية ، أسلوب للشركات وهو الأسلوب ذاته ، الذي جرى عليه الاستعمار في مطلع العصور الحديثة ، ويقوم على تكوين شركات اقتصادية تقوم بأعمال استعمارية مثل شراء الأراضي من أصحابها وتوزيعها على المستوطنين المستعمرين وجمع الضرائب والاستيلاء على الإيرادات والإشراف على المرافق العامة .

وفي ظل هذا النظام كانت الدول الاستعمارية تترك شركاتها تتركب مائشاه من اللطائع وضروب الوحشية ، فإذا حققت الشركة أهدافها .. تصدر الدولة قراراً بحل الشركة وتتولى الحكومة إدارتها أى حكم الإقليم بعد أن تمنح الشركة تعويضاً سخياً . وهكذا تبنى الدولة الاستعمارية في صورة المنفذ للشعوب الشرقية من آثام الشركة ، التي أذنت هي في إنشائها وبذلت لها المعونة والإرشاد . ومن الأمثلة التي تساق في هذا الصدد : شركة الهند الشرقية (الإنجليزية) ، والشركة الفرنسية ، والشركة الهولندية ، وشركة إفريقية الشرقية الألمانية ، وشركة روياطينو الإيطالية . وعلى ذلك .. فالاستعمار لم يكن يتم دائماً بواسطة قوات مسلحة تابعة لدولة استعمارية ، وإنما كان يتم أيضاً على أيدي جماعات منظمة من الأفراد في صورة شركات اقتصادية تبسط النفوذ الاقتصادي أولاً ثم المياسي .

ثالثاً : تم تخلي الطريق للدولة لدعم وجودها حربياً ، بعد أن تنقاضي الشركة مكافآت وتعويضات سخية .

ويلاحظ أيضاً أن السيطرة كانت تقع أحياناً على السكان دون الأرض .. فكانت الدول الاستعمارية تترك الأرض ومرافقها لسكانها الأصليين فلا تغتصبها منهم ، ولا تطلب منهم الجلاء عنها . وكانت السيطرة تقع أحياناً أخرى على الأرض والسكان معاً ، وأوضح مثال لهذين النوعين من الاستعمار ماحدث في شرقي إفريقية وغربها . كانت أراضي شرقي إفريقية مرتفعة عن سطح البحر ، وتصلح لسكنى الأوروبيين فتسلطت بريطانيا في مستعمرة كينيا على الأرض والسكان معاً . أما أراضي غربي إفريقية .. فهي منخفضة وشديدة الحرارة لاتصلح لسكنى الأوروبيين ، الذين أطلقوا عليها مقبرة الرجل الأبيض The White Man's Grave ، وقد شهد حكم السلطان عبدالحميد هذين النوعين معاً من أنواع الاستعمار .

آراء محايدة

في حكم السلطان عبد الحميد الثاني (٣)

الحقيقة الثانية :

تولى عبد الحميد العرش في ظروف متناهية في ظلامها وقسوتها . ولم يتحرج المؤرخ البريطاني وليم ميلر - وهو من المؤرخين المتحاملين على الدولة وعلى السلطان عبد الحميد بالذات - من القول بأنه ندر أن تولى سلطان من سلاطين آل عثمان الحكم وسط صعاب أكثر خطورة على مركزه من الأخطار ، التي تعرض لها عبد الحميد الثاني من يمين ويسار ، وهو السياسي الداهية^(١) The Astute Diplomatist .

لقد ارتقى عبد الحميد العرش بعد هزات عنيفة ، تعرض لها هذا العرش بخلع السلطان عبدالعزيز في الثلاثين من شهر مايو - آيار - عام ١٨٧٦ بناء على فتوى صدرت في اليوم السابق من شيخ الإسلام ، تجيز عزله تأسيساً على تبذيره عجزه عن حكم الدولة . وأعلن الصدر الأعظم وللوزراء تعيين ابن أخيه سلطاناً أسم مراد الخامس . ولم تكد تمضي أربعة أيام على توليه العرش حتى أعلنت وفاة السلطان عبدالعزيز ، مما قضى على كل أمل في إعادته للعرش . وعلى الرغم من رحيل عمه ، لم يستمر مراد الخامس في الحكم إلا ثلاثة أشهر وثلاثة أيام ، ثم عزل بدوره بناء على فتوى من شيخ الإسلام تجيز عزله ، بناء على أنه مصاب باختلال في قواه العقلية ، وبالتالي فهو لا يستطيع تصريف شئون الدولة في وقت عصيب تحيط بها أخطار جسيمة من كل جانب . وفي اليوم الحادى والثلاثين من شهر أغسطس - آب - عام ١٨٧٦ ارتقى العرش أخوه الأصغر باسم عبد الحميد الثاني^(٢) ، وقبل أن يباشر سلطانه ذهب إلى جامع أبي أيوب الأنصارى حيث تسلم السيف على ماجرت به العادة . وفي أثناء عودته زار مقبرة والده عبد المجيد ومقابر السلاطين محمد أبى الفتوح ومحمود الثاني ، وعبد العزيز .

ومنذ اليوم الأول الذى ارتقى فيه عبد الحميد العرش ، وجد أن الثورة هادرة جامحة نعم إقليمية البوصة والهرسك ، يبغي سكانها الانفصال عن الدولة أو على الأقل الحصول على مزيد من الامتيازات تكفل لهم حكماً ذاتياً مسيحياً خالصاً . ووجد أن الثورة لانزال مشتتة في

(١) Miller W.; op. cit., p. 368.

(٢) انظر في هذه الدراسة فتاوى غزل السلاطين ، ص ٤١٢-٤١٤ .

بلغاريا، ووجد أيضاً أن الصرب والجبل الأسود يحاربان الدولة انتصاراً للثوار بتحريض من روسيا التي أسهمت في هذه الحرب إسهاماً غير مباشر، فأمدت أعداء الدولة بالأسلحة والذخائر والقادة العسكريين، ورفعت أسماءهم من سجلات الجيش الروسي مؤقفاً للاشتراك في العمليات الحربية. وكانت الهزات العنيفة التي تعرض لها عرش الدولة أشهراً معدودات مما ساعد على تصعيد الثورات والحروب معاً.

وفي هذا الوقت العصيب أرسل لورد ديربي Derby وزير خارجية بريطانيا رسالة مؤرخة في اليوم الثامن عشر من شهر سبتمبر - أيلول - عام ١٨٧٦ - بعد ارتقاء عبدالحميد العرش بثمانية عشر يوماً - إلى سير هنري إليوت Sir Henry Elliot السفير البريطاني في إسطنبول، يطلب منه مقابلة السلطان عبدالحميد شخصياً ويوجه إليه التوم على ما أسماه المذابح البلغارية، وتقصير الدولة في إقرار النظام وتوفير الأمن للمسيحيين، وأن يطلب من السلطان باسم الملكة فيكتوريا تعويض ثوار بلغاريا وإعادة بناء كنائسهم على نفقة الدولة، وتقديم الثوث لهم عاجلاً، وإتاحة فرص العمل أمامهم وتوقيع عقوبات رادعة على المسلمين العثمانيين في بلغاريا وتعيين حاكم مسيحي على بلغاريا، وأما إذا كان مسلماً فلا بد أن يكون له مستشارون مسيحيون، يركز إليهم السكان البلغاريون المسيحيون إلى آخر الطلبات التي سبق أن أشرنا إليها في الجزء الخاص من هذه الدراسة عن المذابح البلغارية.

وهكذا واجه عبدالحميد في أيامه الأولى موقفاً دقيقاً؛ إذ أصبحت البلقان منطقة ساخنة بلغت فيها ضراوة القتال الذروة، فاعتدى المسيحيون على المسلمين قتلاً وسلباً وهكذا للأعراض وتخريباً لبيوتهم. وانطلقت أبواق الدعاية في أوروبا تدّعي أن الدولة العثمانية دولة متبريرة تقتل المسيحيين وتخرب كنائسهم وتهدم بيوتهم وما إلى ذلك من ضروب الزيف. وساعد على رواج هذا التباكي على ما سمي سوء أحوال رعايا الدولة المسيحيين، أن الجيوش العثمانية كانت في ذلك الوقت قد اكتسحت جنوبى الصرب، وأصبح الطريق أمامها مفتوحاً إلى بلغراد عاصمة الصرب.

أما في الجبل الأسود، فكانت الحرب سجّالاً لأن طبيعة هذا الإقليم لا تسمح لجيوش نظامية أن تخوض معركة فاصلة. وفي اليوم الخامس من شهر أكتوبر - تشرين أول - عام ١٨٧٦، طلبت الدول عقد هدنة وإجراء مفاوضات لعقد صلح. ووافق السلطان عبدالحميد الثاني على عقد هدنة؛ بشرط منع إرسال أسلحة أو ذخائر أو قوات عسكرية إلى ثوار البوسنة والهرسك والصرب والجبل الأسود في أثناء الهدنة، ورفضت الدول هذا الشرط. وعندئذ تدخلت روسيا بمقردها وأرسلت في اليوم الخامس عشر من شهر أكتوبر - تشرين أول - إنذاراً إلى الباب العالي بضرورة عقد هدنة دون قيد أو شرط من جانب السلطان، وأن تمنح الدولة استقلالاً إدارياً لبعض الولايات البلقانية، وأن تضمن الدول الأوروبية حقوق سكانها المسيحيين.

وأمام تهديد روسيا وافق السلطان على عقد هدنة في أول نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٨٧٦ لمدة شهرين ، مدت بعد ذلك إلى أول مارس - آذار - عام ١٨٧٧ . وكان الباعث للسلطان عبد الحميد الثانى على قبول الهدنة بهذين الشرطين وغيرهما هو رغبته فى كسب الوقت ؛ حتى يستكمل استعداداته الحربية وتصل إليه الإمدادات العسكرية التى طلبها من الولايات العربية ، وحاولت بريطانيا التخفيف من حدة الأزمة خشية قيام حرب بين الدولة العثمانية والروسيا ، التى كانت مصممة على منازلة العثمانيين لتحقيق أطماعها التوسعية فى الدولة العثمانية، تحت ستار الانتصار للشعوب المسيحية فى البلقان . وكان أخشى ماتخشاه بريطانيا امتداد العمليات الحربية إلى مصر بما فيها قناة السويس ، التى كانت تعتبرها الطريق الرئيسى إلى الهند وغيرها من الممتلكات البريطانية فيما وراء البحار ، فأقترحت عقد مؤتمر فى الآستانة^(١) ، يحضره وزراء خارجية الدول الموقعة على معاهدة باريس لعام ١٨٥٦ .

دبلوماسية عبد الحميد لإحباط مؤتمر الآستانة ٧٦-١٨٧٧ :

وفى اليوم الخامس من شهر أكتوبر - تشرين أول - عام ١٨٧٦ ، وجه لورد دربي Derby فى وزارة لورد بيكونزفيلد الثانية دعوة لعقد مؤتمر دولى فى الآستانة للبحث فى تحسين أحوال الرعايا المسيحيين فى الدولة العثمانية ، وتجديبا لنشوب الحرب بين هذه الدولة والروسيا التى جعلت من نفسها حامية للرعايا المسيحيين العثمانيين . وكانت قد اتخذت من هذه الرغبة «الإنسانية» ستاراً لتغطية غرضها الحقيقي ، وهو خوض حرب جديدة كانت قد استكملت لها استعداداتها العسكرية والسياسية على أوسع نطاق ، ابتغاء إنزال هزيمة تصل إلى حد الكارثة توقعها بالدولة العثمانية .

وقابلت الدول هذه الدعوة أول الأمر بالفقر ، ولكنها مالبت أن أدركت أن الحرب أصبحت وشيكة الاندلاع ، بعد أن ألقى القيصر خطاباً مثيراً فى اليوم الثانى عشر من شهر نوفمبر - تشرين ثان - ١٨٧٦ ، أثنى فيه على استيسال أهل الصرب والجبل الأسود فى حريهم ضد القوات العثمانية ، وبعد أن وصلها منشور بتاريخ اليوم الثالث عشر من ذات الشهر من الحكومة الروسية ، تبلى فيه الدول أنها أمرت بتعبئة جزئية للقوات الروسية على الحدود لحماية مسيحيى الدولة العثمانية ، قبل أن تستكمل الأخيرة إجراءات حشد قواتها من ولاياتها فى آسيا وإفريقية ، ومن ثم عادت الدول الأوروبية فوافقت على عقد المؤتمر الذى اجتمع فى اليوم الثالث والعشرين من شهر ديسمبر - كانون أول - عام ١٨٧٦ فى سراى البحرية برئاسة صفوت باشا وزير الخارجية العثمانية بصفته ممثلاً للدولة المضيفة كما تقضى قواعد القانون

(١) الآستانة كلمة فارسية الاصل معناها العتبة العالية ، وقد ظهرت فى بعض الفرمانات السلطانية فى القرن التاسع عشر .

الدولى العام ، وحضر معه أدهم باشا الآلجى (١) العثمانى فى برلين ، كما حضر المؤتمر ممثلون عن فرنسا ، وألمانيا ، والنمسا ، والمجر ، والروسيا ، وبريطانيا ، وإيطاليا .

وقد سبقت عقد المؤتمر بصفة رسمية اجتماعات تمهيدية فى دار السفارة الروسية من اليوم الحادى عشر إلى اليوم السابع عشر من شهر ديسمبر - كانون أول - دون دعوة الوفد العثمانى لحضورها . واتضح أنه تم فى هذه الاجتماعات التمهيدية وضع عدة مطالب أو «أقترحات» قبل عرضها على المؤتمر بصفة رسمية ؛ مما يدل على تحيز أعضاء المؤتمر للروسيا . وفسر صفوت باشا مسلك الوفود بأن المؤتمر لم يدع إلى الانعقاد إلا لعرض طلبات متفق عليها من قبل ولطلب التصديق عليها من المؤتمر (٢) ، وكانت هذه الطلبات فى صالح بلغاريا والصرب والجبل الأسود والبوسنة والهرسك . كما تضمنت المطالبة بتشكيل لجنة دولية ترأب لمدة عام تنفيذ ما أسمته وفود المؤتمر «الإصلاحات» .

وشاءت دبلوماسية السلطان عبدالحميد الثانى أن يعلن فى اليوم الأول لانعقاد المؤتمر صدور المشروطة - الدستور (٣) - وتقررت فيه المساواة التامة بين جميع رعايا الدولة أمام القانون ، ونص فيه على أن الدولة جسم واحد لا يمكن تجزئته ، وعلى تجريم مصادرة الأموال ، والتعذيب فى التحقيق والسخرة ، كما نص على إنشاء مجلسين نيابيين يطلق على أولهما «مجلس المبعوثان» ويضم مائة وعشرين مبعوثاً أى نائباً منتخبين يمثلون الولايات العثمانية . ويطلق على الثانى «مجلس الأعيان» ويضم خمسة وعشرين عضواً تعينهم الحكومة . ونص أيضاً فى الدستور على وضع موازنة عامة سنوية للدولة ، تعرض على مجلسى المبعوثان والأعيان والزام الحكومة بتنفيذها ، وتأمين القضاة فى مناصبهم بحيث لا يجوز عزلهم إلا بسبب شرعى ، وأباح حرية التعليم والمطبوعات .. وأهم من ذلك حرص الدستور على الإبقاء على الطابع الإسلامى للدولة فقرر أن دينها الرسمى هو الإسلام ، واحتفظ بطابعها القومى فقرر أن اللغة التركىة هى اللغة الرسمية ، وأن رعاياها عثمانيون دون تفرقة بين عثماني تركى الأصل والأرومة أو عربى أو كردى أو غيره ، وبين مسلم أو مسيحى أو يهودى . وغير ذلك من مبادئ أساسية وحيوية وهامة (٤) .

(١) انظر ثبت المصلحات التركىة ومعالناتها فى نهاية هذه الدراسة .

(٢) انظر منشور صفوت باشا إلى السفراء العثمانيين لدى الدول الكبرى فى ٢٥ من يناير - كانون ثان - عام ١٨٧٧ .

محمد فريد بك ، مرجع سبق ذكره ، ص ٤١٤ .

(٣) كان السلطان قد أرسل إلى محدث باشا بعد تعيينه صدراً أعظم بأربعة أيام كتاباً أرفق به الدستور وأمره بنشره ، ثم رأى توقيت إعلانه يوم افتتاح مؤتمر الاستانة .

(٤) محمد فريد بك ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٨٨ .

وشاءت دبلوماسية السلطان ثانياً أن يذاع هذا القرار بصورة عملية وعلنية لأعضاء وفود الدول فضلاً عن جماهير الشعب ، فأمر بأن تطلق كل قلعة ، وكل سفينة حربية إحدى وعشرين طلقة . وفوجيء أعضاء المؤتمر وهم مشغولون بمناقشاتهم بسماع طلقات المدفعية . ولما استفسروا عن هذا الأمر كانت إجابة مندوبى الحكومة سريعة ومعدة من قبل : إنها طلقات المدفعية العثمانية ابتهاجاً بصدر الدستور^(١) .

وشاءت دبلوماسية السلطان ثالثاً أن يثبت لوفود الدول المشتركة فى المؤتمر أنه يستشير كبار رجال الفكر السياسى وعلماء الدين فى جميع أمور الدولة ، فذعا إلى اجتماع عقد فى اليوم الثامن عشر من شهر يناير-كانون ثان - عام ١٨٧٧ حضره زهاء مائتين من أعيان الدولة ورؤساء الديانات وعرضت عليهم مطالب الدول ، فأجمع الجميع على رفضها . وكان من بينهم وكيل بطريك الأرمن وحاخام اليهود ، وكانا أكثر الأعضاء تحمساً لرفضها .

وقد أثبتت الأحداث التى تعاقبت بعد ذلك أن تأييد الأرمن - على الأقل - كان من قبيل الخداع والتضليل بالدولة ، لأنه لما نشبت الحرب بين الدولة والروسيا بعد ذلك بحوالى شهرين .. قدم الأرمن معاونة صادقة للروس فى حربهم فى آسيا ضد الدولة العثمانية . ومع ذلك فإن الروسيا ابتلعت شرائح إقليمية من بلادهم سواء أرمينية العثمانية أو أرمينية الروسية ، دون أن تعمل على تحريرهم^(٢) . وأحاط صفوت باشا أعضاء المؤتمر علماً فى جلسة العشرين من الشهر ذاته بأن أعضاء الاجتماع العام من كبار رجال الدولة رفضوا مطالب المؤتمر بالإجماع . وأن السلطان قد رفضها عملاً برأى كبراء الأمة . ورؤساء المذاهب والديانات ، وحفظاً لكرامة الدولة وصيانة لشرفها^(٣) ، وأبلغهم صفوت باشا فى الوقت ذاته أن الحكومة مستعدة للنظر فى بعض طلبات المؤتمر ، ولكنها غير مستعدة على الإطلاق للتنازل عن أى جزء من أراضيها سواء للصرب أو للجبل الأسود أو غيرها . وفى مساء اليوم التالى ٢١ من الشهر ذاته أنهى المؤتمر أعماله ، وغادر الأعضاء الآستانة دون أن يقابلوا السلطان ومعهم سفراء دولهم علامة على قطع العلاقات السياسية مع الدولة . ولم يتخلف منهم إلا السفير الروسى ، بحجة أن حالة الجوع والبحر الأسود لاتسمح لسفينة من الإبحار . والواقع أنه أراد بهذا العذر البقاء فى الآستانة ليضع مزيداً من الخطط والمؤامرات لتدمير الدولة العثمانية .

بهذه الصور المتعددة الأشكال من دبلوماسية عبدالحميد ، نجح هذا السلطان فى أن يفوت الفرصة على أعضاء مؤتمر الآستانة ، فغادروا العاصمة غير مأسوف على رحيلهم .

(1) Miller W.; op. cit., p. 371.

(2) Ensor R.C.K.; op. cit., p. 50.

(٣) مصطفى كامل باشا : المسألة الشرقية ، مرجع سبق ذكره ، ج ١ ، ص ٢٢١ .

عبدالحميد يتلقى إنذاراً من الدول :

وعلى الرغم من أن الدولة عقدت صلحاً مع الصرب ، استمرت المسألة الشرقية مشتعلة ، دون أن تسوى تسوية سلمية بسبب أطماع الدول الأوروبية الكبرى في اقتطاع ولايات عثمانية لحسابها ، وبسبب إصرار روسيا على خلق أزمات وتصعيدها مستهدفة خوض الحرب حين تستكمل استعداداتها الحربية النهائية . وفي الوقت ذاته ، بذلت هذه الدولة جهوداً دبلوماسية مكثفة لتضمن حيدة الدول الأوروبية الكبرى في الحرب المقبلة ، وأوفدت لهذا الغرض إجناتيف إلى العواصم الأوروبية فزارها عاصمة بعد أخرى ولقى فيها ترحيباً ، وحصل على تأكيدات من حكوماتها بعدم معارضة روسيا في شيء . وفي لندن توج جهوده باتفاقه مع رئيس الوزارة البريطانية على عقد مؤتمر دولي في العاصمة البريطانية ، يحضره سفراء الدول الموقعة على معاهدة باريس لعام ١٨٥٦ ، ولم تشترك فيه الدولة العثمانية بطبيعة الحال . وصدر عن هذا المؤتمر ما عرف باسم «بروتوكول لندن»^(١) في اليوم الحادي والثلاثين من شهر مارس - آذار - عام ١٨٧٧ ، وهو عبارة عن إنذار جماعي من الدول إلى الباب العالي ، طالببت فيه بعقد معاهدة صلح مع الجبل الأسود على أساس منح هذا الإقليم إضافات إقليمية كان يطالب بها ، وإنقاص عدد الجيش العثماني ، وتحسين أوضاع الرعايا المسيحيين في الدولة ، وإذ لم يستجب الباب العالي لهذه المطالب في أقرب فرصة ، فإن الدول الأوروبية تتخذ الإجراءات الفعالة ضد الدولة .

وعرض السلطان عبدالحميد هذا الإنذار على مجلس المبعوثان ، فرفضه المجلس في اليوم التاسع من شهر أبريل - نيسان - وأبلغ الباب العالي في مذكرة ضافية في اليوم الحادي عشر الدول الموقعة على بروتوكول لندن رفضه هذه المطالب وأسباب رفضها^(٢) ، وأصبحت الحرب وشيكة الوقوع بين يوم وآخر . وأكملت روسيا استعداداتها الحربية ، وعقدت في اليوم الرابع والعشرين من ذات الشهر اتفاقاً حروبياً سرياً مع رومانيا ، يسمح بمرور القوات الروسية

(١) البروتوكول Le Protocole مصطلح في القانون الدولي العام يطلق على اتفاقيات دولية ، إذا كان الموقف الدولي في تقدير الدول الأطراف في هذه الاتفاقيات لا يتحمل تأخيراً ، وكان وضع الاتفاقيات أو المعاهدات يتطلب إجراءات يستغرق إتمامها وقتاً طويلاً ، مثل بروتوكول باريس في ٥ من أغسطس - آب - عام ١٨٦٠ ، بخصوص تدخل أوروبا عسكرياً لإخماد فتنة بلاد الشام إبان الحكم العثماني .
ويستخدم هذا المصطلح أيضاً كوسيلة تكميلية لتسجيل توافق إرادات الدول ، على مسائل تبعية لما سبق الاتفاق عليه في المعاهدة المنعقدة بينهما . والأمثلة على ذلك كثيرة منها بروتوكول السودان ، وبروتوكول الجلاء في مشروع معاهدة صدقي - بيغن . كما يطلق هذا المصطلح على مختلف الاتفاقات الدولية .

انظر : دكتور حامد سلطان ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٠٧ ، حاشية رقم ١ .

(٢) نشر محمد فريد بك الترجمة العربية الكاملة لمذكرة الباب العالي تقلا عن مجموعة الجوانب .

انظر : محمد فريد بك ، مرجع سبق ذكره ، ص ٤١٧-٤٢١ .

عبر الأراضي الرومانية في زحفها على الدولة العثمانية ، مع أن رومانيا كانت لاتزال تحت السيادة العثمانية^(١).

الروسيا تعلن الحرب رسمياً على الدولة :

أرسل الأمير غورتشاكوف في اليوم الرابع والعشرين من شهر أبريل - نيسان - عام ١٨٧٧ إلى توفيق بك المكلف برعاية المصالح العثمانية في سان بطرسبرج كتاباً ، جاء فيه أن سيده قيصر الروسيا رأى نفسه مضطراً بكل أسف إلى الالتجاء إلى الحرب لتنفيذ مطلبه وهو نصرة المسيحيين من رعياي السلطان ، وأن الروسيا تعتبر نفسها في حالة حرب مع الدولة من هذا التاريخ . وفي اليوم ذاته عبرت القوات الروسية الحدود الأوروبية والحدود الشرقية للدولة ، وبذلك بدأت الحرب بين الدولة العثمانية والروسيا ، وكانت الحرب الرابعة والأخيرة التي نشبت بين الدولتين في القرن التاسع عشر^(٢) . واتخذت للروسيا في القرم والبحر الأسود خطة الدفاع

(١) كانت رومانيا تتكون من ولايتي الألتاي والبغدان أو مولدافيا وولاشيا ، وقد دخلتا تحت السيادة العثمانية في أواخر القرن الخامس عشر . وكانت هاتان الولايتان مسرحاً لنسائس الدول الأجنبية وبخاصة الروسية ، واستقطعت من هاتين الولايتين إقليم بيكوفينا عام ١٧٧٥ وإقليم بسارابيا عام ١٨١٢ . وأعيت السيادة العثمانية إلى الولايتين بشروط معينة في معاهدة باريس لعام ١٨٥٦ (المواد من ٢٦ إلى ٢٧) . غير أن الامتيازات العديدة التي ظفرت بها هاتان الولايتان من الدولة العثمانية بتأييد الروسي وانتمعات الروح القومية في الولايتين ، كما انبعتت في سائر الولايات البلقانية قد أوجدا تياراً قوياً نحو اتحائعهما واستقلالهما . وقد أبنت الاتجاه الودوي الروسي وفرنسا ، بينما عارضته كل من الدولة العثمانية وبريطانيا والنمسا . وتضاعفت المشكلة بحيث غدت من أكبر المشكلات التي واجهتها أوروبا بعد عقد معاهدة باريس لعام ١٨٥٦ . ولحل هذه المشكلة عقد اتفاق باريس في اليوم التاسع عشر من شهر أغسطس - آب - عام ١٨٥٨ ، وتقرر فيه إطلاق اسم موحد على الولايتين هو ولايتا مولدافيا وولاشيا المتحدتين The United Principalities of Moldavia and Wallachia على أن تكون الولايتان تحت السيادة العثمانية وأن تدفعاً جزية سنوية للسلطان حددت بمليون ونصف مليون قرش بالنسبة لمولدافيا ومليونين ونصف مليون قرش بالنسبة لولاشيا . وأن يكون لكل ولاية مجلس نيابي ، ولكل منهما حاكم ينتخبه الشعب ويوافق عليه السلطان ، ويكون للولايتين معاً لجنة مركزية ، تتكون من ستة عشر عضواً نصفهم من الشعب ويوافق عليهم من الالاشيا . ومن اختصاصات اللجنة وضع القوانين التي تمس المصالح العام وبحكمة الاستئناف الفيدرالية (الاتحادية) ، وتقرر أن يخضع جيشا الولايتين لتنظيم واحد ، وأن يتحدوا في وقت الحاجة ، ويكون له قائد واحد ينتخبه أميرا الولايتين بالتناوب ، وأن يكون لكل ولاية علمها الخاص وغير ذلك من تنظيمات . ويعتبر هذا الاتفاق حلاً وسطاً بين الاتحاد والانفصال ، وفي الانتخابات التي جرت في اليوم السابع عشر من شهر يناير - كانون ثان - عام ١٨٥٩ في ولاية مولدافيا ، وفي اليوم الخامس من شهر فبراير - شباط - أجمع الناخبين على شخص واحد ، هو إسكندر كوزا Couza وهو من ولاية مولدافيا ، ودرس القانون وخدم في الجيش ، فكان انتخابه الخطوة الأولى في سبيل الاتحاد . واتخذ لنفسه اسم إسكندر جون الأول . وفي عام ١٨٦١ استقبل في إستانبول ، وسُميت الإمارة الجديدة رومانيا وعاصمتها بخارست ، مع تأكيد بقاء حق السلطان في الجزية والسيادة .

(2) Miller W.; op. cit., p. 373.

نظراً لتفوق الأسطول العثماني^(١)، ومع ذلك لم يستطع العثمانيون استغلال تفوقهم البحري على الأسطول الروسي، وعجزوا عن تدميره أو إصابته بهزيمة قاصمة. وجعلت خطتها الهجومية في جبهة القوقاز وحوض نهر الدانوب وجنوبى البلقان؛ أى اتخذت من الحرب البرية وميلتها الرئيسية، كما أقامت خطتها على الحرب الخاطفة بعبور الجيوش الروسية نهر الدانوب ثم اختراق جبال البلقان وممراته الجبلية، فإذا تم لها ذلك انسابت سراعاً نحو إستانبول. وبذا تضع نهاية للمسألة الشرقية في الجزء الأوروبي من أملاك الدولة العثمانية، وفي اليوم الخامس والعشرين من الشهر ذاته، أرسل الباب العالي منشوراً بطريق البرق إلى السفراء العثمانيين لدى الدول الأوروبية الموقعة على معاهدة باريس لعام ١٨٥٦، يبلغهم أن روسيا أعلنت الحرب على الدولة خلافاً لما نصت عليه هذه المعاهدة في مادتها الثامنة من ضرورة الأخذ بمبدأ تحكم الدول، في حالة وقوع نزاع بين الدولة العثمانية وإحدى الدول الأطراف في المعاهدة قبل اللجوء إلى الحرب.

الأحداث السياسية والدينية في أثناء الحرب :

ولن نخوض في وقائع الحرب لأنها خارجة عن نطاق هذه الدراسة. ولكن حسينا أن نشير إلى أهم أحداثها السياسية والدينية والأخطاء التي وقع فيها السلطان عبدالحميد الثاني. دخلت الجيوش الروسية أراضي رومانيا في طريقها إلى نهر الدانوب لعبوره، ابتغاء اكتساح الأراضي العثمانية. ورأت الدولة العثمانية أن في هذا التصرف من جانب رومانيا خروجاً على السيادة العثمانية؛ فأمرت أسطولها النهري في الدانوب بقذف شواطئ رومانيا بالقنابل. وردت رومانيا على هذا القصف بإعلان استقلالها في اليوم الرابع عشر من شهر مايو - آيار - ١٨٧٧، وباشتراكها إلى جانب روسيا في الحرب، وبذلك انضم جيشها البالغ ستين ألف جندي ضد الدولة العثمانية، ونجم عن هذا الوضع العسكري الجديد أن استطاع الجيش الروسي بجمع فرقته عبور نهر الدانوب في اليوم السابع والعشرين من شهر يونيو - حزيران - وبذلت تغلبت روسيا على العقبة الطبيعية الأولى أمامها، وهي نهر الدانوب، وبقيت أمامها العقبة الثانية والأخيرة، وهي اجتياز هضبة البلقان وممراته الجبلية. ولكن شد أزرها انضمام الجبل الأسود إليها منذ الأيام الأولى للحرب؛ مما اضطر الدولة العثمانية إلى تحويل جزء من قواتها لمحاربة سكان هذا الإقليم بدلاً من توجيه هذه القوات لمحاربة الروس في جبهات البلقان.. ثم دخلت الصرب الحرب إلى جانب روسيا في المراحل الأخيرة للحرب.

(١) كان السلطان عبدالعزيز لواعه بالاسلح البحرى قد زاد من عدد وحداته وعتاده ورجاله زيادة، لم تكن تتفق مع الموقف المالى المتدهور للحكومة العثمانية.

انظر : دكتور محمد مصطفى صفوت، مؤتمر برلين الخ، مرجع سبق ذكره، ص ٢٠.

وهكذا وقفت الدولة العثمانية وحيدة تواجه تكتلاً دولياً مسيحياً من روسيا ورومانيا والجبل الأسود والصرب جهاراً ومن رعايا الدولة المسيحيين في باقي جهات البلقان سراً . وقد اتخذ هذا الصراع منذ يومه الأول طابع الصراع الصليبي بين المسيحية والإسلام ؛ إذ ركز الحلفاء اهتمامهم على نفس الأحياء الإسلامية في المدن ، التي اقتحموها وقتلوا سكانها وسلبوا أموالهم وهتكوا أعراسهم وخربوا مساجدهم . واستصدر السلطان من شيخ الإسلام في إستانبول فتويين مؤرختين في اليوم الحادي والعشرين من شهر مايو - آيار - كانت الأول بفرض القتال على كل مسلم بالغ قادر عاقل ، وأن هذا الواجب هو فرض عين^(١) ، وكانت الفتوى الثانية خاصة بإضافة لقب غازي لاسم السلطان عبدالحميد الثاني في الأوامر السلطانية وعلى المنابر ؛ بناء على مجاء في الحديث الشريف «من جهز غازياً في سبيل الله فقد غزا» . ولكي يضمن السلطان سلامة الجبهة الداخلية ويأمن شر الدسائس الأجنبية ، أعلن الأحكام العرفية في اليوم الرابع والعشرين من شهر مايو - آيار - ولا تثريب عليه في هذا الإجراء ؛ لأن الدول تلجأ إليه في حالة الحرب .

تقهقرت الجيوش العثمانية أمام الأعداء الذين استطاعوا احتلال عديد من المدن الهامة في جبهة البلقان وجبهة القوقاز ؛ مما أدى إلى انتشار الذعر في إستانبول .

من أخطاء السلطان عبدالحميد :

أذاع المرجفون في العاصمة أن تقهقر القوات العثمانية أمام الجيوش الروسية إنما مرده إلى إهمال أو تقصير أو عدم كفاءة كبار العسكريين ، ومنهم رديف باشا ناظر الحربية ، وعبدالكريم باشا القائد العام للجيش . ووشوا بهما إلى السلطان فزلهما في اليوم الثاني والعشرين من شهر يوليو - تموز - وأصدر فرماناً بتعيين محمد علي باشا قائداً عاماً للجيش ، وكان تعيينه في هذا المنصب الخطير من الأخطاء التي وقع فيها السلطان ؛ لأن محمد علي باشا كان روسي الأصل مسيحي الديانة اسمه الروسي شارل دترو ، ثم اعتنق الإسلام وانخرط في سلك الجيش العثماني ، وتدرج في مناصبه ووصل إلى رتبة فريق . ولما تثبتت الحرب في أبريل - نيسان - ١٨٧٧ رقي إلى رتبة مشير وأرسل إلى الروملی ، ولم تكن تصرفات هذا القائد فوق مستوى الشبهات^(٢) . ومن أخطاء عبدالحميد ثانياً أنه عين صهره محمود باشا داماد ناظراً للحربية . وكان يجدر بالسلطان أن يبتعد عن سياسة تعيين الأتاني والأقاصي من أفراد الأسرة

(١) تميز الشريعة الإسلامية الفراء بين فرض الكفاية وفرض العين . أما فرض الكفاية فتتعلق بمجموع الأمة في البلد ، بحيث إذا قام به البعض سقط الفرض عن الباقي ، مثل صلاة الجنازة فهي فرض كفاية يكفي في أدائها بعض المسلمين . أما فرض العين فتتعلق بجميع الأفراد فرداً فرداً ، وعلى طريق الحصر والشمول ، مثل الصلوات الخمس .

(٢) انظر مذكرته عنه مصطفی كامل باشا في كتابه ، ج ١ ، ص ٢٤١ و ج ٢ ، ص ٤ .

السلطانية في المناصب الحساسة ، في وقت كانت الدولة منصرفة بكافة طاقاتها إلى خوض حرب مصيرية . ولا يمكن القول بأن السلطان كان يخشى الخيانة من أهل الخبرة وأطمأن إلى إخلاص أهل الثقة .

وقد دلت الأحداث قديماً وحديثاً في كافة الدول أن سياسة تقديم أهل الثقة وإقصاء أهل الخبرة إنما هي سياسة حمقاء ، أسفرت عن أوخم العواقب ووقوع الكوارث والتعثر . ومن أخطاء عبد الحميد ثالثاً أنه أمر بمحاكمة بعض كبار الضباط ممن نسب إليهم التقصير في أداء واجباتهم ؛ مما سهل على الجيوش الروسية عبور نهر الدانوب واجتياز جبال البلقان . وصدرت عليهم أحكام بالسجن والنفي إلى جهات مختلفة . وكان من الحكمة الاكتفاء بعزلهم مؤقتاً وإرجاء محاكمتهم حتى تضع الحرب أوزارها .

نجاح الدبلوماسية الروسية في أثناء الحرب :

من المبادئ المقررة أن الحرب قتال ودبلوماسية معاً ، وهما سلاحان فعالان متوازنان لاغناء عنهما ، بل إنهما مرتبطان ببعضهما ببعض بعروة وثقى ، يكمل أحدهما الآخر . فإذا استخدمت الدولة المتحاربة هذين السلاحين بمهارة ، استطاعت تحقيق أهدافها العسكرية والسياسية في يسر وسرعة ، ووضعت المجتمع الدول أمام الأمر الواقع *Le fait accompli* . وقد استطاعت روسيا أن تباهر عملياتها الحربية بنجاح ملحوظ . واستخدمت الدبلوماسية بتفوق قبيل الحرب وفي أثناءها .. فقد استطاعت أن تجعل السلطان عبد الحميد يقف بمفرده في الحرب وأن تعزل حلفاءه التقليديين عنه ، وهم الذين آزروه في حرب القرم على سبيل المثال . واستطاعت روسيا - كما رأينا - أن تضم إلى جانبها رومانيا والجبل الأسود وبلغاريا والصرب ، وأن تضمن حيدة دولة كبرى مثل النمسا والمجر في مقابل وعدها لها بتسهيل احتلالها الولاياتين العثمانيتين البوسنة والهرسك في غربي البلقان ، وأن ترضى دولتين كبيرتين مثل بريطانيا وفرنسا ، حين أكدت لهما أن مصالحهما لن تتعرض للأخطار .

كان أخشى ماتخشاه الحكومة البريطانية أن تمتد العمليات الحربية الروسية من البلقان إلى مصر بما فيها قناة السويس . وكانت قد راجت شائعات تقول إن روسيا تعزم إدخال مصر ، باعتبارها ولاية عثمانية ، في نطاق الحرب ، وأنها تدوى فرض الحصار على قناة السويس والسواحل المصرية ، وأنها تبغى الاستيلاء على أرمينية العثمانية .. فأرسل لورد دربي وزير الخارجية البريطانية مذكرة إلى شوفالوف *Peter Shuvalov* ، السفير الروسي في لندن ، ولم يكن من أنصار حركة الجامعة السلافية ^(١) *Pan Slavism* . يستوضحه فيها حقيقة موقف روسيا ، وكان مما جاء في المذكرة البريطانية أن بريطانيا سوف تضطر إلى الدفاع عن

(1) Taylor A.J.P.; op. cit., p. 229-231 & 243.

مصالحتها ، إذا تعرضت حرية الملاحة في قناة السويس للخطر أو إذا قامت روسيا بهجوم على مصر ، وأن روسيا إذا أقدمت على هذا الإجراء .. فإن بريطانيا تعتبره عملاً عدوانياً ضدها . وقد ردت الحكومة الروسية على هذه المذكرة رداً مطمئناً جاء فيه «فبالنسبة لقناة السويس ومصر ، فلحن أن نفسها ، فليست لدينا المصلحة ولا الرغبة ولا الوسائل للقيام بمثل هذا العمل... ونحن على استعداد للاتفاق مع حكومة لندن على كل المسائل ، وليست لنا مصلحة في مناوئة بريطانيا في ممتلكاتها في الهند أو في مواصلاتها .. فالحرب الحالية لا تتطلب ذلك»^(١) .

وأرسل ديكايزه Decazes وزير خارجية فرنسا إلى لافلو La Flo السفير الفرنسي في سان بطرسبرج يطلب منه الاستفسار من الحكومة الروسية عن موقفها من قناة السويس ، وعما إذا كانت منطقة القناة تعتبر من الأهداف العسكرية في الحرب التي تخوضها ضد الدولة العثمانية ، كما طلب من السفير أن يوافيه بنوايا الحكومة الروسية إزاء إسطنبول ، وعما إذا كانت تعتزم الاستيلاء عليها . فجاءه رد هذه الحكومة عن طريق السفير الفرنسي في العاصمة الروسية . وكان مما جاء في هذا الرد «إن الوزارة الإمبراطورية لا ترغب في فرض الحصار أو تعطيل أو تهديد الملاحة في قناة السويس ، ولن تدخل مصر في نطاق العمليات الحربية . أما عن إسطنبول .. فإن الوزارة الإمبراطورية دون أن تحكم مسبقاً على سير أو نتيجة الحرب تكرر أن الامتلاء على هذه العاصمة أمر خارج عن نظر الإمبراطور (القيصر) .

“Le Cabinet Impérial ne veut ni bloquer, ni interrompre, ni menacer la navigation du Canal de Suez et il ne fera entrer l’Egypte dans le rayon des opérations militaires.

“Pour Constantinople, sans pouvoir préjuger la marche ni l’issue de la guerre, le Cabinet Impérial répète qu’une acquisition de cette capitale est exclue de vues de l’Empereur”^(٢)

أمجاد عسكرية حققتها القوات العثمانية :

ولكن لم تكن الحرب كلها هزائم للقوات العثمانية وانتصارات للجيش الروسية ، فقد تبادل الطرفان فيها الأمجاد العسكرية والنكسات الحربية . وأثبتت الحرب أن الجنود العثمانيين كانوا أيوناً كاسرة ، وسطرت الحرب بطولة مثالية لعدد من القادة العثمانيين ، نذكر منهم :

(1) Seton-watson R.W., op. cit., p. 172.

(2) Documents Diplomatiques Français, Première Série, tome 2.

Decazes au Général La Flo en date du 21 mai, 1877.

General La Flo au Decazès en date du 9 Juin, 1877.

عثمان باشا ، ومختار باشا ، وإسماعيل حقي باشا وسليمان باشا وغيرهم . وقد وقع على عاتق عثمان باشا عبء الدفاع عن مدينة بلقنا Plevna ، وهي ذات موقع حربي هام للغاية لأنها على ملتقى الطرق الرئيسية الموصلة بين نهر الدانوب وبلغاريا الغربية وممرات جبال البلقان . وأقام عثمان باشا تحصينات منيعة ، حاول الخلفاء مراراً اقتحامها .. فكانوا ينقلبون في كل مرة على أعقابهم خاسرين . وفي إحدى المرات هاجموا المدينة بقوات جرارة من أسلحة المدفعية والفرسان والمشاة ، وكانت قواتهم تبلغ ثلاثة أضعاف القوة العثمانية ، ولكنهم ارتدوا على أعقابهم بعد أن خضبوا أرض المعركة بدماء قتلاهم وملأوا الوديان بجثثهم . ولما بلغت عبدالحميد أنباء هذه البطولة أرسل إلى عثمان باشا برقية ، أشاد فيها ببسالته وحسن قيادته وببطولة وشجاعة رجاله . وحضر قيصر روسيا وولي عهده وأمير رومانيا لبث روح الثبات في الجنود وتشجيعهم على الاستبسال ، ولما أعيت الخصوم الحيل في اقتحام حصون المدينة ومعاقلها فرضوا عليها حصاراً محكماً عززته الفرق العسكرية ، التي كان يتوالى إرسالها إلى المدينة ونفذت الذخائر والأقوات من القوات العثمانية ، واضطرت إلى التسليم بعد حصار استطال زهاء ستة أشهر من ٢٠ يوليو - تموز - حتى ١٠ ديسمبر - كانون أول عام ١٨٧٧ ، وقد أشاد ببطولة عثمان باشا قيصر روسيا الذي قابله في مدينة بلقنا وأظهر له تقديره وإعجابه كما أشاد الخصوم قبل الأصدقاء والمؤرخون الأوروبيون قبل المؤرخين الشرقيين ببطولة عثمان باشا ورجاله . وقد فقد الجيش الروسي في محاصرة بلقنا ٢٨,٠٨٠ رجلاً ، وفقدت القوات العثمانية ١٥,٣٠٠ رجلاً .

عبدالحميد يطلب وساطة الدول لدى قيصر روسيا لوقف إطلاق النار :

بعد سقوط مدينة بلقنا بيومين طلب السلطان عبدالحميد من الدول الموقعة على معاهدة باريس لعام ١٨٥٦ للتوسط لدى القيصر لوقف إطلاق النار تمهيداً لعقد صلح حقناً للدماء (١) . ولكن الدول تباطأت ولم تبعث بجواب شاف . ولعلها ارتاحت لسير الحرب لمصلحة روسيا . ولم تحسب حساباً لعواقب سقوط مدينة بلقنا .. تأكدت الصرب أن الانتصار سيكون في جانب روسيا ، بعد أن تدهور موقف القوات العثمانية في القوقاز باستيلاء الروس على قارص في اليوم الثامن عشر من شهر نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٨٧٧ (٢) ، فلما سقطت بلقنا في الشهر التالي أعلنت الصرب الحرب على الدولة العثمانية صاحبة السيادة عليها ، وذلك في اليوم ذاته الذي طلب فيه السلطان وساطة الدول . وأرسل أمير الصرب جيشه للانضمام إلى الجيوش الروسية وكان قد تقابل مع قيصر روسيا ، واتفق معه على المكاسب التي سيطفر بها بعد الحرب نتيجة خيانه للولة العثمانية . وكان كل مافعله السلطان عبدالحميد أنه أصدر فرماناً

(١) Miller W.; op. cit., p. 376.

(٢) استولت الجيوش الروسية من قبل على أريمان وباطوم .

فى اليوم العشرين من شهر ديسمبر - كانون أول - بعزل أمير الصرب ، واسمه الأمير ميلان Milan ، كما أرسل منشوراً موجهاً إلى أهل الصرب ، أظهر لهم غدر أميرهم وخيانتة للعهد بعد أن عفت عنه الدولة أكثر من مرة ، وقال السلطان فى منشوره إن أميرهم يسوقهم إلى الدمار والخراب ، وأنه عزله من منصبه .

وكان من عواقب سقوط بلغنا أيضاً أن وجهت روسيا جميع جيوشها إلى ماوراء جبال البلقان للإغرة على بلغاريا والروملى الشرقية . واحتلت بمساعدة الجيشين الصربى والرومانى الممرات الجبلية الهامة مثل معر شيبكا Shipka ، واستطاع ثوار الجبل الأسود الاستيلاء على أنتيفارى Antivari على البحر الأدرياتي ، وتساقطت كأوراق الخريف المدن الهامة تبعاً مثل صوفيا وأدرنة واندفعت الجيوش الروسية فى طريقها إلى إستانبول .. دون أن تجد مقاومة تذكر حتى بلغت ضواحي العاصمة .

مشكلة اللاجئين المسلمين :

ازدادت المتاعب فى هذا الوقت الحرج أمام السلطان عبدالحميد ؛ إذ لم تكد تنتشر أنباء اقتراب الروس من إستانبول حتى قام رعايا الدولة المسيحيون بالانتقام من الدولة فى أشخاص رعاياها المسلمين من قتل ونهب فى الأقاليم التى اكتسحتها الجيوش الروسية . ولذلك هاجر كثير من المسلمين إلى إستانبول هرباً مما كانوا ينتظرونه ووقع فيه فريق منهم ، وتركوا ديارهم وأمتعتهم وقصدوا إستانبول أفواجا ، وغصت بهم شوارع العاصمة وبلغ عددهم زهاء مائة وخمسين ألف مهاجر .

وأعيت الحيل الحكومة فى تقديم الغوث لهم من ملابس ومأكول ووقود لحمايتهم من زمهرير الشتاء فضلاً عن تدبير أماكن لإيوائهم ، وتكرنت عدة لجان لمساعدتهم وجمعت أموالاً وفيرة من الأهالى .. وانتشرت بينهم الأمراض بعامه ووباء التيفوس بخاصة . ولتهدئ خصوم السلطان عبدالحميد هذه الفرصة ، واستغلوا سوء أوضاعهم واندسوا بينهم واستخدموهم كمخالب قط للإطاحة بحكم السلطان عبدالحميد ، كما مر بنا فى حادث قصر چراغان وحادث إحراق مبانى الباب العالى . ولولا أن السلطان بادر إلى طلب وقف إطلاق النار وأبرم هدنة مع الروسيا ووزعهم فى أقاليمهم الأناضول لتعرضوا للفناء . وكانوا يرفضون العودة إلى بلادهم التى احتلها الروس وحلفاؤهم وساد فيها المسيحيون رفضاً قاطعاً .

ظهور مشكلتين لم تكونا فى حسابان عبدالحميد :

(١) رغبة اليونان فى دخول الحرب ضد الدولة :

فى هذا الوقت العصيب طفت على السطح مشكلتان ، لم تكونا فى الحسابان ، جعلتا المرفق أمام السلطان عبدالحميد أفدح خطورة وأشد ظلاماً . وتمثلت المشكلة الأولى فى تحريك

سياسي صحبه تحرك عسكري ، قامت بهما المملكة اليونانية مستغلة مناعب السلطان عبد الحميد من أجل تحقيق توسعات إقليمية وامتيازات على حساب الدولة العثمانية عقب اشتعال الحرب العثمانية الروسية في عام ١٨٧٧ . ومن المعروف أن اليونان لم تشترك في هذه الحرب ولكنها لم تكن ، في أثناء ثورة بلغاريا وحرب الصرب والجبل الأسود الأولى ، دولة متفرجة ولكنها اهتمت اهتماماً زائداً بتتبع أحداثها . ورأت الحكومة اليونانية أنه من الحكمة أن تستعد حربياً إذا تطلبت المصلحة القومية أن تتدخل عسكرياً ضد الدولة العثمانية .

وماشياً مع هذا الاتجاه ، أقدمت الحكومة اليونانية على تعزيز جيشها باستيراد أسلحة وذخائر وزيادة عدد أفرادها . وكان هناك فريق من اليونانيين يريدون اغتنام فرصة الحرب العثمانية الروسية ؛ خشية أن تتم تسوية المسألة الشرقية بطريقة تنطوي على إغفال أو تغافل ما أسموه «العامل الهيليني» ، The Hellenic Factor ، وأثاروا اضطرابات في الأقاليم اليونانية الخارجة عن حدود المملكة اليونانية ، والتي كانت لاتزال تابعة للدولة العثمانية . وأجمعت الآراء في أثينا على ضرورة إزالة أو وقف الخلافات بين الأحزاب ؛ حتى تستطيع البلاد التفرغ لمركة الجامعة الهيلينية Panhellénism ، ويقصد بها جمع شتات الأقاليم اليونانية المبعثرة والخارجة عن حدود المملكة اليونانية وضمها إلى نطاق هذه المملكة ، التي كان أنصار هذه الحركة ينظرون إليها على أنها للمملكة الأم .

وذهبت الدوائر السياسية في أثينا إلى أن هذه الحركة الهيلينية أصبحت في مفترق الطرق ، وعلى البلاد أن تواجهها بقيادة موحدة وعقلية موحدة وتوجيه موحد . وتشكلت في أثينا في شهر يونيو - حزيران - عام ١٨٧٧ وزارة ائتلافية A coalition cabinet ، سميت The Oecumenical Government ضمنت مجموعة من كبار الساسة اليونانيين القدامى ، ويقول عنها ميلر Miller إن مملكة اليونان لم تشهد من قبل ولا من بعد مثل هؤلاء الصفوة من الساسة المحنكين ، يجتمعون في وزارة واحدة (١) . وأعلن وزير الخارجية في الوزارة الجديدة - أو ، الوزارة العظمى ، كما سميت - استعداداه لأن يقم في حدود استطاعته حركات العصيان بين رعايا الدولة العثمانية اليونانيين ؛ بشرط أن تعترف الحكومة البريطانية ، عندما يحين الوقت لتسوية المسألة الشرقية ، بأن هناك مسألة هيلينية أمام أوروبا . وكان دربي وزير خارجية بريطانيا ميلاً إلى إدراج إصلاحات إدارية أو امتيازات لرعايا الدولة العثمانية اليونانيين على غرار الإصلاحات والامتيازات ، التي تنفرد للجنسيات المسيحية الأخرى في البلقان ، ولكنه لم يكن راغباً في إعطاء وعود بتأييد منح المملكة اليونانية توسعات إقليمية ، على حساب الدولة العثمانية .

(1) Miller W.; op. cit., p. 379.

الروسيا تعرض على اليونان الاشتراك في الحرب :

وعلى الرغم من أن السلطان عبدالحميد استخدم قوات من الباشى بوزوق الألبانية في إخماد ثورات الرعايا اليونانيين في تراقيا ، وعلى الرغم من ضغط جمعية الإخوان اليونانيين لتصعيد حركة المقاومة في وجه السلطان عبدالحميد ، أخذ معظم أعضاء الوزارة الإنتلافية بنصيحة الحكومة البريطانية ، وهي الاعتذار عن عدم قبول عرض قيصر الروسيا في أثناء حصار مدينة بلغيا بأن تدخل لليونان الحرب ضد الدولة العثمانية ، ويضمن لها القيصر المشاركة في أسلاب الحرب .

كما ترجع أسباب هذا الرفض إلى أن الشعب اليوناني رفض بإباء وشعم أن يزج بقضية القومية الهيلينية مع قضية البلقان . ولكن لما تطورت العمليات الحربية بسقوط مدينة بلغيا وجاءت الأنباء بزحف الجيوش الروسية على مدينة أدنة العاصمة السابقة للدولة العثمانية .. قامت المظاهرات الصاخبة في شتى أنحاء المملكة اليونانية ، تطالب بدخول الحرب ضد الدولة العثمانية .

وحاولت وزارة الائتلاف تهدئة ثائرة الجماهير ، فأعلنت تأييدها للانتفاضات التي قامت في تراقيا وإيروس Epirus وجزيرة كريت ، وصرح وزير الخارجية اليونانية في اليوم الثاني من شهر فبراير - شباط - عام ١٨٧٨ أن الحكومة قررت أن تحتل مؤقتاً بجيشها الأقاليم اليونانية التابعة للدولة العثمانية . ولكن جاءت الأنباء بوقف إطلاق النار وإبرام هدنة بين الدولة العثمانية والروسيا فأوقفت هذا الغزو ؛ إذ اتضح لأعضاء الوزارة أنه إذا استمرت عمليات الغزو .. فإن المملكة اليونانية ستقف بمفردها في الحرب أمام القوات العثمانية ، وكان وزير الخارجية اليونانية يرى أن تشترك بلاده في الحرب البلقانية العثمانية الروسية حتى يضمن لبلاده مقعداً في مؤتمر الصلح على غرار ما فعل كافور Cavour (١٨١٠-١٨٦١) رئيس وزراء بيدمنت ، عندما اشترك في حرب القرم وجلس بجانب مندوبى الدول في مؤتمر باريس فتسنى له إيصال صوت إيطاليا إلى آذان الدول الكبرى مباشرة . ويبدى ميلر أسفه العميق ؛ لأن المملكة اليونانية لم تنهج نهج بيدمنت ، ولأنها أضاعت وقتاً ثميناً وطويلاً ، ولما أرادت التدخل حرياً جاء قرارها متأخراً^(١) .

وكانت القوات اليونانية قد بلغت في زحفها دوموكوس Domokos ، فلما أمرت الحكومة بعودة قواتها إلى قواعدها ، أعلنت في الوقت ذاته أن المسألة الهيلينية ستناقش في المؤتمر ، ولكن لم يكن لهذا التصريح أثر كبير .. فقد استمرت الثورات ، وعبر المتطوعون حدود المملكة اليونانية نحو إيروس وتراقية . أما في إيروس فقد أخدمت الثورة سريعاً ، بعكس ثورة تراقيا

(1) Miller W.; op. cit., p. 379-381.

فقد أخذت فيها اتجاهاً خطيراً ، إذ أعلن الثوار قيام حكومة مؤقتة واندادوا بالوحدة مع المملكة اليونانية .

ولما أذيعت معاهدة الصلح بين الدولة العثمانية والروسيا- معاهدة سان استافانو - وتقرر فيها إدماج أجزاء كبيرة من مقدونيا في ولاية بلغاريا ، قامت ثورة عازمة تنادى فيها اليونانيون إلى ضم جميع أجزاء مقدونيا إلى المملكة اليونانية ، وأخفقت السلطات العثمانية في السيطرة على الموقف . وتدخلت الحكومة البريطانية في شهر مايو - آيار - عام ١٨٧٨ ، وأبلغت الثوار أن المصالح الهيلينية لن تضار إذا استمعوا إلى نصيحتهما ، وعرضت عليهم مشروعاً للصلح يقضى بصدر عفو عام من الباب العالي عن الثوار ، وإعفاء لمدة سنة من الضرائب ، وإنشاء إدارة منفصلة في كل من تراقيا وإبيروس ، وقد وافق الباب العالي على هذه الاقتراحات وألقى الثوار سلاحهم .

(٢) ثورة كسريت :

أما المسألة الثانية .. فكانت تتمثل في ثورة قام بها السكان المسيحيون في جزيرة كريت في عام ١٨٧٧ ، وقد استغلوا الأخطار التي تزامنت على السلطان عبدالحميد إبان الحرب العثمانية الروسية التي نشبت في تلك السنة . وقد طالب الثوار بإدخال تعديلات على اللائحة الأساسية^(١) Organic Statute الصادرة في عام ١٨٦٨ بمنحهم المزيد من الامتيازات. ولما رفض السلطان عبدالحميد الاستجابة إلى مطالبهم عقد زعماء الثوار اجتماعاً في أثينا ، وقرروا تحريك ثورة ضد الدولة العثمانية ، وهبط المتطوعون اليونانيون الجزيرة وشكل زعماء الثورة جمعية باسم الجمعية العامة للكريتيين ، طالبت بمنح الجزيرة حكماً ذاتياً كاملاً ، وأن تحكم الجزيرة هيئة تنفيذية يرأسها حاكم ينتخبه الأهالي ، وأن تكون الرابطة بين الدولة والجزيرة

(١) تقرر بمقتضى هذه اللائحة تقسيم الجزيرة إلى خمسة أقسام ، يطلق على كل منها «مصرفية» ويحكمها «مصرف» . وتنفق هذه المصارفيات بدورها إلى تسع عشرة وحدة إدارية ، وأن تقوم في الجزيرة سلطان رئيسيتان تتمثلان في وال و«سر عسكر» أي قائد عام ، ويصح أن يشغل المنصبين شخص واحد. ويكون للوالي مساعدان ، أحدهما : مسيحي يعاونه مجلس إدارة يتكون من أعضاء مسلمين ومسيحيين ، ينتخب بعضهم ، ويعين بعضهم الآخر بحكم مناصبهم ex officio ، وإذا كان المتصرف مسيحياً يعين له «معاون» مسلم وإذا كان المتصرف مسلماً يعين له معاون مسيحي ، وأن تكون اللغتان التركية واليونانية اللغتين الرسميتين في الجزيرة . وتقرر إنشاء جمعية عامة ، تكلمت اللائحة عن طريقة تشكيلها وتجتمع مرة في السنة لمدة لاتزيد عن أربعين يوماً ، وتناقش المسائل ذات المنفعة العامة ، أما المسائل الدينية فتناقش في جلسات خاصة يشترك فيها رجال الدين المختصون ، كما تعرضت اللائحة الأساسية لمسألة الضرائب ، والرسوم المقررة على منتجات الجزيرة والرسوم الجمركية .

انظر :

مقصورة على جزية سنوية حددت بنصف مليون قرش ، وأن تضمن الدول الأوروبية الكبرى هذا الوضع السياسى الجديد للجزيرة .

ولما أبطأ عليهم عبدالحميد أعلنوا قطع العلاقات مع الدولة العثمانية وإعلان الحرب عليها وتصادعت موجة الحركة الهيلينية - وهى تهدف إلى ضم جميع الأقاليم التى يسكنها يونانيون إلى المملكة اليونانية باعتبارها المملكة الأم - وكان يحلو لرجال الحركة الهيلينية أن يطلقوا على جزيرة كريت «الجزيرة اليونانية الكبرى» ، وكان بعضهم من أنصار ضمها إلى المملكة الأم ، بينما كان البعض الآخر من أنصار اتخاذها . وكانوا على استعداد دائماً لمساعدة الجزيرة حربياً بل ومحاربة الدولة فى تحقيق هدفهم ، وقد أعلنت الحكومة اليونانية أن المستقبل السياسى لجزيرة كريت يهمها أكثر من أى دولة أخرى . ومع ذلك لم يمض وقت طويل على نشوب الثورة حتى أعلنت الهدنة لسببين : أولهما أن الدولة العثمانية كانت قد سحبت أجزاء من قواتها فى الجزيرة ووجهتها لمحاربة الجيوش الروسية ، وثانيهما أن الثوار كانت تعزهم الذخائر والأسلحة والأطعمة .

ولكن لما أرسل السلطان تعزيزات عسكرية إلى الجزيرة، نقض الهدنة واستأنف الحرب من جديد ضد الثوار، وبدأت كفة العثمانيين ترجح كفة الثوار . وتدخلت الحكومة البريطانية نيابة عن مسيحيى الجزيرة لدى الباب العالى، الذى وعد بأنه «سيعمل بالإتفاق مع الحكومة البريطانية على إدخال ترتيبات لنوع جديد من الحكومة فى الجزيرة طبقاً للمطالب الشرعية واحتياجات الجزيرة» ، وشكلت حكومة مؤقتة تتكون من سبعة أعضاء وافقت فى اليوم السادس والعشرين من شهر مايو - آيار - عام ١٨٧٧ على قبول الوساطة البريطانية ، وإبرام هدنة على أساس القاعدة المعمول بها فى بعض الأحوال ، والتى يطلق عليها فى القانون الدولى العام (١) *Uti possidetis* . وبذلك عاد السلام مؤقتاً إلى جزيرة كريت . ولكن سرعان ما تجدد نشوب الثورات تبعاً فى السنوات المتبقية من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، بتحريض وتدخل مملكة اليونان والدول الأوروبية الكبرى عسكرياً ، وكان من بين هذه الدول : الروسية ، والنمسا والمجر ، وبريطانيا ، وفرنسا ، وإيطاليا ؛ لتصعيد الأزمات والأخطار فى وجه السلطان عبدالحميد .

(١) معنى هذا المصطلح الامتلاك بحق الاحتلال ، فإذا قامت حرب وعقدت هدنة ، فإن كلا من الفريقين المتحاربين يعتبر مالكا للأرض التى تحتلها قواته . ويستمر هذا الوضع قائماً حتى يحسم على أى نحو من الأتخاذ فى معاهدة الصلح النهائية .

وصول القوات الروسية إلى ضواحي إستانبول :

وشروط جائرة فرضتها روسيا لعقد هدنة :

اقتربت القوات الروسية من مشارف إستانبول في شهر يناير - كانون ثان - عام ١٨٧٨ ، وشاهد جنود الجيش الروسى بالعين المجردة مآذن مساجد أكبر عاصمة إسلامية في العالم وقتذاك ، والتي أصبحت مهددة باقتحام الروس لها ، وكانوا يتحرقون شوقاً لإعادة الصليب إلى مبنى كاتدرائية القديسة صوفيا ، والذي كان السلطان محمد أبو الفتوح قد حوله إلى مسجد جامع منذ أربعمائة وأربعة وعشرين عاماً خلت . وتركت الدولة العثمانية بمفردها تواجه مصيرها . ولما رأى السلطان عبدالحميد أن إطالة مدة الحرب ستجلب على الدولة كوارث محققة طلب من روسيا وقف إطلاق النار وإبرام هدنة ، واشترطت روسيا لعقد الهدنة أن تشمل عدة مبادئ أساسية ، منها : استقلال الصرب ورومانيا والجبل الأسود ، وتنازل الدولة لهذه الدول عن بعض الأراضي ، ومنح بلغاريا استقلالاً إدارياً ، وجعل الإدارة في البوسنة والهرسك مستقلة ، وتقرير غرامة حربية تدفعها الدولة إلى روسيا . وعقدت الهدنة في أدرنة في اليوم الثلاثين من شهر يناير - كانون ثان - على هذه الأسس ، ووضعت الحرب أوزارها بعد قتال استمر تسعة أشهر .

بريطانيا ترسل أسطولها إلى البوسفور :

انتشرت أنباء هدنة أدرنة في أوروبا ، وكان لها بوجه خاص أصداء بعيدة لدى الحكومة البريطانية ، التي لم تكن تعتقد أن هزيمة الدولة العثمانية تكون بهذا الحجم الرهيب الذي بلغ حد الكارثة المروعة .. فإن انتصار روسيا الساحق ومرابطة القوات الروسية في ضواحي إستانبول^(١) وفرض هدنة أدرنة ، كل أولئك حمل الحكومة البريطانية على الاعتقاد بأن هذه الحرب جعلت من الدولة العثمانية دولة تابعة للروسيا ، وخشيت حكومة لندن على مصالحها في الدولة : في المضائق وقناة السويس والشرق الأوسط ، وعلى نفوذها في منطقة الخليج العربي والهند .

ووقف الرأي العام في إنجلترا وراء حكومته في التخوف من نتائج الهزيمة الأليمة والمنكرة التي لقيتها الدولة العثمانية ، وسرى حماس بالغ لدخول بريطانيا الحرب إلى جانب الدولة العثمانية ، وزادت أغنية ترددت في المسارح ، ذكر مطلعها المؤرخ إنزور^(٢) ،

(١) نص في هدنة أدرنة على أن تحتل مقدمة الجيش الروسى خط بيوك چكجه وكچوك چكجه من ضواحي إستانبول ، وأن تنسحب القوات العثمانية إلى ما وراء هذا الخط ، وقبلت الدولة هذا الشرط منعاً لاحتلال القوات الروسية إستانبول .

(2) We don't want to fight; But by Jingo if we do, We've got the men, we've got the ships, we've got the money too.

انظر :

واتخذت الوزارة البريطانية برئاسة بنيامين دزرائيلي اليهودي - وقد غدا اسمه لورد بيكونزفيلد Beaconsfield منذ أغسطس - آب - عام ١٨٧٦ عقب تعيينه عضواً في مجلس اللوردات - إجراءات مالية وعسكرية تهديداً للروسيا إذا احتل جلودها إستانبول ،

وكان من هذه الإجراءات أن طلبت الوزارة من البرلمان اعتماد ستة ملايين جنيه ، ووافق البرلمان على فتح هذا الاعتماد دون تردد ، وصدرت الأوامر في اليوم الثالث والعشرين من شهر يناير - كانون ثان - عام ١٨٧٨ ، وفي اليوم التاسع من شهر فبراير - شباط - إلى الأسطول البريطاني بالتحرك من مياه خليج بزيكا Besika إلى البوسفور بحجة حماية الرايا البريطانية ، ولكن كان الهدف الحقيقي هو مراقبة تحركات القوات الروسية عن كلب ومنعها بالقوة من احتلال إستانبول حفاظاً على المصالح البريطانية بمنع الروس من السيطرة على المضائق ، ومن التوسع نحو البحر المتوسط^(١)؛ فلم يكن من أهدافها حماية الدولة العثمانية أو الإبقاء على صداقتها لهذه الدولة ومن المعروف أن من مبادئ السياسة البريطانية أنه ليس لبريطانيا أصدقاء دائمين ، ولكن لها مصالح دائمة .

وقد طبقت هذا المبدأ في التاريخ الحديث والمعاصر على الدولة العثمانية وعلى شعوب الأمة العربية ، ومضت الوزارة البريطانية في إجراءاتها ، فأقصت في شهر فبراير - شباط - لورد كارنارفون Camarvon وزير المستعمرات ، كما أقصت في شهر أبريل - نيسان - لورد دربي Derby وزير الخارجية لتمسكهما بأهداف السلام وعينت مكانهما على التوالي سير هيكس Sir Hicks Beach M. ولورد سالزبوري ، وأصدرت الوزارة البريطانية في اليوم السابع والعشرين من شهر مارس - آذار - قرارين : أولهما باستدعاء الجيش الاحتياطي فوراً ، وثانيهما بإرسال قوات هندية ، وقد وصلت إلى مالطة في شهر مايو - أيار - وكان عددها سبعة آلاف مقاتل .

الروسيا تطلب إرسال أسطولها إلى المضائق ودخول جيشها في إستانبول :

ولما وصل الأسطول البريطاني إلى مياه البوسفور تصاعد الموقف الحرجي .. فقد طلب القائد الروسي من الدولة العثمانية إدخال بعض فرق من المشاة الروس في إستانبول ، وأرسل الأمير غورتشاكوف في اليوم العاشر من شهر فبراير - شباط - إلى جميع السفراء الروس لدى الدول الأوروبية الكبرى ، مشوراً جاء فيه أنه لما كانت بريطانيا قد أدخلت وحدات من

= وترجمة هذا المطلع «لأنريد أن تحارب ، ولكن إذا حاربنا فنحارب انبثاقاً وانطلاقاً من وطنيتنا الدافعة ، فليدنا الرجال ، وليدنا السفن ، وليدنا الأموال أيضاً» .

ويقول هذا المؤرخ إن كلمة Jingo قد دخلت منذ ذلك الوقت في عداد الكلمات الإنجليزية المنحوة والدخيلة ، ومعناها : المغالي في وطنيته ، واشتقت منها كلمة Jingoism أي المغالة في الوطنية .

(1) Fisher H.A.L.; op. cit., pp. 1040-1042.

أسطولها في البوسفور لحماية رعاياها .. فإنها تطلب من الباب العالي السماح لأسطولها بدخول البوسفور ، كما أنها ترى ضرورة تحرك جزء من جيوشها المرابطة حول إستانبول إلى داخل العاصمة لحماية المسيحيين ، واضطريت الحكومة البريطانية من هذا المنشور ، وكتبت إلى سفيرها في سان بطرسبرج ؛ كي يحتج على ماورد في هذا المنشور ، وأوضحت أنه لا يوجد وجه للمقارنة بين إرسال الأسطول البريطاني إلى البوسفور واحتلال إستانبول عسكرياً بواسطة القوات الروسية . وطلبت من سفيرها إبلاغ الحكومة الروسية بأنها لاتسمح على الإطلاق ، وعلى أى نحو من الأنحاء باحتلال إستانبول ، وأنه لو دخل للجيش الروسى هذه العاصمة .. فإن الحكومة الروسية تكون مسئولة عن الأخطار التى تنجم عن هذا الإجراء العسكرى ، وإزاء إصرار الحكومة البريطانية على موقفها تراجعت روسيا عن مشروعها ، ولكنها أبدت تحفظاً هاماً هو أن الجيش الروسى لن يدخل إستانبول إلا إذا أنزلت بريطانيا جنودها إلى البر ، ومادامت للحكومة البريطانية لاترغب فى ذلك .. فلاخوف على إستانبول من احتلال الروس لها ، وظل الجنود الروس مرابطين خارج العاصمة العثمانية ، لايتعدون الخط الذى حددته هدنة أدرنة (١) .

ضغط مهين مارسه روسيا على الدولة العثمانية :

بدأت المفاوضات فى أدرنة بين الحكومتين العثمانية والروسية لوضع معاهدة الصلح . وعينت الحكومة العثمانية كلاً من صفوت باشا وزير الخارجية الذى أعيد إلى منصبه ، وسعد الله بك الألبى العثماني فى برلين . وعينت الحكومة الروسية كلاً من إجناتيف ، ونليدوف (٢) . وقد سبقهما فى الذهاب إلى أدرنة الأمير غورتشاكوف Gortchakov ، وطلب من المندوبين العثمانيين نقل مقر المفاوضات من أدرنة إلى سان ستفانو ، وهى قرية ساحلية صغيرة على بحر مرمره تبعد عشرة أميال عن إستانبول ولم يكن يسمع بها أحد . وقد اكتسبت شهرة عالمية منذ ذلك الوقت لارتباط اسمها بمعاهدة الصلح ، وتوجه العضوان العثمانيان إليها مع مستشاريهما ، كما ذهب إليها الأمير غورتشاكوف بصحبة قوة من ألف جندي بمثابة حرس ،

(١) من الحرب العثمانية الروسية (١٨٧٧-١٨٧٨) ، انظر كلاً من :

Ensor R.C.K.; op. cit., pp. 42-54.

Miller W.; op. cit., pp. 358-398.

Fisher H.A.L.; op. cit., pp. 1040-1042.

Grant A.J. & Harold Temperley; op. cit., pp. 300-307.

Taylor A.J.P.; op. cit., pp. 228-254.

(٢) جاء فى ديباجة معاهدة الصلح عن إجناتيف انه حائز على رتبة أمير اللواء ويأور القيصر ومن أعضاء المجلس الخصوصى ، ويحمل وساماً روسياً مرصعاً هو وسام «سان علكساندر نويسكى» وأوسمة أجنبية عديدة . كما جاء عن نليدوف أنه من قردة الدائرة الإمبراطورية ، ومن أعضاء شورى الدولة ، ويحمل وسام «صانت أن» من الطبقة الأولى مع السيوف المخصصة به ، وعداً من الأوسمة الروسية والأجنبية .

ولم تلبث أن زاد عدد أفراد هذه القوة حتى بلغ عشرين ألف مقاتل ، دون أن يكون للدولة العثمانية سبيل لمنعهم ، واتضح أن هدف إرسال هذه القوة هو تهديد الوفد العثماني لحمله على - التوقيع على المعاهدة .

ويعد عدة اجتماعات ، أبلغ إجناتيف المندوبين العثمانيين ضرورة الموافقة على الشروط المعروضة قبل اليوم الثالث من شهر مارس - آذار - عام ١٨٧٨ ؛ لأن هذا اليوم يوافق عيد القيصر الروسية ، وإلا فإن هذنة أدرة تعتبر لاغية ويحتل الجيش الروسي إسطنبول . ويقول أحد الباحثين المصريين^(١) إنه لم يتم للمندوبين العثمانيين دراسة شروط معاهدة الصلح دراسة متأنية نظراً لصديق الوقت وتهديد الجانب الروسي . ولكن الحقيقة لم يكن في مقدور المندوبين العثمانيين الاعتراض على مواد معاهدة الصلح ؛ لأنهما كانا يمثلان دولة منهزمة وتجنباً لتعرض إسطنبول للاحتلال الروسي .

وفي اليوم الثالث من شهر مارس - آذار - أقام الأمير غورتشاكوف عرضاً عسكرياً للقوات الروسية في قرية سان ستفانو ابتهاجاً بعيد ميلاد القيصر . ولما بلغت الساعة العاشرة من صباح ذلك اليوم ، ولم يأت إليه نبأ عن توقيع المعاهدة توجه إلى قاعة اجتماع الوفدين العثماني والروسي . وطلب من الوفد العثماني التوقيع على المعاهدة في اليوم ذاته ، وإلا فإن القوات الروسية الموجودة في سان ستفانو ، وكان عددها عشرين ألفاً ، ستشرع في احتلال إسطنبول في مساء اليوم ذاته . وفي الساعة الخامسة مساء خرج إجناتيف ومعه المعاهدة ، وقد وقع عليها المندوبان العثمانيان ، وسلمها إلى الأمير غورتشاكوف الذي كان في ساحة العرض يحف به أركان حربه ، فصاح الجنود الروس معبشرين ، وأقام لهم أحد القسيسين صلاة شكر في ميدان العرض ، نزل في أثائها الضباط والجنود عن ظهور خيولهم وركعوا سجداً لله شكراً له سبحانه وتعالى .

معاهدة سان ستفانو

عرض وتحليل ونقد :

١ عرفت معاهدة الصلح باسم معاهدة سان ستفانو (الثالث من شهر مارس - آذار - عام ١٨٧٨) ، وهي من أكثر المعاهدات ضرراً بالدولة العثمانية ، وتعد في القانون الدولي العام من أنواع المعاهدات غير المتكافئة أملت لها دولة منتصرة على دولة منهزمة . وعلى قدر حجم الهزيمة كان حجم الخسائر السياسية والعسكرية والمالية ، التي فرضت على الدولة في معاهدة سان ستفانو . لقد أعلنت روسيا الحرب على الدولة تحت شعار الانتصار للشعوب المسيحية المعذبة في البلقان والخاضعة للحكم العثماني ، ثم فرضت على الدولة معاهدة تقتشج بروج

(١) محمد فريد بك ، مرجع سبق ذكره ، ص ٤٤٤ .

الاستيلاء على أراضيها وإنشاء كيانات سياسية مسيحية ذات حدود جديدة ، بعد إضافات إقليمية إليها تزيد من رفعتها ومنحها الاستقلال التام أو الذاتي . وفي كلتا الحالتين تدور هذه الدول في فلك روسيا التي خولت لنفسها الحق في احتلالها احتلالاً مؤقتاً ؛ حتى تستطيع تنظيم شئونها وبناء جيوش وطنية تزد عن وضعها السياسي الجديد . كما استولت روسيا بمقتضى المعاهدة على أقاليم عثمانية هامة في أوروبا وآسيا ، ووضعت نظاماً جديداً لمرور السفن في البوسفور والدردنيل ، روعى فيه تحقيق مصالحها الحربية والتجارية ، وفرضت على الدولة غرامة حربية كبيرة للغاية .

كانت غالبية الشعوب المسيحية البلقانية والروسيا هما الطرفين اللذين حققت لهما المعاهدة أعظم المكاسب .. فقد نصت على إنشاء ما اصطلح رجال السياسة وقتذاك على تسميته «بلغاريا الكبرى» Big Bulgaria ، وأفردت لها مساحات شاسعة في البلقان ، ذات أربعة أضلاع تحدد بنهر الدانوب شمالاً ، والبحر الأسود شرقاً ، وبحر إيجه جنوباً ، وألبانيا غرباً .

وقررت المعاهدة أن يكون «مأمورو» الحكومة وجنودها من المسيحيين ، وأن يحكمها أمير ينتخبه الأتالي ، وبشرط ألا يكون هذا الأمير أحد أعضاء الأسرات الحاكمة في أوروبا . ويصدر السلطان فرماناً بتعيينه بعد موافقة الدول الأوروبية الكبرى ، الموقعة على معاهدة باريس لعام ١٨٥٦ ، وأن يجتمع «مجلس المتعبرين» أي مجلس الأعيان لوضع دستور للبلاد قبل انتخاب الأمير ، وعلى الدولة العثمانية أن تسحب قواتها من بلغاريا ، وعلى الحكومة المحلية أن تهدم القلاع المقامة في أنحاء البلاد . وأن ترابط القوات الروسية في بلغاريا لمدة سنتين حتى يتم إنشاء جيش من البلغاريين ؛ بحيث لا يكون في بلغاريا عند انسحاب القوات الروسية سوى الجيش البلغاري ، الذي تقرر أن يتكون من ست فرق من المشاة وفرقتين من الفرسان ، ويكون تعدادهم جميعاً خمسين ألفاً ، وأن تدفع بلغاريا جزية سنوية للسلطان تودع في أحد المصارف (البنوك) يختاره الباب العالي بعد الاتفاق مع الروسيا والدول الأوروبية الكبرى .

ولاحظ أن المعاهدة لم تحدد قيمة الجزية ، بل اكتفت بذكر «مبلغ معلوم» ، وأن يراعى في تحديده الظروف المالية التي تولجها الإدارة البلغارية في مستهل عهدها . وأعطت المعاهدة الباب العالي الحق في أن تمر القوات العثمانية ونخائرها ومهماتها ، عبر طرق معينة في داخل بلغاريا إلى الولايات العثمانية الأخرى الواقعة فيما وراء بلغاريا ، وأن يكون مرور هذه القوات مقصوراً على الجنوب النظاميين فقط دون قوات الباشي بوزوق والشراكسة والجنود «المعانة» . وتقرر أيضاً هدم جميع القلاع المقامة على شاطئ نهر الدانوب ، ومنع وجود سفن حربية في مياه هذا النهر في مياه بلغاريا ورومانيا والصرب سوى السفن الصغيرة والقوارب ، التي تستخدم في أعمال الشرطة النهرية ، وجعل الملاحة في نهر الدانوب حرة ، وما يتطلبه تطبيق هذا المبدأ من الإبقاء على لجنة الدانوب الدولية المختصة بتنظيم عمليات النقل النهري

والحفاظ على وضعها القانوني وحقوقها ووظائفها وامتنيازاتها . وبذلك أصبحت بلغاريا بما تضمه من مساحات إقليمية واسعة مرتبطة بالدولة العثمانية برباط ضعيف واهن، تمثل في جزيرة سلوية وصدر فرمان سلطاني بتعيين أمير للدولة الجديدة بعد موافقة الدول الأوروبية على هذا الأمير ، وحق الدولة في أن تعبر قواتها الأراضي البلغارية .

وقررت المعاهدة استقلال إقليم الجبل الأسود ، وزيادة مساحته على حساب ألبانيا مع إعطاء الجبل الأسود ثغرين على البحر الأدرياتي . وحددت المعاهدة حدود هذا الإقليم ، ومع ذلك .. فقد احتاطت فقررت أن تترك التحديد النهائي للحدود إلى لجنة دولية ، تتكون من مندوبين عن الدولة العثمانية والروسيا والدول الأوروبية الكبرى والجبل الأسود ، وأن يكون لهذا الإقليم الحق في تعيين ممثلين له في استانبول والبلاد العثمانية . وإذا حدث خلاف بين الدولة العثمانية وإقليم الجبل الأسود وتعدت تسويته .. فإن روسيا والنمسا تفصلان فيه ، وتقرر أن يتم جلاء جنود الجبل الأسود عن الجهات غير الداخلة في حدود الإمارة .

ونصت المعاهدة على منح الاستقلال التام لرومانيا ، وأن يضم إليها ثلث إقليم دبروج - الواقع جنوب مصب نهر الدانوب في البحر الأسود - وأن يؤخذ منها إقليم بيسارابيا - الواقع شمال نهر بروث - لضمه إلى روسيا .

وقررت المعاهدة منح الصرب استقلالها مع إضافة إقليم نيش إليها ، وحددت حدودها على أن تجتمع لجنة ، تتكون من مندوبين عن الدولة العثمانية والروسيا والصرب ؛ لأجل تعيين خط الحدود على الوجه القطعي في خلال ثلاثة شهور .

وقررت المعاهدة أيضاً وضع ولايتي البوسنة والهرسك - في غربي البلقان - تحت مراقبة روسيا والنمسا طبقاً لما طلبته الدول في مؤتمر الآستانة (ديسمبر - كانون أول - ١٨٧٦) ، على أن تحتفظ الدولة العثمانية بسيادتها على هاتين الولايتين .

وتعرضت المعاهدة لمسألتى جزيرة كريت وأرمينية .. فقررت بالنسبة للمسألة الأولى أن تتعهد الدولة العثمانية بتنفيذ أحكام اللائحة الأساسية الصادرة عام ١٨٦٨ ، وطبقاً لرغبات سكان الجزيرة . أما المسألة الثانية وهي الخاصة بأرمينية ، فأبنت روسيا تخوفها من أن يؤدي جلاء القوات الروسية عن أرمينية العثمانية وإعادتها إلى الحكم العثماني إلى وقوع خلاف . ولهذا قررت المعاهدة أن يتعهد الباب العالي بإجراء إصلاحات ، حسب الاحتياجات المحلية في المناطق ، التي يسكنها أرمن ، وتأمين المسيحيين من اعتداءات الأكراد والشراسة . وسجلت المعاهدة تعهد الباب العالي بإصدار عفو عام عن المسجونين السياسيين والمعتقلين والمنفيين .

أما روسيا فقد قررت لها المعاهدة المكاسب التالية :

أولاً : تقرير حرية المرور في الدردنيل والبوسفور في وقت السلم وزمن الحرب للسفن التجارية،

التي تريد عبور هذه المضائق إلى الروسية وفي عودتها من البحر الأسود إلى البحر المتوسط ؛ بشرط أن تكون حرية المرور مقصورة على السفن التابعة لدول على الحياد زمن الحرب . وليس للباب العالي أن يفرض حصاراً على الشطوط الموجودة فيما بين البحر الأسود وبحر آزوف .

ثانياً : استيلاء الروسية على أقاليم هامة في آسيا ، هي : أردهان ، وقارص ، وباطوم ، وبازيد ، مع الأراضي الملحقة بهذه المدن إلى جبل صوغانلي ، وذلك امتدت الأراضي الروسية إلى قرب شمالي العراق وشمالي الشام والأناضول .

ثالثاً : استيلاء الروسية على إقليم هام للغاية في أوروبا هو بيسارابيا ، ويشمل مصب نهر الدانوب . وكان هذا الإقليم ذو الموقع المعجاز قد أخذ من الروسية في معاهدة باريس عام ١٨٥٦ ، عقب هزيمتها في حرب القرم .

وباستيلاء الروسية عليه .. تكون الأراضي الروسية قد امتدت إلى مصاب نهر الدانوب في البحر الأسود .

رابعاً : كان إنشاء «بلغاريا الكبرى» عبارة عن إنشاء ولاية مترامية الأطراف في البلقان ، تدور في فك الروسية ، وتشكل تهديداً مستمراً لإستانبول وقاعدة حرية ، يمارس منها الروس أعمالهم العدوانية ضد الدولة العثمانية .

خامساً : فرض غرامة حربية قاذحة على الدولة العثمانية حددت بمبلغ ١,٤١٠,٠٠٠,٠٠٠ روبل ؛ أي ماكان يوازي في ذلك الوقت ٢٣٥ مليون جنيه ، وهو مبلغ رهيب بالسبة لقيمة النقد في ذلك الوقت .

وجاءت مفردات هذه الغرامة الحربية على النحو التالي :

٩٠٠,٠٠٠,٠٠٠ روبل في مقابل ثمن الأسلحة والذخائر والمهمات الحربية ، التي استهلكت في الحرب ومصاريف القوات الروسية .

٤٠٠,٠٠٠,٠٠٠ روبل في مقابل الأضرار التي حدثت في السواحل الشمالية للبحر الأسود .

١٠٠,٠٠٠,٠٠٠ روبل في مقابل الأضرار التي نجمت عن هجوم العثمانيين على القوقاز .

١٠,٠٠٠,٠٠٠ روبل في مقابل الخسائر التي حافت برعايا الروسية المقيمين ، في ولايات الدولة العثمانية والمنشآت الروسية .

وقدّرت المعاهدة ثمن الأقاليم والأراضي التي انتزعت من الدولة العثمانية وأعطيت للروسيا بمبلغ ١,١١٠,٠٠٠,٠٠٠ رويل ، تخصم من مجموع الغرامة الحربية . وتتفق الدولتان فيما بينهما على طريقة سداد الجزء الباقي من الغرامة ، وهو ثلاثمائة مليون رويل بما يكفل دفعها للروسيا .

سادساً : المحافظة على أوضاع وحقوق وامتيازات القسيسين والرهبان ومن إليهم من رعايا روسيا والقاطنين في الدولة العثمانية ، وكذلك الزوار الروس الذين يقيمون أو يتجولون في الأراضي العثمانية ، سواء الأناضول أو الروم إلی (الجزء الجنوبي من البلقان) فهؤلاء جميعاً بمختلف طوائفهم ودياناتهم ونوعياتهم ، يتمتعون بالأوضاع والحقوق والامتيازات ذاتها ، التي يتمتع بها أقرانهم من رعايا الدول الأخرى . ويحمى السفير الروسي في إسطنبول والقناصل الروس في شتى أقاليم الدولة حقوق أولئك الأشخاص وممتلكاتهم ومؤسساتهم الدورية ، مع مشتملاتها المتعلقة بهم .

وطبقاً لمعاهدة سان ستفانو .. ضاعت بلاد البلقان من الدولة العثمانية ، بحيث لم يبق لها شيء فيها سوى ترابيا ، ومدينة سالونيك ، وتساليا ، وإبيروس ، وجبال ألبانيا . وقضلاً عن ذلك فقد أثارت المعاهدة سخط بعض الدول المسيحية البلقانية ، وتذكر على سبيل المثال مملكة اليونان ورومانيا .. فالدولة الأولى رأت أنها لم تخرج من المعاهدة بخيرمة إقليمية .

وقد مر بنا في هذا الفصل أن الأحزاب السياسية كانت ترى ضرورة الاشتراك في الحرب ضد الدولة العثمانية تحقيقاً لأهداف الحركة الهلينية ، وكان من مبادئها ضم الأقاليم اليونانية المبعثرة والخارجة عن حدود مملكة اليونان وضمها إليها ، وزاد من سخطها أن أضافت للمعاهدة إلى «بلغاريا الكبرى» الأقاليم المجاورة لمملكة اليونان والتي يسكنها يونانيون ، وكانت مساحتها أكبر من مساحة هذه المملكة .

أما رومانيا فكانت تعتقد أنها أسدت خدمات جليلة للروسيا في أثناء الحرب ، ثم اغتصبت المعاهدة منها إقليم بسارابيا وضمته إلى روسيا . أما تعريض رومانيا عن فقدما بسارابيا بإعطائها ثلثي إقليم دبروجه فكان تعريضاً قافهاً ، وكذلك نعم الأرمن المسيحيين على المعاهدة ؛ لأنهم كانوا يعتقدون أنهم قدموا خدمات جليلة في أثناء الحرب للروسيا ولكن تنكرت لهم الأخيرة في المعاهدة ؛ إذ ابتلعت بعض قطاعات من أراضيهم ولم تحرر الأرمن سواء في أرمينية العثمانية أو في أرمينية الروسية . وتوالت الاحتجاجات والاستغاثات على الدول الأوروبية الكبرى من اليونانيين والصرب والرومانيين على ماتضمنته المعاهدة من خرق لمبادئ العدالة وامتثال لحقوقهم ، ولم يشذ المسلمون في آسيا فقد استغاثوا بالملكة فيكتوريا ملكة بريطانيا بصفتها إمبراطورة للهند ، لها مئات الملايين من الرعايا المسلمين ، واحتجوا على

استحوذ الروسيا على باطوم وغيرها (١) .

كانت معاهدة سان ستفانو ضربة قوية ، أصابت السلطان عبدالحميد في الصميم ، ولم يكن قد أمضى على ارتقائه العرش إلا عاماً وخمسة أشهر ، ولكنه ورث مقدمات الحرب كما ورث العرش .. فكانت المعاهدة استهلاً سبياً لحكمه وإذلالاً للدولة وله وللكتلة الإسلامية في الولايات العربية والتي وقفت بجانبه تشد أزره ؛ إذ أرسل حكامها قوات عسكرية تتألف من الجنود العرب شاركت في الحرب التي انتهت بعقد هذه المعاهدة . وكان من بينها قوات من الجيش المصري أرسلها الخديو إسماعيل ، وكان عدد أفرادها اثني عشر ألف مقاتل بقيادة الأمير حسن باشا ثالث أنجاله ، أبحرت بهم السفن المصرية إلى إسطنبول ، ومنها إلى ورائه على الساحل الغربي للبحر الأسود . وكان مجلس شورى النواب قد وافق على فرض ضريبة جديدة ، سميت «ضريبة الحرب» قدرها عشرة في المائة من مجموع الضرائب لسد نفقات الحملة المصرية (٢) .

إخفاق الدبلوماسية الروسية بعد الحرب :

إذا كانت الدبلوماسية الروسية قد أصابت نجاحاً كبيراً قبيل الحرب وفي أثنائها في تأليب الولايات العثمانية في البلقان على الدولة من ناحية ، وفي استمالة معظم الدول الأوروبية الكبرى للالتزام الحدية من ناحية أخرى .. فإنها أخفقت في مرحلة ما بعد الحرب ؛ لأنها فرضت على الدولة العثمانية معاهدة ، انطوت على تمزيق وسلب ممتلكاتها في البلقان بصورة لم تشهد لها الدولة من قبل مثيلاً ، مما اعتبر إذلالاً مهيناً لها وعصفاً بمبدأ التوازن الدولي .

اعتراض الدول على معاهدة سان ستفانو :

لذلك لم تكد تذاع تفاصيل معاهدة سان ستفانو ، حتى واجهت روسيا تكتلاً دولياً ؛ إذ هاجمتها الدول الأوروبية الكبرى هجوماً عنيفاً اعتراضاً عليها . ولم يكن مبعث هذا الاعتراض هو العطف على الدولة العثمانية في محتتها ، في مستهل حكم السلطان عبدالحميد ، ولكن لانفراد روسيا بالمكاسب الهائلة وبالنفوذ العريض في البلقان والقوقاز ، دون أن تتال الدولة الأوروبية الكبرى نصيباً من الأسلاب .. وكانت الإمبراطورية النمساوية المجرية من أشد الدول اعتراضاً على معاهدة سان ستفانو لأنه لم يرد فيها نص على احتلالها الولاياتين العثمانيتين البوسنة والهرسك في غربي البلقان ، ورأت النمسا في تصرف قيصر روسيا أمراً مشيناً لأنه بعد أن تحقق له النصر العظيم على القوات العثمانية نقض وعده لإمبراطور النمسا في هذا الصدد .

(1) Miller W.; p. cit., p. 385.

(٢) عبدالرحمن الراجحي بك ، عصر إسماعيل ، مرجع سبق ذكره ، ج ١ ، ص ١٩٥-١٩٦ .

وكانت النمسا شديدة الرغبة في احتلال هاتين الولايتين لتعويض خسائرها في إيطاليا بعد هزيمتها من روسيا في معركة سادوا (١٨٦٦) .. أما بريطانيا فعلى الرغم من أن معاهدة سان ستفانو لم تتعرض لمصر ولا لقناة السويس ، إلا أنه أفزعها أن روسيا غدت صاحبة النفوذ الأول في البلقان ، وأن بلغاريا الكبرى التي أنشأها المعاهدة كانت في لحمتها وسداها ولاية روسية بحرية كبرى ، تمتد من البحر الأسود إلى بحر إيجة وتشغل أقاليم واسعة ، وتشكل تهديداً مستمراً لإستانبول وقاعدة عسكرية لهجوم ، تقوم به روسيا على هذه العاصمة وعلى غيرها من أقاليم في الحوض الشرقي للبحر المتوسط في قابل الأيام ، فضلاً عن حرية مرور السفن الروسية في المضائق وصولاً إلى المياه الدافئة في البحر المتوسط ، وإغلاق المضائق في زمن الحرب في وجه السفن التابعة لدول متحاربة مع للروسيا .

واعتقدت أن المعاهدة جعلت من البحر الأسود بحيرة روسية ، كما رأت أن استيلاء روسيا على أردهان وقارص وناطوم والمناطق الملحقة بها في القوقاز يجعلها على مقربة من العراق وشمالى بلاد الشام ، وهما إقليمان عثمانيان لها أهمية عسكرية خطيرة لوقوعهما على أحد الطرق المؤدية إلى الخليج العربى والهند . وهو طريق «احتياطى» ، قد تلجأ إليه بريطانيا ، إذا تعطلت الملاحة في قناة السويس لمسيب من الأسباب .. ولذلك صحت عزميتها على أن تنزع من الدولة العثمانية طوعاً أو كرهاً جزيرة قبرص ، كخطوة أولى لاحتلال مصر بما فيها قناة السويس .

المطالبة بعقد مؤتمر دولى لإعادة النظر فى معاهدة سان ستفانو :

طلب الكونت أندراسى مستشار النمسا عقد مؤتمر دولى ، يعيد النظر فى معاهدة سان ستفانو ، ورفضت للروسيا هذا الطلب بمقولة أنه ليس لأوروبا أن تتدخل فى مسائل لا تمسها ، ثم عادت فطلبت أن يحدد بادئ ذي بدء تحديداً دقيقاً نطاق المناقشات ، التى يسمح لأعضاء المؤتمر المقترح أن يخوضوا فيها . ولكن رأى بسمارك المستشار الألمانى عدم تقييد حرية المؤتمر فى المناقشات التى تثار ، وطلب أن يعقد المؤتمر فى برلين بدلاً من فيينا أو من أى عاصمة أخرى ، على أساس أن برلين عاصمة دولة محايدة لم تمس معاهدة سان ستفانو المصالح الألمانية مساً مباشراً . وقبلت بريطانيا طلب النمسا وألمانيا ؛ لأن معاهدة سان ستفانو من صنع روسيا وحدها ولأنها تقسم للممتلكات العثمانية فى البلقان دون استشارة بريطانيا ؛ ولأنها وضعت الدولة العثمانية تحت رحمة روسيا ، ولأنها أوجدت دولة بحرية جديدة هى بلغاريا الكبرى ، وأنه لا بد من إنقاص حجمها ؛ ولأن فى المعاهدة تهديداً لسلامة المواصلات البريطانية إلى الهند .

أما فرنسا .. فقد اشترطت لاشتراكها فى المؤتمر أن تكون عضويته مقصورة على الدول

الأوروبية الكبرى الموقعة على معاهدة باريس لعام ١٨٥٦، وألا يتعرض المؤتمر في مناقشاته لمسائل مصر والشام وتونس وحقوق فرنسا في الأماكن المقدسة في فلسطين ورفض أى معاهدة تفرض حماية روسية على الدولة العثمانية، أو تثبت مركز الأسطول الروسى فى البحر المتوسط . وارتاحت بريطانيا لهذه الشروط ووافق بسمارك على شروط فرنسا إرضاء لها ، وسأيرت الدول الأخرى بسمارك ووافقت على الاشتراك فى المؤتمر .

مؤتمر برلين الأوروبي ١٨٧٨ :

اجتمع المؤتمر فى اليوم الثالث عشر من شهر يونيو - حزيران - عام ١٨٧٨ فى برلين وبإرياسة بسمارك ، وكان قبول الدول الكبرى الاجتماع فى برلين اعترافاً ضمناً بالمركز السياسى الممتاز ، الذى أصبحت ألمانيا تشغله فى الساحة الدولية ، وتفوق بسمارك على كل رجال السياسة المعاصرين له .

وكان مؤتمر برلين أكبر تجمع فى صعيد واحد لأقطاب السياسة فى أوروبا ، منذ أن اجتمع مؤتمر باريس عام ١٨٥٦ لبحث المسألة الشرقية ، وقد سمح لوفود من المملكة اليونانية والصرب ورومانيا والجبل الأسود وقارس ، وعن الأرمن واليهود بالحضور إلى المؤتمر، دون أن يشتركوا فى مناقشاته ، ولكن يسمح لهم المؤتمر بحضور بعض جلساته.. إذا طلب منهم إيضاحاً عن بعض المسائل التى يبحثها ، وكان يمثل الدولة العثمانية - وهى التى سيجرى لها المؤتمر عدة جولات خطيرة - إسكندر قرة نودرى باشا ، وهو يونانى الأصل ، والمشير محمد على باشا ، وهو جندى ألماني قديم اعتنق الإسلام^(١) . وسعد الله بك الآلجى العثمانى فى برلين . وكان عليهم أن يدافعوا عن حقوق الدولة الإسلامية وسط هذا الجو الممىحى الرهيب . ولم يكن لهم نفوذ ولا احترام .. وكان بسمارك يسيء معاملة محمد على باشا .. وكان لبسمارك الصوت الأعلى والرأى الأول فى المؤتمر ، ويضع حداً للمحاولات العقيمة ، ويهدد الأعضاء بترك المؤتمر إذا لم يصغ السياسة إلى أوامره .

معاهدة برلين ١٨٧٨ :

كانت معاهدة برلين لعام ١٨٧٨ - طبقاً لقواعد القانون الدولى العام - معاهدة جماعية بلغ عدد الدول الأطراف فيها سبع دول ، هى: بريطانيا ، وفرنسا ، والروسيا ، وألمانيا ، والنمسا والمجر ، والدولة العثمانية ، وإيطاليا ، بينما كانت معاهدة سان ستفانو معاهدة ثنائية بين الدولة العثمانية والروسيا ، واعتبرت ملغاة بعقد معاهدة برلين .

كان المفروض أن تعيد معاهدة برلين تماسك ولايات الدولة العثمانية ، وتستبعد المواد

(١) تذكر بعض المراجع أنه روسى الأصل . وكان مسيحى الديانة ، وأن اسمه الأول كان شارل دتروا ، انظر ص ص ٢٠٥ ، ٢٠٦ فيما سبق .

الجائزة التي جاءت بها المعاهدة الملغاة . ولكن جاءت المعاهدة الجديدة فجعلت موقف الدولة العثمانية أكثر سوءاً من موقفها طبعاً لأحكام معاهدة سان ستيفانو ؛ إذ أضافت - بالمواد التي اشتملت عليها وبالتفانيات السرية ، التي تمت بين الدول الكبرى والتي سبقت ولحقت عقد المعاهدة الجديدة - خسائر جديدة وفادحة نزلت بالدولة في أوروبا وآسيا وحوض البحر المتوسط وإفريقية .

أولاً : خسائر الدولة في أوروبا :

كان من أهم مآثره معاهدة برلين :

أولاً : أن تحتل الإمبراطورية النمساوية - المجر - الولايتين العثمانيتين الهامتين : البوسنة والهرسك في غربي البلقان لاحتلالاً مؤقتاً ، رغبة من الدول الكبرى في استرضاء النمسا والمجر ، وفي إعطائها نصيباً موفوراً من ممتلكات الدولة العثمانية ^(١) . ومن مظاهر الضغط المشين على السلطان عبدالحميد الثاني أن المندوبين العثمانيين في مؤتمر برلين قد وقعوا اتفاقاً سريعاً - في ذات اليوم الذي تم فيه التوقيع على معاهدة برلين - مع مندوبي النمسا والمجر ، تقرر فيه أن هذا الاحتلال للولايتين العثمانيتين لا يعتبر ماساً بحقوق السيادة المقررة للسلطان على الولايتين ، وأن احتلال النمسا والمجر للولايتين إنما هو احتلال مؤقت ^(٢) . وقد دلت الأحداث على أن هذا الاحتلال المؤقت كان مقدمة لعملية ضم نهائية لممتلكات النمسا والمجر بصفة رسمية ، بعد ثلاثين سنة في عام ١٩٠٨ .

ثانياً : أن تقيم الإمبراطورية النمساوية - المجر - حاميات عسكرية ، وتحتفظ بطرق عسكرية وتجارية في صندق نوفى بازار ^(٣) Novibazar بين الصرب والجبل الأسود ، على أن تظل الإدارة العثمانية قائمة في هذا الصندق .

ثالثاً : أقيمت معاهدة برلين النفوذ الروسى في شرقي البلقان بتأكيد مانقرر في معاهدة سان ستيفانو من ضم إقليم بيسارابيا إليها ، وبذلك أصبح هناك وجود روسى في شرقي البلقان ووجود نمساوى في غربي البلقان ^(٤) .

(١) كان هذا القرار تنفيذاً لاتفاقيات سرية بين روسيا وبريطانيا واتفاق بين النمسا والمجر والمانيا .
Miller W.; op. cit., pp. 390-391.

(٢) يرد اسمها في بعض المراجع بكي بازار .
(٣) كان بيسمارك المستشار الألماني هو صاحب الفكرة في أن تحتل النمسا والمجر صندق تويى بانزار ، لأنه رأى أن روسيا تنفق من ألمانيا موقفاً غير دى في جلسات مؤتمر برلين ، فلما أن يكيد لها كيداً بإتاحة الفرصة للنمسا لتوطيد مركزها في البلقان باحتلال هذا الموقع العسكرى المهم ، الذى يتصل بالحد الرئيسى في أنحاء البلقان .
(4) Miller W.; op. cit., 389.

رابعا : أكدت معاهدة برلين استقلال رومانيا طبقاً للحدود ، التي وضعتها معاهدة سان ستفانو .
خامساً : أكدت المعاهدة أيضاً استقلال كل من الصرب والجبل الأسود ، كما جاء فى معاهدة سان ستفانو ، على الرغم من أن الصرب خرجت منهزمة من الحرب مع الدولة العثمانية وأضافت إليها المعاهدة الجديدة بعض الأراضى العثمانية . وبذلك وضعت الأساس الذى ستقوم عليه دولة يوغوسلافيا الحديثة .

سادساً : أنقصت المعاهدة حجم «بلغاريا الكبرى» بتقسيمها إلى قسمين :

(أ) قسم يحتفظ باسم بلغاريا وحددت حدوده ، ويكاد يكون مستقلاً ، وله حكومة مسيحية وقوات عسكرية من أهل البلاد . ويحكمه أمير مسيحي ينتخبه الأهالى انتخاباً حراً ، ويصدر السلطان فرماناً بتعيينه بعد موافقة الدول الأطراف فى المعاهدة عليه ، ويشترط فى الأمير ألا يمت بصلة القرابة لأى أسرة حاكمة فى أوروبا .. فإذا توفى الأمير عن غير ولد أجريت انتخابات عامة لانتخاب أمير جديد طبقاً للشروط والأصول المقررة . كما تقرر ألا تبقى القوات العثمانية فى بلغاريا ، وأن تهدم الحصون المقامة فى الإمارة على نفقة الحكومة المحلية فى خلال سنة واحدة ، وأن تستولى الدولة العثمانية على الذخائر والأسلحة الموجودة بهذه الحصون ، ولايجوز لحكومة بلغاريا بناء حصون جديدة ، وعلى هذه الحكومة أن تدفع جزية سنوية للدولة العثمانية ، وتكون الحرية الدينية مكفولة للسكان . وتحفظ القوات الروسية العسكرية فى بلغاريا بمواقعها إلى أن تنتهى الحكومة الجديدة من إنشاء قوات عسكرية لحفظ الأمن والنظام .

ونصت المعاهدة أيضاً على أن يجتمع ، بعد انتخاب الأمير . أعيان بلغاريا لوضع القوانين الأساسية ، وأن يراعى فيها تقرير الحرية الدينية والمساواة السياسية والمدنية لجميع سكان الإمارة . وأن تشكل إدارة مؤقتة تتولى شئون الحكم من مندوبين عن الروسية إلى أن يتم وضع القوانين الأساسية . ويقوم بمراقبة أعمال هذه الإدارة المؤقتة مندوبون عن الدولة العثمانية والدول الموقعة على المعاهدة . ولاستمر هذه الإدارة الروسية فى تولى شئون الحكم أكثر من تسعة أشهر تبدأ من تاريخ التوقيع على المعاهدة . وتقرر أيضاً أن تسرى على بلغاريا جميع المعاهدات التجارية والبحرية المعقودة بين الدولة العثمانية والدول الأجنبية ، والتي لا تزال سارية المفعول .

(ب) أما القسم الثانى فيقع فى جنوبى البلقان بين مقدونيا وأدرنة ، وتكون عاصمته فيليبوبوليس Philippopolis ، ورفض المؤتمر تسمية هذا القسم بلغاريا الجنوبية وأطلق عليه «روم إيلى شرقى» وتكون إدارته الداخلية مستقلة ، ولايجوز للدولة العثمانية أن تراطب قواتها فى الداخل ، بل يكون لها الحق فى الدفاع عن حدوده البرية والبحرية مع تخويل

الدولة العثمانية الحق في بناء منشآت عسكرية ترابط فيها قوات عثمانية .. بشرط ألا تكون من «الباشا بوزوق» أى القوات غير النظامي . وتقرر أيضاً أن يحكم هذه الولاية أمير مسيحي ينتخبه الأهالي انتخاباً حراً ، ويصدر السلطان فرماناً بتعيينه بعد موافقة الدول عليه ، وأن يكون تعيينه لمدة خمس سنوات ، وأن يكون تابعاً للدولة من الناحيتين السياسية والحربية .

ورأى بعض المراقبين السياسيين المعاصرين لمؤتمر برلين أن تقسيم بلغاريا الكبرى إلى قسمين كان انتصاراً لوجهة النظر البريطانية بإنقاص حجم بلغاريا الكبرى وهزيمة للروسيا ؛ لأنه أدى إلى انكماش نفوذها في البلقان . ولكن رأى ميلر المؤرخ الإنجليزي أن هذا الرأي كان خاطئاً ؛ لأن هذا الانقسام لم يعمر طويلاً ، إذ انضم القسمان بعضهما إلى بعض بعد سبع سنوات من انقضاء مؤتمر برلين ، وكانت بريطانيا من مؤيدي هذا الانضمام وعارضته الروسيا (١) .

ثانياً : خسائر الدولة في آسيا :

أما في آسيا .. فقد قررت معاهدة برلين أن تتنازل الدولة العثمانية للروسيا عن أراضي أردهان ، وقارص ، وباطوم في شرقي البحر الأسود مع ميناء باطوم ، وعدم إقامة تحصينات عسكرية فيه على أن يكون ميناء حراً ، لا تفرض فيه رسوم جمركية على الصادرات والواردات . وهكذا امتد النفوذ الروسي في آسيا بعد إخضاع بلاد القوقاز كلها ، وأصبحت حدود الروسيا متاخمة لحدود أرمينية العثمانية . وأصبح في استطاعة الروس القفز إلى آسيا الصغرى المهاد الأولى للدولة العثمانية وإلى شمالي بلاد ما بين النهرين - العراق - وشمالي الشام ، وقررت المعاهدة أيضاً أن تسترد الدولة العثمانية وادي الأكراد ومدينة بايزيد وأن تتنازل لفارس عن مدينة خنر (قطور) وأراضيها ؛ طبقاً لرأى اللجنة البريطانية الروسية ، التي عهد إليها بتعيين حدود الدولتين العثمانية والفارسية .

أما بالنسبة للغرامة الحربية المفروضة على الدولة العثمانية لصالح الروسيا .. فقد قرر المؤتمر اعتبار الروسيا آخر دائني الدولة ؛ بمعنى أنه لا يحق للحكومة الروسية أن تتقدم بالمطالبة بالغرامة ، قبل الدائنين السابقين للدولة العثمانية .

(١) بالنسبة للأسرة الدولية ، قررت معاهدة برلين حرية المرور في المضائق على النحو ، الذي ورد في معاهدة باريس عام ١٨٥٦ ومعاهدة لندن لسنة ١٨٧١ .

كما قررت المعاهدة الإبقاء على لجنة الدانوب الدولية ، الخاصة بتنظيم حرية مرور السفن في نهر الدانوب.. عن جلسات مؤتمر برلين ومناقشاته ، انظر تقارير وادجتون وزير الخارجية الفرنسية والمؤرخة في ١٤ ، ٢١ ، ٢٤ ، ٢٦ يونيو - حزيران - وأول ، ٦ ، ٨ ، ١٤ يوليو - تموز - عام ١٨٧٨ في :

Documents Diplomatiques Français. I èrie, tome 2.

ثالثاً : خسائر الدولة في حوض البحر المتوسط :

رأت بريطانيا مدى تدهور الدولة العثمانية ، وهو التدهور الذي كشفت عنه الحرب العثمانية الروسية (١٨٧٧-١٨٧٨) وأنه لا أمل يرجى من إنقاذها ، ومن ثم صحت عزمها على نبذ سياستها التقليدية ، وهي المحافظة على استقلال الدولة العثمانية وضمان ولاياتها ؛ فقد ثبت لديها أنها سياسة عقيمة جلبت ضياع الأرواح وتبديد الجهود والأموال والوقت . وكان صاحب هذا الاتجاه الجديد في السياسة البريطانية هو سالزبوري وزير الخارجية ، ورأى أنه لا مناص من أن تخرج بريطانيا من تلك الأزمة العثمانية بنصيب من أملاك الدولة أسوة بالدول الكبرى والشعوب البلقانية الخاضعة للحكم العثماني ، ولم يكن يتعذر عليه اختلاق التبرير لهذا الاتجاه الجديد في السياسة البريطانية تجاه الدولة العثمانية .. فإن استيلاء الروسيا إبان حرب ١٨٧٧-١٨٧٨ على أردهان ، وقارص ، وباطوم ، وتمسكها بهذه الأقاليم في مقابل قبولها تفتيت بلغاريا الكبرى ، كان نذيراً يفتح الباب أمام القوات الروسية لاكتساح سهولة العراق أو الانسياب في بطاح الشام أو هما معاً^(١) .

كان أمام سالزبوري ثلاثة مشروعات : احتلال مصر أو احتلال إحدى الجزيرتين قبرص أو كريت ، ورأى أن استيلاء بريطانيا على مصر يؤدي إلى قيام نزاع حاد مع فرنسا ، ولم تكن بريطانيا مستعدة في ذلك الوقت لمواجهة آثاره .. فانسرفت مؤقتاً عن مصر وبقيت أمامه الجزيرتان ، واقترح برأي الخبراء البريطانيين بأفضلية جزيرة قبرص على جزيرة كريت . فهي أقرب إلى مصر وبالتالي فهي تشرف على قناة السويس والإسكندرية ، وهي بمثابة جبل طارق جديد ،^(٢) A New Gibraltar ومفتاح غربي آسيا ،^(٣) The Key of Western Asia . وكان على سالزبوري أن يختلق المبررات للضغط على السلطان عبدالحميد الثاني ؛ كي يوافق على أن تحتل بريطانيا جزيرة قبرص احتلالاً مؤقتاً ، ببذل الوعود له بأن بريطانيا في مؤتمر برلين المزمع عقده ستضع نقلها السياسي ، دفاعاً عن مصالح الدولة العثمانية ، وأنها ستكفل بالدفاع عن أي هجوم روسي على إستانبول أو على الممتلكات العثمانية في آسيا^(٤) .

وقام أوستن هنري لايارد Austen Henry Layard ، السفير البريطاني في إستانبول

(١) Lady Gwendolen Cecil; Life of Rober Marquis of Salisbury. 4 vols., (1921-1932), vol. 2. p. 213; Salisbury to Beacons-Bield, 21 st., March, 1878.

(٢) Safwat M.M.; op. cit., p. 147.

(٣) Grant A.J. & Harold Temperley; op. cit., p. 303.

(٤) كان على رأس المؤيدين لاحتلال جزيرة قبرص الكولونيل هوم Colonel Home ، لوفسنت الحكومت البريطانية سنة ١٨٧٦ إلى إستانبول لبحث أفضل الوسائل لتعزيز الدفاع عنها . ولما عاد من مهمته عين في وزارة الحربية ، ووضع مذكرة إضافية استعرض فيها الثغور والسواحل والجزر والمراكز القائمة ، في منطقة الشرق الأدنى ، والتي لها أهمية عسكرية بحيث تخدم المصالح البريطانية . وقد فضل عليها جزيرة قبرص لتكون قاعدة للحشود العسكرية البرية والبحرية . وقد نشرت هذه المذكرة فيما بعد في :

Journal of Modern History. June, 1931, pp. 236-241.

بالضغط على السلطان عبدالحميد الثاني ، في هذا الوقت العصيب بل وتهديده لإرغامه على قبول احتلال بريطانيا جزيرة قبرص ، وإلا عملت بريطانيا على انهيار إمبراطوريته The Disruption of His Empire ورضخ السلطان عبدالحميد لهذا التهديد . وتم في اليوم الرابع من شهر يونيو - حزيران - عام ١٨٧٨ التوقيع على معاهدة ، أطلق عليها اتفاقية التحالف الدفاعي Defensive Alliance بين الدولة العثمانية وبريطانيا ، أجازت فيها الدولة الأولى لبريطانيا أن تحتل وأن تدير جزيرة قبرص في مقابل تعهد بريطانيا بأن تشارك قواتها المسلحة مع القوات العثمانية في الدفاع عن أراضي السلطان في آسيا إذا احتفظت روسيا بكل من باطوم ، وأردهان ، وقارص ، أو إحداها ، وأرابت بعد ذلك أن تتوسع على حساب الأقاليم العثمانية في آسيا ، وهي الأقاليم التي مستحدها معاهدة السلام النهائية (معاهدة برلين) (١) .

وياحتلال جزيرة قبرص ، حققت بريطانيا توسعاً استعمارياً على حساب الدولة العثمانية مستغلة قيام الأزمة العثمانية الروسية عام ١٨٧٨ واستكملت سيطرتها على حوض البحر

(١) أبرم في أول يوليو - تموز - عام ١٨٧٨ ملحق Une Annexe لهذه الاتفاقية ، جاء فيه أن احتلال بريطانيا لجزيرة قبرص وإدارتها لها موقوتان ببقاء روسيا في قارص وفي غيرها من الأقاليم في أرمينية . فإذا ردت روسيا هذه الأقاليم إلى الدولة العثمانية انسحبت القوات البريطانية من جزيرة قبرص . كما نص الملحق على قيام بريطانيا بدفع جزية سنوية للباب العالي حددت قيمتها ، وعلى وجود محكمة شرعية لمسلمي الجزيرة ، وعلى أن يكون لنظارة الأوقاف في إستانبول «مأمور» في الجزيرة يشرف - بالاشتراك مع مأموره - تعينه بريطانيا - على إدارة الأملاك والعقارات والمساجد والمدارس والكنائس والمقابر ، التي تتبع الإدارة الدينية في الجزيرة . كما تقرر في ملحق الاتفاقية تحويل الباب العالي الحق في أن يبيع أو يذبح دون مانع الأملاك أو الأراضي وغيرها من العقارات ، التي هي أملاك أميرية أو أملاك سلطانية ولا يدخل إيرادها ضمن إيراد الجزيرة . ونص الملحق أيضاً على تحويل السلطات البريطانية في جزيرة قبرص الحق في أن تشتري جبراً بمسعار مناسبة أراض ، تحتاج إليها للمنفعة العامة أو لأغراض أخرى وأراض غير مزروعة .

وفي ١٤ من أغسطس - آب - عام ١٨٧٨ ، أضيفت إلى الملحق السابق مادة ، أطلق عليها «مادة إضافية» عن التشريع Additional Article on Legislation حول فيها سلطان الدولة العثمانية للملكة بريطانيا سلطات كاملة ، طالما كان الاحتلال البريطاني لجزيرة قبرص قائماً لإصدار قوانين وعقد اتفاقيات باسم الملكة نيابة عن حكومة الجزيرة لتنظيم العلاقات التجارية والاقتصادية دون إخضاعها لرقابة الباب العالي .

وفي ٢ من فبراير - شباط - عام ١٨٧٩ ، أضيف إلى الملحق «تصريح عن الأرض Declaration on Land ، تقرر فيه تحديد مبلغ ثابت ذكرت قيمته تدفعه الحكومة البريطانية سنوياً للسلطان طوال فترة الاحتلال البريطاني ، ابتداء من بداية السنة المالية التالية ، على أن يدخل في هذا المبلغ الثابت إيراد الأملاك والعقارات الأميرية والسلطانية ، بما فيها حصيلة كل من الطابو ، والمحلول ، والانتقال .

انظر نص اتفاقية ٤ من يونيو - حزيران - عام ١٨٧٨ ، وإضافتين اللاحقتين في : Hurewitz J.C.; op. cit., vol. I, pp. 187-189.

وانظر مدلول كل من الطابو ، والمحلول ، والانتقال في ثبوت المصطلحات في نهاية هذه الدراسة .

المتوسط من أقصى غربيه إلى أقصى شرقيه ، وأصبح لها فيه ثلاث قواعد عسكرية : بوغاز جبل طارق ، وجزيرة مالطة ، وجزيرة قبرص ؛ لتتخذ من هذه الجزيرة الأخيرة في قابل الأيام نقطة وثوب إلى مصر بما فيها قناة السويس ، وتكون المحصلة النهائية هو ضمان سلامة المواصلات البريطانية البحرية إلى الهند عبر البحر المتوسط وقناة السويس .

ولاعبرة بما يقوله بعض المؤرخين والباحثين إن بريطانيا حين احتلت جزيرة قبرص، أرادت أن تحافظ على التوازن الدولي في أوروبا أمام توسع روسيا في شرقي البلقان وأمام توسع النمسا والمجر في غربي البلقان .. فهذا التفسير هو أقرب إلى التحليل السريع لأحداث السياسية وقت وقوعها عام ١٨٧٨ ، أو ما يدخل تحت العلوم السياسية في ذلك العام ، ولكنه بعيد كل البعد عن إعطاء صورة صحيحة عن أهداف التوسع البريطاني الاستعماري في الثمانينيات من القرن التاسع عشر .

ولم تكن الأسباب التي ساقها لايارد السفير البريطاني للسلطان عبدالحميد أو التي ورد ذكرها في إتفاقية جزيرة قبرص أسباباً جدية .. إنما كانت مجرد اختلاق ذرائع أو مبررات، استهدفت منها بريطانيا التفرير بالسلطان عبدالحميد ؛ فقد أثبتت الأحداث التي توالى بعد عقد الاتفاقية عدة حقائق ، نذكر من بينها :

أولاً : أن بريطانيا لم تساند الدولة العثمانية في معظم جلسات مؤتمر برلين ، وإنما وقفت إلى جانب النمسا والمجر والشعوب المسيحية البلقانية وفارس على حساب الدولة العثمانية .

ثانياً : إن الروس لم يقيم بهجوم بعد مؤتمر برلين على إستانبول أو غيرها من أملاك الدولة العثمانية ، بل إن حرب ١٨٧٧-١٨٧٨ كانت أخر حرب بين الدولتين في القرن التاسع عشر ، كما سبق أن ذكرنا ، وانصرفت روسيا عقب هذا المؤتمر إلى الاستعمار في شمالي آسيا ووسطها وشرقيها ؛ حيث أخذت تصطدم بالشعوب الآسيوية الشرقية واليابان التي بدأت في الظهور على مسرح السياسة الآسيوية والعالمية ، كما أخذت تصطدم بالمصالح البريطانية والفرنسية في الصين .

ثالثاً : إن احتلال بريطانيا لجزيرة قبرص لم يكن احتلالاً مؤقتاً ، كما نص على ذلك في ملحق إتفاقية قبرص ، وإنما كان احتلالاً دائماً .

بقيت هذه الاتفاقية في طي الکتتمان ، لم يعلم بها سوى المستشار بسمارك والكونت أندراسي مندوب النمسا ، ولم يعترضاً عليها لتعهد سالزبورى بمساعدتهما في تقرير احتلال النمسا والمجر للولايتين العثمانيتين البوسنة والهرسك . ولما اقترب مؤتمر برلين من نهايته في ١٣ من يوليو - تموز - عام ١٨٧٨ ، وفي أحد الممرات الجانبية تراءى لسالزبورى وزير خارجية بريطانيا أن يخبر زميله وادنجتون وزير خارجية فرنسا في ٧ من يوليو - تموز -

باتفاقية قبرص .. فثارت ثائرة الوزير الفرنسى ، وأبرق بهذا النبا إلى باريس فهاج الرأى العام الفرنسى وهاجم الملكيون والجمهوريون والصحافة الفرنسية الاتفاقية هجوماً عنيفاً . وكان مما قيل فى هذا الصدد إن فرنسا قد لقيت فى برلين إذلالاً على يد بريطانيا ، لا يقل عن إذلالها فى معركة سيدان على يد بروميا ، وإن جزيرة قبرص تقف كالديديان تحرس قناة السويس .

وأوضح وزير الخارجية الفرنسية بجلاء أن الحكومة الفرنسية لن توافق إطلاقاً على تلك الاتفاقية ؛ لأنها هزيمة للنظام الجمهورى الذى لم تنوطد دعائمه بعد فى فرنسا . وأنه ليس أمام الوفد الفرنسى سوى الانسحاب من المؤتمر . ولكن سالزبورى ويسمارك كانا مستعدين لاسترضاء الوزير الفرنسى الثائر ، وتقديم عرض مغر لفرنسا فى مقابل احتلال بريطانيا لقبرص . ومما هو جدير بالذكر أن سالزبورى تعدد ألا يخبر أعضاء الوفد الإيطالى بالاتفاقية ، وتركهم يعرفونها من الصحف الأمر الذى زاد من استيائهم وإذلالهم .

رابعا : خسائر الدولة فى إفريقية

(١) تونس

كان لمعاهدة برلين آثار بالغة الخطورة على ولايتين عربيتين خاضعتين للدولة العثمانية فى إفريقية ، هما : تونس ومصر .. كان معظم اهتمام فرنسا موجهاً إلى الاستيلاء على تونس ، سواء بصنمها نهائياً إلى الممتلكات الفرنسية أو بإعلان الحماية عليها . وجاءت اتفاقية قبرص .. فجعلت من تونس موضوع الساعة فى فرنسا بحجة المحافظة على التوازن الدولى فى حوض البحر المتوسط ، وكانت مهمة لورد سالزبورى وزير الخارجية البريطانية ورئيسه لورد بيكونزفيلد رئيس الوزارة ورئيس الوفد البريطانى فى مؤتمر برلين شاقة وعسيرة . وكانت هذه المهمة ذات شقين : يمثّل الشق الأول فى تبيديد مخاوف فرنسا من مشروعات بريطانيا التونسية فى مصر وقناة السويس ، وكان هذا الشق يمثّل قمة التفاف السياسى للبريطانى .

أما الشق الثانى .. فيتلخص فى تقديم عرض مغر لفرنسا باحتلال تونس تعريضاً لها عن احتلال بريطانيا جزيرة قبرص ، وبذلك أصبح استيلاء أوروبا المتحضرة المسيحية عوناً على ممتلكات الدولة العثمانية الإسلامية وسيلة عملية وفعالة لتسوية المنازعات التى تنشأ بين الدول . وكان الباعث لبريطانيا على تقديم هذا العرض هو رغبتها فى استرضاء فرنسا ؛ حتى لا تنضم إلى المعسكر الروسى ، وقد دار الشق الأول من المباحثات فى برلين ، بينما بدأ الشق الثانى من المحادثات فى برلين وامتدت المحادثات إلى لندن عقب عودة الوفد البريطانى إليها .

وكانت المحادثات ضافية ، وأعّن لورد سالزبورى لوزير الخارجية الفرنسية فى أثناء تواجدهما فى برلين أن بريطانيا رفضت احتلال مصر ، كما رفضت أن ترباط قواتها على

ضغاف قناة السويس ، ورفضت أيضاً أن تحتل الساحل الغربي للأناضول ، وأن هذا الرفض ينبثق عن رغبتها في عدم إثارة مخاوف فرنسا أو شكوكها من بريطانيا .

وفي جلسة تالية وافق رئيس الوزارة البريطانية موافقة كلية على ما ذكره له وزير خارجية فرنسا من أن بلاده كدولة من دول البحر المتوسط لها مصالح في الأماكن المقدسة في فلسطين ، ولها نفوذ على الموارد الكاثوليك في لبنان مستمد من التنظيم الموضوع لهذا الإقليم سنة ١٨٦١ ووافقت عليه الدول ، ولها مصالح مادية وأدبية في مصر ، وهي لاتسمح بالمساس بهذه المصالح . وطالب بأن يكون لكل من فرنسا وبريطانيا نفوذ متساو في وادي النيل .. نفوذ يقوم على احترام متبادل ومتوازن لمصالحهما ، وأقر رئيس الوزارة البريطانية هذا المطلب كما وافق على وجهات النظر الفرنسية هذه .

ثم انتقل سالفيري وزير خارجية بريطانيا إلى موضوع تونس .. فقال لوانجتون وزير الخارجية الفرنسية ، خذوا تونس إذا شئتم ، ولن تعارضكم إنجلترا هناك وستحترم قراراتكم ، وفي حديث لاحق أضاف وزير خارجية بريطانيا قائلاً ، إنكم لاتستطيعون ترك قرطاجنة^(١) في أيدي المتبريرين ، وقد أمن وزير الخارجية الفرنسية على هذه التصريحات الخطيرة التي وردت على لسان وزير خارجية بريطانيا . وقال إن مصير تونس أن تقع يوماً ما بحكم قوة الأمور تحت النفوذ المباشر لفرنسا ، ولتكمّل مجموع الممتلكات الفرنسية في إفريقية ، وإننا لن نسمح لأي دولة بأن تتواجد هناك . وسندفع بقوة السلاح كل محاولة من هذا القبيل . ولذلك فإنني أشكركم على التصريح الذي أدليتم به الآن ، وأعتبره عربون صداقة أو تعهداً على الوفاق الطيب الذي نريد تدعيمه بين بلدينا . وسأكون سعيداً بإبلاغه إلى حكومتى ... إن ما نتمسك به هو أن تكون الحماية التي نمارسها في الواقع في تونس حماية معترفاً بها رسمياً ، وأن يكون لنا مطلق الحرية في بسط نفوذنا وترقية مصالحنا على أفضل وجه ، دون أن نعرّف ادعاءات مناقسة .

"Prenez Tunis, si vous voulez, m'a dit Lord Salisbury, l'Angleterre ne s'y opposera pas et respectera vos décisions. D'ailleurs, a-t-il ajouté dans un autre entretien, vous ne pouvez pas laisser Carthage aux mains des Barbares.

"Sans doute, ai-je répondu, La Tunisie est destinée par la force des choses à tomber un jour sous la domination directe de la France, et à compléter l'ensemble de nos possessions en Afrique, aussi bien nous ne permettrions à aucune Puissance de s'y établir, et nous repousserions par les armes toute tentative de ce genre. Je vous remercie donc de la déclaration que vous venez

(١) قرطاجنة الاسم القديم لتونس .

faire; je la considère comme un gage précieux de la bonne entente que nous désirons maintenir entre nos deux pays, et je serai heureux de la transmettre à mon Gouvernement.... Ce à quoi nous tenons, c'est que le protectorat de fait que nous exerçons dans ce pays soit formellement reconnu, et que nous ayons toute liberté d'y étendre notre influence et d'y développer nos intérêts de la façon qui conviendra le mieux, sans nous heurter à des prétensions rivales”(١)

وكان لورد بيكونزفيلد رئيس الوزارة البريطانية ، ومعه لورد سالزبوري وزير الخارجية ، قد عادا من برلين وبلغاريا لندن في اليوم السادس عشر من شهر يوليو - تموز - عام ١٨٧٨ ، واستقبلا استقبالا حافلا . وألقى رئيس الوزارة خطاباً نوه فيه بالعلاقات الطيبة الوطيدة التي تربط باريس بلندن ، وتنبأ بمستقبل زاهر لفرنسا كدولة من الدول العظمى في العالم ، وقال في خطابه إن بريطانيا تجنبت احتلال مصر ، لأنها تعلم أن هذا الاحتلال يثير سخط وشكوك فرنسا . وكان قد أقيم في ذلك الوقت معرض في باريس ، وكان من بين كبار زائريه ولي عهد بريطانيا ، وزادت هذه الزيارة من الروابط السياسية والاجتماعية بين الدولتين ، وأعلن ولي عهد بريطانيا في اليوم الحادي والعشرين من شهر يوليو - تموز - عام ١٨٧٨ موافقته على الذهاب فرنسا إلى تونس (٢) .

لهذا .. رأت الحكومة الفرنسية أن تنتهز فرصة هذا المناخ الصحي بينها وبين الحكومة البريطانية ، وغضت الطرف عن انتزاع بريطانيا جزيرة قبرص من الدولة العثمانية ، وقبلت العرض البريطاني بالاستيلاء على تونس بصفة الأخيرة ولاية عثمانية ، لاستطيع الدولة العثمانية الدفاع عنها أمام القوات الفرنسية ، وهذا ثائرة الرأي العام الفرنسي . وأخذت الصحافة الفرنسية وفي مقدمتها جريدة Les Débats تمجد بريطانيا وتنتحل لها الأعذار في عقد اتفاقية قبرص ، وتحولت إلى مهاجمة روسيا وانتقاد التقدم الروسي في آسيا ، ووصفت روسيا بأنها دولة مستبدّة استعمارية ، وسرعان ما منسى الشعب الفرنسي اتفاقية قبرص .

(١) تجد هذه النصوص وكذلك النصوص الأخرى ، التي ترد في بقية هذا الفصل مذكورة في المصدر الآتي : Documents Diplomatiques Français. 1ère Série. t. 2., docs. nos. 331, 332, 333, 334, et 336.

ومذكورة أيضاً في المرجعين التاليين :

Newton P.C. Lord; Life of Lord Lyons. 2 vols. London, 191. vol. 2, p. 139, pp. 155-156, 158 & 159.

Safwat M.M.; Tunis and the Great Powers. 1878-1801. Alexandria, 1943, p. 147, pp. 211-212 & 224.

(2) Safwat M.M.; op. cit., p. 227.

وكان بسمارك المستشار الألماني يؤيد فرنسا في استيلائها على تونس، كى توجه طاقاتها الحربية ونشاطها السياسى إلى ميادين الاستعمار خارج القارة الأوروبية، ولا تفكر في استعادة الأتراك والورين من ألمانيا. وكان الحزب الجمهورى في فرنسا قد عاد إلى الحكم في نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٨٧٧، وعمل الجمهوريون على نبذ سياسة التقرب من روسيا، وسعوا لتوثيق علاقاتهم مع بريطانيا وتركيز اهتمامهم على مسائل البحر المتوسط وتحسين علاقاتهم مع ألمانيا ونبذ الرغبة في الانتقام منها مؤقتاً، كما رأوا أن من صالح فرنسا أن تعاود سياستها بالقيام بدور بارز في السياسة الأوروبية بعد كارثة سيدان عام ١٨٧٠، حتى لا تفقد مركزها نهائياً كدولة عظمى.

وكانت المحصلة النهائية لهذه السياسة الجديدة أن استقر رأى الجمهوريين الفرنسيين على ضرورة إحراز نصر خارجى، إذا أرادوا تثبيت مركزهم في الداخل، خاصة وأنه لفرنسا قوات مسلحة بعد أن أعادت بناءها، وأنه في الاستطاعة الاعتماد عليها في ميادين الاستعمار. وقد أرتاح بسمارك لهذا الاتجاه الجديد في السياسة الفرنسية، ومن هنا جاء تأييده لفرنسا في استيلائها على تونس بصفتها ولاية عثمانية وكتعويض لها عن خروجها من مؤتمر برلين دون أن تتال نصيباً من ممتلكات الدولة العثمانية. وكان مما صرح به المستشار الألماني في حديث مع سان فالليه Saint Valliet السفير الفرنسى في برلين «أعتقد أن الكمثرى التونسية ناضجة». وقد حان لنا (أى الفرنسيين) قطفها. وإن وقاحة الباي كانت شمس شهر أغسطس - آب - لهذه الفاكهة الإفريقية التى يمكن أن نتعرض للعطب أو يسرقها آخر (يقصد إيطاليا) إذا تركتموها وقتاً طويلاً أكثر من اللازم على الشجرة».

“Je crois que la poire tunisienne est mûre, et qu'il est temps pour nous de la cueillir. L'insolence du Bey a été le soleil d'août de ce fruit africain qui pourrait bien se gâter ou être volé par un autre si vous la laissez trop longtemps sur l'arbre”.

وفى مناسبة أخرى صرح بسمارك بقوله إنه خير للإيطاليين أن ينصرفوا إلى معالجة متاعبهم ومصائبهم (١).

(١) كان بسمارك يعلم جيداً أن إيطاليا تتطلع إلى تونس، وكان يرى عند توزيع معظم ممتلكات الدولة العثمانية أسلماً بين الدول قبيل مؤتمر برلين إعطاء طرابلس لإيطاليا، إرضاء لها وكتعويض لها عن احتلال النمسا والمجر للولايتين العثمانيتين: البوسنة والهرسك، وهو الاحتلال الذى أثار قلق إيطاليا ومخاوفها، مع وجوب ترك تونس لفرنسا.

ولكن بسمارك غير رأيه فى سنتي ١٨٧٧، ١٨٧٨؛ لأنه لم ترق سياسة إيطاليا، فهي في نظره تقوم على المشاغبة والحجز والتردد؛ إذ ساء أن إيطاليا كانت تحاول التقرب من روسيا، وساء أيضاً =

ورأت فرنسا أن تستفيد أيضاً من التشجيع الألماني لها على الاستيلاء على تونس، ولكنها تحفظت فلم تذهب مع ألمانيا إلى الحد الذي وصلت إليه مع بريطانيا؛ إذ لم تطلب منها أن تسجل في وثيقة رسمية تصريحاً بموافقة برلين على ذهاب فرنسا إلى تونس كما فعلت مع بريطانيا. ويقول أحد الباحثين إن وادنجتون وزير الخارجية الفرنسية لم يشأ أن يتلقى المنحة الاستعمارية من يد ألمانيا العدو التقليدية لفرنسا؛ حتى لاتخذ المعارضة في فرنسا من مصدر هذا العرض وسيلة للطمع في قيمته^(١).

وأخيراً اصطنعت الوزارة الفرنسية، وكان يرأسها جيل فرى Jules Ferry، مبرراً لغزو تونس. وجدير بالذكر أن العسكريين الفرنسيين في الجزائر والمستوطنين الأوروبيين فيها كانوا قلقين من وجود دولة إسلامية مستقلة في غرب الجزائر، هي مراکش، ونجاة إسلامية عثمانية في شرقها هي تونس. ويتوجسون خيفة من أخطار إسلامية تهدد الجزائر، لذلك كان العسكريون والمستوطنون في الجزائر جد متحمسين لقيام فرنسا بغزو تونس^(٢). وكانت الذريعة التي اختلقها جيل فرى هي حوادث الحدود، وتتمثل في تحركات قبائل الكرومير أو الكرومير Kroumirs التي تسكن الركن الشمالي الغربي من تونس. ولم تكن حوادث الحدود جديدة بل ترجع إلى ما يقرب من خمسين سنة خلت، منذ أن احتلت فرنسا بلاد الجزائر عام ١٨٣٠، فقد هاجر عدد من الجزائريين، وأقاموا في مناطق الحدود الجزائرية التونسية يمتون أنفسهم بالعودة إلى الجزائر يوماً ما. وحرص جيل فرى على أن يعطى حملة تونس طابع الحملة التأديبية، وأرسل إنذاراً مؤرخاً في اليوم الرابع من شهر أبريل - نيسان - عام ١٨٨١ إلى محمد الصادق باي تونس سلمه إليه روستا Roustin القنصل الفرنسي العام. وجاء في هذا الإنذار أن الحكومة الفرنسية قررت التدخل لتأديب قبائل الكرومير. وتأسيساً على ذلك.. فإن القوات الفرنسية الغازية قوات صديقة، وذهب الإنذار الفرنسي في استهزائه بالحكومة التونسية إلى حد أنه طالب بأن تتعاون القوات التونسية مع القوات الفرنسية في أداء مهمتها.

عوقفها العدائي من صديقتها النمسا، إذ كان شطر كبير من الرأي العام الإيطالي يطالب باسترداد إقليم تورنتينو Terentino من النمسا، وكانت الدوائر العليا في الحكومة الإيطالية تؤيد هذا الاتجاه بل وتشجعه؛ إذ كانت هذه الدوائر غير مستعدة لشراء صداقة النمسا، في مقابل ترك جزء من الوطن الإيطالي، يجب أن يعود إلى إيطاليا الأم؛ ولذا تخلى بسمارك وصديقتها النمسا عن تعويض إيطاليا سواء بتونس أو طرابلس.

انظر:

دكتور محمد مصطفى صفوت، مؤتمر برلين، مرجع سبق ذكره، ص ٣٨-٤٠.

(١) دكتور صلاح العقاد: المغرب العربي إلخ، مرجع سبق ذكره، ص ١٩١.

(٢) المرجع السابق، ص ١٩٧.

اجتازت القوات الفرنسية حدود تونس في اليوم الرابع والعشرين من شهر أبريل - نيسان - عام ١٨٨١ ، ونزلت قوات أخرى في ميناء بنزرت في أول مايو - آيار - ووصلت في اليوم الحادي عشر من الشهر ذاته إلى قصر الباي المعروف بقصر باردو Bardo ، على بعد عشرين كيلو متراً من تونس . وهناك لحق القنصل الفرنسي بقائد الحملة الجنرال بريار Brear ، ولم يكن القنصل قد غادر تونس باعتبار أن التدخل الفرنسي ليس حراً رسمياً ، بل هو مجرد عملية بوليسية . وكان الجنرال بريار يحمل معه نص المعاهدة التي وضعها رئيس الوزارة الفرنسية فقدمها إلى الباي ، لتوقيعها بعد أن أعطاه مهلة خمس ساعات . وهذه الفرنسيون بخلعه عن العرش وتنصيب أخيه الطيب الذي اتفق معهم على التوقيع على المعاهدة ، إذا رفض الباي محمد الصادق توقيعها . وتحت الضغط وقع الباي معاهدة باردو في اليوم الثاني عشر من شهر مايو - آيار - عام ١٨٨١ ، التي تعد أساس الحماية الفرنسية على تونس ، وإن لم يرد فيها لفظ «الحماية» ، بل نص فيها على أن الاحتلال العسكري هو إحتلال مؤقت ^(١) ؛ ولذلك احتج الفرنسيون إلى دعم مركزهم في إدارة البلاد في معاهدة أخرى ، هي معاهدة المرسى في اليوم الثامن شهر يونيو - حزيران - عام ١٨٨٣ ^(٢) ، وقد استخدمت لفظة الحماية فيها لتحديد العلاقة بين فرنسا وتونس . وأصبح الباي لايمك إلا سلطة وهمية ؛ لأن المندوب السامي الفرنسي كان الحاكم الفعلي ، الذي يشرف على إدارة البلاد للداخلية ويتولى شئونها الخارجية .

احتلال مصر :

لم يكن ضياح تونس من الدولة العثمانية هو الأثر الوحيد لاتفاق بريطانيا وفرنسا وألمانيا في أثناء انعقاد مؤتمر برلين وبعده .. فإن الدولتين الاستعمارييتين - بريطانيا وفرنسا - في المعاهدات التي سبقت ثم صحبت ولحقت مؤتمر برلين ، قد أكدتا تساوى نفوذهما في مصر بحيث لم يكن للمصريين نفوذ فعلي في بلادهم ، وغدت سلطة الخديوي إسماعيل سراباً . ولما حاول الأخير الاعتماد على نمو الوعي القومي المصري وضعه إلى جانبه في مواجهة التدخل الأوروبي المتزايد ، ثارت بريطانيا وفرنسا على سياسة إسماعيل وأيديتهما ألمانيا . وطلبت من السلطان عبدالحميد خلع في السنة التالية لمؤتمر برلين ، ونزل على رأى بريطانيا وفرنسا وألمانيا ، وأصدر بناء على قرار مجلس الوزراء العثماني «إرادة» بخلع إسماعيل وتعيين ابنه توفيق خديوياً لمصر .

وطير الصدر الأعظم هذه الإرادة في برقية وجيزة ، أرسلها إلى إسماعيل في صبيحة يوم الخميس ٢٦ من شهر يونيو - حزيران - عام ١٨٩٧ ، كما أرسل في الوقت ذاته برقية إلى

(١) دكتور عبدالعزيز محمد الشناوي وبكتور جلال يحيى : وثائق ونصوص إلخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ٦٤-٦٥ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٦٦-٦٧ .

توفيق بإسناد منصب خديو مصر إليه . وكان هذا التصرف من الأخطاء السياسية الجسيمة ، التي وقع فيها السلطان عبد الحميد الثاني ؛ إذ اعتقد أن النجاء الدول الكبرى إليه لعزل اسماعيل يكسبه نفوذاً كبيراً ، ولم يحسب حساباً لعواقب هذا التصرف .

حقيقة أنه لم يكن يعطف على الخديو اسماعيل ، كما لم يكن راضياً عن أسلوبه في حكم مصر . وكان يعتبره مسئولاً عن الارتياكات المالية ، التي تعرضت لها الحكومة المصرية وعن التدخل الأوروبي السافر في شئون البلاد . ولكن كان لاستجابته لطلب بريطانيا وفرنسا وألمانيا بعزل اسماعيل نتائج وخيمة ؛ إذ ارتسعت في أذهان أوروبا عن عبد الحميد صورة الحاكم الذي يصدر بما يؤمر به . وانعكست هذه الصورة لدى الحكومات الأوروبية ؛ خاصة البلقانية التي أرادت الإخلال بقرارات مؤتمر برلين طمعاً في مزيد من التوسع الإقليمي ، كما حدث عندما طالبت حكومة الجبل الأسود بضم ثغر دولسينو Dulcigno إليها . وتحت تهديد الدول الأوروبية وعلى رأسها بريطانيا بالتدخل للحرب ، اضطرت الدولة العثمانية إلى إجابة هذا الطلب التعسفي ، وسلمت الثغر إلى حكومة الجبل الأسود في ٢٦ من نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٨٨٠ .

أما في مصر .. فقد فقدت الحكومة المصرية هيبتها نهائياً ، وأصبح لبريطانيا وفرنسا من الناحية العملية حق خلع حكام مصر وتوليهم . ولما تولى توفيق خديوية مصر سيطرت عليه بريطانيا وفرنسا ، وأدرك هذا الخديو ماتمستطيع أن تفعله هاتان الدولتان .. فوافق على أن تعيداً نظام المراقبة الثنائية ، وأن تعمل على حماية مصالح دالتيهما بوضع قانون التصفية بحيث خصصت كل موارد مصر لخدمة مصالح الأجانب قبل كل شيء .

ولم تكف الدولتان بذلك بل ساندتا الخديو في مقاومة الحركة العربية وفي كبت الشعور القومي ، وأبدناه وتدخل الدولتين المسلح ثم تدخل بريطانيا الحربي المنفرد ، واحتلت مصر مدعية بأنها فعلت ذلك باسم الخديو توفيق ونياية عنه وتأييداً لسلطته (١) ، وأعلنت أن احتلالها مؤقت وأنها ستجلب عن مصر حالماً تستطيع الحكومة البريطانية بوسائلها تثبيت سلطة الخديو وإعادة النظام العام بها ، والواقع أنه لم يكن في مقدور الحكومة البريطانية في سنة ١٨٨٢ أن تعلن الحماية السافرة على مصر أو أن تطلب إلى الدول الاعتراف بمثل هذه الحماية ؛ فلجأت إلى بسط حماية مقننة a veiled Protectorate إلى أجل غير مسمى ، ومارست في ظلال هذا النظام سلطات واسعة لأحد لها (٢) ، وظفرت بسيطرة انفرادية على قناة السويس واعتبرتها شرياناً بريطانياً رئيسياً للمواصلات البريطانية بين أجزاء إمبراطوريتها . وغدا الإبقاء على نفوذها في القناة ومصر ركناً رئيسياً في سياسها .

(١) دكتور محمد مصطفى صفوت : مؤتمر برلين إلخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ٦٠ .

(2) Hurewitz J.C.; op. cit., vol. 1, pp. 197-199.

وقد ارتاحت بريطانيا كل الارتياح لانفرادها باحتلال مصر دون مشاركة فرنسا لها ، لأنها أدركت أن تونس التي استولت عليها فرنسا تفوق كثيراً جزيرة قبرص من حيث ثرواتها المعدنية والزراعية والبشرية ، وخرجت بريطانيا من هذه المقارنة بين تونس وقبرص بأن القسمة بينها وفرنسا إنما هي قسمة ضئيلة في غير صالح بريطانيا ، فكان انفرادها باحتلال مصر خير تعويض لها .

وهكذا فرغ البريطانيون من احتلال مصر في سبتمبر ١٨٨٢ ، وفرغ الفرنسيون من احتلال تونس في العام السابق . وأصبحت الدولة العثمانية بضريقتين متلاحقتين في عامين متتاليين يفقد ولايتين عربيتين في إفريقية ، ولم يبق لها في شمال إفريقية سوى ولايتي برقة وطرابلس .

مطامع إيطاليا في ولايتين عثمانيتين : تونس ومصر :

أما إيطاليا .. فإذا كانت قد خرجت من مؤتمر برلين نظيفة اليدين ، كما صرح كورتى Corti وزير خارجيتها .. فإنها خرجت أيضاً فارغة اليدين ، مما أثار سخط الرأي العام الإيطالي ، وكان يتطلع إلى أن يكون لإيطاليا نصيب في ممتلكات الدولة العثمانية ، تقرره معاهدة برلين على غرار ما حصلت عليه الدول الأخرى . ورأى أن هذه النتيجة السلبية التي انتهى إليها المؤتمر بالنسبة لإيطاليا إنما هي إذلال لها ، وكان الإيطاليون يرون بأبصارهم إلى الاستعمار بعد أن استقامت لهم الوحدة السياسية ، وأصبح الاستعمار من الأهداف الرئيسية لإيطاليا المتحدة . وكانت ترى في تونس المجال الحيوي لها بحجة زيادة عدد السكان وحاجتها إلى الهجرة والتوسع . وكانت تونس أكثر البلاد إغراء للإيطاليين لأسباب جغرافية وتاريخية واقتصادية ؛ إذ لا يفصل صقلية عن تونس إلا ممر مائي صغير ، وأن تونس هي امتداد طبيعي لإيطاليا . أما الأسباب التاريخية .. فقد كانت تونس أهم أقاليم الدولة الرومانية القديمة ، ومن المعروف أن الإيطاليين يعتبرون أنفسهم ورثة الرومان في البحر المتوسط . وكانت الجالية الإيطالية في تونس هي أكبر الجاليات الأجنبية عدداً تليها الجالية المالطية ثم الفرنسية . أما الأسباب الاقتصادية فإن اتصال البحارة وصيادي الأسماك الإيطاليين بتونس أقدم من غيرهم من الأوروبيين ، فهو يرجع إلى القرن السادس عشر . كما أن تونس تشتهر بثروات معدنية ، وبها أراض زراعية بقيت غير ذى زرع . وقد تأثرت تونس اجتماعياً بإيطاليا ؛ إذ دخلت في لهجتها بعض الكلمات الإيطالية ، كما أن معظم مستشاري الحكومة التونسية من الأوروبيين في أوائل القرن التاسع عشر كانوا من الإيطاليين ، وقد سبق أن ذكرنا في هذه الدراسة أن إيطاليا حاولت الاستيلاء على تونس عقب كارثة سيدان سنة ١٨٧٠ .

وأمام ضغط الرأي العام الإيطالي، تخبطت الحكومة الإيطالية في سياستها الاستعمارية،

فهي شديدة الرغبة في تحقيق آمال الشعب الإيطالي في مواكبة الدول الكبرى في سياسة التوسع والاستعمار . ولكن الحكومة الإيطالية أدركت أن فرنسا متمسكة بالاستيلاء على تونس ، ولكنها لم تكن لديها قوات مسلحة تستطيع أن تتصدى بنجاح للقوات الفرنسية ، ومن ثم تطلعت بالطرق الدبلوماسية إلى تعيين وزير إيطالي في الوزارة المصرية بالاتفاق مع الحكومة البريطانية . وكانت قد تكونت في مصر في شهر أغسطس - آب - عام ١٨٧٨ وزارة برئاسة نوبار باشا تضم وزيرين أجبيين ، كان أحدهما إنجليزياً هو ريفرز ولين Rivers Wilson ، وقد عين وزيراً للمالية ، وكان الآخر فرنسياً هو دي بلينيير de Blignières وقد عين وزيراً للأشغال .

وفجئاً باجت Paget السفير البريطاني في روما ، واعتبرته الدهشة حين عرض عليه مسافى Maffei وكيل وزارة الخارجية الإيطالية تعيين أحد الإيطاليين وزيراً في الوزارة المصرية ، وقال له السفير إنه في حيرة من إصرار الحكومة الإيطالية على هذا الطلب ، وأنه لا يدري المصالح الإيطالية الخاصة في مصر ، والتي تخول لها حقاً أو ادعاء أقوى من حق أو ادعاء ألمانيا أو النمسا والمجر أو أى دولة أخرى حتى تكون إيطاليا ممثلة في الوزارة المصرية بوزير إيطالي . وأوضح السفير البريطاني لوكيل الخارجية الإيطالية أن الحكومة البريطانية لن توافق على وضع مصر تحت نوع من الحماية الأجنبية ، أو إعطاء الحكومات المصرية طابعاً دولياً .

وقد أجابه وكيل الخارجية الإيطالية أن إيطاليا قد تلقت مؤخراً صدمة في تونس ، وأن حرمانها من أى نصيب في الترتيبات الجديدة في مصر يكون إذلالاً آخر لها ، وقد جاء في المذكرة التي بعث بها السفير البريطاني في أول نوفمبر - تشرين أول - عام ١٨٧٨ إلى لورد سالزبوري وزير الخارجية البريطانية مايلي :

"I told m. Maffei (the Italian Under Secretary of State for Foreign Affairs) that I was at a loss to understand the persistence with which the Italian Government continue to pursue this object (the admission of an Italian into the Egyptian Cabinet). I was not aware, I said, what were the special interests Italy had in Egypt, which gave her better title or claim to be represented in the Egyptian Government than Austria-Hungary, Germany or any other Power. Her Majesty's Government, I said, would never consent to placing Egypt under a sort of foreign protectorate, nor to giving an international character to the Egyptian Government.

M. Maffei replied that Italy had lately received a check in Tunis, and her

exclusion from all share in the new arrangements in Egypt would be a further humiliation".^(١)

ولما رأت الحكومة الإيطالية أن فرنسا بسطت حمايتها على تونس سنة ١٨٨١، وأن بريطانيا احتلت مصر سنة ١٨٨٢ ردت رداً عملياً على كلتا الدولتين انتقاماً منها وتشفيها، فانضمت عام ١٨٨٢ إلى التحالف الثلاثي، الذي أبرم بين الإمبراطورية الألمانية والإمبراطورية النمساوية المجرية عام ١٨٧٩، وبانضمام إيطاليا إليه أطلق عليه اسم التحالف الثلاثي. ولكن الحكومة الإيطالية اتبعت سياسة ذات وجهين، وتقربت بعد سنوات ذات عدد من بريطانيا كي تساعد على أخذ نصيبها من الممتلكات المصرية على الساحل الغربي للبحر الأحمر والساحل الشرقي لإفريقية، بعد أن أخلت القوات المصرية السودان منذ عام ١٨٨٤ على النحو الذي بسطناه في الفصل السابق. وكان ضياع تونس ثم مصر من الدولة العثمانية سبباً في ازدياد ضعف هذه الدولة وهوانها.

مجموعة كوارث تنزل بالدولة في مستهل حكم عبد الحميد :

على هذا النحو، اقترنت بداية حكم السلطان عبد الحميد الثاني بمجموعة من الكوارث، نزلت بالدولة، وحقت الدول الكبرى في معاهدة برلين أطماعها على حساب الدولة العثمانية التي سارت بخطى سريعة نحو نهايتها المحقومة، فالروسيا والنمسا والمجر وبريطانيا أخذت نصيبها من الأسلاب العثمانية في أوروبا وآسيا والحوض الشرقي للبحر المتوسط... أخذت كل منها ما راق لها أن تستولي عليه، كما انفصلت غالبية الكيانات البلقانية السياسية انفصالاً تاماً عن الدولة، وظلت بقية قليلة العدد من الكيانات الأخرى، يربطها رباط واهن من التبعية الاسمية والشكلية بالدولة. واتخذت الدول العظمى مع الشعوب البلقانية المسيحية الخطوة الكبرى في سبيل تصفية الوجود العثماني في أوروبا وطرد العثمانيين منها تنفيذاً لأراء جلاستون، وتطبيقاً لسياسة لورد سالزبوري وزير خارجية بريطانيا، وتماشياً مع خطة قيصر الروسية.

أكذوبة رئيس وزراء بريطانيا :

لقد صرح لورد بيكونزفيلد رئيس الوزارة البريطانية عقب وصوله إلى لندن قادماً من مؤتمر برلين قائلاً إنه عاد يحمل «السلام مع الشرف»^(٢) Peace with honour، وهي عبارة مضللة لا تستقيم مع قرارات مؤتمر برلين؛ فالشرف لا يقيم على تمزيق أوصال دولة إسلامية كبرى وتوزيع معظم ممتلكاتها على الدول الأوروبية الكبرى المسيحية والشعوب البلقانية المسيحية في عصر كان يعد من أسوأ عهود الاستعمار؛ فلا يمكن اعتبار أواخر القرن التاسع

(1) Miller w.; England in Egypt, 1920., p. 28.

(2) يلاحظ أن هذه العبارة بالذات قد وردت على لسان نيكول تشيربان Neville Chamberlain، رئيس الوزارة البريطانية بعد سنتين عاماً، حين عاد إلى لندن بعد توقيع اتفاقية ميونيخ في ليلة ٢٩-٣٠ من شهر=

عشر عصر التحرر . ولم يقف الأمر عند هذه الكوارث .. ففي أعقاب مؤتمر برلين واكبت فرنسا الدول العظمى في سياستها فبسطت حمايتها على تونس عام ١٨٨١ ، وتبعتها بريطانيا في هذا السباق الاستعماري المحرم ، ونجحت في احتلال مصر في السنة التالية .

وجدير بالذكر أن أوروبا لما تحالفت ضد الإمبراطور نابليون الأول ، وهزمته في معركة واترلو (١٨ يونيو - حزيران - عام ١٨١٥) .. لم تفقد فرنسا من ممتلكاتها ما فقدته الدولة العثمانية بعد حرب ١٨٧٧-١٨٧٨ ، ولذلك فإن معاهدة برلين ١٨٧٨ تعد من أسوأ المعاهدات في التاريخ العثماني .

وكان من المنتظر أن تعطى أوروبا الدولة العثمانية فرصة استجماع لانتقاط أنفاسها وإعادة تنظيم شئونها ، ولكن الكوارث لم تنته بإبرام معاهدة برلين ، فقد توالى عليها الأزمات السياسية والحربية ، تثيرها الدول الأوروبية للقضاء على ماتبقى لها من ممتلكات ونفوذ ؛ فقوت الدول الأوروبية دعائم نفوذها ونظام امتيازاتها الأجنبية في الدولة ، وسجلت نمر النفوذ القنصلي . وكان هذا النفوذ بمثابة سرطان استشرى في جسم الدولة ، وعمل على قتل كل حركة إصلاح سياسي أو اقتصادي أو تشريعي أو اجتماعي في الدولة ، وأوغل بها سريعا في مرحلة الاحتضار ، وحرصت الدول الأوروبية العظمى الشعوب البلقانية المسيحية التي ظلت خاضعة للحكم العثماني على تحريك الثورات ، وإشعال الحروب ابتغاء الانفصال عنها تحت ستار الشعار القديم وهو تحرير الشعوب المسيحية من حكم إسلامي مختلف .. وكان معها في الواقع زوال الدولة النهائي .

سبتمبر-أيلول - عام ١٩٢٨ ، واشترك معه في التوقيع عليها هتلر ، وموسوليني ، وبالدوين رئيس وزراء فرنسا وقتذاك . وبمقتضاها ترك تشيكوسلوفاكيا عاجلا لألمانيا أقاليم معينة ، تسكنها أغلبية كبيرة من الألمان ، ويجري في أقاليم أخرى استفتاء تحت إشراف دولي ، كما يعهد إلى لجنة نوابية لتخطيط الحدود بين ألمانيا وتشيكوسلوفاكيا . واتفق الكبار الأربعة على وضع تسوية لمطالب الجبر وروندا من تشيكوسلوفاكيا في خلال ثلاثة شهور . وعاد تشمبرلان إلى لندن وخطب مواطنيه قائلا : «لقد جلبت لكم السلام مع الشرف» ، ولكن ونستون تشرشل الذي كان يقف موقف المعارض لسياسة التهدئة رد عليه قائلا : «لقد كان على بريطانيا وفرنسا أن تفتارا بين الحرب والعار ، ولقد اختارتا العار . ومع ذلك فستقدم الحرب نفسها عليهما» . وأذعن تشيكوسلوفاكيا لهذه التسوية وبعب الجنود الألمان الحدود في أول أكتوبر - تشرين أول - عام ١٩٣٨ ، وصحت نبوءة تشرشل بعد أحد عشر شهرا من اتفاقية ميونيخ ؛ إذ اشتعلت الحرب العالمية الثانية في أول سبتمبر - أيلول - عام ١٩٣٩ .

انظر :

الفصول الثلاثة التي وضعها الأستاذان أحمد نجيب هاشم ، ووديع الضيع في نهاية الجزء الأخير الذي عرياه من كتاب فيشر بعنوان : تاريخ أوروبا في العصر الحديث (١٧٨٩-١٩٥٠) : دار المعارف . القاهرة ؛ ١٩٥٠ وهذه الفصول الثلاثة هي الفصل الثامن والثلاثون والتاسع والأربعون (ص ٦٤١-٦٣٦) ، وقد استقينا المادة العلمية في هذه الحاشية من ص ٦٥٧ .

ن: 5289 تاريخ اسلام: 2/4/2006

THE OTTOMAN EMPIRE

An ISLAMIC MALIGNED STATE

By

Abdel Aziz M. El-Shennawy

Professor of Modern History,

Head of the Department of History,

Faculty of Humanities,

Azhar University, Women's Branch, Cairo.

Volume II

Publisher : Anglo - Egyptian Bookshop, Cairo.

هذا الكتاب

دائمًا ما ينظر إلى التاريخ باعتباره حافظة الوعي الإنساني ، وحاوية نتاج هذا الوعي من سابق وحاضر ومستقبل الأمم والشعوب .. وفي هذه السلسلة ، التي تتكون من أربعة أجزاء متكاملة ، تحكى قصة الدولة العثمانية من منظور أنها دولة إسلامية لم تأخذ حقها من الإنصاف والعدل والرؤية الموضوعية الحيادية .. تأتي محاولة المؤلف الجادة والرائعة في هذا التتبع التاريخي الدقيق ، في طرح كل قضايا هذه الدولة ومتاعبها ونجاحاتها وإخفاقاتها .. تأتي هذه المحاولة من منظور أن التاريخ يفسر الإنسان للإنسان .. تتكامل هذه الأجزاء الأربعة لتشكل دافعًا منطقيًا للقارئ لأن يعيد تشكيل ثوابته ومعارفه التاريخية ، على أساس من البحث والموضوعية ..

السلسلة جديرة بأن يقرأها كل متخصص في الدرس التاريخي ، وكل غير متخصص راغب في أن يعرف تاريخ أمته وعلاقتها بغيرها من الأمم .. لأن ماورد في أجزائها الأربعة ، " في ثلاثة وستين فصلاً كاملة تتجاوز ألفي صفحة " ، هو محاولة رائعة لوضع الأمور في نصابها الصحيح ، تجعلنا أمام تاريخ غير مزيف ، غير مدفوع بهوى شخصي ، غير مدفوع بانحياز مسبق ..

الناشر

